

الجزء الثانى

[تنمى سورة البقرة]

[سورة البقرة (٢): آية ١٤٢]

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

آية واحدة بلا خلاف.

أخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيقول لك فيما بعد السفهاء، و هو جمع سفيه، و هو و الجاهل و الغبى نظائر.

«ما وَلَّاهُمْ» معناه، أى شىء وَلَّاهُمْ. و معنى وَلَّاهُمْ صرفهم عنه، و مثله: قلبه عنه و فتله. «عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا». و القبلة: الجهة التى تستقبل فى الصلاة، و قبلة المسلمين: الكعبة. و السفيه: الخفيف إلى ما لا يجوز له أن نحف إليه، و هى صفة ذم فى الدين. و ضد السفه الحكمة. و اشتقاق لاهم من الولى. و هو حصول الثانى بعد الأول من غير فصل. فالثانى يلى الأول، و الثالث يلى الثانى، و الرابع يلى الثالث ثم هكذا أبداً. و وَلَّى عنه خلاف وَلَّى إليه: مثل قولك، عدل عنه، و عدل إليه، و انصرف، عنه و انصرف إليه. فإذا كان الذى يليه متوجهاً إليه فهو متول إليه و إذا كان متوجهاً إلى خلاف جهته، فهو متول عنه.

و القبلة مثل الجلسة للحال التى يقابل لشيء غيره عليها كما أن الجلسة للتي يجلس عليها. فكان يقال:- فيما حكى - هو لى قبلة، و أنا له قبلة، ثم صار علماً على الجهة التى تستقبل فى الصلاة.

و اختلفوا فى الذين عابوا المسلمين بالانصراف من قبلة بيت المقدس إلى الكعبة على ثلاثة أقوال:

[الأول] فقال ابن عباس، و البراء بن عازب: هم اليهود [الثانى] قال الحسن: هم مشركوا العرب، و إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما حول الكعبة من بيت المقدس، قالوا: يا محمد (ص) رغبت عن قبلة آبائك، ثم رجعت إليها ايضاً، و الله لترجعن إلى دينهم. و الثالث قال السدى: انهم المنافقون، قالوا ذلك استهزاء

ص: ٤

بالإسلام. و اختلفوا فى سبب عيبهم الصرف عن القبلة: فقال قوم: انهم قالوا ذلك على وجه الإنكار للنسخ. و [الثانى] قال ابن عباس: إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد ما وَلَّاك عن قبلتك التى كنت عليها، ارجع اليها تتبعك و تؤمن. و أرادوا بذلك فتنته. الثالث - انه قال ذلك مشركوا العرب ليؤهموا ان الحق ما هم عليه.

و إنما صرفهم الله عن القبلة الاولى لما علم الله تعالى من تغير المصلحة فى ذلك.

وقيل انما فعل ذلك لما قال تعالى «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ»، لأنهم كانوا بمكة، أمروا أن يتوجهوا الى بيت المقدس لتمييزوا من المشركين الذين كانوا بحضرتهم يتوجهون الى الكعبة، فلما انتقل رسول الله (ص) الى المدينة كان اليهود المجاورون للمدينة يتوجهون الى بيت المقدس فنقلوا الى الكعبة لتمييزوا من هؤلاء كما أريد في الاول ان يتمييزوا من أولئك واختار ذلك البلخي والجبائي والرماني.

وقوله تعالى: «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» أمر من الله تعالى لنبيه (ص) ان يقول لهؤلاء الذين عابوا انتقالهم عن بيت المقدس الى الكعبة: المشرق والمغرب ملك لله يتصرف فيهما كيف شاء على ما تقتضيه حكمته . والمشرق والمطلع نظائر، وكذلك المغرب والمغيب نظائر.

وفي الآية دلالة على جواز النسخ لأنه تعالى نقلهم - عن عبادة كانوا عليها - الى إيقاعها على وجه آخر وهذا هو النسخ.

وقوله: «اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» فيه دلالة على أن من له المشرق والمغرب، فله التدبير فيهما، وفي ذلك إسقاط قول من زعم: أن الأرض المقدسة أولى بالتوجه اليها . لأنها مواطن الأنبياء - وقد شرفها الله وعظمها - فلا وجه للتولية عنها - فرد الله عليهم بأن المواطن كلها لله يشرف منها ما يشاء في كل زمان على ما يعلمه من مصالح العباد . وقال ابن عباس، والبراء بن عازب: انه كانت الصلاة الى بيت المقدس الى بعد مقدم النبي (ص) بسبعة عشر شهراً. وقال انس بن مالك: انما كان ذلك تسعة أشهر أو عشرة أشهر. وقال معاذ بن جبل كان ثلاثة عشر شهراً. وقال

ص: ٥

قتادة أنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم النبي (ص) وصلى النبي (ص) بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً ثم وجهه الله الى الكعبة . ولا خلاف ان التوجه الى بيت المقدس قبل النسخ كان فرضاً واجباً . ثم اختلفوا فقال الربيع : كان ذلك على وجه التخيير، خير الله نبيه بين ان يتوجه الى بيت المقدس وبين غيرها.

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك فرضاً معيناً - وهو الأقوى -، لقوله:

«وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا» فبين انه جعلها قبله، و ظاهر ذلك انه معين، لأنه لا دليل على التخيير، على انه لو ثبت انه كان مخيراً لما خرج من ان يكون فرضاً، كما ان الغرض ان يصلى الصلاة في الوقت ثم هو مخير بين أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» معنا: يهديهم الى الدين المستقيم الذي يؤديهم الى الجنة، فلذلك سماه صراطاً كما يؤدى الطريق الى المقصد.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٣]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير و نافع و ابن عامر و حفص عن عاصم «لرؤوف» على وزن لرعوف. الباقيون «لرؤف» على وزن (فعل).

ص: ٦

المعنى:

أخبر الله تعالى أنه جعل أمة نبيه محمد (ص) وسطاً: أى سماها بذلك و حكم لها به. و الوسط: العدل. و قيل الخيار، و معناهما واحد: و قيل: انه مأخوذ من المكان الذى تعدل المسافة منه الى أطرافه . و قيل: بل أخذ الوسط من التوسط بين المقصر و المغالى، فالحق معه «١». و قال مؤرج: أى وسط بين الناس و بين أنبيائهم و قال زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا نزلت احدى الليالى بمعظم «2»

و روى عن النبي (ص) انه قال: أمة وسطاً: عدلاً.

و هو قول مجاهد، و قتادة، و الربيع، و ابن عباس، و أكثر المفسرين . و قال صاحب العين: الوسط من الناس و غيرهم، و من كل شىء أعدل، و أفضله و قيل الواسط و الوسط بمعنى واحد، كما قيل يابس و ييس بمعنى واحد . قال تعالى «فِي الْبَحْرِ يَبَسًا» «٣» و الوسط - بتسكين السين - الموضع. و الوسط - بالتحريك - لما بين طرفى كل شىء، و يسمى واسط الرحل بين القادمة و الاخرة، و كذلك واسطة القلادة. و اصل الباب الوسط: العدل.

و قولهم فلان من أوسطهم نسباً: أى تكلله الشرف من نواحيه.

الاعراب:

و اللام الاولى فى قوله: «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» لام كى، كأنه قال كى تكونوا، و أصلها لام الاضافة . و اللام فى قوله: «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً» لام تأكيد، و هى تلزم أن المخففة من الثقيلة، لئلا تلبس بأن التى بمعنى ما، كقوله تعالى:

(١) الضمير راجع الى الوسط اى الحق مع الوسط لأنه ليس بالمقصر و لا بالمغالى.

(٢) ديوانه ٢: ٢٧ و روايته.

لحي حلال يعصم الناس أمرهم إذا طرقت احدى الليالى بمعظم

و فى تفسير الطبرى و بعض المصادر الاخرى كما هو مثبت فى المتن.

(٣) سورة طه: آية ٧٧.

ص: ٧

«إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ» (١) و هى لام الابتداء أخرت الى الخبر فى باب (ان) خاصة. و اما اللام الثالثة فى قوله : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» فَلَام الجحد، و أصلها لام الاضافة، و الفعل نصب بإضمار (أن)، و لا يظهر بعدها (ان)، لان التأويل: ما كان الله مضيعاً إيمانكم، فلما حمل معناه على التأويل، حمل، لفظه ايضاً على التأويل من غير تصريح بإظهار (ان).

المعنى:

فان قيل: باى شىء يشهدون على الناس، قلنا فوع ثلاثة اقوال : أحدها - ليشهدوا على الناس بأعمالهم التى خالفوا فيها الحق فى الدنيا و فى الآخرة كما قال : «وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ» (٢) و قال «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٣) قال ابن زيد: الاشهاد أربعة الملائكة، و الأنبياء، و أمة محمد (ص) و الجوارح. كما قال: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٤).

الثانى - يشهدون الأنبياء على أممهم المكذبين بأنهم بلغوا. و جاز ذلك لاعلام النبى (ص) إياهم بذلك.

الثالث - «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» أى حجة عليهم فيما يشهدون، كما أن النبى (ص) شهيد بمعنى حجة فى كلما اخبر به . و النبى (ص) وحده كذلك . فأما الاممة فجماعتها حجة دون كل واحد منها . و استدلل البلخى، و الجبائى، و الرمانى، و ابن الأخشاد، و كثير من الفقهاء، و غيرهم بهذه الآية على أن الإجماع حجة من حيث ان الله وصفهم بأنهم عدول، فإذا عدلهم الله تعالى، لم يجوز أن تكون شهادتهم مردودة - و قد بينا فى اصول الفقه أنه لا دلالة فيها على ان الإجماع حجة - و جملته ان الله تعالى وصفهم بأنهم عدول، و بأنهم شهداء و ذلك يقتضى ان يكون كل واحد عدلا،

(١) سورة الملك: آية ٢٠.

(٢) سورة الزمر: آية ٦٩.

(٣) سورة المؤمن: آية ٥١.

(٤) سورة النور: آية ٢٤.

ص: ٨

و شاهدًا، لأن شهداء جمع شهيد، و قد علمنا أن كل واحد من هذه الامة ليس بهذه الصفة، فلم يجوز أن يكون المراد ما قالوه، على أن الامة إن أريد بها جميع الامة، فقد بينا ان فيها كثيراً ممن يحكم بفسقه بل بكفره، فلا يجوز حملها على الجميع.

و ان خصوها بالمؤمنين العدول، لنا أن نخصها بجماعة، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: و هم الأئمة المعصومون من آل الرسول (ص) على أننا لو سلمنا ما قالوه من كونهم عدولا، ينبغي أن نجنبهم ما يقدح في عدالتهم و هي الكبائر، فأما الصغائر التي تقع مكفرة، فلا تقدح في العدالة، فلا ينبغي أن نمنع منها، و متى جوزنا عليهم الصغائر لم يمكننا أن نحتج بإجماعهم، لأنه لا شيء أجمعوا عليه إلا و يجوز أن يكون صغيراً فلا يقدح في عدالتهم، و لا يجب الاقتداء بهم فيه لكونه قبيحاً . و في ذلك بطلان الاحتجاج بإجماعهم . و كيف يجنبون الصغائر، و حال شهادتهم ليس بأعظم من شهادة النبي (ص) و مع هذا يجوزون عليه الصغائر فهلا جاز مثل ذلك عليهم، و لا تقدح في عدالتهم - كما لم تقدح في عدالة النبي (ص)؟

قوله: «وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً». قيل في معناه قولان:

أحدهما - عليكم شهيداً بما يكون من أعمالكم. و قيل: يكون حجة عليكم.

و الثاني - يكون لكم شهيداً بأنكم قد صدقتم - يوم القيامة - فيما تشهدون به.

و جعلوا (على) بمعنى اللام كما قال: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى الرَّجَبِ» «١» اى للنصب. و التشبيه في قوله «و كذلك» وقع بما دل عليه الكلام في الآية التي قبلها: و هي قوله «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فتقديره أنعمنا عليكم بالعدالة كما أنعمنا عليكم بالهداية و العامل في الكاف جعلنا، كأنه قيل: «من يشأ الى صراط مستقيم» فقد أنعمنا عليكم بذلك و جعلناكم أمة وسطاً فأنعمنا كذلك الانعام. إلا أن (جعلنا) يدل على أنعمنا في هذا الكلام، فلم نحتج الى حذفه معه في قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا» اى ما صرفناك عن القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم، و حذف لدلالة

(١) سورة المائدة: آية ٤

الكلام عليه. و قوله «إِلَّا لِنَعْلَمَ» قيل فى معناه ثلاثة اقوال:

أولها «إِلَّا لِنَعْلَمَ» اى لنعلم حزبنا من النبى و المؤمنين، كما يقول الملك فعلنا و فتحنا بمعنى فعل أولياؤنا و من ذلك قيل : فتح عمر السواد وجبا الخراج و إن لم يتول ذلك بنفسه.

الثانى - إلا ليحصل المعلوم موجوداً، فقل على هذا: إلا لنعلم، لأنه قبل وجود المعلوم لا يصح وصفه بأنه عالم بوجوده.

و الثالث - إلا لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الذى كأنه لا يعلم أن العدل يوجب ذلك، من حيث لو عاملهم بما يعلم انه يكون منهم كان ظلماً لهم . و يظهر ذلك قول القائل لمن أنكر أن تكون النار تحرق الحطب : فليحضر النار و الحطب لنعلم أ تحرقه أم لا، على جهة الانصاف فى الخطاب، لا على جهة الشك فى الإحراق . و هذا الوجه اختاره ابن الأخشاد، و الرماني . و كان على بن الحسين المرتضى الموسوى يقول فى مثل ذلك وجهاً مليحاً : و هو ان قال: قوله لنعلم يقتضى حقيقة ان يعلم هو و غيره و لا يحصل علمه مع علم غيره إلا بعد حصول الاتباع، فاما قبل حصوله فإنما يكون هو تعالى العالم وحده، فصح حينئذ ظاهر الاية، و هذا وجه رابع، و فيه قول خامس - و هو ان يعلموا انا نعلم، لأنه كان منهم من يعتقد ان الله لا يعلم الشئ ء حتى يكون على ان قوله : «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» لا يدل على حدوث العلم، لأنه كان قبل ذلك عالماً بان الاتباع سيوجد، او لا يوجد، فان وجد كان عالماً بوجوده و ان لم يتجدد له صفة . و انما يتجدد المعلوم، لان العلم بان الشئ ء سيوجد علم بوجوده إذا وجد.

و انما يتغير عليه الاسم، و يجرى ذلك مجرى تغير الاسم على زمان بعينه، بان يوصف بأنه غد قبل حصوله، فإذا حصل قيل انه اليوم، فإذا تقضى وصف بانه أمس، فتغير عليه الاسم و المعلوم لم يتغير.

و قوله تعالى: «مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - ان قوماً ارتدوا عن الإسلام لما حولت القبلة جهلاً منهم بما فيها من وجه الحكمة.

و الآخر ان المراد به كل مقيم على كفره، لان جهة الاستقامة إقبال، و خلافها ادبار . لذلك وصف الكافر بأنه أدبر و استكبر . و قال: «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» «١» اى عن الحق.

و العقب مؤخر القدم قال ثعلب: و نرد على أعقابنا: أى نعقب بالشر بعد الخير و كذلك رجع على عقبه . و سميت العقوبة عقوبة لأنها تتلو الذنب . و العقبة كرة بعد كرة فى الركوب و المشى . و المعقبات: ملائكة الليل تعاقب ملائكة النهار . و عقب الإنسان نسله . و العقاب معروف و العقب أصلب من العصاب و امتن، يعقب به الرماح.

و التعقيب: الرجوع الى امر تريده. و منه قوله تعالى: «وَلَمْ يُعَقِّبْ» ﴿٢﴾ و منه يقال عقب الليل النهار يعقبه. و أعقب رأى خبراً، و أعقب عزه ذلاً أى أبدل به. و العقبة طريق فى الجبل. و عرو العقاب: الرأية لشيها بعقاب الطائر. و اليعقوب ذكر القبيح تشبه به الخيل فى السرعة. لا معقب لحكمه أى لا راد لقضائه. و المعقب: الذى يتبع الإنسان فى طلب حق. و اصل الباب التلو.

المعنى:

و الضمير فى قوله «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً» يحتتمل رجوعه الى ثلاثة أشياء : القبلة على قول ابن عامر . و التحويلة على قول ابن عباس، و مجاهد، و قتادة. و هو الأقوى، لان القوم ثقل عليهم التحويل لا نفس القبلة. و على قول ابن زيد الصلاة و قوله:

«لَكَبِيرَةً» قال الحسن: معناه ثقيلة يعنى التحويلة الى بيت المقدس، لان العرب لم تكن قبله أحب اليهم من الكعبة . و قيل معناه عظيمة على من لم يعرف ما فيها من وجوه الحكمة . فاما الذين هدى الله، لان المعرفة بما فيها من المصلحة تسهل المشقة فيصير بمنزلة ما لا يعتد بها و لذلك حسن الاستثناء بما يخرجهم منها.

(١) سورة الليل: آية ١٥-١٦

(٢) سورة النمل آية ١٠ و سورة القصص آتى ٣١

ص: ١١

و قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ» قيل فى معناه اقوال:

أولها- قال ابن عباس و قتادة و الربيع : لما حولت القبلة قال ناس : كيف بأعمالنا التى كنا نعمل فى قبلتنا الاولى . و قيل: كيف من مات من إخواننا قبل ذلك، فانزل الله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ).

الثانى - معناه قال الحسن: و انه لما ذكر ما عليهم من المشقة فى التحويلة اتبعه بذكر ما لهم عنده من المثوبة و انه لا يضيع ما عملوه من الكلفة فيه. لان التذكير به يبعث على ملازمة الحق و الرضا به.

الثالث - قال البلخى: انه لما ذكر انعامه عليهم بالتولية الى الكعبة ذكر سبب ذلك الذى استحقوه به و هو ايمانهم بما عملوه أولاً فقال: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ» الذى استحققتهم به تبليغ محبتكم فى التوجه الى الكعبة.

اللغة:

و الاضاعة مصدر أضع يضع . و ضاع الشيء يضع ضياعاً، وضعه تضييعاً . قال صاحب العين: ضيعة الرجل حرفته . يقال: ما ضيعتكم اى ما حرفتكم، هذا فى الضياع و ضاع عمل فلان ضيعة، و ضياعاً . و تركهم بضيعة و مضيعة . و الضيعة و الضياع معروف و اصل الضياع الهلاك.

و قوله: (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ) ان قيل: ما الذى اقتضى ذكر هذه الصفة، قلنا الرؤوف بعباده الرحيم بهم لا يضع عنده عمل عامل منهم، فدل بالرافة و الرحمة على التوفير عليهم فيما استحقوه دون التضييع لشيء منه . و انما قدمت الرافاة على الرحمة، لان الرافاة أشد مبالغة من الرحمة ليجرى على طريقة التقديم - بما هو اعرف - مجرى اسماء الاعلام ثم إتباعه بما هو دون منه ليكون مجموع ذلك تعريفاً أبلغ منه، لو انفرد كل واحد عن الآخر كما هو فى الرحمن الرحيم فرءوف على وزن فعول، لغة اهل الحجاز. على وزن فعل، لغة غيرهم قال الانصارى «١»:

(١) هو كعب بن مالك الانصارى.

ص: ١٢

نطيع نبينا لنطيع رباً هو الرحمن كان بنا رءوفاً¹»

و قال حريز: يعنى منعمين حقاً، كفعل الوالد الرؤوف الرحيم. و الرافاة: الرحمة تقول راف يرأف رافاةً.

المعنى:

و استدل من قال الصلاة: الايمان بهذه الآية، فقالوا: سمي الله الصلوة ايماناً - على تاويل ابن عباس، و قتادة، و السدى و الربيع و داود بن أبى عاصم و ابن زيد و سعيد بن المنذر و عمرو بن عبيد و واصل و جميع المعتزلة . و من خالفهم من المرجئة لا يسلم هذا التأويل و يقول: الايمان على ظاهره و هو التصديق و لا ينزل ذلك بقول من ليس قوله حجة، لأنهم ليسوا جميع المفسرين بل بعضهم و لا يكون ذلك حجة.

و استدل الجبائى بهذه الآية على ان الشاهد هو الحاضر دون مات، بان قال: لو كان الرسول شاهداً على من مضى قبله أو من يأتى بعده و من هو حاضر معه لم يكن لقوله (وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) معنى. و يؤكد ذلك قوله (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ) «٢» و قال غيره: قد يجوز ان يشهد العالم بما علم و ان لم يحضره - و هو الأقوى - و هذه الآية فيها دلالة على جواز النسخ فى الشريعة بل على وقوعه، لأنه قال (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا) فأخبر ان الجاعل لتلك القبلة كان هو تعالى، و انه هو الذى نقله عنها و ذلك هو النسخ، فان قيل: كيف أضاف الايمان الى الأحياء و هم كانوا قالوا: كيف بمن مضى

من إخواننا قلنا يجوز ذلك على التغليب، لان من عادتهم ان يغلبوا المخاطب على الغائب كما يغلبون المذكر على المؤنث تنبيهاً على الأكمل، فيقولون: فعلنا بكما وبلغناكما، و ان كان أحدهما حاضراً و الآخر غائباً، فان قيل كيف جاز على اصحاب النبي صلى الله و آله الشك فيمن مضى من إخوانهم فلم يدروا انهم كانوا على حق في ص لا تهم الى بيت المقدس؟ قيل في ذلك : كيف إخواننا لو أدركوا الفضل بالتوجه، و انهم أحبوا لهم ما أحبوا لأنفسهم . و يكون قال ذلك منافق بما فيه الرد على المخالفين المنافقين.

(١) اللسان «رأف» و روايته «و نطيع» بدل «لنطيع» في المطبوعة «رؤف» بدل «رؤوفا».

(٢) سورة المائدة: آية ١٢٠.

ص: ١٣

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٤]

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ شَطْرُهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر، و حمزة، و الكسائي، و ابو جعفر، و روح «عما تعملون» بالتاء. الباقرن بالياء.

النزول:

و قال قوم ان هذه الآية نزلت قبل التي تقدمتها: و هي قوله: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ)

المعنى:

إن قيل لم قلب النبي (ص) وجهه في السماء، قلنا عنه جوابان:

أحدهما - انه كان وعد بالتحويل عن بيت المقدس، و كان يفعل ذلك انتظاراً و توقعاً لما وعد به.

و الثاني - انه كان يحبه محبة الطباع، و لم يكن يدعو به حتى أدركه فيه، لان الأنبياء لا يدعون إلا بما أذن لهم فيه لئلا تكون المصلحة في خلاف ما سألوه فيكون في ردهم تنفر عن قبول قولهم . و هذا الجواب يروى عن ابن عباس، و قتادة.

و قيل فى سبب محبة التوجه الى الكعبة ثلاثة اقوال:

أولها- قال مجاهد: انه أحب ذلك، لأنها كانت قبله ابراهيم - حكاة الزجاج - انها أحب ذلك استدعاء العرب الى الايمان.

ص: ١٤

اللغة:

و قوله: (قَدْ نَرَى) فالرؤية هى ادراك الشيء من الوجه الذى يتبين بالبصر.

و قوله: (تَقَلَّبَ وَجْهَكَ) التقلب و التحول و التصرف نظائر : و هو التحرك فى الجهات و قوله : (تَرْضَاهَا) تحبها. و الرضاء ضد السخط: و هو ارادة الثواب. و السخط ارادة الانتقام. و قوله: (شَطْرَ الْمَسْجِدِ) اى نحوه، و تلقاه بلا خلاف بين اهل اللغة. و عليه المفسرون كابن عباس، و مجاهد، و أبى العالىة، و قتادة، و الربيع، و ابن زيد، و غيرهم. قال الشاعر:

و قد أظلكم من شطر ثغركم هول له ظلم يغشاكم قطعا

اى من نحو ثغركم و انشد ابن عبيدة الهذلى «١»:

ان العسير بها داء مخامرها فشطرها نظر العينين محسور«2»

و قال ابن احمر «٣»:

تعدو بنا شطر جمع و هى عاقدة قد كارب العقد من ايفادها الحقبا«4»

و قال الجبائى : أراد بالشطر النصف، كأنه قال: وجهك نصف المسجد، لأن شطر الشيء: نصفه، فأمره ان يولى وجهه نحو نصف المسجد حتى يكون مقابل الكعبة، و هذا فاسد، لأنه خلاف أقوال المفسرين، و لان اللفظ إذا كان مشتركاً بين النصف، و بين النحو ينبغى ألا يحمل على أحدهما إلا بدليل . و على ما قلناه اجماع المفسرين، قال الزجاج : يقال: هؤلاء القوم شاطرونا دورهم، تتصل بدورنا كما

(١) هو قيس بن العيزارة الهذلي. و العيزارة أمه و اسمه قيس بن خويلد بن كاهل.

(٢) ديوانه: ٢٤١ و التكمال لابن الأثير ١: ١٢، ٢: ٣ و اللسان «شطر» في المطبوعة «العشير» بدل «العسير» و «تخامرها» بدل «مخامرها» و «محشورا» بدا «محسور»

(٣) في المطبوعة «الراحم» و هو تحريف.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ١١٩، و الروض الانف ٢: ٣٨ و الخزانة ٣: ٣٨، و مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٦٠ في المطبوعة «كادت العقد من العادها» بدل «كارب العقد من ايفادها» و هو تحريف فاحش مقوله: جمع هي اسم مكان، و يسمى المزدلفة عاقدة قد عكف ذنبها بين فخذيها. كارب: أوشك، و كاد، و قارب، و دنا. اوفدت الناقة: أسرع. الحقب: الحزام.

ص: ١٥

يقال هؤلاء يناحوننا أى نحن نحوهم و هم نحونا. و قال صاحب العين شطر كل شىء نصفه و شطره: قصده و نحوه، و منه المثل احلب حلباً لك شطره أى نصفه. و شطرت الشىء جعلته نصفين، و قد شطرت الشاة شطاراً: و هو ان يكون احد طستها اكثر من الآخر و ان حلبا جميعاً، و منزل شطر: أى بعيد، و شطر فلان على اهله: أى تركهم مراغماً أو مخالفاً. و رجل شاطر. و قد شطر شطورة، و شطوراً و شطارة: و هو أعيا اهله خبثاً. و أصل الشطر النصف.

المعنى:

و قال السدى المعنى بقوله (وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) هم اليهود. و قال غيره:

هم أخبار اليهود، و علماء النصرارى غير انهم جماعة قليلة يجوز على مثلهم اظهار خلاف ما يظنون، لان الجمع الكثير لا يتأتى ذلك منهم لما يرجع الى العادة، و انه لم يجز بذلك مع اختلاف الدواعى، و انما يجوز العناد على النفر القليل و قد مضى فيما تقدم نظير ذلك، و ان على ما نذه ب اليه فى الموافاة لا يمكن أن يكونوا عارفين بذلك إلا أن يكون نظيرهم لا يوجه وجوب المعرفة، فإذا حصلت المعرفة عند ذلك فلا يستحقون عليه الثواب لان النبى (ص) يمنع منه ان يكونوا مستحقين للثواب الدائم و يكفرون فيستحقون العقاب الدائم و الإحباط باطل، فيؤدى ذلك الى اجتماع الاستحقاقين الدائمين و ذلك خلاف الإجماع.

و هذه الآية ناسخة لفرض التوجه الى بيت المقدس قبل ذلك . و روى عن ابن عباس انه قال : أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة. و قال قتادة:

نسخت هذه الآية ما قبلها. و قال جعفر بن مبشر هذا مما نسخ من السنة بالقرآن - و هذا هو الأقوى -، لأنه ليس فى القرآن مما يدل على تعبدته بالتوجه الى بيت المقدس . و من قال : انها نسخت قوله تعالى : (فَأَيُّمَّا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) قلنا له هذه ليست

منسوخة بل هي مختصة بالنوافل - في حال السفر - فأما من قال: يجب على الناس ان يتوجهوا الى الميزاب الذي على الكعبة و يقصدوه، فقلوه باطل، لأنه خلاف

ص: ١٦

ظاهر القرآن. قال ابن عباس: البيت كله قبله - وهو قول جميع المفسرين. و روى بعض اصحاب الحديث: ان البيت هو القبلة و ان قبلته بابه. و هذا يجوز. قال فاما ان يجب على جميع الخلق التوجه اليه، فهو خلاف الإجماع.

و قوله: (حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)

روى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع) ان ذلك في الفرض، و قوله: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) في النافلة.

و روى عن ابن عباس و أبي جعفر محمد بن علي : انه لما حول الى الكعبة اتى رجل من عبد الأشهل من الأنصار و هم قيام يصلون الظهر و قد صلوا ركعتين نحو بيت المقدس، فقال : ان الله قد صرف رسوله نحو البيت الحرام، فصرفوا وجوههم نحو البيت الحرام في بقية صلاتهم.

الاعراب:

و قوله: (وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ) موضع كنتم جزم بالشرط، و تقديره و حيث ما تكونوا، و الفاء جواب و لو لا (ما) لم يجز الجزاء (بحيث) لخروجها عن نظائرها، بانه لا يستفهم بها، و لان الاضافة لها كالصلة لغيرها، و ليست بصلة كصلة أخواتها . و الهاء في قوله تعالى:

(وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ) على قول الجبائي يعود الى التحويل. و قال الحسن: هي عائدة الى التوجه الى الكعبة، لأنها قبله ابراهيم، و الأنبياء قبله.

اللغة:

و «الحق» وضع الشيء في موضعه إذا لم يكن فيه وجه من وجوه القبح.

و الغفلة: هي السهو عن بعض الأشياء خاصة و إذا كان السهو عاماً فهو فوق الغفلة و هو السهو العام، لأن النائم لا يقال: انه غفل عن الشيء الا مجاز.

المعنى:

و قال عطا في قوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) قال: الحرم

كله مسجد. وهذا مثل قول أصحابنا أن الحرم قبله من كان نائياً عن الحرم من أهل الآفاق . و اختلف الناس فى صلاة النبي (ص) الى بيت المقدس فقال قوم: كان يصلى بمكة الى الكعبة، فلما صار بالمدينة أمر بالتوجه الى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثم أعيد الى الكعبة . و قال قوم: كان يصلى بمكة الى بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها و لا يصلى فى غير المكان الذى يمكن هذا فيه. و قال قوم: بل كان يصلى بمكة، و بعد قدومه المدينة سبعة عشر شهراً الى بيت المقدس، و لم يكن عليه ان يجعل الكعبة بينه وبينها، ثم أمره الله بالتوجه الى الكعبة . و من صلى الى غير القبلة لشبهة دخلت عليه، ثم تبينه، فان كان الوقت باقياً أعاد الصلاة. و ان خرج الوقت، فان كان صلى يميناً و شمالاً، فلا إعادة عليه، و إن صلى الى استدبارها أعاد. و فيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه فى الخلاف.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٥]

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

اختلف النحويون فى أن جواب - لئن - لم كان جواب (لو) فقال الأخفش، و من تبعه أجيب بجواب - لو، لان الماضى وليها كما يلى لو فاجيب بجواب (لو) و دخلت كل واحدة منهما على صاحبها قال الله تعالى: (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) «١» فجرى مجرى و لو أرسلنا و قال (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) «٢» على جواب لئن. و قال سيبويه و جميع أصحابه: ان معنى

(١) سورة الروم آية ٥١

(٢) سورة البقرة آية ١٠٣

(لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) ليظلم و معنى (لئن) غير معنى (لو) فى قول الجماعة. و إن قالوا إن الجواب متفق لأنهم لا يدفعون أن معنى (لئن) ما يستقبل و معنى (لو): ما مضى و حقيقة معنى (لو) أنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره. كقولك لو أتيتنى لأكرمتك أى لم تأتني فلم أكرمك، فامتنع الإكرام، لامتناع الإتيان. و معنى (إن) (و لئن) انما يقع بهما الشيء لوقوع غيره تقول: إن تأتني أكرمك، فالإكرام يقع بوقوع الإتيان و قال بعضهم : إن كل واحدة منهما على موضعها، و انما لحق فى الجواب هذا التداخل،

لدلالة اللام على معنى القسم، فجاء الجواب بجواب القسم، فاغنى عن ج واب الجزاء لدلالته عليه، لان معنى لظلوا ليظلموا و هذا هو معنى قول سيبويه . و يجوز أن تقول: إن أتيتني لم أجفك، و لا يجوز أن تقول: إن أتيتني ما حفوتك، لان (ما) منفصلة (و لم) كجزء من الفعل. ألا ترى أنه يجوز ان تقول: زيدا لم أضرب، و لا يجوز زيدا ما ضربت.

و انما يجاب الجزاء بالفعل أو الفاء، فإذا تقدم لام القسم جاز، فقلت لئن أتيتني ما جفوتك.

المعنى:

فان قيل: كيف قال (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) و قد آمن منهم خلق؟ قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما - قال الحسن: إن المعنى أن جميعهم لا يؤمن، و هو اختيار الجبائي .

و الثانى - أن ذلك مخصوص لمن كان معانداً من أهل الكتاب دون جميعهم الذين وصفهم الله، فقال «يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» اختاره البلخي و الزجاج. و هذه الآية دالة على فساد قول من قال: لا يكون الوعيد بشرط، و على فساد قول من قال بالموافاة، و إن من علم الله أنه يؤمن لا يستحق العقاب أصلاً، لأن الله تعالى علق الوعيد بشرط يوجب أن يكون متى تحصل الشرط تحصل استحقاق العقاب، و فيها دليل على فساد قول من قال: إن الوعيد لا يقع لمن علم أنه لا يعصى، لأن الله تعالى علم من حال الرسول أنه لا يتبع أهواءهم و مع هذا يوعده إن اتبع أهواءهم. و فى الآية دلالة على

ص: ١٩

بطلان قول من قال: إن فى المقدور لطفاً، لو فعل الله بالكافر لآمن لا محالة، من قبل أنه قيل فى قوله (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) قولان:

أحدهما - أن المعاند لا ينفعه الدلالة لأنه عارف و الآخر أنه لا لطف لهم فتلتسمه ليؤمنوا، و على القولين فيه دلالة على فساد قول أصحاب اللطف، لان مخرجه مخرج التنصل من التخليف عنهم ما يؤمنون عنده طوعاً، فلو قال قائل: و ما فى أن الآية لا ينفعهم فى الايمان لطف ينفعهم فيه لكان لا يسقط سؤاله إلا بأن يقال: لا لطف لهم كما لا آية تنفعهم و قوله: (وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ) قيل فى معناه ثلاثة أقوال:

أحدهما - (لَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ) فى المداراة لهم حرصاً على أن يؤمنوا (إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) لنفسك مع اعلامنا إياك: (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ). هذا قول أبى على الجبائي.

الثانى - الدلالة على أن الوعيد يجب باتباع أهوائهم فيما دعوا اليه من قبلتهم، و أنه لا ينفع مع ذلك عمل سلف، لأنه ارتداد. و الخطاب للنبي (ص) و المراد به كل من كان بتلك الصفة . كما قال: (لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) «١» و هذا قول الحسن، و الزجاج.

الثالث - ان معناه الدلالة على فساد مذاهبهم، و تبكييتهم بها . كما تقول: لئن قيل عنك أنه لخاسر تريد به التبكييت على فساد رأيه، و التبعيد من قبوله.

و قوله: (وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ) قيل فى معناه أربعة اقوال:

أولها - أنه لما قال : (وَلَيْنُ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ) على وجه المقابلة كما تقول: ما هم بتاركى انكار الحق و ما أنت بتارك الاعتراف به، فيكون الذى جرّ الكلام التقابل للكلام الاول، و ذلك حسن م ن كلام البلغاء.

(١) سورة الزمر: آية ٦٥.

ص: ٢٠

الثانى - أن يكون المراد أنه ليس يمكنك استصلاحهم باتباع قبلتهم لاختلاف وجهتهم، لان النصارى يتوجهون الى المشرق، و اليهود الى بيت المقدس، فبين الله تعالى: أن رضا الفريقين محال.

الثالث - أن يكون المراد حسم طمع أهل الكتاب من اليهود إذ كانوا طمعوا فى ذلك و ظنوا انه يرجع الى الصلاة الى بيت المقدس، و ماجوا فى ذكره.

الرابع - انه لما كان النسخ مجزأ قبل نزول هذه الآية، فأُنزل الله تعالى الآية، ليرتفع ذلك التجوز.

و قوله: (وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةٍ بَعْضٍ) قيل فى معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن، و السدى، و ابن زيد، و الجبائى: أنه لا يصير النصارى كلهم يهوداً، و لا اليهود كلهم نصارى أبداً، كما لا يتبع جميعهم الإسلام. و هذا من الاخبار بالغيب.

و قال غيرهم: معناه إسقاط الاعتلال بلّنه مخالفة لأهل الكتاب الذين ورثوا ذلك عن أنبياء الله بامرهم إياهم به، فكلما جاز أن يخالف بين وجهتهم للاستصلاح جاز ان يخالف بوجهة ثالثة للاستصلاح فى بعض الازمان.

و قد بينا حد الظلم فيما تقدم، و اعترضنا قول من قال : هو الضرر و القبيح الذى يستحق به الذم من حيث أن ذلك ينقض بفعل الساهى، و النائم، و الطفل، و المجنون - إذا كان بصفة الظلم - فانه يكون قبيحاً و ان لم يستحقوا به ذماً . و من خالف فى ذلك كان الكلام عليه فى موضع آخر. على ان المخالف فى ذلك ناقض، فانه قال: ان الكذب يقع من الصبى و يكون قبيحاً. و هذا إذا جاز. هلا جاز ان يقع منه الظلم؟

فان قال: لان العقل للإنسان البالغ، يزجر الصبى عن ذلك بالتأديب. قلنا مثل ذلك فى الظلم سواء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٦]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

ص: ٢١

آية بلا خلاف

المعنى:

أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم يعرفون النبي (ص) كما يعرفون أبناءهم، وأن جماعة منهم يكتُمون الحق مع علمهم بأنه حق. وقيل في الحق الذى كتموه قولان:

أحدهما - قال مجاهد: كتموا محمداً (ص) و نبوته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل.

و الثانى - قال الربيع: انهم كتموا أمر القبلة. وقوله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) يحتمل أمرين:

أحدهما - يعلمون صحة ما كتموه. و الثانى - يعلمون ما لمن دفع الحق من العقاب و الدم.

و (الهاء) فى قوله: (يعرفونه) عائدة - فى قول ابن عباس، و قتادة، و الربيع - على أن أمر القبلة حق . و قال الزجاج هى عائدة على أنهم يعرفون النبي (ص) و صحة أمره، و ثبوت نبوته، و انما قال : (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ) و فى أول الآية قال : (يَعْرِفُونَهُ) على العموم، لان أهل الكتاب منهم من أسلم و أقر بما يعرف فلم يدخل فى جملة الكاتمين . كعبد الله بن سلام، و كعب الأحبار، و غيرهما ممن دخل فى الإسلام.

و العلم و المعرفة واحد . و حده ما اقتضى سكون النفس . و إن فصلت، قلت : هو الاعتقاد للشيء على ما هو به مع سكون النفس. و فصل الرمانى بين العلم و المعرفة، بأن قال : المعرفة هى التى يتبين بها الشيء من غيره على جهة التفصيل . و العلم قد يتميز به الشيء على طريق الجملة دون التفصيل كعلمك بان زيدا فى جملة العشرة. و إن لم تعرفه بعينه و إن فصلت بين الجملة التى هو فيها، و الجملة التى ليس هو فيها . و هذا غير صحيح

ص: ٢٢

لان المعرفة أيضاً قد يتميز بها الشيء على طريق الجملة، فلا فرق بينهما. فان قيل لم قال:

«يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» إنهم أبناءهم فى الحقيقة، و يعرفون أن محمداً (ص) هو النبى المبشر به فى الحقيقة؟ ولنا التشبيه وقع بين المعرفة بالابن فى الحكم: و هى معرفة تميزه بها من غيره، و بين المعرفة بالنبى المبشر به فى الحقيقة، فوقع التشبيه بين معرفتين. إحداهما أظهر من الاخرى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٧]

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

«الحق» مرتفع بأنه خبر ابتداء محذوف و تقدير ذاك الحق من ربك أو هو الحق من ربك . و مثله مررت برجل كريم زيد: اى هو زيد، و لو نصب كان جائزاً فى العربية على تقدير اعلم الحق من ربك.

المعنى:

و قوله: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» معناه من الشاكين ذهب اليه ابن زيد، و الربيع، و غيرهما من المفسرين . و الامتراء الاستخراج. و قيل: الاستدرار. فكأنه قال: فلا تكن من الشاكين فيما يلزمك استخراج الحق فيه. قال الأعشى:

تدرّ على اسوق الممتري
ن ركضاً إذا ما السراب ارجحن¹»

يعنى الشاكين فى درورها، لطول سيرها. و قيل: المستخرجين ما عندها. قال صاحب العين: المرى مسحك ضرع الناقة. تمر بها بيدك لكى تسكن، للحلب، و الريح تمرى السحاب مرياً. و المرية من ذلك. و المرية الشك. و منه الامتراء،

(١) ديوانه: ٢٣ رقم القصيدة: ٢، و اللسان «رجحن» تدر- بضم الدال و تشديد الراء - تجرى بسرعة. الممترين: الذين يغمزون خيلهم بساقهم، ارجحن السراب: ارتفع فى المطبوعة «و كفاً» بدل «ركضاً» و «السحاب» بدل «السراب».

ص: ٢٣

و التمارى، و المماراة، و المراء . و أصل الباب الاستدرار . و يقال: بالشكر تمترى النعم اى تستدر . و قال الحسن، و الربيع، و الجبائى: معنى الآية «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» فى الحق الذى تقدم اخبار الله به من أمر القبلة، و عناد من كتم النبوة و امتناعهم من الاجتماع على ما قامت به الحجة . و قال بعضهم: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» فى شىء يلزمك العلم به . و هو الاولى، لأنه أعم، و الخطاب و ان كان متوجهاً الى النبى (ص) فالمراد به الامة كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ^١» و قال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ^٢) . و قال قوم: إن الخطاب له، لأنه إنما لا يجوز عليه ذلك لملازمته أمر الله. و لو لم يكن هناك أمر لم يصح أن يلزم.

و النون الثقيلة يؤكد بها الامر و النهى، و لا يؤكد بها ال خبر، لما كان المخبر يدل على كون المخبر به، و ليس كذلك الأمر و النهى، و الاستخبار، لأنه لا يدل على كون المدلول عليه، فالزم الخبر التأكيد بالقسم و ما يتبعه من جوابه، و اختصت هذه الأشياء بنون التأكيد ليدل على اختلاف المعنى فى المؤكد. و لما كان الخبر أصل الجمل أكد بأبلغ التأكيد و هو القسم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٨]

وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر و ابو بكر عن عاصم (مولّاها). و روى ذلك عن ابن عباس و محمد بن على، فجعلوا الفعل واقعاً عليه . و المعنى واحد، كذا قال الفراء.

(١) سورة الطلاق: آية ١

(٢) سورة الأحزاب آية: ١.

ص: ٢٤

المعنى:

و فى قوله: «وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا» أقوال:

أحدهما- قال مجاهد، و الربيع، و ابن زيد، و ابن عباس، و السدى: أن لكل أهل ملّة من اليهود و النصارى.

الثانى - قال الحسن: إن لكل نبى وجهة واحدة : و هى الإسلام و ان اختلف الأحكام كما قال : «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ» اى فى شرائع الأنبياء.

الثالث- قال قتادة: هو صلاتهم الى بيت المقدس، و صلاتهم الى الكعبة.

الرابع- ان لكل. قوم من المسلمين وجهة، من كان منهم وراء الكعبة و قدامها أو عن يمينها أو عن شمالها، و هو الذى اختاره الجبائى. و الوجهة قيل فيه قولان:

أحدهما - انه قبله. ذهب اليه مجاهد، و ابن زيد. الثانى قال الحسن: هو ما شرعه الله لهم من اسلام.

و فى (جهة) ثلاث لغات: جهة، وجهة، و وجه . و إنما أتم لأنه اسم لم يجرى على الفعل . و من قال: جهة. قال المبرد: جاء به على قولهم وجهنى، و وجهته.

و معنى «مُولَّيْهَا» مستقبلها - فى قول مجاهد و غيره . كأنه قال: مول إليها، لان ولى اليه تقيض ولى عنه . كقولك: انصرف اليه، و انصرف عنه. و قوله «هو» عائد - على قول اكثر المفسرين - الى كل. و قال قوم يعود على اسم الله حكاهما الزجاج.

و «الْخَيْرَاتِ» هى الطاعات لله - على قول ابن زيد و غيره - و قوله: «يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً» يعنى يوم القيامة - من حيث ما متم من بلاد الله - و هو قول السدى، و الربيع و قد روى «وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ» مضاف غير منون - و ذلك لا يجوز، لأنه يكون الكلام ناقصاً، لا معنى له و لا فائدة فيه. و قوله: «فَاسْتَبِقُوا» يحتمل معنيين:

أحدهما - بادروا الى ما أمرتم به مبادرة من يطلب السبق اليه.

الثانى - قال الربيع: سارعوا الى الخيرات. و هو الاولى، لأنه أعم.

ص: ٢٥

اللغة:

و الاستباق، و الابتدار، و الاسراع نظائر . قال صاحب العين: السبق: القدم في الجرى و فى كل أمر . تقول: له فى هذا الامر سبقة، و سابقة و سبق: أى سبق الناس اليه. و السبق الخطر الذى يوضع بين اهل السباق، و جمعه اسباق . و السباقان فى رجل الطائر الجارح قيده من خيط أو سير. و اصل الباب السبق: التقدم فى الامر.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٤٩]

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)

آية بلا خلاف.

قيل فى تكرار قوله تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» قولان:

أحدهما - أنه لما كان فرضاً، نسخ ما قبله، كان من مواضع التأكيد لينصرف الى الحال الثانية بعد الحال الاولى على يقين.

و الثانى - أنه مقدم لما يأتى بعده و يتصل به، فأشبه الاسم الذى تكرره لتخبر عنه باخبار كثيرة كقولك: زيد كريم، و زيد عالم، و زيد حليم، و ما أشبه ذلك مما تذكره لتعلق الفائدة به و إن كانت فى نفسها معلومة عند السامع، و معنى قوله «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ»

الدلالة على وجوب المحافظة - من حيث كان حقاً لله فيه طاعة - ، و معنى قوله «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» هاهنا التهديد كما يقول الملك لعبيده ليس يخفى على ما أنتم فيه، و مثله قوله : «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» (١). و الوجه الجارحة المخصوصة و قد حده الرمانى بانه صفيحة فيها محاسن تعرف بها الجملة، و حيث مبنية على الضم، لأنها كالأغاية تمامها الاضافة الى المفرد، دون الجملة، لها بمنزلة الصلاة، فجرت لذلك مجرى قوله «من قبل و من بعد». (٢)

(١) سورة الفجر آية: ١٤

(٢) سورة الروم آية: ٥.

ص: ٢٦

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٠]

وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل فى تكرار قوله: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» ثلاثة اقوال:

أحدها - لاختلاف المعنى و إن اتفق اللفظ، لأن المراد بالأول : من حيث خرجت منصرفاً عن التوجه الى بيت المقدس . «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» و أريد بالثانى أين كنت فى البلاد، فتوجه نحو المسجد الحرام م ستقبلا كنت لظهر الكعبة أو وجهها أو يمينها أو شمالها.

الثانى - لاختلاف المواطن التى تحتاج الى هذا المعنى فيها.

الثالث - لأنه مواضع التأكيد بالنسخ الذى نفلوا فيه من جهة الى جهة للتقرير و التثبيت . فان قيل هل فى قوله تعالى: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» حذف منه (فى الصلاة) أم هو مدلول عليه من غير حذف؟ قيل : هو محذوف، لأنه اجتزأ بدلالة الحال عن دلالة الكلام، و لو لم يكن هناك حال دالة لم يكن بد من ذكر هذا المحذوف إذا أريد به الافهام لهذا المعنى فأما قوله: عليهم و حكيم. فانه يدل على المعلوم من غير حذف.

و معنى قوله: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» هاهنا. قيل فيه قولان:

أحدهما - لا تعدلوا عما أمركم الله في التوجه الى الكعبة، فيكون لهم عليكم حجة، بأن يقولوا لو كنتم تعلمون أنه من عند الله ما عدلتهم عنه.

ص: ٢٧

الثاني - لئلا يكون لأهل الكتاب عليكم حجة لو جاء على خلاف ما تقدمت به البشارة في الكتب السالفة من أن المؤمنين سيوجهون الى الكعبة.

و موضع اللام من «لئلا» نصب و العامل فيه احد شيئين : فولوا. و الآخر ما دخل الكلام من معنى عرفتكم ذلك . و هو قول الزجاج.

و قوله: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، قيل فيه اربعة اقوال:

أحدها - أنه استثناء منقطع، و «إلا» بمنزلة (لكن) كقوله (ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ) «١» و قوله: ما له على إلا التعدى، و الظلم، كأنك قلت:

لكن يتعدى و يظلم، و تضع ذلك موضع الحق اللازم، فكذلك لكن الذين ظلموا منهم، فإنهم يتعلقون بالشبهة، و يضعونها موضع الحجة. فلذلك حسن الاستثناء المنقطع قال النابغة:

لا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب «2»

جعل ذلك عيبهم على طريق البلاغة، و ان كان ليس بعيب. كأنه يقول: ان كان فيهم عيب فهذا، و ليس هذا بعيب، فإذا ليس فيهم عيب، فكذا إن كان على المؤمنين حجة، فللظالم في احتجاجه، و لا حجة له، فليس اذا عليهم حجة.

القول الثاني - ان تكون الحجة بمعنى المحاجة، و المجادلة، كأنه قال : لئلا يكون للناس عليكم حجاج إلا الذين ظلموا منهم، فإنهم يحاجوكم للباطل .

الثالث - ما قاله ابو عبيدة ان (إلا) هاهنا بمعنى الواو كأنه قال : لئلا يكون للناس عليكم حجة و الذين ظلموا منهم . و ان ذكر ذلك الفراء، و المبرد قال الفراء: لا يجيء إلا بمعنى الواو إذا تقدم استثناء كما قال الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مروان

(١) سورة النساء آية: ١٥٦.

(٢) اللسان «فلل» (و قرع). فلول السيف. كسر من حده . القرع: الضرب الشديد الكتائب جمع كتيبة و هى فرقة من الجيش المصفح.

ص: ٢٨

و انشد الأخفش:

و أرى لها داراً بأغدره السى دان لم يدرس لها رسم

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سُحِمَ¹

يعنى أرى لها داراً و رماداً . و كأنه قال فى البيت الاول : ما بالمدينة دار إلا دار الخليفة و دار مروان . و خالفه ابو العباس فلم يجز ان تكون (إلا) بمعنى الواو أصلاً.

الرابع- قال قطرب: يجوز الإضمار على معنى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا . و موضع الذين عنده خفض على هذا الوجه يجعله بدلاً من الكاف كأنه قيل فى التقدير : لئلا يكون للناس على أحد حجة إلا الظالم . قال الرماني: و هذا وجه بعيد لا ينبغى أن يتأول عليه، و لا على الوجه الذى قاله ابو عبيدة و الاختيار القول الاول .

و أثبتت (الياء) فى قوله «و اخشونى» هاهنا، و حذف فيها عداها، لأنه الأصل، و عليه اجماع هاهنا . و اما الحذف فللاجتزاء بالكسرة من الياء.

و قوله: «و اخشونى» معناه و اخشوا عقابى بدلالة الكلام عليه فى الحال، و إنما ذكّرهم فقال «فَلَا تَخْشَوْهُمْ» لأنه لما ذكرهم بالظلم، و الاستطالة بالخصومة و المنازعة طيب بنفوس المؤمنين أى فلا تلتفتوا الى ما يكون منهم فان عاقبة السوء عليهم . و قال قتادة، و الربيع: المعنى بالناس هاهنا أهل الكتاب . و قال غيرهما: هو على العموم - و هو الأقوى - و قال ابن عباس، و الربيع، و قتادة: المعنى بقوله «الَّذِينَ ظَلَمُوا» مشركوا العرب. و قال قوم: هو على العموم - و هو الاولى -.

و قوله «لئلا» ترك الهمزة نافع. الباقون يهزون. و يلين كل همزة مفتوحة قبلها كسرة. و الحجة هى الدلالة. و هى البرهان.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥١]

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

(١) اللسان (خلد) ذكر البيت الثاني فقط.

ص: ٢٩

آية بلا خلاف.

المعنى:

التشبيه بقوله (كَمَا أَرْسَلْنَا) يحتمل أمرين:

أحدهما - ان النعمة في أمر القبله كالنعمة بالرسالة، لان الله لطف بعباده بها على ما يعلم من المصلحة، و محمود العاقبه.

الثاني - الذكر الذي أمر الله به كالنعمة بالرسالة فيما ينبغي ان يكون عليه من المنزلة في العظم و الإخلاص لله، كعظم النعمة . و هو على نحو قوله: (كما احسن الله اليك «١» و العرب تقول: الجزاء بالجزاء، فسمى الاول باسم الثاني للمقابلة، و التشبيه لكل واحد منهما بالآخر.

الاعراب:

و (ما) في قوله: (كَمَا) مصدرية. كأنه قال: كارسالنا فيكم و يحتمل أن تكون كافة قال الشاعر:

أ علاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالنعام المخلص «3» «2»

لأنه لا يجوز كما زيد يحسن اليك، فأحسن الى أبنائه. و العامل في قوله (كَمَا) يجوز أن يكون أحد أمرين:

أحدهما - الفعل الذي قبله : و هو قوله : (وَلَآتِيَنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ) (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ) و القول الثاني - الفعل الذي بعده : و هو فاذكروني (كَمَا أَرْسَلْنَا). و الأول

(١) سورة القصص آية: ٧٧.

(٢) قائله المزار الاسدى، و فى التكملة المزار الفقعى.

(٣) اللسان «علق» و «نعم» و «فن» العلاقة: الحب. أفنان خصل الشعر.

النغام شجر ابيض. المخلص: الذى بين السواد و البياض: فكأنه يقول: أحب بعد الشيب.

ص: ٣٠

أحد قولى الفراء، و الزجاج و اختاره الجبائى . و الثانى قول مجاهد و الحسن، و ابن أبى يحتج بأحد قولى الفراء، و الزجاج، و اختيار الزجاج. و قال الفراء: لاذكرونى جوابان: أحدهما - (كما). و الآخر - أذكركم، لأنه لما كان يجب عليهم الذكر ليذكرهم الله برحمته، و لما سلف من نعمته، أشبه - من هذا الوجه - الجواب، لأنه يجب للثانى فيه بوجوب الأول.

المعنى:

و قوله: (يُزَكِّيْكُمْ) معناه يعرضكم لما تكونوا به أزكياء من الأمر بطاعة الله و اتباع مرضاته . و يحتمل أيضاً أن يكون المراد : ينسبكم إلى أنكم أزكياء شهادة لكم بذلك، ليعرفكم الناس به، و إنما قال : (الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ) لاختلاف الفائدة فى الصفتين و إن كانتا لموصوف واحد. كقولك: هو العالم للأمر القادر عليها .

و يحتمل أن يكون أراد بالكتاب: القرآن، و بالحكمة: الوعى من السنة.

و الكاف فى قوله: (فيكم) خطاب للعرب - على قول جميع أهل التأويل.

و قوله: (و يعلمكم) معناه ما لا سبيل لكم إلى علمه إلا من جهة السمع، فذكرهم الله بالنعمة فيه . و يكون التعليم لما عليه دليل من جهة العقل تابعاً للنعمة فيه.

و لا سيما إذا وقع موقع اللطف.

و معنى الإرسال: هو التوجه بالرسالة و التحميل لها ليؤدى الى من قصد، فالدلالة و الرسالة جملة مضمنة بمن يصل اليه ممن قصد بالمخاطبة.

و التلاوة: ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق فى الرتبة.

و التزكية: النسبة الى الازدياد من الأفعال الحسنة التى ليست بمشوبة . و يقال أيضاً على معنى التعريض لذلك بالاستدعاء اليه و اللطف فيه.

و الحكمة: هى العلم الذى يمكن به الافعال المستقيمة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٢]

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

آية بلا خلاف.

المعنى:

الذكر المأمور به فى الآية، و الموعد به، قيل فيه أربعة أقوال:

أحدهما- قال سعيد بن جبیر «اذكرونى» بطاعتى «أذكركم» برحمتى.

الثانى - «اذكرونى» بالشكر (أذكركم) بالثواب.

الثالث - (اذكرونى) بالثناء (أذكركم) بالاجابة.

الرابع - (اذكرونى) بالثناء بالنعمة (أذكركم) بالثناء بالطاعة.

اللغة:

و الذكر: حضور المعنى للنفس، فقد يكون بالقلب، و قد يكون بالقول، و كلاهما يحضر به المعنى للنفس، و فى اكثر الاستعمال يقال: الذكر بعد النسيان، و ليس ذلك بموجب إلا ان يكون إلا بعد نسيان، لان كل من حضره المعنى بالقول أو العقد أو الحضور بالبال: ذاكر له، و أصله التنبيه على الشىء. فمن ذكر ناسياً، فقد نبهه عليه. و إذا ذكرناه نحن فقد نبهنا عليه. و الذكر تقيض الأنتى (وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ) «١» أى شرف لك من النباهة و الجلالة . و الفرق بين الذكر، و الخاطر . أن الخاطر: مرور المعنى بالقلب، و الذكر قد يكون ثابتاً فى القلب. و قد يكون بالقول.

الاعراب:

و قوله تعالى: (وَ اشْكُرُوا لِي) معناه اشكروا لى نعمتى فحذف، لان حقيقة الشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم. و قوله: (وَ لَا تَكْفُرُونِ) فيه حذف،

و تقديره: و لا تكفروا نعمتي، لان الكفر هو ستر النعمة و جردها. لا ستر المنعم.

و قولهم حمدت زيدا، و ذممت عمرا، فلا حذف فيه و إن كنت انما تحمد من اجل الفعل الحسن، و تدم من اجل الفعل القبيح . كما أنه ليس في قولك: زيد متحرك حذف، و إن كان إنما تحرك من أجل الحركة. و ليس كل كلام دال على معنى غير مذكور يكون فيه حذف، لأن قولك زيد ضارب دال على مضروب، و ليس بمحذوف، و كذلك زيد قاتل دال على مقتول، و ليس بمحذوف، فالحمد للشيء دلالة على انه محسن، و الذم له دلالة على انه مسيء كقولك: نعم الرجل زيد، و بئس الرجل عمرو، و كذلك قولك: زيد المحسن، و عمرو المسيء، ليس فيه محذوف و يقال:

شكرتك، و شكرت لك، و إنما قيل شكرتك، لأنه أوقع اسم المنعم موقع النعمة، فعدى الفعل بغير واسطة و الأجود: شكرت لك النعمة، لأنه الأصل في الكلام، و الأكثر في الاستعمال. قال الشاعر «١»:

همُ جمعوا بؤسى و نعمى عليكم
فهلاً شكرت القوم إذ لم تقاتل «2»

و مثل ذلك نصحتك، و نصحت لك، و إنما حذف (الياء) في الفواصل، لأنها في نية الوقف، فلذلك قال (وَلَا تَكْفُرُونَ) بغير (ياء) و هي في ذلك كالفواقي التي يوقف عليها بغير ياء كقول الأعشى:

و من شائئٍ كاشف وجهه
إذا ما انتسبت له أنكرن «3»

يعنى أنكرنى فحذف الياء.

(١) نسبه ابو حيان في تفسيره ١: ٤٤٧ لعمر بن لجأ.

(٢) معانى القرآن للفراء: ١: ٩٢ يقول: لما ذا لم تشكر القوم الذين جمعوا لك النعيم و البؤس و انت لم تقاتل.

(٣) ديوانه: ١٩. رقم القصيدة ٢ في المطبوعة «بله» بدل «وجهه» و «ذكرت» بدل «انتسبت».

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

آية واحدة بلا خلاف.

اللغة و المعنى:

الصبر هو حبس النفس عما تدعو اليه من الأمور، و الصابر هو الحابس نفسه عما تدعو اليه مما لا يجوز له . و هو صفة مدح . و وجه الاستعانة بالصبر أن فى توطين النفس على الأمور تسهيلا لها . و استشعار الصبر إنما هو توطين النفس . و وجه الاستعانة بالصلاة ما فيها من الذكر لله، و استشعار الخشوع له، و تلاوة القرآن و ما فيه من الوعظ، و التخويف، و الوعد، و الوعيد، و الجنة، و النار، و ما فيه من البيان الذى يوجب الهدى و يكشف العمى و كل ذلك داع الى طاعة الله، و زاجر عن معاصيه، فمن هاهنا كان فيه المعونة على ما فيه المشقة من الطاعة . و أمّا الاستعانة فهى الازدياد فى القوة مثل من يريد أن يحمل مائة رطل فلا يتهيا له ذلك فإذا استعان بزيادة قوة تأتى ذلك، و كذلك إن عاونه عليه غ يره و على ذلك السبب و الآلة، لأنه بمنزلة الزيادة فى القوة. و قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) أى معهم بالمعونة، و النصر، كما تقول : إذا كان السلطان معك، فلا تنال من لقيت. و قد تكون (مع) فى الكلام على معنى الاجتماع فى المكان. و ذلك لا يجوز على تعالى .

و فى الآية دلالة على أن الصلاة فيها لطف، لان الله تعالى أمرنا بالاستعانة بها، و توضيحه قوله: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) «١» و لو لا هذا النص، لجوزنا أن يكون فى غير ذلك. و الذى يستعان عليه بالصبر و الصلاة. قيل فيه قولان:

أحدهما- طاعة الله، كأنه قال استعينوا بهذا الضرب من الطاعة على غيره فيها.

و الثانى - على الجهاد فى سبيل الله، لأعدائه.

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٥.

ص: ٣٤

الاعراب:

و موضع الذين رفع لا يجوز غير ذلك عند جميع النحويين إلا المازنى، فانه أجاز يا أيها الرجل اقبل، و العامل فيه ما يعمل فى صفة المنادى - عند جميع النحويين - إلا الأخفش، فانه يجعله صلة لأى و يرفعه بأنه خبر ابتداء محذوف، كأنه قيل:

يأمن هم الذين آمنوا . إلا أنه لا يظهر المحذوف مع أى، و إنما حملة على ذلك لزوم البيان له، فقال: الصلة تلزم، و الصفة لا تلزم. قال الرماني و الوجه عندى أن تكون صفة بمنزلة الصلة فى اللزوم، و إنما لزم أى هاهنا فى النداء، لان العرض بحرف

التنبية وقع فى موضع التنبية، فلزم، فلا يجوز أن تقول : نعم الذين فى الدار، لان نعم إنما تعمل فى الجنس الذى يكره إذا أضر فسر بها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٤]

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

آية بلا خلاف.

المعنى:

فان قيل: هل الشهداء أحياء على الحقيقة، أم معناه أنهم سيحيون و ليسوا أحياء؟

قلنا: الصحيح أنهم أحياء الى أن تقوم الساعة، ثم يحييهم الله فى الجنة، لا خلاف بين أهل العلم فيه إلا قولاً شاذاً من بعض المتأخرين. و الأول قول الحسن، و مجاهد، و قتادة، و الجبائى، و ابن الأخشاد، و الرماني، و جميع المفسرين . و القول الثانى حكاه البلخى. يقال: ان المشركين كانوا يقولون: إن أصحاب محمد (ص) يقتلون نفوسهم فى الحرب لا لمعنى، فأنزل الله تعالى الآية. و أعلمهم أنه ليس الأمر على ما قالوه، و أنهم سيحيون يوم القيامة و يثابون، و لم يذكر ذلك غيره. و قيل: ليس هم أمواتاً بالضلالة بل هم أحياء بالطاعة، و الهدى، كما قال: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ» (١)»

(١) سورة الانعام آية: ١٢٢

ص: ٣٥

فجعل الضلالة موتاً، و الهداية حياة. و قيل: معناه ليس هم أمواتاً بانقطاع الذكر، بل هم احياء ببقاء الذكر عند الله، و ثبوت الأجر عنده. و استدل ابو على الجبائى على أنهم أحياء فى الحقيقة بقوله : «وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» فقال: لو كان المعنى سيحيون فى الآخرة، لم يقل للمؤمنين المقرين بالبعث، و النشور «وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» لأنهم يعلمون ذلك، و يشعرون به . فان قيل: و لم خصّ الشهداء بأنهم احياء، و المؤمنون كلهم فى البرزخ أحياء؟ قيل يجوز أن يكونوا ذكروا اختصاصاً، تشريفاً لهم . و قد يكون على جهة التقديم للبشارة بذكر حالهم فى البيان لما يختصون به من أنهم يرزقون، كما قال تعالى (بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (١)». و إنما قيل للجهاد سبيل الله، لأنه طريق الى ثواب الله تعالى.

اللغة:

و الموت: نقص بنية الحياة. و الموت - عند من قال إنه معنى عرضى - ينافى الحياة منافاة التعاقب. و من قال: ليس بمعنى قال: هو عبارة عن فساد بنية الحياة.

فأما الحياة، فهي معنى بلا خلاف.

الاعراب:

وقوله: (أَمْوَاتٌ) رفع بانه خبر ابتداء محذوف، كأنه قال: لا تقولوا هم أموات. ولا يجوز فيه النصب على قولك: قلت خيراً، لأن الخير في موضع المصدر كأنه قال: قلت قولاً حسناً. فاما قوله «وَيَقُولُونَ طَاعَةً» «٢» فيجوز فيه الرفع والنصب في العربية: الرفع على منا طاعة: والنصب على نطيع طاعة والفرق بين (بل) و (لكن) ان (لكن) نفى لأحد الشيئين، وإثبات للآخر، كقولك: ما قام زيد لكن عمرو، وليس كذلك (بل)، لأنها للأضراب عن الأول، والإثبات للثاني، ولذلك وقعت في الإيجاب كقولك: قام زيد بل عمرو. فاما إذا قصد المتكلم، فإنما هو ليدل

(١) سورة آل عمران آية: ١٦٩.

(٢) سورة النساء آية: ٨٠

ص: ٣٦

على أن الثاني أحق بالأخبار عنه من الاول، كقولك: قام زيد بل عمرو، كأنه لم يعتد بقيام الأول.

اللغة:

و الشعور: هو ابتداء العلم بالشئ من جهة المشاعر، وهى الحواس، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه شاعر، ولا أنه يشعر، وإنما يوصف بأنه عالم ويعلم. وقد قيل: إن الشعور إدراك ما دقّ للطف الحسن مأخوذ من الشعر لدقته، ومنه شاعر، لأنه يفتن من إقامة الوزن وحسن النظم بالطبع لما لا يفتن له غيره.

المعنى:

فان قيل: هل كون عقولهم إذا كانوا أحياء، وكيف يجوز أن يصل اليهم ثوابهم مع نقصان عقولهم؟ قيل الثواب لم يصل اليهم على كنهه وإنما يصل اليهم طرف منه.

و مثلهم فى ذلك مثل النائم على حال جميلة فى روضة طيبة يصل اليهم طيب ريحها و لذىذ نسيمها على نحو ما جاء فى الحديث من انه يفسح له مد بصره، و يقال له نم نومة العروس. و أما الذين قتلوا فى سبيل الله، فعلى ما ذكرناه من الاختصاص بالفضيلة.

فان قيل: كيف يجوز أن يكونوا أحياء - و نحن نرى جثثهم على خلاف ما كانت عليه فى الدنيا ؟. قيل: إن النعيم انما يصل الى الروح و هى الحية، و هى الإنسان، دون الجثة - و الجثة كالجنة و اللباس لصيانة الأرواح . و من زعم ان الإنسان هذه الجملة

المعروفة و جعل الجنة جزء منها فانه يقول: يلفظ أجزاء من الإنسان توصل اليه النعيم، و إن لم يكن الإنسان بكماله على نحو ما ذكرنا أن النعيم لا يصل اليه نفسه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٥]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)

الخطاب بهذه الآية متوجه الى اصحاب النبي (ص) - على قول عطاء، و الربيع

ص: ٣٧

و أبى على، و الرماني، و لو قيل: أنه خطاب لجميع الخلق، لكان أيضاً صحيحاً، لأن ذلك جاز في جميعهم.

اللغة:

و الابتلاء في الأصل: الطلب لظهور ما عند القادر على الأمر من خير أو شر.

و الابتلاء، و الاختبار، و الامتحان، بمعنى واحد، و الابتلاء بهذه الأمور المذكورة في الآية بأمور مختلفة . فالخوف هو انزعاج النفس لما يتوقع من الضرر، و كان ذلك لقصد المشركين لهم بالعداوة . و الجوع كان لفقرهم و تشاغلهم بالجهاد في سبيل الله عن المعاش . و نقص الأموال للانقطاع بالجهاد عن العمارة . و الأنفس بالقتل في الحرب مع رسول الله (ص). و الجوع ضد الشبع. يقال جاع يجوع جوعاً، و أجاعه إجاعة، و جوعه تجويعاً، و تجوّع تجوّعاً . قال صاحب العين : الجوع اسم جامع للمخمصة، و المجاعة: عام فيه جوع. و النقص تقيض الزيادة. قال صاحب العين:

النقص الخسران في الحظ. تقول نقص نقصاً، و انتقص انتقاصاً، و تناقص تناقصاً، و نقصه تنقيصاً، و استنقص استنقاصاً، و تنقصه تنقصاً. و النقصان يكون مصدراً أو اسماً، كقولك: نقصانه كذا: أى قدر الذهاب. و نقص الشيء، و نقصته، و دخل عليه نقص: في عقله و دينه. و لا يقال: نقصان. و النقيصة: الواقعة في الناس.

و النقيصة انتقاص حق ذي الرحم . و تنقصه تنقصاً: إذا تناول عرضه. و اصل الباب النقص الحط من التمام . و المال معروف. و أموال العرب أنعامهم . و رجل مال: أى ذو مال . و نال: أى ذو نوال . و تقول: تمول الرجل، و مول غيره . و اصل الباب المال المعروف. و الثمرة: أفضل ما تحمله الشجرة.

المعنى:

و وجه المصلحة في ذلك هو ما في ذلك من الأمور المزعجة الى الاستدلال و النظر في الأدلة الدالة على النبوة، و ليعلم ايضاً انه ليس فيما يصيب الإنسان من شدة في الدنيا ما يوجب نقصان منزلته. ففي ذلك ضروب العبرة. فان قيل إذا كان الله

قد فعل الابتلاء بهذه الأشياء، و المشركون أوقعوها بالمؤمنين ففي ذلك إيجاب فعل من فاعلين . قلنا: لا يجب ذلك، لان الذى يفعله الله تعالى غير الذى يفعله المشركون، لأن علينا ان نرضى بما فعله الله و نسخط مما فعله المشركون، و ليس يقدرّون على شىء مما ذكر فى الآية، و لكنهم يقدرّون على التعريض له بما هو محرم عليهم، و قبيح منهم.

الاعراب:

و فتحت الواو فى لنبلونكم لامرين:

أحدهما - للعلّة التى فتحت الراء فى لتنصرنكم «١» و هو أنه بنى على الفتحة، لأنها أخف إذ استحق البناء على الحركة كما استحق (يا) فى النداء حكم البناء على الحركة.

الثانى - أنه فتح لالتقاء الساكنين إذ كان قبل معتلا لا يدخله الرفع.

المعنى:

و انما قال: «بشيء» من الخوف و لم يقل: بأشياء لامرين:

أحدهما - لثلاث توهم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف، و يكون الجمع كجمع الأجناس للاختلاف، فقدّر: شىء من كذا، و شىء من كذا، و أغنى المذكور عن المحذوف.

و الثانى - أنه وضع الواحد فى موضع الجمع للإيهام الذى فيه ك (من).

و الابتلاء بما ذكر لا بد ان يكون فيه لطف فى الدين، و عوض فى مقابلته، و لا يحسن فعل ذلك لمجرد العوض - على ما ذهب اليه قوم - . فان قيل: الابتلاء بأمر القبلة و غيره من عبادات الشرع هل يجرى مجرى الألم - عند المصيبة؟ قلنا:

لا، بلا خلاف هاهنا، فانه لا بد ان يكون فيه لطف فى الدين فان «٢» كان فيه

(١) فى المطبوعة «لتنصرنكم» و هو غلط.

(٢) و الأصح «و ان كان» بدل «فان كان»

خلاف في الألم، لأن هذه طاعات يستحق بها الثواب . و بالإخلال بها- إذا كانت واجبة- يستحق العقاب، فلا يجرى مجرى الألم المحض. و الصبر واجب كوجوب العدل الذي لا يجوز عليه الانقلاب- في الشرع- إذ الصبر حبس النفس عن القبيح من الأمر، و قد بينا فيما مضى ابتلاء الله تعالى العالم بالعواقب، فان المراد بذلك انه يعامل معاملة المبتلى، لأن العدل لا يصح إلا على ذلك، لأنه لو أخذهم بما يعلم أنه يكون منهم، قبل ان يفعلوه، لكان ظلماً و جوراً ، فبين الله بعد، أنه يعاملهم بالحق دون الظلم.

و الوقوف على قوله: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» حسن، و قال بعضهم: لا يحسن.

و ذلك غلط، من حيث كانت صفة مدح، و عامل الصفة في المدح غير عامل الموصوف، و إنما وجب ذلك، لأن صفة صابر صفة كصفة تقى، كما قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» ﴿١﴾.

و الجوع: الحاجة الى الغذاء، و تختلف مراتبه في القوة و الضعف. و قد يقال:

جوع كاذب، لأنه يتخيل به الحاجة الى الغذاء لبعض الأمور العارضة من غير حقيقة.

و قوله تعالى: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» فالتبشير في الأصل هو الاخبار بما يسرّ، أو نعمة، يتغير له الشره، غير انه كثر استعماله فيما يسرّ. و الصبر المحمود هو حبس النفس عما قبح من الأمر.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٦]

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)

آية بلا خلاف.

المعنى:

في قوله: «إِنَّا لِلَّهِ» إقرار لله بالعبودية «وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فيه إقرار

(١) سورة البقرة آية: ١٥٣.

ص: ٤٠

بالبعث و النشور، و ان مآل الامر يصير إليه، و إنما كانت هذه اللفظة تعزية عن المصيبة، لما فيها من الدلالة على أن الله يجزها ﴿١﴾ ان كانت عدلاً، و ينصف من فاعلها إن كانت ظلماً . و تقديره «إنا لله» تسليماً لأمره و رضاً بتدبيره. «وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ثقة بأننا إلى العدل نصير.

اللغة:

و المصيبة هي المشقة الداخلة على النفس، لما يلحقها من م ضرة، و هي من الاصابة، لأنها يصيبها بالبلية . و معنى الرجوع الى الله: الرجوع الى انفراده بالحكم كما كان أول مرة لأنه قد ملك قوماً في الدنيا شيئاً من الضر، و النفع لم يكونوا يملكونه، ثم يرجع الأمر الى ما كان إذا زال تملك العباد.

و أصل الرجوع هو مصير الشيء الى ما كان، و لذلك يقال : رجعت الدار الى فلان إذا اشتراها مرة ثانية . و الرجوع و العود، و المصير نظائر.

و في الآية معنى الامر لأنها مدح عام، لكل من كان على تلك الصفة بتلك الخصلة . و أجاز الكسائي و الفراء في (إنا لله) الامالة، و لا يجوز ذلك في غير اسم الله، مثل قولك: إنا لزيد، لا يجوز إمالته، و إنما جاز الامالة مع اسم الله لكثرة الاستعمال حتى صارت بمنزلة الكلمة الواحدة، و إنما لم يجرز الامالة في غير ذلك، لأن الحروف كلها و ما جرى مجراها لا يجوز فيها الامالة مثل (حتى) و لكن و (مما) و ما أشبه ذلك، لأن الحروف بم نزلة بعض الكلمة من حيث امتنع فيها التصريف الذي يكون في الأسماء و الأفعال.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٧]

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

آية بلا خلاف.

(١) و الأصح (يجز بها) بدل (يجزها).

ص: ٤١

(أولئك) إشارة إلى الصابرين الذين وصفهم الله في الآية الأولى.

و قيل في معنى الصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها - انها الدعاء، كما قال الأعشى:

و صلّى على دّنها و ارتسم «1»

أى دعا لها.

و الثاني - انها مشتقة من الصلوى مكتنفا ذنب الفرس أو الناقة، فسميت الصلاة - فى الشرع - بذلك، لرفع الصلوة فى الركوع و السجود. الثالث - قال الزجاج: إن أصلها اللزوم من قوله (تَصَلِّى نَاراً حَامِيَةً) «٢» أى تلزمها، و الصلاة من أعظم ما يلزم من العبادة. و قال قوم: معنى الصلاة هاهنا: الثناء الجميل.

و قيل: بركلت الدعاء، و الثناء يستحق دائماً، ففيه معنى اللزوم، و كذلك الدعاء يدعا به مرة بعد مرة، ففيه معنى اللزوم . و المصلى من الخيل الذى يلزم أثر السابق.

و معنى (المهتدون) يعنى الى الحق الذى به ينال الثواب، و السلامة من العقاب . و الرحمة: الانعام على المحتاج، و كل و احد يحتاج الى نعمة الله. و الاهتداء:

الاصابة لطريق الحق و هو الاصابة للطريق المؤدى الى النعمة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٨]

إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة و الكسائي (و من يطوع) بالياء، و تشديد الطاء، و الواو، و سكون العين. الباقيون بالتاء على فعل ماض.

(١) ديوانه: ٣٥، رقم القصيدة: ٤ و اللسان «صلا» و قد مر البيت فى ١: ٥٦ - ١٩٣

(٢) سورة الغاشية آية: ٤.

ص: ٤٢

اللغة:

الصفاء - فى الأصل - الحجر الأملس مأخوذ من الصفو. قال المبرد: الصفاء:

كل حجر لا يخلط غيره، من طين أو تراب يتصل به حتى يصير منه، و إنما اشتقاقه من صفا يصفو - إذا خلص - و هو الصافي الذي لا يكدّرهُ شيء يشوبه. و قيل واحد الصفا: صفاء. و قيل بل هو واحد يجمع اصفاء أو صفى - و أصله من الواو-، و لأنك تقول - فى تننيته: صفوان، و لأنه لا يجوز فيه الامالة.

و المروءة فى الأصل: هى الحجارة الصلبة اللينة. و قيل: الصفا: الصغير، و المروءة:

لغة فى المرو. و قيل انه جمع مثل تمرء و تمر، قال ابو ذؤيب:

حتى كأنى للحوادث مروءة¹»

و المروءة: نبت. و الأصل الصلابء. و النبت سمي بذلك لصلابة نوره. و الصفا و المروءة: هما الجبلان المعروفان بالحرم، و هما من الشعائر، كما قال الله تعالى.

و الشعائر: المعالم للأعمال، فشعائر الله: معالم الله التى جعلها مواطن للعبادة، و هى أعلام متعبداته من موقف، أو مسعى، أو منحر، و هو مأخوذ من شعرت به: أى علمت، و كل معلم لعبادة من دعاء، أو صلاة، أو أداء فريضة، فهو مشعر لتلك العبادة، و واحد الشعائر شعيرة، فشعائر الله أعلام متعبداته قال الكميت بن زيد:

شعائر قربان بهم تتقرب²»

نقتلهم جيلا فجيلا نراهم

و الحج: قصد البيت بالعمل المشروع من الإحرام، و الطواف، و الوقوف بعرفة و السعى بين الصفا و المروءة . و اشتقاقه من الحج الذى هو القصد - على وجه التكرار و التردد قال الشاعر «³»:

(١) ديوانه ٣. من قصيدة البارعة فى رثاء أولاده. و عجزه:

و يرى «المشقر» و هو سوق الطائف . المروة: الصخرة. و المشرق: الناسك بمنى يصف الشاعر نفسه بأنه من كثرة الحوادث : أصبح كالصخرة فى مكان تمر بها الناس كثيراً و يقرعها واحد بعد الآخر.

(٢) اللسان «شعر» و الهاشميات: ٢١

(٣) هو المخبل السعدى، و هو مخضرم.

ص: ٤٣

و أشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا¹»

يعنى يكثرزون التردد اليه بسؤدد. و قال آخر:

يحجّ مأمومة فى قعرها لجف²»

و أما العمرة فى الأصل فهى الزيارة و هى هاهنا زيارة البيت بالعمل المشروع:

من طواف الزيارة و الأحرار . و أخذت العمرة من العمارة لان الزائر للمكان يعمره بزيارته له، و قوله : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ». فالجناح هو الميل عن الحق، و أصله من جنح إليه جنوحاً إذا مال إليه . قال صاحب العين: الاجناح: الميل. اجنحت هذا فاجتنح أى أملتة فمال . و قوله: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا» ^٣ أى مالوا إليك لصلح فمل إليهم . و جناحا الطائر: يداه، و يدا الإنسان: جناحاه. و جناحا العسكر جانباه، و جناحا الوادى: مجريان عن يمينه و شماله. و جنحت الإبل فى السير إذا أسرع. و إنما قيل للاضلاع جوانح، لاعوجاجها . و جنحت السفينة إذا مالت فى أحد شقيها . و كل مائل إلى شىء فقد جنح إليه «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» أى ميل إلى مأثم. و كل ناحية: جناح، و مرّ جنح من الليل أى قطعة نحو نصفه. و أصل الباب الميل.

و الطواف: الدور حول البيت. و منه الطائف: الدائر بالليل. و الطائفة الجماعة كالحلقة الدائرة . و يطوّف أصله يتطوف، فأد غمت الناء فى الطاء، لأنها من مخرجها، و الطاء

(١) البيان و التبيين ٣: ٩٧ و اللسان (سبب) (حجج) (زبرق) حل بالمكان حلولا: إذا نزل القوم به . يحجون يكثرزون الاختلاف

اليه (سب الزبرقان) الزبرقان بن بدر الفزاري و هو من سادات العرب . و قيل ان سب : است: و قيل عمامة. المزعفر المصبوغ بالزعفران. يقول يكترون الذهاب الى هذا الرجل الذي يصبغ عمامته، أو استه بالزعفران.
و هذا هجاً له.

(٢) اللسان (حجج) (لجف) و عجزه:

فاست الطبيب قذاها كالمغاريذ

يحج: يزور أو يكشف. مأمومة: شجة في أم الرأس. في قعرها: في أقصاها. لجف: حفر.

فاست: فميل. المغاريذ: صمغ معروف يوضع على الجرح.

يقول يرى شجة في أم الرأس يخاف من رؤيتها و يجزع، فيصفر من هولها.

(٣) سورة الانفال آية: ٦٢.

ص: ٤٤

أقوى بالجهر منها. و الفرق بين الطاعة و التطوع: ان الطاعة موافقة الارادة في الفريضة و النافلة . و التطوع التبرز بالنافلة خاصة. و أصلها الطوع الذي هو الانقياد.

المعنى:

و إنما قال «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» و هو طاعة، من حيث أنه جواب لمن توهم أن فيه جناحاً، لصنمين كانا عليه : أحدهما إساف، و الآخر نائلة، في قول الشعبي، و كثير من أهل العلم. و روى ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع) و كان ذلك في عمرة القضاء و لم يكن فتح مكة بعد، و كانت الأصنام على حالها حول الكعبة و قال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية، فانزل الله تعالى الآية. و قال قوم عكس ذلك:

أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما، فظن قوم أن في الإسلام مثل ذلك، فانزل الله تعالى الآية . و جملته أن في الآية رداً على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه . و الطواف بينهما فرض عندنا في الحج و العمرة، و به قال الحسن و عائشة و غيرهما، و هو مذهب الشافعي، و أصحابه. و قال أنس بن مالك، و روى عن ابن عباس : أنه تطوع و به قال ابو حنيفة، و

أصحابه، واختاره الجبائي . و عندنا ان من ترك الطواف بينهما متعمداً، فلا حج له حتى يعود فيسعى، و به قالت عائشة، و الشافعي. و قال ابو حنيفة، و أصحابه، و النوري : إن عاد، فحسن، و إلا جبره بدم، و قال عطا، و مجاهد يجزيه و لا شىء عليه. و قوله تعالى: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها «مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» أى بالحج أو العمرة بعد الفريضة . الثانى - «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» أى بالطواف بهما عند من قال إنه نفل . الثالث - «مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» بعد الفرائض، و هذا هو الأولى، لأنه أعم. و فى الناس من قال: و هو الجبائي، و غيره:

إن التقدير فلا جناح عليه ألا يطوف بهما كما قال : «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا» و معناه ألا تضلوا و كما قال : «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). و معناه الا تقولوا.

(١) سورة الاعراف آية: ١٧١.

ص: ٤٥

و قال آخرون: إن ذلك لا يجوز و هو اختيار الرماني . و هو الصحيح، لأن الحذف يحتاج الى دليل . و معنى القراءتين واحد لا يختلف.

و وصف الله تعالى بأنه شاكر مجاز، لأن الشاكر فى الأصل هو المظهر للانعام، و الله لا يلحقه المنافع، و المضار - تعالى عن ذلك - و معناه هاهنا المجازى على الطاعة بالثواب، و خروج اللفظ مخرج التلطف حثاً على الإحسان اليهم، كما قال «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» (١) و الله لا يستقرض من عوز، لكن تلطف فى الاستدعاء كأنه قال : من ذا الذى يعمل عمل المقرض، بأن قدم فىأخذ أضعاف ما قدم فى وقت فقره و حاجته الى ذلك فكذلك، كأنه قال : «مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ» يعامله معاملة الشاكر، يحسن المجازاة، و إيجاب المكافاة . و الفرق بين التطوع و الفرض أن الفرض يستحق بتركه الذم و العقاب، و التطوع لا يستحق بتركه الذم، و لا العقاب.

و روى عن جعفر بن محمد: أن آدم نزل على الصفا، و حواء على المروة، فسمى المرو باسم المرأة

. قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٥٩]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل فى المعنى بهذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، و مجاهد، و الربيع، و الحسن، و قتادة، و السدى،

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٥.

ص: ٤٦

و اختاره الجبائي، و أكثر أهل العلم : انهم اليهود، و النصارى : مثل كعب بن الأشرف و كعب بن أسيد، و ابن سوريا، و زيد بن تابوه، و غيرهم من علماء النصارى الذين كتموا أمر محمد (ص)، و نبوته : و هم يجدونه مكتوباً فى التوراة و الإنجيل مبيناً فيهما.

و الثانى - ذكر البلخى: أنه متناول لكل من كتم ما أنزل الله و هو أعم، لأنه يدخل فيه أولئك و غيرهم، و يروى عن ابن عباس أن جماعة من الأنصار سألوا نفرأ من اليهود عما فى التوراة، فكتموهم إياه، فانزل الله عز و جل «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ» الآية. و إنما نزل فيهم هذا الوعيد، لان الله تعالى علم منهم الكتمان، و عموم الآية يدل : على أن كل من كتم شيئاً من علوم الدين، و فعل مثل فعلهم فى عظم الجرم أو أعظم منه، فان الوعيد يلزمه، و أما ما كان دون ذلك، فلا يعلم بالآية بل بدليل آخر .

و قد روى عن النبى (ص) أنه قال: من سئل عن علم يعلمه، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار.

و قال ابو هريرة: لو لا آية فى كتاب الله ما حدثتكم و تلا «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ الله» الآية، فهذا تغليظ للحال فى كتمان علوم الدين.

و كتمان الشىء اخفائه مع الداعى الى إظهاره، لأنه لا يقال لمن أخفى ما لا يدعوا الى إظهاره داع : كاتم. و الكتاب الذى عنى هاهنا قيل التوراة . و قيل كل كتاب أنزله الله . و هو أليق بالعموم . و قال الزجاج : هو القرآن، و استدل قوم بهذه الآية على وجوب العمل بخبر الواحد من حيث أن الله تعالى توعده على كتمان ما أنزله، و قد بينا فى اصول الفقه أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لأن غاية ما فى ذلك وجوب الاظهار، و ليس إذا وجب الاظهار وجب القبول، كما أن على الشاهد الواحد يجب إقامة الشهادة و إن لم يجب على الحاكم قبول شهادته، حتى ينضم اليه ما يوجب الحكم بشهادته، و كذلك يجب على النبى (ص) إظهار ما حملة، و لا يجب على أحد قبوله حتى يقترن به المعجز الدال على الصدق، و لذلك نظائر ذكرناها . على أن الله تعالى بين أن الوعيد إنما توجه على من كتم ما هو بينة و هدى و هو الدليل، فمن أين أن خبر الواحد بهذه المنزلة، فإذا لا دلالة فى الآية على ما قالوه، و البيئات و الهدى هى الادلة

ص: ٤٧

و هما بمعنى واحد، و إنما كرر لاختلاف لفظهما . و قيل: إنه أراد بالبيئات الحجج الدالة على نبوته (ص) و بالهدى إلى ما يؤديه إلى الخلق من الشرائع، فعلى هذا لا تكرار.

اللغة:

و اللعن في الأصل الابعاد على وجه الطرد قال الشماخ:

ذعرت به القطا و نفيت عنه
مقام الذئب كالرجل اللعين¹»

أراد مقام الذئب اللعن. و اللعين في الحكم: الابعاد- من رحمة الله- بإيجاب العقوبة، فلا يجوز لعن ما لا يستحق العقوبة. و قول القائل: لعنه الله دعاء، كأنه قال: أبعد الله، فإذا لعن الله عبداً، فمعناه الاخبار بأنه أبعد من رحمته.

المعنى:

و المعنى بقوله و (يَلْعَنُهُمُ الْمَلَأَيْنُونَ) قيل فيه أربعة أقوال:

أحدها- قال قتادة، و الربيع، و اختاره الجبائي، و الرماني، و غيرهما : انهم الملائكة و المؤمنون - و هو الصحيح -، لقوله تعالى في وعيد الكفار (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ^(٢) فلعنة اللاعنين كلعنة الكافرين.

الثاني - قال مجاهد، و عكرمة: إنها دواب الأرض، و هو انها تقول منعنا القطر لمعاصي بني آدم.

الثالث - حكاه الفراء أنه كل شيء سوى الثقلين الانس و الجن، رواه عن ابن عباس.

الرابع - قاله ابن مسعود: أنه إذا تلاعن الرجلان رجعت اللعنة على المستحق لها، فان لم يستحقها واحد منهم رجعت على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله. فان قيل:

كيف يجوز على قول من قال: المراد به البهائم اللاعنون، و هل يجوز على قياس ذلك الذاهبون؟

قلنا لما أضيف إليها فعل ما يعقل عوملت معاملة ما يعقل كما قال تعالى (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأْيُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(١) مر تخريجه في ٣٤٣: ١ من هذا الكتاب

(٢) سورة البقرة آية: ١٦١

«١» فان قيل: كيف يجوز إضافة اللعن إلى ما لا يعقل من البهيمه و الجماد؟

قيل: لامرين أحدهما- لما فيه من الآية التي تدعوا الى لعن من عمل بمعصية الله.

و الثانى - أن تكون البهائم تقول على جهة الإلهام لما فيه من الاعتبار.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٠]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

استثنى الله تعالى في هذه الآية من جملة الذين يستحقون اللعنة من تاب، و أصلح، و بين . و اختلفوا في معنى «بينوا» فقال أكثر المفسرين، كقتادة، و ابن زيد، و البلخى، و الجبائى، و الرمانى : إنهم بينوا ما كتموه من البشارة بالنبى (ص)، و قال بعضهم: بينوا التوبة، و إصلاح السريرة بالإظهار لذلك . و إنما شرط مع التوبة الإصلاح، و البيان ليرتفع الإيهام بأن التوبة مما سلف من الكتمان يكفى في إيجاب الثواب.

و معنى قوله تعالى (أَتُوبُ عَلَيْهِمْ) أقبل توبتهم. و الأصل فى أتوب أفعل التوبة إلا أنه لما وصل بحرف الاضافة دل على ان معناه أقبل التوبة، و إنما كان لفظه مشتركا بين فاعل التوبة، و القابل لها، لل ترغيب فى صفة التوبة إذ وصف بها القابل لها، و هو الله و ذلك من إنعام على عباده، لئلا يتوهم بما فيها من الدلالة على مقارفة الذنب أن الوصف بها عيب، فلذلك جعلت فى أعلا صفات المدح، و التوبة هى الندم الذى يقع موقع التنصل من الشىء و ذلك بالتحسر على موافقته، و العزم على ترك معاودته إن أمكنت المعاودة. و اعتبر قوم المعاودة الى مثله فى القبح . و هو الأقوى. لإجماع الامة على سقوط العقاب عندها، و ما عداها فمختلف فيه، فان قيل: ما الفائدة فى هذا الاخبار، و قد

(١) سورة يوسف آية: ٤.

ص: ٤٩

علمنا أن العبد متى تاب لا بد أن يتوب الله عليه؟ قلنا أمّا على مذهبنا، فله فائدة واضحة:

و هو أن إسقاط العقاب عندها ليس بواجب عقلا، فإذا أخبر بذلك أفادنا ما لم نكن عالمين به، و من خالف فى ذلك قال: وجه ذلك أنه لما كانت توبة مقبولة و توبة غير مقبولة صحت الفائدة بالدلالة على أن هذه التوبة مقبولة. و معنى قبول التوبة حصول الثواب عليها و إسقاط العقاب عندها.

و (التَّوَاب) فيه مبالغة إمّا لكثرة ما يقبل التوبة و إما لأنه لا يرد تائباً منيباً أصلاً . و قبول التوبة بمعنى إسقاط العقاب عندها، غير واجب عندنا عقلاً . و إنما علم ذلك سمعاً، و تفضلاً، من الله تعالى على ما وعد به بالإجماع على ذلك . و قد بينا في شرح الجمل في الأصول أنه لا دلالة عقلية عليه، و وصفه نفسه بالرحيم عقيب قوله (التَّوَاب) دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل منه و رحمة من جهته . و من قال : إن الفعل الواجب نعمة إذا كان منعماً بسببه كالثواب، و العوض، فانه لما كان منعماً بالتكليف و بالآلام التي يستحق بها الاعواض، جاز أن يقال في الثواب و العوض أنه تفضل و إن كانا واجبين، فقله باطل، لأن ذلك إنما قلنا في الثواب للضرورة، و ليس هاهنا ضرورة تدعو الى ذلك . و إصلاح العمل هو إخلاصه له من قبيح يشوبه، و التبيين هو التعريض للعلم الذي يمكن به صحة التميز.

الاعراب:

و موضع الذين نصب على أنه استثناء من موجب. و (إلا) حقيقتها الاستثناء.

و معنى ذلك الاختصاص بالشيء دون غيره كقولك : جاءني القوم إلا زيداً فقد اختصت زيدا بأنه لم يجىء، و إذا قلت ما جاءني إلا زيد، فقد اختصت زيدا بأنه جاء، و إذا قلت ما جاءني زيد إلا ركباً فقد اختصته بهذه الحال دون غيرها من المشى و العدو، و ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)

ص: ٥٠

آية بلا خلاف.

المعنى:

إن قيل: كيف يلعن الكافر كافراً مثله و هو الظاهر في قوله (وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)؟

قيل عنه ثلاثة أجوبة:

أولها - أنه يلعن الناس أجمعون يوم القيامة كما قال تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً) «١» و هو قول أبي العالية.

الثاني - قال السدي: انه لا يمتنع أحد من لعن الظالمين، فيدخل في ذلك لعن الكافر لأنه ظالم.

الثالث- يراد به لعن المؤمنين خصوصاً، و لم يعدّ بغيرهم كما يقال: المؤمنون هم الناس، و هو قول قتادة و الربيع، هذا إذا حمل على أن اللعن في دار الدنيا، لأن من المعلوم أن أهل ملّة لا يلعن أهل ملته.

القراءة:

و حكى عن الحسن أنه قرأ «و الملائكة» رفعاً و يكون ذلك على حمله على معنى يلعنهم الله و الملائكة و الناس أجمعون. كما تقول: عجبت من ضرب زيد، و عمرو- بالرفع- و هذه قراءة شاذة لا يعول عليها لأنّ المعتمد ما عليه الجمهور . و لا يجوز رفع «أجمعين» وحده هاهنا لأن هذه اللفظة لا تكون إلا تابعة، و ليس في الكلام مظهر و لا مضرر تتبعه على ذلك، وإنما الحمل على المعنى بمنزلة إعادة معنى العامل الأوّل، كأنك قلت:

و يلعنهم الملائكة و الناس أجمعون.

المعنى:

و الكفر ما يستحق به العقاب الدائم عندنا، و عند من خالفنا في دوام عقاب فساق أهل الصلاة انه ما يستحق به العقاب الدائم الكثير، و يتعلق به أحكام مخصوصة،

(١) سورة العنكبوت آية: ٢٥

ص: ٥١

و سواء كان الكفر في تشبيه الله تعالى بخلقه أو في تجريده في أفعاله أو الرد على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو ما كان أعظم منه في القبح، و اللعنة: الابعاد من الرحمة على ما بيناه مع إيجاب العقوبة، و يجري ذلك من الناس على وجه الدعاء، و من الله على وجه الحكم، و إنما قال: (وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا) و كل كافر، فهو ملعون في حال كفره و إن لم يكن ممن يوافي بالكفر للدلالة على خلودهم في النار إذا ماتوا على غير توبة، و قد دلّ على ذلك ما بينه في الآية الثالثة، و إنما أكد بأجمعين ليرتفع الاحتمال، و الإيهام قبل أن ينظر في تحقيق الاستدلال، و لهذا لم يجز الأخفش رأيت أحد الرجلين كليهما، و أجاز رأيتهما كليهما، لأنك إذا ذكرت الحكم مقرونا بالدليل عليه، أزلت الإيهام للفساد، و إذا ذكرته وحده فقد يتوهم عليك الغلط في المقصد بقولك: أحد الرجلين، لما ذكرت التنبيه و ذكرت أحداً كنت بمنزلة من ذكر الحكم، و الدليل عليه فأما ذكر التنبيه في رأيتهما، فبمنزلة ذكر الحكم وحده. و واحد الناس إنسان في المعنى، فأما في اللفظ، فلا واحد له، و هو كنفر، و رهط مما يقال : إنه اسم للجمع.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٢]

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

آية بلا خلاف.

المعنى:

و الهاء فى قوله «ففيها» عائدة على اللعنة فى قول الزجاج . و قال ابو العالفة هى عائدة الى النار، و معنى قوله (و لا هم ينظرون) على قول أبى العالفة رفع لإيهاى الاعتذار كما قال : (و لا يؤذن لهم فيعتذرون) «١» لئلا يتوهم أن التوبة و الانابة هناك تنفع . و الخلود فى اللعنة يحتمل أمرين أحدهما - استحقاق اللعنة بمعنى أنها تحق عليهم أبداً . و الثانى - فى عاقبة اللعنة: و هى النار التى لا تفنى، و إنما قال: (لا يخفف) (١)

(١) سورة المرسلات آية: ٣٦

ص: ٥٢

مع أنهم مخلصون، لأن التخفيف قد يكون مع الخلود، بان يقلل المعاون ما يفعل، فأراد الله أن يبين أنه يقع الخلود، و يرتفع التخفيف.

الاعراب:

و خالدين نصب على الحال من الهاء و الميم فى عليهم، كقولك: عليهم المال صاغرین، و العامل فيه الاستقرار فى عليهم.

اللغة:

و الخلود: اللزوم أبداً، و البقاء: الوجود وقتين فصاعداً، و لذلك لم يجز فى صفات الله خالد، و جاز باق، و لذلك يقال : أخذ الى قوله: أى لزم معنى ما أتى به، و منه قوله تعالى (و لکنه أخذ إلى الأرض) «١» أى مال إليها ميل اللازم لها، كأنه قبل الخلد فيها.

و الفرق بين الخلود و الدوام أن الدوام: هو الوجود فى الأول، و لا يزال.

و إذا قيل دام المطر، فهو على المبالغة، و حقيقته لم يزل من وقت كذا الى وقت كذا، و الخلود هو اللزوم أبداً . و التخفيف: هو نقصان من المقدار الذى له اعتماد. و العذاب:

الألم الذى له امتداد . و الانظار: الامهال قدر ما يقع النظر فى الخلاص، و اصل النظر الطلب، فالنظر بالعين : الطلب بالعين، و كذلك النظر بالقلب أو باليد أو بغيرها من الحواس، و تقول أنظر الثوب أين هو . و الفرق بين العذاب و الإيلاء، ان الإيلاء قد يكون بجزء «٢» من الألم فى الوقت الواحد . و العذاب له استمرار من الألم فى أوقات، و منه العذب، لاستمراره فى الحلق «٣». و العذبة، لاستمرارها بالحركة «٤».

(١) سورة الاعراف آية: ١٧٥

(٢) فى المطبوعة (محز)

(٣) و فى مجمع البيان (و منه العذاب لاستمراره بالخلق) و الصحيح ما ذكره الشيخ، لان المقصود منه: عذوبة الماء و نحوه، و لا يكون ذلك الا فى الحلق.

(٤) العذبة التى تستمر بالحركة: خرقة النائحة.

ص: ٥٣

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٣]

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

آية بلا خلاف.

المعنى:

يوصف تعالى بأنه واحد على أربعة أوجه أولها - إنه ليس بذى أبعاد و لا يجوز عليه الانقسام . الثانى - واحد فى استحقاق العبادة. الثالث - واحد لا نظير له و لا شبيهه الرابع - واحد فى الصفات التى يستحقها لنفسه، فهو قديم، و قادر لا يعجزه شىء، و عالم لا يخفى عليه شىء، فكل هذه الصفات يستحقها وحده، و الواحد شىء لا ينقسم عدداً كان أو غيره، و يجرى على وجهين: على الحكم، و على جهة الوصف، فالحكم كقولك: الجزء واحد، و الوصف كقولك: إنسان واحد، و دار واحدة.

و معنى إله أنه يحق له العبادة، و غلط الرمانى، فقال : هو المستحق للعبادة، و لو كان كما قال لما كان تعالى إلهها فيما لم يزل، لأنه لم يفعل ما يستحق به العبادة . و معنى ما قلناه : أنه قادر على ما إذا فعله استحق به العبادة . و قيل معنى إله انه منعم بما يستحق به العبادة، و هذا باطل لما قد بيناه، و لا يجوز أن يحيى أحد من الخلق بالإلهية، لأنه يستحيل ان يقدر أحد سوى الله على ما يستحق به العبادة من خلق الأجسام، و القدرة، و الحياة، و الشهوة . و النفاد، و كمال العقل، و الحواس و غير ذلك، فلا تصح الإلهية إلّا له، لأنه القادر على ما عددناه، و الآية تتصل بما قبلها و بما بعدها، فاتصالها بما قبلها، كاتصال الحسنه بالسيئة ، لتمحو أثرها، و تحذر من مواقععتها، لأنه لما ذكر الشرك، و أحكامه أتبع ذلك بذكر التوحيد يد و أحكامه، و اتصالها بما بعدها كاتصال الحكم بالدلالة على صحته، لأن ما ذكر فى الآية التى بعدها حجة على صحة التوحيد.

فان قيل : كيف يتصل الوصف بالرحمة بما قبله؟ قلنا، لأن العبادة تستحق بالنعمة التى هى فى أعلى مرتبة، و لذلك بولغ فى الصفة بالرحمة، ليدل على هذا المعنى.

ص: ٥٤

الاعراب:

و (هو) فى موضع رفع، و لا يجوز النصب، و رفعه على البدل من موضع (لا) مع الاسم، كقولك: لا رجل إلا زيد كأنك قلت : ليس إلا زيد- فيما تريد من المعنى - إذا لم يعتد بغيره، و لا يجوز النصب على قولك: ما قام احد إلا زيدا، لان البدل يدل على أن الاعتماد على الثانى، و المعنى ذلك، و النصب يدل على أن الاعتماد فى الاخبار إنما هو على الاول، و قوله تعالى : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) إثبات لله تعالى وحده و هو بمنزلة قولك : الله إله وحده، و إنما كان كذلك لأنه القادر على ما يستحق به الالهية، و لا يدل على النفي فى هذا الخبر من قبل أنه لم يدل على إله موجود، و لا معدوم سوى الله عزّ و جل، لكنه نقيض لقول من ادعى إلها مع الله.

و إنما النفي إخبار بعدم شيء كما أن الإثبات إخبار بوجوده.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٤]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع، و ابن كثير، و ابو عمرو، و ابن عاصم، و ابن عامر (الرَّيَّاح) على الجمع. الباقيون على التوحيد، و لم يختلفوا فى توحيد ما ليس فيه ألف و لام.

المعنى:

لما أخبر الله تعالى الكفار بأن إلههم إله واحد لا ثانى له، قالوا: ما الدلالة

ص: ٥٥

على ذلك؟ فقال الله عزّ و جل: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَةَ إِلَى آخِهَا).

و وجه الدلالة من الآية (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يدل على أن لها خالق، لا يشبهها و لا تشبهه، لأنه لا يقدر على خلق الأجسام إلا القديم القادر لنفسه الذى ليس بجسم، و لا عرض، إذ جميع ذلك محدث و لا بدّ له من محدث ليس

بمحدث، لاستحالة التسلسل . و أما (اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)، فيدلان على عالم مدبر من جهة أنه فعل محكم، متقن، واقع على نظام واحد، و ترتيب واحد، لا يدخل شيئاً من ذلك تفاوت، و لا اختلاف.

و أما (الْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) فتدل على منعم دبر ذلك لمنافع خلقه، ليس من جنس البشر، و لا من قبيل الأجسام، لان الأجسام يتعذر عليها فعل ذلك.

و أما الماء الذى ينزل من السماء، فيدل على منعم به يقدر على التصريف فيما يشاء من الأمور، لا يعجزه شىء.

و أمّا (إحياء الأرض بعد موتها)، فيدل على الانعام بما يحتاج اليه العباد.

و إحيائها: إخراج النبات منها، و أنواع الثمار (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) دالّ على ان لها صانعاً مخالفاً لها منعماً بأنواع النعم . (و تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ) يدل على الاقتدار على ما لا يتأتى من العباد و لو حرصوا كل الحرص، و اجتهدوا كل الاجتهاد، لأنه إذا ذهبت جنوباً مثلاً، فاجتمع جميع الخلق على أن يقلبوها شمالاً أو صباً أو دبوراً، لما قدروا على ذلك، و لا تمكنوا على ردّه من الجهة التى يجىء منها.

و أما (السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ) فيدل على أنه يمسكه القديم، و الذى لا شبه له و لا نظير، لأنه لا يقدر على تسكين الأجسام الثقال بغير علاقة و لا دعامة إلا الله تعالى، و كذلك لا يقدر على تسكين الأرض كذلك إلا القادر لنفسه،، فهى تدل على صانع غير مصنوع قديم لا يشبهه شىء، قادر لا يعجزه شىء، عالم لا يخفى عليه شىء، حى لا يموت واحد ليس كمثل شىء، سميع بصير (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ)

ص: ٥٦

وَلَا فِي الْأَرْضِ (١) لان صفات النقص لا تجوز عليه تعالى . و يدل على أنه منعم بما لا يقدر غيره على الانعام بمثله (٢)، أنه يستحق بذلك العبادة دون غيره

اللغة:

و الخلق هو الأحداث للشىء على تقدير من غير احتذاء على مثال، و لذلك لا يجوز إطلاقه إلا فى صفات الله، لأنه ليس أحد - جميع أفعاله على ترتيب من غير احتذاء على مثال - إلا الله تعالى . و قد استعمل الخلق بمعنى المخلوق كما استعمل الرضى بمعنى المرضى، و هو بمنزلة المصدر، و ليس معنى المصدر معنى المخلوق، و اختلف أهل العلم فيه إذا كان بمعنى المصدر، فقال قوم: هو الارادة له . و قال آخرون: إنما هو على معنى مقدر، كقولك : وجود و عدم، و حدوث و قدم، و هذه الأسماء تدل على مسمى مقدر للبيان عن المعانى المختلفة و إلا فالمعنى بما هو الموصوف فى الحقيقة.

و إنما جمعت السماوات و وحدت الأرض، لأنه لما ذكرت السما ء بأنها سبع فى قوله تعالى : «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» (٣) و قوله: «خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» (٤) جمع لثلاث يومهم التوحيد معنى الواحدة من هذه السبع . و قد دل مع

ذلك قوله «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» «٥» على معنى السبع، ولكنه لم يجر على جهة الإفصاح بالتفصيل في اللفظ . و وجه آخر: و هو أن الأرض لتشاكلها تشبه الجنس الواحد، كالرجل، و الماء الذى لا يجوز جمعه إلا أن يراد الاختلاف، و ليس تجرى السموات مجرى الجنس، لأنه دبر فى كل سماء أمرها. و التدبير الذى هو حقها.

و فى اشتقاق قوله «وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» قولان:

أحدهما - من الخلف، لأن كل واحد منهما يخلف صاحبه على وجه المعاقبة له.

و الثانى - من اختلاف الجنس كاختلاف السواد و البياض، لأن أحدهما لا يسد مسد الآخر فى الإدراك . و المختلفان ما لا يسد أحدهما مسد الآخر فيما يرجع الى ذاته.

(١) سورة سبأ آية: ٣

(٢) فى المطبوعة (لمثله)

(٣) سورة البقرة آية: ٢٩

(٤) سورة الطلاق آية: ١٢، و سورة الملك آية: ٣

(٥) سورة الطلاق آية: ١٢

ص: ٥٧

و النهار: اتساع الضياء، و أصله الاتساع، و منه قول الشاعر: «١»

ملكت بها كفى فأنهت فتقها
يرى قائم من دونها ما وراءها «2»

أى أوسعت، و يصلح ان يكون من النهر أى جعله كالنهر . و النهر أوسع مجارى الماء، فهو أوسع من الجدول، و الساقية . و إنما جمعت الليلة، و لم يجمع النهار لأن النهار بمنزلة المصدر، كقولك: الضياء، يقع على الكثير و القليل، فأما الليلة، فمخرجها مخرج الواحد من الليل على أنه قد جاء جمعه على وجه الشذوذ. قال الشاعر:

لو لا الثريدان هلكنا بالضم
ثريد ليل و ثريد بالنهر «3»

و الفلك: السفن يقع على الواحد، و الجمع بلفظ واحد، و منه قوله: «فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» «٤» و منه «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا» «٥» و الفلك: فلك السماء.

قال الله تعالى: «كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» «٦». و كل مستدير فلك، و الجمع أفلاك و قال صاحب العين: قيل: اسم للدوران خاصة. و قيل: بل اسم لأطواق سبعة فيها النجوم. و فلكت الجارية إذا استدار ثديها. و الفلكة: فلكة المغزل معروف. و فلكة الجدى، و هو قضيب يدار على لسانه لثلا يرضع. و اصل الباب الدور، و الفلك السفينة لأنها تدور بالماء أسهل دور. و إنما جعل الفلك للواحد، و الجمع بلفظ واحد، لأن فعل و فعل «٧» يشتركان كثيراً: العرب، و العرب، و العجم، و العجم، و البخل و البخل.

(١) هو قيس بن الخطيم.

(٢) اللسان (نهر) ملكت: شددت و قويت. أنهرت فتقها: وسعته حتى جعلته نهراً.

يصف طعنة، فشبهها أولاً بالنهر ثم شبهها بالنافذة بقوله: يرى قائم ... و هذا في غاية المبالغة.

(٣) اللسان (نهر)، و تهذيب الألفاظ: ٤٢٢، و المخصص ٩: ٥١. و رواية اللسان، و المخصص «لمتنا» بدل «لهلكننا» الضمر - بضم الميم، و سكونها - الهزال، و لحاق البطن، و الضمر هنا: الجوع، لأن المعنى لو لا ثريد الليل و ثريد النهار لمتنا جوعاً. و الثريد:

خبز يبيل في ماء اللحم و غيره.

(٤) سورة يس آية: ٤١

(٥) سورة هود آية: ٣٧

(٦) سورة الأنبياء آية: ٣٣، و سورة يس آية: ٤٠

(٧) فعل الاولى - بفتح الفاء و العين - و الثانية - بضم الفاء و سكون العين - ، و كذلك كل ما مثل به من الكلمات المتفقة في المادة في هذا الموضع.

ص: ٥٨

و من قال في أسد: أسد. قال في فلك: فلك، فجمعه على فُعل. و إنما أنت الفلك إذا أريد به الجمع، كقولك: السفن التي تجرى في البحر.

و قوله: «وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ» يعنى من نحو السماء عند جميع المفسرين.

و قال قوم: السماء تقع على السحاب، لأن كل شيء علا فوق شيء، فهو سماء له. فان قيل:

هل السحاب بخارات تصعد من الأرض؟ قلنا ذلك جائز لا يقطع به، ولا مانع أيضاً من صحته من دليل عقل، ولا سمع . و السماء: السقف، فسماء البيت سقفه قال تعالى:

«وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا» (١) فالسماء المعروفة سقف الأرض. و أصل الباب السمو:

و هو العلو، و السماء: الطبقة العالية على الطبقة السافلة إلا أنها صارت بمنزلة الصفة على السماء المعروفة: و هى التى من أجل السمو كانت عالية على الطبقة السافلة . و الأرض الطبقة السافلة . يقال: أرض البيت و أرض الغرفة، فهو سماء لما تحته من الطبقة، و ارض لما فوقه، و قد صار الاسم كالعلم على الأرض المعروفة. و إنما يقع على غيرها بالاضافة.

و الليل هو الظلام المعاقب للنهار . و قد يقال لما لا يصل اليه ضوء الشمس : هو الليل و إن كان النهار موجوداً . و البحر: هو الخرق الواسع الماء الذى يزيد على سعة النهر. و المنفعة: هى اللذة، و السرور و ما أدى إليهما . أو إلى كل واحد منهما. و النفع، و الخير، و الحظ نظائر، و قد تكون المنفعة بالآلام إذا أدت الى لذات. و الأحياء:

فعل الحياة. و حياة الأرض: عمارتها بالنبات، و موتها إخراجها بالجفاف ا لذى يمتنع معه النبات . و البث: التفريق، و كل شيء بثثته، فقد فرقته، و منه قوله تعالى:

«كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ» (٢)، و تقول: انبت الجراد فى الأرض، و تقول: بثثته سرى، و أبثثته إذا أطلعته عليه. و البث: ما يجده «٣» الرجل من كرب، أو غم فى نفسه، و منه قوله: «أَشْكُوا بَنِي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ» (٤). و أصل الباب التفريق.

و قال صاحب العين: كل شيء مما خلق الله يسمى دابة مما يدب، و صار بالعرف اسماً

(١) سورة الأنبياء آية: ٣٢

(٢) سورة القارعة آية: ٤

(٣) فى المطبوعة «ما يمجده»

(٤) سورة يوسف آية: ٨٦

لما يركب، و يقولون للبرذون : دابةً و تصغيرها دويبةً . و دب النمل يدب دبيبه . و دب الشراب بالإنسان دبيباً . و دب القوم إلى العدو أى مشوا على هيتتهم لم يشرعوا.

و الدبابة تتخذ فى الحروب، ثم يدفع إلى أصل حصن فينقبون و هم فى جوف الدبابة «١» و الدب: نوع من السباع، و الأنثى دبةً. و الدبة لزوم حال الرجل فى فعاله. ركب فلان دبةً فلان، و أخذ بدبته أى عمل بعمله.

و قوله تعالى: «و تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ» التصريف و التقلب و التسليك نظائر.

و تصريف الرياح تصرفها من حال إلى حال، و من وجه إلى وجه، و كذلك تصرف الخيول، و السيول، و الأمور. و صرف الدهر تقلبه، و الجمع صروف. و الصرف:

اللبن إذا سكنت رغوته و قال بعضهم: لا يسمى صريفاً حتى يتصرف به الضرع.

و الصرف صريف الفحل بنا به حتى يسمع لذلك صوت، و كذلك صريف البكرة.

و عنز صارف: إذا أرادت الفحل. و الصرف: صبغ أحمر، قال الاصمعى: هو الذى يصبغ به الشرك. و الصرف: فضل الدرهم على الدرهم فى الجودة. و كذلك بيع الذهب بالفضة، و منه اشتق اسم الصيرفى، لتصرفه أحدهما فى الآخر. و الصرف:

النافلة. و العدل: الفريضة. و الصرفة: منزل من منازل القمر: كوكب إذا طلع قدام الفجر، فهو أول الخريف، و إذا غاب من طلوع الفجر، فذاك أول الربيع. و الصرف:

الشراب غير ممزوج. و الصرفان تمر معروف، أوزنه و أجوده. و أصل الباب: القلب عن الشئ. و السحاب: مشتق من السحب و هو حرك الشئ على وجه الأرض، تسحبه سحباً كما تسحب المرأة ذيلها، و كما تسحب الريح التراب، و سمي السحاب سحاباً، لانسحابه فى السماء و كل منجر منسحب.

و التسخير، و التدليل، و التمهيد نظائر . تقول: سخر الله لفلان كذا إذا سهله له، كما سخر الرياح لسليمان . و سخرت الرجل تسخيراً إذا اضطهدته، فكلفته عملاً بلا أجره. و هى السخرة، و سخر منه إذا استهزأ به، قال الله تعالى

(١) فى المطبوعة «دابة»

ص: ٦٠

«فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» «١» و قال «فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًا» «٢» من الاستهزاء، و سخرى من تسخير الحول و ما أشبهه. و اصل الباب: التسخير: التدليل.

المعنى:

وقيل في تصريف الرياح قولان : أحدهما - هبوتها شمالاً وجنوباً و صبا و دبوراً . و الثانى - قيل مجيؤها بالرحمة مرة و بالعذاب أخرى. و هو قول قتادة.

و قوله : «لَقَوْمٌ يَعْزِلُونَ» فيه قولان : أحدهما - أنه عام لمن استدل به، و من لم يستدل من العقلاء . و الثانى - أنه خاص لمن استدل به كما قال : «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا» «٣» و كما قال «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» «٤» لما كانوا هم الذين اهتمدوا بها و خشوا عند مجيئه أضيف إليهم و إنما أضيفت الآيات الى العقلاء لامرين: أحدهما - لأنها نصبت لهم. و الثانى - لأنها لا يصح أن يستدل بها سواهم.

اللغة:

قال ابو زيد: قال القيسيون: الرياح أربع: الشمال، و الجنوب، و الصبا، و الدبور.

فأما الشمال عن يمين القبلة و الجنوب عن شمالها و الصبا و الدبور متقابلتان، فالصبا من قبل المشرق و الدبور من قبل المغرب و إذا جاءت الرياح بين الصبا، و الشمال، فهي النكباء التي لا يختلف فيها. و التي بين الجنوب و الصبا، فهي الجريباء، و روى ابن الاعرابى عن الاصمعى، و غيره: ان الرياح أربع: الجنوب، و الشمال، و الصبا، و الدبور. قال ابن الاعرابى:

كل ريح بين ريحين، فهي نكباء . قال الاصمعى: إذا انحرفت واحدة منهن، فهي نكباء، و جمعها نكب . فاما مهبهن، فان ابن الاعرابى قال: مهب الجنوب من مطلع سهيل الى مطلع الثريا، و الصبا من مطلع الثريا الى بنات نعش، و الشمال من بنات نعش الى مسقط النسر الطائر، و الدبور من مسقط النسر الطائر الى مطلع سهيل، و الجنوب، و الدبور لهما هيف و الهيف : الريح الحارة، و الصبا، و الشمال: لا هيف لهما. و قال

(١) سورة التوبة آية: ٨٠

(٢) سورة المؤمنون آية: ١١١

(٣) سورة النازعات آية: ٤٥

(٤) سورة البقرة آية: ٢

ص: ٦١

الأصمعى: ما بين سهيل الى طرف بياض الفجر : جنوب. و ما بان انهما هما، يستقبلهما من الغرب : شمال، و ما جاء من وراء البيت الحرام فهو دبور، و ما جاء قبالة ذلك، فهو صبا . و تسمى الصبا قبولا، لأنها تستقبل الدبور، و تسمى الجنوب الأزيب، و

النعامى. و تسمى الشمال محوّة و لا تصرف، لأنها تمحو السحاب و تسمى الجرياء، و تسمى مسعا، و تسعا و تسمى الجنوب اللاقح. و الشمال حائلا، و تسمى ايضاً عقيما، و تسمى الصبا عقيما ايضاً . قال الله تعالى: «وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» ﴿١﴾ و هى التى لا تلقح السحاب. و الذاريات التى تذرّوا التراب ذرواً.

و من قرأ بلفظ الجمع، فلأن كل واحدة من هذه الرياح مثل الاخرى فى دلالتها على التوحيد و تسخيرها لنفع الناس . و من وحّد أراد به الجنس كما قالوا أهلك الناس الدينار، و الدرهم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٥]

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

آية بلا خلاف

القراءة:

قرأ نافع و ابن عامر، و أبو جعفر من طريق النهروانى «و لو ترى» بالتاء.

الباقون بالياء. و قرأ أبو جعفر، و يعقوب «إن القوة لله، و إن الله» بكسر الهمزة فيهما. الباقون بفتحهما. و قرأ ابن عامر وحده «إذ يرون» بضم الياء. و الباقون بفتحها.

اللغة:

الأنداد، و الأمثال، و الاشباه نظائر، و الأنداد ﴿٢﴾ واحدها ندّ. و قيل

(١) سورة الذاريات آية: ٤١.

(٢) فى المطبوعة (الأنداد) ساقطة.

ص: ٦٢

الاضداد. و أصل الندّ المثل المناوى و المراد به هنا قال قتادة، و الربيع، و مجاهد، و ابن زيد. و أكثر المفسرين آلهتهم التى كانوا يعبدونها. و قال السدى: رؤسائهم الذين يطيعونهم طاعة الأرباب من الرجال . و قوله تعالى «يُحِبُّونَهُمْ» فالمحبة هى الارادة إلا ان فيها حذفاً، و ليس ذلك فى الارادة فإذا قلت : أحب زيدا معناه أريد منافعه أو مدحه، و إذا أحب الله تعالى عبداً فمعناه أنه يريد ثوابه و تعظيمه، و إذا قال:

أحب الله معناه أريد طاعته و اتباع أوامره، و لا يقال : أريد زيدا، و لا أريد الله و لا إن الله يريد المؤمن، فاعتيد الحذف في المحبة، و لم يعتد في الارادة. و في الناس من قال: المحبة ليست من جنس الارادة، بل هي من جنس ميل الطبع، كما تقولون:

أحب ولدى أى يميل طبعى اليه، و ذلك مجاز، بدلالة أنهم يقولون : أحببت أن أفعل بمعنى أردت أن أفعل . و ضد الحب البغض. و تقول: أحبه حباً، و تحب تحبباً، و حبه تحبيباً، و تحابا تحاباً . و المحبة: الحب. و الحب واحده حبة من بر، أو شعير، أو عنب. أو ما أشبه ذلك . و الحبة بزور البقل . و حبة القلب ثمرته . و الحب: الجرة الضخمة. و الحب القرط من حبة واحدة . و حباب الماء: فقاقيعه. و الحباب الحبة.

و أحب البعير إحباباً: إذا برک، فلا يثور، كالحران فى الخيل، قال أبو عبيدة: و منه قوله تعالى «أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» «١» أى لصقت بالأرض لحب الخير، حتى تأتيني الصلاة. و أصل الباب: الحب ضد البغض.

المعنى:

و قوله: «كَحَبِّ اللَّهِ» قيل فى هذه الاضافة ثلاثة أقوال : أحدها- كحبكم الله . و الثانى- كحبهم الله . و الثالث- كحب الله الواجب عليهم لا الواقع منهم، كما قال الشاعر:

على زيد بتسليم الأمير «2»

فلستُ مسلماً ما دمت حياً

(١) سورة ص آية: ٣٢.

(٢) البيان و التبيين ٤: ٥١، و معانى القرآن للفراء ١: ١٠٠، و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٥. و لم نعرف قائله.

ص: ٦٣

أى مثل تسليمى على الأمير. فان قيل: كيف يحب المشرك- الذى لا يعرف الله- شيئاً كحبه لله؟ قلنا من قال: إن الكفار يعرفون الله قال: كحبه لله.

و من قال: هم لا يعرفون الله- على ما يقوله أصحاب الموافاة- قال: معناه كحب المؤمنين لله أو كالحب الواجب عليهم.

و قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - «أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» للإخلاص له من الاشراك به و الثانى - لأنهم عبدوا من يملك الضر و النفع، و الثواب، و العقاب، فهم أشد حبا لله بذلك ممن عبد الأوثان.

الاعراب:

و يجوز فتح «أن» من ثلاثة أوجه، و كسرهما من ثلاثة أوجه - مع القراءة بالياء :-

أولها - يجوز فتحها بإيقاع الفعل عليها بمعنى المصدر. و تقديره «و لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب» قوة الله و شدة عذابه.

الثانى - أن يفتح على حذف اللام كقولك: لأن القوة لله.

الثالث - على تقدير لرأوا أن القوة لله، على الاتصال بما حذف من الجواب.

و الأول من الكسر على الاستئناف . الثانى - على الحكاية مما حذف من الجواب كأنه قيل : لقالوا إن القوة لله جميعاً. الثالث - على الاتصال مما حذف من الحال، كقولك: يقولون: إن القوة لله.

و من قرأ بالتاء، يجوز أيضاً فى الفتح ثلاثة أوجه. و فى الكسر ثلاثة أوجه:

أول الفتح - على البدل، كقولك: و لو ترى الذين ظلموا أن القوة لله عليهم، و هو معنى قول الفراء . الثانى - لأن القوة لله. الثالث - أ رأيت أن القوة لله . قال أبو على الفارسي: من قرأ بالتاء لا يجوز أن تنصب أن إلا بالفعل المحذوف - فى الجواب. و أما البدل فلا يجوز، لأنها ليست «الَّذِينَ ظَلَمُوا» و لا بعضهم و لا مشتملة

ص: ٦٤

عليهم، هذا إن جعل الرؤية من رؤية البصر . و إن جعلها من رؤية القلب، فلا يجوز أيضاً، لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأول فى المعنى، و قوله تعالى:

«أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ» لا يكون الذين ظلموا، فلم يبق بعد ذلك إلا أنه ينتصب بفعل محذوف . و الكسر مع التاء مثل الكسر مع الياء . و اختار الفراء - مع الياء - الفتح، و مع التاء الكسر، لأن الرؤية قد وقعت على الذين، و جواب لو محذوف، كأنه قيل : لرأوا مضره اتخاذهم للأنداد، و لرأوا أمراً عظيماً لا يحصر بالأوهام . و حذف الجواب، يدل على المبالغة، كقولك : لو رأيت السياط تأخذ فلاناً.

و الضمير فى قوله «يتخذ» عائد على لفظ من . و فى قوله يجبونهم على معنى من، لأن من مبهم، فمرة يحمل الكلام منها على اللفظ، و أخرى على المعنى، كما قال:

«وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً» (١) - بالتاء، و الياء - حملاً لمن على اللفظ و المعنى.

و اتصلت الآية بما قبلها اتصال انكار، كأنه قال: أبعد هذا البيان و الأدلة القاهرة على وحدانيته، يتخذون الأنداد من دون الله.

و من قرأ قوله «و لو ترى»- بالتاء- جعل الخطاب للنبي (ص) و المراد به غيره، كما قال : «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ»
«٢». و الذين على هذا فى موضع رصب. و من قرأ بالياء يكون الذين فى موضع رفع بأنهم الفاعلون.

و قوله «جميعاً» نصب على الحال، كأنه قيل: إن القوة لله ثابتة لله فى حال اجتماعها. و هى صفة مبالغة بمعنى إذا رأوا مقدورات الله فيما تقدم الوعيد به، علموا أن الله قادر لا يعجزه شىء.

و الشدة قوة العقد، و هو ضد الرخاوة. و القوة و القدرة واحد. و (ترى) فى قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى» من رؤية العين بدلالة أنها تعدت الى مفعول واحد، لأن التقدير و لو ترون أن القوة لله جميعاً أى و لو يرى الكفار ذلك.

(١) سورة الأحزاب آية: ٣١.

(٢) سورة الإطلاق آية: ١

ص: ٦٥

و من قرأ- بالتاء- يقوى انها المتعدية الى مفعول واحد، و يدل على ذلك أيضاً قوله «إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ»، و قوله: «وإذا رأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ» «فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ»، فتعدى الى مفعول واحد. فان قيل: كيف قال: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و هو أمر مستقبل، و إذ لما مضى؟ قيل: إنما جاء على لفظ المضى لإرادة التقريب فى ذلك، كما جاء «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» «١» و على هذا جاء فى هذا المعنى أمثلة الماضى كقوله: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» «٢». هكذا ذكره أبو على الفارسى قال: و على هذا المعنى جاء فى مواضع كثيرة فى القرآن، كقوله تعالى «وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ» «٣» «وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُّوا عَلَى النَّارِ» «٤» «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» «٥» «وَلَوْ تَرَى إِذْ فُرِغُوا، فَلَا فَوْتَ» «٦» «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ» «٧». كذلك هذه الآية.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٦]

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

آية واحدة بلا خلاف.

الاعراب و اللغة:

العامل فى (إذ) قوله تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ» كأنه قيل وقت تبرأوا.

و التبرّء : التباعد للعداوة، فإذا قيل تبرّأ الله من المشركين معناه باعدهم من رحمته، و كذلك إذ تبرّء الرسول منهم معناه باعدهم - للعداوة - عن منازل من

(١) سورة النحل آية: ٧٧.

(٢) سورة الاعراف آية: ٥٠.

(٣) سورة الانعام آية: ٣٠.

(٤) سورة الانعام آية: ٢٧.

(٥) سورة سبأ آية: ٣١.

(٦) سورة سبأ آية: ٥١.

(٧) سورة الانفال آية: ٥١.

ص: ٦٦

لا يحب له الكراهة.

و التبرء فى أصل اللغة، و التزيل، و التقصى نظائر. و ضد التبرء التولى.

و الاتباع: طلب الاتفاق فى مكان، أو مقال، أو فعال، فإذا قيل اتبعه ليلحقه، فمعناه ليتفق معه فى المكان، و إذا تبعه فى مذهبه أو فى سيره أو غير ذلك من الأحوال، فمعناه طلب الاتفاق.

و «اتبعوا» ضمت الألف فيه لضمّة الثالث، و ضمة الثالث لما لم يسم فاعله، لأنه إنما يضم له أول المتحرك من الفعل فيما بنى عليه، و الف الوصل لا يعتد به، لأنه وصل إلى التكلم بالساكن فإذا اتصل بمتحرك، استغنى عنه.

المعنى:

و المعنى بقوله: «الَّذِينَ اتَّبَعُوا» رؤساء الضلالة من الانس. و قال قوم: هم من الجن. و قيل: من الجميع. و الأول - قول قتادة، و الربيع، و عطا. و الثانى - قول السدى.

و قوله تعالى: «وَقَطَّعَتْ بِهِمُ السُّبَابُ» فالتقطع: التباعد بعد الاتصال.

و السبب: الوصلة الى التعذر بما يصلح من الطلب. و معنى الأسباب هاهنا. قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال مجاهد. و قتادة، و الربيع، و فى رواية عن ابن عباس: هى الوصلات التى كانوا يتواصلون عليها.

الثانى - روى عن ابن عباس: أنها الأرحام التى كانوا يتقاطعون بها.

الثالث - قال ابن زيد: الأعمال التى كانوا يوصلونها. و قال الجبائى: تقطعت بهم اسباب: النجاء.

اللغة:

و السبب: الحبل. و السبب: ما تسببت به من رحم، أو يد، أو دين . و منه قوله: «فَلْيَرْتُقُوا فِي الْأَسْبَابِ» «١». تقول العرب. إذا كان الرجل ذا دين:

(١) سورة ص آية: ١٠

ص: ٦٧

ارتقى فى الأسباب. و السبّ: الشتم. و السبّ: القطع، و السبّ: الشقة البيضاء من الثياب، و هى السبيبة «١»، و مضت سبة من الدهر أى ملاوة. و السب: الوتد.

و السبابة: ما بين الوسطى و الإبهام، و التسبب: التوصل الى ما هو منقطع عنك.

و يقال: تسبب يتسبب تسبباً، و استبوا استباباً، و سبب تسبيباً، و سابه متسابة

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٧]

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

آية بلا خلاف.

المعنى:

المعنى بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» هم الذين تبرءوا منهم: ساداتهم الذين اتبعوهم «لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً» يعنى رجعة الى دار الدنيا، قال الأخطل:

و لقد عطفن على فزارة عطفة

كرّ المنيح و جلن ثم مجالا «2»

فالعامل في (لو أن) محذوف، كأنه قال: لو صح أن لنا كرة، لأن (لو) في التمني، و غيره تطلب الفعل . و إن شئت قدرته: لو ثبت أن لنا كرة.

اللغة:

و الكرّ نقيض الفر تقول: كرّ يكر كراً، و كرة، و تكرر تكرراً، و كرر

(١) و في لسان العرب (سبب) السب، و السببية: الشقة، و خص بعضهم به الشقة البيضاء.

(٢) ديوانه: ٤٨، و نقائض جرير و الأخطل : ٧٩. في المطبوعة (المسيح) بدل (المنيح) و في الديوان (قدارة) بدل (فزاره). و فزاره: ابن ذبيان بن يغيض. و المسيح:

قدح لا حظ له في الميسر . و المنيح اسم رجل من بني أسد من بني مالك . و معنى البيت: لقد هاجمناهم في الحرب بشدة و مراس مثل ما يهاجم المنيح.

ص: ٦٨

تكريراً، و تكراراً. و الكرة و الفرّة متقابلان. و الكرّ و الرجوع و القتل نظائر في اللغة قال صاحب العين: الكر الرجوع عن الشيء و منه التكرار. و الكرّ الحبل الغليظ. و قيل: الشديد القتل. و الكرير صوت في الحلق. و الكرير: نهر. و الكرة:

سرقين و تراب، يدق، و يجلا به الدروع.

و قوله «فَتَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ» فالتبرء و الانفصال واحد، و منه برىء من مرضه: إذا انفصل منه بالعافية. و منه برىء من الدين براءة. و برىء الله من الخلق.

الاعراب:

و انتصب «فَتَتَبَرَّأَ» على أنه جواب التمني - بالفاء - كأنه قال: لو كان لنا كرة فتبرءاً «١» و كلما عطف للفعل على تأويل المصدر، نصب بإضمار (أن). و لا يجوز إظهارها.

المعنى:

وقوله: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ» و ذلك لاتقطاع الرجاء من كل واحد منهما. و قيل ايضاً: كما أراهم العذاب يريهم أعمالهم حسرات عليهم.

و ذلك، لأنهم أيقنوا بالهلاك فى كل واحد منهما. و العامل فى الكاف يريهم.

و الأعمال التى يرونها حسرات قيل فيها ثلاثة أقوال:

أحدها - المعاصى يتحسرون عليها لم عملوها.

الثانى - الطاعات يتحسرون عليها لم يعملوها، و كيف ضيعوها، و مثله «زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ» «٢» أى أعمالهم التى فرضناها عليهم، أو ندبناهم اليها.

(١) فى المطبوعة نسختان إحداهما نفس الآية، و هذا لا يجوز مع قوله كأنه، لأن التشبيه يقتضى التغاير بين المشبه، و المشبه به حتى يكون بينهما اثنتين، و النسخة الثانية (كان لنا كرة و ر فتتبرأ) و هذه ليس فيه معنى محصل، فلا بد أن تكون خطأ، و فى مجمع البيان (ليت لنا كروراً فتبروءاً) و يدل على صحة ما أثبتنا تنمة الجملة، و المخطوطة هنا ناقصة بعض الأوراق.

(٢) سورة النمل آية: ٤.

ص: ٦٩

و روى عن أبى جعفر (ع) أنه قال: هو الرجل يكتسب المال، و لا يعمل فيه خيراً، فيرثه من يعمل فيه عملاً صالحاً، فيرى الأول ما كسبه حسرة فى ميزان غيره.

فان قيل: لو جاز أن تضاف الأعمال التى رغبوا فيها، و لم يفعلوها بأنها أعمالهم لجاز أن يقال: الجنة دارهم و حور العين أزواجهم لأنهم عرضوا لها! قلل لا يجب ذلك، لأننا إنما حملنا على ذلك للضرورة. و لو سمي الله تعالى الجنة بأنها دارهم لتأولنا ذلك، و لكن لم يثبت ذلك، فلا يقاس على غيره.

الثالث - الثواب فان الله تعالى يريهم مقادير الثواب التى عرضهم لها لو فعلوا الطاعات فيتحسرون عليه - لم فرطوا فيه - و التأول الأول قول الربيع، و ابن زيد، و اختيار الجبائى، و أحد قولى البلخى. و الثانى قول عبد الله، و السدى، و أحد قولى البلخى. و هو كما تقول الإنسان أقبل على عملك و أعقدت عليه عملاً قلت فى عملك، و الذى أقوله: ان الكلام يحتمل أمرين: فلا ينبغى أن يقطع على واحد منهم إلا بدليل إلا ان الاول أقوى، لأنه الحقيقة. و الله أعلم بمراده.

اللغة:

و الحسرات: جمع الحسرة، و هي أشد من الندامة . و الفرق بينهما و بين الارادة ان الحسرة تتعلق بالماضى خاصة، و الارادة تتعلق بالمستقبل، لان الحسرة انما هي على ما فات بوقوعه أو يتقضى وقته . و انما حركت السين، لأنه اسم على فعلة أوسطه ليس من حروف العلة، و لو كان صفة لقلت : صعبات فلم يحرك، و كذلك جوزات و بيضات . و إنما حرك الاسم، لأنه على خلاف الجمع السالم، إذ كان كان انما يستحقه ما يعقل.

و الحسرة و الندامة نظائر، و هي تقيض الغبطة . و تقول: حسرت العمامة عن رأسي إذا كشفتها. و حسر عن ذراعيه حسراً، و انحسر انحساراً، و حسره تحسيراً.

و الحاسر فى الحرب الذى لا درع عليه، و لا مغفر. و حسر يحسر حسرة و حسراً:

إذا كمد على الشيء الفات «١»، و تلهف عليه. و حسرت الناقة حسوراً: إذا أعيت.

(١) فى المطبوعة (إذا كمل على الشيء الغائب) و هو تحريف.

ص: ٧٠

و حسر البصر إذا كلَّ عن البصر : و المحسرة: المكنسة. و الطير يتحسر: إذا خرج من ريشه العتيق الى الحديث . و أصل الباب الحسر: الكشف.

و فى الآيـة دلالة على انه كان فيهم قدرة على البراءة منهم، لأنهم لو لم يكونوا قادرين لم يجز أن يتحسروا على ما فات، كما لا يتحسر الإنسان لم لم يصعد الى السماء، و لا من كونه فى الأرض.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٨]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)

آيـة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع، و أبو عمر، و حمزة، و خلف، و أبو بكر إلا البرجمي، و البزى إلا ابن مرج و الربيعي إلا الولي (خطوات) بسكون الطاء حيث وقع. الباقيون بضمها.

اللغة:

الأكل: هو البلع عن مضغ، و بلع الحصى ليس بأكل فى الحقيقة، و قد قيل:

النعام يأكل الخمر، فأجروه مجرى فلان يأكل الطعام. و يقال: مضغه و لم يأكله.

و الحلال: هو الجائز من أفعال العباد، مأخوذ من أنه طلق، لم يعقد بحظر . و المباح هو الحلال بعينه، و ليس كل حسن حلالاً، لأن أفعاله تعالى حسنة و لا يقال: إنها حلال، إذ الحلال اطلاق فى الفعل لمن يجوز عليه المنع. و تقول: حل يحل حلالاً، و حلّ يحل حلولاً، و حل العقد حلاً، و أحله إحلالاً، و استحلّ استحلالاً، و تحلل تحللاً، و احتل احتلالاً، و تحالوا تحالوا، و حاله محالة، و حلله تحليلاً، و انحل انحلالاً، و حل العقد يحله حلاً، و كل جامد أذنبته فقد حللته، و حل بالمكان إذا نزل به، و حل الدين محلاً، و أحل من إحرامه و حل، و الحل : الحلال. و من قرأ (يحلل) معناه ينزل و من قرأ (يحل) معناه يجب، و حلت عليه العقوبة أى وجبت. و الحلال الجدى الذى يشق عن بطن

ص: ٧١

أمه، و تحلة اليمين، منه قول الشاعر: «١»

فى أربع مسهن الأرض تحليل «2»

تحفى التراب بأضلاف ثمانية

أى هين. و الحليل، و الحليلة: الزوج و المرأة سمياً بذلك، لأنهما يحلان فى موضع واحد. و الحلة: أزار، و رداء برد، و غيره. لا يقال حلة حتى يكون ثوبين.

و الإحليل مخرج اللبن من الضبي، و الفرس، و خلف الناقة، و غيرها، و هو مخرج البول من الذكر . و أصل الباب: الحل نقيض العقد، و منه أحل من إحرامه، لأنه حلّ عقد الإحرام بالخروج منه. و تحلة اليمين أخذ أقل القليل، لأن عقدة اليمين تنحل به.

و الطيب: هو الخالص من شائب ينغص، و هو على ثلاثة أقسام:

الطيب المستلذ، و الطيب الجائز، و الطيب الطاهر، كقوله تعالى : «فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً» «٣» أى طاهراً. و الأصل واحد، و هو المستلذ إلا أنه يوصف به الطاهر، و الجائر تشبيهاً إذ ما يزجر عنه العقل أو الشرع، كالذى تكرهه النفس فى الصرف عنه، و ما تدعو اليه بخلاف ذلك. و تقول: طاب طيباً، و استطاب استطابة، و طايبه مطايبة، و تطيب تطيباً، و تطيبه تطيباً، و الطيب : الحلال و النضيف، و الطهور، من الطيب. و أصل الباب: الطيب خلاف الخبيث.

و الخطوة: بعد ما بين قدمى الماشى . و الخطوة المرة من الخطو : و هو نقل قدم الماشى . و تقول: خطوة، و خطوة واحدة . و الاسم: الخطوة، و جمعها خطى، و قوله تعالى: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» أى لا تتبعوا آثاره و لا تقتدوا به.

و أصل الباب الخطو: نقل القدم قدماً. و العدو: المبعاد عن الخير الى الشر. و الولي تقيضه.

(١) هو عبدة بن الطبيب.

(٢) اللسان (حلل) في المطبوعة (خفي) بدل (تحفى) و الأصلاب بدل (الاضلاف)

(٣) سورة النساء آية: ٤٢، و سورة المائدة آية: ٧.

ص: ٧٢

المعنى:

و إنما قال: «حَلَالًا طَيِّبًا» فجمع الوصفين، لاختلاف الفائدتين: إذ وصفه بأنه حلال يفيد بأنه طلق. و وصفه بأنه طيب مفيد أنه مستلذ إما فى العاجل و إما فى الآجل. و «خُطُواتِ الشَّيْطَانِ» هاهنا قيل فيه خمسة أقوال: فقال ابن عباس:

أعماله. و قال مجاهد، و قتادة: خطاياهم، و قال السدى: طاعتكم إياه. و قال الخليل:

إيثاره. و قال قوم: هى النذور فى المعاصى. و قال الجبائى: ما يتخطى بكم اليه بالأمر و الترغيب. و روى أن هذه الآية نزلت، لما حرم أهل الجاهلية من ثقيف، و خزاعة، و بنى مدلج من الانعام، و الحرث: البحيرة و السائبة و الوصيعة، فنهى الله تعالى عما كلنوا يفعلونه، و أمر المؤمنين بخلافه. و الاذن فى الحلال يدل على حظر الحرام على اختلاف ضرور به، و أنواعه، فحملها على العموم أولى. و المأكَل، و المنافع فى الأصل للناس فيها ثلاثة أقوال: فقال قوم: هى على الحظر. و قال آخرون:

هى على الاباحة. و قال قوم: هى على الوقف. و حكى الرمانى: أن فيهم من قال:

بعضها على الحظر، و بعضها على الاباحة. و قد بينا ما عندنا فى ذلك فى أصول الفقه إلا أن هذه الآية دالة على إباحة المأكَل إلا ما دل الدليل على حظره. «١» و قوله:

«إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» فى وصف الشيطان معناه أنه مظهر العداوة بما يدعوا اليه من خلاف الطاعة لله التى فيها النجاء من الهلاك، و الفوز بالجنة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٦٩]

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

آية واحدة بلا خلاف.

اللغة:

الأمر من الشيطان هو دعاؤه الى الفعل، فأما الأمر في اللغة، فهو قول

(١) كل لفظة حذر في الاسطر المتقدمة فإنها في المطبوعة (خطر). و المخطوطة ناقصة في هذا الموضع . و الصحيح ما ثبتناه لمقابلته بالحلال.

ص: ٧٣

القائل لمن هو دونه: افعَل. و إذا كان فوقه سمي ذلك دعاء، و مسألة. و هل يقتضى الأمر الإيجاب، أو الندب، ذكرناه في أصول الفقه، فلا نطول بذكره هاهنا.

و السوء: كل فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع، و يسمى ما تنفر عنه النفس سوء، تقول: ساءنى كذا يسوءنى سوء. و قيل إنما سمي القبيح سوء، لسوء عاقبته، لأنه يلتذ به في العاجل، و لا يخلو المكلف من الزجر عن القبيح إما عقلاً، أو شرعاً، و لو خلا منه لكان معرّى بالقبيح، و ذلك لا يجوز.

و السوء في الآية قيل فيه قولان: قال السدى: هو المعاصى. و قال غيره:

ما يسوء الفاعل: يعنى ما يضره. و المعنى قريب من الأول، و الأول هو الصحيح.

و الفحشاء: هو العظيم القبح فى الفعل، و كذلك الفاحشة. و قيل المراد به: الزنا من الفجور، عن السدى. و الفحشاء: مصدر فحش فحشاً، كقولك: ضره ضرّاً و سره سرّاً و سرّاً. و الفحشاء، و الفاحشة، و القبيحة، و السيئة نظائر، و نقيضها الحسنة.

تقول: فحش فحشاً، و أفحش إفحاشاً، و تفاحش تفاحشاً، و فحش تفحيشاً، و استفحش استفحاشاً، و كل من تجاوز قدره فهو فاحش. و أفحش الرجل: إذا قال فحشاً، و كل شىء لم يكن موافقاً للحق، فهو فاحشة. قال الله تعالى: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ» (١) «يعنى بذلك خروجها من بيتها بغير إذن زوجها المطلق لها . و قال تعالى «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» (٢) و القول: كلام له عبارة تنبئ عن الحكاية، و ذلك ككلام زيد، يمكن أن يأتى عمرو بعبارة عنه تنبئ عن الحكاية له فيقول: قال زيد كذا و كذا، فيكون قوله: قال زيد، يؤذن أنه يحكى بعده كلام، و ليس كذلك إذا قال: تكلم زيد لأنه لا يؤذن بالحكاية.

و العلم: ما اقتضى سكون النفس. و قيل: هو تبين الشىء على ما هو به للمدرك له.

(١) سورة الطلاق آية: ١.

(٢) سورة النحل آية: ٩٠.

ص: ٧٤

المعنى:

فان قيل: كيف يأمرنا الشيطان ونحن لا نراه، ولا نسمع كلامه ! قلنا: لما كان الواحد منا يجد من نفسه معنى الأمر بما يجد من الدعاء الى المعصية، والمنازعة في الخطيئة، وكان ما نجده من نفوسنا من الدعاء، والإغواء إنما هو بأمر الشيطان الذي دلنا الله عليه، وحذرنا منه، صحّ إخبار الله بذلك. فان قيل: إذا كان الله عز وجل يوصل معنى أمره لنا الى نفوسنا، فما وجه ذلك في الحكمة، وهو لو أمر من غير إيصال معنى الأمر لم يكن في ذلك مضرّة؟ قلنا. في ذلك أكبر النعمة لأن التكليف لا يصح إلا مع منازعة الى الشرى المنهى عنه، فكان ذلك من قبل عدوّ، يحذره، أولى من أن يكون المنازعة من قبل ولى يستنصحه . و في ذلك المصلحة لنا بالتعريض للشواب الذي يستحقه بالمخالفة له، والطاعة لله تعالى، كما أن في خلقه مصلحة من هذه الجهة، وإذا كان إنما أفهمنا ذلك لنجتنبه، فهو كتعليم شبيهة ملحد، لنعلم حلها.

و في الآية دلالة على بطلان قول من قال: إن المعارف ضرورة، لأنها لو كانت ضرورة، لما جاز أن يدعوهم الى خلافها، كما لا يدعوهم الى خلاف ما هم مضطرون اليه من أن السماء فوقهم، والأرض تحتهم، وما جرى مجراه مما يعلم ضرورة لأن الدعاء الى ذلك يجرى مجرى الدعاء الى خلق الأجسام، وبعث الأموات، لا يدخل تحت مقدور القدرة . وقد استدلل نفاة القياس، و القول بالاجتهاد بهذه الآية بأن قالوا: القول بالاجتهاد والقياس قول بغير علم، وقد نهى الله عن ذلك فيجب أن يكون ذلك محظوراً، ومذهبنا وإن كان المنع من القول بالاجتهاد، فليس في هذه الآية دلالة على ذلك، لأن للخصم أن يقول: إذا دلني الله تعالى على العمل بالاجتهاد، فلا أعمل أنا به إلا بالعلم، ويجرى ذلك مجرى وجوب العمل عند شهادة الشاهدين، والعمل بقول المقومين في أروش الجنائيات، وقيم المتلفات، وجهات القبلة، وغير ذلك من الأشياء التي هي واقعة على الظن شرط، والعمل واقف على الدليل الموجب للعلم

ص: ٧٥

عنده، فلا يكون في الآية دلالة على ذلك . وقد بينا ما نعتمده في بطلان القول بالاجتهاد والرأى - في أصول الفقه - فلا وجه لذكره هاهنا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٠]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

آية واحدة بلا خلاف.

ألفينا، وصادفنا، وجدنا بمعنى واحد، والأب، والوالد واحد.

الاعراب:

و قوله تعالى: «أَوْ لَوْ كَانَ» هي واو العطف، دخلت عليها حرف الاستفهام، والمراد بها التوبيخ والتفريع، فهي ألف التوبيخ . و مثل هذه الألف «١» «أُتِمَّ إِذَا مَا وَقَعَ» «٢» و «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» «٣». وانما جعلت ألف الاستفهام للتوبيخ، لأنه يقتضى ما الإقرار به فصيحة عليه، كما يقتضى الاستفهام الاخبار، مما يحتاج اليه.

المعنى:

و المعنى: إنهم يقولون، هذا القول «وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ». و الفرق بين دخول الواو، و سقوطها في مثل هذا الكلام، أنك إذا قلت : اتبعه و لو ضرك، فمعناه اتبعه على كل حال و لو ضرك، و ليس كذلك إذا قال:

اتبعه لو ضرك، لأن هذا خاص، و الأول عام، فإنما دخلت الواو لهذا المعنى.

(١) فى المطبوعة (الواو).

(٢) سورة يونس آية: ٥١.

(٣) سورة يوسف آية: ١٠٩، و سورة الحج آية: ٤٦، و سورة المؤمن آية: ٨٢، و سورة محمد آية: ١٠.

ص: ٧٦

و معنى قوله: «لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» يحتمل شيئين:

أحدهما - لا يعقلون شيئاً من الدين و لا يهتدون إليه.

و الثانى - على الشتم و الذم، كما يقال : هو أعمى إذا كان لا يبصر طريق الحق - على الذم - هذا قول البلخى . و الأول قول الجبائى.

و فى الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، لأنها دلت على أنهم كانوا على ضلال فى الاعتقاد.

و الضمير فى قوله: «هم» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - انه يعود على (من) فى قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً».

و الثانى - انه يعود على (الناس) من «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً» فعدل عن المخاطبة الى الغيبة، كما قال تعالى: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ». «١» الثالث - انه يعود على الكفار، إذ جرى ذكرهم، و يصلح أن يعود اليهم و إن لم يجز ذكرهم، لأن الضمير يعود على المعلوم، كما يعود على المذكور، و

قال ابن عباس: إن النبي (ص) دعا اليهود من أهل الكتاب الى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم و خيراً منا، فأنزل الله عز و جل «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» الآية.

و «الْفَيْنَا» فى الآية معناه وجدنا- فى قول قتادة- قال الشاعر: «٢»

فألفيته غير مستعتب
و لا ذاكر الله إلا قليلا «3»

(١) سورة يونس آية: ٢٢.

(٢) هو أبو الأسود الدؤلى.

(٣) ديوانه: ٤٩، و الأغانى ١١ ١٠٧، و شرح شواهد المغنى: ٣١٦، و اللسان (عتب) و هو من أبيات قالها فى امرأة كان يجلس اليها بالبصرة، فقالت له: هل لك أن تتزوجنى، فانى امرأة صناع الكف، حسنة التدبير قانعة بالميسور، فتزوجها ثم وجدها على خلاف ما قالت، فخانتها و أسرعرت فى ماله، و أفشت سره، فردها الى أهلها، و أنشد الأبيات، فقالوا : بلى و الله يا أبا الأسود، فقال: هذه صاحبتكم، و انى أحب أن أستر ما أنكرت من أمرها، ثم سلمها اليهم.

ص: ٧٧

و الاتباع: طلب الاتفاق فى المقال أو الفعال . أما فى المقال، فإذا دعا الى شىء استجيب له . و أما فى الفعال، فإذا فعل شيئاً، فعلت مثله.

و العقل مجموعة علوم بها يتمكن من الاستدلال بالشاهد على الغائب. و قال قوم: هو قوة فى النفس يمكن بها ذلك. و الاهتداء الاصابة لطريق الحق بالعلم.

و فى الآية حجة عليهم من حيث أنهم إذا جاز لهم أن يتبعوا آباءهم فيما لا يدرون أحق هو أم باطل، فلم لا يجوز اتباعهم مع العلم بأنهم مبطلون. و هذا فى غاية البطلان.

و فيها دلالة على فساد التقليد، لأن الله تعالى ذمهم على تقليد آبائهم، و وبخهم على ذلك . و لو جاز التقليد لم يتوجه إليهم توبيخ، و لا لوم، و الأمر بخلافه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧١]

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

آية بلا خلاف.

المعنى:

التشبيه في هذه الآية يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل:

أحدها - وهو أحسنها وأقربها الى الفهم، وأكثرها في باب الفائدة - ما قاله أكثر المفسرين كابن عباس، والحسن، ومجاهد، و قتادة، والربيع، واختاره الزجاج، والفراء، والطبري، والجبائي، والرماني.

و هو المروى عن أبي جعفر (ع) إن مثل الذين كفروا في دعائكم إياهم، «كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ» أى الناقق في دعائه.

المنعوق به من البهائم التى لا تفهم كالإبل، والبقرة، والغنم، لأن ها لا تعقل ما يقال لها، وإنما تسمع الصوت . و الحذف فى مثل هذا حسن. كقولك لمن هو سىء الفهم:

أنت كالحمار، وزيد كالأسد : أى فى الشجاعة، لأن المعنى فى أحد الشئتين أظهر، فيشبهه بالآخر ليظهر بظهوره، وهذا باب حسن البيان.

الثانى - حكاه البلخي، وغيره: إن مثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من

ص: ٧٨

الأوثان كمثل الناقق فى دعائه ما لا يسمع، بتعالى، وما جرى مجراه من الكلام، وذلك أن البهائم لا تفهم الكلام، وإن سمعت النداء، والدعاء، وأقصى أحوال الأصنام أن تكون كالبهائم فى أنها لا تفهم، فإذا كان لا يشكل عليهم أن من دعا البهائم بما ذكرناه جاهل، فهم فى دعائهم الحجارة أولى بالجهل و صفة الذم.

الثالث - قال ابن زيد: إن مثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم كمثل الناقق فى دعائه الصدى فى الجبل، و ما أشبهه، لأنه لا يسمع منه إلا دعاء و نداء، لأنه إذا قال : يا زيد، سمع من الصدى يا زيد، فيتخيل اليه أن مجيباً أجابه، وليس هناك شىء، فيقول: يا زيد، وليس فيه فائدة، فكذلك يخيل الى المشركين أن دعاءهم للأصنام يستجاب، وليس لذلك حقيقة، و لا فائدة، وإنما رجحنا الوجه الأول، لما بيناه من حسن الكلام، ولأنه مطابق للسبب الذى قيل : إنها نزلت فى اليهود، فإنهم لم يكونوا يعبدون الأصنام، و لا يليق بهم الوجه الثانى، فإذا ثبت ذلك، ففيه ثلاثة أوجه من الحذف:

أولها - «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا» فى دعائكم لهم كمثل الناقق فى دعائه المنعوق به . و الثانى - «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا» فى دعائهم الأوثان كمثل الناقق فى دعائه الأنعام . الثالث - مثل وعظ الذين كفروا كمثل نعق الناقق بما لا يسمع، وهذا من باب حذف المضاف، و إقامة المضاف اليه مقامه كقول الشاعر: «١»

و قد خفت حتى ما تزيد مخافتى

على وعل فى ذى المطارة عاقل «2»

و التقدير على مخافةً وعل . فان قيل: كيف قول الذين كفروا- و هم المنعوق به - بالناعق، و لما تقابل المنعوق به بالمنعوق به -
فى ترتيب الكلام - أو الناعق بالناعق؟ قيل للدلالة على تضمين الكلام تشبيه اثنين باثنين: الداعى للايمان للمدعو

(١) هو نابغة بنى ذبيان.

(٢) ديوانه: ٩٠، و اللسان (خوف)، و مجاز القرآن: ٦٥، و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢٠٢، ٢١٦. الوعل: تيس الجبل يتحصن
بوزره من الصياد. (ذى المطار) - بفتح الميم -: اسم جبل. و عاقل: قد عقل فى رأس الجبل . فى المطبوعة (لقد) بدل (و قد) و
رواية اللسان (بذى) بدل (فى ذى).

ص: ٧٩

من الكفار بالداعى الى المراد للمدعو من الانعام، فلما أريد الإيجاز أبقى ما يدل على ما ألقى، فأبقى فى الأول ذكر المدعو، و
فى الثانى ذكر الداعى، و لو رتب على ما قال السائل، لبطل هذا المعنى . و زعم أبو عبيدة، و الفراء : أنه يجرى مجرى المقلوب
الذى يوضع فيه كلمة مكان كلمة، كأنه وضع الناعق مكان المنعوق به، و أنشد:

كانت فريضة ما تقول كما

كان الزناء فريضة الرجم «1»

و المعنى كما كان الرجم فريضة الزناء، و كما يقال : أدخلت القلنسوة فى رأسى، و إنما هو أدخلت رأسى فى القلنسوة قال
الشاعر:

إنَّ سراجاً لكریم مفخره

تحلى به العين إذا ما تجهره «2»

و المعنى يحلى بالعين، فجعله تحلى به العين . و الأقوى أن يكون الأمر على ما بيناه من المعنى الذى دعا الى الخلاف فى
الحذف، ليدل بما بقى على ما ألقى.

اللغة:

قال صاحب العين: نطق الراعي بالغنم ينطق نعيقاً إذا صاح بها زجراً، ونطق الغراب نعاقاً ونعيقاً إذا صاح. والناعقان كوكبان من كواكب الجوزاء: رجلها اليسرى ومنكها الأيمن، وهو الذى يسمى الهنعة، وهما أضوء كوكبين فى الجوزاء.

و أصل الباب الصياح، و النداء : مصدر نادى مناداة، و نداء، و تنادوا تنادياً، و ندى تنديّة، و تندى تنديّاً . و النداء، و الدعاء، و السؤال نظائر، قال صاحب العين:

الندى له وجوه من المعنى : ندى الماء، و ندى الخير، و ندى الشر، و ندى الصوت، و ندى الخصر . فأما ندى الماء، فمنه ندى المطر، أصابه ندى من طلّ، و يوم ندى، فأرض ندية . و المصدر منه الندوة، و الندى ما أصابه من البلل، و ندى الخير هو المعروف، تقول: أئدى علينا فلان ندى كثيراً، و إن يده لندية بالمعروف، و ندى

(١) البيت للناطقة الجعدى. اللسان (زنا)، و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٦، و معانى القرآن للفراء ١: ٩٩، ١٣١.

(٢) اللسان (حلا). و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٦. فى المطبوعة (لجلاله) بدل (تحلاه). تجهره: تنظر اليه نظرة إعجاب و تقدير.

ص: ٨٠

الصوت: بعد مذهبه، و ندى الخصر : صحنه جريه، و اشتق النداء فى الصوت من ندى ناداه أى دعاه بأرفع صوته : ناداه به. و الندوة الاجتماع فى النادى، و هو المجلس، ندى القوم يندون نادوا إذا اجتمعوا، و منه دار الندوة، و أصل الباب الندى : البلل، و ندى الجود كندى الغيث.

المعنى:

و معنى «صَمُّكُمْ عُمَى فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ» أى صم عن استماع الحجة، بكم عن التكلم بها، عمى عن الأبصار لها، و هو قول ابن عباس و قتادة و السدى. و الأعمى:

من فى بصره آفة تمنعه من الرؤية. و الأصم: من كان فى آله سمعه آفة تمنعه من السمع. و الأبكم: من كان فى لسانه آفة تمنعه من الكلام. و قيل: إنه يولد كذلك، و الخرس قد يكون لعرض يتجدد.

و أجاز الفراء النصب فى «صم» على الذم، و الأجود الرفع على ما عليه القراء، و تقديره هم صم.

و فيها دلالة على بطلان قول من زعم : أنهم لا يستطيعون سمعاً على الحقيقة، لأنه لا خلاف أنهم لم يكونوا صماً لم يسمعوا الأصوات، و انما هو كما قال الشاعر:

أَصَمَّ عما ساءه سميع»1»

و فيها دلالة على بطلان قول من قال: إن المعرفة ضرورة، لأنهم لو كانوا عالمين ضرورة لما استحقوا هذه الصفة.

و قال عطا: نزلت هذه الآية في اليهود، و معنى ينطق يصوت قال الأخطل:

فالعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضاللا»2»

و الدعاء: طلب الفعل من المدعو، و الأولى أن يعتبر فيه الرتبة، و هو أن

(١) اللسان (صمم)، (سمع).

(٢) ديوانه: ٥٠، و نقائض جرير و الأخطل: ٨١، و اللسان (نطق) و طبقات فحول الشعراء ٤٢٩، و مجاز القرآن: ٦٤، يقول: انما أنت راعى غنم و ليس لك حظ في هذا الأمر الذى منتك نفسك به، فارجع الى غنمك، فأمرها و أنها ها، و اترك الحرب، و إنشاد الشعر.

ص: ٨١

يكون فوق الداعى. و السمع: إدراك الصوت. و المثل: قول سائر يدل على أن سبيل الثانى سبيل الاول.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)

آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا الخطاب يتوجه الى جميع المؤمنين، و قد بينا أن المؤمن هو المصدق بما وجب عليه، و يدخل فيه الفساق بأفعال الجوارح، و غيرها، لأن الايمان لا ينفى الفسق - عندنا - و عند المعتزلة: إنه خطاب لم جتنبي الكبائر، و إنما يدخل فيه الفساق على

طريق التبع، و التغليب، كما يغلب المذكر على المؤنث فى قولك : الإماء و العبيد جاوزنى، و قد بينا فيما تقدم أن أفعال الجوارح لا تسمى إيماناً- عند أكثر المرجئة، و أكثر أصحابنا- و إن بعضهم يسمى ذلك إيماناً، لما روه عن الـوضا (ع). و إيمان مأخوذ من أمان العقاب- عند من قال : إنه تناول مجتنبي الكبائر- و عند الآخرين من أمان الخطأ، فى الاعتقاد الواجب عليه . و فى المخالفين من يجعل الطاعات الواجبات، و النوافل من الايمان . و فيهم من يجعل الواجبات فقط إيماناً، و يسمى النوافل إيماناً مجازاً.

و قوله «كلوا» ظاهره ظاهر الأمر، و المراد به الاباحة، و التخيير، لأن الأكل ليس بواجب إلا أنه متى أراد الأكل، فلا يجوز أن يأكل إلا من الحلال الطيب، و متى كان الوقت وقت الحاجة فانه محمول على ظاهره فى باب الأمر:

سواء قلنا: إنه يقتضى الإيجاب أو الندب.

و فى الآيه دلالة على النهى عن أكل الخبيث- فى قول البلخى، و غيره- كأنه قيل: كلوا من الطيب دون الخبيث، كما لو قال : كلوا من الحلال، لكان ذلك

ص: ٨٢

دالاً على حظر الحرام- و هذا صحيح فيما له ضدّ قبيح مفهوم . فأما غير ذلك، فلا يدل على قبح ضده، لأن قول القائل، كل من زيد، لا يدل على أن المراد تحريم ما عداه، لأنه قد يكون الغرض البيان لهذا خاصة، و الآخر موقوف على بيان آخر، و ليس كذلك ما ضده قبيح، لأنه قد يكون من البيان تقييح ضده.

و الطيبات قدمنا معناها فيما تقدم، و أن المراد بذلك الخالص من شائب ينقص، و إن كان لا يخلو شىء من شائب، لكنه لا يعتد به فى الوصف بأنه حلال طيب، و لو كان فى الطعام ما ينغصه لجاز وصفه بأنه ليس بطيب.

و الرزق قد بينا فيما مضى: أنه ما للحي الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد منعه منه.

و قوله : «وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ» فالشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، و يكون ذلك عن وجهين : «١» أحدهما- الاعتراف بالنعمة- متى ذكرها- للمنع بالاعتقاد لها.

الثانى - الطاعة بحسب جلاله النعمة، فالأول لازم فى كل حال من أحوال الذكر، و الثانى إنما يلزم فى الحال التى يحتاج فيها الى القيام بالحق، و اقتضى ذكر الشكر هاهنا ما تقدم ذكره من الانعام فى جعل الطيب من الرزق، للانتفاع، و استدفاع المضار، و ذكر الشرط هاهنا إنما هو وجه المظاهرة فى الحجاج و لما فيه من حسن البيان دون أن يكون ذلك شرطاً فى وجوب الشكر، و تلخيص الكلام إن كانت العبادة لله واجبة عليكم بأنه إلهكم، فالشكر له واجب عليكم بأنه محسن إليكم.

و أما العبادة، فهى ضرب من الشكر، لأنها غاية ليس وراءها شكر، و يقترب به ضرب من الخضوع . و لا يستحق العبادة إلا الله، لأنها تستحق بأصول النعم من الحياة، و القدرة، و الشهوة، و النفاد، و أنواع المرافع، و بقدر من النفع لا يواريه

(١) في المطبوعة هنا تكرير الوجه الاول كله. و الظاهر أنه تسطير من الناسخ و انما حذفناه لعدم وجوده في المخطوطة و لا في مجمع البيان. لأن مجمع البيان ناقل المطلب بحذافيره، و لم يكرر.

ص: ٨٣

نعمة منع، فلذلك اختص الله تعالى باستحقاقها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٣]

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَ مَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ
رَحِيمٌ (١٧٣)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع و ابن عامر، و ابن كثير، و الكسائي - بضم نون - «فَمَنْ اضْطُرَّ» الباقون بكسرها.

اللغة و الاعراب:

لفظة إنما تفيد إثبات الشيء، و نفى ما سواه كقول الشاعر:

و إنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى «1»

و معناه لا يدافع غيري، و غير من هو مثلي، و هو قول الزجاج، و الفراء، و الرماني، و الطبري، و أكثر أهل التأويل . و إنما كانت لاثبات الشيء، و نفى ما سواه، من قبل أنها لما كانت (إن) للتأكيد، ثم ضم إليها (ما) للتأكيد ايضاً، أكدت (إن) من جهة التحقيق للشيء، و أكدت (ما) من جهة نفى ما عداه، فكأنك إذا قلت : إني بشر، فالمعنى أنا بشر على الحقيقة، فإذا قلت : إنما أنا بشر، فقد ضمنت إلى هذا القول ما أنا إلا بشر.

و تقدير قوله تعالى : «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ» ما حرم عليكم إلا الميتة . و لو كانت (ما) بمعنى الذي، لكتبت مفصلة «٢»، و مثله قوله تعالى:

(١) قائله الفرزدق، تلخيص المفتاح أو مختصر المعاني للتفتازانى (باب القصر) و هو:

أنا الذائد الحامى الديار و انما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

(٢) فى المطبوعة (مفعوله).

ص: ٨٤

«إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» «١» أى لا إله إلا واحد، و مثله «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» «٢» أى لا نذير إلا أنت «٣» و مثله إنما ضربت أخاك أى ما ضربت إلا أخاك.

فإذا ثبت ذلك، فلا يجوز فى الميتة إلا النصب، لأن (ما) كافة «٤» و معناه تحريم الميتة، و تحليل المذكى، و لو كانت ما بمعنى الذى، لكان يجوز فى الميتة الرفع.

و الفرق بين الميت، و الميتة قيل فيه قولان:

أحدهما - قال أبو عمرو: ما كان قد مات، فهو بالتخفيف مثل «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ» «٥». و ما لم يمّت بالتثقيب كقوله تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» «٦». و وجه ذلك أن التثقيب لما كان هو الأصل كان أقوى على التصريف فى معنى الحاضر و المستقبل.

و [الثانى] قال قوم: المعنى واحد، و انما التخفيف لثقل الباء على الكسرة، قال الشاعر: «٧»

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء «8»

فجمع بين اللغتين:

(١) سورة النساء آية: ١٧.

(٢) سورة الرعد آية: ٨.

(٣) هكذا في النسخ كلها و في مجمع البيان أيضاً، و الصحيح (ما أنت الا منذر) و هو من باب قصر الموصوف على الصفة، و هو الذي يقتضيه المقام، و عبارة المتن من باب قصر الصفة على الموصوف.

(٤) في المطبوعة (كأنه) بدل (كافه، و معنى كافه: أى قد كفت ان) عن المعمل بالجملة التي بعدها، و إذا كانت (ان) مكفوفة تعين نصب (الميتة) ب (حرم)، و إذا كانت ان عاملة في الجملة تكون (ما) اسم موصول بمعنى الذى، و هى اسم (ان)، و الميتة خبر (ان) فيتعين الرفع على هذا التقدير كما يتعين النصب على الأول.

(٥) سورة الانعام آية: ٩٥. و سورة يونس آية: ٣١ و سورة الروم آية: ١٩.

(٦) سورة الزمر آية: ٣٠.

(٧) هو عدى بن الرعلاء.

(٨) اللسان (ميت) و شرح شواهد المغنى: ١٣٨. و معجم الشعراء: ٢٥٣.

و غيرها كثير.

ص: ٨٥

المعنى:

قوله: «وَمَا أَهْلٌ بِهِ لِنَعْرِ اللَّهَ» قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الربيع، و ابن زيد، و غيرهما من أهل التأويل: معناه ذكر غير اسم الله عليه.

و الثانى - قال قتادة، و مجاهد: ما ذبح لغير الله.

اللغة:

و الإهلال على الذبح: هو رفع الصوت بالتسمية، و كان المشركون يسمون الأوثان، و المسلمون يسمون الله . و يقال: انهل المطر انهلالاً و هو شدة انصبابه، و تهلل السحاب ببرقه أى تلاًلاً، و تهلل وجهه إذا تلاًلاً، و تهلل الرجل فرحاً، و الهلال غرة القمر، لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته بالتكبير، و المحرم يتهلل بالإحرام، و هو أن يرفع صوته بالتلبية، و يهلل الرجل : يكبر إذا نظر الى الهلال.

و هلل البعير تهليلاً إذا تقوس كتقوس الهلال، و سمي به الذكر، لأن الهلال ذكر.

و ثوب هل أى رقيق مشبه بالهلال فى رفته . و التهليل: الفزع، و استهل الصبى إذا بكى حين يولد. و الهلال: الحية الذكر، لأنه يتقوس، و سمي به الذكر، لأن الهلال ذكر.

«فَمَنْ اضْطُرَّ» من كسر النون فالتقاء الساكنين، و من ضمها أتبع الضمة الضمة فى الطاء. و قرأ أبو جعفر بكسر الطاء.

و الاضطرار: كل فعل لا يمكن المفعول به الامتناع منه، و ذلك كالجوع الذى يحدث للإنسان، و لا يمكنه الامتناع منه . و الفرق بين الاضطرار، و الإلجاء أن الإلجاء تتوفر معه الدواعى الى الفعل من جهة الضر أو النفع، و ليس كذلك الاضطرار.

و أكثر المفسرين على أن المراد فى الآية المجاعة . و قال مجاهد: ضرورة إكراه. و الأولى أن يكون محمولا على العموم إلا ما خصه الدليل.

ص: ٨٦

«وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ» قال صاحب العين يقال: رجل لحم إذا كان أكل اللحم.

و بيت لحم: يكثر فيه اللحم. و ألحمت القوم إذا قتلتهم و صاروا لحماً. و الملحمة:

الحرب ذات القتل الشديد. و استلحم الطريق إذا اتسع. و اللحمة: قرابة النسب.

و اللحمة ما يسد به بين السديين من الثوب . و اللحام: ما يلحم به صدع ذهب أو فضة أو حديد حتى يلتحما، و يلتئما . و كل شىء كان متبايناً ثم تلاءم، فقد التحم.

و شجة متلاحمة إذا بلغت اللحم. و أصل الباب للزوم، فمنه اللحم للزومه بعضه بعضاً.

المعنى:

و قوله: «غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ» قيل فى معناه ثلاثة أقوال: أولها- (غير باغ) اللذة «و لا عاد» سد الجوعة و هو قول الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الربيع، و ابن زيد . و الثانى- ما حكاه الزجاج «غير باغ» فى الافراط «و لا عاد» فى التقصير. و الثالث- «غير باغ» على إمام المسلمين «و لا عاد» بالمعصية طريق المحقين، و هو قول سعيد بن جبير، و مجاهد، و هو المروى عن أبى جعفر، و أبى عبد الله (ع) قال الرمانى: و هذا القول لا يسوغ، لأنه تعالى لم يبيح لأحد قتل نفسه بل حظر عليه ذلك، و التعريض للقتل قتل فى حكم الدين، و لأن الرخصة إنما كانت لأجل المجاعة المتلفة، لا لأجل الخروج فى طاعة، و فعل إباحة. و هذا الذى ذكره غير صحيح لأن من بغى على إمام عادل فأدى ذلك الى تلفه، فهو المعرض نفسه للقتل، كما لو قتل فى المعركة، فانه المهلك لها، فلا يجوز لذلك استباحة ما حرم الله، كما لا يجوز له أن يستبقى نفسه بقتل غيره من المسلمين، و ما قاله من أن الرخصة لمكان المجاعة، لا يسلم إطلاقه، بل يقال: إنما ذلك للمجاعة التى لم يكن هو المعرض نفسه لها، فأما إذا

عرّض نفسه لها، فلا يجوز له استباحة المحرم، كما قلنا فى قتل نفس الغير، ليدفع عن نفسه القتل . و أصل البغى : الطلب من قولهم: بغى الرجل حاجته يبغيها بغاً قال الشاعر:

ص: ٨٧

لا يمتنعك من بغا ء الخير تعقاد التماثم «1»

إن الأشائم كالأيا من و الأيا من كالأشائم «2»

و البغاء: طلب الزنا. و إنما اقتضى ذكر المغفرة هاهنا أحد أمرين:

أحدهما- النهى عما كانوا عليه من تحريم ما لم يحرمه الله من السائبة، و الوصيلة، و الحام، فوعد الله بالمغفرة عند التوبة، و الانابة الى طاعة الله فيما أباحه أو حظره.

الثانى - إذا كان يغفر المعصية، فهو لا يؤاخذ بها، جعل فيه الرخصة، و لا يجوز أن يقع فى موضع غير (إلا) لأنها بمعنى النفى هاهنا، و لذلك عطف عليها ب (لا) لأنها فى موضع (لا). فأما (إلا) فمعناها فى الأصل الاختصاص لبعض من كل، و ليس هاهنا كل يصلح أن يحض منه . «غير باغ» منصوب على الحال و تقديره لا باغياً، و لا عادياً . و القدر المباح من الميتة عند الضرورة ما يمسك الرمي فقط - عندنا - و فيه خلاف ذكرناه فى خلاف الفقهاء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٤]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)

آية بلا خلاف.

المعنى:

المعنى بهذه الآية أهل الكتاب بإجماع المفسرين إلا أنها متوجهة - على قول كثير منهم - الى جماعة قليلة منهم، و هم علماؤهم الذين يجوز على مثلهم كتمان ما علموه، فأما الجمع الكثر منهم الذين لا يجوز على مثلهم ذلك لاختلاف «٣» دواعيهم، فلا

(١) اللسان (عقد) في المطبوعة (لا يمنعك) بدل (لا يمنعك) و لم يستقم به الوزن.

(٢) اللسان (شأم) و روايته (فإذا) بدل (ان).

(٣) في المطبوعة «لا خلاف».

ص: ٨٨

يجوز. و الذى كتموه قيل فيه قولان:

قال أكثر المفسرين : إنهم كتموا أمر النبي (ص) بأن حرفوه عن وجهه فى التأويل، هذا إذا حمل على الجماعة الكثيرة . و إن حمل على القليلة منهم، يجوز أن يكونوا كتموا نفس التنزيل ايضاً.

الثانى - قال الحسن: كتموا الأحكام، و أخذوا الرشا على الأحكام، و الكتاب على القول الأول : هو التوراء، و على الثانى يجوز أن يحمل على القرآن و سائر الكتب.

و قوله : «وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» ليس المراد به أنهم إذا اشتروا به ثمناً كثيراً كان جائزاً . و إنما المقصد كلما يأخذونه فى مقابلته من حطام الدنيا، فهو قليل، كما قال «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» «١» و كما قال «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» «٢» و انما أراد أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق، و إن من ادعى مع الله إلها آخر لا يقوم له عليه برهان . و كما قال الشاعر:

على لا حب لا يهتدى بمناره

و المعنى لا لاحب هناك، فيهتدى به، لأنه لو كان، لاهتدى به.

و قوله تعالى «مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» معناه على قول الربيع، و الحسن، و الجبائى، و أكثر المفسرين: الأجر الذى أخذوه على الكتمان، سمي بذلك، لأنه يؤديهم الى النار، كما قال فى أكل مال اليتيم ظلماً «إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً» «٣» و قال بعضهم: إنما يأكلون فى جهنم نارا جزاء على تلك الاعمال، و الأول أحسن . فان قيل إذا كان الأكل «٤» لا يكون إلا فى البطن، فما معنى قوله «فِي بُطُونِهِمْ»؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما- ان العرب تقول: جعت فى غير بطنى و شبعت فى غير بطنى، إذا

(١) سورة آل عمران آية: ٢١.

(٢) سورة المؤمنون آية: ١١٧.

(٣) في المطبوعة (الاول).

(٤) سورة النساء آية: ٩.

ص: ٨٩

جاء من يجرى جوعه مجرى جوع نفسه، فذكر ذلك لإزالة اللبس.

و الثاني - انه لما استعمل المجاز بالإجراء على الرشوة اسم النار، حقق بذكر البطن، ليدل على أن النار تدخل أجوافهم.

اللغة:

و البطن: خلاف الظهر. و البطن: الغامض من الأرض. و البطن من العرب:

دون القبيلة. و عرفت هذا الأمر ظاهره، و باطنه أى سرّه و علانيته. و رجل بطين:

عظيم البطن. و مَبْطَن: خميص البطن. و فلان بطانتى دون إخوانى. أى الذى أبطنه أمرى. و استبطنت أمر فلان: إذا وقفت على دخلته. و يقال فى المثل: البطنة تذهب الفطنة، و بطن الشىء بطوناً إذا غمض. و البطان حزام الرّحل. و البطين: نجم و هو بطن الحمل. و أصل الباب البطون: خلاف الظهور.

لمعنى:

و قوله تعالى: «وَلَا يَكْلَمُهُمْ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - لا يكلمهم بما يحبون، وإنما هو دليل على الغضب عليهم، و ليس فيه دليل على أنه لا يكلمهم بما يسوءهم، لأنه قد دلّ فى موضع آخر، فقال «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» «١» و قال «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» قالَ اخْسُؤْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ «٢» و هذا قول الحسن، و واصل، و أبى على.

الثانى - لا يكلمهم أصلاً، فتحمل آيات المسائلة على أن الملائكة تسألهم بأمر الله و يتأول قوله «اخْسُؤْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» على أن الحال دالة على ذلك. و إنما دلّ نفي الكلام على الغضب - على الوجه الاول - من حيث أن الكلام وضع فى الأصل

(١) سورة الاعراف آية: ٥.

(٢) سورة المؤمنون آية: ١٠٨ - ١٠٩.

ص: ٩٠

للفائدة، فلما انتفى على جهة الحرمان للفائدة، دلّ على الغضب، و لا يدخل فى ذلك الكلام للغم و الإيلام.

و قوله: «وَلَا يُزَكِّيهِمْ» معناه لا يبنى عليهم، و لا يصفهم بأنهم أذكىاء.

و يحتمل أن يكون المراد لا يتقبل أعمالهم تقبل أعمال الأذكىاء.

و الاشتراء هو الاستبدال بالثمن العوض، فلما كانوا هؤلاء استبدلوا بذنبهم الثمن القليل، قيل فيهم : إنهم اشتروا به ثمناً قليلاً. و الثمن هو العوض من العين، و الورق و القلة هو نقصان المقدار عن مقدار غيره، لأنه يقال: هو قليل بالاضافة الى ما هو أكثر منه، و كثير بالاضافة الى ما هو أقل منه.

و الكلام ما انتظم من حرفين فصاعداً من هذه الحروف المعقولة : إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيله للافادة و قال الرمانى : الكلام ما كان من الحروف دالاً بتأليفه على معنى، قال و أصله من الآثار و هى كالعلاّمات الدالّة، و الكلم أى الجراح.

و ما ذكرناه أولى، لأن هذا ينتقض بالمهمل من الكلام، فانه لا يفيد و هو كلام حقيقة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٥]

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى «اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى» استبدلوا، لأن أصل الشراء الاستبدال، و ليس يقع فى مثله إشكال، فأما قولهم: استبدل بالجارية غيرها، فلا يجوز أن يقال بدلاً منه : اشترى، لأنه يلتبس. و الضلالة التى اشتروها بالهدى : كفرهم بالنبي (ص) و جحدهم لنبوته استبدلوه بالايمان به، و هم و إن لم يقصدوا أن يضلوا بدلاً من أن يهتدوا فقد قصدوا الكفر بالنبي (ص) بدلاً من الايمان به، و ذلك ضلال

ص: ٩١

بدلاً من هدى، فقد قصدوا الضلال بدلاً من الهدى، وإن لم يقصدوه من وجه أنه ضلال . و لا يجوز أن يقول: قصدوا أن يضلوا. لأنه يوهم أنهم قصدوه من هذا الوجه، كما ينبئ علموا أنهم يضلون غير أنهم علموه من هذا الوجه، و يجوز قصدوا الضلال، و علموا الضلال، لأنه لا ينبئ على هذا الوجه و إنما علموه، و قصدوه من وجه آخر، و هو جردهم محمداً (ص) بدلاً من التصديق به.

و قوله تعالى «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» الفاء معناها معنى الجواب، لأن الكلام المتقدم قد تضمن معنى من كان بهذه الصفة، «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» فعومل معاملة المعنى الذى تضمنه حتى كأنه قد لفظ به . و العجب لا يجوز على التقديم تعالى، لأنه عالم بجميع الأشياء، لا يخفى عليه شئ . و التعجب يكون مما لا يعرف سببه . و إنما الغرض - من الآية - أن يدلنا على أن الكفار حلوا محل من يتعجب منه، فهو تعجب لنا منهم. و قد قيل فى معنا (ما) فى قوله «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» قولان:

أحدهما - قال الحسن، و قتادة، و مجاهد : إنها للتعجب . و الثانى - قال ابن عباس، و ابن جريج، و ابن زيد و السدى : إنها للاستفهام. و قيل فى معنا «أصبرهم» أربعة أقوال:

أحدها - ما أجراه على النار، ذهب اليه الحسن و قتادة . و الثانى - قال مجاهد:

ما أعملهم بأعمال أهل النار. و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و الثالث - حكاه الزجاج: ما أبقاهم على النار، كما تقول: ما أصبره على الحبس. و الرابع - ذكره الفراء: ما صبرهم على النار أى حبسهم عليها. و قال الكسائى: هو استفهام على وجه التعجب. قال أبو العباس: المبرد: هذا حسن كأنه توبيخ لهم و تعجب لنا، مثل قولك للذى وقع فى هلكة ما اضطرَّك الى هذا، إذا كان غنياً عن التعرض للوقوع فى مثلها . يقال: أصبرت السبع، و الرجل، و نحوه إذا نصبته لما يكره.

و قال الحطيئة:

قلتُ لها أصبرُها جاهداً
ويحك أمثال طريف قليل «1» :

(١) اللسان (صبر). الضمير فى أصبرها عائد على النفس، و كأنه يقول: احبس نفسك على الجهاد.

ص: ٩٢

معناه ألزمها، و اضطرها . فأما التعجب، فمثل قوله «قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ» «١» أى قد حلَّ محلَّ ما يتعجب منه . و قيل: ما أصبرك على كذا بمعنى ما أجراكَ قال أبو عبيدة: هى لغة يمانية.

و اشتق أصبر بمعنى أجراً من الصبر الذى هو حبس النفس، لأن بالجرأه يصبر على الشدة . فأما القول الآخر: فحبسوا أنفسهم على عمل أهل النار، بدوامهم عليه، و انهماكهم فيه. و حكى الكسائى عن قاضى اليمن عن بعض العرب، قال لخصمه:

ما أصبرك على الله أى على عذاب الله تعالى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٦]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

آية واحدة.

الاعراب:

ذلك رفع بالابتداء، أو بأنه خبر الابتداء و هو إشارة الى أحد ثلاثة أشياء:

أولها- قال الحسن: ذلك الحكم بالنار. الثانى - ذلك العذاب. الثالث - ذلك الضلال.

و فى تقدير خبر ذلك ثلاثة أقوال : [الاول]- قال الزجاج: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك، فحذف لدلالة ما تقدم من الأمر بالحق . فكأنه قال: ذلك الحق.

و استغنى عن ذكر الحق لتقدم ذكره فى الكلام . الثانى - ذلك معلوم «بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» فقد تقدم ذكر ما هو معلوم بالتنزيل، فحذف لدلالة الكلام عليه.

الثالث - ذلك العذاب لهم «بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» وكفروا به، فتكون الباء فى موضع الخبر. و يحتمل ذلك أن يكون رفعاً على ما بينا. و يحتمل أن يكون نصباً على فعلنا ذلك، لأن فى الكلام ما يدل على (فعلنا).

(١) سورة عبس آية: ١٧.

ص: ٩٣

المعنى:

و معنى الكتاب هاهنا قيل: إنه التوراة. و قال الجبائى: إنه القرآن، و غيره.

و هو أعم فائدة.

و قال بعضهم: إن المراد بالأول التوراء، و بالثانى القرآن. و معنى الاختلاف هاهنا يحتمل أمرين:

أحدهما- قول الكفار فى القرآن . و منهم من قال : هو كلام السحرة . و منهم من قال : كلام يعلمه . و منهم من قال : كلام يقوله الثانى - اختلاف اليهود و النصارى فى التأويل، و التنزيل من التوراء، و الإنجيل، لأنهم حرفوا الكتاب، و كنتموا صفة محمد النبى (ص) و جحدت اليهود الإنجيل و القرآن.

قوله تعالى: «لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» فيه قولان:

أحدهما- بعيد عن الالفه بالاجتماع على الصواب . الثانى - بعيد: من الشقاق، لشهادة كل واحد على صاحبه بالضلال . و كلاهما قد عدل عن السداد . و من ذهب الى أن المعنى ذلك العذاب «بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» قدر فكفروا به، و جعله محذوفاً . و من ذهب الى أن المعنى: ذلك الحكم بدلالة «بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» لم يجعله محذوفاً.

و المعنى بالذين اختلفوا على قول السدى: اليهود، و النصارى. و قال غيره:

هم الكفار من عبدة الأوثان، و غيرهم من أهل الضلال. و هو الاولى، لأنه أعم.

الاعراب:

و إنما كسره (إن) الثانيةً للاحاق اللام الخبر، و هى لام الابتداء، فأخرت الى الخبر و كسرت معها (إن) لأنها للاستئناف ايضاً . فأما (أن) المفتوحة فاسم يعمل فيه عوامل الاعراب كما يعمل فى الأسماء . و إنما كسرت (إن) فى قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» «١» لا للاحاق اللام، و لكن

(١) سورة الفرقان آية: ٢٠.

ص: ٩٤

لدخول (إلا) على جملة مستأنفة فى التقدير . كأنه قيل: إلا هم يأكلون الطعام . و لو قلت ما ظننت إلا إنك لخارج لكسرت لأجل اللام.

اللغة:

و الاختلاف: الذهاب على جهة التفريق فى الجهات. و أصله من اختلاف الطريق.

تقول: اختلفنا الطريق، فجاء هذا من هاهنا، و جاء ذاك من هناك، ثم قيل فى الاختلاف فى المذاهب تشبيهاً فى الاختلاف فى الطريق من حيث أن كل واحد منهم على تقيض ما عليه الآخر من الاعتقاد . فأما الاختلاف فى الأجناس، فهو ما لا يسد واحد منهما مسد الآخر، فيما يرجع الى ذاته، كالسواد و البياض، و غيرهما.

و الشقاق: انحياز كل واحد عن شق صاحبه للعداوة له . و هو طلب كل واحد منهما ما يشقّ على الآخر، لأجل العداوة . و المشاقق مثله .

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٧]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حفص إلا هبيرة، و حمزة «ليس البر» بنصب الراء. الباقر برفعها.

و قرأ نافع، و ابن عامر «و لكن البر» بتخفيف النون، و رفع الراء.

ص: ٩٥

النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت لما حولت القبلة، و كثر الخوض فى نسخ تلك الفريضة، صار كأنه لا يراعى بطاعة الله إلا التوجه للصلاة، فأنزل الله تعالى الآية، و بين فيها أن البرّ ما ذكره فيها، و دل على أن الصلاة إنما يحتاج إليها لما فيها من المصلحة الدينية، و إنه إنما يأمر بها، لما فى علمه أنها تدعو الى الصلاح، و تصرف عن الفساد، و إن ذلك يختلف بحسب الأزمان، و الأوقات.

المعنى:

و قوله: «لَيْسَ الْبِرَّ» قيل فيه قولان: أحدهما - ذكره ابن عباس، و مجاهد:

أنه «ليس البرّ» كله فى التوجه الى الصلاة بل حتى يضاف إلى ذلك غيره من الطاعات التى أمر الله تعالى بها . و الثانى - قاله قتادة، و الربيع و اختاره الجبائى:

انه «ليس البرّ» ما عليه النصارى من التوجه الى المشرق، أو ما عليه اليهود من التوجه الى المغرب «وَلَكِنَّ الْبِرَّ» ما ذكره الله تعالى فى الآية، و بينه. و قوله:

«وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها- «وَلَكِنَّ الْبِرَّ» بر «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» فحذف المضاف، و أقام المضاف اليه مقامه، و اختاره المبرد، لقوله «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا» و قال النابغة:

و قد خفت حتى ما تزيد مخافتى
على وعلٍ فى ذى المطارة عاقل «1»

يعنى مخافة وعل. و قالت الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى إذا اذكرتُ
فإنما هى إقبال و إدبار «2»

معناه انما هى مقبلة تارة، و مدبرة أخرى، فبالغ، فجعلها إقبالا و إدباراً،

(١) مر تخريجه فى ٢: ٧٨.

(٢) اللسان (قبل) فى المطبوعة (غفت) بدل (غفلت) و فى مجمع البيان (ما رتعت).

الرتع: الأكل فى شره، و رتعت المواشى: أكلت ما شاءت و جاءت و ذهبت. اذكرت: تذكرت.

ص: ٩٦

و قال متمم: «١»

لعمري! و ما دهرى بتأبين هالك
و لا جزعاً مما أصاب فأوجعا «2»

معناه و لا ذى جزع.

الوجه الثانى - و لكن ذا البرّ من آمن بالله. الثالث - و لكن البارّ من آمن بالله، فجعل المصدر فى موضع اسم الفاعل . و قد بينا فى ما مضى حقيقة الايمان و الخلاف فيه، فلا معنى لإعادته.

و الضمير فى قوله : «عَلَى حُبِّهِ» يحتمل أن يكون عائداً على حب المال، و يحتمل أن يكون عائداً على حب الإتيان، قال عبد الله بن مسعود: على حب المال، لأنه يأمل العيش و يخشى الفقر. و أما على حب الإتيان، فوجهه ألا تدفعه و أنت متسخط عليه كاره. و يحتمل وجهاً ثالثاً : و هو أن يكون الضمير عائداً على الله، و يكون التقدير على حب الله، فيكون خالصاً لوجهه، و قد تقدم ذكر الله تعالى فى قوله «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ». و هو أحسنها . و الآية تدل على وجوب إعطاء مال الزكاة بلا خلاف، و تدل أيضاً - فى قول الشعبى، و الجبائى - على وجوب غيره مما له سبب وجوب كالانفاق على من تجب عليه نفقته، و على من يجب عليه سدّ رمقه إذا خاف التلف، و على ما يلزمه من النذور، و الكفارات، و يدخل فيها أيضاً ما يخرج الإنسان على وجه التطوع، و القرية الى الله، لأن ذلك كله من البرّ.

و ابن السبيل: هو المنقطع به إذا كان مسافراً محتاجاً و إن كان غنياً فى بلده، و هو من أهل الزكاة.

و قيل: إنه الضيف، و الأول قول مجاهد، و الثانى قول قتادة. و إنما قيل:

ابن السبيل: بمعنى ابن الطريق، كما قيل للطير: ابن الماء، لملازمته إياه، قال ذو الرمة:

(١) هو متمم بن نويرة.

(٢) اللسان (أبن، دهر) ليس من عادتي تأيين الأموات، و مدحهم بعد موتهم، و لست أجزع من المصيبة.

ص: ٩٧

وردت اعتسافاً و الثريا كأنها

على قمة الرأس ابن ماءٍ محلق «1»

و السائلين معناه: و الطالبين للصدقة، لأنه ليس كل مسكين يطلب.

و قوله : «وَفِي الرِّقَابِ» قيل فيه قولان : أحدهما - عتق الرقاب. و الثانى - المكاتبين. و ينبغى أن تحمل الآية على الامرين، لأنها تحتمل الامرين، و هو اختيار الجبائى، و الرماني.

اللغة:

و المراقبة: المراءة. و الرقبة: الانتظار. و الرقيب: المشرف على القوم لحراستهم. و الرقيب: الحافظ. و تقول: رقبتة أرقبه رقياً، و راقبته مراقبة، و ارتقبتة ارتقاباً، و تراقبوا تراقباً، و ترقب ترقباً. و الرقوب: الأرملة التي لا كاسب لها، لأنها تترقب معروفاً أو صلة. و الرقبة مؤخر أصل العنق. و أعتق الله رقبتة، و لا يقال عتقه. و الرقيب ضرب من الحيات خبيث. و الرقوب: المرأة التي لا يعيش لها ولد. و الرقيب: النجم الذي يتبين من المشرق، فيغيب رقبته من المغرب.

المعنى:

و قوله تعالى: «ذَوِي الْقُرْبَى» قيل أراد به قرابة المعطى، اختاره الجبائي،

لقول النبي (ص) لفاطمة بنت قيس، لما قالت: يا رسول الله إن لي سبعين مثقالاً من ذهب، فقال: اجعلها في قرابتك.

و قال (ع) لما سئل عن أفضل الصدقة، فقال:

جهد المقل على ذى القرابة الكاشح.

و يحتمل أن يكون أراد به قرابة النبي (ص).

كما قال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» «٢» و هو قول أبي جعفر، و أبي عبد الله (ع) و قوله: «فِي الْبِأْسَاءِ وَ الضَّرَاءِ وَ حِينَ الْبِأْسِ» قال قتادة:

(١) ديوانه: ٤٠١، و اللسان (عسف). و ردت اعتسافاً: سرت بدون تدبير، و لا معرفة للطريق، بل اقتحمت اقتحاماً. و الثريا: جملة من النجوم تشبه قطف العنب. شبه الثريا بالطير المحلق فوق رأسه و هو على الماء.

(٢) سورة الشورى آية: ٢٣.

ص: ٩٨

البأساء: البؤس، و الفقر. و الضراء: السقم، و الوجع. و منه قوله: «مَسْنَى الضَّرُّ» «١». و حين البأس: حين القتال. و قال ابن مسعود: البأساء: الفقر. و الضراء:

السقم. و انما قيل: البأساء في المصدر و لم يقل منه أفعل، لأن الأصل في فعلاء أفعل للصفات التي للألوان، و العيوب. كقولك أحمر، و حمراء. و أعور، و عوراء. فأما الأسماء التي ليست بصفات، فلا يجب ذلك فيها. و على ذلك تأولوا قول زهير:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم

كأحمر عاد ثم تُرضع فتفطم»2»

و أنكر ذلك قوم، لأنه لم يصرف أشأم . و قالوا إنما هو صفة وقعت موقع الموصوف كأنه قال : غلمان أمر أشأم، فلذلك قالوا إنما المعنى الخلّة البأساء، و الخلّة الضراء.

«وَالْمُؤْفُونُ بِعَهْدِهِمْ» رفع عطفاً على «مَنْ آمَنَ». و يحتمل أن يكون رفعاً على المدح، و تقديره: و هم المؤفون، ذكره الزجاج. و الصابرين نصب على المدح، كقول الشاعر:

الى الملك القرم و ابن الهمام

و ليث الكتيبة فى المزدحم

و ذا رأى حين تغم الأمور

بذات الصليل و ذات اللجم»3»

و يحتمل أن يكون نصب بفعل مضمر، و تقديره و أعنى الصابرين . و يحتمل أن يكون عطفاً على قوله: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى» «و الصابرين» فعلى هذا يجب أن يكون رفع «الموفين» على المدح للضمير الذى فى صلة (من)، لأنه لا يجوز بعد العطف على الموصوف، العطف على ما فى الصلة. و هذا الوجه ضعيف، لأنه يؤدى الى التكرار، لأنهم دخلوا فى قوله:

(١) سورة الأنبياء آية: ٨٣.

(٢) ديوانه: ٢٠ من معلقته الفريدة، من أبياته فى صفة الحرب . الضمير فى (فتنتج) عائد الى الحرب، و قد مر ذكرها فى أول الأبيات. (أشأم): أى غلمان شؤم.

(٣) معان القرآن للفراء ١: ١٠٥، و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢٠٥، و الانصاف:

١٩٥، و خزائن الأدب : ٢١٦. القرم: السيد المقدم فى المعرفة، و التجارب الكتيبة هى فرقة من الجيش . المزدحم: هو المكان الذى تجتمع به الناس كثيرا، و تتسابق على التقدم فيه، و المقصود منه هنا ساحة الحرب تغم الأمور أى تضيع عليهم . الصليل: صوت السيوف. و ذات اللجم: الخيل

«وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ» فيجب أن يحمل قوله: «و الصابرين» على من لم يذكر، ليكون فيه فائدة . وإن كان ذلك وجهاً مليحاً.

و القراءة بالرفع أجود، و أقوى، لأنه اسم (ليس) مقدم قبل الخبر لفائدة في الخبر، و لأنه قرأ «ليس البر بأن» ذكره الفراء.

و قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» معناه الذين جمعوا العمل بهذه الخصال الموصوفة: هم الموصوفون بأنهم صدقوا على الحقيقة، لأنهم عملوا بموجب ما أقرّوا به. «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» يعنى اتقوا- بفعل هذه الخصال- نار جهنم.

و استدل أصحابنا بهذه الآية على أن المعنى بها أمير المؤمنين (ع)، لأنه لا خلاف بين الأمة أن جميع هذه الخصال كانت جامعة فيه. و لم تجتمع في غيره قطعاً، فهو مراد بالآية بالإجماع. و غيره مشكوك فيه غير مقطوع عليه. و قال الزجاج، و الفراء: هذه الآية تناول الأنبياء المعصومين، لأنهم الذين يجمعون هذه الصفات.

الاعراب:

و من قرأ (ليس البر) بالرفع، جعل البر اسماً، و جعل (أن) في موضع نصب، و من نصب جعل (أن تولوا) في موضع رفع، و قدم الخبر. و مثله قوله تعالى:

«مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا» (١) «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ» (٢) «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ» (٣). «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا» (٤) و ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)

(١) سورة الجاثية آية: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٤٧.

(٣) سورة الاعراف آية ٨١.

(٤) سورة الحشر آية: ١٧.

آية بلا خلاف.

معنى

قوله: كتب: فرض. و أصل الكتب: الخط الدال على معنى الفرض.

وقيل: لأنه، مما كتبه الله في اللوح المحفوظ على جهة الفرض، قال الشاعر: «١»

كتب القتل و القتال علينا و على المحصنات جرّ الذبول «2»

و قال النابغة الجعدي:

يا بنت عمى كتاب الله أخرجني عنكم فهل امنع الله ما فعلا «3»

و منه الصلاة المكتوبة أى المفروضة. فان قيل: كيف قيل: كتب عليكم بمعنى فرض، و الأولياء مخيرون: بين القصاص، و العفو، و أخذ الدية؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - انه فرض عليكم ذلك إن اختار أولياء المقتول القصاص . و الفرض قد يكون مضيقاً و يكون مخيراً فيه . و الثانى - فرض عليكم ترك مجاوزة ما حد لكم الى التعدى فيما لم يجعل لكم.

اللغة:

و القصاص: الأخذ من الجانى مثل ما جنى، و ذلك لأنه تال لجنايته . و أصله التلو، من قص الأثر: و هو تلو الأثر. و القصاص، و المقاصة، و المعاوضة، و المبادلة نظائر. يقال: قصّ يقصّ قصّاً، و قصصاً. و أقصه به إقصاصاً. و اقتصّ اقضاصاً.

و تفاصوا تفاصاً. و استقص: إذا طلب القصاص استقصاصاً. و قاصه مقاصّةً و قصاصاً. و قصّ الشئ بالمقص يقصه قصاً. و قص الحديث يقصه قصصاً. و كذلك قص أثره قصصاً: إذا اقتفى أثره. و القص و القصص: عظم الصدر من الناس،

(١) هو عمر بن أبى ربيعة، أو عبد الله بن الزبير الأسدى

(٢) ديوان عمر، و البيان، و التبيين ٢: ٢٣٦، و الكامل لابن الأثير ٢: ١٥٤، و تاريخ الطبرى ٧: ١٥٨، و انساب الاشراف ٥: ٢٦٤. و الاغانى ٩: ٢٢٩.

(٣) اللسان (كتب)، و أساس البلاغة (كتب) و المقاييس ٥: ١٥٩. و رواية الأساس (اخرنى) بدل (أخرجنى).

ص: ١٠١

و غيرهم. و القصة: الخصلة من الشعر. و القصة من القصص معروفة. و القصة الجص.

و القصص: التقاص من الجراحات و الحقوق شىء شىء. و القصيص: نبات ينبت فى أصول الكمأء. و اقصت الشاء، فهى مقصّ إذا استبان ولدها، و أصل الباب التلوّ.

و قوله تعالى: «الْحَرُّ بِالْحَرِّ» فالحر نقيض العبد، و الحر من كل شىء.

أعتقه. و الحرّ: ولد الحية، و ولد الطيبة، و فرخ الحمام، و أحرار البقول : ما يؤكل غير مطبوخ . و الحرّ: نقيض البرد، حرّ النهار يحرّ حرّاً. و الحرير: ثياب من إبريسم.

و الحريرة: دقيق يطبخ باللبن . و الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار . و تحرير الكتابة : إقامة حروفها . و الحرورية: منسوب الى حرور: قرية كان أول مجتمعهم بها، فالمحرر المختص بخدمة الكنيسة ما عاش، و منه قوله «ما فى بطنى مُحَرَّرًا» «١» و أصل الباب الحرّ خلاف البرد. و منه الحرير، لأنه يستندفأ به.

قوله: «فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» معناه ترك، من عفت المنازل إذا تركت حتى درست . و العفو عن المعصية : ترك العقاب عليها. و قيل: معنى العفو هاهنا ترك القود بقبول الدية من أخيه، فالأخ يجمع أخوة إذا كانوا لأب، و إذا لم يكونوا لأب، فهم أخوان، ذكر ذلك صاحب العين، و منه قوله : «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» «٢» و منه الإخاء، و التآخى . و الأخوة قرابة الأخ . و التآخى اتخاذ الأخوان.

و بينهما إخاء و أخوة. و آخيت فلاناً مؤاخاة، و إخاء. و أصل الباب الأخ من النسب، ثم شبه به الأخ من الصداقة.

المعنى:

و الهاء فى قوله: «مِنْ أَخِيهِ» تعود الى أخى المقتول- فى قول الحسن-.

و قال غيره: تعود الى أخى القاتل، فان قيل : كيف يجوز أن تعود الى أخى القاتل و هو فى تلك الحال فاسق؟ قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة:

(١) سورة آل عمران آية: ٣٥.

(٢) سورة الحجرات آية: ١٠.

ص: ١٠٢

أحدها - إنه أراد أخوة النسب، لا في الدين، كما قال «وإلى عادٍ أخاهم هوداً» «١». والثاني - لأن القاتل قد يتوب فيدخل في الجملة، و غير التائب على وجه التغليب. الثالث - تعريفه بذلك على أنه كان أخاه قبل أن يقتله، كما قال:

«إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ» «٢» يعنى الذين كانوا أزواجهن. وقال جعفر بن مبشر عن بعضهم: إن هذه الآية منسوخة بقوله «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» «٣» قال: وليست عندى كذلك، لأن الله تعالى إنما أخبرنا أنه كتبها على اليهود قبلنا، وليس فى ذلك ما يوجب أنه فرض علينا، لأن شريعتهم منسوخة بشريعتنا . والذى أقوله: إن هذه الآية ليست منسوخة، لأن ما تضمنته معمول عليه ولا ينافى قوله تعالى: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» لأن تلك عامة، ويمكن بناء تلك على هذه، ولا تناقض ولا يحتاج الى أن ينسخ إحداها بالأخرى.

و قال قتادة: نزلت هذه الآية، لأن قوماً من أهل الجاهلية كانت لهم حولة «٤» على غيرهم من أهل الجاهلية، فكانوا يتعدون فى ذلك، فلا يرضون بالعبد إلا الحرّ، ولا بالمرأة إلا الرجل، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

و

قوله: «فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ» يعنى العافى، و على المعفو عنه «أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» و به قال ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الشعبي، و الربيع، و ابن زيد، و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و قال قوم: هما على المعفو عنه.

و الاعتداء هو القتل بعد قبول الديّة على قول ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الربيع، و ابن زيد، و هو المروى عن أبى جعفر، و أبى عبد الله (ع).

و قال بعضهم «من اعتدى» بعد البيان فى الآية، فقتل غير قاتل وليه أو بعد قبول

(١) سورة الاعراف آية: ٦٤، سورة هود آية: ٥٠.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣٢.

(٣) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٤) الحولة: هي المنكر، و يمكن أن يكون معناه الحق الذى حل أجله، و يكون المعنى لهم عليهم حق قصاص حال، و على الأول لهم عليهم قود بمنكر قد فعلوه، و يريدون الاقتصاص منهم.

ص: ١٠٣

الدية «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» و هذا أيضاً جيد تحتمله الآية.

الاعراب:

و قوله: «فاتباع» رفع بأنه ابتداء لخبر محذوف، كأنه قيل : فحكمه اتباع، أو فعلية اتباع . و كان يجوز النصب فى العريية . على تقدير فليتبع اتباعاً، و لم يقرأ به.

اللغة:

و الأداء، قال الخليل: أذى فلان يؤذى ما عليه أداء و تأدية. و يقال:

فلان آذى للامانة من غيره. و الأداء من أدوات الحرب. و أصل الباب التأدية تبليغ الغاية.

المعنى:

و قوله تعالى: «تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ» معناه: أنه جعل لكم القصاص، أو الدية، أو العفو، و كان لأهل التوراة قصاص، و عفو، و لأهل الإنجيل عفو، أو دية. و يجوز قتل العبد بالحر، و الأنثى بالذكر إجماعاً، و لقوله : «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً» «١» و لقوله: «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» «٢». و قوله: فى هذه الآية «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى» لا يمنع من ذلك، لأنه تعالى لم يقل: و لا يقتل الأنثى بالذكر، و لا العبد بالحر . فإذا لم يكن ذلك فى الظاهر، فما تضمنته الآية معمول به، و ما قلناه مثبت بما تقدم من الأدلة. فأما قتل الحر بالعبد، فعندنا لا يجوز، و به قال الشافعى، و أهل المدينة. و قال أهل العراق: يجوز.

و لا يقتل والد بولد عندنا، و عند أكثر الفقهاء . و عند مالك يقتل به على بعض الوجوه . و أما قتل الوالدة بالولد، فعندنا تقتل . و عند جميع الفقهاء انها جارية مجرى

(١) سورة الإسراء آية: ٣٣.

(٢) سورة المائدة آية: ٤٨.

الأب. فأما قتل الولد بالوالد فيجوز إجماعاً. ولا يقتل مولى بعبده. ويجوز قتل الجماعة بواحد إجماعاً إلا أن عندنا يردّ فاضل الدية، و عندهم لا يرد شيء على حال.

و إذا اشترك بالغ مع طفل. أو مجنون في قتل، فعندنا لا يسقط القود عن البالغ، و به قال الشافعي . و قال أهل العراق: يسقط. و دية القصاص في قود النفس ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، أو مائة من الإبل، أو مائتان من البقر، أو ألف شاة، أو مائة حلة. و لا يجبر القاتل على الدية - عندنا - و ان رضى، فهي عليه في ماله . و قال الحسن: يجبر على العفو عن القصاص، و الدية على العاقلة. و القتل بالحديد عمداً يوجب القود إجماعاً. فأما غير الحديد، فكل شيء يغلب على الظن أن مثله يقتل فانه يجب القود عندنا، و عند أكثر الفقهاء . و الذى له العفو عن القصاص كل من يرث الدية إلا الزوج، و الزوجة . و هم لا يستثنون بها إلا أبا حنيفة: قال: إذا كان للمقتول ولد صغار و كبار، فللكبار أن يقتلوا، و يحتج بقاتل على (ع).

و قال غيره: لا يجوز حتى يبلغ الصغار. و عندنا أن لهم ذلك إذا ضمنوا حصّة الصغار من الدية إذا بلغوا، و لم يرضوا بالقصاص. و إذا اجتمع مع القصاص حدود، فان كان حدّ لله، فالقتل يأتي عليه. و إن كان حق لآدمي كحدّ القذف، أقيم عليه الحد ثم يقتل. و قال أهل المدينة: القتل يأتي على الكل. و يقتل الرجل بالمرأة إذا ردّ أولياؤها نصف الدية. و خالف جميع الفقهاء في ذلك. و ما قلنا، قول على (ع) و قول الحسن البصري. و شرح مسائل الديات ذكرناها في النهاية، و المبسوط، لا يقتضى ذكرها هاهنا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٧٩]

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

آية بلا خلاف.

المعنى:

أكثر المفسرين على أن قوله: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» المراد به القصاص

في القتل. و إنما كان فيه حياة من وجهين:

أحدهما - ما عليه أكثر المفسرين كمجاهد، و قتادة، و الربيع، و ابن زيد:

أنه إذا هم الإنسان بالقتل فذكر القصاص، ارتدع، فكان ذلك سبباً للحياة.

الثانى - قال السدى : من جهة أنه لا يقتل إلا القاتل دون غيره . خلاف فعل الجاهلية الذين كانوا يتفانون «١» بالطوائل، و المعنيان جميعاً حسنان. و قال أبو الجوزاء: معناه أن القرآن «٢» حياة بالقصاص، أراد به القرآن. و هذا ضعيف، لأنه تأويل خلاف الإجماع، و لأنه لا يليق بما تقدم، و لا يشاكله، و هو قوله:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ»، فكأنه قال بعده و لكم فيه حياة . و نظير هذه الآية قولهم : القتل أنفى للقتل . و بينهما من التفاوت فى الفصاحة، و البلاغة ما بين السماء و الأرض و قيل: الفرق بينهما من أربعة أوجه:

أحدها - أنه أكثر فائدة. و ثانيها - أنه أوجز فى العبارة. و ثالثها - أنه أبعد عن الكلمة بتكرير الجملة. و رابعها - أنه أحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة.

أما كثرة الفائدة، ففيه ما فى قولهم: (القتل أنفى للقتل) و زيادة معان حسنة: منها إبانة العدل، لذكره القصاص. و منها إبانة الغرض المرغوب فيه، لذكر الحياة. و منها الاستدعاء بالرغبة و الرهبة لحكم الله به.

و أما الإيجاز فى العبارة، فان الذى هو نظير (القتل أنفى للقتل) قوله تعالى:

«فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» و هو عشرة أحرف . و الأول أربعة عشر حرفاً . و أما بعد التكلف، فهو أن فى قولهم : (القتل أنفى للقتل) تكرير غيره أبلغ منه. و متى كان التكرير كذلك، فهو مقصر فى باب البلاغة . و أما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة، فهو مدرك بالحس، و موجود باللفظ، فان الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة، لبعد الهمزة من اللام. و كذلك الخروج من الصاد

(١) فى المطبوعة «يتغابون».

(٢) هكذا فى المطبوعة و لم أجد قول لأبى الجوزاء فى هذا الموضع فى ما حضرنى من التفاسير، و لم أجد فى كتب اللغة القصاص بمعنى القرآن، الا أن يكون - بفتح القاف -

ص: ١٠٦

الى الحاء أعدل من الخروج من الألف الى اللام . فباجماع هذه الأمور التى ذكرناها كان أبلغ منه و أحسن . و إن كان الأول حسناً بليغاً و أخذ هذا المعنى بعض الشعراء، فقال:

أبلغ أبا مالك عنى مغلغلة
و فى العتاب حياة بين أقوام «1»

و هذا و إن كان حسناً، فيبينه و بين لفظ القرآن: ما بين أعلى الطبقة و أدناها.

و أول ما فيه أنه استدعاء الى العتاب. و ذلك استدعاء الى العدل. و فى هذا إيهام.

و فى الآية بيان عجيب.

اللغة:

و قوله: «يا أولى الألباب» فالألباب: العقول و هو مأخوذ من النخلة على وجه التشبيه به . و اللب: العقل. لب الرجل يلب: إذا صار لبيباً. و لبّ بالمكان، و ألبّ به لباً، و إلباباً: إذا أقام به. و لب كل شىء خالصه. قال صاحب العين:

اللبّ: البال. تقول: الأمر منه فى لبّ رضى أى فى بال رضى. و اللب من الرمل: شبيه حقف بين معظم الرمل، و جلد الأرض. و تلبب بالثياب إذا جمعها.

و يشبه به المتسلح بالسلاح. و اللب من الصدر: موضع القلادة. و التلييب: مجمع ما فى موضع اللب من ثياب الرجل. تقول: أخذ فلان بتلايب فلان. و أصل الباب لب الشىء: داخله: الذى تركبه القشرة، و تلزمه. و منه لبيب و سعدىك أى ملازمة لأمرك و إسعاداً لك .

المعنى:

و قوله تعالى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» قد بينا فيما مضى أن لعل معناه لكى و قيل فى معناه هاهنا قولان:

(١) اللسان (غلل) أنشده بن برى. مغلفة: رسالة محمولة من بلد الى بلد و العتاب هو الملاومة و لا يكون الا بين اثنين فصاعداً. و انما قال: حياة، لأنه يخفف من الغيظ، و قد يبطل العتاب حرباً يقتل فيها الألو ف . فكأنه يقول أوصل هذه الرسالة التى هى عتاب، و العتاب حياة لقومى و لقومك.

ص: ١٠٧

[الأول] لكى تتقوا القتل بالخوف من القصاص. ذكره ابن زيد.

الثانى - قال الجبائى، و غيره: لتتقوا ربكم باجتنباب معاصيه. و هذا أعم فائدة، لأنه يدخل فيه اتقاء القتل، و غيره.

و فى الآية دلالة على فساد قول المجبرة، لأن فيها دلالة على أنه أنعم على جميع العقلاء، ليتقوا ربهم، و فى ذلك دلالة على أنه أراد منهم التقوى و إن عصوا، و إنما خص الله تعالى بالخ طاب أولى الألباب، لأنهم المكلفون بالمأمورين، و من ليس بعاقل لا يصح تكليفه، و لا يحسن، فلذلك خصهم بالذكر.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٠]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنِ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا ابتداء قصة، و لا بد فيه من واو العطف، بان يقال : و كتب، لأنه حذف اختصاراً و قد بينا فيما مضى : أن معنى كتب فرض. و هاهنا معناه الحث و الترغيب دون الفرض، و الإيجاب . و فى الآية دلالة على أن الوصية جائزة للوارث، لأنه قال للوالدين، و الأقربين. و الوالدان و ارثان بلا خلاف إذا كانا مسلمين حرين غير قاتلين . و من خص الآية بالكافرين، فقد قال : قولاً بلا دليل، و من ادعى نسخ الآية فهو مدع لذلك، و لا يسلم له نسخها . و بمثل ما قلناه قال مح مد بن جرير الطبرى سواء، فان ادعوا الإجماع على نسخها، كان ذلك دعوى باطلة و نحن نخالف فى ذلك . و قد خالف فى نسخ الآية طاوس، فانه خصها بالكافرين، لمكان الخبر و لم يحملها على النسخ . و قد قال أبو مسلم محمد بن بحر : إن هذه الآية مجملة، و آية الموارث مفصلة، و ليست نسخاً، فمع هذا الخلاف كيف يدعى الإجماع على نسخها.

ص: ١٠٨

و من ادعى نسخها، لقوله (ع): لا وصية لوارث، فقد أبعد، لأن هذا أولاً خبر واحد لا يجوز نسخ القرآن به إجماعاً . و عندنا لا يجوز العمل به فى تخصيص عموم القرآن . و ادعائهم أن الأمة أجمعت على الخبر دعوى عارية من برهان. و لو سلمنا الخبر جاز أن نحمله على أنه لا وصية لوارث فيما زاد على الثلث، لأننا لو خيلنا و ظاهر الآية لأجزنا الوصية بجميع ما يملك للوالدين و الأقربين، لكن خص ما زاد على الثلث لمكان الإجماع.

فأما من قال : إن الآية منسوخة بآية الميراث فقول به بعيد عن ال صواب. لأن الشيء إنما ينسخ غيره : إذا لم يمكن الجمع بينهما، فأما إذا لم يكن بينهما تناف و لا تضاد بل أمكن الجمع بينهما، فلا يجب حمل الآية على النسخ، و لا تنافى بين ذكر ما فرض الله للوالدين و غيرهم من الميراث، و بين الامر بالوصية لهم على جهة الخصوص، فلم يجب حمل الآية على النسخ. و قول من قال: حصول الإجماع على أن الوصية ليست فرضاً يدل على أنها منسوخة باطل، لأن إجماعهم على أنها لا تفيد الفرض، لا يمتنع من كونها مندوباً إليها و مرغباً فيها، و لأجل ذلك كانت الوصية للوالدين، و الأقربين الذين ليسوا بوارث ثابتة بالآية و لم يقل أحد أنها منسوخة فى خبرهم «١».

و من قال: إن النسخ من الآية ما يتعلق بالوالدين، و هو قول الحسن و الضحاك، فقد قال قولاً ينافى ما قاله مدعى نسخ الآية - على كل حال - و مع ذلك فليس الأمر على ما قال، لأنه لا دليل على دعواه . و قال طاوس: إذا وصى لغير ذى قرابة لم تجز وصيته. و قال الحسن: ليست الوصية إلا للأقربين و هذا الذى قالاه عندنا و إن كان غير صحيح، فهو مبطل قول من يدعى نسخ

الآية. و إنما قلنا أنه ليس بصحيح، لأن الوصية لغير الوالدين، و الأقربين عندنا جائزة . و لا خلاف بين الفقهاء في جوازها . و الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث إجماعاً، و الأفضل أن يكون بأقل من الثلث،

لقوله (ع) و الثلث كثير

، و أحق من وصى له من كان

(١) نسب الخبر اليهم مع أنهم يروونه عن النبي (ص)، لأنه لا يسلم صحته.

ص: ١٠٩

أقرب الى الميت إذا كانوا فقراء - بلا خلاف - و إن كانوا أغنياء، فقال الحسن و عمرو بن عبيد: هم أحق بها. و قال ابن مسعود، و واصل الأحق بها الأجوع، فالأجوع من القرابة.

و قوله تعالى: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» يعنى مالا. و اختلفوا في مقداره الذى يجب الوصية عنده، فقال الزهرى : كلما وقع عليه اسم مال من قليل أو كثير. و قال ابراهيم النخعي: الف درهم الى خمسمائة.

و روى عن على (ع) أنه دخل على مولى لهم فى مرضه، و له سبع مائة درهم أو ستمائة، فقال: ألا أوصى، فقال: لا إنما قال الله تعالى: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» و ليس لك كبير مال.

و بهذا نأخذ، لأن قوله حجة عندنا.

الاعراب:

و الوصية فى الآية مرفوعة بأحد أمرين:

أحدهما - ب (كتب)، لأنه لم يسم فاعله . الثانى - أن يكون العامل فيه الابتداء و خبره للوالدين، و الجملة فى موضع رفع على الحكاية بمنزلة قيل لكم : الوصية للوالدين. و قيل فى إعراب (إذا) و العامل فيه قولان : أحدهما - كتب على معنى إذا حضر أحدكم الموت أى عند المرض. و الوجه الآخر قال الزجاج، لأنه رغب فى حال صحته أن يوصى، فتقديره كتب عليكم الوصية للوالدين و الأقربين بالمعروف فى حال الصحة قائلين: إذا حضرنا الموت فلفلان كذا.

المعنى:

المعروف هو العدل الذى لا يجوز أن ينكر و لا حيف فيه و لا جور و الحضور وجود الشئ ء بحيث يمكن أن يدرك . و ليس معناه فى الآية إذا حضره الموت أى إذا عاين الموت، لأنه فى تلك الحال فى شغل عن الوصية . لكن المعنى كتب عليكم أن توصوا و أنتم قادرون على الوصية، فيقول الإنسان: إذا حضرنى الموت أى إذا أنا مت، فلفلان كذا.

ص: ١١٠

و الحق هو الفعل الذى لا يجوز إنكاره و قيل ما علم صحته سواء كان قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً و هو مصدر حقّ يحقّ حقاً و انتصب فى الآية على المصدر و تقديره أحقّ حقاً و قد استعمل على وجه الصفة، بمعنى ذى الحق، كما وصف بالعدل «عَلَى الْمُتَّقِينَ» معناه على الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه، و امتثل أو امره .

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨١]

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

آية بلا خلاف.

الهاء فى قوله: «فَمَنْ بَدَّلَهُ» عائدة على الوصية . و انما ذكرّ حملاً على المعنى، لأن الإيضاء و الوصية واحد . و الهاء فى قوله: «فَإِنَّمَا إِثْمُهُ» عائدة على التبديل الذى دلّ عليه قوله: «فَمَنْ بَدَّلَهُ». و قال الطبرى: الهاء تعود على محذوف، لأن عودها على الوصية المذكورة لا يجوز، لأن التبديل إنما يكون لوصية الموصى . فأما أمر الله عز و جل بالوصية، فلا يقدر هو، و لا غيره أن يبدله قال الرماني: و هذا باطل، لأن ذكر الله الوصية إنما هو لوصية الموصى، فكأنه قيل: كتب عليكم وصية مفروضة عليكم، فالهاء تعود الى الوصية المفروضة التى يفعلها الموصى.

و قوله تعالى: «فَمَنْ بَدَّلَهُ» فالتبديل: هو تغيير الشئ عن الحق فيه . فأما البدل، فهو وضع شئ مكان آخر. و من أوصى بوصية فى ضرار فبدلها الوصى، لا يأثم. و قال ابن عباس: من وصى فى ضرار لم تجز وصيته لقوله (غَيْرَ مُضَارٍّ) «١».

و الوصى إذا بدّل الوصية لم ينقص من أجر الموصى شئ، كما لو لم تبدّل، لأنه لا يجازى أحد على عمل غيره، لكن يجوز أن يلحقه منافع الدعاء، و الإحسان الواصل الى الموصى له، على غير وجه الأجر له، لكن على وجه الجزاء لغيره ممن وصل إليه ذلك الإحسان، فيكون ما يلحق المحسن إليه من ذلك أجراً له، صح

(١) سورة النساء آية: ١١.

ص: ١١١

بما يصل الى المحسن إليه من المنفعة. و فى الآية دلالة على بطلان مذهب من قال:

إن الطفل يعذب بكفر أبيه، لأن الله تعالى بين وجه العدل في هذا . و قياس العدل في الطفل ذلك القياس، فمن هناك دل على الحكم فيه . وفيها ايضاً دلالة على بطلان قول من يقول : إن الوارث إذا لم يقبض دين الميت أنه يؤخذ به في قبره أو في الآخرة، لما قلنا من أنه دل على أن العبد لا يؤخذ بجرم غيره و أن لا إثم عليه بتبديل غيره . وكذلك لو قضى عنه الوارث من غير أن يوصى به الميت لم يزل عقابه بقضاء الوارث عنه إلا أن يتفضل بإسقاطه عنه .

و قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» معناه سميع لما قاله الموصى من العدل، أو الجنف، عليم بما يفعله الوصى من التبديل أو التصحيح، فيكون ذكر ذلك داعياً الى طاعته.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آئى ١٨٢]

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير، و نافع، و أبو عمرو، و ابن عامر، و حفص عن عاصم (موص) بالتخفيف. الباكون بالتشديد. و هما لغلق: وصى، و أوصى بمعنى واحد.

المعنى:

فان قيل: كيف قال «فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ» لما قد وقع، و الخوف إنما يكون لما لم يقع؟ قيل فيه قولان:

أحدهما - إنه خاف أن يكون قد زلّ في وصيته، فالخوف للمستقبل، و ذلك الخوف هو أن يظهر ما يدل على أنه قد زلّ، لأنه من جهة غالب الظن.

و الثانى - لما اشتمل على الواقع، و ما لم يقع جاز فيه «خاف» ذلك فيأمره

ص: ١١٢

بما فيه الصلاح، و ما وقع رده الى العدل بعد موته . و الجنف: الجور، و هو الميل عن الحق: و قال الحسن: هو أن يوصى من غير القرابة، قال: فمن أوصى لغير قرابته رد الى أن يجعل للقرابة الثلاثان، و لمن أوصى له الثلث . و هذا باطل عندنا، لأن الوصية لا يجوز صرفها عن من وصى له. و إنما قال الحسن ذلك لقوله إن الوصية للقرابة واجبة. و عندنا إن الامر بخلافه على ما بيناه.

اللغة:

و قال صاحب العين: الجنف: الميل فى الكلام و الأمور كلها. تقول: جرف علينا فلان، و أجنف فى حكمه، و هو مثل الحيف إلا ان الحيف من الحاكم خاصه، و الجنف عام، و منه قوله تعالى: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ» (١) أى متمايل: متعمد. و رجل أجنف: فى أحد شقيه ميل على الآخر. و قال ابن دريد: جنف يجنف جنفاً إذا صدّ عن الحق و أصل الباب: الميل عن الاستواء. قال الشاعر فى الجنف:

هم المولى و إن جنفوا علينا و إنا من لقائهم لزور«2»

المعنى:

و إذا جنف الموصى فى وصيته، فللموصى أن يردها الى العدل، و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و به قال الحسن، و قتادة، و طاوس . و قال قوم، و اختاره الطبرى : ان قوله «فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ» فى حال مرضه الذى يريد أن يوصى فيه، و يعطى بعضاً، و يضر ببعض، فلا إثم أن يشير عليه بالحق، و يرده الى الصواب و يسرع فى الإصلاح بين الموصى، و الورثة، و الموصى له حتى يكون الكل راضين،

(١) سورة المائدة آية: ٣.

(٢) قائله عامر الخصى، من بنى خصفه، ابن قيس عيلان، مجاز القرآن لابی عبيدة:

٦٦، ٦٧، و مشكل القرآن : ١١٩، و اللسان (جنف) (ولى). قوله: هم المولى: أى هم أبناء عمنا، أقام المفرد مقام الجمع، أراد الموالى. و ان جنفوا: و ان جاروا و مالوا عن الحق.

و الزور: جمع أزور، و هو الغضب و الانحراف. يقول: هم أبناء عمنا و ان مالوا عن الحق و انا لنكره لقاءهم.

ص: ١١٣

و لا يحصل جنف، و لا ظلم، و يكون قوله «فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ» يريد فيما يخاف من حدوث الخلاف فيه - فيما بعد - و يكون قوله «فَمَنْ خَافَ» على ظاهره، فيكون مترقباً غير واقع. و هذا قريب ايضاً، غير أن الأول أصوب، لأن عليه أكثر المفسرين، و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع). و إنما قيل للمتوسط بالإصلاح ليس عليه إثم و لم يقل فله الأجر على الإصلاح، لأن المتوسط إنما يجرى أمره فى الغالب على أن ينقص صاحب الحق بعض حقه بسؤاله إياه، فاحتاج الى أن يبين الله لنا أنه لا إثم عليه فى ذلك إذا قصد الإصلاح . و الذى اقتضى قوله (غَفُورٌ رَحِيمٌ) انه إذا كان يغفر المعصية، فانه لا يجوز أن يؤخذ بما ليس بمعصية مما بين أنه لا إثم عليه.

و الضمير فى قوله «بينهم» عائذ على معلوم بالدلالة عليه عند ذكر الوصى، و الإصلاح، لأنه قد دلّ على الموصى لهم و من ينازعهم و أنشد الفراء - فى مثل «فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ»:

أعمى إذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر

و يصمّ عمّا كان بينهما سمعى و ما بى غيره وقر «1»

أراد بينها و بين زوجها، و إنما ذكرها وحدها، و أنشد أيضاً:

و ما أدرى إذا يمتت وجهاً أريد الخير أيهما يلينى

هل الخير الذى أنا أبتغيه أم الشر الذى لا يأتلينى «2»

فكنى فى البيت الأول عن الشر، و إنما ذكر الخير وحده. و قيل: بل يعود

(١) أمالى الشريف المرتضى ١: ٣٤، ١٢٣. أعمى: أى أغض بصرى. و الضمير فى بينهما عائذ على الزوج و الزوجة . يقول لا أنظر الى جارتى الا و هى مسترة و لا أبوح برها مع زوجها و كل ما أسمعه منهما فأجعل نفسى كأنى لم أسمعه.

(٢) لم أجد هذين البيتين فيما حضرني من المصادر فى المطبوعة (هل) ساقطة، (أنهما) بدل (أيهما).

ص: ١١٤

على مذكور، هم الوالدان و الأقربون.

و الضمير فى قوله «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» عائذ على الوصى - فى قول الحسن - و يجوز أن يعود على المصلح المذكور فى (من).

و قوله تعالى: «جَنَفًا» و إنما يريد بالجنف: الميل عن الحق عن جهة الخطأ، لأنه لا يدرى أنه لا يجوز،

و الإثم: أن يتعمد ذلك، و هو معنى قول ابن عباس، و الحسن، و الضحاك، و السدى. و روى ذلك عن أبي جعفر.

و الجنف فى الوصية:

أن يوصى الرجل لابن ابنته، و له أولاد . أو يوصى لزوج بنته، و له أولاد، فلا يجوز رده على وجه عندنا . و خالف فيه ابن طاوس، و كذلك إن وصى للبعيد دون القريب لا ترد وصيته. و خالف فيه الحسن.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)

آية بلا خلاف.

هذه الآية ظاهرها يتوجه الى من كان على ظاهر الايمان . فأما الكافر، فلا يعلم بهذا الظاهر أنه مخاطب بالصيام. و قوله «كتب» معناه فرض على ما بيناه فيما مضى.

اللغة:

و الصيام، و الصوم: مصدر صام يصوم صوماً قال النابغة:

خيل صيام و خيل غير صائمة
تحت العجاج و خيل تعلق اللجما»¹

و قال صاحب العين: الصوم، و الصمت واحد كقوله تعالى «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا» أى صمتاً. و الصوم قيام بلا عمل . صام الفرس على أريه: إذا لم يعلف.

(١) ديوانه: ١٠٦ (ملحق)، و اللسان (صوم)، (علك) و هو من قصيدته الشهيرة التى أولها:

ص: ١١٥

و صامت الريح: إذا ركدت. و صامت الشمس: حين تستوى في منتصف النهار.

و صامت الفرس: موقفه. و الصوم ذرق النعام. و الصوم: شجر. و أصل الباب:

الإمساك، فالصوم: الصمت، لأنه إمساك عن الكلام.

المعنى:

و الصوم فى الشرع هو الإمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة فى زمان مخصوص. و من شرط انعقاده النية.

و قوله «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» قيل فيه ثلاثة أقوال: أحسنها:

انه كتب عليكم صيام أيام، كما كتب عليهم صيام أيام. و هو اختيار الجبائى، و غيره، و يكون الصيام رفعا، لأنه ما لم يسم فاعله، و يكون موضع (كما) نصب على المصدر.

و المعنى فرض عليكم فرضاً كالذى فرض على الذين من قبلكم، و يحتمل أن يكون نصباً على الحال من الصيام. و تقديره كتب عليكم مفروضاً أى فى هذه الحال.

و الثانى - ما قاله الشعبى، و الحسن : انه فرض علينا شهر رمضان كما فرض شهر رمضان على النصارى . و إنما زادوا فيه و حولوه الى زمان الربيع.

و الثالث - ما قاله الربيع، و السدى : إنه كان الصوم من العتمة إلى العتمة لا يحل بعد النوم مأكل، و لا مشرب، و لا منكح، ثم نسخ. و الأول هو المعتمد.

و قال مجاهد. و قتادة: المعنى بالذين من قبلكم أهل الكتاب.

و قوله «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى لعلكم تتقون المعاصى بفعل الصوم - فى قول الجبائى - و قال السدى : لتتقوا ما حرم عليكم من المأكل و المشرب. و قالت فرقة:

معناه لتكونوا أتقياء بما لطف لكم فى الصيام، لأنه لو لم بلطف به لم تكونوا أتقياء.

و إنما قلنا: الأول هو المعتمد، لأنه يصح ذلك فى اللغة، إذا كان فرض عليهم صيام أيام كما علينا صيام أيام و إن اختلف ذلك بالزيادة و النقصان.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٤]

أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

ص: ١١٦

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر، و نافع (فدية طعام مساكين) على إضافة الفدية و جمع المساكين . الباقر (فدية) منون (طعام مسكين) على التوحيد. و القراءتان متقاربتا المعنى، لأن المعنى لكل يوم يفطر طعام مسكين. و القراءتان يفيدان ذلك.

الاعراب:

قوله تعالى: «أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ» منصوب بأحد شيئين : أحدهما - على الظرف، كأنه قيل : الصيام فى أيام معدودات . و هو الذى اختاره الزجاج. الثانى - أن يكون قد عدى الصيام إليه كقولك : اليوم صمته. و قال الفراء: هو مفعول ما لم يسمى فاعله كقولك : أعطى زيد المال . و خالفه الزجاج، قال، لأنه لا يجوز رفع الأيام، كما لا يجوز رفع المال . و إذا كان المفروض فى الحقيقة هو الصيام دون الأيام، فلا يجوز ما قاله الفراء إلا على سعة فى الكلام.

و قال عطاء، و قتادة: الأيام المعدودات كانت ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ . و كذلك روى عن ابن عباس. و قال ابن أبى ليلى: المعنى به شهر رمضان و إنما كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعاً.

و قوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ارتفع عدّة على الابتداء، و تقديره فعليه عدّة من أيام آخر.

و روى عن أبى جعفر (ع) أن شهر رمضان كان صومه واجباً على نبي دون أمته . و إنما أوجب على أمّة نبينا محمد (ص) فحسب.

و إنما قال «آخر» و لا يوصف بهذا الوصف إلا جمع المؤنث التى كل واحدة أنثى - و الأيام جمع يوم و هو مذكر - حملاً له على لفظ الجمع، لأن الجمع يؤنث كما يقال جاءت الأيام و مضت الأيام. و «آخر» لا يصرف، لأنه

ص: ١١٧

معدول عن الألف و اللام، لأن نظائرها من الصغر و الكبر لا يستعمل إلا بالألف و اللام، لا يجوز نسوة صغر، و يجوز فى العربية «فعدة» على معنى، فليعد عدة من أيام آخر بدلا مما أفطر.

المعنى:

و هذه الآية فيها دلالة على أن المسافر، و المريض يجب عليهما الإفطار، لأنه تعالى أوجب عليهما القضاء مطلقاً، و كل من أوجب القضاء بنفس السفر و المرض أوجب الإفطار و داود أوجب القضاء، و خير في الإفطار، فان قدروا فى الآية فأفطر، كان ذلك خلاف الآية، و بوجوب الإفطار فى السفر قال عمر بن الخطاب، و عبد الله ابن عمر، و عبد الله بن عباس، و عبد الرحمن بن عوف، و أبو هريرة، و عروة ابن الزبير، و أبو جعفر محمد بن على بن الحسين، و روى سعيد بن جبیر عن قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس: قال: الإفطار فى السفر عزيمة. و روى يوسف ابن الحكم، قال: سألت ابن عمر عن الصوم فى السفر قال: أ رأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ألا تغضب، فإنها صدقة من الله تصدق بها عليكم، و روى عبد الملك بن حميد قال قال أبو جعفر: كان أبى لا يصوم فى السفر و ينهى عنه، و روى عن عمر، أن رجلاً صام فى السفر، فأمره أن يعيد صومه، و روى عطا عن المحرز بن أبى هريرة قال: كنت مع أبى فى سفر فى شهر رمضان، فكنت أصوم و يفطر، فقال أبى أما أنك إذا أقمت قضيت، و روى عاصم مولى قومه: أن رجلاً صام فى السفر فأمره عروة أن يقضى،

و روى الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف قال قال رسول الله (ص): الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر.

و روى عن معاذ أن النبى (ص) قدم المدينة، فكان يصوم عاشوراء، و ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ ذلك بشهر رمضان فى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ»

و اختار الطبرى هذا الوجه قال، لأنه لم ينقطع العذر برواية صحيحة أنه كان هاهنا صوم متعبد به فنسخه الله بشهر رمضان.

ص: ١١٨

اللغة:

و أصل السفر الكشف تقول: سفر يسفر سَفَرًا: إذا كشف. و أسفر لونه إسْفَارًا، و انسفرت الإبل: إذا انكشفت داهية انسْفَارًا. و سافر سَفَرًا، و سفرت الريح السحاب إذا قشعته قال العجاج:

سفر الشمال الزّبرج المزبررجا¹»

الزبرج السحاب الرقيق، ومنه السفر، لأنه يظهر به ما لم يكن ظهراً، وينكشف به ما لم يكن انكشف، والسفرة طعام السفر، وبه سميت الجلدة التي يحمل فيها الطعام سفره، والمسفرة: المكينة، والسفير الداخل بين اثنين للصلح، والسفير: ورق الشجر إذا سقط، وسفر فلان شعره إذا استأصله عن رأسه، ومنه قوله تعالى:

«وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ» (٢) أى مشرفة مضيئة «وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ» (٣) إذا أضاء. والاسفار جمع سفر «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» (٤) أى كتبة.

وقوله تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ» يقال: طاق يطوق طوقاً وطاقه إطاقه أيضاً إذا قوى عليه، وطوقه تطويقاً: ألبسه الطوق، وهو معروف من ذهب كان أو فضة كأنه يكسيه قوة بما يعطيه من الجلالة، وكل شىء استدار فهو طوق، كطوق الرحا الذى يدير القطب مشبه بالطوق المعروف فى الصورة، وتطوقت الحية على عنقها: أى صارت كالطوق فيه، والطاقة: شعبة من ريحان أو شعر ونحو ذلك، والطاق: عقد البناء حيث ما كان، والجمع الاطواق، وذلك لقوته. وطوقه الأمر إذا جعله كالطوق فى عنقه.

المعنى:

قال الحسن وأكثر أهل التأويل: إن هذا الحكم كان فى المراضع، والحوامل، والشيخ

(١) اللسان (سفر)، (زبرج). سفر: كشف. الشمال: ربح الشمال.

الزبرج - بكسر الزاء وسكون الباء وكسر الراء - السحاب الرقيق فيه حمرة، وقيل: النمر بسواد وحمرة فى وجهه. وقيل: هو الخفيف الأحمر.

(٢) سورة عبس آية: ٣٨.

(٣) سورة المدثر آية: ٣٤.

(٤) سورة عبس آية: ١٥.

ص: ١١٩

الكبير، فنسخ من الآية المراضع، والحوامل وبقى الشيخ الكبير. وقال أبو عبد الله (ع) ذلك فى الشيخ الكبير يطعم لكل يوم مسكيناً. منهم من قال: نصف صاع وهم أهل العراق. وقال الشافعى: مد عن كل يوم. وعندنا إن كان قادراً فمدان، وإن لم يقدر إلا على مد أجزاءه. وقال السدى: لم ينسخ، وإنما المعنى وعلى الذين كانوا يطبقونه.

و قوله تعالى: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» يعنى أطعم أكثر من مسكين فى قول ابن عباس، و عمل براً فى جميع الدين فى قول الحسن، و هو أعم فائدة. و منهم من قال:

من جمع بين الصوم، و الصدقة ذهب إليه ابن شهاب . و الهاء فى قوله يطيقونه - عند أكثر أهل العلم - عائدة على الصوم، و هو الأقوى، و قال قوم: عائدة على الفداء، لأنه معلوم و إن لم يجر له ذكر. و المعنى بقوله «الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها - أنه سائر الناس من شاء صام، و من شاء أفطر و افتدى لكل يوم إطعام مسكين حتى نسخ ذلك - فى قول ابن عباس، و الشعبى.

الثانى - قال الحسن و عطا: إنه فى الحامل، و المرضع، و الشيخ الكبير، فنسخ من الآية الحامل، و المرضع، وبقى الشيخ الكبير . و قال السدى: إنه فيمن كان يطيقه إذا صار الى حال العجز عنه. «و من» فى قوله: «فَمَنْ تَطَوَّعَ» الظاهر، و الأليق أنها للجزاء. و يحتمل أن تكون بمعنى الذى. و ما روى فى الشواذ من قراءة من قرأ «يطوقونه» قيل فيه قولان:

أحدهما - يكلفونه على مشقة فيه، و هم لا يطيقونه لصعوبته.

الثانى - أن يكون معناه يلزمونه، و هم الذين يطيقونه، فيؤول الى معنى واحد . و من قرأ «فدية طعام مسكين» على إضافة الفدية، و جمع المساكين: عن ابن عامر و نافع، فان معنى قراءته تؤول الى قراءة من ينون «فِدْيَةُ طَعَامِ مَسْكِينٍ».

ص: ١٢٠

لأن المعنى: لكل يوم يفطر طعام مسكين. و الأول يفيد هذا أيضاً، لأنه إذا قيل:

إطعام مساكين للأيام بمعنى لكل يوم مسكين، صار المعنى واحداً.

و فى الآية دلالة على بطلان قول المجبر: إن القدرة مع الفعل، لأنه لو كانت الاستطاعة مع الفعل الذى هو الصيام، لسقطت عنه الفدية - لأن إذا صام لم يجب عليه فدية.

و قوله: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ» رفع (خير)، لأنه خبر المبتدأ.

و تقديره و صومكم خير لكم، كأن هذا مع جواز الفدية، فأما بعد النسخ، فلا يجوز أن يقال: الصوم خير من الفدية مع أن الإفطار لا يجوز أصلاً.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٥]

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ أبو بكر عن عاصم «و لتكملوا» بتشديد الميم. الباقون بتخفيفها. قال أبو العباس: أكملت و كملت بمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة. و من قرأ بالتخفيف فلقوله «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» «١».

اللغة:

الشهر: معروف، و جمعه: الأشهر. و الشهور و الشهرة: ظهور الأمر في

(١) سورة المائدة آية: ٤.

ص: ١٢١

شعنة. و شهرت الحديث أظهرته. و شهر فلان سيفه: إذا انتضاه. و المشهر: الذي أتى عليه شهر. و أشهرت المرأة: إذا دخلت في شهر ولادتها. و أتان شهيرة: أى عريضة ضخمة. و المشاهرة: المعاملة شهراً بشهر. و سمي الشهر شهراً، لاشتغاره بالهلال. فأصل الباب الظهور.

و قال ابن دريد: الرمض: شدة وقع الشمس على الرمل و غيره، و الأرض رمضاء. و رمض يومنا رمضاً: إذا اشتد حره. و رمضان من هذا اشتقاقه، لأنهم سموا الشهور بالازمنة التي فيها، فوافق رمضان أيام رمض الحر، و قد جمعوا رمضان، رمضانات . قال صاحب العين: و الرمض حرقة غيظ تقول: أرمضني هذا الأمر، و رمضت له . و الرمض: مطر يكون قبل الخريف. و أصل الباب شدة الحر.

الاعراب:

و شهر رمضان رفع لأحد ثلاثة أشياء:

أولها- أن يكون خبر ابتداء محذوف يدل عليه «أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ» و تقديره هي شهر رمضان.

الثاني- على ما لم يُسم فاعله، و يكون بدلا من الصيام، و تقديره «كتب عليكم الصيام» (شَهْرُ رَمَضَانَ).

الثالث- أن يكون مبتدأ و خبره «الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» و يجوز في العريضة شهر رمضان بالنصب من وجهين : أحدهما- صوموا شهر رمضان. و الآخر- على البدل من أيام.

المعنى:

و قوله «أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» قيل في معناه قولان:

أحدهما- قال ابن عباس، و سعيد بن جبیر، و الحسن:

إن الله تعالى أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم أنزل على النبي (ص) بعد ذلك

ص: ١٢٢

نجوماً. و هو المروى عن أبي عبد الله (ع).

و الثانى - أنه ابتداء إنزاله في ليلة القدر من شهر رمضان . فان قيل كيف يجوز إنزاله كله في ليلة، و فيه الاخبار عما كان، و لا يصلح ذلك قبل أن يكون؟

قلنا: يجوز ذلك في مثل قوله: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» «١» و قوله:

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَ لِيْتُمْ مُدْبِرِينَ» «٢» على إذا كان وقت كذا أنزل «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ» كما قال تعالى «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» «٣» أى إذا كلن يوم القيامة «نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ».

الاعراب:

و قوله تعالى: «هُدًى لِلنَّاسِ» موضعه نصب على الحال، كأنه قال : أنزل فيه القرآن هادياً للناس . و لا يحتمل سواه، لقوله «وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى».

اللغة:

و القرآن اشتقاقه قرأ يقرأ قراءة ، و أقرأه إقرأ . و قال صاحب العين : رجل قارئ: أى عابد ناسك، و فعله التقرى و القراءة، و أقرأت المرأة: إذا حاضت.

و قرأت الناقة: إذا حملت. و القرء: الحيض، و قد جاء بمعنى الطهر. و أصل الباب الجمع، لقولهم ما قرأت الناقة سلاقط: أى ما جمعت رحمها على سلاقط. و فلان قرأ، لأنه جمع الحروف بعضها الى بعض. و القرء الحيض، لاجتماع الدم فى ذلك الوقت. و الفرقان: هو الذى يفرق بين الحق، و الباطل، و المراد به القرآن هاهنا.

المعنى:

و قوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» قيل فى معناه قولان:

(١) سورة آل عمران آية: ١٢٣.

(٢) سورة التوبة آية: ٢٦.

(٣) سورة الاعراف آية: ٤٣.

ص: ١٢٣

أحدهما- من شاهد منكم الشهر مقيما. و الثانى - من شهد بان حضره، و لم يغب، لأنه يقال: شاهد: بمعنى حاضر. و شاهد: بمعنى مشاهد. و

روى عن ابن عباس، و عبيدة السلماني، و مجاهد، و جماعة من المفسرين، و روه عن على (ع) أنهم قالوا: من شهد الشهر بأن دخل عليه الشهر، كره له أن يسافر حتى يمضى ثلاث و عشرون من الشهر إلا أن يكون واجبا كالحج، أو تطوعا كالزيارة، فان لم يفعل، و خرج قبل ذلك كان عليه الإفطار، و لم يجزه الصوم.

و قوله تعالى: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» ناسخ الفدية- على قول من قال بالتخيير- و ناسخ للفدية ايضا فى المراضع و الحوامل- عند من ذهب اليه- و بقى الشيخ الكبير، له أن يطعم، و لم ينسخ. و عندنا أن المرضعة و الحامل إذا خافا على ولدهما أفطرتا و كفرتا، و كان عليهما القضاء فيما بعد إذا زال العذر. و به قال جماعة من المفسرين، كالطبرى و غيره.

و قوله: «وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» قد بينا أنه يدل على وجوب الإفطار - فى السفر-، لأنه أوجب القضاء بنفس السفر، و المرض.

و كل من قال ذلك أوجب الإفطار. و من قدر فى الآية أو على سفر فأفطر فعدة من أيام آخر، زاد فى الظاهر ما ليس فيه. فان قيل: هذا كقوله «فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ» «١» و معناه فحلق. قلنا: إنما قدرنا هناك فحلق للإجماع على ذلك، و ليس هاهنا إجماع، فيجب أن لا يترك الظاهر، و لا يزداد فيه ما ليس فيه.

للغة:

و قوله تعالى : «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ» قال صاحب العين : الارادة: أصلها الواو، لأنك تقول : راودته على أن يفعل كذا و كذا، مراودة. و منه راد، يروود، رواداً، فهو رائد بمعنى الطالب شيئاً. و يقال أروود فلان إرواداً: إذا رفق

(١) سورة البقرة آية: ١٩.

ص: ١٢٤

فى مشى أو غيره . و منه رويداً فلاناً: أى أمهله يتفصح منصرفاً . و منه ارتاد ارتياداً كقولك : طلب طلباً، و الرود: الميل. و فى المثل (الرائد لا يكذب أهله) أى الطالب صلاحهم لا يكذبهم، لأنه لو كذبهم غشهم. و أصل الباب الطلب. و الارادة بمنزلة الطلب للمراد، لأنها كالسبب له.

و اليسر ضد العسر . يقال: أيسر إيساراً، و يسره تيسيراً، و تيسر تيسراً، و تياسر تياسراً، و استيسر استيساراً . و اليسار: اليد اليسرى. و اليسار: الغنى، و السعة. و اليسر: الجماعة الذين يجتمعون على الجزور فى الميسر، و الجمع: الإيسار.

و فرس حسن التيسور: إذا كان حسن السمن «١». و أصل الباب السهولة.

و العسر ضد اليسر . و عسر الشىء عسراً. و رجل عسر يبين العسر . و رجل أعسر: يعمل بشماله. و أعسر الرجل إعساراً: إذا افتقر. و العسير الناقة التى اعتاضت فلم تحمل من سنتها. و بعير عسران إذا ركب قبل أن يُراض. و أصل الباب الصعوبة.

و قوله تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» يقال: كمل يكمل كمالاً، و أكمل إكمالاً، و تكامل تكاملاً، و كمله تكميلاً، و استكمل استكمالاً، و تكمل تكملاً. و أصل الباب الكمال، و هو التمام.

الاعراب:

و عطف باللام فى قوله تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» على أحد أمرين:

أحدهما- عطف جملة على جملة، لأن بعده محذوفاً، كأنه قال : و لتكملوا العدة شرع ذلك أو أريد . و مثله قوله تعالى : «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» «٢» أى أريناه. هذا قول الفراء.

الثانى - أن يكون عطفاً على تأويل محذوف دلّ عليه ما تقدم من الكلام، لأنه لما قال : «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» دلّ على أنه فعل ذلك ليسهل عليكم، فجاز «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» عطفاً عليه. قال الشاعر:

(١) حسن ساقطة من المطبوعة، السمن - بكسر السين و فتح الميم.

(٢) سورة الانعام آية: ٧٥.

ص: ١٢٥

إلا رواكد جمرهن هباء

يا رب غير آيهن مع البلى

فبدا و غيب ساره المعزاء¹»

و مشجج أما سواء قذاله

فعطف على تأويل الكلام الأول كأنه قال: بها رواكد، و مشجج. و هذا قول الزجاج و هو الأجود، لأن العطف يعتمد على ما قبله، لا على ما بعده. و عطف الظرف على الاسم فى قوله: «وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» جائز، لأنه معنى الاسم، و تقديره أَوْ مسافراً، و مثله قوله: «دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» كأنه قال مضطجعا أَوْ قائماً أَوْ قاعداً.

المعنى:

و اليسر المذكور فى الآية: الإفطار فى السفر - فى قول ابن عباس، و مجاهد، و قتادة، و الضحاك.

و العسر: الصوم فيه و فى المرض. و العدة: المأمور بإكمالها، و المراد بها: أيام السفر، و المرض الذى أمر بالإفطار فيها و قال الضحاك، و ابن زيد: عدة ما أفطروا فيه.

و قوله «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ» المراد به تكبير ليلة الفطر عقيب أربع صلوات:

المغرب، و العشاء الآخرة، و صلاة الغداة، و صلاة العيد - على مذهبننا-. و قال ابن عباس، و زيد بن أسلم، و سفيان، و ابن زيد: التكبير يوم الفطر.

و فى الآية دلالة على فساد قول المجبرة من ثلاثة أوجه:

أحدها - قوله «هُدًى لِلنَّاسِ» فعمّ بذلك كل إنسان مكلف، و هم يقولون ليس يهدى الكفار.

(١) اللسان (شجج) ذكر البيت الثانى فقط. غير: بدل. آيهن جمع آية و هى العلامة.

و الرواكد هى حجارة توضع تحت القدر . مشجج: مضروب. قذال: مجمع عظم الرأس بدا ظهر و بان . ساره: جميعه. المعزاء:
الأرض الصلبة ذات الحجارة. يقول رب لا تترك لهن علامة، و افنهن جميعاً سوى حجارة الموقد، و مكسرات الرأس، و اجعل
أرضهن صلبة و فيها حجارة قد رماها العدو حتى غطت عليهن جميعاً.

ص: ١٢٦

الثانى - قوله تعالى «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» و المجبرة تقول: قد أراد تكليف العبد ما لا يطيق مما لم يعطه
عليه قدرة، و لا يعطيه، و لا عسر أعسر من ذلك.

الثالث - لو أن إنساناً حمل نفسه على المشقة الشديدة التى يخاف معها التلف فى الصوم لمرض شديد لكان عاصياً، و لكان قد
حمل نفسه على العسر الذى أخبر الله أنه لا يريده بالعبد. و المجبرة تزعم أن كلما يكون من العبد من كفر أو عسر أو غير ذلك
من أنواع الفعل يريده الله.

مسائل من أحكام الصوم

يجوز قضاء شهر رمضان متتابعاً، و متفرقاً، فاللتابع أفضل . و به قال مالك، و الشافعى . و قال أهل العراق: هو مخير. و من أفطر
فى شهر رمضان متعمداً بالجماع فى الفرج لزمه القضاء، و الكفارة - عندنا - و الكفارة: عتق رقبة، فان لم يجد فصيام شهرين
متتابعين، فان لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً . و به قال أبو حنيفة، و الشافعى . و قال مالك هو بالخيار. و فى أصحابنا من قال
بذلك. و الإطعام لكل مسكين نصف صاع - عندنا - و به قال أبو حنيفة، فان لم يقدر فمد . و به قال الشافعى، و لم يعتبر العجز .
فان جامع ناسياً، فلا شىء عليه. و قال مالك: عليه القضاء. و من أكل متعمداً أو شرب فى نهار شهر رمضان لزمه القضاء، و
الكفارة - عندنا - و هو قول أبى حنيفة و مالك . و قال الشافعى: لا كفارة عليه، و عليه القضاء و الناسى لا شىء عليه - عندنا -
و عند أهل العراق، و الشافعى . و قال مالك عليه القضاء . و من أصبح جنباً متعمداً من غير ضرورة لزمه - عندنا - القضاء و
الكفارة. و قال ابن حى عليه القضاء استحباباً. و قال جميع الفقهاء لا شىء عليه.

و من ذرعه القىء، فلا شىء عليه، فان تعمدته كان عليه القضاء، و به قال أبو حنيفة و الشافعى و مالك، و قال الأوزاعى : إن
غلبه، فعليه القضاء بلا كفارة. و إن

ص: ١٢٧

استدعاه فعليه القضاء، و الكفارة. و من أكل حصى أو نوى متعمداً فعليه القضاء، و الكفارة . و به قال مالك و الأوزاعى. و قال
أهل العراق عليه القضاء بلا كفارة.

و قال ابن حى لا قضاء و لا كفارة.

و إذا احتلم الصبي يوم النصف من شهر رمضان صام ما بقى، و لا قضاء عليه فيما مضى، و يمسك بقیة يومه تأديباً، فان أفطر فيه فلا قضاء عليه. و به قال أهل العراق. و قال مالک: أحب الى أن يقضى ذلك اليوم، و ليس بواجب. و قال الاوزاعی: يصوم ما بقى، و يقضى ما مضى منه.

و حکم الکافر إذا أسلم حکم الصبي إذا احتلم فى جميع ذلك. و المجنون، و المغمى عليه فى الشهر كله لا قضاء عليه - عندنا - بدلالة قوله تعالى: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» و إنما أراد من شهد الشهر و هو ممن يتوجه اليه الخطاب، و المجنون و المغمى عليه ليس بعاقل يتناوله الخطاب.

و قوله «وَ مَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ» المراد به إذا كان مريضاً عاقلاً، يشق عليه الصوم، أو يخاف على نفسه منه، فيلزمه «فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ». و قال أهل العراق:

إن لم يفق المجنون فى جميع الشهر، فلا قضاء عليه، و ان أفاق فى بعضه فعليه قضاؤه كله.

و أما المغمى عليه فى الشهر كله، فعليه قضاؤه، لأنه بمنزلة المريض. و قال حسن بن صالح، و مالک: المجنون، و المغمى عليه سواء، عليه قضاء الشهر كله إن جن فى الشهر كله، و أغمى عليه فيه. و قال الأوزاعی: المجنون، و المغمى عليه سواء، لا قضاء على واحد منهما ما مضى من الشهر، و يقضى ما بقى منه، فان أفاق بعد ما خرج الشهر كله فلا قضاء عليه. و هذا مثل ما قلناه. و قال الشافعى: يقضى المغمى عليه، و لا يقضى المجنون.

و الحامل، و المرضع، و الشيخ الكبير إذا أفطروا، قال أهل العراق: فى الحامل، و المرضع، يخافان على ولدهما: يفطران، و يقضيان يوماً مكانه، و لا صدقة عليهما، و لا كفارة، و به قال قوم من أصحابنا. و قال مالک الحامل تقضى، و لا تطعم و المرضع: تقضى، و تطعم لكل يوم مدّاً. و قال الشافعى فى رواية المزنى:

ص: ١٢٨

عليهما القضاء فى الوجهين، و تطعم لكل يوم مدّاً، و هو مذهبنا، و المعمول عليه.

و فى رواية البنزطى عن الشافعى مثل قول مالک. و الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم يفطر و يتصدق مكان كل يوم نصف صاع فى قول أهل العراق، و هو مذهبنا.

و قال الشافعى: مدّ لكل يوم. و قال مالک: يفطر و لا صدقة عليه. و السفر الذى يوجب الإفطار: ما كان سفرأ حسناً، و كان مقداره ثمانية فراسخ: أربعة و عشرين ميلاً. و عند الشافعى: ستة عشر فرسخاً. و عند أبى حنيفة: أربعة و عشرون فرسخاً.

و قال داود: قليله، و كثيره يوجب الإفطار. و المرض الذى يوجب الإفطار:

ما يخاف معه التلف أو الزيادة المفرطة في مرضه . و روى أنه كل مرض لا يقدر معه على القيام مقدار صلاته، و به قال الحسن ، و عبيدة السلماني، و في ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.

و من قال: إن قوله تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» يدل على أن شهر رمضان لا ينقص أبداً، فقد أبعد من وجهين:

[الاول]، لأن قوله «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» معناه و لتكملوا عدة الشهر سواء كان الشهر تاماً أو ناقصاً.

و الثاني - أن ذلك راجع الى القضاء، لأنه قال عقيب ذكر السفر، و المرض:

«فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» يعنى عدة ما فاتته، و هذا بين.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٦]

وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

آية بلا خلاف.

ص: ١٢٩

النزول:

روى عن الحسن : أن سائلاً سأل النبي (ص) أ قريب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه، فنزلت الآية . قال قتادة: نزلت جواباً لقوم سألوا النبي (ص) كيف تدعو.

المعنى:

و قوله تعالى: «وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ» معناه: إن اقتضت المصلحة إجابته، و حسن ذلك، و لم تكن فيه مفسدة «١». فأما أن يكون قطعاً لكل من يسأل فلا بد أن يجيبه، فلا . على أن الداعي لا يحسن منه السؤال إلا بشرط ألا يكون في إجابته مفسدة، لا له، و لا لغيره، و إلا كان الدعاء قبيحاً . و لا يجوز أن يقيد الاجابة بالمشيئة بأن يقول: إن شئت، لأنه يصير الوعد به لا فائدة فيه، فمن أجا ز ذلك فقد أخطأ . فان قيل: إذا كان لا يجيب كل من دعا، فما معنى الآية؟ قلنا معناه أن من دعا - على شرائط الحكمة التي قدمناها، و اقتضت المصلحة إجابته - أجيب لا محالة، بان يقول: اللهم افعل بى كذا إن لم يكن فيه مفسدة لى أو لغيرى فى الدين «٢» أو دنيوى. هذا فى دعائه.

و فى الناس من قال: إن الله وعد باجابة الدعاء عند مسألة المؤمنين دون الكفار، و الفاسقين . و المعتمد هو الاول. فان قيل: إذا كان ما تقتضيه الحكمة لا بد أن يفعل به، فلا معنى للدعاء! قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أن ذلك عبادة كسائر العبادات. و مثله قوله: «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ».

و الثاني - انه لا يمتنع أن تقتضى المصلحة إجابته إذا دعا. و متى لم يدع لم تقتض الحكمة إجابته.

فان قيل: هل يجوز أن تكون الاجابة غير ثواب؟ قلنا فيه خلاف. قال

(١) فى المطبوعة (فتة).

(٢) هكذا فى المطبوعة و الأولى أن يكون (فى أمر دينى).

ص: ١٣٠

أبو على لا يكون إلا ثواباً، لأن من أجابه الله، يستحق المدح فى دين المسلمين، فلا يجوز أن يجيب كافراً، و لا فاسقاً . و كان أبو بكر بن الأخشاد يخبر ذلك فى العقل على وجه الاستصلاح له. و هذا الوجه أقرب الى الصواب.

و الدعاء: طلب الطالب للفعل من غيره. و يكون الدعاء لله على وجهين:

أحدهما - طلب فى مخرج اللفظ، و المعنى على التعظيم و المدح، و التوحيد:

كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، و قولك: ربنا لك الحمد.

الثانى - الطلب لأجل الغفران أو عاجل الانعام كقولك: ألهم اغفر لى و ارحمنى، و ارزقنى، و ما أشبه ذلك.

و قوله: «فَإِنِّى قَرِيبٌ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - إنى قريب الاجابة: سريع الاجابة، فجاز ذلك لمشاكلة معنى قريب لسريع.

الثانى - قريب -، لأنه يسمع دعاءهم كما يسمعه القريب المسافة منهم، فجاز لفظه قريب، فحسن البيان بها . فأما قريب المسافة، فلا يجوز عليه تعالى، لأنه من صفات المحدثات.

اللغة:

و قوله «أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» فالاجابة من الجواب، و هو القطع.

يقال: جاب البلاد يجوب جوباً إذا قطع . ومنه قوله تعالى: «وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ» «١» أى قطعوه. و أجاب الله دعاءه إجابة، و أجاب فلان عن السؤال جواباً . و أجاب الظلام إذا قطعه . و استجاب له استجابة . و جاوبه مجاوبة، و تجاوب تجاوباً، و انجاب السحاب: إذا انقشع. و أصل الباب القطع، فاجابة السائل:

القطع بما سأل، لأن سؤاله على الوقف أ يكون أم لا يكون.

(١) سورة الفجر آية: ٩.

ص: ١٣١

الاعراب:

و قوله تعالى «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي» هذه لام الأمر، لا بد منها للغائب . و أما للحاضر «١»، فيجوز فيه إثباتها و إسقاطها . كقولك قم و لتقم. و الأصل فيها أن تكون مكسورة. و يجوز فيها السكون إذا اتصلت بحرف واحد كالفاء فأما ثم، فالوجه معها الكسر، لأنها منفصلة و إنما جاز فيها السكون دون لام كي لأنه لما كان عملها التسكين جاز فيها، لا يذانه بعملها.

المعنى:

و قال أبو عبيدة: استجاب، و أجاب بمعنى واحد. و أنشد لكعب بن سعد الغنوى:

و داع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب «2»

أى لم يجبه. و قال المبرد: هذا لا يجوز، لأن فى الاستجابة معنى الإذعان، و ليس ذلك فى الاجابة . و قوله «لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» فى لعل جوابان:

أحدهما- ليرشدوا، فتكون دالة على العوض فى الاجابة، من الله تعالى للعبد.

الثانى - على الرجاء و الطمع، لأن يرشدوا، و يكون متعلقاً بفعل العباد.

و الرشد: تقيض الغي. يقال: رشد يرشد رشداً، و رشد يرشد رشاداً، و أرشده إرشاداً و استرشد استرشاداً، و هو لرشده خلاف لزنية. و أصل الباب إصابة الخير، فمنه الإرشاد: الدلالة على وجه الإصابة للخبر.

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنه قال: «وَلْيُؤْمِنُوا بِي» أى و ليتحققوا أنى قادر على إعطائهم ما سألوا

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٧]

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

(١) فى المطبوعة (قلنا الحاضر) و هو تحريف.

(٢) أمالى الغالى ٢: ١٥١. و الأصمعيات: ١٤، و اللسان (جوب) و هو من قصيدة يرثى بها أخاه أبا المغوار.

ص: ١٣٢

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

الرفث الجماع هاهنا بلا خلاف، و فى قراءة ابن مسعود «فلا رفوث»، و قيل : أصله فاحش القول فكنى به عن الجماع قال العجاج:

عن اللّغا و رفث التكلم «1»

و الرفث و الترفث: قول الفحش يقال رفث يرفث رفثاً.

و روى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) كراهية الجماع فى أول ليلة من كل شهر، إلا أول ليلة من شهر رمضان لمكان الآية

و الأشبه أن يكون المراد بليلة الصيام لبالى الشهر كله. و إنما ذكر بلفظ التوحيد، لأنه اسم جنس يدل على التكثير.

و معنى قوله: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ» أنهن يصرن بمنزلة اللباس، كما قال النابغة الجعدي:

(١) ديوانه: ٥٩ من رجز له طويل، حمد فيه الله و مجده بقوله:

ذى الجبروت و الجلال الأفخم

فالحمد لله العلى الأعظم

الى أن قال:

عن اللغا و رفث التكلم

و رب أسراب حجيج كظم

و الاسراب: القطيع من القطا أو الظباء أو الشاء أو النساء. يقصد به الحجاج. و الكظم- بفتح الكاف و الظاء- السكوت عن الكلام و حبس النفس فى الصدر. اللغا: ما لا يعتد به من الكلام. رفث التكلم: عطف بيان على اللغا.

ص: ١٣٣

تثنت عليه فكانت لباسا»1«

إذا ما الضجيج ثنى عطفه

و قال قوم : معناه هنّ سكن لكم، كما قال : «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا» «٢» أى سكتاً. و اللباس الثياب التى من شأنها أن تستر الأبدان، و يشبه بها الأغشية فيقال لبس السيف بالحلية.

و قوله تعالى: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ» معناه أنهم كانوا لما حرم عليهم الجماع فى شهر رمضان بعد النوم . خالفوا فى ذلك فذكرهم الله بالنعمة فى الرخصة التى نسخت تلك الفريضة. فان قيل: أ ليس الخيانة انتفاض الحق على جهة المساترة، فكيف يساتر نفسه؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما- أن بعضهم كان يساطر بعضاً فيه فصار كأنه يساطر نفسه، لأن ضرر النقص و المساترة داخل عليه.

الثانى - أنه يعمل عمل المساطر له فهو يعمل لنفسه عمل الخائن له.

و يقال: خانه يخونه خونا و خيانة، و خونه تخوينا، و اختانه اختياناً، و تخونه تخونا، و التخون: التنقص، و التخون: تغيير الحال الى ما لا ينبغي «و خائنة الأعين»: «٣» مشاركة النظر الى ما لا يحل. و أصل الباب منع الحق.

و قوله تعالى: «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» أى قبل توبتكم على ما بيناه فيما تقدم. و قوله تعالى: «وَعَفَا عَنْكُمْ» فيه قولان:

أحدهما- غفر ذنبكم. الثانى - أزال تحريم ذلك عنكم، و ذلك عفو عن تحريمه عليهم . و قوله تعالى: «فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» أى جامعوهن، و معناه الاباحة دون الأمر، و المباشرة إصاق: البشرة بالبشرة، و هى ظاهر أحد الجلدين بالآخر.

و قوله تعالى: «وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال الحسن، و غيره: يعنى طلب الولد.

(١) الشعر و الشعراء: ٢٢٥، و مجاز القرآن لابی عبيدة: ٦٧. و تأويل مشكل القرآن:

١٠٧، و فى بعضها (تداعت) بدل (تنتت).

(٢) سورة عم آية: ١٠.

(٣) سورة المؤمن آية: ١٩.

ص: ١٣٤

الثانى - قال قتادة: يعنى الحلال الذى بيّنه الله فى الكتاب، و الابتغاء:

الطلب للبغيه، و قوله «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا» إباحة للأكل و الشرب «حَتَّى يَتَبَيَّنَ» أى يظهر، و التبين: تميز الشيء الذى يظهر للنفس على التحقيق «الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» يعنى بياض الفجر من سواد الليل . و قيل: خيط الفجر الثانى مما كان فى موضعه من الظلام. و قيل النهار من الليل، فأول النهار طلوع الفجر الثانى لأنه أوسع ضياء. قال أبو داود «١».

و لاح من الصبح خيط أنارا «2»

فلما أضاءت لنا سدفه

و روى عن حذيفة، و الأعمش، و جماعة : أن الخيط الأبيض : هو ضوء الشمس، و جعلوا أول النهار طلوع الشمس، كما أن آخره غروبها بلا خلاف فى الغروب.

و أكثر المفسرين على القول الأول، و عليه جميع الفقهاء، لا خلاف فيه بين الأمة اليوم.

اللغة:

و الخيط فى اللغة معروف يقال خاط يخيط خياطة، فهو يخيط، و خيطة تخييطاً. و الخيط: القطيع من النعام. و نعام خيطاء : قيل: خيطةا طول قصبتها، و عنقها . و قيل: اختلاط سوادها ببياضها، و كلاهما يحتمل، فالأول، لأنه كالخيط الممدود . و الثانى - لأنه كاختلاط خيوط بيض بسود . و المخيط الابرء . و نحوها مما يخاط به . و الأبيض تقيض الأسود . و البياض ضد السواد يقال : أبيض، و ايباض ابيضاضاً و ببيضه تبيضاً، و تبيض تبيضاً . و بيضة الطير، و بيضة الحديد، و بيضة الإسلام مجتمعه، و ابتاضوهم أى استأصلوهم، لأنهم اقتلعوا ببيضهم و أصل الباب البياض.

و اسود، و اسواد اسوداداً، و سوده تسويداً، و تسود تسوداً، و ساوده

(١) هو أبو داود: الايادى.

(٢) اللسان (خيط) و الأصمعيات: ٢٨ و رواية الأصمعيات (خير أنارا) فى المطبوعة (غدوة) بدل (سدفة) و معناها متقارب، لأن السدفة: ظلمة الليل فى لغة نجد، و الضوء فى لغة قيس و هى أيضا اختلاط للضوء و الظلمة جميعاً.

ص: ١٣٥

سواداً: أى ساده سواداً، لأن الخفاء فيه كخفاء الشخص فى سواد الليل. و سواد العراق: سمي به لكثرة الماء، و الشجر الذى تسود به الأرض. و سواد كل شىء شخصه. و الأسود من الحبة يجمع أساود . و سويداء القلب، و سوداؤه دمه الذى فيه فى قول : ابن دريد. و قيل حبة القلب، لأنه فى سواد من الظلمة. و ساد سؤدداً، فهو سيد، لأنه ملك السواد الأعظم، و المسود : الذى قد ساده غيره.

المعنى:

و قوله «مِنَ الْفَجْرِ» يحتمل معنيين:

أحدهما - أن يكون بمعنى التبويض، لأن المعنى من الفجر، و ليس الفجر كله.

هذا قول ابن دريد.

الثانى - بمعنى تبين الخيط، كأنه قال: الخيط الذى هو الفجر.

و قوله: «ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» قد بينا حقيقة الصيام فيما مضى.

و الليل هو بعد غروب الشمس، و علامة دخوله على الاستظهار سقوط الحمرة من جانب المشرق، و إقبال السواد منه، و إلا فإذا غابت الشمس مع ظهور الآفاق فى الأرض المبسوطة و عدم الجبال، و الرواسى، فقد دخل الليل.

و قوله تعالى: «وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ» قيل فى معناه قولان هاهنا:

قال ابن عباس، و الضحاك، و الحسن، و قتادة، و غيرهم: أراد به الجماع.

و قال ابن زيد، و مالك: أراد الجماع. كلما كان دونه من قبله، و غيرها.

و هو مذهبنا.

و قوله تعالى: «وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» فالاعتكاف - عندنا - هو اللبث فى أحد المساجد الأربعة : المسجد الحرام أو مسجد النبى (ص) أو مسجد الكوفة أو مسجد البصر، للعبادة من غير اشتغال بما يجوز تركه من أمور الدنيا.

و له شرائط - ذكرناها فى كتب الفقه - و أصل الزوم. قال الطرماح:

ص: ١٣٦

فبات بنات الليل حولى عكفاً

عكوف البواكى بينهن صريع «1»

و قال الفرزدق:

ترى حولهن المعتفين كأنهم

على صنم فى الجاهلية عكف «2»

اللغة:

و قوله تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ». فالحد على وجوه:

أحدها - المنع، يقال: حذّه عن كذا حدّا أى منعه. و الحدّ حدّ الدار.

و الحدّ الفرض من حدود الله أى فرائضه، الحد الجلد للزاني، وغيره. و الحد: حد السيف، و ما أشبهه. و الحد فى الحلق: الحدة. و الحد: الفرق بين الشيئين. و الحد منتهى الشىء. و حد الشراب: صلابته. و إحداد المرأة على زوجها: امتناعها من الزينة و الطيب. و إحداد السيف: إشحاده. و إحداد النظر الى الشىء التحديق إليه. و الحديد معروف، و صانعه الحداد. و الحداد السجان. و الاستحداد حلق الشىء بالحديد. و حاددته: عاصيته، و منه قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» «٣» و أصل الباب المنع. و الحدّ: نهاية الشىء التى تمنع أن يدخله ما ليس منه، و أن يخرج عنه ما هو منه.

أحكام الاعتكاف:

و لا يجوز الاعتكاف إلا بصوم، و به قال أبو حنيفة، و أصحابه، و مالك ابن أنس . و قال الشافعى يصح بلا صوم، و به قال الحسن إلا أن يشرط. و عندنا

(١) ديوانه: ١٥٣، و اللسان (بنى) و روايته (تظل) بدل (فبات) و (قتيل) بدل (صريع). بنات الليل: الهموم. و قيل الأحلام. و الأول أليق فى هذا. كأنه يقول: ان الهموم تراكت على. كتراكم النساء على القتيل.

(٢) ديوانه: ٥٦١، و النقاخى: ٥٦٣. فى المطبوعة (العقبن) بدل (المعتفين) و المعتفون: الذين جاءوا يطلبون الرزق، يصفهم: جمعاً قد وقفوا ينتظرون الطعام و العطاء متلهفين.

و هو ليس بدم لهم بل مدح بالمعطى لهم.

(٣) سورة المجادلة آية ٥، ٢٠.

ص: ١٣٧

لا يكون أقل من ثلاثة أيام، و به قال أهل المدينة. و قال أهل العراق: الاعتكاف جائز فى كل مسجد يصلى فيه جماعة. و قال مالك: لا اعتكاف إلا فى موضع يصلى فيه الجمعة من المصر. و قال أهل العراق: المرأة تعتكف فى مسجد بيتها. و قال مالك: لا تعتكف إلا فى مسجد جماعة. و قال الشافعى: المرأة و العبد يعتكفان، و كذلك المسافر حيث شاءوا. و قد بينا ما عندنا فى ذلك. و لا فرق بين الرجل و المرأة فيه. و قال مالك: لا يكون الاعتكاف أقل من عشرة أيام. و عند أهل العراق يكون يوماً.

و مسائل الاعتكاف قد بيناها فى النهاية، و المبسوط فى الفقه، فلا نطول بذكرها. و المختلف فيها ذكرناه فى مسائل الخلاف.

سبب النزول:

وقيل أن هذه الآية نزلت في شأن أبي قيس بن صرمه، فكان يعمل في أرض له، فأراد الأكل، فقالت امرأته : يصلح لك شيئاً فغلبت عيناه، ثم قدمت إليه الطعام، فلم يأكل، فلما أصبح لاقى جهداً، فأخبر رسول الله (ص) بذلك، فنزلت هذه الآية.

وروى أن عمراً أراد أن يوقع زوجته في الليل، فقالت : إني نمت فظن أنها تعتل عليه، فوقع عليها، ثم أخبر النبي (ص) بذلك من الغد، فنزلت الآية فيهما.

المعنى:

وقوله تعالى: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» يعنى ما بين لهم من الأدلة على ما أمرهم به، ونهاهم عنه، لكلى يتقوا معاصى، و تعدى حدوده التى أمرهم الله بها، ونهاهم عنها، وأباحهم إياها . وفى ذلك دلالة على أنه تعالى : أراد التقوى من جميع الناس: الذين بين لهم هذه الحدود.

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنها نزلت فى خوات بن جبير مثل قصة أبى قيس بن صرمه.

و أنه كان ذلك يوم

ص: ١٣٨

الخدق. و روى عن أبى جعفر (ع) حديث أبى قيس سواء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٨]

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

آية

المعنى:

قوله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- أن يكون ذلك على جهة الظلم، نحو الخيانة، و السرقة، و الغصب، وى كون التقدير لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل كأكل مال نفسه بالباطل، و مثله «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» «١» و معناه لا يلمز بعضكم بعضاً . و قوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» «٢» و المعنى لا يقتل بعضكم بعضاً.

الثانى - لا تأكلوه على وجه الهزء و اللعب، مثلى ما يوجد فى القمار و الملاهى و نحوها، لأن كل ذلك من أكل المال بالباطل.

و قال أبو جعفر (ع) «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» يعنى باليمين الكاذبة يقتطعون بها الأموال،

و قال أبو عبد الله (ع): علم الله أنه سيكون في هذه الأمة حكام يحكمون بخلاف الحق، فنهى الله المؤمنين أن يتحاكموا إليهم، و هم يعلمون أنهم لا يحكمون بالحق.

و قوله تعالى: «وَتَدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» فالحكم هو الخبر الذى يفصل به بين الخصمين يمنع كل واحد من منازعة الآخر. و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال ابن عباس، و الحسن، و قتادة: إنه الوديعه و ما تقوم به بينة.

الثانى - قال الجبائى: فى مال اليتيم الذى فى يد الأوصياء، لأنه يدفعه إلى

(١) سورة الحجرات آية: ١١.

(٢) سورة النساء آية: ٢٨.

ص: ١٣٩

الحاكم إذا طولب به، ليقطع بعضه، و يقوم له فى الظاهر حجة.

اللغة:

يقال أدلى فلان بالمال الى الحاكم إذا دفعه إليه. و أدلى فلان بحقه و حجته:

إذا هو احتج بها و أحضرها، و دلوت الدلو فى البئر أدلوها : إذا أرسلتها فى البئر، و أدليتها إدلاء : إذا انتزعتها من البئر، و منه قوله تعالى: «فَادْلُوا دَلْوَهُ» «١» أى انتزعها. و قال صاحب العين: أدليتها إذا أرسلتها أيضاً. و أدلى الإنسان شيئاً فى مهوى، و يتدلى هو بنفسه. و الدالية معروفة.

الاعراب:

و موضع «تدلو» يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون جزماً على النهى، و عطفاً على قوله: «لَا تَأْكُلُوا».

و الثانى - أن يكون نصباً على الظرف، و يكون نصبها بإضمار أن كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق و تأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم»2»

لا تجمع بينهما. و الأول أجود.

المعنى:

و قيل فى اشتقاق «تدلو» قولان: أحدهما- أن التعلق بسبب الحكم كتعلق الدلو بالسبب الذى هو الحبل . و الثانى - أنه يمضى فيه من غير تثبت، كمضى الدلو فى الإرسال من غير تثبت . و الباطل هو ما تعلق بالشىء على خلاف ما هو به، خبراً كان أو اعتقاداً أو تخيلاً أو ظناً. و الفريق: القطعة المعزولة من الشىء.

و الإثم الفعل الذى يستحق به الدم.

و قوله: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» معناه إنكم تعلمون أن ذلك التفريق من المال

(١) سورة يوسف آية: ١٩.

(٢) مر تخريجه فى ١: ١٩٠.

ص: ١٤٠

ليس بحق لكم لأنه أشد فى الزجر . و فى الآية دلالة على أن تفرقة الحاكم بشهادة الزور غير جائزة، و لا يستباح به النكاح لأحد الشاهدين كما لا يحل ذلك فى المال.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٨٩]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

البيوت و السيوح و الغيوب و الجيوب - بكسر أولها - شامى و الكسائى، و الأعشى لا يكسرون، الغيوب، و يكسرهما حمزة، و يحيى إلا الجيوب. و يكسرهما ابن كثير إلا الجيوب و الغيوب . و ابن فليح يكسرهما كلها. و قالون يكسر منها البيوت فقط . و أبو عمرو يضمها كلها.

اللغة:

الأهله جمع هلال و سمي الهلال، لرفع الصوت بذكره عند رؤيته، و منه أهل بالحج : إذا رفع الصوت بالتلبية. و اختلف أهل العلم الى كم يسمى هلالا، فقال قوم: يسمى ليلتين هلالا من الشهر . و منهم من قال : يسمى هلالا ثلاث ليال، ثم يسمى قمراً . و قال الأصمعي: يسمى هلالا حتى يحجر . و تحجيره: أن يستدير بخطه دقيقة . و منهم من قال : يسمى هلالا حين يبهر ضوءه سواد الليل، فإذا غلب ضوءه، سمي قمراً . و ذلك لا يكون إلا فى الليلة السابعة . و قال الزجاج: يسمى هلالا لليلتين . و اسم القمر الزبرقان، و اسم دارته الهاله . و الفخت اسم ضوءه، أو ظلمته على خلاف فيه . و اسم ظله السمر . و منه قيل : سمار الذين يتحدثون بالليل. و إنما

ص: ١٤١

اقتصر فى جمعه على أهله، و هو لأدنى العدد، دون الفعل الذى هو للجمع الكثير، استئقالا له فى التضعيف، كما قالوا، فيما ليس بمضعف: حمار و أحمره و حمر.

المعنى:

فان قيل عما كان وقع السؤال من حال الأهله قيل عن زيادتها و نقصانها، و ما وجه الحكمة فى ذلك، فأجيب بأن مقاديرها تحتاج إليه الناس فى صومهم، و فطرهم ، و حجهم و عدد نسائهم، و محل ذنوبهم، و غير ذلك . و فيها دلالة واضحة على أن الصوم لا يثبت بالعدد، و أنه يثبت بالهلال، لأن العدد لو كان مراعى، لما أحيل فى مواقيت الناس فى الحج على ذلك بل أحيل على العدد.

اللغة:

و قوله تعالى: «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ» و الميقات: ه و مقدار من الزمان، جعل علماً لما يقدر من العمل، و منه قوله تعالى : (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) «١» و التوقيت:

تقدير الوقت. وقت توقيتاً، و منه قوله تعالى : «وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ» «٢» و كلما قدرت غاية، فهو موقت . و الميقات: منتهى الوقت، و منه قوله تعالى : «فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ» «٣» فالآخرة ميقات الخلق. و الإهلال: ميقات الشهر. و إنما لم يصرف مواقيت، و صرف قوارير، لان قوارير فاصلة فى رأس آية، فصرفت لتجرى على طريقة واحدة فى الآيات، كالتقوى، و ليس ذلك تنوين الصرف.

المعنى

وقوله تعالى «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى» قيل فى معناه وجهان:

أحدهما - «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى» كما قلنا فى قوله «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ».

(١) سورة الحجر آية: ٣٨، و سورة ص آية: ٨١.

(٢) سورة المرسلات آية: ١١.

(٣) سورة الاعراف آية: ٤١.

ص: ١٤٢

و الثانى - على وقوع المصدر موقع الصفه، كأنه قال: و لكن البار «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ». و قيل فى معنى الآية قولان:

أحدهما - أنه كان قوم من الجاهلية إذا أحرموا، نقبوا فى ظهر بيوتهم نقباً، يدخلون منه، و يخرجون، فنهوا عن التدين بذلك، و أمروا أن يأتوا البيوت من أبوابها. فى قول ابن عباس، و البراء، و قتادة، و عطا . و [الثانى] - قال قوم، و اختاره الجبائى: إنه مثل ضربه الله لهم. «وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» أى أتوا البر من وجهه الذى أمر الله به، و رغب فيه، و هذا الوجه حسن.

و روى جابر عن أبى جعفر محمد بن على (ع) فى قوله: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ» الآية، قال: يعنى أن يأتى الأمر من وجهه أى الأمور.

و روى أبو الجارود عن أبى جعفر (ع) مثل قول ابن عباس سواء. و قال قوم: أراد بالبيوت النساء، لأن المرأة تسمى بيتاً على ما بيناه فيما مضى، فكانه نهى عن إتيان النساء فى أدبارها، و أباح فى قبلهن. و الأولان أقوى و أجود.

و الباب: هو المدخل، تقول منه: بوب تبويباً إذا جعله أبواباً. و البواب:

الحاجب، لأنه يلزم الباب. و البابة القطعة من الشىء كالباب من الجملة.

فان قيل أى تعلق لقوله: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» بسؤال القوم عن الأهلة؟ قلنا: لأنه لما بين ما فيه من وجه الحكمة، اقتضى لتعلموا على أمور مقدره، و لتجرى أموركم على استقامة فإنما البر أن تطيعوا أمر الله.

و من كسر (الباء) من البيوت، فلاستتقال الخروج من الضم الى الياء . و من ضم غيوب و كسر البيوت، فلأن الغين لما كان مستعليماً، منع الكسر، كما منع الامالة.

و أما الحج، فهو قصد البيت الحرام، لأداء مناسك مخصوصة بها في وقت مخصوص . و البرّ: النفع الحسن. و الظهر: الصفيحة المقابلة لصفيحة الوجه.

و قوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» يعنى و اتقوا ما نهاكم الله عنه،

ص: ١٤٣

و زهدكم فيه، لكى تفلحوا بالوصول الى ثوابه الذى ضمنه للمتقين.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٠]

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

القتال هو المقاتلة، و هو محاولة الفاعل لقتل من يحاول قتله، و التقاتل محاولة كل واحد من المتعادين قتل الآخر . و الخطاب بقوله «وَقَاتِلُوا» متوجه الى المؤمنين.

و لو قال: «تقاتلوا» لكان أمراً للفريقين . و ذهب الحسن، و ابن زيد، و الربيع، و الجبائى : الى أن هذه الآية منسوخة، لأنه قد وجب علينا قتال المشركين و إن لم يقاتلونا ب قوله «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» «١» و قوله: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» «٢». و روى عن ابن عباس، و مجاهد، و عمر بن عبد العزيز:

أنها غير منسوخة. و قال بعضهم: أمروا بقتال المقاتلين دون النساء. و قيل: إنهم أمروا بقتال أهل مكة. و الأولى حمل الآية على عمومها إلا من أخرجه الدليل.

و قوله «اعتدوا» قيل فيه ثلاثة أقوال : أحدها - لا تعتدوا بالقتال بقتال من لم تؤمروا بقتاله . الثانى - لا تعتدوا الى النساء، و الصبيان، و من قد أعطيتموه الأمان. الثالث - لا تعتدوا بالقتال على غير الدين. فان قيل: إذا كان الاعتداء فى قتال من لم يقاتلهم فكيف يجوز أن يؤمروا به فيما بعد؟ قيل : إنما كان اعتداء من أجل أنه مجاوزة لما حده الله لهم مما فيه الصلاح للعباد، و لم يكن فيما بعد على ذلك، فجاز الأمر به.

و قوله: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يعنى دين الله، و هو الطريق الذى بينه للعباد، ليسلكوه على ما أمرهم به و دعاهم إليه.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٣.

ص: ١٤٤

وقوله: «لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» معناه لا يريد ثوابهم، ولا مدحهم، كما يحب ثواب المؤمنين. وقد بينا فيما مضى أن المحبة هي الارادة. وإنما قلنا إنها من جنس الارادة، لأن الكراهة تنافيها، ولا يصح اجتماعهما، ولأنها تتعلق بما يصح حدوثه لا كالارادة، فلا يصح أن يكون محباً للايمان كارهاً له، كما بينا في أن يكون مريداً له و كارها . و تعلق المحبة بأن يؤمن، كتعلق الارادة بأن يؤمن. وإنما اعتيد في المحبة الحذف، و لم يعتد ذلك في الارادة، فيقال: الله يحب المؤمن، و لا يقال: الله يريد المؤمن. وقوله: «لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ظاهره يقتضى أنه يسخط عليهم، لأنه على وجه الذم لهم إذ لا يجوز أن يطل ق على من لا ذنب له من الأطفال، و المجانين.

و الاعتداء مجاوزة الحق. و أصله المجاوزة، يقال: عدا إذا جاوز حده في الاسراع.

و روى عن أئمتنا (ع) أن قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ناسخ لقوله: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» «١» و كذلك قوله:

«وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ» «٢» ناسخ لقوله «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ» «٣».

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩١]

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

آية واحدة بلا خلاف.

(١) سورة النساء آية: ٩٠.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩١.

(٣) سورة الأحزاب آية: ٤٨.

ص: ١٤٥

القراءة:

قرأ حمزة، و الكسائي، (و لا تقتلوهم) (حتى يقتلوكم) (فان قتلوكم) كله بغير ألف. الباقون بألف في جميع ذلك.

المعنى:

و المعنى لا تبدؤهم بقتل و لا قتال حتى يبدؤكم. إلا أن القتل نقض بنية الحياة، و القتال محاولة القتل ممن يحاول القتل.

و قوله: «و أَقْتُلُوهُمْ» أمر للمؤمنين بقتل الكفار «حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ».

الاعراب:

و يجوز في حيث ثلاثة أوجه: ضم التاء، و فتحها، و كسرهما، فالضم لشبهها بالغاية، نحو قبل و بعد، لأنه منع الإضافة الى المفرد مع لزوم معنى الإضافة له، فجرى لذلك مجرى قبل و بعد في البناء على الضم، و لا يجب مثل ذلك في (إذ) لأنها مبنية على الوقف، كما أن (مذ) لا يجب فيها ما يجب في منذ. و الفتح، لأجل الياء، كما فتحت (أين، و كيف) و الكسر فعلى أصل الحركة، لالتقاء الساكنين. و إنما كتبت بغير ألف - في الثلاث و الكلام «١» في المصحف للإيجاز، كما كتبوا الرحمن بلا ألف. و كذلك صالح و خالد، و ما أشبهها، من حروف المدّ و اللين، لقوتها على التغيير.

اللغة:

و قوله «تقتلهم» تقول: تقتله أتقفه ثقفاً: إذا ظفرت به، و منه قوله:

«فَإِذَا تَتَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ» «٢» و ثقفت الشيء ثقافاً: إذا حذقته، و منه اشتقاق الثقافة بالسيف، و قد ثقف ثقافة فهو ثقف. و الثقاف حديدة تكون مع القواس، و الرماح يقوم بها المعوج. و ثقف الشيء ثقفاً: إذا لزم، و هو ثقف إذا كان سريع

(١) هكذا في المطبوعة. و في العبارة سقط.

(٢) سورة الانفال آية: ٥٨.

ص: ١٤٦

التعلم. و ثقفته تنقيفاً: إذا قومته. و أصل الباب: التنقيف التقييم.

المعنى:

و قوله «و الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ» قال الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الربيع، و ابن زيد، و جميع المفسرين: إنها الكفر. و أصل الفتنة الاختبار، فكأنه قال:

و الكفر الذى يكون عند الاختبار أعظم من القتل فى الشهر الحرام و وجه قراءة من قرأ (و لا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلكم فيه) أنه جاء فى كلام العرب إذا قتل بعضهم، قالوا: قتلنا، فتقديره حتى يقتلوا بعضكم.

و معنى قوله «وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» أى أخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها . و روى أن هذه الآية نزلت فى سبب رجل من الصحابة قتل رجلا من الكفار فى الشهر الحرام، فعابوا المؤمنين بذلك فبين الله تعالى أن الفتنة فى الدين أعظم من قتل المشركين فى الشهر الحرام و إن كان محظوراً لا يجوز.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٢]

فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)

معنى قوله تعالى: «فَإِنْ أَنْتَهُوا» يعنى عن كفرهم بالتوبة منه، فى قول مجاهد، و غيره من المفسرين . و الانتهاء الامتناع يقال: نهى نهياً، و أنهى إنهاء، و تنهى تنهياً، و النهى الزجر عن الفعل بصيغة (لا تفعل) و الأمر الدعاء الى الفعل بصيغة (افعل) مع اعتبار الرتبة. و النهى الغدير يكون له الحاجز يمنع الماء أن يفيض، فالنهي بمنزلة المنع . و نهاية الشيء غايته. و نهية الوتد: الفرض، و هو الحز فى رأسه الذى يمنع الحبل أن ينسلخ، لأنه ينهاه عن ذلك. و النهى: جمع نهية. و هى العقل. و التنهية و جمعها تنهى، و هى مواضع تنهبط. و ينتهى إليها ماء السماء.

و الإنهاء إبلاغ الشيء نهايته. و فى الآية دلالة على أنه يقبل توبة القاتل عمداً، لأنه بين أنه يقبل توبة المشرك، و هو أعظم من القتل، و لا يحسن أن يقبل التوبة من الأعظم، و لا يقبل من الأقل، فان قيل فما معنى جواب الشرط، و الله غفور

ص: ١٤٧

رحيم و إن لم ينتهوا، الجواب : إن معناه فان الله غفور لهم رحيم بهم، و يجوز فان الله يغفر لهم، لأنه غفور رحيم، و اختصر الكلام لدلالة ما تقدم على أنه فى ذكرهم و إن ال ذى اقتضى انتهاءهم إنما هو ذكر المغفرة لهم، فكان الدلالة عليها بغير إفصاح عنها أحسن لما فى ذلك من الإيجاز، و الاحالة على الاستدلال لتمكين الاشعار لمتضمن الكلام، و المغفرة : تغطيه الذنب بما يصير به بمنزلة غير الواقع فى الحكم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٣]

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

آية.

المعنى:

هذه الآية ناسخة للأولى التى تضمنت النهى عن القتال عند المسجد الحرام حتى يبدءوا بالقتال فيه، لأنه أوجب قتالهم على كل حال حتى يدخلوا فى الإسلام فى قول الجبائى، والحسن، وغيره، وعلى ما حكيناه عن ابن عباس، وعمر ابن عبد العزيز : أن الأولى ليست منسوخة، فلا تكون هذه ناسخة بل تكون مؤكدة،

و الفتنة الشرك فى قول ابن عباس، و قتادة، و مجاهد، و الربيع، و ابن زيد، و هو المروى عن أبى جعفر (ع).

و إنما سمي الكفر فتنه، لأن الكفر يؤدى الى الهلاك كما تؤدى الفتن الى الهلاك، و لأن الكفر إظهار الفساد عند الاختبار، و الفتنة إنما هى الاختبار. و الدين هاهنا قيل فى معناه قولان:

أحدهما- الإذعان لله بالطاعة كما قال الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا هو الدَّ
بين دراكاً بغزوة و صيال «1»

(١) ديوانه: ١١، رقم القصيدة ١. قيل: انه قالها فى مدح الأسود بن المنذر اللخمي أخى النعمان بن المنذر لأمه، و أم الأسود من تيمم الرباب. و قيل: انه قالها فى مدح المنذر بن الأسود لما غز الحليين، أسداً و ذبيان، ثم أغار على - رهط الأعشى - بنى ساعدة بن ضبة بن ثعلبة و كان الأعشى غائباً، فلما قدم وجد الحى مباحاً فأتاه، فأنشده، و سأله أن يهبه الأسرى، ففعل - و الرباب - بكسر الراء - بنو عبد مناة بن أد، و هم تيمم و عدى و عوف و ثور، اجتمعوا فتحالفوا مع بنى عمهم ضبة تيمم بن أد، فجاءوا برب (تمر مطبوخ) فغمسوا أيديهم فيه، فسموا الرباب.

و قوله: دان الرباب أى أذلهم و حملهم على الطاعة. و قوله: دراكاً أى تتابعاً.

ص: ١٤٨

و الثانى - الإسلام دون الكفر. و أصل الدين العادة فى قول الشاعر: «١»

تقول إذا درأتُ لها وضيئى
أ هذا دينه أبداً و ديني «2»

و قال آخر:

و قد استعمل بمعنى الطاعة فى قوله تعالى : «ما كان لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» «٤» و استعمل بمعنى الإسلام، لأن الشريعة فيه يجب أن تجرى على عادة قال الله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» «٥».

و قوله: «فَإِنْ أَنْتَهُوْا» معناه امتنعوا من الكفر و أذعنوا بالإسلام، «فَلَا عُدُوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» أى فلا قتل عليهم، و لا قتل إلا على الكافرين المقيمين على الكفر، وسمى القتل عدواناً مجازاً من حيث كان عقوبته على العدوان، و الظلم، كما قال : «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» «٦» و كما قال «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» «٧» و كما قال: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا» «٨» و حسن ذلك لازدواج الكلام، و مزاجته هاهنا على المعنى، لأن تقديره «فَإِنْ أَنْتَهُوْا» عن العدوان، «فَلَا عُدُوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ». فان قيل: أ يجوز أن تقول لا ظلم إلا على الظالمين كما جاز «فَلَا عُدُوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ»؟ قلنا: على القياس لا يجوز، لأن ذلك مجاز، و المجاز لا يقاس عليه - عند المحصلين - لثلاث تلتبس الحقيقة بالمجاز. و إنما جاز فى المزوجة، لأن الكلام

(١) هو المثقب العبدى.

(٢) اللسان (دين)، (درأ)، (وضن) و روايته (دأبه) بدل (دينه). رداً لها وضيئى: أى وضعت عنها حملها، و الوضين هو المنسوج من أى شئ كان.

(٣) لم أجد هذا البيت فيما حضرنى من المصادر.

(٤) سورة يوسف آية: ٧٦.

(٥) سورة آل عمران آية: ١٩.

(٦) سورة البقرة آية: ١٩٤.

(٧) سورة الشورى آية: ٤٠.

(٨) سورة النحل آية: ١٢٦.

ص: ١٤٩

معه أبلغ، و أبلغ، كما قال عمرو بن شاس الأسدى:

و أصل الظلم الانتقاص. من قوله تعالى «وَلَمْ تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئاً» ^٢» و حقيقة ما قدمنا ذكره من أنه ضرر محض لا نفع فيه يوفى عليه عاجلاً و لا آجلاً و لا هو واقع على وجه المدافعة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٤]

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

آية واحدة بلا خلاف.

أشهر الحرم أربعة: رجب، و هو فرد و ثلاثة أشهر سرد: ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرم. و المراد هاهنا: ذو القعدة، و هو شهر الصّد عام الحديبية. و إنما سمي الشهر حراماً، لأنه كان يحرم فيه القتال، فلو أن الرجل يلقي قاتل أبيه أو ابنه لم يعرض له بسبيل و سمي ذو القعدة، لعودهم فيه عن القتال.

الاعراب:

و الشهر مرتفع بالابتداء، و خبره بالشهر الحرام، و تقديره : قتال الشهر الحرام أى فى الشهر الحرام، فحذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه. و يحتمل أن يكون تقديره: الشهر الحرام على جهة العوض لما فات من الحج فى السنة الأولى.

المعنى:

و قوله: «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - «الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» بالمراغمة بدخول البيت فى الشهر الحرام. قال

(١) تفسير الطبرى ٣: ٥٧٣.

(٢) سورة الكهف آية: ٣٣.

مجاهد: لأن قريشاً فخرت بردها رسول الله (ص) - يوم الحديبية - محرماً - فى ذى القعدة - عن البلد الحرام، فأدخله الله عز و جل مكة فى العام المقبل فى ذى القعدة، ففضى عمرته، و أقصه بما حيل بينه و بينه يوم الحديبية، و هو معنى قول قتادة، و الضحاك، و الربيع، و ابن زيد.

و روى عن ابن عباس، و أبى جعفر محمد بن على (ع) مثله.

و القول الثانى - «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» بالقتال فى الشهر الحرام أى لا يجوز للمسلمين إلا قصاصاً . و قال الحسن: إن مشركى العرب قالوا لرسول الله (ص):

أنهيت عن قتالنا فى الشهر الحرام، قال نعم، فأراد المشركون أن يغزوه فى الشهر الحرام، فيقاتلوه، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» أى إن استحلوا منكم فى الشهر الحرام شيئاً، فليستحلوا منهم مثل ما استحلوا منكم . و به قال الزجاج، و الجبائى.

و إنما جمع الحرمات لأحد أمرين: أحدهما - إنه يريد حرمة الشهر، و حرمة البلد، و حرمة الإحرام.

الثانى - كل حرمة تستحل، فلا يجوز إلا على وجه المجازاة . و فى الناس من قال : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : «فَاتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» (١) و قال آخرون ليست منسوخة، لأنه يجوز اجتماعه مع تلك الفريضة - و هو الأولى - لأنه لا دلالة على نسخها.

و الحرام: هو القبيح الممنوع من فعله. و الحلال: المطلق المأذون فيه.

و القصاص الأخذ للمظلوم من الظالم، من أجل ظلمه إياه . فان قيل: كيف جاز قوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» مع قوله «فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» (٢) قلنا الثانى ليس باعتداء على الحقيقة، و إنما هو على وجه المزاجه، و معناه المجازات على ما بينا.

و المعتدى مطلقاً لا يكون إلا ظالماً لضرر قبيح، و إذا كان مجازاً فإنما يفعل ضرراً

(١) سورة التوبة آية: ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٤.

قلنا، لأنه مثله في الجنس و في مقدار الاستحقاق، لأنه ضرر، كما أن الأول ضرر، و هو على مقدار ما يوجبه الحق في كل جرم.
و قيل إنَّ عدا، و اعتدى لغتان بمعنى واحد، و مثله قرب و اقترب، و جلب و اجتلب. و قال قوم: في افتعل مبالغة ليس في فعل.

و معنى قوله: «وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» يعنى بالنصرة لهم، كأنه قال:

«أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» بالنصرة أو إن نصره الله معهم. و أصل (مع) المصاحبة في المكان أو الزمان.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٥]

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

آية بلا خلاف.

المعنى:

أمر الله تعالى جميع المكلفين المتمكنين من الإنفاق في سبيل الله : أن ينفقوا في سبيله، و سبيل الله : هو كل طريق شرعه الله تعالى لعباده، و يدخل فيه الجهاد، و الحج، و عمارة القناطر، و المساجد، و معاونة المساكين، و الأيتام، و غير ذلك، و الإنفاق : هو إخراج الشيء عن ملك مالكة إلى ملك غيره، لأنه لو أخرجه الى هلاك لم يسم إنفاقاً.

و قوله تعالى: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» معناه لا تطرحوا أنفسكم في الهلاك، بأن تفعلوا ما يؤدي إليه . و حقيقة الإلقاء تصوير الشيء الى جهة السفلى.

و إنما يقال: ألقى عليه مسألة مجازاً، كما يقال: طرح عليه مسألة.

الاعراب:

و الباء في قوله بأيديكم يحتمل وجهين: أحدهما- أن تكون زائدة كقولك

ص: ١٥٢

تعلقت زيداً، و تعلقت بزيد و جذبت الثوب، و جذبت بالثوب، و علمته، و علمت به.

قال الشاعر:

بمساءة إن الصديق يعاتب «1»

و لقد ملأت على نصيب جلده

و المراد ملأت جلده مساءة. و الثانى - أن يكون على أصل الكلام من وجهين:

أحدهما - أن كل فعل متعد إذا كنى عنه أو قدر على المصدر دخلته الباء، كقولك ضربته ثم تكنى عنه فتقول فعلت به . و الآخر أن تقول: أوقعت الضرب به فجاء على أصل الأفعال المتعدية.

و الوجه الآخر: أنه لما كان معناه: لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم، فدخلت الباء ليدل على هذا المعنى، و هو خلاف أهلك نفسه بيد غيره.

المعنى:

و قيل فى معنى الآية وجوه : أحدها - قال الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الضحاك، و هو المروى عن حذيفة، و ابن عباس : إن معناها «**لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**» بالامتناع من الإنفاق فى سبيل الله . الثانى - ما روى عن البراء ابن عازب، و عبيدة السلماني: لا تركبوا المعاصى باليأس من المغفرة . الثالث - ما قال البلخي، من أن معناها : لا تتقحموا الحرب من غير نكاية فى العدو، و لا قدرة على دفاعهم. الرابع - ما قاله الجبائى لا تسرفوا فى الإنفاق الذى يأتى على النفس.

و الأولى حمل الآية على عمومها فى جميع ذلك.

اللغة:

و التهلكة، و الهلاك واحد . و قيل: التهلكة: ما أهلكهم الله عنده . و أصل الهلاك الضياع، و هو مصدر ضاع الشىء بحيث لا يدرى أين هو، و منه يقال للكافر:

هالك، و للميت : هالك، و للمعذب : هالك. و الهلوك: المهواة البعيدة، لأن الذى يهوى فيها هالك . و الهلوك: الفاجرة. و الهلوك: المتحيرة، تشبيهاً بالهلوك: الفاجرة

(١) لم أجد هذا البيت الا فى مجمع البيان و روايته (يعاقب) بدل (يعاتب).

ص: ١٥٣

التي تمايل فى مشيتها، تقول: هلك يهلك هلكا، و هلاكا، و أهلكه إهلاكا، و تهالك تهالكا، و اهتلك اهتلاكا: إذا ألقى نفسه فى المهالك. و استهلكه استهلاكا، و انهلك انهلكا . إذا حمل نفسه على الأمر الصعب. و الهالكى: الحداد. و أصل ذلك أن بنى الهالك بن عمر، كانوا قيونا، فسمى بذلك كل قين : هالكياً. و التهلكة: كلما كان عاقبته الى الهلاك . و الهالك: الفقير الذى بمضيعة.

و الإحسان: هو الإفضال الى المحتاج، فى قول زيد بن أسلم. و حدّ الإحسان هو إيصال النفع الحسن إلى الغير، و ليس المحسن من فعل الفعل الحسن، لأن الله تعالى بفعل العقاب و هو حسن، و لا يقال : إنه محسن به، و لا يسمى مستوفى الدين محسناً، و إن كان حسناً، فان أطلق ذلك فى موضع، فعلى وجه المجاز. و إنما اعتبرنا أن يكون النفع حسناً، لأن من أوصل نفعاً قبيحاً إلى غيره لا يقال: إنه محسن اليه. و قد بينا حقيقة المحبة، فيما مضى، فلا وجه لإعادته، و محبة الله للمحسنين : إرادة الثواب بهم و المنفعة لهم. و قال عكرمة: أحسنوا الظن بالله يراكم. و قال ابن زيد:

أحسنوا بالعود على المحتاج «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنه قال: لو أن رجلاً أنفق ما فى يديه فى سبيل من سبيل الله ما كان أحسن و لا وفق لقوله «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» يعنى المقتصدین.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٦]

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِيتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

ص: ١٥٤

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

و روى عن الشعبى: أنه قرأ «و العمره لله» رفعاً، و ذهب إلى أنها ليست واجبة، كما قال أهل العرا ق. و عندنا، و عند الشافعى: أنها واجبة، كوجوب الحج.

و القراء كلهم على النصب، و العمره عطفاً على قوله «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ» و تقديره، و أتموا العمره لله . و أمر الله تعالى جميع من توجه إليه وجوب الحج أن يتم الحج و العمره. و قيل فى إتمام الحج و العمره أقوال:

أحدها- أنه يجب أن يبلغ آخر أعمالهما بعد الدخول فيهما و هو قول مجاهد، و أبى العباس المبرد، و أبى على الجبائى.

و الثانى - قال سعيد بن جبیر، و عطا، و السدى: إن معناه إقامتهما الى آخر ما فيهما، لأنهما واجبان.

الثالث - قال طاوس: إتمامهما إفرادهما.

الرابع - قال قتادة: الاعتماد في غير أشهر الحج. و أصح الأقوال الأول.

و الحج هو القصد الى البيت الحرام، لأداء مناسك مخصوصة بها في أوقات مخصوصة . و مناسك الحج تشتمل على المفروض، و المسنون. و المفروض يشتمل على الركن، و غير الركن، فأركان الحج أولاً : النية، و الإحرام، و الوقوف بعرفة، و الوقوف بالمشعر، و طواف الزيارة، و السعى بين الصفا و المروة . و الفرائض التي ليست بأركان: التلبية، و ركعتا طواف الزيارة، و طواف النساء، و ركعتا الطواف له.

و المسنونات: الجهر بالتلبية و استلام الأركان، و أيام منى، و رمى الجمار، و الحلق أو التقصير، و الأضحية إن كان مفرداً . و إن كان متمتعاً فالهدي واجب عليه، و إلا فالصوم الذي هو بدل عنه، و تفصيل ذلك ذكرناه في النهاية، و المبسوط، و الجمل و العقود، لا نطول بذكره. و في هذه المناسك خلاف كثير - بين الفقهاء - ذكرناه

ص: ١٥٥

في مسائل الخلاف.

و العمرة واجبة كوجوب الحج، و به قال الحسن، و ابن عباس، و ابن مسعود، و ابن عمر، و عطاء، و ابن جبير، و عمرو بن عبيد، و واصل بن عطاء، و الشافعي.

و قال ابراهيم النخعي، و الشعبي، و سعيد بن جبير، و أهل العراق: إنها مسنونة.

و عن ابن مسعود فيه خلاف، فمن قال : إنها غير واجبة قال: لأن الله تعالى أمر بإتمام الحج و العمرة، و وجوب الإتمام لا يدل على أنه واجب قبل ذلك، كما أن الحج المتطوع به يجب إتمامه و إن لم يجب الدخول فيه، قالوا : و إنما علينا وجوب الحج بقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» (١). و هذا ليس بصحيح، لأننا قد بينا أن معنى أتموا الحج و العمرة أقيموا، و هو المروى عن علي (ع) و عن علي بن الحسين مثله، و به قال مسروق، و السدي.

و العمرة هي الزيارة في اللغة. و في الشرع عبارة عن زيارة البيت لأداء مناسك مخصوصة أى وقت كان من أيام السنة. و أفعال العمرة الواجبة: النية، و الإحرام، و الطواف، و الصلاة عند المقام، و السعى بين الصفا و المروة، و طواف النساء . و في بعض ذلك خلاف ذكرناه في الخلاف.

و قوله «فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ» فيه خلاف، قال قوم: فان منعكم خوف، أو عدو، أو مرض، أو هلاك بوجه من الوجوه، فامتنعتم لذلك . و قال آخرون: إن منعكم حابس قاهر. فالأول قول مجاهد، و قتادة، و عطاء، و هو المروى عن ابن عباس.

و هو المروى في أخبارنا. و الثاني ذهب اليه مالك بن أنس. فالأول أقوى لما روى في أخبارنا، و لأن الإحصار هو أن يجعل غيره بحيث يمتنع من الشيء. و حصره منعه، و لهذا يقال: حصر العدو، و لا يقال: أحصر.

اللغة:

و اختلف أهل اللغة في الفرق بين الإحصار، و الحصر، فقال الكسائي،

(١) سورة آل عمران آية: ٩٧.

ص: ١٥٦

و أبو عبيدة، و أكثر أهل اللغة: إن الإحصار المنع بالمرض، أو ذهاب النفقة.

و الحصر بحبس العدوّ و قال الفراء: يجوز كل واحد منهما مكان الآخر، و خالف في ذلك أبو العباس، و الزجاج، و احتج المبرد بنظائر ذلك. كقولهم حبسه أى جعله فى الحبس و أحبسه أى عرّضه للحبس، و قتله : أوقع به القتل، و أقتله : عرّضه للقتل، و قبره: دفنه فى القبر، و أقبره : عرضه للدفن فى القبر، فكذلك حصره : حبسه أى أوقع به الحصر، و أحصره : عرّضه للحصر. و يقال: أحصره إحصاراً. إذا منعه، و حصره يحصره حصرأ إذا حبسه، و حصر حصرأ : إذا عيى فى الكلام. و حاصره محاصرة: إذا ضيق عليه فى القتال. و الحصر الضيق. هذا حصر شديد. و الحصر:

الذى لا ييوح بسره، لأنه قد حبس نفسه عن البوح به. و الحصير: الملك. و الحصير:

المحبس، و منه قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) «١» و الحصور:

الذى لا إربة له فى النساء. و الحصور: الغيوب المحجّم عن الشىء. و الحصر البخيل لحبسه رفته، و أصل الباب: الحبس.

الاعراب:

و قوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» موضع (ما) رفع، كأنه قال: فعليه «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ». و يجوز النصب و تقديره: فليهدى ما استيسر من الهدى.

و الرفع أقوى لكثرة نظائره، كقوله «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ» و قوله «فَعِدَّةٌ مِنْ أَلَمٍ أُخَر» «٢» و قوله «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ».

المعنى:

و فى معنى «فَمَا اسْتَيْسَرَ» خلاف،

فروى عن على (ع)، و ابن عباس، و الحسن، و قتادة: أنه شاء.

و روى عن ابن عمر، و عائشة : أنه ما كان من الإبل و البقر دون غيره، و وجَّها التيسر على ناقةً دون ناقة، و بقره دون بقره. و الأول هو المعمول عليه عندنا.

(١) سورة الاسراء آية: ٨.

(٢) سورة البقرة آية: ١٨٤، ١٨٥.

ص: ١٥٧

اللغة:

و فى اشتقاق الهدى، و أصله قولان:

أحدهما- أنه من الهدية، يقال منه: أهديت الهدية إهداء، و أهديت الى البيت الهدى إهداء، فعلى هذا يكون هدياً لأجل التقرب به الى الله بإخلاص الطاعة فيه، على ما أمر به.

الثانى- من هديته هدى: إذا سقته الى طريق الرشاد، و واحد الهدى هدية، و روى أبو عبيدة عن أبي عمرو: أنه لا يعرف له نظير إلا جديّة السرج و جدى، و قال المبرد: و هو مطرد فى الأجناس، كتمرّة و تمر، و شريّة و شرى، و هو الحنظل.

و قوله «وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُسَكُمْ» معناه لا تزيلوا شعور رؤوسكم : يقال خلق يحلق خلقاً، و خلق تحليقاً، و انحلق انحلاقاً . و الحلق: مجرى الطعام، و الشراب فى المرى . و الحلقة: حلقة القوم، و حلقة الحديد، و الحلقة السلاح، و يقال أيضاً بالتخفيف . و خلق الطائر فى الهواء إذا ارتفع، و هوى من حلق أى من علو الى سفلى . و خلق ضرع الناقة إذا ارتفع لبنها . و حلق المنيّة، و جاء بالحلق إذا جاء بالمال الكثير. و المحلق: محلق الشعر كالموسى. و خلوق الأرض مجاريها فى أوديتها.

و المحلق: موضع خلق الرأس بمنى. و أصل الباب الاستمرار.

و الرؤوس جمع رأس يقال : رأس يرأس رأسه، و ترأس ترأساً، و رأسه ترئيساً . و الرأس أعلى كل شىء، و الرؤاسى العظيم الرأس فوق قدره، و كلبة رؤس: و هى التى تساور رأس الصيد. و سحابة رئيسة: و هى التى تتقدم السحاب.

و رجل مرءوس إذا أصابه البرسام فى رأسه. و رأس فلان فلاناً إذا ضربه على رأسه. و أصل الباب الرأس.

و قوله: «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» معناه حتى ينتهى إليه، يقال: بلغ يبلغ بلوغاً، و أبلغه إبلاغاً، و بلغه تبليغاً، و بالغ مبالغه، و تبالغ تبالغاً، و تبلغ تبلاغاً، و بلغ الرجل بلاغه إذا صار بليغاً. و البلغة: القوت. و أصل الباب البلوغ، و هو

ص: ١٥٨

الانتهاء، فمنه البلاغة، لأنها تبلغ بالمعنى الى القلب.

المعنى

وقيل فى محل الهدى قولان : أحدهما - ما روى عن ابن عباس، و ابن مسعود، و الحسن، و عطا : أنه الحرم فإذا ذبح به يوم النحر أحلّ.

و الثانى - قال مالك: إنه الموضع الذى صدّ فيه، و هو المكان الذى يحلّ نحره فيه قال،

لأن النبى (ص) نحر الهدى، و أمر أصحابه فنحروا بالحديبية.

و عندنا:

أن الأول حكم المحصر بالمرض، و الثانى حكم المحصور بالعدو، و روى أيضاً أن محله منى إن كان فى الحج، و إن كان فى العمرة فمكة.

و قوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ» فالأذى كلما تأذيت به و رجل آذٍ إذا كان شديد التأذى تقول : آذى يآذى آذى. و أصله الضرر بالشىء، و روى أصحابنا أن هذه الآية نزلت فى إنسان يعرف بكعب بن عجرة.

و روى أيضاً ذلك أصحاب التأويل فى أنه كان قد قمل رأسه فأنزل الله فيه هذه الآية، لكنها محمولة على جميع الأذى.

و قوله «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ» فالذى رواه أصحابنا أن الصيام ثلاثة أيام أو صدقة ستة مساكين . و روى عشرة مساكين. و النسك شاة. و فيه خلاف بين المفسرين . و روى عن كعب بن عجرة الانصارى، و مجاهد، و علقمة، و ابراهيم، و الربيع، و اختاره الجبائى : مثل ما قلناه: إن الصوم ثلاثة أيام و الإطعام لستة مساكين . و قال الحسن و عكرمة : صوم عشرة أيام أو إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع بلا خلاف . و لم يختلفوا فى النسك أنه شاة. و النسك: جمع نسيكة، و يجمع أيضاً نسائك، كصحيفة و صحائف و صحف.

و قوله «فَإِذَا أُمِنْتُمْ» معناه أمنتُم أن يحصركم العدو أو أمنتُم المرض «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ»، ففرض التمتع - عندنا - هو اللازم لكل من لم يكن من حاضرى المسجد الحرام، و حدّ حاضرى المسجد الحرام: من كان على اثنى عشر ميلاً

ص: ١٥٩

من كل جانب الى مكة، ثمانية و أربعين ميلاً، فما خرج عنه فليس من الحاضرين، لا يجوز له مع الإمكان غير التمتع، و عند الضرورة، يجوز له القرآن و الافراد . و من كان من حاضرى المسجد الحرام، لا يجوز له التمتع، و إنما فرضه القرآن أو الافراد على ما نفسره فى القرآن و الافراد، و سياق المتمتع أن يحرم من الميقات فى أشهر الحج و هى : شوال، و ذو القعدة، و عشر من ذى الحجة، ثم يخرج الى مكة، فيطوف بالببيت، و يسعى بين الصفا و المروة، و يقصر، ثم ينشئ إحراماً آخر بالحج من المسجد

الحرام، و يخرج الى عرفات، و يقف هناك، و يفيض الى المشعر ، و يغدوا منها الى منى، و يقضى مناسكه هناك، و يدخل في يومه الى مكة، فيطوف بالبيت طواف الزيارة، و يسعى بين الصفا و المروة، و يطوف طواف النساء، و قد أحلّ من كل شىء و يعود الى منى، فبيت ليالى بها، و يرمى الجمار فى ثلاثة أيام - على ما شرحناه فى النهاية، و المبسوط - و فى بعض ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه فى الخلاف و للمفسرين فى التمتع أربعة أقوال: فالأول

رواه أنس بن مالك: أن النبي (ص) أهلّ بعمره و حجة، و سموه قارناً

، و أنكر ذلك ابن عمر، و الثانى روى ابن عباس و ابن عمر و سعيد بن المسيب و عطاء، و اختاره الجبائى : و هو أن يعتمر فى أشهر الحج ثم يأتى مكة، فيطوف، و يسعى، و يقصر ثم يقيم حالاً الى يوم التروية، أو يوم قبله، فيهل فيه بالحج من مكة، ثم يحج. و هذا مثل ما قلناه سواء . و قال البلخى: إن هذا الضرب كرهه عمر، و نهى عنه، و كرهه ابن مسعود . الثالث - هو الناسخ للحج بالعمره

رواه جابر بن عبد الله، و أبو سعيد الخدرى : أن رسول الله (ص) أمرهم - و قد أهلوا بالحج، لا ينوون غيره - أن يعتمروا ثم يحلوا الى وقت الحج

، هذا عندنا جائز أن يفعل. و روى عن أبى ذر: أنها كانت لأصحاب النبي (ص) خاصة.

و كذلك يقولون: إن عمراً أنكر هذه المتعة.

الرابع - قال ابن الزبير: إن المحصر إذا دخل مكة بعد فوات الحج، تمتع بالعمره، لأنه يحل بها الى وقت الحج، و كذلك من اعتمر فى غير أشهر الحج ثم حج تلك السنة، فهو المتمتع، و لا هدى عليه. و هذا عندنا فاسد بما قدمناه.

ص: ١٦٠

و قوله تعالى: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ» فالهدى واجب على المتمتع بلا خلاف، لظاهر التنزيل، على خلاف فيه أنه نسك أو جبران، فعندنا أنه نسك، و فيه خلاف فان لم يجد الهدى و لا ثمّنه، صام ثلاثة أيام فى الحج، و عندنا أن وقت صوم الثلاثة أيام : يوم قبل التروية، و يوم التروية، و يوم عرفة، فان صام فى أول العشرة جاز ذلك رخصة. و إن صام يوم التروية و يوم عرفة قضى يوماً آخر بعد التشريق فان فاتته يوم التروية صام بعد القضاء من التشريق ثلاثة أيام متتابعات، و روى عن ابن عباس، و ابن عمر، و الحسن، و مجاهد : أنه يجوز ما بين إحرامه فى أشهر الحج الى يوم عرفة. و استحبا أن يكون يوماً قبل التروية، و يوم عرفة . و وقت صوم السبعة أيام إذا رجع الى أهله، و به قال عطاء، و قتادة. و قال مجاهد: إذا رجع عن حجه فى طريقه . فأما أيام التشريق، فلا يجوز صومها عندنا، و به قال جماعة من المفسرين، و اختاره الجبائى، لنهى النبي (ص) عن صوم أيام التشريق. و روى عن ابن عمر، و عائشة جواز ذلك.

و قوله: «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» اختلفوا فى معناه، فقال الحسن، و الجبائى،

و هو المروى عن أبي جعفر (ع) أن المعنى كاملة من الهدى أى إذا وقعت بدلا منه، استكملت ثوابه.

الثانى - ما ذكره الزجاج، و البلخى أنه لازالة الإيهام لثلا يظن أن (الواو) بمعنى (أو) فيكون كأنه فصيام ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة أيام إذا رجعت، لأنه إذا استعمل (أو) بمعنى (الواو) جاز أن يستعمل (الواو) بمعنى (أو) كما قال:

«فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ» و المراد «أو» فذكر ذلك لارتفاع اللبس.

و الثالث - قاله المبرد: إنه أعاد ذلك للتأكيد قال الشاعر:

ثلاث و اثنتان فهن خمس
و سادسة تميل الى شمام¹»

(١) فى مجمع البيان نسبه الى جرير و لم أجد فى ديوانه. فى المطبوعة (سمام) بدل (شمام) (و اثنتان) بدل (اثنتان).

ص: ١٦١

اللغة:

و تقول: ثلثت القوم أثلاثهم، فأنا ثالثهم، و ربما قالوا: ثلثت الرجلين أى صرت لهما ثالثاً. و الثلث جزء من ثلاثة. و المثلث: شكل على ثلاثة أضلاع. و المثلوث:

ما أخذ ثلثه. و الثلاثاء: اليوم الثالث من الأحد. و الثلاثى: ما نسب الى ثلاثة أشياء، و أصله الثلاثة من العدد.

و أهل الرجل: زوجته. و المتأهل: المتزوج. و أهل الرجل: أخص الناس به. و أهل البيت: سكانه. و أهل الإسلام: من تدين به. و أهل القرآن: من يقرأه، و يقوم بحقوقه. و أهلته لهذا الأمر أى جعلته أهلاً له. و الأهلى: خلاف البرى. و قولهم مرحباً و أهلاً أى اختصاصاً بالتحية، و التكرمة.

المعنى:

و قد بينا أن (أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) من كان من بينه و بينها اثنا عشر ميلاً من أربع جوانبها. و قال ابن عباس، و مجاهد، و غيرهما: إنهم أهل الحرم، فروى فى أخبارنا أيضاً ذلك. و قال مكحول، و عطا: من بين مكة، و المواقيت.

و قيل: هم أهل الحرم، و من قرب منزله منها، كأهل عرفة، ذهب اليه الزهرى و مالك.

اللغة:

و قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تقول: عقب الشيء يعقب بمعنى خلف بعد الأول. و أعقب إعقاباً، و تعقب الرأى تعقباً. «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» «١» أى الآخرة. و نرد على أعقابنا أى نعقب بالشر بعد الخير. و العقبة: ركوب أعقبه المشى. «لَهُ مُعَقِّبَتٌ» «٢»: ملائكة الليل تخلف ملائكة النهار. و عقب الإنسان:

(١) سورة الاعراف آية: ١٢٧.

(٢) سورة الرعد آية: ١٢.

ص: ١٦٢

نسله، و عقبه، مؤخر قدمه. و العقبة: المصعد فى الجبل. و العقب: الصعب. و العقاب:

الطائر. و اليعقوب: ذكر القبح. «لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ» أى لا راد لقضائه. و أصل الباب: العقب: الخلف بعد الأول.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٧]

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٧)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير، و أبو عمرو (فلا رفث و لا فسوق) بالرفع، (و لا جدال) بالنصب. الباكون بالنصب فيهن تقدير الآية: أشهر الحج أشهر معلومات، فحذف المضاف، و أقام المضاف اليه مقامه. و أشهر الحج- عندنا- شوال، و ذو القعدة، و عشر من ذى الحجة، على ما روى عن أبى جعفر (ع) و به قال ابن عباس، و ابن عمر، و ابراهيم، و الشعبى، و مجاهد، و الحسن، و اختاره الجبائى. و قال عطا، و الربيع، و ابن شهاب، و طاوس: أشهر الحج شوال، و ذو القعدة، و ذو الحجة.

و روى ذلك فى أخبارنا، و إنما كانت هذه أشهر الحج، لأن الإحرام بالحج لا يصح أن يقع إلا فيها - بلا خلاف - و عندنا- أن الإحرام بالعمرة التى يتمتع بها لا يقع أيضاً إلا فيها. و من قال: إن جميع ذى الحجة من أشهر الحج، قال: لأن جميع ذى الحجة يصح أن يقع فيه شيء من أفعال الحج، مثل صوم الثلاثة أيام، فانه يصح أن يقع فى جميع ذى الحجة، و كذلك يصح أن يقع ذبح الهدى فيه. و قال قوم: إن المعنى واحد فى قول الفريقين. و قال آخرون: هو مختلف من حيث أن الثانى معناه: أن العمرة لا

ينبغي أن تكون في الأشهر الثلاثة على الكمال، لأنها أشهر الحج، والأول على أنها لا ينبغي أن تكون في شهرين و عشر من الثالث،

ص: ١٦٣

فقد روى عن ابن عمر: ان تفصلوا بين الحج و العمرة، فتجعلوا العمرة في غير أشهر الحج، أتم لحج أحدكم و أتم لعمرته. و روى ذلك عن القاسم بن محمد عن ابن شهاب عن عبد الله، و ابن سيرين. و قد بينا مذهبنا في ذلك. فان قيل كيف جمع شهرين، و عشرة أيام ثلاثة أشهر؟ قلنا: لأنه قد يضاف الفعل الى الوقت و إن وقع في بعضه.

و يجوز أن يضاف الوقت اليه كذلك، كقولك : صليت صلاة يوم الجمعة، و صلاة يوم العيد و إن كانت الصلاة في بعضه . و يقال أيضاً: قدم زيد يوم كذا، و خرج يوم كذا و إن كان قدومه أو خروجه في بعضه، فكذلك جاز أن يقال : شهر الحج ذو الحجة، و إن كان في بعضه، و إنما يفرض فيهن الحج، بأن يحرم فيهن بالحج - بلا خلاف - أو بالعمرة التي يتمتع بها بالحج - عندنا خاصة - و في الإحرام بالحج وافقنا فيه ابن عباس، و الحسن، و قتادة . و قال ابن عمر، و مجاهد : إنما يفرض فيهن بالتلبية . و قال بعض المتأخرين: يفرض بالعزم على أعمال الحج.

الاعراب:

و لا يجوز نصب أشهر - في العربية - على ما بيناه من المعنى من أن تقديره أشهر «الحج أشهر معلومات» أو وقت «الحج أشهر معلومات» و قد أجازوا الحج شهر ذي الحجة، لأنه معرفة كما تقول العرب : المسلمون جانب، و الكفار جانب بالرفع، فإذا أضافوا نصبوا، فقالوا: المسلمون جانب أرضهم، و الكفار جانب بلادهم . و انما جاز ذلك، لأن النكرة لما جاءت على شرط الخبر: في كونه نكرة من حيث كانت الفائدة فيه، رفعت بأنها خبر الابتداء فلما صارت معرفة، و الخبر يطلب النكرة نصبت لبصح تقدير الاستقرار الذي هو نكرة كأنك قلت: الكفار مستقرون جانب بلادهم، ففائدة الأول من جانب، و فائدة الثاني في مستقر.

المعنى:

و قوله تعالى: «فَلَا رَفَتْ» فالرفث هاهنا - عند أصحابنا - كناية عن الجماع و هو قول ابن مسعود، و قتادة . و أصله الافحاش في النطق كما قال العجاج:

ص: ١٦٤

عن اللغا و رفث التكلم»1«

وقيل الرفث بالفرج: الجماع، وباللسان: المواعدة للجماع، وبالعين: الغمز للجماع. وقال ابن عباس، وابن عمر وعطاء: المراد هاهنا: المواعدة للجماع، والتعريض للنساء به. وقال الحسن: الجماع، والتعرض له بمواعدة أو مداعبة كله رفث.

وقوله تعالى: (وَلَا فُسُوقَ) روى أصحابنا: أنه أراد الكذب. والأولى أن نحمله على جميع المعاصي التي نهى المحرم عنها، وبه قال ابن عمر. وقال الحسن:

المعاصي نحو القذف وشبهه، وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هو جميع المعاصي مثل ما قلناه. وقال بعضهم لا يجوز أن يكون المراد إلا ما نهى عنه المحرم هاهنا، مما هو حلال له في غير الإحرام، لاختصاصه بالنهي عنه وهذا غلط، لأنه تخصيص للعموم بلا دليل، وقد يقول القائل: ينبغي أن تقيد لسانك في رمضان لئلا ييطل صومك، فيخصه بالذكر لعظم حرمة.

وقوله: (وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) فالذى رواه أصحابنا: أنه قول: لا والله وبلى والله صادقاً، وكاذباً. وللمفسرين فيه قولان:

أحدهما- قال ابن عباس، وابن مسعود، والحسن: أنه لا مراء بالسباب والأعصاب على جهة المحك، واللجاج.

الثاني- قال مجاهد والسدي: إنه لا جدال في أن الحج قد استدار «٢» في ذى الحجة، لأنهم كانوا ينسون الشهور فيقدمون ويؤخرون، فربما اتفق في غيره.

اللغة:

وأما اشتقاقه في اللغة فالجدال والمجادلة، والمنازعة، والمشاجرة، والمخاصمة

(١) مر تخريجه في ٢: ١٣٢.

(٢) في المطبوعة (استداد) ومعنى استدار: أى يدار معه كيف دار.

ص: ١٦٥

واحد، وتقول: جدلت الحبل أجذله وأجدله جدلاً: إذا فتلته، وجادلت الرجل مجادلةً وجدالاً: إذا خاصمته، وتجادلا تجادلاً. وجدلته تجديلاً: إذا ألقيته على الأرض. وتجدل تجدلاً وانجدل انجدالاً. والجديل: زمام البعير. والجدول: نهر صغير. والمجدل: القصر. والجدالة: الأرض ذات الرمل الرقيق. والأجدل:

الصقر، وكل مفتول: مجدول. و غلام جادل: إذا ترعرع واشتد. والجديلة:

شريحة الحمام. و رجل أجدل المنكب: فيه تطأطؤ، بخلاف الاشراف من المناكب.

و أصل الباب: القتل، و الجدل: القتال.

الاعراب:

و من نصب (الثلاثة) أخرج اللفظ مخرج عموم النفي للمبالغة فى معنى النفي.

و من رفع بعضاً و نصب بعضاً، فلاختلاف المعنى، لأن الأول على معنى النهى، و الثانى بمعنى الاخبار عن زمان الحج: قد استدار فى ذى الحجة، فكان أحقّ بالنصب، لعموم النفي . فأما الأول، فقد يقع من الخاطي، فلا يصح فيه عموم النفي . هذا قول النحويين. و الصحيح أن الكل معناه النهى، و ان خرج مخرج النفي، و الاخبار.

و المراد به النهى بلا خلاف.

المعنى:

و قوله تعالى: (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ) معناه و ما تفعلوا من خير يجازكم الله العالم به، لأن الله عالم على كل حال، إلّا أنه جعل (يعلمه) فى موضع يجازيه للمبالغة فى صفة العدل، لأنه يعاملكم معاملةً من يعلمه إذا ظهر منكم، فيجازى به، و ذلك تأكيد أن الجزاء لا يكون إلا بالفعل دون ما يعلم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه.

و قوله: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال الحسن، و قتادة، و مجاهد: أن قوماً كانوا يرمون بازوادهم، و يتسمون بالمتوكلة، فقليل لهم تزودوا من الطعام، و لا تلقوا كلكم على الناس،

ص: ١٦٦

و خير الزاد مع ذلك التقوى.

و الثانى - (تزودوا) من الأعمال الصالحات (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)، فذكر ذلك فى الحج، لأنه أحق شىء بالاستكثار من أعمال البرّ فيه، و الزاد:

الطعام الذى يتخذ للسفر. و المزود: وعاء يجعل فيه الزاد. و كل من انتقل بخير من عمل أو كسب، فقد تزود منه تزوداً.

و قوله: (وَأَتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) يعنى يا ذوى العقول، لأن اللبّ العقل، و إنما سمي لباً لأنه أفضل ما فى الإنسان . و أفضل كل شىء لبه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٨]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨)

آية واحدة بلا خلاف.

هذه الآية فيها تصريح بالاذن في التجارة، ونحوها في حال الإحرام، لأنهم كانوا يتحرّجون بذلك في صدر الإسلام، على قول ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، وهو المروى عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (ع).

اللغة و الاعراب:

و الجناح هو الجرح في الدين، وهو الميل عن الطريق المستقيم، وأصله الميل - على ما مضى القول فيه -.

وقوله: (فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ) يعنى دفعتم من عرفه الى المزدلفه عن اجتماع، كفيض الأناء عن امتلائه، تقول : فاض الماء يفيض فيضاً: إذا انصب عن امتلاء، و أفاض إفاضة في الحديث: إذا اندفع فيه. و استفاض الخبر إذا شاع.

و الافاضة الضرب بالقدر . و فيض الصدر بما فيه : البوح به . و الافاضة: امتلاء الحوض حتى يفيض . و رجل فيّاض : جواد. و درع مفاضة، و فيوض إذا كانت واسعة «١».

(١) في المطبوعة (سابقة) و الصحيح ما أثبتناه.

ص: ١٦٧

و فيض البصرة: نهرها. و أصل الباب: الفيض: الانصباب عن الامتلاء.

و (عرفات) صرفت و إن كان فيها التعريف، و التأنيث، لأنها على حكاية الجمع، كما يجب أن يحكى المذكر إذا سمي به الجمع، و يجوز فيها ترك الصرف تشبيهاً بالواحد فيسقط التنوين و يسقط الاعراب كما كان في الجمع كقول امرئ القيس:

تنوّرتُها من أذرعاتٍ و أهلها
بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالى «1»

و الأول اختيار النحويين، و قد أجاز بعضهم فتح التاء بغير تنوين على قياس طلحة، و أنشدوا البيت على ثلاثة أوجه (أذرعات) - منوناً مكسوراً - و مجروراً بلا تنوين - و مفتوحاً بلا تنوين - . و أنكر الزجاج الوجه الثالث.

و المشعر هو معلم المتعبد . و قال المبرد : المشعر - بفتح الميم و العين - مكان الشعور، كالمدخل لمكان الدخول . و المشعر - بكسر الميم - الحديدۃ التي يشعر بها أى يعلم بها. فكسرت، لأنها آلة كالمخز، و المقطع، و المخيط. و قال: الكسائي:

لا فرق بين الفتح و الكسر.

المعنى:

و (المشعر الحرام) هو المزدلفة: و هو جُمع بلا خلاف . و سميت عرفات عرفات، لأن إبراهيم (ع) عرفها بما تقدم له من النعت لها، و الوصف، على ما روى عن على (ع) و ابن عباس. و قال عطا، و السدى،

و قد روى ذلك فى أخبارنا: أنها سميت بذلك، لأن آدم و حواء اجتمعا فيه، فتعارفا بعد أن كانا افترقا.

و قيل:

سميت عرفات لعلوّه و ارتفاعه، و منه عرف الديك.

و وجه التشبيه فى قوله (وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) أن الذكر بالشكر، و الثناء يجب أن يكون بحسب الانعام، و الهداية فى العظمة لأنه يجب أن يكون الشكر

(١) ديوانه ١٤٠. و هو من قصيدته الرائعة المشهورة. و الضمير فى تنورتها عائد للمرأة التي بذكرها، و تنور النار: رآها من بعيد، جعل المرأة تضىء له كما تضىء النار المشبوبة.

و أذرعات: بلد فى الشام، و يشرب: مدينة الرسول (ص).

يقول: لاح لى نورها و أنا فى أذرعات و هى بيثرب ثم يقول: قرب مكانها منى نظر نظرتة نحو جو السماء.

ص: ١٦٨

كالنعمۃ فى عظم المنزلة كما يجب أن يكون على مقدارها لو صغرت النعمة، و لا يجوز التسوية فى الشكر بين من عظمت نعمته و من صغرت.

الاعراب:

و قوله: (وَ اِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِّينَ) معنى (إن) هاهنا المخففة من الثقيلة بدلالة دخول لام الابتداء معها، و إذا خففت لم تعمل و جار دخولها على الاسم، و الفعل، كقوله تعالى : (وَ اِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضَرُونَ) (١) . و أما (كنتم) فلا موضع لها

من الاعراب، لأنها بعد حرف غير عامل . وليس (لان) موضع كما ليس لها موضع في الابتداء . وإنما هذه الواو عطف جملة على جملة.

و روى جابر عن أبي جعفر (ع) قال: (لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم) معناه أن تطلبوا المغفرة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ١٩٩]

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قليل في معنى هذه الآية قولان:

أحدهما- قال ابن عباس، و عائشة، و عطاء، و مجاهد، و الحسن، و قتادة، و السدى، و الربيع،

و هو المروى عن أبي جعفر (ع): أنه أمر لقريش و خلفائهم، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة، و لا يفيضون منها، و يقولون : نحن أهل حرم الله لا نخرج عنه، فكانوا يقفون بجمع و يفيضون منه، دون عرفة، فأمرهم الله تعالى أن يفيضوا من عرفة بعد الوقوف بها.

و الثانى - قال الضحاك، و الجبائى و حكا المبرد، لكنه اختار الأول، لأن

(١) سورة يس آية ٣٢.

ص: ١٦٩

خطاب لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم (ع) من المزدلفة. و الأول إجماع، و هذا شاذ، و ليس لأحد أن يقول على الوجه الآخر: كيف يقال لإبراهيم وحده الناس، و ذلك أن هذا جائز كما قال : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ « إِنَّكُمْ وَاحِدٌ بَلَا خِلاَفَ » وَ هُوَ نَعِيمٌ بِنِ مَسْعُودِ الشَّجْعَى، وَ ذَلِكَ مُسْتَعْمَلٌ . وَ قِيلَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا كَانَ إِمَامًا، كَانَ بَمَنْزِلَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَتَّبِعُ فِي سُنَّةٍ.

فان قيل: إذا كانت (ثم) للترتيب، فما معنى الترتيب هاهنا؟ قلنا: الذى رواه أصحابنا أن هاهنا تقديماً، و تأخيراً. و تقديره (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)). و قال قوم:

المعنى (ثُمَّ أَفِيضُوا) من المزدلفة. و الذى أجاب به المتأولون : أن قالوا: رتبت الافاضة بعد المعنى الذى دل الكلام الأول عليه، كأنه قيل: أحرّموا بالحج على ما بين لكم (ثُمَّ أَفِيضُوا) يا معشر قريش (من حيث أفاض الناس) بعد الوقوف بعرفة. وهذا قريب مما قلناه. وإنما عدل الذى تأوّلته على الافاضة من المزدلفة، لأنه رآه بعد قوله، فإذا أفضتكم من عرفات، قال : فأمرّوا أن يفيضوا من المزدلفة بعد الوقوف بها، كما أمرّوا فى عرفة، وقد بينا ترتيب الكلام فى التأويل المختار . و الاستغفار هو طلب المغفرة، كما أن الاستخبار: طلب السؤال. و المغفرة: التغطية للذنوب بإيجاب المثوبة. و قيل فى معنى الاستغفار قولان : أحدهما - الحض عليه فى تلك المواطن الشريفة، لأنها خليقة بالاجابة . الثانى - استغفروه لما سلف من مخالفتكم فى الوقوف و الافاضة، كما سنّه الله تعالى للناس عامة. و الفرق بين غفور و غافر أن فى غفور مبالغة لكثرة المغفرة، فأما غافر، فيستحق الصفة فيه بوقوع الغفران . و العفو هو المغفرة . و قد فرق بينهما بأن العفو ترك العقاب على الذنب، و المغفرة تغطية الذنب بإيجاب المثوبة . و لذلك كثرت المغفرة فى صفات الله تعالى، دون صفات العباد، فلا يقال: استغفر السلطان كما يقال: استغفروا الله.

(١) سورة آل عمران آية ١٧٢.

ص: ١٧٠

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٠]

فَإِذَا قُضِيَتْمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قوله تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتْمْ) معناه فرغتم منها. و أصل القضاء: فصل الأمر على أحكام. و قد يفصل بالفراغ منه قضاء المناسك و قد يفصل بالعمل له على تمام كقوله (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) «١» و قد يفصل بالأخبار على القطع كقوله تعالى : (وَ قَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ) «٢» و قد يفصل بالحكم كقضاء القاضى على وجه الإلزام بالقهر.

و المناسك المأ مور بها هاهنا جميع أفعال الحج المتعبد بها فى قول الحسن و غيره من أهل العلم - و هو الصحيح - و قال مجاهد: هى الذبائح.

و قوله (فَادْكُرُوا اللَّهَ) فالذكر هو العلم و قيل: هو حضور المعنى للنفس بالقول أو غيره مما هو كالعلة، لحضوره بها. و قيل: المراد به هاهنا التكبير أيام منى لأنه الذكر الذى يختصه بالترغيب فيه على غيره من الأوقات . و قيل أيضاً: إنه سائر الدعاء لله تعالى فى ذلك الموطن، لأنه أفضل من غيره - و هو الأقوى - لأنه أعم.

و قوله: (كَذِّرْكُمْ آبَاءَكُمْ) معناه

ما روى عن أبي جعفر (ع) أنهم كانوا يجتمعون، يتفاخرون بالآباء، و بما آثرهم، و يببالغون فيه.

و قوله (أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) إنما شبه الأوجب بما هو دونه في الوجوب، لأمرين : أحدهما - أنه خرج على حال لأهل الجاهلية كانت معتادة: أن يذكروا آباءهم بأبلغ الذكر على وجه التفاخر، فقليل : اذكروا الله كالذكر الذي كنتم تذكرون به آباءكم في المبالغة، أو أشد ذكراً

(١) سورة حم السجدة آية ١٢.

(٢) سورة الاسراء آية: ٤.

ص: ١٧١

بما له عليكم من النعمة . هذا قول أنس، و أبي وائل، و الحسن، و قتادة . و الثانى - قال عطا: أذكروه بالاستعانة به، كذكركم آباءكم: الصبى لأبيه إذا قال: يا أباه.

و الأول هو المعتمد.

الاعراب:

و إنما نصب (ذكراً) و لم يخفض كما يخفض فى قولهم هذا الذكر أشد ذكر، لأن فيه ضميراً منهم نظير قولك : هم أشد ذكراً، و فى أشد ضميرهم، و لو قلت مررت به أشد ذكراً لكان منصوباً على الحال فأما الذكر، فعلى التمييز.

المعنى:

فان قيل: الأمر بالذكر هاهنا بعد قضاء المناسك أو معه؟ قيل: أجاز أبو على الوجهين، و استشهد بقولهم: إذا وقفت بعرفات فادع الله، و إذا حججت، فطف بالبيت.

و الخلاق: النصيب من الخير، و أصله التقدير، فهو النصيب من الخير على وجه الاستحقاق.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠١]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)

آية واحدة.

الاعراب:

(رَبَّنَا) منصوب، لأنه منادى و تقديره : يا رَبَّنَا. و إنما حذف حرف النداء، لما كان أصله تنبيه المنادى، ليقبل عليك، و كان الله عزّ و جل لا يغيب عنه شيء - تعالى عن ذلك -، سقط حرف النداء للاستغناء عنه. فأما يا الله اغفر لى، فيجوز أن يخرج مخرج التنبيه للتأكيد: أن يقبل عليك برحمته، و لأنك تسأله سؤال المحتاج أن ينه على حاله، لأن ذلك أبلغ فى الدعاء، و أحسن فى المعنى.

ص: ١٧٢

اللغة:

و الفرق بين القول و الكلام : أن القول يدلّ على الحكاية، و ليس كذلك الكلام، نحو قال : الحمد لله، فإذا أخبرت عنه بالكلام قلت تكلم بالحق، و الحكاية تكون على ثلاثة أوجه : حكاية على اللفظ و المعنى، و حكاية على اللفظ فقط، و حكاية على المعنى فقط، فالأول نحو (أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) «١» إذا حكاها من يعرف لفظه و معناه. الثانى - إذا حكاها من يعرف لفظه دون معناه. الثالث - نحو أن يقول: أتونى أفرغ عليه نحاساً، فيكون حكاها على معناه دون لفظه.

المعنى:

و قوله (آتتا) معناه: أعطنا، فالإتيان الإعطاء. و أصله الأتى، و المجىء، فأتى إذا كان منه المجىء، فأتى إذا حمل غيره على المجىء، كما يقال: آتاه ما يجب، و آتاه غيره ما يجب.

و الحسنه التى سألوها قيل فى معناها قولان:

أحدهما - قال قتادة، و الجبائى، و أكثر المفسرين: إنه نعم الدنيا، و نعم الآخرة.

الثانى - قال الحسن: العبادة فى الدنيا، و الجنة فى الآخرة، و سميت نعمه الله حسنة، لأنها مما تدعو إليه الحكمة. و قيل: الطاعة و العبادة حسنة، لأنها مما يدعو إليه العقل.

اللغة:

و قوله تعالى: (وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) فالوقاء: الحاجز الذى يسلم به من الضرر.

يقال وقاه يقيه وقاء، و وقاية. و توقى هو توقية و أصل الوقاء الحجز بين الشيئين.

و أصل قنا: أوقنا مثل حملنا، فذهبت الواو لسقوطها فى يقى، لوقوعها بين ياء و كسرة ثم أتبع سائر تصارييف الفعل ما لزمته العلة، و سقط ألف الوصل للاستغناء

(١) سورة الكهف آية: ٩٧.

ص: ١٧٣

عنها بتحرك ما بعدها، و حذفت الياء، للوقف الذى هو نظير الجزم.

و الفائدة فى الاخبار عنهم بهذا الدعاء، الاقتداء بهم فيه، لأنه لما حذر من الدعاء الأول رغب فى الثانى .

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٢]

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

(أولئك) رفع بالابتداء و خبره لهم نصيب. و معناه أولئك لهم نصيب من كسبهم باستحقاقهم الثواب عليه.

اللغة:

و النصيب: الحظ، و جمعه أنصباء و أنصبه. و حدّ النصيب الجزء الذى يختص به البعض من خير أو شر.

و الكسب: الفعل الذى يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر . و تقول: نصب ينصب نصباً، و نصب نصباً من التعب، و أنصبنى هذا إنصاباً. و انتصب الشيء انتصاباً.

و ناصبه العداوة مناصبة. و النصب إقامة الشىء. و النصب: الرفع. نصب القوم السير: إذا رفعوه. و كل شىء رفعته، فقد نصبته، و منه نصب الحرف، لأن الصوت يرفع فيه الى الغار الأعلى. و النصب بتغير الحال من مرض أو تعب. و النصب: جمع أنصاب و هى حجارة كانت تنصب فى الجاهلية، و يطاف بها، و يتقرب عندها و هى التى ذكرها الله تعالى فى قوله : (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ) «١» و قال: (وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ) «٢». و أنصاب الحرم حدوده، و هى حجارة تنصب، ليعرف بها

(١) سورة المائدة آية: ٤.

(٢) سورة المائدة آية: ٩٣.

ص: ١٧٤

الحرم. و نصاب السكين، و غيره معروف، و فلان فى نصاب صدق: فى حسب ثابت.

و النصة: السارية. و المنصب الذى ينصب عليه القدور. و كل شىء استقبلت به شيئاً، فقد نصبته. و أصل الباب القيام.

و قوله تعالى: (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) يعنى فى العدل من غير حاجة الى خط و لا عقد، لأنه (عز و جل) عالم به. و إنما يحاسب العبد مظاهره فى العدل، و إحالة على ما يوجهه الفعل من خير أو شر . و السرعة هو العمل القصير المدة. تقول: سرع سرعة، و أسرع فى المشى إسراعاً، و سارع اليه مسارعة، و تسرع تسرعاً، و تسارع تسارعاً، و أقبل فلان فى سرعان قومه أى فى أوائلهم المتسرعين.

و اليسروع: دويبة تكون فى الرمل. و أصل الباب: السرعة.

و تقول من الحساب: حسب الحساب يحسبه حساباً، و حسب الشىء حساباً، و حاسبه محاسبة، و حساباً، و تحاسبوا تحاسباً، و احتسب احتساباً، و أحسبني من العطاء إحساباً، أى كفانى (و عطاءً حساباً) «١» أى كافياً. و الحسبان سهام صغار.

و قيل منه (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) «٢». و قيل عذاباً. و المحسبة وسادة من آدم. و المحسبة غبرة مثل كدرة . و حسب الرجل مآثر آثائه . و أفعل ذلك بحسب ما أوليتنى . و حسبى أى يكفينى (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) «٣» أى بغير تضيق (و الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) «٤» أى قدّر لهما مواقيت معلومة لا يعدونها.

و التحسب: دفن الميت يجب الحجارة «٥» و أصل الباب: الحساب، و الحسبان:

الظن، لأنه كالحساب فى الاعتداد به، و العمل به على بعض الوجوه.

و روى عن على (ع) أنه قال: معناه إنه يحاسب الخلق دفعةً كما يرزقهم دفعةً.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٣]

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

(١) سورة النبأ آية: ٣٦.

(٢) سورة الكهف آية: ٤١.

(٣) سورة البقرة آية: ١١٢.

(٤) سورة الرحمن آية: ٥.

(٥) هكذا في المطبوعة و في لسان العرب (حسب) التحسب دفن الميت في الحجرة.

ص: ١٧٥

آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا أمر من الله تعالى للمكلفين أن يذكروا الله في الأيام المعدودات : و هي أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد النحر، و هو قول ابن عباس، و الحسن و مالك، و الأيام المعلومات: عشر ذى الحجة، و هو قول ابن عباس أيضاً، و ذكر الفراء: أن المعلومات:

هي أيام التشريق، و المعدودات العشر. و فيه خلاف ذكرناه في اختلاف الفقهاء.

و سميت معدودات لأنها قاتل، كما قال: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» «١» أى قليلة. و الجمع بالألف و التاء يصلح للقليل و الكثير، و القليل أغلب عليه. و أنكر الزجاج ما يروى في قول حسان:

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي و أسيافنا يقطرن من نجدة دما «2»

من أنه عيب عليه، و زعم أن الخبر موضوع، و قال الألف و التاء يصلح للكثير قال الله تعالى: «وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ» «٣» و قال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» «٤» و إنما احتمل هذا الجمع القليل و الكثير، لأن جمع السلامة على طريقة واحدة لا يتميز فيه قليل من كثير، و كان القليل أغلب عليه، لشبهه بالثنية.

و الآية تدل على وجوب التكبير في هذه الأيام، و هو أن يقولوا : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله و الله أكبر الله أكبر و لله الحمد. و به قال الحسن و الجبائي، و زاد أصحابنا على هذا القدر: الله أكبر على ما هدانا و الحمد لله على ما أولانا،

(١) سورة يوسف آية: ٢٠.

(٢) ديوانه: ٦٩. الجففات جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة، والغر : البيض. وهذا البيت قيل : ان حسان قد فاز به فى بعض السنين بسوق عكاظ وقد أعابته الخنساء فى الجففات لأنها جمع قلة و فى الغر لأنه لا يدل على أن القصاع ممتلئة طعاماً، و على قوله: يقطرن، و لم يقل يجرين.

(٣) سورة سبأ آية: ٣٧.

(٤) سورة الحجر آية: ٤٥.

ص: ١٧٦

و رزقنا من بهيمة الانعام . و أول التكبير - عندنا - لمن كان بمنى، عقيب الظهر من يوم النحر الى الفجر يوم الرابع من النحر : عقيب خمسة عشرة صلاة، و فى الأمصار عقيب الظهر من يوم النحر الى عقيب الفجر يوم الثانى من التشريق : عقيب عشر صلوات، و اختار الجبائى من صلاة الغداة من يوم عرفة الى صلاة العصر آخر يوم التشريق. و فيه خلاف ذكرناه فى الخلاف.

و قوله تعالى: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ».

المعنى فى ذلك الرخصة فى جواز النفر فى اليوم الثانى من التشريق و إن أقام الى النفر الأخير، و هو اليوم الثالث من التشريق، كان أفضل، فان نفر فى الأول، نفر بعد الزوال الى الغروب، فان غربت فليس له أن ينفر. و قال الحسن إنما له أن ينفر بعد الزوال الى وقت العصر، فان أدركته صلاة العصر، فليس له أن ينفر إلا يوم الثالث و ليس للإمام أن ينفر فى النفر الأول، و به قال الحسن.

و قوله تعالى: «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» قيل فيه قولان: أحدهما - لا إثم عليه لتكفير سيئاته بما كان من حجه المبرور و هو معنى قول ابن مسعود. الثانى - قال الحسن: لا إثم عليه فى تعجله و لا تأخره. و إنما نفى الإثم، لئلا يتوهم ذلك متوهم فى التعجل، و جاء فى التأخر على مزاجه الكلام كما تقول: إن أظهرت الصدقة، فجائز. و إن أسرتها، فجائز، و الاسرار أفضل.

و قوله تعالى: «لِمَنِ اتَّقَى» قيل فيه قولان: أحدهما - لما قال «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» دل على وعده بالثواب، فقيد ذلك بالتقوى لله تعالى، لئلا يتوهم أنه بالطاعة فى النفر فقط. و الثانى - أنه لا إثم عليه فى تعجله إذا لم يعمل لضرب من ضروب الفساد، و لكن لا تباع إذن الله فيه. و قالوا: معنى تجديد الأمر بالتقوى هاهنا التحذير من الاتكال على ما سلف من أعمال البر فى الحج، فبين أن عليهم مع ذلك ملازمة التقوى، و مجانبة المعاصى.

و روى أصحابنا: أن قوله «لِمَنِ اتَّقَى» متعلق بالتعجل فى اليومين، و تقديره «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» «لِمَنِ اتَّقَى» الصيّد الى انتضاء النفر الأخير

ص: ١٧٧

و ما بقى من إحرامه، و من لم يتقها، فلا يجوز له النفر فى الأول، و هو اختيار الفراء، و المروى عن ابن عباس،

و روى عن أبى عبد الله (ع) فى قوله تعالى «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ» أى من مات فى هذين اليومين، فقد كفر عنه كل ذنب . و من تأخر أى أنسى أجله، فلا إثم عليه بعدها إذا اتقى الكبائر.

الاعراب:

و العامل فى اللام فى قوله «لِمَنْ اتَّقَى» قيل فيه قولان: أحدهما - ذلك (من اتقى) فحذف ذلك لأن الكلام الأول دلّ على وعدٍ للعامل. و الثانى - أن يكون العامل معنى «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»، لأنه قد تضمن معنى جعلناه «لِمَنْ اتَّقَى».

اللغة:

و قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» معناه اجتنبوا معاصى الله، «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» أى تحققوا أنكم بعد موتكم تردون الى الله، فيجازيكم على أعمالكم.

تقول: حشر يحشر حشراً، فالحشر: جمع القوم من كل ناحية الى مكان.

و المحشر: مجتمعهم: و هو المكان الذى يحشرون فيه، و حشرتهم السنة: إذا أجحفت بهم، لأنه تضمهم من النواحي الى المصر . و سهم حشر: خفيف لطيف، لأنه ضامر باجتماعه. و منه أذن حشره: لطيفة ضامرة. و حشرات الأرض: دوابها الصغار، و الواحدة حشرة، لاجتماعها من كل ناحية. و دابة حشور: إذا كان ملززة الحلق شديدة. و رجل حشور: إذا كان عظيم البطن. و حشرت السنان، فهو محشور: إذا رفقته و ألطفته. و أصل الباب الاجتماع.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٤]

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)

آية واحدة.

قال الحسن: المعنى بهذه الآية المنافق. و قال قوم: المعنى: بها المرائى. و قيل:

ص: ١٧٨

إنها نزلت فى الأخنس بن شريق ذكره السدى و غيره.

اللغة:

و الاعجاب هو السرور بالشئ ء سرور العجب بما يستحسن . و منه العجب بالنفس، و السرور بها سرور العجب من الشئ ء استحساناً له، و ذلك إذا تعجب من شدة حسنه . و تقول: عجب عجباً، و تعجب تعجباً، و عجبه تعجيباً، و أعجبه إعجاباً، و استعجب استعجاباً أى اشتد تعجبه. و العجاب: العجيب، و أعجبنى هذا: إذا كان حسناً جداً. و المعجب بنفسه أو بالشئ معروف. و قال الأزهري: العجب كل شئ غير مألوف، و عجب الذنب : العظم الذى ينبت عليه شعر الذنب فى المعز، و رأيت أعجوبة و أعاجيب. و أصل الباب العجب.

و قوله تعالى: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى وقت الحياة الدنيا فالحي هو من لا يستحيل، و هو على ما هو عليه أن يكون عالماً قادراً.

و قوله: «وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِ» فأصل الاشهاد: هو الإقرار بالشئ ء ليشهد به المقر عنده . و المراد فى الآية : من يقرّ بالحق، و يقول: أَللّهُم اشهد علىّ، و ضميره على خلافة.

و قوله تعالى: «وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» يقال لدّه يلدّه لدّاً: إذا غلبه فى الخصومة، ولدّه يلدّه: إذا أوجره فى أحد خفى فمه. ولدّت تلدّ لدّاً و هو شدة الخصومة. و جانباً كل شئ ء لديداه، فمته لديدى الوادى. و لديدى العنق:

صفحتاه. ولدّه عن كذا: إذا حبسه. و التلدد: التلفت عن تحير و أصل الباب اللديد: الجانب.

و الخصام : هو المخاصمة . تقول: خاصمه يخاصمه مخاصمة، و خصاماً، و تخاصم أ، و اختصما اختصاماً، و استخصمهم استخصاماً. و الخصم طرف الرواية الذى بحيال الغزلاء «١» من مآخرها، و طرفها الأعلى و هو العضم. و الأخصام من

(١) فى المطبوعة (الدراية الذى بحبال العولاء) و هو تصحيف.

ص: ١٧٩

كل شئ ء جوانبه، كجوانب الخوالق الذى فيه العرى، يحمل به. و أصل الباب الخصومة.

المعنى:

و معنى «الدّ» فى الآية: هو الشديد الجدل بالخصومة الى ما يريد، قال الشاعر:

ثم أردى و بهم من تُردى تلدّ أقران الخصوم اللدّ¹

و قال الزجاج: الخصام جمع خصم. و المعنى هو أشد المخاصمين خصومة.

و قال غيره: هو مصدر. و معنى الآية أنه تعالى وصف المنافقين، فقال: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ» يا محمد «قوله» فى الظاهر، و باطنه بخلافه «وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» جدل مبطل.

و من قرأ (و يشهد الله) - بفتح الياء - معناه أنه تعالى يشهد عليه بنفاقه، و إظهاره خلاف ما يبطن. و القراءة العامة هى الأولى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٥]

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥)

آية واحدة.

فى قوله تعالى: «وَإِذَا تَوَلَّى» ضمير عن تقدم ذكره و هو «مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و التولى: هو الانحراف، و الزوال عن الشيء الى خلاف جهته. و السعى هو الاسراع فى المشى و قيل: إنه العمل، و قال الأعشى:

و سعى لكندة غير سعى مواكل
قيس فضرَّ عدوها و بنى لها «2»

(١) معانى القرآن للفراء ١: ١٢٣ قدم البيت الثانى على الأول، و اللسان (لد) ذكر البيت الثانى فقط. و رواية اللسان (ألد) بدل (تلد). و رواية معانى القرآن:

ألد أقران الرجال اللد

و فى تفسير الطبرى ٤: ٢٣٥ كالذى ذكره الشيخ سراء.

(٢) ديوانه: ٣١. رقم القصيدة: ٣.

ص: ١٨٠

أى عمل لها. و قوله: «فِي الْأَرْضِ» دخلت الألف و اللام في الأرض، لتعريف الجنس، لأن الأرض و إن كانت واحدة بعينها فلو خلق الله مثلها، لكانت أرضاً، كما أن الشمس، و القمر كذلك، و فارق ذلك زيداً و عمراً - في أسماء الأعلام - و امتناع دخول الألف و اللام عليهما، لأن الله تعالى لو خلق مثل زيد لم يجز ب أن يكون زيداً، على أن الأرضين السبعة كما قال تعالى : «خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» ﴿١﴾ فعلى هذا لا يتوجه السؤال.

و الإفساد: هو عمل الضرر بغير استحقاق، و لا وجه من وجوه المصلحة.

و الإهلاك: العمل الذى ينفى الانتفاع.

و قوله: «لِيُفْسِدَ فِيهَا» نصب بإضمار (أن) و يجوز إضمارها، فتقول: لأن يفسد فيها، و لا يجوز إظهارها فى قوله : «ما كان الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ» ﴿٢﴾.

و إنما جاز حذفها فى «لِيُفْسِدَ» لدلالة الكلام عليها مع كونها فى حروف الإضافة حتى حذفت فى قولهم : غلام زيد، و ما أشبهه مع كثرتة فى الكلام، و جاز إظهارها، لأنه الأصل من غير مانع فى الاستعمال، و إنما امتنع فى قوله : «ليذر» لما يرجع الى المعنى، لأن معناه كمعنى (ما كان زيد ليفعل) أى ما كان فاعلاً، فلما تضمن غير المعنى الذى توجه صورته لم يتصرف فى لفظه، و لأنه لما كان محمولاً على تأويل معنى لم يذكر، حمل أيضاً على تأويل لفظ لم يذكر . و الفرق بين دخول اللام فيها أن اللام دخلت فى «لِيُفْسِدَ» على إضافة السعى الى الفساد، على أصل الإضافة فى الكلام . و دخولها فى «ليذر» فإنما هو لتأكيد النفي بتحقيق تعلقه بالخبر كما دخلت الباء فى (ليس زيد بقاءً)، لأن النفي لما كان للخبر و لى حرف النفى الاسم، دخلت الباء، لتدل على اتصاله فى المعنى بحرف النفى.

اللغة:

و الحرث: الزرع. و النسل: العقب من الولد. و قال الضحاك: الحرث: كل

(١) سورة الطلاق آية: ١٢.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٧٩.

ص: ١٨١

نبات، و النسل: كل ذات. و يقال: نسل ينسل نسولاً: إذا خرج، فسقط . و منه نسل و بر البعير أو شعر الحمار أو ريش الطائر . و النسالة: قطعة من الوبر، قال الله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» ﴿١﴾ أى يسرعون، لأنه إسراع الخروج بحدّة.

و النسل: الولد، ما نسل بعضه من بعض. و الناس نسل آدم، لخروجهم من ظهره.

و النسل و النسلان : عدو من عدو الذئب فيه اضطراب . و النسيئة : فتيلة السراج، و أصل الباب النسل : الخروج. و حكى الزجاج: أن الحرث: الرجال، و النسل:

الأولاد. و ذكر الأزهري: أن الحرث: النساء، و النسل الأولاد، لقوله تعالى :

«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ» ﴿٢﴾.

المعنى:

و قوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» يدلّ على فساد قول المجبر: إن الله تعالى يريد القبائح، لأن الله تعالى نفى عن نفسه محبة الفساد. و المحبة هي الإرادة، لأن كل ما أحب الله أن يكون، فقد أراد أن يكون، و ما لا يحب أن يكون لا يريد أن يكون . و معنى الآية: إذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الأرض بما حرم الله عليه و حاول معصيته، و قطع الطريق، و أفسد النسل، و الحرث على عباده. «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ».

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٦]

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية قولان: أحدهما - قال ابن عباس: إنه كل منافق.

و الثاني - قال السدي: إنه الأخنس بن شريق، و الالتقاء طلب السلامة بما يحجز

(١) سورة يس آية: ٥١.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٣.

ص: ١٨٢

من المخافة، و اتقاء الله إنما هو اتقاء عذابه.

و قوله: «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ» قيل فى معناه قولان : أحدهما - قال الحسن أخذته العزة الى الإثم، كما تقول : أخذت فلاناً «١» بأن يفعل: أى دعوته الى أن يفعل «٢».

و معنى قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» هو الاشعار بالدليل على نفاقه، لفضيحته بذلك عند المؤمنين - على ما قاله قتادة-، و يجوز أن يكون الذم له على تلك الحال القبيحة.

و قوله: «وَلَبِئْسَ الْمَهَادُ» الوطء. فان قيل: كيف قيل لجهنم مهاد. قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال الحسن: معناه القرار هاهنا، و القرار كالوطأ فى الثبوت عليه.

الثانى - لأنها بدل من المهاد كما قال تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» «٣» لأنه موضع البشرى بالنعيم على جهة البدل منه.

اللغة:

و المهاد فى اللغة: الوطء من كل شىء تقول: مهدت الفراش تمهيداً، و كل شىء وطأته فقد مهده، و تمهد الشىء: إذا يوطأ، و كذلك امتهد امتهاداً، و مهد الصبى معروف، و جمع المهاد، مُهد، و ثلاثة أمهدة «و الْأَرْضُ مِهَاداً» «٤» لأجل التوطئة للنوم، و القيام عليها، و أصل الباب التوطئة.

و الأخذ: ضد الإعطاء. و العزة: القوة التى يمتنع بها من الذلة.

المعنى:

فمعنى الآية: أن هذا المنافق الذى نعتّه لك بأنه يعجبك قوله فى الحياة الدنيا

(١) فى المطبوعة «قد كنا» و هو تصحيف.

(٢) ذكر قولاً واحداً و لم يذكر الثانى و فى مجمع البيان ذكر القولين و نقل القول الثانى عن الحسن، و أطلق هذا و لم يذكر قائله، راجع صفحة: ٣٠١ من مجمع البيان طبع صيدا.

(٣) سورة آل عمران آية: ٢١.

(٤) سورة النبأ آية: ٦.

«إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ» فى سعيك فى الأرض بالفساد وإهلاك الحرث والنسل، دخلته عزة وحمية، فقال تعالى : فكفاه عقوبة من ضلاله أن يصلى نار جهنم، فإنها بئس المهاد لمن يصلها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٧]

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

آية بلا خلاف.

النزول:

قال قتادة: نزلت هذه الآية فى المهاجرين والأنصار . وقال عكرمة: نزلت فى أبى ذر الغفارى: جندب بن السكن، و صهيب بن سنان، لأن أهل أبى ذر أخذوا أباً ذر، فانفلت منهم، فقدم على النبى (ص)، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، و كان بمر الظهران، فانفلت أيضاً منهم حتى قدم النبى (ص)، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، فانفلت حتى نزل على النبى (ص). فأما صهيب، فانه أخذه المشركون من أهله فاقتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً، فأدركه منقذ بن ظريف بن خدعان، فخرج له مما بقى من ماله، و خلى سبيله.

و روى عن أبى جعفر (ع) أنه قال: نزلت فى على (ع) حين بات على فراش رسول الله (ص) لما أرادت قريش قتله، حتى خرج رسول الله (ص) وفات المشركين أغراضهم

، و به قال عمر بن شبه.

المعنى:

و روى عن على (ع)، و ابن عباس: أن المراد بالآية: الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

و قال الحسن: هى عامة فى كل من يبيع نفسه لله بأن يقيم نفسه فى جهاد عدوه، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر و غير ذلك مما أمر الله به، و توعد على خلافه.

ص: ١٨٤

و قوله تعالى: «يَشْرِى نَفْسَهُ» معناه يبيع نفسه، و قد بينا فيما مضى أن الشراء يكون بمعنى البيع، كما قال: «وَشَرَّوْهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ» «١» أى باعوه و قال الشاعر: «٢»

من بعد برد كنت هامه «3»

و شريت برداً ليتنى

أى بعت. و الشراء استبدال العوض بالثمن. و شرى باع و اشترى ابتاع.

و شرا هاهنا مجاز، لأن أصله فى الأثمان من العين، و الورق، لذلك لا يقال:

باع متاعه إذا تصدق به، لأن الأظهر إذا أطلق أنه باعه بالثمن.

و قوله تعالى: «إِيتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» معناه طلب مرضات الله، و مثله «حذر الموت» «٤» قال الشاعر: «٥»

و أغفر عوراء الكريم ادخاره
و أعرض عن شتم اللثيم تكرما «٦»

و لا يجوز قياساً على ذلك فعله زيداً أى لزيد. و يجوز فعله خوفاً، لأن فى ذكر المصدر دليلاً على العرض الداعى الى الفعل، و ليس كذلك ذكر زيد، و المرضاء و الرضى واحد و هو ضد السخط.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ» قد بينا فيما مضى معنى الرؤوف، و الخلاف فيه، و معناه ذو رحمة واسعة بعيدة الذى شرى نفسه له فى جهاد من جاهد فى أمره من أهل الشرك، و الفسوق. و إنما ذكر الرؤوف بالعبد هنا للدلالة على أنه إنما رغب العبد فى بيع نفسه بالجهاد فى نفسه رافقه به، و حسن نظر له، ليبنتليه من الثواب المستحق على عمله ما لا يجوز أن يصل إليه فى جلالته إلا بتلك المنزلة.

(١) سورة يوسف آية: ٢٠.

(٢) هو يزيد بن مفرغ الحميرى.

(٣) مر تخريجه فى ١: ٣٤٨. و روايته هناك (من قبل) بدل (من بعد) و البيت مروي بالوجهين.

(٤) سورة البقرة آية: ١٩.

(٥) هو حاتم.

(٦) ديوانه: ٢٤، و نوادر أبى زيد: ١١، و الخزانة ١: ٤٩١. و غيرها و فى البيت اختلاف كثير فى الرواية، و الشاهد فيه عندهم نصب (ادخاره) على أنه مفعول له.

ص: ١٨٥

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)

آية واحدة.

القراءة:

قرأ أهل الحجاز، و الكسائي «السلم» - بفتح السين - . الباقون - بكسرهما -

اللغة:

قال الأخفش: السلم - بكسر السين -: الصلح، و بفتحها، و فتح اللام:

الاستسلام. و قال الزجاج: السلم جميع شرائعه . و يقال: السلم، و السلم معناهما الإسلام، و الصلح . و فيه ثلاث لغات: كسر السين، و فتحها مع تسكين اللام، و فتحها. و قال أبو عبيدة: السلم - بكسر السين - و الإسلام واحد، و هو في موضع آخر المسالمة، و الصلح.

المعنى:

و قال ابن عباس، و السدي، و الضحاك، و مجاهد: معنى السلم هاهنا الإسلام، و به قال قتادة . و قال الربيع: معناه ادخلوا في الطاعة، و هو اختيار البلخي قال: لأن الخطاب للمؤمنين بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و اختار الطبري الوجه الأول، و الأمران جميعاً عندنا جائزان محتملان، و حملها على الطاعة أعم، و يدخل فيه ما رواه أصحابنا من أن المراد به الدخول في الولاية، قال أبو علي: من قرأ بفتح السين، ذهب إلى أن معناه: المسالمة، و الصلح، و ترك الحرب بإعطاء الجزية. و من كسرهما، اختلفوا منهم من حمله على الإسلام، و منهم من حمله على الصلح أيضاً.

ص: ١٨٦

اللغة:

و قوله تعالى: «كافة» معناه جميعاً، و هو نصب على الحال من ضمير المؤمنين.

و قيل من حال السلم، و اشتقاقه في اللغة مما يكف الشيء في آخره، من ذلك كفة القميص، يقال لحاشية القميص: كفة. و كل مستطيل، فحرفه كفة. و يقال في كل مستدير: كفة، نحو كفة الميزان. و إنما سميت كفة الثوب، لأنها تمنعه أن ينتشر.

و أصل الكف: المنع، و منه قيل لطرف اليد: كف، لأنها يكف بها عن سائر البدن:

و هى الواحة مع الأصابع، و من هذا قيل: رجل مكفوف أى قد كف بصره أن يبصر، و كفّ من الشىء يكف كفاً: إذا انقبض عنه. و كل شىء جمعته، فقد كففته. و استكفّ السائل: إذا بسط كفه يسأل. و استكف القوم بالشىء: إذا أحدقوا به. و تكفف السائل: إذا مدّ كفه للسؤال. و لقينته كفة لكفف: إذا لقينته مفاجأة. و المكفوف: الأعمى. و الكفف: دارات الوسم. و الكفة: ما يصاد به الطباء: كالطوق.

المعنى:

فمعنى الآية على هذا: ابلغوا فى الإسلام إلى حيث تنتهى شرائعه، فتكفوا من أن تعدوا شرائعه. و ادخلوا كلكم حتى يكف عن عدد واحد لم يدخل فيه.

و قيل: معنى الآية: أن قوماً من اليهود أسلموا و أقاموا على تحريم السبت، و تحريم لحم الإبل، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا فى جميع شرائع الإسلام. و قال بعض أهل اللغة: جائز أن يكون أمرهم و هم مؤمنون أن يدخلوا فى الايمان: أى يقيموا على الايمان كما قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (١) و كلا القولين جائز.

و قوله «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» أى لا تتبعوا آثاره، لأن ترككم شيئاً من شرائع الإسلام اتباع الشيطان. و خطوات: جمع خطوة و فيها ثلاث لغات: خطوات - بضم الطاء، و فتحها، و إسكانها.

(١) سورة النساء آية: ١٣٥.

ص: ١٨٧

و قوله تعالى: «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» عداوته للمؤمنين. و إبانة عداوته لنا هو أن ينسها لمن يراه من الملائكة، و الجن، و نحن و إن لم نشاهده، فقد علمنا معاداته لنا، و دعاه إيانا إلى المعاصى، فجاز أن يسمى ذلك إبانة. و قال الجبائى:

أبان عداوته لآدم و الملائكة (ع)، فكان بذلك مبيناً لعداوته إيانا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٠٩]

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

آية واحدة.

المعنى و اللغة:

أنزل الله تعالى هذه الآية، وقد علم أنه سيزل الزالون من الناس، فتقدم فى ذلك، و أوعِد فيه، لكى تكون الحجة على خلقه . يقال: زلَّ يزل زلاً، وزللاً، و مزلاً، و زلولاً . و معنى الآية «فَإِنْ زَلَلْتُمْ» بمعنى تنحيتهم عن القصد، و الشرائع، و تركتم ما أنتم عليه من الدين «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» فى نعمته «حكيم» فى أمره، لا تعجزونه، و حكيم فيما شرع لكم من دينه، و فطركم عليه، و فيما يفعل بكم من عقوبة على معاصيكم إياه بعد إقامة الحجة عليكم.

و ذكر جماعة من أهل التأويل : أن «البيّنات» هم محمد (ص) و القرآن، ذهب اليه السدى، و ابن جريج، و غيرهما . و قيل: زلّ فى الآية: مجاز تشبيهاً بمن زلّ عن قصد الطريق، و حقيقته : عصيتم الله فيما أمركم به أو نهاكم عنه . و الأولى أن يكون ذلك حقيقة بالعرف.

و فى الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة : أن الله يريد القبيح، لأنه لو أراد له لما صح وصفه بأنه حكيم . فان قيل: سواء زلّ العبد أو لم يزلوا، و جب أن يعلم أن الله عزيز حكيم فما معنى الشرط؟ قيل، لأن معنى «عزيز» هو القادر الذى لا يجوز عليه المنع من عقابكم «حكيم» فى عقوبته إياكم، فكأنه قال : فاعلموا أن العقاب واقع بكم لا محالة، لأنه عزيز لا يجوز أن يحول بينه و بين عقوبتكم حائل،

ص: ١٨٨

و لم يمنعه مانع «حكيم» فى عقوبته إياكم، و ذلك أن حرى لهم وصفه بأنه عزيز أنه قدير لا يمنع، لأنه قادر لنفسه . و «حكيم» معناه عليهم بتدبير الأمور.

و يقال: «حكيم» فى أفعاله بمعنى محكم لها و أصل العزة الامتناع، و منه أرض عزاز : إذا كانت ممتنعة بالشدّة و أصل الحكمة المنع من قول الشاعر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا¹

و منه حكمة الدابة

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٠]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

آية واحدة.

القراءة:

قرأ أبو جعفر (و الملائكة) بالخفض. الباقر بضمها. وقرأ ابن عامر، و حمزة، و الكسائي (ترجع الأمور) بفتح التاء. الباقر بضمها.

المعنى:

الظلل: جمع ظلة. و معنى الآية أن يأتيهم عذاب الله، و ما توعدهم به على معصيته، كما قال : «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» ﴿٢﴾ أى آتاهم خذلانه إياهم.

و المختار عند أهل اللغة الرفع فى «الملائكة» عطفاً على الله، كأنه قال : و تأتيهم الملائكة. و من كسر عطف على ظلل، و تقديره فى ظلل من الغمام، و ظلل من الملائكة.

و قوله: «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» أى فرغ لهم مما كانوا يوعدون به.

(١) قائله جرير، ديوانه ١: ٢٣، و اللسان (حكم).

(٢) سورة الحشر آية: ٢.

ص: ١٨٩

و قوله: «وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» لا يدل على أن الأمور ليست إليه الآن و فى كل وقت . و معنى الآية الاعلام فى أمر الحساب، و الثواب، و العقاب أى إليه، فيعذب من يشاء، و يرحم من يشاء، فلا حاكم سواه . و يحتمل أن يكون المراد : أنه لا أحد ممن يملك فى دار الدنيا إلا و يزول ملكه ذلك اليوم.

و شبهت الأحوال بالظلل من الغمام، كما قال : «مَوْجٌ كَالظُّلُلِ» ﴿١﴾ و معنى الآية : ما ينظرون - يعنى المكذبين بآيات الله - محمداً و ما جاء به من القرآن و الآيات إلا أن يأتيهم أمر الله و عذابه «فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ»، فهل بمعنى (ما)، كما يقول القائل: هل يطالب بمثل هذا إلا متعنت أى ما يطالب. و ينظرون - فى الآية - بمعنى ينتظرون. و قد يقال: أتى و جاء فيما لا يجوز عليه المجيء، و الذهاب، يقولون أتانى وعيد فلان، و كلام فلان، و كل ذلك لا يراد به الإتيان الحقيقى قال الشاعر:

و ما خفت يا سلام أنك عابئى ﴿٢﴾

أتانى كلام من نصيب يقوله

و قال آخر:

أتانى نصرهم و هم بعيد

بلادهم بلاد الخيزران»3»

فكأن المعنى فى الآية : إن الناس فى الدنيا يعتصم بعضهم ببعض، و يفرع بعضهم الى بعض فى الكفر و العصيان، فإذا كان يوم القيامة انكشف الغطاء، و أيقن الشاك، و أقرّ الجاحد، و علم الجاهل، فلم يعصم أحد من الله أحداً، و لم يكن له من دون الله ناصر، و لا من عذابه دافع، و علم الجميع أن الأمر كله لله.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١١]

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)
آية واحدة.

(١) سورة لقمان آية: ٣٢.

(٢) البيت فى نوادر أبى زيد: ٤٦، و معانى القرآن للفراء ١: ١٤٦.

(٣) البيت للنابعة الجعدى اللسان (خزر) فى المطبوعة (بأرض) بدل (بلاد).

ص: ١٩٠

القراءة:

أهل الحجاز يقولون : سل بغير همز . و بعض بنى تميم يقولون : اسأل بالهمز، و بعضهم يقولون : اسل بالألف و طرح الهمز - و الأولى أحسنها لأنها خط المصحف.

المعنى:

و فى الآية تنبيه و تقرير للكفار من بنى إسرائيل، و نظيره قول الرجل فى صاحبه إذا فرّعه و ربحه و أراد أن يلزمه الحجة، و يبين عن كفرانه للنعمة ليوقع به العقوبة - لمن بحضرته -: سله كم أعددت له و حذرتة.

و الآيات البينات ما ذكرها الله تعالى : من قلب عصا موسى حية، و يده البيضاء، و فلقه البحر، و تغريق عدوهم من فرعون و أصحابه و تظليله عليهم الغمام، و إنزال المن و السلوى، و ذلك من آيات الله التي أتى بها بنى إسرائيل، فخالفوا جميع ذلك، و قتلوا أنبياءه، و رسله، و بدلوا عهده، و وصيته إليهم.

و قوله: «وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ» معناه: يغير يعنى بها الإسلام، و ما فرض فيه من شرائع دينه بعد ما عهد إليه و أمره به من الدخول فى الإسلام، و العمل بشرائعه، فيكفر به، فانه يعاقبه بما أوعده على الكفر به من العقوبة «وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ». و قال الزجاج فيه حذف و تقديره شديد العقاب له، و يجوز أن يكون معناه : شديد العقاب لكل من يستحقه، فيدخل فيه هذا المذكور، فأما أن يكون على معنى شديد العقاب لغيره، فلا يجوز إذا لم يكن للمذكور مدخل فيه . و فى الآية دلالة على فساد قول المجبرة: من أنه ليس لله على الكافر نعمة، لأنه حكم عليهم بتبديل نعم الله، كما قال: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ بِمَا يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» «١» و قال: «بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» «٢».

(١) سورة النحل آية: ٨٣.

(٢) سورة ابراهيم آية: ٢٨.

ص: ١٩١

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٢]

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

آية واحدة.

المعنى:

إنما ترك التأنيث فى قوله زَيْن و الفعل فيها مسند الى الحياة و هى المرتفعة به، لأنها لم يسم فاعلها لشيئين:

أحدهما- أن تأنيث الحياة ليس بحقيقى، و ما لا يكون تأنيثه حقيقياً، جاز تذكيره، كقوله تعالى : «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ» «١» و قوله: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ» «٢» «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» «٣».

و الثانى - أنه لما فصل بين الفعل و الفاعل بغيره، جاز ترك التأنيث، و قد ورد ذلك فى التأنيث الحقيقى، و هو قولهم حضر القاضى اليوم امرأة، فإذا جاز ذلك فى التأنيث الحقيقى، ففيما ليس بحقيقى، أجوز، و قد قيل : إنما ترك التأنيث فى هذا الموضع، لأنه قصد بها المصادر، فترك لذلك التأنيث. و قيل فى معنى تزيين الحياة الدنيا قولان:

أحدهما- قال الحسن، و الجبائي، و غيرهما- أن المزين لهم إبليس و جنوده، لأنهم الذين يغوون، و يقوون دواعيه، و يحسنون فعل القبيح، و الإخلال بالواجب و يسوون لهم التوبة، فأما الله تعالى، فلا يجوز أن يكون المزين له، لأنه زهد فيها، فأعلم أنها متاع الغرور، و توعد على ارتكاب القبائح فيها.

و القول الثاني- إن الله تعالى خلق فيها الأشياء المعجبة، فنظر إليها الذين كفروا بأكثر من مقدارها، كما قال:

(١) سورة البقرة آية: ٢٧٥.

(٢) سورة الانعام آية: ١٠٤.

(٣) سورة هود آية: ٦٧.

ص: ١٩٢

«زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ»
«١» و إنما أراد بذلك ما جبل الخلق عليه من الميل الى هذه الأشياء، لا أنه حسن جميعها، و لم يقبح شيئاً منها، و كلاهما جائزان حسان.

و التزيين، و التحسين واحد، و الزين: خلاف الشين، و الزينة: اسم جامع لكل ما يزين به، و هذا أمر زائ له أى مزين له.

و قوله: «وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» معناه: أن قوماً من المشركين كانوا يسخرون من قوم من المسلمين، لأن حالهم فى ذات اليد كانت قليلة، فأعلم الله تعالى:

أن الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، لأن المسلمين فى عليين، و الفجار فى الجحيم، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ» «٢» ثم أخبر عن المؤمنين أنهم يضحكون منهم - فى الآخرة-، فقال: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ» «٣».

و قوله: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قيل فيه خمسة أقوال:

أحدها- أن معناه: أنه يعطيهم الكثير الواسع الذى لا يدخله الحساب من كثرته.

الثانى - أنه ليس يرزق المؤمن على قدر إيمانه، و لا الكافر على قدر كفره فى الدنيا، و لكن الرزق فى الآخرة على قدر العمل، و ما يتفضل الله به، و يضاعف به عن رجل على المؤمنين ما يشاء من فضله زيادة على كفايته.

الثالث - أنه يعطى عطاء لا يأخذه بذلك أحد، و لا يسأله عنه سائل، و لا يطالب عليه بجزاء، و لا مكافأة، و لا يثبت ذكره مخافة الاعداد، و الاقلال، لأن عطيته ليست من أصل ينقص، بل خزائنه لا تنفى، و لا تنفد (جل الله تعالى).

و الرابع - قال قطرب معناه: أنه يعطى العدد من الشىء، لا مما يضبط بالحساب، و لا يأتى عليه العدد، لأن ما يقدر عليه غير متناه، و لا محصور، فهو

(١) سورة آل عمران آية: ١٤.

(٢) سورة المطففين آية: ٢٩.

(٣) سورة المطففين آية: ٣٤.

ص: ١٩٣

يعطى الشىء لا من عدد أكثر منه و لا ينقص منه كالمعطى من الآدميين الألف من الألفين و العشرة من المائة.

و الخامس - قال بعضهم: إنما عنى بذلك إعطاء أهل الجنة، لأن الله تعالى يعطيهم ما لا يتناهى، و لا يأتى عليه الحساب، فكل ذلك حسن جائز، و إنما قال:

«وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و لا فضل للكفار فى الآخرة لأمرين:

أحدهما - أن أحوالهم فى الآخرة فوق حال هؤلاء الكفار فى الدنيا.

و الثانى - أن يكون محمولاً على قوله تعالى «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا» «١» و كما قال حسان يعنى رسول الله و أبا جهل.

فشر كما لخير كما الفداء «2»

و معنى «يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» أى يهزءون بهم فى زهدهم فى الدنيا، لأنهم يوهمهم أنهم على حق، و يفهم عنهم أن اعتقادهم بخلاف ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٣]

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ أبو جعفر المدني (ليحكم) - بضم الياء - الباقون بفتحها.

(١) سورة الفرقان آية: ٢٤.

(٢) انظر ١: ١٠١ من هذا الكتاب

ص: ١٩٤

المعنى:

معنى قوله: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» أهل ملة واحدة كما قال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبه
و هل يأثمن ذو أمة و هو طائع»¹

أى ذو ملة و دين. و أصل الأمة الأمّ من قولك: أمّ يوم أمّا: إذا قصده.

و هى على أربعة أوجه:

فالأمة: الملة، و الأمة: الجماعة، و الأمة: المنفرد بالمقابلة، و الأمة: القابلة.

و اختلفوا فى الدين الذى كانوا عليه، فقال ابن عباس، و الحسن، و اختاره الجبائى : إنهم كانوا على الكفر. و قال قتادة، و الضحاك: كانوا على الحق، فاختلفوا.

فان قيل: إذا كان الزمان لا يخلو من حجة كيف يجوز أن يجتمعوا كلهم على الكفر، قلنا: يجوز أن يقال ذلك على التغليب لأن الحجة إذا كان واحداً أو جماعة يسيرة، لا يظهرون خوفاً و تقية، فيكون ظاهر الناس كلهم الكفر بالله، فلذلك جاز الاخبار به على الغالب من الحال، و لا يعتد بالعدة القليلة.

و قوله: «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- بما فيه من البيان عن الحق من الباطل. الثانى - أن معناه: بأنه حق للاستصلاح به على ما توجه الحكمة فيه .

و قوله: «لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» فحقيقته، ليحكم منزل الكتاب، لأن الله هو الحاكم بما أنزل فيه، فهو مجاز - فى قول الجبائى - قال: إلا أنه جعل اللفظ على الكتاب تفخيماً له، لما فيه من البيان . و يجوز أن يكون فى يحكم ضمير اسم الله، فيكون حقيقة. و من ضم الياء قراءته لا شبهة فيها. و المعنى ليحكم الناس أو العلماء بما فيه من الحق.

و قوله تعالى: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ» الهاء عائدة على الحق. و قيل على الكتاب.

و الأول أصح، لأن اختلافهم فى الحق قبل إنزال الكتاب . فان قيل: إذا كانوا مخ تالفين على إصابة بعضهم له، فكيف يكون الكفر عنهم به؟ قلنا: لا يمتنع

(١) ديوانه: ٤٠، و اللسان (أمم) من قصيدته فى اعتذاره للنعمان.

ص: ١٩٥

أن يكون الكل كفاراً، و بعضهم يكفر من جهة الغلو، و بعضهم من جهة التقصير كما كفرت اليهود، و النصارى فى عيسى (ع)، فقالت النصارى: هو رب، فغالوا. و قصرت اليهود، فقالوا: كذاب متخرص. فان قيل: كيف يكون الكل كفاراً مع قوله: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»؟ قلنا: لا يمتنع أن يكونوا كلهم كانوا كفاراً، فلما بعث الله اليهم بالأنبياء مبشرين، و منذرين اختلّفوا، فأمن قوم، و لم يؤمن آخرون.

و روى عن أبى جعفر (ع) أنه قال: كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله، لا مهتدين، و لا ضلّالا، فبعث الله النبيين.

الاعراب:

و قوله تعالى: «بَغِيّاً بَيْنَهُمْ» نصب على المفعول له، كأنه قال للبعي بينهم - على قول الأخفش، و الزجاج - . و قال بعضهم: الاستثناء متعلق بثلاثة أشياء، كأنه قال: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ»، ما اختلفوا فيه إلا من بعد ما جاءتهم البينات، ما اختلفوا فيه إلا بغياً بينهم . إلا أنه حذف الثانى لدلالة الأول عليه . قال الرماني: و الصحيح الأول، لأنه لا يحكم بالحذف مع استقامة الكلام من غير حذف إلا لعذر.

المعنى:

و قوله: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ» معناه: هداهم للحق، و هو الذى اختلفوا فيه . و قيل فى معنى باذنه قولان:

أحدهما - بلطفه، و لا بد من محذوف على هذا التأويل، أى فاهتدوا باذنه، لأن الله عز و جل، لا يفعل الشئ ء يأذن أحد يأذن له فيه، و لكن قد يجوز أن يكون على جهة التفسير للهدى، كأنه قال : هداهم بأن لطف لهم، و هداهم بأن أذن لهم . و قال الجبائى : لا بد من أن يكون على حذف (فاهتدوا) باذنه.

و القول الثانى - هداهم بالحق بعلمه، و الاذن بمعنى العلم معروف فى اللغة قال

ص: ١٩٦

الحارث بن جلة:

آذنتنا بينها أسماء «1»

أى أعلمتنا. و هو قول الزجاج، و غيره من أهل اللغة . فان قيل: إذا كانوا إنما هدوا للحق من الاختلاف فلم قيل : للاختلاف من الحق؟ قيل: لأنه لما كانت العناية بذكر الاختلاف، كان أولى بالتقديم، ثم تفسيره ب (من). و قال الفراء هو من المقلوب نحو قول الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما

كان الزناء فريضة الرجم «2»

و إنما الرجم فريضة الزنا. و كما قال الآخر:

إن سراجاً لكريم مفخرة

تحلى به العين إذا ما تجره «3»

و إنما يحلى هو بالعين . قال غيره إنما يجوز القلب فى الشعر للضرورة . و وجه الكلام على ما بيناه واضح . فان قيل: ما الهدى الذى اختص به من يشاء؟ قيل فيه ثلاثة أقوال : قال الجبائى: اختص به المكلفين دون غيرهم ممن لا يحتمل التكليف، و هو البيان، و الدلالة و الثانى - قال: و يجوز أن يكون هداهم على طريق الجنة، و يكون للمؤمنين خاصة . و قال ابن الأخشاد، و البلخى: يجوز أن يكون هداهم باللطف، فيكون خاصاً لمن علم من حاله أنه يصلح به. و لا يجوز أن يكون المراد بالهداية هاهنا الإرشاد الى الدين، و نصب الدلالة عليه، لأنه تعالى لا يخص بذلك قوماً دون قوم، بل لا يصلح التكليف من دونه. و قد بين الله تعالى: أن اختلافهم كان بعد أن جاءتهم البينات فعم بذلك جميعهم، فلو أراد الله بقوله «فَهْدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» بالبينات، لكان متناقضاً- اللهم - إلا أن يحمل ذلك على أنه أضاف اليهم الهداية، من حيث كانوا هم المنتفعين بها، و المتبعين لها، فكأنهم كانوا هم المخصوصين بها كما قال: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» (٤) و قوله تعالى: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» (٥)»

(١) انظرا: ٣٨٠ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ٢: ٧٩.

(٣) انظر ٢: ٧٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٢.

(٥) سورة يس آية: ١١.

ص: ١٩٧

«إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا» (١) و إن كان منذراً لجميعهم، و الذى يقوى ذلك قوله : «وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى» (٢) فبين أنه هداهم. و إنما لم يهتدوا، فكيف يجوز أن تحمل الهداية على نصب الدلالة، و إقامة الحجة على قوم دون قوم. و الفرق بين: هدى المؤمنين الى الايمان، و بين أنعم عليهم بالايمان، قال الجبائى: إن الهدى للأيمان غير الايمان، و الانعام بالايمان هو نفس الايمان . و الصحيح أنه هداه بالأيمان يجرى مجرى قوله : أنعم عليه بالايمان لأنه يراد بذلك التمكين منه. و الاقتدار عليه و الدعاء إليه و لا يراد به نفس الايمان.

و قوله: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى الى طريق الدين الواضح.

و اختلفوا فى الامة المعنوية بهذه الآية، فقال ابن عباس، و قتادة : هم الذين كانوا بين عاد، و نوح، و هم عشر فرق كلهم كانوا على شريعة من الحق، فاختلفوا بعد ذلك. فالتقدير - على قول هؤلاء - كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين. و قال مجاهد: المراد بالآية آدم، فبعث النبيين الى ولده، لما اختلفوا. و قال أبى بن كعب، و الربيع: كان الناس أمة حين استخرجوا من ظهر آدم، فأقروا له بالعبودية، و اختلفوا فيما بعد، فبعث الله اليهم النبيين . و قال ابن عباس فى رواية أخرى: كانوا أمة واحدة

على الكفر، فبعث الله النبيين. وقال السدى: كانوا على دين واحد من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين. وقال الربيع و الطبرى: الكتاب الذى اختلفوا فيه التوراة. وقال آخرون كل كتاب أنزل الله مع النبيين.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٤]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُوفًا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

(١) سورة النازعات آية: ٤٥.

(٢) سورة حم السجدة آية: ١٧.

ص: ١٩٨

آية واحدة.

القراءة و النزول:

قرأ نافع (حتى يقول الرسول) بضم اللام. الباقلون بنصبها.

ذكر السدى، و قتادة، و غيرهما من أهل التفسير : أن هذه الآية نزلت يوم الخندق لما اشتدت المخافة، و حوَصر المسلمون فى المدينة، و استدعاهم الله الى الصبر، و وعدهم بالنصر.

الاعراب و اللغة:

و قال الزجاج: معنى (أَمْ) هاهنا بمعنى (بل). و قال غيره: هى بمعنى الواو. و إنما حسن الابتداء ب (أَمْ) لاتصال الكلام بما تقدم، و لو لم يكن قبله كلام، لما حسن . و الفرق بين (أَمْ حسبتم) و بين (أَ حسبتم) أن (أَمْ) لا تكون إلا متصلة لكلام، معادلة للألف، أو منقطعة، فالمعادلة نحو (أزید فى الدار أَمْ عمرو) فالمراد أيهما فى الدار، و المنقطعة نحو قولهم : (إنها لايل أَمْ شاءَ يا فتى)، و أما الألف، فتكون مستأنفة. و إنما لم يجرز فى (أَمْ) الاستثناف، لأن فيها معنى (بل) كأنه قيل: (بل حسبتم). و حسبت، و ظننت و خلت نظائر.

و قوله تعالى: «وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» معناه و لما تمتحنوا، و تبتلوا بمثل ما امتحنوا، فتصبروا كما صبروا . و هذا استدعاء الى الصبر و بعده الوعد بالنصر.

و المثل، و الشبه واحد، يقال: مَثَلٌ و مِثْلٌ و مثْلٌ، مثل شبه و شبه. و «خلوا» معناه مضوا.

و قوله: «مستهم» فالمس، و اللمس واحد. و البأساء ضد النعماء، و الضراء ضد السراء.

و قوله: «زلزلوا» معناه هاهنا: أزعجوا بالمخافة من العدو. و الزلزلة: شدة

ص: ١٩٩

الحركة. و الزلزال: البلبلة المزعجة بشدة الحركة، و الجمع زلازل، و يقال: زلزل الأرض يزلزلها زلزلاً، و تزلزل تزلزلاً، مثل تدكدك تدكدكاً، و أصله زلّ، و إنما ضوعف، مثل صرصر، و صلصل.

و قوله: «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ» من نصب اللام، ذهب الى تقدير: الى أن يقول الرسول، فيكون على معنى الاستقبال إذا قدرت معها (أن)، و هو يشبه الحكاية، كأنك تقدر حالا، ثم استأنف غيره فعلا، كما تستأنف عن حال كلامك.

و يوضح ذلك (كان زيد سيقول كذا و كذا). و انما قدرت بكان زيد وقتاً، ثم يستأنف عنه فعلا، فكذاك «زلزلوا» قد دلّ على وقت، ثم استأنف بعده الفعل.

و من رفع، فعلى الحال للفعل المذكور، و الحال لكلام المتكلم، و ذلك القول قد يكون فى حال الزلزلة. فأما الغاية فلا يكون إلا بعد تقضيها و إن كان متصلاً بها، و الرفع يوجب التأدية بمعنى: أن الزلزلة أدت الى قول الرسول. فأما النصب، فيوجب الغاية، فقد حصل الفرق بين الرفع و النصب من ثلاث جهات:

الأول- أن أحدها على الحال، و الآخر على الاستقبال. و الثانى- أن أحدها قد انقضى، و الآخر لم ينقض. و الثالث- أن أحدها على الغاية، و الآخر على التأدية. و معنى الغاية فى الآية أظهر، لأن النص جاء ع ند قول الرسول، فلذلك كان الاختيار فى القراءة النصب.

المعنى:

فان قيل: ما معنى قول الرسول و المؤمنين: «مَتَى نَصْرُ اللَّهِ»؟ قلنا: قال قوم:

معناه الدعاء لله بالنصر، و لا يجوز أن يكون معناه الاستبطاء لنصر الله على كل حال لأن الرسول يعلم: أن الله لا يؤخره عن الوقت الذى توجبه الحكمة. و قال قوم:

معناه الاستبطاء لنصر الله. و ذلك خطأ، لا يجوز مثله على الأنبياء (ع) إلا أن يكون على الاستبطاء لنصره لما توجبه الحكمة من تأخره. و النصر ضد الخذلان.

و القريب ضد البعيد. و القرب و الدنو واحد. و من قال: إن ذلك على وجه الاستبطاء قواه بما بعده من قوله «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ».

ص: ٢٠٠

اللغة:

و أصل (لما) (لم) فزيد عليها (ما) فغيرت معناها، كما غيرت في (لو لما زيد عليها (ما) إذا قلت: (لو ما) فصارت بمعنى هلا. و الفرق. بين (لم) و (لما) أن (لما) يصح أن يوقف عليها، مثل قولك: أقدم زيد؟ فيقول: لما، و لا يجوز (لم)، و في (لما) توقع لأنها عقيمة (قد)، إذا انتظر قوم ركوب الأمير، قلت:

قد ركب، فان نفيت هذا قلت: لما يركب، و ليس كذلك (لم)، و يجمعهما نفى الماضى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٥]

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَالَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

آية واحدة.

المعنى:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: أن الآية الأولى فيها دعاء الى الصبر على الجهاد فى سبيل الله، و فى هذه بيان لوجه النفقة فى سبيل الله، و كل ذلك دعاء الى فعل البر.

و النفقة: إخراج الشئ عن الملك ببيع، أو هبة، أو صلة، أو نحوها، و قد غلب فى العرف على إخراج ما كان من المال : من عين، أو ورق.

و قوله «يسألونك» خطاب للنبي (ص) بأن القوم يسألونه، و السؤال:

طلب الجواب بصيغة مخصوصة فى الكلام.

و ذكر السدى: أن هذه الآية منسوخة بفرض الزكاة. و قال الحسن: ليست منسوخة، و هو الأقوى، لأنه لا دليل على نسخها.

و الجواب المطابق لقوله: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» أن يقول: قل النفقة

ص: ٢٠١

التي هي خير، وإنما عدل عنه لحاجة السائل الى البيان الذي يدل عليه، وعلى غيره، وذلك يحسن من الحكماء إذا أرادوا تعليم غيرهم، و تبصيرهم أن يضمنوا الجواب مع الدلالة على المسئول عنه الدلالة على ما يحتاج إليه السائل في ذلك المعنى مما أغفله أو حذف السؤال عنه لبعض الأسباب المحسنة له . فأما الجدل الذي يضايق فيه الخصم، فالأصل فيه التحقيق، بأن يكون الجواب على قدر السؤال من غير زيادة و لا نقصان، و لا عدول عما يوجهه نفس السؤال، لأن كل واحد من الخصمين قد حل محل النظر للآخر.

و لا يجوز إعطاء الزكاة للوالدين، و كل من تلزمه نفقته - و به قال الحسن - و الآية عامة في الزكاة و في التطوع - و به قال الحسن - غير أنها فيمن تلزمه النفقة عليه، خاصة بالنفقة.

الاعراب:

و موضع (ما) في قوله: «**مَا ذَا يُنْفِقُونَ**» من الاعراب يحتمل وجهين:

الرفع، و النصب، الرفع على ما الذي ينفقون، فيكون المعنى الذي، و ينفقون صلة، و النصب بمعنى أى شىء ينفقون، فيكون (ذا) و (ما) بمنزلة شىء واحد. و المساكين جمع مسكين و هو المحتاج.

المعنى:

و معنى قوله: «**فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**» أى ما تفعلوا من خير فإن الله يجازى عليه من غير أن يضيع من ه شىء، لأنه عليم لا يخفى عليه شىء. قال مجاهد: معنى «**يَسْتَلُونَكَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ**» إنهم سألوا ما لهم فى ذلك، فقال الله تعالى: «**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ**» الآية. و قال قتادة: أهمتهم النفقة، فسألوا عنها النبي (ص) فأنزل الله «**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ**» الآية.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٦]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ عَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

ص: ٢٠٢

آية واحدة.

المعنى:

معنى قوله تعالى: «**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**» فرض عليكم القتال، و هذه الآية دالة على وجوب الجهاد، و فرضه، و به قال مكحول، و سعيد بن المسيب، و أكثر المفسرين، غير أنه فرض على الكفاية . و حكى عن عطا: أن ذلك كان على الصحابة، و الصحيح الأول، لحصول الإجماع عليه اليوم، و قد انقرض خلاف عطا.

اللغة:

و قوله: «وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ» يقال: كره كراهةً، و أكرهه إكراهاً: إذا أجبره، و تكرّه تكرّهاً، و استكره استكراهاً، و كرهه تكريهاً . و الكراهة:

المشقة التي يحمل عليها، و الكره: المشقة من غير أن يحمل عليها . و قيل: هما لغتان، مثل ضَعَف، و ضِعَف . و جمل كره: شديد الرأس، لأنه لا ينقاد إلا على كره، و الكريهة: الشديد في الحرب، لأنه يدخل فيها على كره. و كراهية «١» الدهر:

نوازله، و كرهت الأمر كراهةً و كراهيةً و مكرهه، و كرهّ إلى هذا الأمر تكريهاً:

أى صيّرهُ إلى بحال كريهة. و الكرهاء: صفحة الوجه، لأن الكره يظهر فيها.

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

فان قيل: كيف كره المؤمنون الجهاد، و هو طاعة لله؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما - أنهم يكرهونه كراهيةً طباع و الثانى - أنه كره لكم قبل أن يكتب عليكم، و على الوجه الأول يكون لفظ الكراهة مجازاً، و على الثانى حقيقة.

و قوله: «عسى» معناه الطمع، و الإشفاق من المخاطب، و لا يكون إلا مع مثله فى الأمر . و قيل: معناها هاهنا قد، و إنما قال : «عسى» و قال فى موضع آخر:

(١) فى المطبوعة (كراهية).

ص: ٢٠٣

«فَهَلْ عَسَيْتُمْ» فجمع، لأنه استغنى فى الغائب عن الجمع كما استغنى عن علامة الضمير فى اللفظ، و ليس كذلك المخاطب، فجرى فى كل غائب على التوحيد، لامتناعه من التصريف. و تقول: عسى أن يقوموا، فإذا قلت: عسيتم أن تقوموا جمعت.

و فى قوله «وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ» حذف - فى قول الزجاج و غيره - لأن تقديره و هو ذو كره لكم، و يجوز أن يكون معناه : و هو مكروه لكم، فوقع المصدر موقع اسم المفعول، و مثله قولهم: رجل رضى بمعنى ذو رضى، و يجوز أن يكون بمعنى مرضى.

و قوله: «وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» فالشر السوء، و هو ضد الخير، تقول: شرّ شرّاً شرارةً. و شرار الرار، و شررها لهبها، و شررت اللحم و الثوب تشريراً: إذا بسطته، ليحف، و كذلك أشررته إشراراً، و أشررت الكتاب : إذا أظهرته، و شرّة الشباب : نشاطه، و إنما قال الله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» تنبيهاً على أنه يعلم مصالحكم، و ما فيه منافعكم، فبادروا الى ما يأمركم به و إن شق عليكم.

و الفرق بين الشهوة، و المحبة واضح، لأن الصائم فى شهر رمضان يشتهى شرب الماء، و لا يكون مؤاخذاً به، و لا يحبه كما لا يريد، و لو أراد، و أحبه، لكان مذموماً، و يكون مفطراً - عند كثير من الفقهاء -.

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» يدل على فساد قول المجبر، لأنه تعالى إنما رغبهم فى الجهاد، لما علم من مصالحهم، و منافعهم، فيدبرهم لذلك، لا لكفرهم و فسادهم يتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٧]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

ص: ٢٠٤

آية واحدة بلا خلاف.

اختلفوا فى: من السائل عن هذا السؤال: أهم أهل الشرك، أم أهل الإسلام، فقال الحسن، و غيره : هم أهل الشرك على جهة العيب للمسلمين باستحلالهم القتال فى الشهر الحرام، و به قال الجبائى، و أكثر المفسرين . و قال البلخى: هم أهل الإسلام، سألوا عن ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه.

الاعراب:

و قوله تعالى: «قِتَالٌ فِيهِ» مجرور على البدل من الشهر، و هو من بدل الاشتمال، و مثله قوله تعالى: «فَتِلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ» (١) و قال الأعشى:

تَقْضَى لِبَانَاتٍ وَ يَسَامُ سَائِمٌ»2

لقد كان فى حول ثواءِ ثويته

و الذى يشتمل عليه المعنى هو أحوال الشىء، و ما كان منه بمنزلة أحواله مما يغلب تعلق الفعل به، فلا يجوز رأيت زيدا لونه، لأن لونه يجوز أن يرى كما يجوز أن يرى نفسه، و يجوز سرق زيد ثوبه، لأن تعلق السرقة إنما هى بالملك دون النفس فى غالب الأمر، و يجوز أن تقول: رأيت زيدا مجيئه، و لا يجوز رأيت زيدا إياه، لأنه يجرى مجرى حالة.

و قوله تعالى: «وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» رفع بالابتداء، و ما بعده معطوف عليه، و خبره «أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ» هذا قول الزجاج. و قال أبو على الفارسى: لا يخلو

(١) سورة البروج آية: ٥.

(٢) ديوانه: ٧٧ رقم القصيدة: ٩. يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني ومعنى البيت يعلم من البيت قبله الذى هو مطلع القصيدة و هو.

غداة غد أم أنت للبين واجم

هريرة ودعها وان لام لائم

و هريرة قد ذكرها فى قصيدة قبل هذه.

ص: ٢٠٥

أن يكون ارتفاع قوله: «وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ» من أن يكون بالعطف على الخبر الذى هو «كبير» كأنه قال: قتال فيه كبير و صدّ وكفر: أى القتال، قد جمع أنه كبير، وأنه صدّ، وكفر . و يكون مرتفعاً بالابتداء، وخبره محذوف لدلالة «كبير» المتقدم عليه، كأنه قال: و الصد كبير، كقولك: زيد منطلق و عمرو، أو يكون مرتفعاً بالابتداء، و الخبر المظهر، فيكون الصد ابتداء، و ما بعد من قوله:

«وَكُفِّرَ بِهِ وَ ... إِخْرَاجُ أَهْلِهِ» مرتفع بالعطف على الابتداء، و الخبر قوله: «أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ» قال: و لا يجوز الوجهان الأولان - و قد أجازهما الفراء - أما الوجه الأول، فلأن المعنى يصير: قل: قتال فيه كبير و صدّ عن سبيل الله كبير، و القتال و إن كان كبيراً، و يمكن أن يكون صدّاً، لأنه ينفر الناس عنه، فلا يجوز أن يكون كفراً، لأن أحداً من المسلمين لم يقل ذلك، و لم يذهب إليه، فلا يجوز أن يكون خبر المبتدأ شيئاً لا يكون المبتدأ . و يمنع من ذلك أيضاً قوله بعد: «و إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ» و محال أن يكون إخراج أهله منه أكبر من الكفر، لأنه لا شىء أعظم منه، و يمتنع الوجه الثانى أيضاً، لأن التقدير: فيه يكون قتال فيه كبير و كبير الصدّ عن سبيل الله و الكفر به، و كذلك مثله الفراء، و قدره، فإذا صار المعنى:

و إخراج أهل المسجد الحرام أكبر عند الله من الكفر، فيكون بعض خلال الكفر أعظم منه كله، و إذا كان كذلك امتنع كما امتنع الأول و إذا امتنع هذان ثبت الوجه الثالث، و هو أن يكون قوله «وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» ابتداء «وَكُفِّرَ بِهِ ...

وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ» معطوفاً عليه «و أكبر» خبراً.

المعنى:

فيكون المعنى: «وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى منعهم لكم أيها المسلمون عن سبيل الله، و عن المسجد الحرام، و إخراجكم منه - و أنتم ولاتنه، و الذين هم أحق به منهم - و كفر بالله أكبر من قتاله فى الشهر الحرام. قال الرماني، و الفراء: إن التخلص من التأويل الثانى أن تقول: إخراج أهله منه أكبر من القتل فيه، لا من الكفر، لأن المعنى فى إخراج أهله منه إخراج النبى (ص) و المؤمنين عنه. قال:

ص: ٢٠٦

و أما التأويل الأول، فلا يجوز إلا أن يجعل «كُفْرُ بِهِ» يعنى بالمسجد الحرام، لانتهاك حرمة. قال: و التأويل الأول أجود.

و هذا القتال فى الشهر الحرام هو ما عابه المشركون على المسلمين، من قتل عبد الله بن جحش، و أصحابه عمر بن الحضرمي، لما فصل من الطائف، فى غير - فى آخر جمادى الآخرة - و أخذهم العير، و هو أول من قتل من المشركين - فيما روى، و أول فىء أصابه المسلمون.

و أما قوله تعالى: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فقال الفراء: إنه محمول على قوله:

يسألونك عن القتال، و عن المسجد الحرام هذا لفظه. قال أبو على الفارسي: و هذا أيضاً يمتنع، لأنه لم يكن السؤال عن المسجد الحرام، و إنما السؤال عن قتال ابن جحش الحضرمي و أصحابه الذين عابهم المشركون و عيروهم، فقالوا إنكم استحللتم الشهر الحرام، و هو رجب يقتلهم فيه، فكان السؤال عن هذا، لا عن المسجد الحرام و إذا لم يجز هذا الوجه، لم يجز حمله على المضر المجرور، لأن عطف المظهر على المضر غير جائز، لأنه ضعيف جداً، فيكون محمولاً على الضمير فى به، لأن المعنى ليس على كفر بالله أو بالنبى (ص)، و المسجد، فثبت «١» أنه معطوف على (عن) من قوله: «وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، لأن المشركين صدوا المسلمين عنه، كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، «٢» فكما أن المسجد الحرام محمول فى هذه الآية على (عن) المتصلة بالصد - بلا إشكال - كذلك فى هذه الآية، و هو قول أبى العباس، أيضاً قال الرماني: ما ذكره الفراء، و اختاره الحسن ليس يمتنع، لأن القوم لما استعظموا القتال فى الشهر الحرام، و كان القتال عند المسجد الحرام يجرى مجراه فى الاستعظام جمعوهما لذلك فى السؤال، و إن كان القتال إنما وقع فى الشهر الحرام خاصة، كأنهم قالوا: قد استحللت الشهر الحرام، و المسجد الحرام. و ظاهر الآية يدل على أن القتال فى الشهر الحرام كان محرماً لقوله:

(١) فى المطبوعة «بيت».

(٢) سورة الحج آية: ٢٥.

ص: ٢٠٧

«قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ» و ذلك لا يقال إلا فيما هو محرم، محظور.

اللغة:

و الصدّ، و المنع، و الصدف واحد . صدّ يصدّ صدوداً إذا صدف عن الشئ ٤ لدوله عنه، و صدته عن الشئ ٤، أصده صدّاً إذا عدّته عنه، و منه قوله تعالى:

«إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» «١» قرئ بالضم، و الكسر . قال أبو عبيدة: يصدّون يعرضون، و يصدّون : يضجون، و ذلك لأنهم يعدلون الى الصحيح. و الصديد:

الدم المختلط بالقيح يسيل من الجرح . و الصدّد. ما استقبلك و صار في قبالتك، لأنه يعدل «٢» الى مواجعتك. و الصدان: ناحيتا الشعب أو الوادى. و الصداد:

ضرب من الجردان يعدل لشدة تحرزه. و الصداد: الوزغ «٣»، لأنه يعدل عنه استقذاراً له، و أصل الباب العدول.

المعنى:

و قوله: «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» معناه الفتنة في الدين، و هى الكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام . و قال قتادة و غيره، و اختاره الجبائى: إن القتال في الشهر الحرام و عند المسجد الحرام منسوخ بقوله: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» «٤» و بقوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» «٥» و قال عطا: هو باق «٦» على التحريم. و روى أصحابنا: أنه على التحريم فيمن يرى لهذه الأشهر حرمة، فإنهم لا يبتدئون فيه بالقتال، و كذلك في الحرم، و إنما أباح تعالى للنبي (ص) قتال أهل مكة وقت الفتح، و لذلك

قال (ص): إن الله أحلها في هذه الساعة، و لا يحلها لأحد بعدى الى يوم القيامة.

و من لا يرى ذلك، فقد نسخ في جهته و جاز قتاله أى وقت كان.

(١) سورة الزخرف آية: ٥٧.

(٢) فى المطبوعة (بعدك).

(٣) فى المطبوعة (الورع).

(٤) سورة البقرة آية: ١٩٣.

(٥) سورة التوبة آية: ٦.

(٦) فى المطبوعة (فاق).

ص: ٢٠٨

و قوله: «يردوكم» قال الجبائى: هو مجاز هاهنا، لأن حقيقته: حتى ترتدوا بالجائهم إياكم الى الارتداد، و الأولى أن يكون حقيقة ذلك بالعرف.

اللغة:

و قوله تعالى: «وَلَا يَزَالُونَ» فالزوال: العدول. و لا يزال موجوداً، و ما زال: أى ما دام، و زال الشئ عن مكانه يزول زوالاً، و أزلته عنه، و زلته، و زالت الشمس زوالاً، و زيالا، و زالا لى الخيل بركبانها زيالا، و رجل زول، و امرأة زولة، و هو الظريف الركبين «١» و أصل الباب الزوال.

و قوله: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ»، فهو على إظهار التضعيف، لسكون الثانى. و يجوز «يرتد» - بفتح الدال - على التحريك، لالتقاء الساكنين، و الفتح أجود.

و قوله: «فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» معناه: أنها صارت بمنزلة ما لم يكن، لا يقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به، و ليس المراد أنهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت، لأن الإحباط - عندنا - باطل على هذا الوجه. و يقال: حبط عمل الرجل يحبط حبطاً و حبوطاً، و أحبطه الله إحباطاً، و الحبط: فساد، يلحق الماشية فى بطونها، لأكل الحباط، و هو ضرب من الكلاء. يقال: حبطت الإبل تحبط حبطاً إذا أصابها ذلك.

و روى عن عطا عن ابن عباس: أن المسجد الحرام الحرم كله.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

آية واحدة بلا خلاف.

(١) الركبين - بفتح الراء و الباء - أصل الفخذين.

ص: ٢٠٩

النزول و الاعراب:

ذكر جندب بن عبد الله، وعروة بن الزبير: أن هذه الآية نزلت في قصة عبد الله بن جحش وأصحابه لما قاتلوا في رجب، و قتل واقد التميمي بن الحضرمي، ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجره، فأنزل الله الآية فيهم - بالوعد -.

و خبر «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» الجملة التي هي قوله: (أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ) أولئك ابتداء، و يرجون خبره، و الجملة خبر (إن).

اللغة:

و قوله: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا» فالهجر ضد الوصل، تقول: هجره يهجره هجراً، و هجراناً: إذا قطع مواصلته. و الهجر: ما لا ينبغي من الكلام، تقول: هجر المريض يهجر هجراً، لأنه قال ما لا ينبغي أن يهجر من الكلام، و ما زال ذلك هجيراً أى دأبه «١». و الهاجرة: نصف النهار، و هجر القوم تهجيراً: إذا دخلوا في الهاجرة.

و سمي المهاجرون لهجرتهم قومهم، و أرضهم . و أهجرت الجارية إهجاراً : إذا شبت شباباً حسناً، فهي مهجرة، و يقال ذلك للناقة، و النخلة . و الهجار: حبل يشد به يد الفحل الى إحدى رجليه، لأنه يهجر بذلك التصرف و أصل الباب الهجر : قطع المواصله.

و قوله تعالى: «و جاهدوا» تقول: جهدت الرجل جهداً: إذا حملته على مشقة، و جاهدت العدو مجاهدة إذا حملت نفسك على المشقة فى قتاله . و اجتهدت رأياً: إذا حملت نفسك على المشقة فى بلوغ صواب الرأى . و الجهاد: الأرض الصلبة، و أصل الباب الجهد: الحمل على المشقة.

و قوله تعالى: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يعنى قتال العدو، و يدخل فى ذلك مجاهدة النفس.

و قوله «أُولَئِكَ يَرْجُونَ» فالرجاء الأمل، رجا يرجو رجاءً، و ترجى

(١) هجيره - بكسر الهاء و الجيم مع تشديد الجيم - فى المطبوعة (أى داته).

ص: ٢١٠

ترجياً، و ارتجى ارتجاءً، و الرجا - مقصوراً - ناحية كل شىء، و يشئى رجوان و جمعه أرجاء، و منه أرجاء البئر نواحيه، و قوله تعالى «ما لكم لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً» «١» أى لا تخافون، قال أبو ذؤيب:

و خالفها فى بيت نوب عواسل «2»

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

أى لم يخف، و ذلك أن الرجاء للشيء الخوف من أن لا يكون، فلذلك سمي الخوف باسم الرجاء، و أصل الباب الأمل، و هو ضد اليأس.

المعنى:

و فى الآية دلالة على أن مات مصراً على كبيرة لا يرجو رحمة الله لافرين:

أحدهما - أن ذلك دليل الخطاب، و ذلك غير صحيح عند أكثر المحصلين.

و الثانى - أنه قد يجتمع - عندنا - الايمان و الهجرة و الجهاد مع ارتكاب الكبيرة، فلا يخرج من هذه صورته عن تناول الآية له، وإنما ذكر المؤمنين برجاء الرحمة و إن كانت هى لهم لا محالة، لأنهم لا يدرون ما يكون منهم من الاقامة على طاعة الله أو الانقلاب عنها الى معصيته، لأنهم لا يدرون كيف تكون أحوالهم فى المستقبل . و قال الجبائى : لأنهم لا يعلمون أنهم أدوا كما يجب لله عليهم، لأن هذا العلم من الواجب، و هم لا يعلمونه إلا بعلم آخر، و كذلك سبيل العلم فى أنهم لا يعلمونه إلا بعلم غيره، و هذا يوجب أنهم لا يعلمون إذاً كما يجب لله عليهم . و قال ابن الأخشاد : لأنه لا يتفق للعبد التوبة من كل معصية، و استدل على ذلك بإجماع الأمة على أنه ليس لأحد غير النبى (ص). و من شهد له عليه، فلا.

و يمكن فى الآية وجه آخر - على مذهبنا - و هو أن يكون رجاءهم لرخصة الله فى غفران معاصيهم التى لم يتفق لهم التوبة عنها، و اخترموا دونهم، فهم يرجون أن يسقط الله عقابها عنهم تفضلاً. فأما الوجه الاول، فإنما يصح على مذهب من

(١) سورة نوح آية: ١٣.

(٢) اللسان (رجاء)، (خلف) فى المطبوعة (عوامل) بدل (عوامل) أى دخل عليها و أخذ عسلها. و يروى (و حالفها) أى لزمها.

ص: ٢١١

يجوز أن يكفر المؤمن بعد إيمانه أو يفعل فى المستقبل كبيرة يحبط ثواب إيمانه، و هذا لا يصح على مذهبنا فى الموافات و ما قاله الجبائى يلزم عليه وجوب ما لا نهاية له، لأنه إذا وجب عليه أن يعلم أنه فعل ما وجب عليه بعلم آخر، و ذلك لا يعلم مما وجب عليه أيضاً فيجب ذلك بعلم آخر، و فى ذلك التسلسل.

و إنما ضم الى صفة الايمان غيره فى اعتبار الرجاء للرحمة ترغيباً فى كل خصلة من تلك الخصال، لأنها من علامات الفلاح . فأما الوعد، فعلى كل واحدة منها إذا سلمت مما يبطلها . و قال الحسن: الرجاء، و الطمع ه هنا على الايمان إذا سلم العمل . و ذكر الجبائى: أن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يشهد لنفسه بالجنة، لأن الرجاء لا يكون إلا مع الشك، و قد بين الله تعالى: أن صفة المؤمن الرجاء للرحمة، لا القطع عليها لا محالة.

و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما ذكر في الأولى العذاب، ذكر بعدها آية الرحمة، ليكون العبد بين الخوف و الرجاء إذ ذلك أوكد في الاستدعاء، و أحق بتدبير الحكماء.

و كتبت «رَحِمَتَ اللَّهُ» بالتاء في المصحف على الوصل، و الأقيس بالهاء على الوقف، كما كتب «يَدْعُ الدَّاعِ» «١» و «يَقْضَى بِالْحَقِّ» «٢» «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا» «٣» كل ذلك على الوقف.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢١٩]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

(١) سورة القمر آية: ٦.

(٢) سورة المؤمن آية: ٢٠.

(٣) سورة الكهف آية: ٣٢.

ص: ٢١٢

القراءة:

قرأ أهل الكوفة إلا عاصم (إثم كثير) بالثاء. الباقون بالباء، و قرأ أبو عمرو وحده (قل العفو) بالرفع. الباقون بالنصب.

اللغة:

قال أكثر المفسرين: الخمر عصير العنب إذا اشتد. و قال جمهور أهل المدينة:

ما أسكر كثيره فهو خمر، و هو الظاهر في رواياتنا.

و أما اشتقاقه في اللغة : تقول خمرت الدابة أخمرها خمرأ إذا سقيتها الخمر، و خمرت العجين و الطين أخمره خمرأ : إذا تركته فلم تستعمله حتى يجود . و أخمر القوم إخمارة : إذا تواروا في الشجر . و يقال لما سترك من شجر : خمرى «١»، مقصوراً، و اختمرت المرأة، و خمرت إذا لبست الخمار : و هى المقنعة. و خامره الحزن مخامرة إذا خالطه. و خمر الأثناء و غيره تخمرأ: إذا غطيته، و استخمرت فلاناً: إذا استعبدته.

و الخمار بخار يعقبه شرب الخمر . و المخامرة: المقاربة. و الخمر: ما وارك من الشجر، و غيره . و الخمر: شبيه بالسجادة. و المخمرة من الغنم: سوداء و رأسها أبيض. و دخل في خمار الناس: إذا دخل في جماعة، فخفي فيهم، و أصل الباب الستر.

و الميسر: قال ابن عباس، و عبد الله بن مسعود، و الحسن، و مجاهد، و قتادة، و ابن سيرين : هو القمار كله و هو الظاهر في رواياتنا.

و اشتق الميسر من اليسر، و هو وجوب الشئ ء لصاحبه، من قولهم : يسر لى هذا الشئ: إذا وجب لى، فهو تيسر لى يسراً، و ميسراً، و الياسر: الواجب بقдах و جب لك أو غير ذلك. و قيل للمقامر: ياسر، و يسر، قال النابغة:

أو ياسر ذهب القдах بوفره
أسف تآكله الصديق مخلع²»

(١) فى المطبوعة (ضراً) و هو تصحيف.

(٢) لم أجد هذا البيت فى شعر النابغة، و هو موجود فى تفسير الطبرى ٤: ٣٢٢.

الياسر: المقامر. القдах: تستعمل فى لعب القمار الوفّر: المال الكثير. مخلع: قد لعب فى القمار مرة بعد مرة . و كأنه يصف لآعب قمار قد خسر ماله الواسع و قد أسف عليه عند ما رأى أصدقاءه الذين يلعبون دائماً قد أخذوه منه و تقاسموه.

ص: ٢١٣

يعنى القامر. و قيل أخذ من التجزئة، لأن كل شئ جزأته، فقد يسرته، و الياسر: الجازر. و الميسر: الجزور. و قيل الميسر مأخوذ من اليسر، و هو تسهل الشئ، لأنهم - كانوا - مشتركون فى الجزور، ليسهل أمرها إلا أنه المعنى الجهة: القمار.

المعنى:

و قوله: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» فالنفع التى فى الخمر: ما كانوا يأخذونه فى أثمانها، و ربح تجارتها، و ما فيها من اللذة بتناولها: أى فلا تغتروا بالنفع فيها، فالضرر أكثر منه . و قال الحسن، و غيره: هذه الآية تدل على تحريم الخمر، لأنه ذكر أن فيها إثماً، و قد حرم الله الإثم بقوله: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ» «١» على أنه قد وصفها بأن فيها إثماً كبيراً و الكبير يحرم بلا خلاف.

و قال قوم: المعنى و إثمها بعد تحريمها أكبر من نفعها قبل تحريمها . و قال آخرون: المعنى إن الإثم بشرى هذه، و القمار بها أكبر و أعظم، لأنهم كانوا إذا استكروا و ثب بعضهم على بعض، و قاتل بعضهم بعضاً . و قال قتادة : لا تدل الآية على

تحريمهما، وإنما تدل الآية التي في المائدة في قوله : «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ» (٢) الى آخرها. ووجهه قتادة على أنه قد يكثر فيهما «إِنَّمَا كَبِيرٌ».

وقوله: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» قال السدي: نسخته آية الزكاة. وقال مجاهد: هو فرض ثابت. وقال قوم: هو أدب من الله ثابت غير منسوخ، وهو الأقوى، لأنه لا دليل على نسخها.

و «العفو» هنا قيل في معناه ثلاثة أقوال:

قال ابن عباس، و قتادة: هو ما فضل عن الغنى.

وقال الحسن، و عطا: هو الوسط من غير إسراف و لا إقتار.

وقال مجاهد: هو الصدقة المفروضة.

(١) سورة الاعراف آية: ٣٢.

(٢) آية: ٩٣.

ص: ٢١٤

و روى عن أبي جعفر (ع) أن العفو: ما فضل عن قوت السنة، فنسخ ذلك بآية الزكاة.

و روى عن أبي عبد الله (ع) أن العفو هاهنا: الوسط.

و العفو مأخوذ من الزيادة و منه قوله: «حَتَّى عَفَوْا» (١) أى حتى زادوا على ما كانوا عليه من العدد قال الشاعر:

ولكننا نعضُ السيفُ منها باسبق عافيات الشحم كوم (٢)

أى زائدات الشحم. و قال قوم: هو مأخوذ من الترك من قوله : «فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» (٣) أى ترك له، فيكون العفو المتروك غنى عنه، و من رفع معناه ما الذى ينفقون، و فى الأول كأنه قال: أى شىء ينفقون، فقالوا: العفو. و إنما وحد الكاف فى كذلك، و إن كان الخطاب لجماعة، لأحد أمرين : أحدهما - فى تقدير كذلك أيها السائل . و الثانى - أن يكون الخطاب للنبي (ص) و يدخل فيه الأمة، كما قال: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» (٤).

و قوله: «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» أى لكى تتفكروا، وهى لام الغرض . و فى ذلك دلالة على أن الله تعالى أراد منهم التفكر سواء تفكروا أو لم يتفكروا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٠]

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

آية واحدة.

الاعراب و المعنى:

العامل فى الظرف من قوله: «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» يحتمل أمرين:

(١) سورة الاعراف آية: ٩٤.

(٢) قائله لبيد بن ربيعة، ديوانه : ١٩ رقم القصيدة: ٣ فى المطبوعة (يعض السيف منا) و هو خطأ، لأن هذا البيت من قصيدة يفتخر بها فى كرمهم: يقول:

(٣) سورة البقرة آية: ١٨٧.

(٤) سورة الطلاق آية: ١.

ص: ٢١٥

أحدهما - «يبين» على قول الحسن. و الثانى - «يتفكرون» فى قول غيره.

و أجاز الزجاج الوجهين معاً.

و كيفية فكرهم فى الدنيا و الآخرة، قال قتادة: يتفكرون فى أن الدنيا دار بلاء، و فناء، و الآخرة دار جزاء و بقاء.

اللغة:

و قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى»، فهو جمع يتيم، و الفعل منه يتم بيتهم يتماً، كقولك : نكر نكراً. و حكى الفراء: يتم بيتهم يتماً، كشغل شغلاً.

و قوله: «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ» فالمخالطة: مجامعة يتعذر معها التمييز، كمخالطة الخل للماء، و الماء للماء و ما أشبه ذلك، تقول : خلط يخلط خلطاً، و خالطه خلطاً و مخالطه، و اختلاطاً، و تخالطوا تخالطاً، و خلطه تخليطاً، و تخلط تخلطاً. و أخلط الفرس: إذا قصّر في جريه . و استخلط الفحل : إذا خالط ثيله حياء الناقة «١» و الخلاط: الجنون، لاختلاط الأمور على صاحبه . و الخليطان: الشريكان، لاختلاط أموالهما. و الخليط: القوم أمرهم واحد. و الخلاط: داء في الجوف. و رجل خلط:

متحجب الى الناس، لطلبه الاختلاط بهم.

المعنى:

و معنى الآية الاذن لهم فيما كانوا متحرّجون منه من مخالطة الأيتام في الأموال : من المأكّل، و المشرب و المسكن، و نحو ذلك، فأذن الله لهم في ذلك إذا تحرّوا «٢» الإصلاح بالتوفير على الأيتام - في قول الحسن، و غيره- و هو المروى في أخبارنا.

الاعراب:

و قوله: «فإخوانكم» رفع على فهم «٣» إخوانكم خالطوهم أو لم تخالطوهم،

(١) في المطبوعة (ثيله حال الناقة) و هو تصحيف.

(٢) في المطبوعة (إذا انحروا) و هو تصحيف.

(٣) في المطبوعة (فهو).

ص: ٢١٦

و قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا» «١» نصب على فصلوا «٢» و هو حال الصلاة خاصة لا حال معنى فأنتم رجال أو ركبان، كيف تصرفتم الحال . و يجوز- في العربية- إخوانكم على النصب على تقدير: إخوانكم تخالطون، و الوجه الرفع، لما بيناه.

اللغة:

و قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ» معناه: التذكير بالنعمة في التوسعة على ما توجبه الحكمة مع القدرة على التضييق الذي فيه أعظم المشقة، و الاعنات: الحمل على مشقة لا تطاق فعلاً. و عنت العظم عنتاً إذا أصابه وهن أو كسر، و أعنته إعناتاً إذا عسفه «٣» بالحمل على مكروه لا يطيقه. و عنت عنتاً إذا اكتسب مأثماً، و تعنته تعنتاً إذ لبس عليه في سؤاله له. و الاكمة العنوت: هي الطويلة من الآكام، و أصل الباب المشقة.

المعنى:

و قال البلخي: في هذه الآية دلالة على فساد قول من قال: إنه تعالى لا يقدر على الظلم، لأن الاعنات - بتكليف ما لا يجوز في الحكمة - مقدور له، إذ لو يشاء لفعله.

و قال الجبائي: لو أعتنتم لكان جائزاً حسناً، لكنه تعالى وسع على العباد، لما في التوسعة من تعجيل النعمة . و في الآية دلالة على بطلان قول المجبر «٤» في البذل، و تكليف ما لا يطاق، أما البذل، فلأنهم يذهبون الى النهي عن الكفر الموجود في حالة بأن يكون الايمان بدلا منه، و هذا أعظم ما يكون من الاعنات، لأنه أمر له «٥» بالمحال، و هو ليكن منك الايمان بدلا من الكفر الموجود في

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٩.

(٢) في المطبوعة «فضلوا» بتشد الضاد.

(٣) عسفه: ظلمه، و العسف الظلم.

(٤) في المطبوعة (بطلان) ساقطة.

(٥) في المطبوعة (أمر) ساقطة.

ص: ٢١٧

الحال، و كذلك النهي فيما لم يكن منك ما هو كائن من الكفر الموجود في الحال كل ذلك محال، و كذلك الأمر بالايمان، من لم يقدر على الايمان، فإذا لم يفعله عُدَّ بأشد العذاب، و إذا لم يكلف من الممكن ما فيه مشقة و شدة، للمظاهرة على عباده بالنعمة، لم يجز أن يكلف ما ليس عليه قدره، لأنه أسوء تناقض المظاهرة بالنعمة.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» أى يفعل بعزته ما يحب، لا يدفعه عنه دافع.

«حكيم» ذو حكمة فيما أمركم به من أمر اليتامى و غيره.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢١]

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنَ آيَاتِهِ لِلَّذِينَ اسْلَفُوا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

آية واحدة.

اللغة:

نكح ينكح نكحاً و نكاحاً: إذا تزوج، و أنكح غيره إنكاحاً، إذا زوجه و تناكحوا تناكحاً، و ناكحه مناكحة قال الأعشى:

و لا تقربن جارة إن سرّها عليك حرام فانكحن أو تأبدا¹»

أى تعفف و أصل الباب التزويج.

المعنى:

و هذه الآية على عمومها - عندنا - فى تحريم مناكحة الكفار، و ليست منسوخة و لا مخصوصة . و قال ابن عباس فى رواية شهر بن حوشب عنه قال: فرق

(١) ديوانه: ١٣٧ رقم القصيدة ١٧. التأبد: التعزب أبداً و هو الابتعاد عن النساء.

يقول: لا تتزوج جارتك و تزوج غيرها أو استعفف و لا تقترب من النساء.

ص: ٢١٨

عمر بين «١» طلحة و حذيفة و بين امرأتهما اللتين كانتا عندهما «٢» و قال غيره عن ابن عباس، و إليه ذهب الحسن، و مجاهد و الربيع: هى عامة إلا أنها نسخت بقوله:

«وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، و قال قتادة، و سعيد بن جبیر: هى على الخصوص. و إنما اختير ما قلناه لأنه لا دليل على نسخها، و لا على خصوصها، و سنبين وجه الآية فى المائدة إذا انتهينا إليها.

فأما المجوسية، فلا يجوز نكاحها إجماعاً. و الذى لا يجوز: أن يتزوج مسلمة إجماعاً، و إمرأاً و اجباراً «٣».

و قوله «وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» فالأمة: المملوكة. يقال أقرت بالأموة أى بالعبودية و أميت فلانة، و تأميتها إذا جعلتها أمة قال الراجز:

و جمع أمة إماء و آم و أصل أمة فعلة بدلالة قولهم إماء و آم في الجمع نحو أكمة و آكام و آكم . و الفرق بين (و لو أعجبكم) و بين إن أعجبكم : أن لو للماضي و إن للمستقبل و كلاهما يصح في معنى الآية، و لا يجوز نكاح الوثنية إجماعاً، لأنها تدعو الى النار كما حكاها الله تعالى، و هذه العلة بعينها قائمة في الذمية من اليهودية و النصرانية، فيجب أن لا يجوز نكاحها. و في الآية دلالة على جواز نكاح الأمة المؤمنة مع وجود الطول، لقوله «وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» فأما الآية التي في النساء، و هي قوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً» «٥» فإنما هي على التنزيه دون التحريم، و متى أسلم الزوجان معاً ثبتا على النكاح - بلا خلاف - و به قال الحسن. و إن أسلمت قبله طرفة عين، فقد وقعت الفرقة - عند الحسن،

(١) في المطبوعة (عمر بن طلحة) و هو تحريف.

(٢) في المطبوعة (و حذيفة و امرأتها اللتين كانتا عنهما أبيين) و هو تحريف فاحش.

(٣) هكذا في الأصل و لم أجد لها مخرجاً، مقطوعاً به، و لعلها : اجماعاً و قولاً و أخباراً أى اجماعاً على الفتوى، و أقوال المفسرين و الأخبار المأثورة.

(٤) قائله رؤية. اللسان (أما) في المطبوعة (ترضون) بدل (يرضون).

(٥) سورة النساء آية: ٢٤.

ص: ٢١٩

و كثير من الفقهاء، و عندنا ينتظر دعتها فان أسلم الزوج بنينا أن الفرقة لم تحصل، و رجعت إليه، و إن لم يسلم بنينا أن الفرقة وقعت حين الإسلام غير أنه لا يمكن من الخلو بها . فان أسلم الزوج و كانت ذمية استباح وطؤها بلا خلاف . و إن كانت وثنية انتظر إسلامها ما دامت في العدة، فان أسلمت ثبت عقده عليها، و إن لم تسلم بانت منه.

فان قيل: كيف قيل للكافر الموحد مشرك! قيل فيه قولان:

أحدهما - أن كفره نعمة الله بمنزلة الاشراك في العبادة في عظم الجرم.

و الآخر ذكره الزجاج - و هو الأقوى -، لأنه إذا كفر بالنبي (ص) فقد أشرك فيما لا يكون إلا من عند الله، و هو القرآن بزعمه أنه من عند غيره.

و قوله «بإذنه» معناه أحد أمرين: أحدهما - بإعلامه. و الآخر - بأمره، و هو قول الحسن، و أبى على و غيرهما.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٢]

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)

آية واحدة.

القرءاء:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (حتى يطهرن) بتشديد الطاء و الهاء. الباقرن بالتخفيف.

المعنى:

قيل: إنما سألوا عن المحيض، لأنهم كانوا على تجنب أمور : من مأكلة الحائض، و مشاربتها حتى كانوا لا يجالسونها في بيت واحد، فاستعلموا ذلك،

ص: ٢٢٠

أ واجب هو أم لا؟ في قول قتادة، و الربيع، و الحسن، و قال مجاهد : كانوا على استجارة إتيانهم في الأدبار أيام الحيض، فلما سألوا عنه، بين تحريمه، و الأول - عندنا - أقوى.

اللغة:

و المحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً و محيضاً، فهي حائض . و المرة حيضة «١» و جمعه حيض و حيضات. و نساء حيض. و المستحاضة: التي عليها الدم فلا رواق «٢» و أصل الباب الحيض: مجيء الدم لأنثى على عادة معروفة.

أحكام الحيض، و الاستحاضة:

و صفة الحيض: هو الدم الغليظ الأسود الذى يخرج بحرارة . و أقل الحيض ثلاثة أيام، و أكثره عشرة، و هو قول الحسن، و أهل العراق. و قال الشافعى، و أكثر أهل المدينة: أقل الحيض يوم و ليلة، و أكثره خمسة عشر يوماً . و حكى أن قوماً قالوا: ليس له وقت محدود: إنما هو ما رأت دم الحيض. و أقل الطهر عشرة أيام، و خالف الجميع و قالوا: خمسة عشر يوماً. و الاستحاضة: دم رقيق أصفر بارد.

و حكم الاستحاضة حكم الطهر في جميع الأحكام إلا في تجديد الوضوء - عند كل صلاة - و وجوب الغسل عليها على بعض الوجوه - عندنا -.

و قوله: «أذى» معناه: قذر و نجس - في قول قتادة و السدى -.

و قوله: «فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ» معناه: اجتنبوا الجماع في الفرج، و به قال ابن عباس، و عائشة، و الحسن، و قتادة، و مجاهد. و ما فوق المثزراً و دونه، عن شريح، و سعيد بن المسيب . و عندنا: لا يحرم منها غير موضع الدم فقط . و من وطئ الحائض في أول الحيض، كان عليه دينار، و إن كان في وسطه، فنصف دينار، و في آخره ربع دينار . و قال ابن عباس: عليه دينار، و لم يفصل. و قال الحسن:

يلزمه رقبة أو بدنة أو عشرون صاعاً.

(١) في المطبوعة (و المرأة حيضة) و هو تصحيف.

(٢) هكذا في المطبوعة.

ص: ٢٢١

اللغة:

و يقال: عزله يعزله عزلاً، و اعتزل اعتزالاً، و عزله تعزلاً . و الأعزل: الذي لا سلاح معه . و عزلاً المزايدة: مخرج الماء من أحد جوانبها، و الجمع عزال. و كل شيء نحيته عن موضع، فقد عزلته عنه، و منه عزل الوالى . و أنت عن هذا بمعزل: أى منتحى. و الأعزل من السماكين: الذى نزل به القمر. و المعزال من الناس: الذى لا ينزل مع القوم فى السفر، لكنه ينزل ناحية، و أصل الباب الاعتزال، و هو التنحى عن الشيء.

المعنى:

و قوله: «حَتَّى يَطْهُرَنَّ» بالتخفيف معناه: ينقطع الدم عنهن. و بالتشديد معناه: يغتسلن - فى قول الحسن، و الفراء - و قال مجاهد، و طاوس: معنى تطهرن:

توضأن، و هو مذهبنا.

و الفرق بين (طهرت) و (طهرت) أن فعل لا يتعدى، لأن ما كان على هذا البناء لا يتعدى، و لى س كذلك فعل . و من قرأ بالتشديد قال: كان أصله «يتطهرن» فأدغمت التاء فى الطاء.

و عندنا يجوز وطئ المرأة إذا انقطع دمها، و طهرت و إن لم تغتسل إذا غسلت فرجها . و فيه خلاف، فمن قال : لا يجوز وطؤها إلا بعد الطهر من الدم، و الاغتسال:

تعلق بالقراءة بالتشديد، فإنها تفيد الاغتسال، و من قال : يجوز، تعلق بالقراءة بالتخفيف و أنها لا تفيد الاغتسال . و هو الصحيح . و يمكن في قراءة التشديد أن تحمل على أن المراد به توضأً على ما حكيناه عن طاوس، و غيره . و من استعمل قراءة التشديد يحتاج أن يحذف القراءة بالتخفيف أو يقدر: محذوفاً تقديره حتى يطهرن و يتطهرن، و على ما قلناه لا يحتاج اليه.

و قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» معناه: اغتسلنا، و على ما قلناه: حتى يتوضأن.

و قوله: «فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» صورته صورة الأمر، و معناه

ص: ٢٢٢

الاباحة، كقوله: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» «١» «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا» «٢» و قوله: مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ؟ معناه من حيث أَمَرَكُمُ اللَّهُ بتجنبه في حال الحيض، و هو الفرج، على قول ابن عباس، و مجاهد، و قتادة، و الربيع . و قال السدي، و الضحاك: من قبل الطهر دون الحيض . و عن ابن الحنفية من قبل النكاح دون الفجور، و الأول أليق بالظاهر . و يحتمل أن يكون من حيث أباح الله لكم دون ما حرمه عليكم من إتيانها و هي صائمه أو محرمة أو معتكفة، ذكره الزجاج . و قال الفراء: لو أراد الفرج لقال في حيث، فلما قال: «من حيث» علمنا أنه أراد من الجهة الذي أَمَرَكُمُ اللَّهُ بها.

و قال غيره: إنما قال: «من حيث» و لم يقل في حيث، لأن (من) لا ابتداء الغاية في الفعل، نحو قولك: أتت زيدا من مأتاه أي من الوجه الذي يؤتى منه.

و قوله: «يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» قال عطا: المتطهرين بالماء . و قال مجاهد: المتطهرين من الذنوب، و الأول مروي في سبب نزول هذه الآية، و المعنى يتناول الأمرين . و إنما قال: «المتطهرين» و لم يقل المتطهرات، لأن المؤنث يدخل في المذكر، لتغليبها عليه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٣]

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

آية واحدة بلا خلاف.

قيل في معنى قوله: «حَرْثٌ لَكُمْ» قولان:

أحدهما - أن معناه: مزرع أولادكم، كأنه قيل: محترث لكم، في قول ابن عباس، و السدي، و إنما الحرث: الزرع في الأصل.

و القول الثانى: نساؤكم ذو حرث لكم، فأتوا موضع حرثكم أنى شئتم،

(١) سورة المائدة آية: ٣.

(٢) سورة الجمعة آية: ١٠.

ص: ٢٢٣

ذكره الزجاج. و قيل: الحرث كناية عن النكاح على وجه التشبيه.

و قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ» معناه: من أين شئتم - فى قول قتادة، و الربيع - و قال مجاهد: معناه كيف شئتم. و قال الضحاك معناه متى شئتم، و هذا خطأ عند جميع المفسرين، و أهل اللغة، لأن (أنى) لا يكون إلا بمعنى من أين، كما قال:

«أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (١). و قال بعضهم: معناه من أى وجه و استشهد بقول الكميت بن زيد:

أنى و من أين أبك الطرب من حيث لا صبوة و لا ريب «2»

و هذا لا شاهد فيه، لأنه يجوز أن يكون أتى به، لاختلاف اللفظين، كما يقولون: متى كان هذا و أى وقت كان، و يجوز أن يكون بمعنى كيف. و تأول مالك، فقال: «أَنَّى شِئْتُمْ» تفيد جواز الإتيان فى الدبر، و رواه عن نافع عن أبى عمرو، و حكاه زيد بن أسلم عن محمد بن المنكدر، و روى من طرق جماعة عن ابن عمر، و به قال أكثر أصحابنا، و خالف فى ذلك جميع الفقهاء، و المفسرين، و قالوا: هذا لا يجوز من وجوه:

أحدها - أن الدبر ليس بحرث، لأنه لا يكون فيه الولد. و هذا ليس بشىء لأنه لا يمتنع أن تسمى النساء حرثاً، لأنه يكون منهنّ الولد، ثم يبيح الوطء فيما لا يكون منه الولد، يدل على ذلك أنه لا خلاف أنه يجوز الوطء بين الفخذين و إن لم يكن هناك ولد.

و ثانيها - قالوا: قال الله: «فَاتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» و هو الفرج، و الإجماع على أن الآية الثانية ليست بنسخة للأولى. و هذا أيضاً لا دلالة فيه، لأن قوله: «مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» معناه: من حيث أباح الله لكم، أو من الجهة التى شرعها لكم، على ما حكيناه عن الزجاج، و يدخل فى ذلك الموضعان معاً.

(١) سورة آل عمران آية: ٣٧.

(٢) الهاشميات: ٤١. قوله (آبك) معترضة بين كلامين، كما تقول: (ويحك) و هي بمعنى ويلك. وقيل: أن آبك بمعنى راجعك الطرب.

ص: ٢٢٤

و ثالثها - قالوا: إن معناه: من أين شئتم: أى ائتوا الفرج من أين شئتم، وليس فى ذلك إباحة لغير الفرج . وهذا أيضاً ضعيف، لأننا لا نسلم أن معناه الفرج، بل عندنا معناه: ائتوا النساء، أو ائتوا الحرث من أين شئتم، و يدخل فيه جميع ذلك.

و رابعها - قالوا: قوله فى المحيض (قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) فإذا حرم للآذى فى الدم، و الأذى بالنجو أعظم منه. و هذا أيضاً ليس بشيء، لأن هذا حمل الشيء على غيره من غير علة، على أنه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله:

«قُلْ هُوَ أَذَىٰ» غير النجاسة، بل المراد أن فى ذلك مفسدة، و لا يجوز أن يحمل على غيره إلا بدليل يوجب العلم على أن الآذى بمعنى النجاسة حاصل فى البول، و دم الاستحاضة و مع هذا، فليس بمنهى عن الوطء فى الفرج.

و يقال: أن هذه الآية نزلت رداً على اليهود، و أن الرجل إذا أتى المرأة من خلف فى قبلها خرج الولد أحول، فأكذبهم الله فى ذلك، ذكره ابن عباس، و جابر، و رواه أيضاً أصحابنا. و قال الحسن: أنكر اليهود إتيان المرأة قائمة، و باركة، فأنزل الله إباحته بعد أن يكون فى الفرج، و هو السبب الذى روى، و لا يمنع أن يكون ما ذكرناه مباحاً، لأن غاية ما فى السبب أن تطابقه الآية، فأما أن لا تتعدها، فلا يجب عند أكثر المحصلين «١».

و قوله: «وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ» أى قدموا الأعمال الصالحة التى أمر الله بها عباده، و رغبهم فيها، فتكون ذخراً عند الله.

و وجه اتصال قوله: «وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ» بما قبله: أنه لما قدم الأمر بعد أشياء قيل: «قَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ» بالطاعة فيما أمرتم به، و اتقوا مجاوزة الحد فيما بين لكم، و فى ذلك الحث على العمل بالواجب الذى عرفوه، و التحذير من مخالفة ما ألزموه.

و قوله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» فالبشارة: الدلالة على ما يظهر به السرور فى

(١) فى المطبوعة (المحطين).

ص: ٢٢٥

بشر الوجه.

و قوله: «أَنكُمْ مُلَاقُوهُ» أى اتقوا من معاصيه التى نهاكم عنها، و اتقوا عذابه، و اعلموا أنكم ملاقوا عذابه إن عصيتموه، و ملاقوا ثوابه إن أطعتموه، و إنما أضافه اليه على ضرب من المجاز، كما يقول القائل لغيره : ستلقى ما عملت، و إنما يريد جزاء ما عملت، فيسمى الجزاء باسم الشيء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٤]

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

قيل فى معنى قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ» ثلاثة أقوال:

أحدها - أن العرضة: علة، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله علة مانعة من البرّ، والتقوى : من حيث تتعمدوا، لتعتلوا بها، و تقولوا : قد حلفنا بالله، و لم تحلفوا به، هذا قول الحسن، وطاوس، و قتادة، و أصله - فى هذا الوجه - الاعتراض به بينكم و بين البرّ و التقوى، للامتناع منهما، لأنه قد يكون المعارض بين الشئيين مانعاً من وصول أحدهما الى الآخر، فالعلة مانعة كهذا المعارض . و قيل: العرضة:

المعارض، قال الشاعر:

لا تجعلينى عرضة اللوائم

الثانى - «عرضة»: حجة، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله حجة فى المنع «أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا» بأن تكونوا قد سلف منكم يمين ثم يظهر أن غيرها خير منها، فافعلوا الذى هو خير، و لا تحتجوا بما سلف من اليمين، و هو قول ابن عباس، و مجاهد، و الربيع، و الأصل فى هذا القول و الأول واحد، لأنه منع من جهة الاعتراض بعلة أو حجة . و قال بعضهم: إن أصل عرضة: قوة، فكأنه قيل: و لا تجعلوا الحلف بالله قوة لإيمانكم فى ألا تَبَرُّوا و أنشد لكعب بن زهير:

ص: ٢٢٦

عُرْضَتَهَا طامس الاعلام مجهول «1»

من كل نضّاحة الذّفرى إذا عرقت

و على هذا يكون الأصل العرض، لأن بالقوة يتصرف فى العرض و الطول، فالقوة: عرضة لذلك.

الثالث - بمعنى:

و لا تجعلوا اليمين بالله مبتذلة في كل حق و باطل، لأن تبرّوا في الحلف بها، و اتقوا المآثم فيها، و هو المروى عن عائشة، لأنها قالت:

لا تحلفوا به و إن بررتم، و به قال الجبائي، و هو المروى عن أئمتنا (ع)

و أصله على هذا معترض بالبذل: لا تبذل يمينك في كل حق و باطل. فأما في الأصل، فمعترض بالمنع أى لا يعترض بها مانعاً من البرّ، و التقوى، فتقدير الأول : لا تجعل الله مانعاً من البرّ و التقوى باعتراضك به حالفاً، و تقدير الثاني : لا تجعل الله مما تحلف به دائماً باعتراضك بالحلف في كل حق و باطل، لأن تكون من البرّة، و الأتقياء.

اللغة:

و اليمين، و القسم، و الحلف واحد. و اليمينية: ضرب من برود اليمن. و أخذ يمينه، و يسره. و يُمن يمين يميناً، فهو ميمون. و يمن، فهو ميمن: إذا أتى باليمن، و البركة. و تيمن به تيمناً، و تيامن تيامناً. و اليمين خلاف الشمال، و أصل الباب اليمن، و البركة.

المعنى:

و قوله: «أن تبروا» قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - «أن تبروا»: لأن تبروا على معنى الأتبات.

الثاني - أن يكون على معنى لدفع أن تبروا، أو لترك أن تبروا- في قول

(١) ديوانه: ٩، و اللسان (عرض). نضح الرجل بالعرق نضحاً: نض به حتى سال سيلاً، و نضاحه: شديدة النضح. و الذفرى: الموضع الذى يعرق خلف الاذن، و هو من كل حيوان حتى الإنسان و هو العظم الشاخص خلف الاذن. و الطامس: الدارس الذى أمحى أثره. و الاعلام:

أعلام الطريق. و أرض مجهولة. إذا كان لا أعلام فيها و لا جبال. يقول: إذا نزلت هذه المجاهل، عرقت حينئذ قوتها و شدتها و صبرها على العطش و السير فى الملوات.

ص: ٢٢٧

أبى العباس.

الثالث - على تقدير: آلّا تبروا، و حذفت (لا) لأنه فى معنى القسم كما قال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً
و لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى «1»

أى لا أبرح، هذا قول أبى عبيد، و أنكر أبو العباس هذا، لأنه لما كان معه (أن)، بطل أن يكون جواباً للقسم، و إنما يجوز (و الله أقم فى القسم بمعنى لا أقوم، لأنه لو كان إثباتاً، لقال لأقومن، باللام و النون. و المعنى فى قول أبى العباس، و أبى عبيد واحد، و التقدير مختلف، فحمله أبو العباس على ما له نظير من حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و أنكر قياسه على ما يشبهه.

الاعراب:

و فى موضع أن تبروا ثلاثة أقوال:

قال الخليل، و الكسائى: موضعه الخفض بحذف اللام مع أن خاصة.

الثانى - قال سيبويه، و أكثر النحويين: إن موضعه نصب، لأنه لما حذف المضاف وصل الفعل و هو القياس.

الثالث - قال قوم: موضعه الرفع على «أَنْ تَبْرُوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ» أولى، و حذف، لأنه معلوم المعنى، أجاز ذلك الزجاج و إنما حذف اللام جاز مع (أن)، و لم يجز مع المصدر، لأن (أن) يصلح معها الماضى، و المستقبل، نحو قولك جئتك أن ضربت زيدا، و جئتك أن تضرب زيدا، و المصدر ليس كذلك، كقولك: جئتك لضرب زيد، فمعنى ذلك: أنه لما وصل بالفعل، احتمل الحذف كما يحتمل (الذى) و إذا وصل بالفعل من حذف ضمير المفعول، ما لا يحتمله الألف و اللام إذا وصل بالاسم، نحو الذى ضربت زيد: يريد ضربته. فأما الضاربة أنا زيد، فلا يحسن إلا بالهاء، و ذلك لأن الفعل أثقل، فهو بالحذف أولى . و يجوز أن

(١) ديوانه: ١٤١.

ص: ٢٢٨

يكون لما صلح للأمرين كثير فى الاستعمال، فكان بالحذف أولى مما قل منه.

و قال الزجاج إنما جاز حذف اللام مع (أن)، و لم يجز مع المصدر، لأن (أن) إذا وصلت، دل بما بعدها على الاستقبال، و المعنى تقول: جئتك أن ضربت زيدا، و جئتك أن تضرب زيدا، فلذلك جاز حذف اللام، فإذا قلت. جئتك ضرب زيد، لم يدل الضرب على مضى و لا استقبال.

المعنى:

فإذا حلف لا يعطى من معروفه، ثم رأى أن برّه خيراً، أعطاه، ونقض يمينه . و عندنا لا كفارة عليه، وإنما جاز ذلك، لأنه لا يخلو من أن يكون حلف يميناً جائزة أو غير جائزة، فان كانت جائزة، فهي مقيدة بأن لا يرى ما هو خير، فليس فى هذا مناقضة للجائزة، وإن كانت غير جائزة، فنقضها غير مكروه.

و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» معناه: أنه سميع ليمينه، عليم بنيته فيه، و فى ذلك تذكير، و تحذير.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٥]

لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)
آية.

المعنى:

اختلفوا فى يمين اللغو فى هذه الآية، فقال ابن عباس، و عائشة، و الشعبي:

هو ما يجرى على عادة اللسان: من لا و الله، و بلى و الله من غير عقد على يمين يقتطع بها مال، يظلم بها أحد، و هو المروى عن أبى جعفر، و أبى عبد الله (ع).

و قال الحسن، و مجاهد، و ابراهيم: هى يمين الظان، و هو يرى أنه حلف، فلا إثم عليه، و لا كفارة . روى أيضاً عن ابن عباس، و طاوس: أنها يمين الغضبان، لا يؤخذ بالحنث فيها، و يقال سعيد بن جبير، إلا أنه أوجب فيها الكفارة . و قال مسروق

ص: ٢٢٩

كل يمين ليس له الوفاء بها، فهي لغو و لا يجب فيها كفارة . و قال الضحاك: روى أيضاً عن ابن عباس: أن لغو اليمين ما يجب فيه الكفارة. و روى عن إبراهيم: أنها يمين الناسى إذا حنث. و قال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصرى، أو أهلك الله مالى، فيدعو على نفسه.

اللغة:

و أصل اللغو: هو الكلام الذى لا فائدة فيه، و كل يمين جرت مجرى مالا فائدة فيه حتى صارت بمنزلة ما لم يقع، فهي لغو، و لا شىء فيها، و هو اختيار الرماني. تقول: لغا يلغو لغواً: إذا أنى بكلام . و ألغى إلغاء: إذا أطرَح الكلام، لأنه لا فائدة فيه. و قوله: «وَاللَّغْوُ فِيهِ» معناه: ارفعوا الصوت بكلام لا فائدة فيه. و الحساب الذى يلغى: أى يطرح، لأنه بمنزلة كلام لا فائدة فيه.

و لاغية: كلمة قبيحة فاحشة، و منه اللغا، لأنها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله، و هو مشتق من لغا الطائر، و هو منطقته، و قال ابن صغير المازني:

قبل الصباح و قبل لغو الطائر «1»

باكرتم بسباء جون ذارع

المعنى:

الأيمان على ضربين: أحدهما لا كفارة فيها. و الثاني - يجب فيها الكفارة، فما لا كفارة فيه: هو اليمين على الماضي إذا كان كاذباً فيه، مثل أن يحلف أنه ما فعل، و كان فعل أو «٢» أن يحلف أنه فعل، و ما كان فعل، فهاتان لا كفارة فيهما - عندنا - و كذلك إذا حلف على مال، ليقطعه كاذباً، فلا كفارة عليه، و يلزمه الخروج مما حلف عليه، و التوبة، و هي اليمين الغموس، و في هذه أيضاً خلاف، و منها أن يحلف على أمر فعل، أو ترك، و كان خلاف ما حلف عليه أولى

(١) اللسان (لغا) في المطبوعة (بسبأ) بدل (بساء) و (الصباح) بدل (الصباح) و (رزاع) بدل (ذارع) و كل ذلك تحريف، باكرتم بسباء: أى بشرب الخمرة.

(٢) في المطبوعة (أو) ساقطة.

ص: ٢٣٠

من المقام عليه، فليخالف، و لا كفارة عليه - عندنا - و فيه خلاف عند أكثر الفقهاء.

و ما فيه كفارة، فهو أن يحلف على أن يفعل، أو يترك و كان الوفاء به إما واجباً أو ندباً أو كان فعله، و تركه سواء، فمتى خالف كان عليه الكفارة، و قد بينا أمثلة ذلك في النهاية في الفقه. و قال الحسن: الأيمان على ثلاثة أقسام: منها أن يحلف على أمر، و هو يرى أنه على ما حلف، فهذا هو اللغو، لا عقوبة فيه، و لا كفارة.

و منها: أن يحلف على أمر، و هو يعلم أنه كاذب، فهذا آثم فاجر عليه التوبة، و لا كفارة عليه . و منها أن يحلف: لا يفعل كذا، ففعل، أو يحلف: ليفعل، و لا يفعل، ففي ذلك الكفارة. و كان يقول: إذا حلف على مملوك، أو على حر، فقال:

و الله لتأكلن من هذا الطعام، فلم يأكل، فعليه الكفارة . و قال: اليمين على أربعة أوجه - في قول أكثر الفقهاء: اثنتان: لا كفارة فيها، و اثنتان: فيها الكفارة، فالأول - قول الرجل: و الله ما فعلت، و قد فعل، و قوله: و الله لقد فعلت، و ما فعل، فهاتان لا كفارة فيهما، لأنه لا حنث فيهما . و الثاني - قول الحالف: و الله لا فعلت، ثم يفعل . و قوله: و الله لأفعلن، ثم لا يفعل، فهاتان فيهما الكفارة. و قد بينا الخلاف في خلاف الفقهاء.

اللغة:

و الفرق بين اللغا، و اللغو، أن اللغا: الذكر بالكلام القبيح. لغيت ألغى لغاً، قال العجاج:

و ربّ أسراب حجيج كظّم
عن اللغا و رفت التكلم «1»

و جواب اليمين على أربعة أقسام: اللام، و ما، و إنّ، و لا، نحو: و الله لاّ تينك، و الله ما فعلت، و و الله إنه لكاذب، و و الله لا كلمته.

و قوله: «و الله غفورٌ حلِيمٌ» فالحلم الامهال بتأخير العقاب «٢» على الذنب، تقول: حلم حلماً، و تحلم تحلماً، و حلمه تحليماً. و حلم فى نومه حلماً: إذا رأى

(١) مر تخريجه فى ٢: ١٣٢.

(٢) فى المطبوعة (العقل).

ص: ٢٣١

الأحلام، و منه «أضغاث أحلام» «١». و الحلم الرؤيا فى النوم، و منه الاحتمام.

و الحلم: ما عظم من القردان، و الواحد حلمة، لأنه كحلمة «٢» الثدى، و حلمة الثدى، لأنها تحلم المرتضع . و الحلمة: شجرة السعدان، و هى من أفضل المرعى.

و تحلمت الضباب: إذا سمت لأنه يكسبها دعة كدعة الحلم. و الحلام: الجدى، و أصل الباب الحلم: الأناة. و أما حلم الأديم إذا نغل «٣» فلأنه وقع فيه الحلم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٦]

لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)

آية واحدة بلا خلاف.

اللغة:

قوله: «يؤلون» معناه: يحلفون - بلا خلاف بين أهل التأويل - وهو المروى عن سعيد بن المسيب وهو مأخوذ من الألية قال الشاعر:

كفينا من تغيب من نزار
و أحنتنا إلية مقسمينا «4»

و يقال: ألى الرجل - من امرأته - يؤلى إيلاء، و ألية، و ألوة، و هو الحلف قال الأعشى:

إنى أليت على حلفة
و لم أقلها سحر الساحر «5»

و جمع ألية: ألايا، و أليات، كعشبة، و عشايا، و عشيات، فأما جمع ألوة، فألايا، كركوبة و ركائب، و جمع ألية : ألاء كصحيفة، و صحائف، و منه اتتلى يأتلى

(١) سورة يوسف آية: ٤٤.

(٢) فى المطبوعة (كجمله).

(٣) حلم - بفتح الحاء و كسر اللام - و نعل الأديم: فسد فى دباغته.

(٤) تفسير الطبرى ٤: ٤٥٦، و روايته (فى تراب) بدل (من نزار) و فى مجمع البيان طبع صيدا ١: ٣٣٢ (من نزار) كما ذكر الشيخ سواء. و قد اعترف محقق الطبرى أنه بدل (من) ب (فى) و كانت فى المخطوطة و المطبوعة عنده (من).

(٥) ديوانه: ١٤٣ رقم القصيدة: ١٨. و روايته

(و لم اقله عشر العاشر)

بدل

(و لم أقلها سحر الساحر).

ص: ٢٣٢

اثتلاء، و فى التنزيل «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ» ^١»، و تقول: لَا تَأْلُوا أَلْيَا، و أَلْو، نحو العتى، و العتو. و ما أَلَوْتَ جهداً، و لَا أَلَوْتَهُ نصحاً، أو غشاً، و منه قوله: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» ^٢»، و قال الشاعر:

نحن فصلنا جهدنا لم نأتله

أى لم نقصر. و أصل الباب التقصير، فمنه لَا يَأْلُوا جهداً، و منه الألية:

اليمين، لأنها لنفى التقصير. و عود أَلُو، و أَلُو: أجود العمود، لأنه خالص.

المعنى:

و الإيلاء فى الآية: المراد به: اعتزل النساء، و ترك جماعهن على وجه الإضرار بهن، و كأنه قيل: «لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ» أن يعتزلوا نساءهم (تَرْبِصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) منهم،

و اليمين التى يكون بها الرجل مؤلياً: هى اليمين بالله عزّ و جلّ، أو بشىء من صفاته التى لا يشركه فيها غيره، على وجه لا يقع موقع اللغو الذى لا فائدة فيه، و يكون الحلف على الامتناع من الجماع على جهة الغضب، و الضرار، و هو المروى عن على (ع)

، و ابن عباس، و الحسن. و قال ابراهيم، و ابن سيرين، و الشعبى: فى الغضب.

و قال سعيد بن المسيب: هو فى الجماع، و غيره من الضرار، نحو الحلف ألا يكلمها.

اللغة:

و التربص بالشىء انتظارك به خيراً، أو شراً يحل، و تقول: تربصت بالشىء تربصاً، و ربصت به ربصاً، و منه قوله: «فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ» ^٣» و «تَرَبَّصُ بِهِ رَبِيبُ الْمُنُونِ» ^٤» قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها

تطلق يوماً أو يموت حليلها»5»

و مالى على هذا الأمر ربصة: أى تلبث، و أصله الانتظار.

و قوله: «فَإِنْ فَأُوْ» معناه: فان رجعوا، و منه قوله:

(١) سورة النور آية: ٢٢.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٨.

(٣) سورة المؤمن آية: ٢٥.

(٤) سورة الطور آية: ٣٠.

(٥) اللسان (ربص) فى المطبوعة (خليلها) بدل (حليلها). و المعنى فيهما واحد.

ص: ٢٣٣

«حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» ١» أى ترجع من الخطأ الى الصواب . و الفرق بين الفىء و الظل: ما قال المبرد: إن الفىء ما نسخ الشمس، لأنه هو الراجع، و أما الظل: فما لا شمس فيه.

و كل فىء ظل، و ليس كل ظل فىء، و لذلك أهل الجنة فى ظل، لا فى فىء، لأنه لا شمس فيها، كما قال الله تعالى: «وَوَيْلٌ مَّمدُودٍ» ٢». و جمع الفىء أفياء، تقول:

فأف الفىء: إذا تحول عن جهة الغداة برجوع الشمس عنه . و تفيأت فى الشجر، و فيأت الشجرة . و الفىء: غنائم المشركين، أفاء الله علينا فيهم، لأنه من رجع الشيء الى حقه، و الفىء الرجوع عن الغضب. إن فلاناً لسريع الفىء من غضبه.

المعنى:

فان قيل: ما الذى يكون المولى به فايئاً؟ قيل - عندنا-: يكون فايئاً بأن يجامع، و به قال ابن عباس، و مسروق، و سعيد بن المسيب. و قال الحسن، و ابراهيم، و علقمة:

يكون فايئاً بالعزم في حال العذر إلّا أنه ينبغي أن يشهد على فيئه، وهذا يكون - عندنا - للمضطر الذي لا يقدر على الجماع، و يجب على الفايئ - عندنا - الكفارة، و به قال ابن عباس، و سعيد بن المسيب، و قتادة، و لا عقوبة عليه، و هو المروى عن أبي جعفر، و أبي عبد الله (ع).

و قال الحسن، و ابراهيم: لا كفارة عليه، لقوله: «فَإِنْ فَاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»: أى لا يتبعه بكفارة، و لا عقوبة.

الاعراب:

و يجوز في «تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» ثلاثة أوجه: الجر بالاضافة، و عليه جميع القراء . و يجوز النصب، و الرفع في العربية «تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» كما قال: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَ أَمْوَاتًا» «٣» أى يكفّتهم «٤» أحياء، و أمواتاً، و «تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» كقوله: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ» «٥»

(١) سورة الحجرات آية: ٩.

(٢) سورة الواقعة آية: ٣٠.

(٣) سورة المرسلات آية: ٢٥ - ٢٦.

(٤) في المطبوعة يكفّهم

(٥) سورة النور آية: ٦.

ص: ٢٣٤

و مثله (فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) «١». و إنما جعل اختصاص الإيلاء بحال الغضب، لأن مدة التربص جعل فسحة للمرأة في التخلص من المضارة، فإذا لم يكن ضرار لم يصح إيلاء . و من لم يخص بحال الغضب، حمّله على عموم الإيلاء، و هو الأقوى . و متى حلف بغير الله في الإيلاء، فلا تتعقد يمينه، و لا يكون مؤلياً.

و قال الجبائي: إذا حلف بما يلزمه فيه عزم، نحو الصدقة، أو الطلاق، أو العتاق، فهو إيلاء، و إلّا، فهو لغو، نحو قوله : و حياتك، و ما أشبهه. و قال الشافعي:

لا إيلاء إلا بالله، كما قلناه. و متى حلف ألا يجامع أقل من أربعة أشهر، لا يكون مؤلياً، لأن الإيلاء على أربعة أشهر، أو أكثر.

و متى حلف ألا يقربها، و هي مرضعة خوفاً من أن تحبل، فيضر ذلك بولدها، لا يلزمه حكم الإيلاء، و هو المروى عن علي (ع)

، و به قال الحسن، و ابن شهاب . و يجوز أن يكون فى الآية تقديم، و تأخير، و يكون تقديره «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ» «تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» «مِنْ نِسَائِهِمْ».

و يجوز أن يكون معناه: «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ» أجل «نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» كما تقول: غضبت لفلان: أى من أجل فلان . و إذا مضت أربعة أشهر لم تبين منه إلا بطلاق، و يلزمه الحاكم، إما الرجوع و الكفارة، و إما الطلاق، فان امتنع حبسه حتى يفىء، أو يطلق. و فيه خلاف.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٧]

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

آيه واحده.

المعنى:

عزيمة الطلاق فى الحكم - عندنا- أن يعزم، ثم يتلفظ بالطلاق، و متى لم يتلفظ بالطلاق بعد مضى أربعة أشهر، فان المرأة لا تبين منه إلا أن تستدعى، فان استدعت، ضرب الحاكم مدة أربعة أشهر ثم توقف بعد أربعة أشهر، فيقال له: فىء

(١) سورة المائدة آية: ٩٨.

ص: ٢٣٥

أو طلق، فان لم يفعل، حبسه حتى يطلق، و مثل هذا قال أهل المدينة غير أنهم قالوا:

متى امتنع من الطلاق و الفئته، طلق عنه الحاكم طلقة رجعية. و قال أهل العراق:

الإيلاء: أن يحلف ألا يجامعها أربعة أشهر فصاعداً، فإذا مضت أربعة أشهر فلم يقربها، بانت منه بتطليقه لا رجعة له عليها، و عليها عدة ثلاث حيض، يخطبها فى العدة، و لا يخطبها غيره، فان فاء قبل أربعة أشهر: أى إن جامع، كفر يمينه، و هى امرأته. و قال الحسن، و قتادة، و ابن مسعود، و ابراهيم، و ابن عباس، و حماد: هو مضى أربعة أشهر قبل أن يفىء من غير عذر.

اللغة:

و العزم: هو العقد على فعل شىء فى مستقبل الوقت . و العزم على الشىء هو إرادته له: إذا كانت مقدمة للفعل بأكثر من وقت واحد، و تكون متعلقة بفعل العازم، و لا يدخل بينهما، و بين الفعل سهو، و لا نسيان . يقال: عزم عزمًا: إذا عقد على أن يفعل الشىء، و اعترم اعترامًا. و عزمت عليك لتفعلن: أى أقسمت.

و عزم الراقى: كأنه أقسم على الداء. و رجل ماضى العزم: حاد فى أمره. و ما لفلان عزيمة: أى ما يثبت على أمر، لتلونه، و منه قوله: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» «١». و عزائم القرآن التى تقرأ على ذوى الآفات، لما يرجى من البرء بها.

و أصل الباب العزم على العقد على الشئ.

و الطلاق: حل عقدة النكاح بما يوجبها فى الشريعة. تقول: طلقت تطلق طلاقاً، فهى طالق - بلا علامة التأنيث، حكاه الزجاج. و قال قوم: لأنه يختص بالموث. قال الزجاج: هذا ليس بشئ، لأن فى الكلام شيئاً كثيراً يشتر ك فيه الموث، و المذكر - بلا علامة التأنيث - نحو قولهم: بعير ضامر، و ناقة ضامر، و بعير ساعل، و ناقة ساعل. و زعم سيبويه، و أصحابه: أن هذا واقع على لفظ التذكير صفة للموث، لأن المعنى: هى طالق حقيقة - عندهم - أنه على جهة

(١) سورة الأحقاف آية: ٣٥.

ص: ٢٣٦

النسب، نحو قولهم: امرأة مذكّر، و رجل مذكّر، و رجل مثنث، و امرأة مثنث، و معناه: ذات ذكران، و ذات أنث، و كذلك مطلق: ذات طفل، و كذلك طالق:

ذات طلاق. فان أجرته على الفعل قلت طالق، قال الشاعر:

أيا جارتا بينى فإنك طالق! كذاك أمور الناس غاد و طارقه «1»

تقول: طلقها، و تطلق تطلقاً، و أطلق إطلاقاً، و استطلق استطلاقاً، و انطلق انطلاقاً، و تطلقت المرأة عند الولادة، فهى مطلوقة إذا تمخضت. و الطلق:

الشوط من الجرى. و الطلق: قيد من قدّم أو عقب «٢» تقيد به الإبل. و رجل طلق الوجه: بهلول ضحاك. و يوم طلق إذا لم يكن فيه حرّ، و لا قرّ. و الطليق:

الأسير يخلى عنه و رجل طلق اليدين: سمح بالعطاء. و الطلق: الحبل الشديد الفتل، يقوم قيام. و أصل الباب الانطلاق، و الطلاق، لانطلاق المرأة فيه على عقدة النكاح.

المعنى:

و الطلاق بعد الإيلاء، و الايقاف يكون واحدة رجعية، و به قال سعيد بن المسيب، و ابن عمر . و قال الحسن و ابن مسعود، و ابن عباس: تكون بآئنة.

و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» فيه دلالة على الأخذ بالفىء أو الطلاق، لأنه بمعنى.

أن الله يسمع قوله، و يعلم ضميره. و قيل: بل هو راجع الى يسمع الإيلاء، و يعلم بنيته، و كلاهما يحتمل فى اللغة - على قول الزجاج - و حقيقة السميع: هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المسموعات إذا وجدت . و هو يرجع الى كونه حياً لا آفة به «٣». و السامع: هو المدرك. و الله تعالى يوصف بما لم يزل بأنه

(١) قائله الأعشى. ديوانه: ٢٦٣ رقم القصيدة: ٤١ و اللسان (طلق) قالها لأمرأته الهزانية حين فارقتها بينى : فارقى. غاد: يأتى غدوة فى الصباح. و الطارق: الذى يطرق أى يأتى ليلاً.

(٢) هكذا فى المطبوعة و فى اللسان (طلق) الطلق - بالتحريك - قيد من جلود، و الطلق - بالتحريك - قيد من آدم.

(٣) فى المطبوعة (لا حريه) بدل (حياً لا آفة به).

ص: ٢٣٧

سميع، و لا يوصف فيما لم يزل بأنه سامع، و إنما يوصف بأنه سامع إذا وجدت المسموعات . و إنما ذكر عقيب الأول «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لأنه لما أخبر عن المولى أنه يلزمه الفىء، أو الطلاق بين أنه إن فاء (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بأن يقبل رجوعه، و لا يتبعه بعقاب ما ارتكبه . و ذكر هاهنا أنه «سَمِيعٌ عَلِيمٌ» لما أخبر عنه بإيقاع الطلاق، و كان ذلك مما يسمع، أخبر أنه لا يخفى عليه، و أنه يسمعه، لأنه على صفة يوجب إدراكه لذلك، و أنه عالم ببيانه، فلا الذى ذكر فى الآية الأولى يليق بهذه الآية، و لا الذى ذكرها هنا يليق هناك، و ذلك من عظم فصاحة القرآن، و جلالة موقعه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٨]

و الْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

آية بلا خلاف.

المعنى:

القرء: الطهر - عندنا - و به قال زيد بن ثابت، و عائشة، و ابن عمر، و سالم، و أهل الحجاز . و روى عن ابن عباس، و ابن مسعود، و الحسن، و به قال أهل العراق،

و روه عن على (ع) أنه الحيض.

اللغة:

و أصل القرء يحتمل وجهين فى اللغة:

أحدهما - الاجتماع، فمنه قرأت القرآن، لاجتماع حروفه، و منه قولهم:

ص: ٢٣٨

ما قرأت الناقة سلًا قط: أى لم تجمع رحمها على ولد قط. قال عمرو بن كلثوم:

ذراعى عيطلٍ آدماء بكر
هجان اللون لم تقرأ جنيينا «1»

و منه أقرأت النجوم : إذا اجتمعت فى الأفول، فعلى هذا، يقال : أقرأت المرأة: إذا حاضت، فهى مقرئ، فى قول الأصمعى، و الأخفش، و الكسائى و الفراء، و أنشدوا له:

قروؤ كقروء الحائض

فتأويل ذلك: اجتماع الدم فى الرحم . و يجىء على هذا الأصل أن يكون القرء: الطهر، لاجتماع الدم فى جملة البدن، هذا قول الزجاج.

و الوجه الثانى - أن يكون أصل القرء: وقت الفعل الذى يجرى على آخر عادة، فى قول أبى عمرو بن العلاء، و قال : هو يصلح للحيض، و الطهر، يقال: هذا قارئ الرياح أى وقت هبوبها قال الشاعر:

سنت العقر عقر بنى شليل
إذا هبت لقارئها الرياح «2»

أى لوقت شدة بردها، و قال آخر:

رجا أياس أن تؤوب و لا أذى إياساً لقرؤ الغائبين يؤوب«3»

أى لحين الغائبين، فعلى هذا يكون القراء الحيض، لأنه وقت اجتماع الدم فى الرحم على العادة المعروفة فيه، و يكون الطهر، لأنه وقت ارتفاعه على عادة جارية فيه، قال الأعشى فى الطهر:

و فى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لاقصاها عزيزم عزائكا

(١) اللسان (عطل) (قرأ) و قد رواه الجوهري برواية أخرى و هى:

ذراعى عيطل أدماء بكر تربعت الأماعز و المتونا

و فى المطبوعة (اللوم) بدل (اللون) و هو تصحيف، و العيطل : طويل العنق من الإبل و غيرها . و الأدماء من الإبل البيضاء، و كذلك هجان اللون أى بيض اللون. و لم تقرأ جنينا: أى لم تجمع رحمها على جنين، و هو الولد.

(٢) قائله مالك ابن الحرث الهذلي، ديوان الهذليين ٣: ٨٣. و اللسان (قرأ) شنت:

أى كرهت، و العقر: اسم مكان. و شليل: هو جد جرير بن عبد الله البجلي.

(٣) لم أجد هذا البيت فيما حضرنى من المصادر.

و الذى ضاع هاهنا الاطهار، لأنه بعد غيبته، فيضيع بها طهر النساء، فلا يطأهن، و الوقت الجارى فى الفعل على عادة راجع الى معنى الاجتماع، و ذلك، لاجتماع الفعل مع الوقت الدائر، فالاجتماع أصل الباب . و أخذ القرء من الوقت ردأ له الى فرع، و كلا الأمرين يحتمل فى اللغة.

المعنى:

و من خفف الهمزة فى «قروء» قال: قرو، و ملئه «مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا» ^٢ و استشهد أهل العراق بأشياء يقوى أن المراد الحيض،

منها قوله (ع) فى مستحاضة سألته: دعى الصلاة أيام أقرأك.

و استشهد أهل المدينة بقوله: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» ^٣ أى طهر لم يجامع فيه كما يقال لغرة الشهر، و تأوله غيرهم : لاستقبال عدتهن، و هو الحيض.

فان قيل: لو كان المراد- فى الأقراء فى الآية- الاطهار، لوجب استيفاء الثلاثة أطهار بكمالها، كما أن من كانت عدتها بالأشهر، وجب عليها ثلاثة أشهر على الكمال، و قد أجمعنا على أنه- لو طلقها فى آخر يوم الطهر الذى ما قريبا فيه، لا يلزمها أكثر من طهرين آخرين، و ذلك دليل على فساد ما قلتموه! قلنا: تسمى القرآن الكاملان، و بعض الثالث ثلاثة أقراء، كما تسمى- الشهران و بعض الثالث-: ثلاثة أشهر قال الله تعالى: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ» ^٤ و إنما هى شوال، و ذى القعدة، و بعض من ذى الحجة. و روى عن عائشة أنها قالت: الأقراء الاطهار.

و قوله: «وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ» قيل فى معناه ثلاثة أقوال : أحدها- قال إبراهيم: الحيض. و ثانيها- قال قتادة: الحبل. و ثالثها-

(١) ديوانه: ٩١ رقم القصيدة: ١١ يمدح بها هوزة بن على الحنفى، و معنى البيتين:

لك فى كل عام غزوة، تجمع لها صبرك و جلدك، فتعود منها بالغنيمة و المجد الذى يعوضك عما عاينت من البعد عن نساءك.

(٢) سورة النساء آية: ١٠٩، ١٢٢.

(٣) سورة الطلاق آية: ١.

(٤) سورة البقرة آية: ١٩٧.

ص: ٢٤٠

قال ابن عمر، و الحسن: هو الحبل، و الحيض، و هو الأقوى لأنه أعم . و إنما لم يحل لهن الكتمان، لظلم الزوج بمنعه المراجعة -
فى قول ابن عباس - . و قال قتادة:

لنسبة الولد الى غيره، كفعل الجاهلية.

اللغة:

و إنما قال: «ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ» و لم يقل: ثلاثة أقرء على جمع القليل، لأنه لما كانت كل مطلقة يلزمها هذا، دخله معنى الكثرة فأتى
ببناء الكثرة، للاشعار بذلك، فالقروء كثيرة إلّا أنها ثلاثة فى القسمة . و وجه آخر - أن بناء الكثير فيه أغلب فى الاستعمال، لأنه
على قياس الباب فى جمع فعل الكثير، فأما القليل، فقياسه، أفعل دون أفعال، فصار بمنزلة ما لا يعتد به فجاء مجيئ قولهم:
ثلاثة شسوع، فاستغنى فيه ببناء الكثير عن القليل. و وجه ثالث - أن يذهب مذهب الجنس نحو قولهم:

ثلاثة كلاب يعنون ثلاثة من الكلاب إذا أريد رفع الإيهام.

المعنى:

و الشرط بقوله: «إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» معناه من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر، فهذه صفتها فيما يلزمه، لا أنه يلزم
المؤمن دون غيره . و خرج ذلك مخرج التهديد . «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ» يعنى أزواجهن أحق برجعتهن، و ذلك يختص
بالرجعيات و إن كان أول الآية عاماً فى جميع المطلقات الرجعية و البائنة.

و سُمى الزوج بعلًا، لأنه عال على المرأة بملكه لزوجيتها.

اللغة:

تقول: بعل يبعل بعولة، و هو بعل . و قوله «أَتَدْعُونَ بَعْلًا» «١» أى ربًّا، لأنه بمعنى من سميتموه باستعلاء الربوبية تخرصاً، و قيل
أنه صنم. و البعل النخل يشرب بعروقه، لأنه مستعل على شربه، و بعل الرجل بأمره إذا ضاق به ذرعاً،

(١) سورة الصافات آية: ١٢٥.

ص: ٢٤١

لأنه علاه منه ما ضاق به صدره . و بعل الرجل فى معنى بطر، لأنه استعلى معظمًا، و كبراً . و امرأة بعلة: لا تحسن لبس الثياب،
لأن الحيرة تستعلى عليها، فتدهشها.

و بعل الرجل يبعل بعلا إذا دهش دهشاً.

المعنى:

وقوله: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ» قال الضحاك: لهن من حسن العشرة بالمعروف على أزواجهن مثل ما عليهن من الطاعة فيما أوجبه الله عليهن لهم. وقال ابن عباس: لهن على أزواجهن من التصنع والتزين مثل ما لأزواجهن عليهن. وقال الطبري: لهن على أزواجهن ترك مضارتهن، كما أن عليهن لأزواجهن.

وقوله: «وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ» قيل معناه: فضيلة منها الطاعة، ومنها أن يملك التخلية، ومنها زيادة الميراث [على قسم] «١» المرأة، والجهد. هذا قول مجاهد، وفتادة. وقال ابن عباس: منزلة في الأخذ عليها بالفضل في المعاملة حتى قال: ما أحب أن استوفى منها جميع حقى، ليكون لى عليها الفضيلة.

اللغة:

وتقول: رجل بين الرجولة أى القوة، وهو أرجلها أى أقواهما، وفرس رجيل قوى على المشى. والرجل معروفة، لقوتها على المشى. ورجل من جراد أى قطعة منه تشبهاً بالرجل، لأنها قطعة من الجملة. والرجل الذى يمشى على رجله. وارتجل الكلام ارتجالاً، لأنه قوى عليه من غير ركوب فكرة، ولا روية. وترجل النهار، لأنه قوى ضياؤه بنزول الشمس الى الأرض. ورجل شعره إذا طوله، لأنه قوى بكثرتة من غير أن يركب بعضه بعضاً، فيقل فى رأى العين. والمرجل معروف.

و أصل الباب: القوة.

والدرجة: المنزلة، نقول: درجت الشىء أدرجه درجاً، وأدرجته إدراجاً، و درج القوم قرناً بعد قرن أى فنوا. وأدرجه الله إدراجاً، لأنه كطى الشىء

(١) ما بين القوسين من مجمع البيان، لأن الجملة لا تتم بدونه.

ص: ٢٤٢

بمنزلة بعد منزلة و الدرج سفيط للطيب، لأنه بمنزلة ما يدرج فيه. و مدرجة الطريق: قارعتة. و أصل الباب الطى، فالدرجة منزلة من منازل الطى، و منه الدرجة التى يرتقى فيها.

المعنى:

وقيل إن فى الآية نسخاً، لأن التى لم يدخل بها، لا عدة عليها بقوله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» الى قوله: «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا» «١» و لأن الحامل عدتها وضع ما في بطنها بقوله «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ». «٢»

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٢٩]

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة، و أبو جعفر «إلا أن يخافا» بضم الياء، و الباكون بفتحها.

المعنى:

قيل فى معنى قوله: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» قولان:

أحدهما- ما قال ابن عباس، و مجاهد: إن معناه البيان عن تفصيل الطلاق فى السنة، و هو أنه إذا أراد طلاقها فينبغى أن يطلقها فى طهر لم يقربها فيه بجماع،

(١) سورة الأحزاب آية: ٤٩.

(٢) سورة الطلاق آية: ٤.

ص: ٢٤٣

تطبيقاً واحدة، ثم يتركها حتى تخرج من العدة، أو حتى تحيض و تطهر، ثم يطلقها ثانية.

و الثانى - ما قاله عروة، و قتادة: إن معناه البيان عن عدد الطلاق الذى يوجب البينونة، مما لا يوجبها . و فى الآية بيان أنه ليس بعد التلطيقتين إلا الفرقة البائنة. و قال الزجاج: فى الآية حذف، لأن التقدير: الطلاق الذى يملك فيه الرجعة مرتان، بدلالة قوله: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ». و المرتان معناه: دفعتان.

اللغة:

و تقول مرَّ يمر مرأً و استمر استمراراً، و أمره إمراراً و تمرَّ تمرراً، و مرَّه تمريراً . و المر: خلاف الحلو، و منه المرارة، لأن فيه المرّة. و المرّة مزاج من أمزجة البدن . و المرّة شدة الفتل، لاستمراره على إحكام . و المرير: الحبل المفتول. و فى التنزيل «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى» «١» أى ذو قوة و شدة. و المرّ الذى يعمل به فى الطّبن و أصل الباب المرور: خلاف الوقوف.

و قوله «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ» رفع، و معناه : فالواجب إمساك عليه، و كان يجوز النصب على فليمسك إمساكاً، و الإمساك خلاف الإطلاق. تقول أمسك إمساكاً، و تمسك تمسكاً، و تماسك تماسكاً، و امتسك امتسكاً، و مسك تمسيكاً، و استمسك استمسكاً. و فلان ممسك: أى بخيل، و ما بفلان مُسكّة، و لا تماسك:

إذا لم يكن فيه خير، لأنه منحل عن ضبط شىء من أموره . و المسك: الإهاب، لأنه يمسك البدن باحتوائه عليه . و المسك السواء «٢»، و سمي باستمسাকে فى اليد.

المعنى:

و قوله: «معروف» أى على وجه جميل سائق «٣» فى الشرع لا على وجه الإضرار بهن.

(١) سورة النجم آية: ٦.

(٢) فى مجمع البيان: السواد، و فى لسان العرب: السوار.

(٣) فى المطبوعة (سابع).

ص: ٢٤٤

و قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» قيل فيه قولان:

أحدهما - أنها الطلقة الثالثة،

و روى عن النبى (ص) أن رجلاً سأله، فقال:

الطلاق مرتان فأين الثالثة؟ فأجابه: أو تسريح بإحسان. و قال السدى، و الضحاك: هو ترك المعتدة حتى تبين بانقضاء العدة، و هو المروى عن أبى جعفر، و أبى عبد الله (ع).

اللغة:

و التسريح مأخوذ من السرح، و هو الانطلاق . تقول: سرح تسريحاً، و سرح الماشية في الرعى سرحاً : إذا أطلقها ترعى : و السرحان: الذئب، لاتباعه السرح. و السرحة: الشجرة المرتفعة، لانطلاقها في جهة الطول. و المسرح: المشط، لإطلاق الشعر به. و سرحت الماشية: إذا انطلقت في المرعى. و سرحت العبد إذا أعتقته. و السرح: الجراد، لانطلاقه في البلاد، و السريحة: القطعة من الوذ يشد بها تقال الإبل، و كل شيء قد دته مستطيلاً، فهو سريح.

النزول:

و روى أن هذه الآية نزلت في ثابت بن قيس، و زوجته، وردت عليه حديقته، و طلقها بإذن النبي (ص) رواه ابن جريج.

المعنى، و الحجة، و الاعراب:

و قوله: «إِلَّا أَنْ يَخَافَا» معناه: إلا أن يظننا و قال الشاعر:

أتانى كلام عن نصيب بقوله
و ما خفت يا سلام أنك عائبى¹»

يعنى ما ظننت و أنشد الفراء:

إذا مت فادفنى الى جنب كرمه
تروى عظامى بعد موتى عروقها

و لا تدفنى فى الفلاة فاننى
أخاف إذا ما مت ألا أذوقها²»

(١) مر تخريجه فى ٢: ١٨٩. من هذا الكتاب.

(٢) قائلهما أبو محجن الثقفى، ديوانه: ٢٣، و معانى القرآن للفراء ١: ١٤٦ و غيرها كثير، و خبر أبى محجن فى الخمر مشهور.

و من ضم الياء، فتقديره: إلا أن يخافا على أن لا يقيما حدود الله . و قال أبو عبيدة «إِلَّا أَنْ يَخَافَا» معناه: يوقنا، «فَإِنْ خِفْتُمْ» معناه فان أيقنتم و قال أبو على الفارسي: خاف فعل يتعدى الى مفعول واحد، و ذلك المفعول تارة يكون (أن) وصلتها، و أخرى غيرها، فأما تعديه الى غير (أن) فنحو قوله: «تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» «١». و تعديته الى (أن) كقوله: «تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ» «٢» و قوله: «أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ» «٣» فان عديته الى مفعول بأن ضعفت العين، أو اجتلبت حرف الجر كقولك: خوِّفْتُ ضعف الناس قولهم، و حرف الجر كقوله:

لو خافك الله عليه حرمة

و من ذلك قوله: «إِنَّمَا ... الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» «٤» فيخوف قد حذف معه مفعول يقتضيه تقديره يخوف المؤمنين بأوليائه، فحذف المفعول، و الجار، فوصل الفعل الى المفعول الثاني، ألا ترى أنه لا يخوف أوليائه على حد قولك خوِّفْتُ اللصَّ، و إنما يخوف غيرهم مما لا استنصار لديهم، و مثله فإذا خفت عليه بمنزلة المحذوف من قوله: «أوليائه» فإذا كان تعدى هذا الفعل على ما وصفنا، فقول حمزة «إلا أن يخافا»، مستقيم لأنه لما بنى الفعل للمفعول به أسند الفعل إليه، فلم يبق شيء يتعدى إليه، و أما (أن) من قوله: «أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ»، فان الفعل يتعدى إليه بالجار، كما تعدى بالجار في قوله:

لو خافك الله عليه حرمة

و موضع أن في الآية جر بالجار المقدّر، على قول الخليل، و الكسائي . و نصب، في قول سيبويه، و أصحابه، لأنه لما حذف الجار، وصل الفعل الى المفعول الثاني، مثل استغفر الله ذنباً، و امرأتك الخير، فقوله مستقيم على ما رأيت. فان قال قائل:

لو كان يخافا كما قد أخبره، لكان ينبغي أن يكون فان خيفاً! قيل لا يلزمه هذا السؤال لأمرين:

(١) سورة الروم آية: ٢٨.

(٢) سورة الانفال آية: ٢٦.

(٣) سورة النور آية: ٥٠.

(٤) سورة آل عمران آية: ١٧٥.

أحدهما- أن يكون انصرف من الغيبة الى الخطاب، كما قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» «١» ثم قال: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» «٢»، و قال: «مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» «٣» و نظائر ذلك كثيرة.

و الآخر- أن يكون الخطاب فى قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ» مصروفاً الى الولاية، و الفقهاء الذين يقومون بأمر الكافة، و جاز أن يكون الخطاب للكثرة فى من جعله انصرافاً من الغيبة الى الخطاب، لأن ضمير الاثنين فى «يخافا» ليس يراد به اثنان مخصوصان، و إنما يراد كل من كان هذا شأنه، فهذا حكمه.

و أما من قرأ بالفتح، فالمعنى أنه إذا خاف: من كل واحد من الزوج و المرأة «أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» حل الافتداء، و لا يحتاج فى قولهم الى تقدير الجار، لأن الفعل يقتضى مفعولاً يتعدى إليه، كما اقتضى فى قوله: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ» «٤» و لا بد من تقدير الجار فى قراءة من ضم الياء ، لأن الفعل قد استند الى المفعول، فلا يتعدى الى المفعول الآخر إلا بالجار . قال أبو على: فأما ما قاله الفراء فى قول حمزة «إِلَّا أَنْ يَخَافَا» من أنه اعتبر قراءة عبد الله (إلا أن يخافوا) فلم ينصبه، لأن الخوف فى قول عبد الله واقع على (أن). و فى قراءة حمزة على الرجل، و المرأة، و حال الخوف التى معه.

المعنى:

«أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» قال ابن عباس و عروة و الضحاك: هو نشوز المرأة بغضا للزوج. و قال الشعبي هو نشوزها و نشوزه،

و الذى روى عن أبى عبد الله (ع) أنه إذا خاف أن تعصى الله فيه بارتكاب محذور، و إخلال بواجب، و ألا تطيعه فيما يجب عليها، فحينئذ يحل له أن يخلعها، و مثله روى عن الحسن.

و قيل: إن الخوف من الإخلال بالحقوق التى تجب لكل واحد منهما على صاحبه، و حسن العشرة و جميل الصحبة.

(١) سورة الفاتحة آية: ١، ٤.

(٢) سورة الفاتحة آية: ١، ٤.

(٣) سورة الروم آية: ٣٩.

(٤) سورة آل عمران آية: ١٧٥.

ص: ٢٤٧

فان قيل كيف قال: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، و إنما الإباحة لأخذ الفدية ! قيل لأنه لو خص بالذكر لأوهم أنها عاصية، و إن كانت الفدية له جائزة، فبين الاذن لهما لثلا يوهم أنه كالزنا المحرم على الآخذ، و المعطى. و ذكر الفراء وجهين:

أحدهما - أنه قال: هو كقوله «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ» «١» و إنما هو من الملح دون العذب، فجاز الاتساع، و هذا هو الذى يليق بمذهبنا، لأن الذى يبيح الخلع - عندنا - هو ما لولاه، لكانت المرأة به عاصية.

و الوجه الثانى - على

قوله (ص): إن أظهرت الصدقة، فحسن و إن أسررت فحسن

، و إنما على مزاجه الكلام كقوله «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» «٢»

و الثانى ليس بعد، و إن الفدية الجائزة فى الخلع - فعندنا - إن كان البغض منها، وحدها و خاف منها العريان، جاز أن يأخذ المهر فما زاد عليه، و إن كان منهما، فيكون دون المهر. و **رووا عن على (ع)**

فقط، و لم يفسلوا، و به قال الربيع، و عطا، و الزهرى، و الشعبى . و قال ابن عباس، و ابن عمر، و رجا بن حوة، و ابراهيم، و مجاهد: إنه يجوز الزيادة على المهر، و نقصان، و لم يفسلوا، و الآية غير منسوخة عند أكثر المفسرين، ابن عباس و الحسن، و جميع أهل العلم إلا بكر بن عبد الله، فانه زعم أنها منسوخة بقوله «وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ» «٣» الآية. و الخلع بالفدية على ثلاثة أوجه:

أحدها - أن تكون المرأة عجوزاً و ذميمة، فيضار بها ليفتدى بها، فهذا لا يحل له الفدى، لقوله «وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ» «٤» الآية.

و الثانى - أن يرى الرجل امرأته على فاحشة، فيضاربها لتفتدى بخلعها، فهذا يجوز، و هو معنى قوله «وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضٍ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ» «٥» و الوجه الثالث:

«أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» لسوء خلق أو لقلّة نفقة من غير ظلم، أو

(١) سورة الرحمن آية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٤.

(٣) سورة النساء آية: ١٩

(٤) سورة النساء آية: ١٩

(٥) سورة النساء آية: ١٨.

نحو ذلك فيجوز الفدية لهما جميعاً على ما فصلناه.

و استدلل أصحابنا بهذه الآية على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، لا يقع، لأنه قال : «مرتان» ثم ذكر الثالثة على الخلاف في أنها قوله: «أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ» أو قوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» و من طلق بلفظ واحد لا يكون أتى بالمرتين، و لا بالثالثة كما أنه لو أوجب في اللعان أربع شهادات : و لو أتى بلفظ واحد لما وقع موقعه . و كما لو رمى تسع حصيات فى الجمار دفعة واحدة، لم يكن مجزياً له، فكذلك الطلاق، و متى ادعوا، فى ذلك خبراً، فعليهم أن يذكروه ليتكلم عليه، فأما مسائل الخلع، و فروعه، و شروطه فقد ذكرناها فى النهاية، و المبسوط، فلا معنى للتطويل بذكرها هاهنا لأن المطلوب هاهنا معانى القرآن، و تأويله دون م سائل الفقه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٠]

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَكَبَّرَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

قوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ» المعنى فيه التطليقة الثالثة على ما روى عن أبى جعفر (ع)

و به قال السدى، و الضحاك، و الزجاج، و الجبائى، و النظام . و قال مجاهد: هو تفسير لقوله: «أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ» «١» فانه التطليقة الثالثة، و هو اختيار الطبرى.

و صفة الزوج الذى تحل المرأة، للزوج الأول أن يكون بالغاً، و يعقد عليها عقداً صحيحاً دائماً و يذوق عسيلتها، بان يطأها و تذوق هى عسيلته - بلا

(١) سورة البقرة آية: ٢٢٩

خلاف بين أهل العلم - فلا يحل لأحد أن يتزوجها فى العدة، و أما العقود الفاسدة أو عقود الشبهة فإنها لا تحل للزوج الاول، و متى وطأها بعقد صحيح فى زمان يحرم عليه وطؤها مثل أن تكون حائضاً، أو محرمة، أو معتكفة، فإنها تحلّ للأول لأن الوطء

قد حصل فى نكاح صحيح، و إنما حرم الوطء لأمر، ضار عليه، هذا عند أكثر أهل العلم . و قال مالك: الوطء فى الحيض لا يحل للأول و إن وجب به المهر كله، و العدة.

الاعراب:

و موضع (أن) فى قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا» خفض، و تقديره فى أن يتراجعا - عند الخليل، و الكسائى، و الزجاج - و قال الفراء: موضعه النصب، و اختاره الزجاج، و باقى النحويين . و قال الفراء: خفض لا أعرفه، و موضع (أن) الثانية فى قوله: «أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» نصب - بلا خلاف ب (ظنا)، و إنما جاز حذف (فى) من أن يتراجعا و لم يحز من التراجع، لأنه إنما جاز مع (أن) لطولها بالصلة، كما جاز (الذى ضربت زيد)، ل طول الذى بالصلة، و لم يجرز فى المصدر، كما لم يجرز فى اسم الفاعل نحو (زيد ضارب عمرو) و تريد ضاربه.

المعنى:

و قوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» الثانية يعنى به الزوج الثانى و ذلك يدل على أن الوطء بعقد لا تحل للزوج الأول، لأن الطلاق لا يلحق نكاح شبهة. و الراجع المذكور هاهنا، هو بعقد مستأنف، و مهر جديد، بلا خلاف.

الفراء:

و قوله: «يبينها» قرأ المفضل عن عاصم بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه. الباقرن بالياء، الكناية عن الله.

ص: ٢٥٠

المعنى:

قوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إنما خص العلم بذكر البيان و إن كان بياناً لغيرهم، لأنهم الذين ينتفعون ببيان الآيات، فصار غيرهم بمنزلة من لم يعتد به . و يجوز أيضاً أن يكونوا خصوا بالذكر تشريفاً لهم، كما قال : «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ» ﴿١﴾.

و الحدود: المراد بها ما تقدم بيانها من أحكام الطلاق، و الإيلاء، و الخلع، و غير ذلك.

و قوله: «إِنْ ظَنَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» لا يدل على وجوب الاجتهاد فى الشريعة، لأنه لا يمنع من تعلق أحكام كثيرة - فى الشرع - فى الظن، و إنما فيه دلالة على، من قال: لا يجوز: أن يعمل فى شىء من الدين إلا على اليقين، فأما الظن، فلا يجوز أن يتعلق فيه شىء من الأحكام، فالآية تبطل قوله.

و قوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ ... حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» يدل على أن النكاح بغير ولى جائز، و أن المرأة يجوز لها العقد على نفسها، لأنه أضاف العقد إليها دون وليها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣١]

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

آية واحدة بلا خلاف.

قوله: «فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ» معناه: انقضى عدتهن بالأقراء، أو الأشهر،

(١) سورة البقرة آية: ٩٨.

ص: ٢٥١

أو الوضع. و المعنى: إذا بلغن قرب انقضاء عدتهن، لأن بعد انقضاء العدة ليس له إمساكها، و الإمساك هاهنا المراجعة قبل انقضاء العدة، و به قال ابن عباس، و الحسن، و مجاهد، و قتادة، و قد يقال لمن دنا من البلد : فلان قد بلغ البلد . و المراد «بالمعروف» هذا الحق الذى يدعو إليه العقل، أو الشرع للمعرفة بصحته، بخلاف المنكر الذى يزجر عنه العقل، أو السمع لاستحالة المعرفة بصحته، فما يجوز المعرفة بصحته: معروف، و ما لا يجوز المعروف بصحته منكر.

و المراد به هاهنا أن يمسكها على الوجه الذى أباحه الله له : من القيام بما يجب لها من النفقة، و حسن العشرة، و غير ذلك، و لا يقصد الإضرار بها.

و قد بينا أن التسريح أصله إرسال الماشية فى المرعى و منه قوله: «حِينَ تَرْيَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ» «١».

و قوله: «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا» معناه: لا تراجعوهن لا لرغبة فيهن بل لطلب الإضرار بهن إما فى تطويل العدة، أو طلب المفاداة أو غير ذلك، فان ذلك غير جائز.

و قوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» فالظلم الضرر الذى ليس لأحد أن يضر به.

و قوله: «وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا» يعنى ما ذكره من الأحكام فى الطلاق بما يجوز فيه المراجعة، و ما لهم على النساء من التربص حتى تعرا أو رفعوه مما ليس لهم عن ذلك «٢» و روى عن أبى الدرداء و أبى موسى الأشعرى : أنهم قالوا: كان الرجل يطلق أو يعتق ثم يقول: إنما كنت لاعباً،

فلذلك قال رسول الله (ص): من طلق لاعباً، أو أعتق لاعباً، فقد جاز عليه.

وقوله: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» معناه: التنبيه على أنه لا يسقط الجزاء على عمل من أعمالهم، لخفائه عنه، لأنه «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» والأجل هو

(١) سورة النحل آية: ٦.

(٢) هكذا في المطبوعة، ولم تتمكن من تصحيحها بما يناسب، وهي كما ترى.

ص: ٢٥٢

انقضاء مدة الانتظار. والإمساك هاهنا: المنع من الذهاب والتسريح: الإرسال بتركهن بانقضاء العدة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٢]

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

آية واحدة بلا خلاف.

النزول:

قال قتادة، والحسن: إن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول، فانه طلقها، وخرجت من العدة ثم أراد أن يجتمعا بعقد آخر على نكاح آخر، فمنعها من ذلك، فنزلت فيه الآية. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله عضل بنت عم له. والوجهان لا يصحان على - مذهبنا -، لأن عندنا أنه لا ولاية للأخ، ولا لابن العم عليها وإنما هي ولية نفسها، فلا تأثير لعضلها.

المعنى:

والوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلقين، لأنه خطاب لهم بقوله «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» نكايه قال: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ» بأن تراجعوهن عند قرب انقضاء عدتهن، ولا رغبة لكم فيهن، وإنما تريدون الإضرار بهن، فان ذلك مما لا يسوغ في الدين، و الشرع، كما قال في الأولى: «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا» ولا يطعن على ذلك قوله: «أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ»، لأن المعنى فيه من يصيروا

ص: ٢٥٣

أزواجهن، كما أنهم لا بد لهم من ذلك إذا حملوا على الزوج الأول، لأن بعد انقضاء العدة لا يكون زوجاً، و يكون المراد من كان أزواجهن، فما لهم إلا مثل ما عليهم . و يجوز أن يحمل العضل فى الآية على الجبر، و الحيلولة بينهما، و بين التزويج دون ما يتعلق بالولاية، لأن العضل هو الحبس.

اللغة:

و قيل: إن العضل مأخوذ من المنع. و قيل: إنه مأخوذ من الضيق، قال أوس بن حجر:

و ليس أخوك الدائم العهد بالذى يذمك إن ولى و يرضيك مقبلاً

و لكنه النائي إذا كنت آمناً و صاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلاً¹»

و تقول: عضل المرأة يعضلها إذ منعها من التزويج ظلماً. و فى بعض اللغات يعضلها - بكسر الضاد - فى المضارع. و أعضل الداء الأطباء إذا أعياهم أن يقوموا به، لأنه امتنع عليهم بشدة، و هو داء عضال. و الأمر المعضل: الذى يغلب الناس، لامتناعه بصعوبته. و عضلت عليه إذا ضيقت عليه بما يحول بينه، و بين، ما يريد ظلماً، لأنك منعت بالضييق عليه مما يريد. و عضلت المرأة بولدها إذا عسرت ولادتها و كذلك أعضلت، و أعسرت، لأن الولد امتنع من الخروج عسراً. و فلان عضلة من العضل: أى داهية من الدواهي، لأنه امتنع بدهائه. و عضل الوادى بأهله:

إذا ضاق بأهله: و عضلة الساق: لحمه مكتنزة. و أصل الباب المنع. و قيل أصله التضيق.

الاعراب، و المعنى:

موضع (أن) من قوله: «أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ» جر عند الخليل، و الكسائى، و تقديره: من أن، و رصب عند غيرهما بالفعل.

و قوله: «ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ» إنما قال بلفظ التوحيد و إن كان الخطاب للجميع

(١) ديوانه رقم القصيدة: ٣١.

لأحد ثلاثة أوجه:

أحدها - أن (ذا) لما كان منها ما يستعمل الكاف معه كثيراً، صار بمنزلة شيء واحد. ولا يجوز على ذلك (أيها القوم هذا غلامك). وقال الفراء: توهم أن الكاف من (ذا)، وأنكر ذلك الزجاج، وقال: ليس في أفصح اللغات بناء على توهم خطأ. و الوجه ما قلناه من التشبيه مما جعلت الكلمتان فيه بمنزلة شيء واحد.

و الوجه الثاني - على تقدير: ذلك أيها القليل.

و الوجه الثالث - أن يكون خطاباً للرسول (ص).

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» معناه أنه يعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

و قوله «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (من) في موضع رفع ب (يوعظ)، وإنما خص المؤمن بالوعظ لأحد ثلاثة أقوال:

أحدها - لأنهم المشفقون بالوعظ، فنسب إليهم، كما قال «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» (١) و «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا» (٢).

و الثاني - لأنهم أولى بالاعتراض.

الثالث - إنما يلزمه الوعظ بعد قبوله الايمان و اعترافه بالله تعالى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٣]

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

(١) سورة البقرة آية: ٢.

(٢) سورة النازعات آية: ٤٥.

ص: ٢٥٥

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير، وأهل البصرة، و قتيبة: (لا تضار) - بتشديد الراء - و رفعها. و قرأ أبو جعفر بتخفيفها و سكون. الباقون بتشديدها و فتحها. و قرأ ابن كثير (ما آتيتهم) قصرا، و كذلك «ما آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً» فى الروم «١».

قوله: «يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» فى حكم الله الذى أوجبه على عباده، فحذف للدلالة عليه.

الثانى - لأنه وقع موقع يرضعن، صرفا فى الكلام مع رفع الاشكال . و لو كان خبراً لكان كذباً، لوجود و الوالدات يرضعن أولادهن أكثر من حولين، و أقل منهما.

و فى الآية بيان لأمرين : أحدهما مندوب، و الثانى فرض، فالمندوب : هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين، هى التى تستحق المراجعة الأجر فيهما، و لا تستحق فيما زاد عليهما، و هو الذى بينه الله تعالى بقوله : «فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» «٢»، فتثبت المدّة التى تستحق بها الأجر على ما أوجبه الله فى هذه الآية.

اللغة:

تقول: رُضِعَ يَرْضَعُ، و رَضِعَ يَرْضَعُ رَضَاعٌ، و أَرْضَعْتُهُ أُمَّهُ إِرْضَاعاً، و اِرْتَضَاعاً، و اسْتَرْضَعُ اسْتِرْضَاعاً، و راضعه رضاعاً، و مراضعةً. و لئيم راضع، لأنه يرضع لبن ناقته من لؤمه، لأنّ لا يسمع الضيف صوت الشخب. و الرضعتان: الثنيتان:

مقدمتا الأسنان، لأنه يشرب عليهما اللبن. و أصل الباب الرضع: مصّ الثدي،

(١) سورة البقرة آية: ٣٩، سورة الروم آية: ٥.

(٢) سورة الطلاق آية: ٦.

ص: ٢٥٦

لشرب اللبن منه. و معنى «حولين» سنتان، و هو مأخوذ من الانقلاب فى قولك:

حال الشىء عما كان عليه يحول، فالحول، لأنه انقلب عن الوقت الأول الى الثانى، و منه الاستحالة فى الكلام، لأنقلابه عن الصواب. و قيل أخذ من الانتقال من قولك: تحول عن المكان. و إنما قال: «كاملين» فان كانت الثنيتان تأتى على استيفاء العدة، لرفع التوهم، و إنه على طريقة التغليب، كقولهم : سرنا يوم الجمعة. و إن كان السير فى بعضه . و قد يقال : أقمنا حولين، و إن كانت الاقامة فى حولين، و بعض آخر «١» فهو لرفع الإيهام الذى يعرض فى الكلام.

المعنى:

فان قيل: هل يلزم في كل مولود قيل: فيه خلاف: قال ابن عباس:

لا، لأنه يعتبر ذلك بقوله: «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» «٢» فان ولدت المرأة لستة أشهر، فحولين كاملين، وإن ولدت لسبعة أشهر، فثلاثة و عشرون شهراً، وإن ولدت لتسعة أشهر، فأحد و عشرين شهراً تطلب بذلك التكملة لثلاثين شهراً في الحمل و الفصال الذي سقط به الفرض، و على هذا تدل أخبارنا، لأنهم رَوَوْا: أن ما نقص عن إحدى و عشرين شهراً فهو جور على الصبي. و قال الثوري: هو لازم في كل ولد إذا اختلف والداه، رجعا الى الحولين من غير نقصان، و لا زيادة، و لا يجوز لهما غير ذلك، و الرضاع بعد الحولين لا حكم له في التحريم - عندنا- و به قال ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و أكثر العلماء، و روى عن عائشة أن رضاع الكثير يؤثر. و قال أبو عبيد الله الجبائي لم يقيم بهذا حجة و لا نزل له ظاهر القرآن.

و قوله: «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» معناه أنه يجب على الأب إطعام أم الولد و كسوتها ما دامت في الرضاعة اللازمة إذا كانت مطلقة، و به قال الضحاك و الثوري و أكثر المفسرين.

(١) هكذا في المطبوعة و لعل الأصح (حول و بعض من آخر).

(٢) سورة الأحقاف آية: ١٥.

ص: ٢٥٧

اللغة، و الحجة:

يقال كساه يكسوه كسوة: إذا ألبسه الثياب و اكتسى هو اكتساء: إذا لبس، و اكتست الأرض بالنبات إذا تغطت به، و كسوته مدحاً أو ذماً: إذا أثبتت عليه أو ذمته. و الكساء معروف، و أصل الباب الكسوة: اللباس.

و قوله: «لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» يدل على فساد قول المجبر: في حسن تكليف ما لا يطاق لأنه إذا لم يجز أن يكلف مع عدم الجدة لم يجز أن يكلف مع عدم القدرة، لأنه إنما لم يحسن في الأول من حيث أنه لا طريق له الى أداء ما كلفه من غير جدة، فكذلك لا سبيل له الى أداء ما كلف الى الطاعة مع عدم القدرة، و لا ينافي ذلك قوله: «فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» «١» لأنه ليس المراد نفى القدرة و إنما معناه: أنه يثقل عليهم كما يقول القائل: لا أستطيع أن أنظر الى كذا معناه:

أنه يثقل على، و يقال: كلف وجهه كلفاً، و نجدّه كلف أى أثر، و الكلف بالشيء الإيلاج به، لأنه لزوم يظهر أثره عليه، و كلف كلفاً: إذا أحب. و تكلف الأمر تكلفاً: تحمله. و كلفه تكليفاً: ألزمه. و أصل الباب الكلف: ظهور الأثر.

و قوله: «لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا» أصله تضارر - بكسر الراء الأولى - و قيل - بفتحها - و أسكنت و أدغمت في الراء بعدها. و من فتحها بلقاء الساكنين، و هو الأقوى فيما قبله فتحة أو ألف نحو عضّ «٢» و لا تضار زيداً. و قال بعضهم: لا يجوز ألا تضار بفتح الراء الأولى، لأن المولود لا يصح منه مضارة، لأن الأفصح لو كان كذلك الكسر. قال الرماني: غلط في الاعتلالين أما

الأول، فلأنه ينقلب عليه في تضارٍ إذا المضارة من إثنين في الحقيقة، وإن لم يسم الفاعل . ولأنه إنما يرجع ذلك الى الزوج، و المرأة الأولى و الولد . فأما الأفتح، فعلى خلاف ما ذكر، لأن الفتح لغة أهل الحجاز، و بنى أسد، و كثير من العرب، و هو القياس، لأنه إذا جاز مد بالضم للاتباع، كانت الفتحة بذلك أولى، لأنها أخف، و لأنه يجوز مد بالفتح طلباً للخفة، فإذا اجتمع الاتباع و الاستخفاف كان أولى، و قوله: إن

(١) سورة الإسراء آية ٤٨، و سورة الفرقان آية ٩

(٢) هكذا في المطبوعة.

ص: ٢٥٨

الفتحة في تضار: هي الفتحة في الراء الاولى، دعوى منه لا دليل عليها. و يدل على صحة ما قلناه: قوله: «مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ» «١» «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ» «٢» كل ذلك بالفتح دون الكسر.

المعنى:

و إنما قيل: «يضار» و الفعل من واحد لأنه لما كان معناه المبالغة كان بمنزلة من إثنين، و ذلك لأنه يضره إن رجع عليه، منه ضرورة، فكأنه قيل: لا تضار والدّة من الزوج بولدها. و لو قيل في ولدها لجاز في المعنى، و كذلك فرض الوالد.

و عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع) أى لا يترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها المرتضع «وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» يعنى لا تمنع نفسها من الأب خوف الحمل، فيضر ذلك بالأب و قيل : «لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا» بأن ينزع الولد منها، و يسترضع امرأة أخرى مع إجابتها الى الرضاع باجرة المثل «وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ» بولده أى لا تمتنع هى من الإرضاع إذا أعطيت أجرة مثلها، و الأولى حمل الآية على عموم ذلك.

و قيل: معناه أن على الوالدّة ألا تضار بولدها فيما يجب عليها من تعاهده، و القيام بأمره، و رضاعه، و غذاءه . و على الوالد ألا يضار بولده فيما يجب عليه من النفقة عليه، و على أمه، و فى حفظه، و تعاهده .

و قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ» قال الحسن، و قتادة، و السدى : الوارث للولد. و قال قبيصة بن ذؤيب : هو الوالد، و الأول أقوى. فان قيل: ألعلى كل وارث له، أم على بعضهم؟ قيل : ذكر أبو على الجبائى : أن على كل وارث نفقة الرضاع الأ أقرب فالأقرب يؤخذ به. و أما نفقة ما بعد الرضاع، فاختلفوا، فعندنا يلزم الوالدين - و إن عليا - النفقة على الولد و إن نزل، و لا يلزم غيرهم. و قال قوم:

يلزم العصبية دون الأم، و الأخوة من الأم، ذهب اليه عمر، و الحسن.

وقيل: على الوارث من الرجال، و النساء على قدر ال نصيب من الميراث، ذكره قتادة، و عموم الآية يقتضيه، غير أنا خصصناه بدليل. و قال أبو حنيفة،

(١) سورة المائدة آية: ٥٧.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٨٢.

ص: ٢٥٩

و أبو يوسف، و محمد : على الوارث ممن كان ذا رحم محرم دون من كان ذا رحم ليس بمحرراً م، كابن العم و ابن الأخت، فأوجبوا على ابن الأخت و لم يوجبوه على ابن العم و إن كان وارثه في تلك الحال، و كذلك العمّة و ابن العمّة حكاه ذلك أبو على الجبائي، و البلخي. و قال سفيان «وَعَلَى الْوَارِثِ»: أى الباقي من أبويه، و هذا مثل ما قلناه.

و قد روى فى أخبارنا: أن على الوارث كائناً من كان النفقة

، و هو ظاهر القرآن، و به قال قتادة، و أحمد و إسحاق، و الحسن و إبراهيم.

اللغة:

و الميراث: تركة الميت، تقول: ورث يرث إرثاً، و ورثته ميراثاً، و توارثوا توارثاً، و ورثته توريثاً. و أورثته الحى ضعفاً. و التراث: الميراث. و ورثت النار، و أورثتها : إذا حركت جمرها، ليشتعل، لأنه تظهر فيه النار عن الأول، كظهور الميراث فى الثانى عن الأول.

المعنى:

و قوله: «مِثْلُ ذَلِكَ» يعنى من النفقة، و به قال ابراهيم. و قال الضحاك:

من ترك المضاربة. و المفهوم من الكلام، و عند أكثر العلماء: الأمران معاً، و هو أليق بالعموم.

و قوله: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا» فالفصال: الفطام، لانفصال المولود عن الاغتذاء بشدى أمه الى غيره من الاغتذاء.

فان قيل: أى فصال ذاك أقبل الحولين أم بعدهما؟ قيل : فصال الحولين، لأن الفرض معلوم «١» إذا تنازعا رجعا إليه، فأما بعد الحولين، فلا يجب على واحد منهما اتباع الآخر فى دعائه. و به قال مجاهد، و قتادة، و ابن شهاب، و سفيان و ابن زيد. و روى عن ابن عباس: أنه إذا تراضيا على الفصال قبله أو بعده مضى، فان لم يتراضيا رجعا الى الحولين.

اللغة:

و أصل الباب الفرق، يقال: فصل يفصل فصلا، و فاصله مفصلة، و تفاصلوا تفاصلا، و استفصلوا استفصالا و انفصل انفصالا، و فصّله تفصيلا، و تفصل تفصلا.

و فواصل القلادة: شذر بين نظم الذهب. و الفصل: القضاء بين الحق، و الباطل، و هو الفيصل. و فصيلة الرجل بره أبيه، لانفصالهم من أصل واحد. و الفصيل: الواحد من أولاد الإبل، لأنه فصل عن أمه و الفصيل: حائط قصير دون السور.

المعنى:

و قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا» يعني لا حرج، على قول ابن عباس، و هو مأخوذ من «جَنَحُوا لِلسَّلَامِ» «١» أى مالوا. و الجناح: الميل عن الاستقامة.

و قوله: «إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ» معناه على قول مجاهد، و السدى:

أجر الأم بمقدار ما أرضعت أجره المثل . و قال سفيان: أجره المسترضعة. و قال ابن شهاب: سَلَّمْتُم الاسترضاع. و قال ابن جريج: أجره الأم و النظير.

و قوله: «أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ» معناه: لأولادكم، و حذفت اللام لدلالة الاسترضاع عليه من حيث أنه لا يكون إلا للأولاد، و لا يجوز: دعوت زيدا، تريد لزيد، لأنه يجوز أن يكون المدعو، و المدعو له، إذ معنى دعوت زيدا لعمره، خلاف دعوت زيدا فقط، فلا يجوز للاباس.

و فى الآية دلالة على أن الولادة لسته أشهر تصح، لأنه إذا ضم الى الحولين كان ثلاثين شهراً، و روى عن على (ع)

و ابن عباس ذلك.

الاعراب:

و من رفع «لا تضار» فعلا استئناف النفى. و قال الكسائي، و الفراء: هو منسوق على «لا تكلف». قال الرماني هذا غلط، لأن النسق ب (لا) إنما هو على إخراج الثانى مما دخل فيه الأول، نحو ضربت زيدا لا عمراً، فأما أن يقوم زيد

لا يقعد عمرو، فلا يجوز على النسق، و لكن يرفع على استئناف النفي ب (لا)، فكذلك «لا تضار» مستأنف في اللفظ متصل في المعنى، وقوله: «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا» (١) «إِنَّمَا جاز في موضع الجزم للاتباع، و ليس ذلك في «لا تضار».

اللغة:

و الوسع: الطاقة مأخوذ من سعة المسلك الى العرض، فيتمكن لذلك . و لو ضاق لأعجز عنه، و السعة فيه بمنزلة القدرة، فلذلك قيل: الوسع بمعنى الطاقة.

و قوله: «و تشاور» فالتشاور مأخوذ من الشور، و هو اجتناء العسل، تقول: شرت العسل، و أنا أشوره شوراً، و اشيره إشارة: إذا اجتنبته من مكانه.

و المشورة: استخراج الرأى من المستشار، لأنه يجتنى منه (٢). و شاوره مشاورة، و أشار عليه إشارة، و استشار استشارة . و استشار العسل: إذا اجتناه و أشار الى الشىء إشارة: إذا أوماً اليه، و المشيرة الإصبع الذى تسمى السبابة لأنه يشار بها الشباب، و غيره. و الشابة: الهيبة، و اللباس الحسن لأنه مما يشاب اليه لحسنه و التشوير: استخراج سير الدابة كالاحسان.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٤]

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

هذه الآية ناسخة لقوله:

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ» (١) وإن كانت مقدمة عليه في التلاوة

و عدة كل متوفى عنها زوجها: أربعة أشهر و عشرأ سواء كانت مدخولا بها، أو غير مدخول، حرة كانت أو أمة، فان كانت حبلى، فعدتها أبعء الأجلين، من وضع الحمل أو مضى الأربعة أشهر، و عشرة أيام، و هو المروى عن على (ع)،

و وافقنا في الأمة الأصم، و خالف باقى الفقهاء فى ذلك، و قالوا: عدتها نصف عدة الحرة: شهران و خمسة أيام، و إليه ذهب قوم من أصحابنا، و قالوا فى عدة الحامل:

إنها بوضع الحمل، و إن كان بعد على المغتسل، و روى ذلك عن عمر، و أبى مسعود البدرى، و أبى هريرة . و عندنا أن وضع الحمل يختص بعدة المطلقة. و الذى يجب على المعتدة فى عدة الوفاة اجتنابه فى قول ابن عباس، و ابن شهاب:

الزينة، و الكحل بالإثم، و ترك النقلة عن المنزل. و قال الحسن فى احدى الروايتين عن ابن عباس: إن الواجب عليها الامتناع من الزواج لا غير. و عندنا أن جميع ذلك واجب.

الاعراب:

و قوله: «وَالَّذِينَ» رفع بالابتداء «وَيُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ» فى صلة الذين «وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً» عطف عليه، و خبر الذين قيل فيه أربعة أقوال:

أولها- أن تكون الجملة على تقدير «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً» أزواجهم «يتربصن».

الثانى - على تقدير «يتربصن» بعدهم أزواجهم.

الثالث - أن يكون الضمير فى يتربصن لما عاد الى مضاف فى المعنى، كان كان بمنزلته على تقدير «يتربصن» أزواجهم: هذا قول الزجاج و الأول قول أبى العباس، و الثانى قول الأخفش و نظير قول الزجاج أن تقول : إذا مات، و خلف ابنتين، يرثان الثلثين، المعنى يرث ابنتاه الثلثين.

الرابع - أن يعدل عن الاخبار عن الأزواج، لأن المعنى عليه، و الفائدة

فيه ذهب إليه الكسائي، و الفراء، و أنكر ذلك أبو العباس، و الزجاج، لأنه لا يكون مبتدأ لا خبر له، و لا خبر إلا عن مخبر عنه، و أنشد الفراء «١»:

لعلّي إن مالت بي الريح ميّلة
على ابن أبي ديان أن يتندما«2»

المعنى لعل ابن أبي ديان أن يتندم، و هذا يجوز على حذف أن يتندم لأجلى و قال أيضاً:

نحن بما عندنا و أنت بما
عندك راض و الرأي مختلف«3»

و قال أبو عبيدة: نظير الآية قول شدّاد بن عنتر:

فمن يك سائلاً عني فاني
و حروء لا ترود و لا نعار

حروء اسم فرسه و إنما حذف الخبر من الأول، لأن خبر الثاني يدل عليه، لأنه أراد فاني حاضر، و فرسى حاضرة لا ترود، و لا نعار، فدل بقوله: لا ترود و لا نعار: على أنها حاضرة بتوعد و تتهدد في قول أبي العباس.

و قوله: «يذرون» يتركون و ترك ماضيه يترك تركاً . و تقول ذره تركاً و كذلك يدع ليذر سواء، و العلة في ذلك أنهم كرهوا الواوات في أول الكلام حتى أنهم لم يلحقوها، أو على جهة الزيادة أصلاً، ففي رفض و ذر: دليل على الكراهة لها أصلية، و ليس بعد الضعف إلا الاتباع فلما ضعفت أصلية امتنعت زيادة، فان قيل كيف قال و عسراً بالتأنيث و إنما العدة على الأيام و الليالي، و لذلك لم يجز أن تقول: عندي عشر من الرجال و النساء. قيل لتغليب الليالي على الأيام إذا اجتمعت في التاريخ، و غيره، لأن ابتداء شهور الأهلة الليالي منذ طلوع الهلال فلما كانت الأوائل غلبت، لأن الأوائل أقوى من الثانوي و قال الشاعر:

(١) قائله ثابت قطنة التعكي، و اسمه ثابت بن كعب، ذهبت عينه في الحرب فكان يحشوها بقطنه، و هو شاعر فارسي من شعراء خراسان في عهد الدولة الاموية قال فيه حاجب الفيل:

لا يعرف الناس منه غير قطنته

و ما سواها من الأنساب مجهول

(٢) تاريخ الطبري ٨: ١٦٠، و معاني القرآن للفراء ١: ١٥٠ و هو من قصيدة يرثى بها يزيد بن المهلب، لما قتل في سنة ١٠٢ في خروجه على يزيد بن عبد الملك بن مروان.

(٣) مر تخريجه في ١: ١٧٢، ٢٠٣.

ص: ٢٦٤

أقامت ثلاثاً بين يوم و ليلة

و كان النكير أن تضيف و تجأراً¹»

معنى تضيف تميل و حكي الفراء : صمنا عشراً من شهر رمضان و لو أضاف الى الأيام فقال عشرة أيام، لم يجوز إلا التذكير، و إنما جاز في الأول لأنه بمعنى عشر من رمضان وقع العمل في نهاره.

اللغة:

و قوله: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» يقال: أجله تأجيلاً: إذا أخره، و الآجل نقيض العاجل، و تأجل تأجلاً و استأجله استئجالاً، و أجلوا ما لهم يأجلونه أجلاً:

إذا حبسوه في المرعى، لأنهم أخروه فيه و الأجل : غاية الوقت في محل الدين و غيره، لتأخره الى ذلك الوقت و أجل الشيء يأجل و هو أجل نقيض العاجل. لتأخره عن وقت غيره، و فعلته من أجل كذا أى لعاقبه كذا و هى متأخرة عن وقت الفعل الذى دعت. إليه و الأجل: القطيع من نفر الوحش، و جمعه آجال، و قد تأجل الصوار أى صار قطعياً لتأخر بعضه عن بعض، و أجل عليهم شراً أجلاً أى خبأه، لأنه أعقبهم شراً، و هو متأخر عن وقت فعله . و الآجلة الآخرة، و العاجلة الدنيا . و المأجل شبه حوض واسع يؤجل فيه ماء البئر أياماً، ثم يفجر في الزرع، و هو بالفارسية: (كرجه) و ذلك لتأخر الماء فيه.

و قوله: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» فالخبير: العالم، لأنه عالم بمخبر الخبر.

و الخبر: الأرض السهلة فيها حجارة، و أحفار . و أخبرت بالشيء إخباراً، لأنه تسهيل لطريق العلم به، و استخبره استخباراً، و تخبر تخبراً، و خبره تخبيراً، و أخبره إخباراً، و تخبر القوم : بينهم خبره: إذا اشتروا شاة، فذبحوها، و اقتسموا لحمها، و الشاة :

خبيرة. و المخبرة: المزادة العظيمة. و الخابرة: أن يزرع على النصف، أو الثلث، أو نحوه. و الأكار: الخبير. و المخابرة: المؤاكرة، و ذلك لتسهيل الزراعة.

و أصل الباب السهولة.

(١) اللسان ضيف. قائله النابغة الجعدي. في المطبوعة (تجأوا) بدل (تجأرا) و هو تحريف.

ص: ٢٦٥

المعنى:

و قوله: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» أى انقضت هذه المدّة، و هى الأربعة أشهر و عشرأ «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أى لا جناح عليكم أن تتركوهن إذا انقضت هذه المدّة أن يتزوجن، و أن يتزين زينة لا ينكر مثلها . و هو معنى قوله «بالمعروف».

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٥]

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

آية في الكوفي.

المعنى:

قال ابن علبس: التعريض المباح في العدة هو قول الرجل: أريد التزويج، و أحب امرأة من حالها، و من أمرها، و شأنها، فيذكر بعض الصفة التي هى عليها، هذا قول ابن عباس. و قال القاسم بن محمد، و عامر تقول: إنك لنافقة، و إنك لعجبة جميلة، و إن قضى الله شيئاً كان.

اللغة:

و الخطبة: الذكر الذى يستدعى به الى عقدة النكاح، و الخطبة: الوعظ المنسق على ضرب من التأليف. و قيل: الخطبة: ما له أوّل، و آخر، مثل الرسالة. و الخطبة

ص: ٢٦٦

للحال نحو الجلسة، والقعدة، تقول : خطب المرأة يخطبها خطبة، لأنه خاطب في عقد النكاح . و خطب خطبة، لأنه خاطب بالزجر، والوعظ على ضرب من تأليف اللفظ المخصوص . و خاطب مخاطبة، و خطاباً، و تخاطبوا تخاطباً . و الخطب: الأمر العظيم. و الخطبان: الحنظل الذي تشتد خضرته حتى تستحيل الى الغبرة، و الصفرة.

و أصل الباب الخطاب.

و الفرق بين التعريض، و الكناية أن التعريض : تضمين الكلام دلالة على شىء ليس فيه ذكر له، و الكناية : العدول عن الذكر الأخص بالشىء الى ذكر يدل عليه، فالأول كقول القائل : ما أقبح البخل، يعرض بأن المخاطب بخيل، و لعن الله المملحين، يعرض له بالإلحاد. و الثاني كقولك: زيد ضربته، كنيته عنه بالهاء الموجودة في (ضربته).

و قوله: «أَوْ أَكَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ» فالأكنان: إسرار العزم على النكاح دون إظهاره على قول ابن زيد، و مجاهد . و قال قوم: هو معنى التعريض بالخطبة إن شئت أظهرته، و ان شئت أضمرته . و تقول: كنت الشىء: إذا سترته، أكنه كناً و كنوناً و أكننته إكناناً إذا أضمرته، لأنك سترته في نفسك. و استكن الرجل، و أكنن إذا صار فى كنّ، لأنه صار فيما يستره . و الكناية الجعبة غير أنها صغيرة تتخذ للنبيل . و الكنة: امرأة الابن أو ابن الأخ . و الجمع كنائن. و سمي الكانون كانوناً، لأنه يحتاج إليه فى وقت الاكتنان من البرد، و منه قوله:

«كَانَهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ» «١» «وَرُبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» «٢» و أصل الباب الكن: الستر.

و الفرق بين الأكنان و الكن : أن الأكنان: الإضمار فى النفس، و لا يقال كنته فى نفسى . و قيل: كنته معناه صنته كما قال : «كَانَهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ».

(١) سورة الصافات آية: ٤٩.

(٢) سورة النمل آية ٧٤، و سورة القصص آية: ٦٩.

ص: ٢٦٧

المعنى:

و قوله: «لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا» قال الحسن، و إبراهيم، و أبو مجيلة : السر المنهى عنه هاهنا الزنا . و قال ابن عباس، و سعيد بن جببر، و الشعبي: هو العهد على الامتناع من تزويج غيرك . و قال مجاهد: هو أن تقول لها لا تفوتينى بنفسك، فانى ناكحك . و قال ابن زيد: هو اسرار عقدة النكاح فى العدة.

اللغة:

و السِّرُّ فى اللغة على ثلاثة أوجه : الإخفاء فى النفس، و الشرف فى الحسب، يقال : فلان فى سِرِّ قومه إذا كان فى شرفهم، و صميمهم. و الجماع فى الفرج قال الشاعر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت و ألا يشهد السر أمثالى «1»

و قال رؤبة:

فَعَفَّ عَنْ أَسْرَارِهَا بَعْدَ الْعَسَقِ و لم يضعها بين فرک و عشق «2»

العشق اللصوق و قال الحطيئة:

و يحرم سِرُّ جارتهم عليهم و يأكل جارهم أنف القصاع «3»

و قوله: «إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا» يعنى التعريض الذى أباحه الله تعالى.

و (إلا) بمعنى (لكن) لأن ما قبلها هو المنهى عنه، و ما بعدها هو المأذون فيه.

و تقديره: و لكن قولوا قولاً معروفاً.

و قوله: «وَلَا تَعَزِّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ»: تقديره على عقدة النكاح، و حذفت على،

(١) قائله امرؤ القيس ديوانه: ١٥٩ و روايته (و ألا يحسن السر) بدل (و ألا يشهد السر).

(٢) ديوانه: ١٠٤، و اللسان «عسق»، «عشق»، «فرک»، «سرر». الأسرار جمع سر. و العسق مصدر «عسق به يعسق» لزمه و أولع به. و الفرک - بكسر الفاء و سكون الراء - بغضة الرجل امرأته أو بالعكس، و امرأة فارک، و فروک: تکره زوجها و قد روى «العشق».

(٣) اللسان (أنف). أنف كل شيء: طرفه، و أوله.

ص: ٢٦٨

لدلالة العزم عليها، لأنه لا يكون إلا على معزوم عليه، كما قيل: ضربه الظهر و البطن أى على الظهر و البطن.

و العقد: الشد، تقول: عقد يعقد عقداً، و أعقدت العسل إعتقاداً، و اعتقد صحة الأمر اعتقاداً، و تعاقدوا على الأمر تعاقداً، و عاقده معاقد، و عقد كلامه تعقيداً، و تعقد تعقداً، و انعقد انعقاداً، و عقد العبد، لأنه كعقد الحبل فى التوثيق .

و العقد: السمط من الجوهر. و العقد: الرمل للتداخل. و عقد اليمين: خلاف اللغو.

و ناقة عاقد أى لاقح، لأنها تعقد بذنبها، فيظهر أنها قد لقحت.

المعنى:

و قوله: «حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» معناه انقضاء العدة بلا خلاف . و الكتاب الذى يبلغ أجله هو القرآن و معناه : فرض الكتاب أجله. و يجوز أن يكون الكتاب نفسه هو الفرض، ذكره الزجاج، و وجه ثالث أن يكون ذلك على وجه التشبيه بكتاب الدين، ذكره الجبائى.

و قوله: «أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» قد بينا أن الحلم من الله هو إمهال العقوبة المستحقة . و قال أبو على الجبائى هو كل فعل يضاد حدوث العقوبة فى الإنسان، و هو من الإنسان ترك العقاب . و الله تعالى لا يجوز عليه الترك، فهو ما وصفنا من نعمه التى تضاد عقوبته.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٦]

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنِ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة، و الكسائى، و خلف «تماسوهن» بضم التاء و بألف هاهنا

ص: ٢٦٩

موضعان، و موضع فى الأحزاب، و قرأ أبو جعفر و أهل الكوفة إلا أبا بكر، و ابن ذكوان «قدره» بفتح الدال فى الموضعين .
الباقون بإسكانها.

المعنى:

المفروض صداقها داخله فى دلالة الآية و إن لم يذكر، لأن التقدير ما لم تمسوهن ممن قد فرضتم لهن أو لم تفرضوا لهن فريضة، لأن أو تنبئ عن ذلك، لأنه لو كان على الجمع لكان بالواو.

و الفريضة المذكورة فى الآية: الصداق، بلا خلاف، لأنه يجب بالعقد للمرأة، فهو فرض لوجوبه بالعقد.

و متعة التى لم يدخل بها و لا يسمى لها صداق على قدر الرجل، و المرأة، قال ابن عباس، و الشعبي، و الربيع: خادم أو كسوة أو رزق، و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و قيل مثل نصف صداق تلك المرأة المنكوحه، حكى ذلك عن أبي حنيفة و أصحابه . و فى وجوب المتعة لكل مطلقة خلاف . قال الحسن و أبو العالية: المتعة لكل مطلقة إلا المختلعة، و المبارية، و الملاعنة. و قال سعيد بن المسيب:

المتعة التى لم يسم لها صداق، خاصة، و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و قد روى أيضاً أنها لكل مطلقة، و ذلك على وجه الاستحباب.

و المتعة التى لم يدخل بها و لم يعرض لها يجبر عليها السلطان، و هو قول أهل العراق.

و قال أهل المدينة و شريح يؤمر لها، و لا يجبر عليها.

اللغة:

و الموسع: الغنى فى سعة من ماله لعباله. و المقتر: الذى فى ضيق لفقره، تقول:

أقتر الرجل إقتاراً: إذا أقلّ، فهو مقتر أى مقلّ، و قترت الشىء أفتره قتراً، و أفترته إقتاراً، و قترته تقتيراً: إذا ضيقت الإنفاق منه. و القتار: دخان الشحم على النار، و نحوه، لغلبته بالاضافة الى بقيته. و القتر: الغبار. و القتره: ما يغشى الوجه

ص: ٢٧٠

من غير الموت، و الكرب، لأنه كالقتار أو كالغبار يغشى الوجه، و فى التنزيل «تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ» «١» و القتير: مسامير الدروع، لقلتها و صغرها. و القتير ابتداء الشيب، لقلته . و يجوز أن يكون مشبهاً بالدخان أول ما يرتفع . و القتره ناموس الصائد، لأنها كالقتار

باخفائه إياها. و رجل قاتر: حسن الأخذ من ظهر البعير لا يعقره لقله ما يأخذ منه، و أصل الباب الاقلال . و ابن قتره: حيه خبيثه لا ينجو سليمها.

المعنى:

و المتوفى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق عليها العدة - بلا خلاف - و لها الميراث إجماعاً. و قال الحسن و الضحاك و أكثر الفقهاء. لها صداق مثلها. و حكى الجبائي عن بعض الفقهاء: أنه لا مهر لها، و هو الذى يليق بمذهبنا، و لا نص لأصحابنا فيها.

الاعراب، و المعنى:

و يحتمل نصب «متاعا» وجهين: أحدهما - أن يكون حالا من قدره، لأنه معرفه، و العامل فيه الظرف. و الثانى - على المصدر، و العامل فيه «و متعوهن».

و يحتمل نصب حقا وجهين: أحدهما - أن يكون حالا من «بالمعروف حقا» و العامل فيه معنى عرف حقا. الثانى - على التأكيد، لجملة الخبر كأنه قيل: أخبركم به حقا كأنه قيل: إيجاباً «على المحسنين» و إنما خص التى لم يدخل بها بالذكر فى رفع الجناح دون المدخول بها بالذكر و إن كان حكمهما واحداً لأمرين: أحدهما - لإزالة الشك فى الحرج على هذا الطلاق . و الثانى - لأن له أن يطلق أى وقت شاء، و ليس كذلك حكم المدخول بها، لأنه يجب أن يطلقها للعدة.

«و قدره» على تقدير أعطوهن قدر الوسع كما يقال: أخذ صدقاتهن لكل أربعين شاء بالرفع، و النصب. و قال الشاعر فى تسكين الدال:

(١) سورة عبس آية: ٤١.

ص: ٢٧١

و ما صبّ رجلى فى حديد مجاشع مع القدر إلا حاجة لى أريدها»¹

و قال آخر:

ألا يا لقومى للنوائب و القدر! و للأمر يأتى المرء من حيث لا يدرى»² !

قال أبو زيد: قدر القوم: أمرهم يقدرونه قدراً، وهذا قدر هذا أى مثله، و قدر الله الرزق يقدره . و روى السكوني يقدره قدراً. و قدرت الشيء بالشيء أقدره قدراً. و قدرت على الأمر أقدر عليه قدرة، و قدوراً، و قدارة . و نسأل الله خير القدر . و قال أبو الصقر: هذا قدر هذا، و أحمل قدر ما تطيق. قال أبو الحسن:

هو القدر، و القدر. و خذ منه بقدر كذا، و قدر كذا: لغتان فيه. و قوله:

«فَسَأَلْتُ أَوْدِيَّةً بِقَدَرِهَا» و قدرها «٣».

الحجة:

و من قرأ «تمسوهن» بلا الف، فلقوله تعالى: «وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ» «٤» فانه من جاء على (فعل)، و كذلك قوله: «لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» «٥» و من قرأ «تماسوهن بالف»، لأن (فاعل)، و (فعل) قد يراد بكل واحد منهما ما يراد بالآخر، نحو طابقت النعل و عاقبت اللصّ و لا يلزم على ذلك في آية الظهار «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» «٦» لأن المماسّة محرمة في الظهار على كل واحد من الزوجين للآخر، فلذلك لم يجز إلا «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا». و في الآية دليل على أن العقد بغير مهر صحيح، لأنه لو لم يصح لما جاز فيه الطلاق، و لا وجبت المتعة.

(١) قائله الفرزدق ديوانه: ٢١٥، و اللسان (صحب)، (قدر)، و مقاييس اللغة ٥: ٦٢ و الأساس (صحب)، و إصلاح المنطق: ١٠٩.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم. اللسان (قدر) في المطبوعة (بالقوم) بدل (لقومي) و (للام) بدل (للأمر).

(٣) سورة الرعد آية: ١٩ و قد قرأت الآية «بقدرها» بفتح الدال، و بسكونها.

و خط المصحف بالسكون.

(٤) سورة آل عمران آية: ٤٧.

(٥) سورة الرحمن آية: ٧٤.

(٦) سورة المجادلة آية: ٣، ٤.

ص: ٢٧٢

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٧]

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

آية واحدة بلا خلاف.

روى سعيد بن المسيب: أن هذه الآية ناسخة لحكم المتعة في الآية الأولى.

قال البلخي: وهذا ليس بصحيح، لأن الآية الأولى تضمنت حكم من لم يدخل بها، ولم يسم لها مهرًا إذا طلقها، وهذه تضمنت حكم التي فرض لها صداق إذا طلقت قبل الدخول، وأحد الحكمين غير الآخر. والذي قاله سعيد بن المسيب متوجه على ما قدمناه في الآية من أن دليلها يتناول التي فرض لها المهر. وإن حملنا قوله:

«و متعهن» على عمومه لزم أن تمتع كل مطلقة وإن سمي لها مهرًا. وإن قلنا:

لا متعة للمفروض لها الصداق، فلا يلزم نسخ الآية أو تخصيصها إن نزلت معها.

وقال جميع أهل التأويل: إنه إذا طلق الرجل من سمي لها مهرًا معلومًا قبل أن يدخل بها، فانه يستقر لها نصف المهر، فان كانت ما قبضت شيئاً وجب عليه تسليم نصف المهر، وإن كانت قد سلمت جميع المهر، وجب عليها ردّ نصف المهر، ويستقر لها النصف الآخر.

اللغة:

و النصف: هو سهم من اثنين،، تقول: نصفه ينصفه، وانتصف انتصافاً، ونصفه تنصيفاً، وأنصفه إنصافاً، وتناصفوا تناصفاً، و ناصفه مناصفةً، وتتنصف تنصفاً. والنصف: المرأة بين المسنة والحدثة، لأنها على نصف المسنة. و الناصف:

الخادم، هو ينصف الملوک أى يخدمهم، لأنه يعطيهم النصف من نفسه قسراً و ذلاً.

ص: ٢٧٣

و الانصاف، لأنه كالنصف في العدل. و النصف: الخمار، لأنه كالنصف في أنه وسط بين الصغير، و الكبير، و يقال له: نصيفه. و منتصف الطريق: وسطه. و المنصف من الشراب الذى طبخ حتى ذهب نصفه. و النصف: مكيال، لأنه على النصف بالتعديل بين الكبير و الصغير.

المعنى:

و قوله: «أَنْ يَعْفُونَ» معناه: أن يصح عفوها، من الحرار البالغات غير المولى عليها، لفساد عقلها، فتترك ما يجب لها من نصف الصداق، و هو قول ابن عباس، و مجاهد، و جميع أهل العلم.

و قوله: «أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ» قال مجاهد، و الحسن، و علقمة:

إنه الولي، و هو المروى عن أبي جعفر، و أبي عبد الله (ع)

، غير أنه لا ولاية لأحد - عندنا - إلا الأب أو الجد على البكر غير البالغ، فأما من عداها، فلا ولاية له إلا بتولية منهما، روى عن علي (ع).

و عن سعيد بن المسيب، و شريح، و حماد، و إبراهيم، و أبي حذيفة، و ابن شبرمة: أنه الزوج، و روى ذلك أيضاً في أخبارنا غير أن الأول أظهر، و هو المذهب، و فيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف، و قوينا ما أخبرناه هناك.

و الألف و اللام في قوله «عُقْدَةُ النِّكَاحِ» بدل من الإضافة، فمن جعل الزوج قال: تقديره: الذي بيده عقدة نكاحه، و من جعل الولي، قال: تقدير الذي بيده عقدة نكاحها، و مثله قوله تعالى: «فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (١) و معناه: هي مأواه و قراره و قال النابغة:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الناس و الأحلام غير عواذب (2)

(١) سورة النازعات آية: ٤١.

(٢) ديوانه: ٤٥ من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الأعرج الغساني و ذلك حين فر من النعمان بن المنذر الى الشام. و الضمير في «لهم» عائد الى ملوك غسان من بنى جفنة. و الشيمة: الخلق، و الطبيعة.

ص: ٢٧٤

معناه و أحلامهم غير عواذب. و من جعل العفو للزوج قال: له أن يعفو عن جميع نصفه.

و من جعله للولي: قال أصحابنا له أن يعفو عن بعضه، و ليس له أن يعفو عن جميعه، فان امتنعت المرأة من ذلك لم يكن لها ذلك إذا اقتضت المصلحة ذلك، عن أبي عبد الله (ع).

و اختار الجبائي أن يكون المراد به الزوج، قال: لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة، و قوله: «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» خطاب للزوج و المرأة، قال لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة.

وقوله: «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» خطاب للزوج، والمرأة جميعاً- فى قول ابن عباس- وقيل: للزوج وحده عن الشعبي، و إنما جمع لأنه لكل زوج وقول ابن عباس أقوى لأنه العموم. وإنما كان العفو أقرب للتقوى من وجهين:

أحدهما- لاتقاء ظلم كل واحد صاحبه مما يجب من حقه.

الثانى- أنه أدعى الى اتقاء معاصى الله، للرجبة فيما رغب فيه من العفو عمله.

الاعراب:

وقوله: «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» رفع على: عليكم نصف ما فرضتم، وكان يجوز أن ينصب فى العريئة على فأدوا نصف ما فرضتم.

وقوله: «وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ» الواو مضمومة، لأنها واو الجمع، و قياسها أن تكون مع ضم ما قبلها، فإذا لم يوصل اليه جعل الضم منها، وكان يجوز فيها الكسر، ومثله «اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ» «١» على ضعف فيه، وقد مضى ذكره.

المعنى:

والذى يوجب المهر كاملا الجماع، وهو المراد بالمسييس، وقال أهل العراق:

وهو الخلوة التامة إذا أغلق الباب وأرخى الستر، وقد روى ذلك أصحابنا غير أن هذا يعتبر فى حق الثيب.

(١) سورة البقرة آية: ١٦، ١٧٥.

ص: ٢٧٥

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٨]

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)

آية.

اللغة:

الحفظ ضبط الشئ فى النفس، ثم يشبه به ضبطه بالمنع من الذهاب . والحفظ خلاف النسيان تقول : حفظ حفظاً، وحافظ محافظة، وحافظاً، واحتفظ به احتفاظاً، وتحفظ تحفظاً، واستحفظ استحفاظاً، وأحفظه إحفاظاً : إذا أغضبه، لأنه حفظ عليه ما

يكرهه. و منه الحفيظة: الحمية. و الحافظ: خلاف المضيع. و الحفيظ: الموكل بالشئ، لأنه وَّكَل به ليحفظه و أهل الحفاظ : أهل الذمام، و منه قوله: «فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا» (١)».

المعنى:

و معنى الآية الحث على مراعات الصلوات، و مواقبتهن، و ألا يقع فيها تضييع و تفريط.

و قوله «و الصلاة الوسطى» هي العصر فيما روى عن النبي (ص) و على (ع)

و ابن عباس، و الحسن. و قال زيد بن ثابت، و ابن عمر:

إنها الظهر، و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و قال قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب، و قال جابر ابن عبد الله هي الغداة . و فيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. و روى عن ابن عمر أنه قال: واحدة من الخمس غير متميزة. و قال الحسين بن علي المغربي:

المعنى فيها صلاة الجماعة، لأن الوسط العدل، فلما كانت صلاة الجماعة أفضلها خصت بالذكر، و هذا وجه مليح غير أنه لم يذهب إليه أحد من المفسرين، فمن جعلها العصر قال : لأنها بين صلاتي النهار، و صلاتي الليل، و إنما حضّ عليها، لأنها وقت شغل الناس في غالب الأمر، و من قال: إنها الظهر قال: لأنها وسط النهار، و قيل:

هي أول صلاة فرضت، فلها بذلك فضل. و من قال: هي المغرب قال: لأنها وسط في الطول، و القصر من بين الصلوات، فهي أول صلاة الليل الذي رغب في الصلاة

(١) سورة النساء آية: ٧٩، و سورة الشورى آية: ٤٨.

ص: ٢٧٦

فيه، و أما من قال هي الغداة قال: لأنها بين الظلام و الضياء، و صلاة لا تجمع مع غيرها.

و قد جمع النبي (ص) بين الظهر و العصر بعرفة، و جمع بين المغرب و العشاء بالمزدلفة،

فهذه متواخية و تلك مفردة.

و قوله: «و قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» قال ابن عباس، و الحسن: معناه طائعين.

و قال عبد الله بن مسعود: ساكتين، لأنهم نهوا بذلك عن الكلام في الصلاة.

و قال مجاهد: معناه خاشعين فنهوا عن العبث، و التلفت في الصلاة . و قال ابن عباس في رواية: داعين و لذلك قال هي صلاة الصبح، لأنه لا صلاة فرض فيها قنوت إلا هي.

و عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع) مثل ذلك إلا أنهما قالوا: القنوت في كل ركعتين قبل الركوع.

اللغة، و الاعراب:

و أصل القنوت الدوام على أمر واحد . و قيل أصله الطاعة . و قيل أصله الدعاء في حال القيام . و قال الرماني و الوجه الأول أحسن بصرفه في الباب، لأن المداوم على الطاعة قانت، و قال المداوم في صلاته على السكوت إلا عن الذكر المشروع له، و كذلك المداوم. و يقال: فلان يقنت عليه أى يدعو عليه دائماً.

و الصلاة الوسطى محفوظة بالعطف على الصلوات و كان يجوز النصب على «وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» فخصوها بالمحافظة. و من حمل الصلاة الوسطى على صلاة الجماعة جعل قوله: «عَلَى الصَّلَوَاتِ» على عمومها. و من حملها على واحدة من الصلوات على الخلاف فيه اختلفوا، فمنهم من قال أراد بقوله «عَلَى الصَّلَوَاتِ» ما عدا هذه الصلاة و إلا كان يكون عطف الشئ على نفسه، و منهم من قال لا يمتنع أن يريد بالأول جميع الصلوات، و خص هذه بالذكر تعظيماً لها و تأكيداً لفضلها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٣٩]

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أُمِيتُمْ فَأُذِكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

آية.

ص: ٢٧٧

اللغة:

معنى قوله: «فرجالاً» أى على أرجلكم، لأن الرجل: هو الكائن على رجله واقفاً كان، أو ماشياً. و أحد الرجال: راجل و جمعه رجّال، مثل تاجر و تجّار، و صاحب، و صحّاب، و قائم، و قيام . و واحد الركبان: راكب، و جمعه ركبان، و ركاب، كفارس، و فرسان. و تقول: ركب يركب ركوباً، و أركبه إركاباً، و ارتكب ارتكاباً، و تراكب الشئ ء تراكباً، و تركب تركيباً، و ركه تركيباً، و استركب استركاباً، و كل شئ ء علا شيئاً، فقد ركه . و ركه الدين، و نحوه . و الركبة معروفة، لروب البدن لها . و ركبة البعير فى يده. و الركاب: المطى. و ركاب السرج، لأنه يركب . و الركبان: أصلاً الفخذين الذين عليهما لحم الفرج لركوبه إياهما . و فرس أركب، و الأنتى ركبي : إذا عظمت ركبتيهما و هو عيب . و أركب المهر: إذا أمكن أن يركب. و رجل مركب: الذى يغزوا على فرس غيره. و الراكبة: فسيلة تتعلق بالنخلة لا تبلغ الأرض. و ركب الرجل أركبه ركباً: إذا ضربته بركبتك.

و الركوب: كل دابة تركب، و منه قوله: «فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ» ﴿١﴾ و أصل الباب الركوب: العلو على الشيء.

المعنى:

و العامل فى قوله: «فرجالاً» محذوف، و تقديره: فصلوا رجالاً أو ركباً.

و صلاة الخوف من العدو : ركعتان كيف توجه إنما يجعل السجود أخفض من الركوع - فى قول ابراهيم، و الضحاك - فان لم يستطع، فليكن بتكبيرتين.

و روى أن علياً (ع) صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالإيماء و قيل بالتكبير.

و إن النبى (ص) صلى يوم الأحزاب إيماء.

و روى أنه قضاها بعد أن فاتت بالليل.

و قال ابن عباس و الحسن: يجوز فى صلاة الخوف ركعة واحدة. و قال الحسن، و قتادة، و ابن زيد:

يجوز أن يصلى الخائف ماشياً. و قال أهل العراق: لا يصلى ماشياً، لأن المشى

(١) سورة يس آية: ٧٢.

ص: ٢٧٨

عمل. و الذى نقوله : إن الخائف إن صلى منفرداً صلاة شدة الخوف صلى ركعتين يومئ إيماء، و يكون سجوده أخفض من ركوعه، و إن لم يتمكن كبر عن كل ركعة تكبيرة، و هكذا صلاة شدة الخوف إذا صلوا جماعة، و إن صلوا جماعة غير صلاة شدة الخوف، فقد بينا الخلاف فيه و كيفية فعلها فى خلاف الفقهاء.

و الذكر فى الآية قيل فى معناه قولان:

أحدهما - أنه الصلاة، أى فصلوا صلاة الأمن كما علمكم الله، هذا قول الحسن، و ابن زيد.

الثانى - اذكروه بالثناء عليه، و الحمد له كما علمكم ما لم تعلموا من أمر دينكم، و غير ذلك من أموركم. و الأولى حمل الآية على عمومها فى الأمرين.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٠]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

آية واحدة بلا خلاف.

قرأ نافع، و ابن كثير، و الكسائي، و أبو بكر عن عاصم «وصية» بالرفع.

الباقون بالنصب.

المعنى:

هذه الآية منسوخة بالحكم بالآية المتقدمة، و هي قوله : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» بلا خلاف في نسخ العدة إلّا أبا حذيفة، فانه قال : العدة أربعة أشهر و عشرًا، و ما زاد الى الحول يثبت بالوصية و النفقة، فان أمتع الورثة م ن ذلك كان لها أن تتصرف في نفسها، فأما حكم الوصية، فعندنا باق لم ينسخ و إن كان على وجه الاستحباب. و حكى عن ابن

ص: ٢٧٩

عباس، و الحسن، و قتادة، و مجاهد : أنها منسوخة بآية الميراث، و قد بينا فساد قولهم : لا وصية لو ارث. فأما آية الميراث، فلا تنافي الوصية، فلا يجوز أن تكون ناسخة لها، و قد مضى الكلام في خبر الذين «١» في الآية المتقدمة، فلا وجه لإعادته.

المعنى، و الاعراب:

و من نصب «وصية» فانه يحتمل قوله: «وصية» أمرين:

أحدهما - فليوصوا وصية لأزواجهم، فينصب على المصدر.

الثاني - كتب الله عليهم وصية لأزواجهم، فينصب على أنه مفعول به .

و المصدر المنصوب يدل على فعل الأمر المأخوذ منه، أما دلالته على فعله، فلأنه مشتق منه، و أما دلالة نصبه على الأمر منه، فلغلبة الباب في الأمر، فأما دلالته على كتب، فلأن ما أمر الله به، فقد كتبه . و النصب يدل على الأمر به . و الرفع يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها - فعليهم وصية لأزواجهم. الثاني - فلأزواجهم وصية كما تقول: لزيد مال. الثالث - كتب عليهم وصية لأزواجهم. و قال بعضهم:

لا يجوز غير الرفع، لأنه، لا يمكن الوصية بعد الوفاء، لأن الفرض كان لهن أوصى أو لم يوص . قال الرماني: و هذا غلط، لأن المعنى و الذين يح ضرهم الوفاء منكم، فلذلك قال : «يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ» على لفظ الحاضر الذي يتناول على نحو قولك : الذين

يصلون، فليعرضوا عن الذكر فيما يشغلهم. فأما قوله: الفرض كان لهم، فإن لم يوصوا فقال قتادة و السدى : إنما كان لهم بالوصية على أنه لو كان على ما زعم، لم ينكر أن يوجبه الله على الورثة إن فرط الزوج في الوصية.

و قوله: «مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ» نصب، و العامل فيه أحد أمرين:

أحدهما- جعل الله لهم ذلك متاعاً، لأن ما قبله دل عليه.

و الثاني- متعوهن متاعاً. و قوله غير إخراج نصب بأحد الشيئين : أحدهما- بأن يكون صفة لمتاع. و الثاني- أن يكون مصدراً كأنه قيل: لا إخراجاً. قال

(١) في تفسير آية: ٢٣٤. و في المطبوعة (جر الدين) و هو تصحيف.

ص: ٢٨٠

الفراء: هو كقولك: جئتك عن رغبة اليك فكأنه قال : متعوهن مقاماً في مساكنهن، فيكون مصدراً وقع موقع الحال . و يجوز أن يكون بمعنى الإقامة في مساكنهن . و قال الحسن، و السدى : قوله: «فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ» دليل على سقوط النفقة، و السكنى بالخروج، لأنه إنما جعل لهم ذلك بالإقامة الى الحول، فإن خرجن قبله بطل الحق الذي وجب بالإقامة.

و إنما يحتاج الى هذا التخريج من يوجب النفقة للمعتدة عن الوفاء. فأما من قال:

لا نفقة لها، و لا سكنى، فلا يحتاج الى ذلك، و هو مذهبنا، لأن المتوفى عنها زوجها لا نفقة لها، و إذا قلنا القرآن لا ينسخ بالسنة، قلنا: النفقة هاهنا على وجه الاستحباب أو أنها تثبت بالوصية، لأننا بينا أن الوصية غير منسوخة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤١]

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قال سعيد بن المسيب الآية منسوخة بقوله : «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» و عندنا أنها مخصوصة بتلك إن نزلاً معاً . و إن كانت تلك متأخرة فالأمر على ما قال سعيد ابن المسيب : إنها منسوخة، لأن عندنا لا تجب المتعة إلا للتي لم يدخل بها و لم يسم لها مهر . و إن سمي لها مهر، فلها ما سمي و إن لم يدخل بها فإن فرض لها مهرأ كان لها نصف مهرها، و لا متعة لها في الحالين، فلا بد

من تخصيص هذه الآية . وقال سعيد ابن جبير و أبو العالية و الزهري : المتعة واجبة لكل مطلقة، و به قال أبو حنيفة . و قال الحسن: هي للمطلقة التي لم يدخل بها و لم يفرض لها صداق مثل ما قلناه . و قال عطاء، و مجاهد: هي للمدخل بها، و حكى أبو علي: للمطلقة البائنة.

و إنما كرر ذكر المتعة هاهنا و قد تقدم ذكرها قبل هذه الآية، لأنه ذكر في غيرها خاصاً و ذكر فيها عاماً فدخل فيه الأمة، و غيرها، و المتعة في الموضع الذي يجب

ص: ٢٨١

على قدر الرجل بظاهر الآية، لأنه قال: «و عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ»: مثلها و إن كان فوق قدره حكاها البلخي.

و قوله: «بالمعروف» معناه بالمعروف صحته، لأنه عدل بين الافراط، و التقصير . و قال الضحاك: على قدر الميسرة، و إنما خص المتاع بالمتقين و إن كان واجباً على الفاسقين، تشريفاً لهم بالذكر اختصاصاً، و جعل غيرهم على وجه التبع، كما قال : «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» «١» و قيل: لأنه أخرج الكلام مخرج من لا يعتد بغيرهم لاحتقارهم، و جلاله المتقين بالتقوى، و لأنه إذا وجب على المتقين، فهو واجب على جميع المتعبدين، لأن التقوى واجب على المكلفين، و هذا إنما يدل على أنه واجب بشرطة التقوى . فأما إذا وجب على التقى و الفاجر، فالجواب هو الأول.

الاعراب:

و قوله: «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» نصب على المصدر، وقع موقع الحال، و العامل فيه «بالمعروف» كأنه قيل: عرف حقاً، و يجوز أن يكون العامل فيه الظرف.

و يجوز أن يعمل فيه معنى الجملة، كأنه قيل: أحق ذلك حقاً و كان يجوز أن يرفع على أنه صفة لمتاع.

المعنى:

و المتاع: النفقة مقدار ما تقيم في العدة على قول الجبائي : و على ما قلناه قدر ما يوصى به لها بالمعروف الذي لا يضر رِّبَاقى الورثة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٢]

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

آية.

التشبيه بقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ» وقع على البيان الذى تقدم فى الأحكام و الحجاج و المواعظ و الآداب و غير ذلك مما يحتاج الناس الى عمله، و العمل عليه فى

(١) سورة البقرة آية: ٢.

ص: ٢٨٢

أمر دينهم و دنياهم شبه البيان الذى يأتى بالبيان الماضى، و البيان : هو الأدلة التى يفرق بها بين الحق، و الباطل . و عبر عنه بأنه فعل يظهر به أمر على طريقة حسنة، و ليس كلما يظهر به غيره ما لا يأتیه . و قد يكون ذلك بكلام فاسد يفهم به المراد، فلا يستحق صفة بيان . و الآية هى العلامة فيما كان من الأمور العظيمة، لأن فى الآية تفخيما ليس فى الع لامة. و قوله: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» معناه: لكى تعقلوا آيات الله بالبيان عنها . و العقل مجموع علوم ضرورية يميز بها بين القبيح، و الحسن، و يمكن معها الاستدلال بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٣]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى «أَلَمْ تَرَ» ألم تعلم، لأن الرؤية مشتركة بين العلم - و هى رؤية القلب - و بين رؤية القلب . و قيل فى معنى قوله : «وَهُمْ أُلُوفٌ» قولان:

أحدهما - أن معناه: الكثرة، فكأنه: و هم أكثر الناس، ذهب إليه ابن عباس، و الضحاك، و الحسن . و قال ابن زيد : معناه هم مؤلفو القلوب، لم يخرجوا عن تباغض. و من قال: المراد به العدد الكثير، اختلفوا، فقال ابن عباس: كانوا أربعين ألفاً. و قال قوم: أربعة آلاف. و قال آخرون: ثمانية آلاف و قال السدى:

بضعة و ثلاثون ألفاً. و الذى يقضى به الظاهر: أنهم أكثر من عشرة آلاف، لأن بناء (فُعول) للكثير، و هو ما زاد على العشرة. فأما ما نقص، فيقال فيه:

آلاف على وزن (أفعال) نحو عشرة آلاف و لا يقال: عشرة أُلُوف. و قال الحسن،

ص: ٢٨٣

و أكثر المفسرين: كانوا فرّوا من الطاعون الذى وقع بأرضهم. و قال الضحاك:

فرّوا من الجهاد.

و معنى الآية: الحُضُّ على الجهاد، بأنه لا ينفع - من الموت - فرار، و من أمر الله، لأنه يجوز أن يعجله على جهة العقاب، كما عجله لهؤلاء، للاعتبار. و فى الآية دليل على من أنكر عذاب القبر و الرجعة معاً، لأن الأحياء فى القبر، و فى الرجعة مثل إحياء هؤلاء الذين أحياهم للعبرة.

و قوله: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - أن معناه أماتهم الله، كما يقال : قالت السماء، فهطلت، و قلت برأسى كذا، و قلت بيدي، و ذلك لما كان القول فى الأكثر استفتاحاً للفعل، كالقول الذى هو تسمية، و ما جرى مجراها مما كان يستفتح به الفعل، صار معنى قالت السماء، فهطلت أى اسفحت الهطلان، و صار بمنزلة استفتاح الأفعال فلذلك صارت أماتهم بمنزلة استفتاح الأفعال.

الثانى - أن يكون أحياهم عند قول سمعته الملائكة بضرب من العبرة . و يجوز - عندنا - أن يكونوا أحيوا فى غير زمان نبى . و قالت المعتزلة: لا يجوز أن يكون ذلك إلا فى زمان نبى، لأن ال معجزة لا يجوز ظهورها إلا للدلالة على صدق نبى، تكون له آية. و قد بينا فساد ذلك فى غير موضع، و أنه تجوز المعجزات على دين من الصادقين : من الأئمة، و الأولياء و إن لم يكونوا أنبياء. و روى عن ابن عباس: أنه مرّ بهم نبىّ، فدعا الله تعالى، فأحياهم.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» إنما ذكر، و اتصل بما تقدم، لأنه لما ذكر النعمة عليهم بما آتاهم من الآية العظيمة فى أنفسهم ليلزموا سبيل الهدى، و يتجنبوا طرق الردى ذكر عند ذلك ماله على الناس من الانعام مع ما هم من الكفران.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٤]

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

آية بلا خلاف.

ص: ٢٨٤

المعنى:

قيل فيمن يتوجه إليه هذا الخطاب قولان:

أحدهما - أنه متوجه الى الصحابة بعد ما ذكرهم بحال من فرّ من الموت، فلم ينفعه الفرار، حضهم على الجهاد، لئلا يسلكوا سبيلهم فى الفرار من الجهاد، كما فرّ أولئك من الديار.

الثانى - الخطاب للذين جرى ذكرهم على تقدير، و قيل لهم : قاتلوا فى سبيل الله . و القول الأول أظهر، لأن الكلام على وجهه، لا محذوف فيه .

و قوله: «وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» معناه هاهنا: أنه «سميع» لما يقوله المنافق «عليم» بما يحبه المنافق، فاحذروا حاله . و قيل: «سميع» لما يقوله المتعطل «عليم» بما يضر، فإياكم و التعلل بالباطل . و قيل: «سميع» لقولكم إن قلتم كقول من قبلكم «عليم» بضماؤركم.

و سبيل الله الذى أمر بالقتال فيها: قتل فى دين الله، لا عزازه، و النصر له، و قتل فى طاعة الله، و قتل فى جهاد أعداء المؤمنين .

اللغة:

و القتل: نقض البنية التى تحتاج إليها الحياة . و القتال: هو تعرض كل واحد منهما للقتل . و الفرق بين سميع و سامع : أن سامعاً يقتضى وجوه السمع، و سميع لا يدل عليه، و إنما معناه: أنه من كان على صفة لأجلها يسمع المسموعات إذا وجدت و لذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع، و لا يوصف بأنه سامع إلا بعد وجود المسموعات.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٥]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

آية واحدة بلا خلاف.

ص: ٢٨٥

القراءة:

قرأ أبو عمرو، و نافع، و حمزة، و الكسائى (فيضاعفه) بالرفع. و قرأ عاصم بالألف، و النصب. و قرأ ابن كثير (فيضعفه) بالتشديد، و الرفع. و قرأ ابن عامر بالتشديد و النصب.

المعنى، و اللغة:

و القرض الذى دعا الله إليه قال ابن زيد هو الجهاد، و قال فى البر من النفل.

و القرض: هو قطع جزء من المال بالإعطاء على أن يردّ بدل منه. و قوله:

«يُقْرِضُ اللَّهُ» مجاز «١» فى اللغة لأن حقيقته أن يستعمل فى الحاجة، و فى هذا الموضع يستحيل ذلك، فلذلك كان مجازاً، و قد يستعمل القرض فى غير الحاجة قال أمية بن أبى الصلت:

لا تخلطن خبيثات بطيئة

و اخلع ثيابك منها و انح عريانا

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسناً

أو سيئاً و مديناً كالذى دانا»2»

فهذا يبين أن القرض من غير عوض، و قال آخر:

و إذا جوزيت قرضاً فاجزه

إنما ليس الفتى غير الحمل»3»

و القرض القطع بالناب. قرض يقرض قرضاً: إذا قطع الشيء بنابه، و قرّض تقريضاً، و تقرّض تقرضاً، و اقترض المال اقتراضاً. و القرض ما أعطيته لتكافاه، أو يرد بعينه. و اقترض اقتراضاً، و استقرض استقرضاً، و تقارضا الثناء: إذا أثنى كل واحد منهما على صاحبه، و كذلك قارضه الثناء. و انقرضوا انقراضاً: إذا هلكوا. و الدنيا قروض: أى يتقارضها الناس من بينهم بالمكافاة. و قرض الشيء

(١) فى المطبوعة (محلّه) و هو تحريف.

(٢) اللسان (قرض) ذكر البيت الثانى فقط و روايته

(أو مديناً مثل ما دانا)

بدل (و مديناً).

(٣) قائله لبيد. اللسان (قرض) و روايته

(انما يجزى الفتى ليس الجمل).

يقرضه قرضاً. و الشعر قريض. و منه قوله: (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ) «١» أى تقطعهم بمرورها عليهم و المقرض: الجلم الصغير، و قراضات الثوب ما ينفيه الجلم.

الاعراب، و اللغة:

و قوله: «فيضاعفه» من رفع عطفه على قوله: «يقرض» و من نصب، فعلى جواب الاستفهام بالفاء . و الاختيار الرفع لأن فيه معنى الجزاء، و جواب الجزاء بالفاء لا يكون إلا رفعاً «و يضاعفه» أكثر فى الاستعمال، و إنما شدد أبو عمرو «يضعف لها العذاب ضعفين» «٢» و لم يشدد «فيضاعفه» لأن المضاعفة عنده لما لا يحد . و التضعيف للمحدود، و تقول: ضعفت القوم أضعفهم ضعفاً: إذا كثرتهم، فصرت مع أصحابك على الضعف منهم، و ضعف الشيء: مثله فى المقدار.

و أضعفت الشيء إضعافاً، و ضعفته تضعيفاً، و ضاعفته مضاعفة، و هو الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر . و تضاعف الشيء تضاعفاً و ضعف ضعفاً. و الضعف خلاف القوة، لأنه قطع القوة عن التمام. و ضعف الشيء مثله فى المقدار إذا زيد عليه، فكل واحد منهما ضعف. و التضعيف: تكرير الخوف، و استضعفت الرجل استضعافاً، و أصل الباب الضعف . و هو زيادة المثل.

و قوله: «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ» قال الحسن، و ابن زيد فى الرزق، و حكى الزجاج: أنه يقبض الصدقات و يبسط الجزاء عليها عاجلاً، و آجلاً عليها.

و القبض خلاف البسط و القبض ضم الكف على الشيء قبضه قبضاً و تقبض عنه تقبضاً: إذا اشماز منه، لأنه ضم نفسه عن الانبساط إليه. و انقبض انقباضاً، و قبضت الرجل تقببياً: إذا أعطيته لانضمام كفه على ما أخذه. و رجل قببض:

إذا كان منكمشاً سريعاً لتجمعه للأسراع. و راع قبضة: إذا كان لا يتفصح فى رعيه، لانقباضه. و التقبض: التشنج. و قبض الإنسان: إذا مات. و الملك قابض الأرواح.

و البسط خلاف القبض تقول: بسط يبسط بسطاً، و انبسط انبساطاً، و بسطه تبسيطاً، و تبسط تبسطاً. و البساط - بكسر الباء - ما بسطته. و البساط - بفتح الباء - الأرض الواسعة، و ناقة بسط: معها ولدها لانبساطه. و البسطة: الفضيلة فى

(٢) سورة الأحزاب آية: ٣٠.

ص: ٢٨٧

الجسم أو المال، و نحو ذلك «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ، وَ الْجِسْمِ» «١» و كتب (بسطه) بالصاد، و بسطه بالسين، لأن القلب على الساكن أقوى منه على المتحرك.

المعنى:

و معنى «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» التلطف في الاستدعاء الى أعمال البرّ و الإنفاق في سبيل الخير.

و جهلت اليهود لما نزلت هذه الآية، فقالوا الله يستقرض منا فنحن أغنياء و هو فقير إلينا ! فأنزل الله تعالى «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ» «٢» ذكره الحسن و الهاء في قوله: «وَاللَّهُ تَرْجِعُونَ» عائده الى الله.

و معناه الى الله ترجعون في الآخرة. و قيل الى التراب الذي خلقكم منه ذكره قتادة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَ أَبْنَانَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع عسيتم بكسر السين. الباقون بفتحها.

اللغة:

الملا: الجماعة الأشراف من الناس و روى أن رجلا من الأنصار قال يوم

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٨١.

بدر: إن قتلنا أبا عجاز صلعا «١».

فقال النبي (ص): أولئك الملا من قريش لو رأيتهم في أنديةهم لهبتهم، و لو أمروك لأطعتهم، و لاحتقرت فعالك عند فعالهم .

و تقول ملأت الإناء أملاه ملاء إذا أترعته، لأنه يجتمع فيه ما لا يكون معه مزيد عليه، و امتلأ امتلاء : إذا طفح، و ملأت الرجل: إذا عاونته مملأة.

و تمالؤوا على: إذا تعاونوا. و ملوء الرجل ملاءة، فهو ملئ بالأمـر: إذا أمكنه القيام به . و وعاء ملآن و الأثنى ملآى، و الجمع : ملاء. و الملاء: الجماعة من الناس يستجمعون للمشاورة. و الجميع الاملاء قال الشاعر:

و قالت لنا الاملاء من كل معشر
و خير أقاويل الرجال سديدها

و الاملاء: الربطة و أصل الباب الاملاء، و هو الاجتماع فيما لا يحتمل المزيد، و منه شاب مالى العين أى قد اجتمع له من الحسن فى العين ما ليس عليه مزيد.

و الملاء: الخلق، لأن جميع أفعال صاحبه تجرى عليه.

المعنى:

و قال السدى: إن النبي الذى قالت له بنو إسرائيل ما حكاه يقال : شمعون سمته أمه بذلك لأن الله سمع دعاءها فيه . و قال قتادة: هو يوشع بن نون. و قال وهب بن منية:

هو شمويل، و هو المروى عن أبي جعفر (ع).

و كان سبب سؤالهم هذا استدلال الجبابرة لهم من الملوك الذين كانوا فى زمانهم إياهم على قول وهب، و الربيع . و قال السدى: قتال العمالة. و إنما سألوا ملكا، ليكون أمراً عليهم تنتظم به كلمتهم، و تجتمع أمورهم، و يستقيم حالهم فى جهاد عدوهم .

الاعراب، و اللغة:

و أكثر النحويين على الجزم فى «نقاتل» مع النون، و قالوا: لا يجوز غير

(١) هكذا في المطبوعة، و في مجمع البيان (ان قتلنا عجائز صلعاً). و رواه لسان العرب في (صلع)، قال: و في حديث بدر ما قتلنا الا عجائز صلعاً: أى مشايخ صلعا. و في (ملاً) قال:

و يروى أن النبي (ص) سمع رجلاً من الأنصار - و قد رجعوا من غزوة بدر - يقول: ما قتلنا الا عجائز صلعا، فقال (ص): أولئك الملاً من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك.

ص: ٢٨٩

الجزم. و أجاز الزجاج الرفع على ضعف فيه على تقرير: فانا نقاتل في سبيل الله. و لو كان بالتاء لجاز الرفع على أن يكون صفه للملك. و الجزم على الجواب، كما قال «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي» «١» بالجزم، و الرفع. و لو كان (نقاتل معه) لحسن الرفع أيضاً لعائد الذكر، و لا يجوز أن تقول: الذي مررت زيد، تريد: به. و دخلت (أن) في قوله: «ما لنا ألا نقاتل في سبيل الله»، و أسقطت في قوله: «و ما لكم لا تؤمنون بالله» «٢» لأحد ثلاثة أشياء:

أولها - دخلت (أن) لتدل أن فيه معنى: ما منعنا من أن نقاتل، كما دخلت الباء في خبر هل لما تضمنت معنى ما قال الفرزدق يهجو جريراً، و يذكر أن أباه كان ينكح اتاناً «٣».

يقول إذا اقلولي عليها و أقردت ألا هل أخو عيش لذيد بدائم «4»

معنى اقلولي: علاها، و معنى أقردت: ذلت.

و أما سقوطها في الموضع الآخر، فعلى الأصل كأنه قيل: ما لنا غير مقاتلين، كما قال: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ» «٥» هذا قول الفراء.

الثاني - أن تكون (أن) زائدة في قول الأخفش، و هو ضعيف، لأنه لا يجوز الحمل على الزيادة لا لضرورة.

الثالث - على حذف الواو كأنه قال: و ما لنا و لأن نقاتل، كما قالوا: إياك أن تتكلم بمعنى إياك و أن تتكلم. قال الرماني: و هذا ليس بالوجه، لأنه لا يحكم أحد بالحذف، و لا بالزيادة إلا عند الضرورة قال الشاعر:

فبح بالسرائر في أهلها و إياك في غيرهم أن تبوحا «6»

فالآية مستغنية عن الواو مثل البيت سواء قال الشاعر:

فإياك المحايين أن تحينا

(١) سورة مريم آية: ٤.

(٢) سورة الحديد آية: ٨.

(٣) في المطبوعة (انائاً) بدل (أتاناً).

(٤) ديوان جرير ٢: ١٢٨، و اللسان (قرد) و رواية الديوان (ليس ذو) بدل (هل أخو) و رواية اللسان (تقول) بدل (يقول).

(٥) سورة المدثر آية: ٤٩.

(٦) معاني القرآن للفراء ١: ١٦٥.

ص: ٢٩٠

فإنما هو على احذر المحايين لا على إضمار (أن). وقال المبرد في (ما) وجه آخر، وهو أن يكون جحداً، و يكون تقديره : ما لنا ترك القتال. و على الوجه الأول (ما) استفهام، و إنما جاز، مالك أن تقوم، و لم يجوز مالك أن قمت، لأن المنع إنما يكون على الاستئناف، تقول: منعه أن يقوم، و لا يجوز أن يقوم منعه أن قام، كذا قال الفراء في الكلام حذف، و تقديره : «وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأُتْبِئْنَا» فسأل، فبعث، فوجب عليهم القتال «فلما كتب» «تولوا»، و إنما وجب أن يكون محذوفاً، لأن الكلام لا يدل عليه إلا من جهة الذكر له أو الحذف منه، فأما ما يدل عليه الكلام من غير جهة الذكر له، أو الحذف منه، فليس بمحذوف نحو قد عُرف زيد، فانه يدل على أنه عرفه عارف، و ليس بمحذوف، لأنه لم يدل عليه من جهة الذكر له و لا الحذف منه.

و عسيتم - بكسر السين - لغة، و الفتح أكثر . و قوله: «إِلَّا قَلِيلًا» لا يجوز فيه الرفع، لأنه استثناء بعد موجب، و كذلك قوله : «فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا» لا يجوز فيه الرفع.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٧]

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

قال السدى، و وهب بن منبه : إنما أنكروا أن يكون طالوت ملكاً، لأنه لم يكن من سبط النبوة، و لا سبط المملكة بل كان من أجمل سبط فى بنى إسرائيل.

ص: ٢٩١

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ» معناه اختاره فى قول ابن عباس، و ابن زيد، و أصله الصفوة من الأنداس.

و قوله: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» قيل فى معناه قولان:

قال الحسن: زيادة فى العلم و عظماً فى الجسم. و قال الجبائى: كان إذا قام الرجل، فبسط يده رافعاً لها نال رأسه.

اللغة:

يقال: جسم يجسم جسامه يعنى ضخم ضخامة. و رجل جسيم: عظيم الخلق.

و جسمه تجسيماً، و تجسم تجسماً. و هو أجسم منه أى أضخم. و أصل الباب الضخم.

و الجسم: هو الذاهب فى الجهات الثلاثة: الطول و العرض و العمق.

الاعراب و المعنى:

و إنما لم يصرف (طالوت)، و صرف (جاموس) إذا سميت به، و إن كانا أعجميين - فى قول الزجاج - لأنه لما كان يدخله الألف و اللام نكر، نحو قولهم:

الجاموس. و كلما أعرب فى حال تنكيره فانه لا يعتد بالعجمة فيه، لأنه بمنزلة ما أصله عربى فأما ما أعرب فى حال تعريفه، فليس كذلك، لأنه لم يستعمل إلا على احدى الحالين دون الأخرى، فنقل لذلك.

و قوله: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» قيل فى معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - واسع الفضل، فحذف، كما حذف في قولهم : فلان كبير أى كبير القدر . الثانى - واسع بمعنى: موسع أى يوسع على من يشاء من نعمه، كما جاء (أليم) بمعنى: مؤلم. و الثالث - واسع بمعنى ذو سعة نحو «عَيْشَةُ رَاضِيَةٌ» أى ذات رضى، وهم ناصب أى ذو نصب. و تامر، و لاین، أى ذو تمر و ذو لبن . و يجىء باب فى فاعل بمعنى ذو كذا . و قوله: «عليم» أى عليهم بمن ينبغى أن يؤتیه الفضل إما للاستصلاح، و إما للامتحان . قال البلخى: و فى الآیة دلالة على فساد قول من قال بأن الامامة وراثه، لان الله تعالى رد عليهم ما أنكروه من التعليل

ص: ٢٩٢

عليهم من ليس من أهل النبوة، و لا المملكة، و بين أنه يجب بالعلم و القوة لا بالوراثه.

و قال أصحابنا فيها دلالة على أن من شرط الامام أن يكون أعلم رعيته و أفضلهم فى خصال الفضل، لأن الله تعالى علل تقديمه عليهم بكونه أعلم و أقوى فلو لا أنه شرط و إلا لم يكن له معنى.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٨]

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)

آية.

المعنى:

قال الحسن: وجه الآية فى التابوت أن الملائكة كانت تحمله بين السماء و الأرض يرونه عياناً و قال ابن عباس و وهب: إن الله انتزعه من أيدي أعدائهم الذين نهبوه منهم، فردّ عليهم «تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ» و قيل:

إن التابوت كان فى أيدي أعداء بنى إسرائيل من العمالة الذين غلبوهم عليه - على قول ابن عباس، و وهب - ، و روى ذلك عن أبى عبد الله (ع).

و قال قتادة: كان فى بريّة التيه: خلفه هناك يوشع ابن نون . و قال وهب بن منبه : كان قدر التابوت نحواً من ثلاث أذرع فى ذراعين.

و روى عن على (ع)، أنه قال: السكينة التى كانت فيه ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان.

و قال مجاهد لها رأس كراس الهرة، و روى ذلك فى أخبارنا.

و قال وهب: روح من الله تكلمهم بالبيان عند وقوع الاختلاف. و قال عطا: كان فيه آية يسكنون إليها.

و السكينة مصدر وقع موقع الاسم نحو القضية و البقية و العزيمة و أخذ من معنى السكون لأن نفوسهم تسكن إليه و البقية التي ترك آل موسى، و آل هارون. قال

ص: ٢٩٣

ابن عباس، و قتادة، و السدي:

إنها عصا موسى و رصاص للالواح، و هو المروى عن أبي جعفر.

و قال أبو جعفر التابوت هو الذى وضعت أم موسى فيه موسى حين ألقته فى اليم . و أقوى هذه الأقوال أن يحمل على أنه كان فيه ما يسكنون إليه، و يجوز أن يكون ذلك عصا موسى و الرصاص، و غير ذلك مما اختلفوا فيه بعد أن يكون فيه ما تسكن النفس إليه، لأنه تعالى بين أن فيه سكينه، و هى فعيلة من السكون، و لا يقطع بشىء من ذلك إلا بدليل يوجب العلم . و قال الحسن: كان فيه التوراة و شىء من ثياب موسى.

اللغة:

و فى التابوت لغتان فلغة جميع العرب إلا الأنصار: التابوت بالناء. و الأنصار تقول: التابوه بالهاء. و يقال: بقى بقاء و أبقاء إبقاء و استبقاه استبقاء و تباه تبقياً و تباقي تباقياً و باقاه مباقاة. و منه بقايا الخراج. و أصل الباب البقاء: خلاف الفناء.

و قوله: «تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ» تقول: حمل يحمل حملاً و احتمل احتمالا و تحامل تحاملاً.

و تحمل تحملاً و حملاً تحميلاً و حامله محاملة. و انحمل انحمالاً و استحمل استحمالاً.

و الحمل من الضأن: الخروف. و الحمل: السحاب الكثير الماء. و الحمل: ما فى البطن.

و الحمل: ما على الظهر. و الحماله علّاقة السيف. و المحمل: الذى يوكبه الناس و الحماله الديّة، يتحملها قوم عن قوم و الحميل: الكفيل، و الحميل الغريب لأنه يحمل على القوم و ليس منهم . و حميل السيل: غثاؤه. و امرأة حامل: حبلى لحملها الولد . و حملت فلاناً على فلان: إذا حرشته عليه، لأنك حملته على مكروهه . و الحموله الإبل لأنها يحمل عليها الأثقال . و أصل الباب الحمل: كون الشىء على الشىء و قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» معناه إن كنتم مصدقين و لا يجوز أن يكونوا على تثبيت الايمان لهم، لأنهم كفروا حين ردّوا على نبيهم. و قيل: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤٩]

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

ص: ٢٩٤

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ «غرفة» - بالفتح - ابن كثير، و أبو عمرو، و نافع. الباقر بالضم، و هما لغتان.

اللغة:

قوله: «فَلَمَّا فَصَلَ» معناه قطع، و الفصل: القطع. يقال فصل اللحم عن العظم أى قطعه فأبانه عنه، و فصل الصبي فصلاً: إذا قطعه عن اللبن. و قول فصل أى يفصل بين الحق و الباطل. و الجنود جمع جند قال السدى: كانوا ثمانين ألف مقاتل، و الأجناد جمع القلة. و جند الجنود تجنيداً أى جمعهم. و الجند الأرض الغليظة و كل صنف من الخلق: جند على حدة. و فى الحديث: الأرواح جنود مجندة. و أصل الباب الجند: الغليظ من الأرض.

المعنى:

قوله: «إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ» فمعنى الابتلاء هاهنا تمييز الصادق من الكاذب فى قوله - على قول الحسن - . و قال وهب بن ميثم: السبب الذى لأجله ابتلوا بالنهر شكايتهم قلة المياه، و خوف التلف من العطش . و النهر الذى ابتلوا به، قال ابن عباس، و الربيع، و قتادة: هو نهر بين الأردن، و فلسطين. و روى عن ابن عباس

ص: ٢٩٥

أيضاً أنه نهر فلسطين. و قوله: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ» الهاء عائدة على النهر فى اللفظ، و هو فى المعنى الماء.

و قوله: «فَلَيْسَ مِنِّي» معناه ليس على ديني، و لا من أهل ولايتي، فحذف و دلت من عليه.

اللغة:

و يقال: طعم الماء كما يقال طعم الطعام و أنشدوا.

و إن شئت لم أطمع تقاخاً و لا برداً

و الغرفة بالفتح المرء من الغرف . و الغرفة بالضم ملء الكف من الماء، فالغرفة اسم للماء المغروف و الغرفة اسم للفعل . و قال بعضهم الاختيار الضم لأنه لو جاء على معنى المرء، لكان اغترافه . و هذا ليس بشيء، لأنه إذا كان المعنى واحداً جاز اغترافه، لأنه الأصل و جاز غرفة، لأنه أخف، و كلاهما حسن . و يقال غرف يغرف غرفاً و اغترف اغترافاً و المغرفة الآلة التي يغرف بها . و غرف غروف أى كبير و الغريف:

ماء فى الاجمة، لأنه يغرف من بين القصب . و مزادة غربية مدبوغة بالغرف : و هو جنس من الدباغ . و الغريف شجر مجتمع من أى شجر كان. و الغرفة العلية. و أصل الباب الغرف.

المعنى:

و قال ابن عباس، و قتادة، و الربيع: من استكثر من ذلك الماء عطش، و من لم يشرب إلا غرفة روى. و قال الفراء، و الحسن، و قتادة، و الربيع : و الذين جازوا النهر مع طالوت كان عددهم مثل عدد أهل بدر، و هم ثلاثة و بضعة عشر، و هم المؤمنون خاصة. و قال ابن عباس، و السدى: جاوزه الكافر، و المؤمن إلا أن الكافرين انخلوا عنهم، و بقى المؤمنون على عدد أهل بدر. و هذا قوى، لقوله تعالى:

«فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»، فلما رأوا كثرة جنود جالوت قال الكفار منهم «لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ» و قال المؤمنون حينئذ الذين عدتهم عدة أهل

ص: ٢٩٦

بدر «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» قال البلخى: و يجوز أن يكونوا كلهم مؤمنين، غير أن بعضهم أشد إيقاناً و أقوى اعتقاداً، و هم الذين قالوا: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ».

اللغة:

و تقول: جاز الشيء يجوزه: إذا قطعه. و أجازة إجازة: إذا استصوبه.

و الشيء يجوز: إذا لم يمنع منه دليل. و اجتاز فلان اجتيازاً، و استجاز فعل كذا استجازه. و تجوز فى كلامه تجوزاً. و تجاوز عن ذنبه تجاوزاً. و جاوزه فى الشيء تجاوزه، و جوزه تجويزاً. و جوزه كل شيء وسطه بمجاز الطريق، و هو وسطه الذى يجاز فيه : و قيل هذا اشتقاق الجوزاء، لأنها تعرض جوزه السماء أى وسطها، و أما الجوز المعروف، ففارسي معرب . و الجواز الصك للمسافر. و المجاز فى الكلام، لأنه خروج عن الآجل الى ما يجوز فى الاستعمال . و أصل الباب الجواز: المرور من غير شيء يصد، و منه التجاوز عن الذنب، لأن المرور عليه بالصفح.

المعنى:

و قوله: «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الذين يستيقنون، ذهب إليه السدي قال دريد بن الصمة:

سراتهم في الفارسي المسرد

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج

أى أيقنوا و قيل إنه استعاره فيما يكفى فيه الظن حتى يلزم العمل، فكيف المعرفة، فجاء على وجه المبالغة في تأكيد لزوم العمل.

الثانى - يحدثون نفوسهم و هو أصل الظن، لأن حديث النفس بالشىء قد يكون مع الشك و مع العلم إلا أنه قد على ركبت ما كان مع الشك.

الثالث - يظنون أنهم ملاقوا الله بالقتل في تلك الواقعة.

و قوله: «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ» الفتنة: الطائفة من الناس، و الجمع: فئين و فئات. و لا يجوز في عدة إلا عدات، لأن نقص عدة من أوله . و ليس كذلك فتنة، و ما نقص

ص: ٢٩٧

من أوله يجرى في الباب على اطراد بمنزلة غير المنقوص، فأما فتنة و مائة . و ثبة و عزة، فان النقص فيه على غير اطراد، كما يكون في عدة، و صلة، و زنة، و صفة، و جهة.

و تقول فأوت رأسه بالسيف إفاءً و فأوأ : إذا قطعته و انفاء الشىء إنفاءً: إذا تقطع و أصل الباب القطع، فمنه الفتنة، لأنهم قطعة من الناس.

و قوله: «غلبت» تقول: غلب يغلب غلباً و غالبه مغالبةً و تغالبوا تغالباً.

و تغلب تغلباً و غلبه تغليباً. و أشد أغلب: إذا كان غليظ العنق. و رجل أغلب كذلك، لأنه من إمارة الغلب. و اغلولب العشب إذا كثر لأنه غلب على غيره بكثرته. و أصل الباب الغلب: القهر.

المعنى:

و قوله: «بِإِذْنِ اللَّهِ» معناه بنصر الله على قول الحسن، لأن الله إذا أذن في القتال نصر فيه على الوجه الذي أذن فيه و يجوز في (كم) الجر و النصب و إن كان على معنى الخبر في قول الفراء . و في الآية حذف لدلالة «١» ما بقى عليه و هو فأتاهم التابوت بالصفة التي وعدوا بها، فصدّقوا لأن قوله «فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ» بعد تلك المنازعة منهم ينبي أن الآية أُنْتَهَمَ، فانقادوا لأجلها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٠]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)

آية بلا خلاف.

اللغة:

البروز الظهور للقتال، و منه البراز، و هى الأرض : الفضاء. تقول: برز يبرز بروزاً، و بارزه مبارزة، و تبارز تبارزاً، و برز تبريزاً، و تبرز تبرزاً. و رجل

(١) فى المطبوعة الاله

ص: ٢٩٨

برز، و امرأة برزة أى ذو عفة و فضل، لظهور ذاك فيها . و الجنود الجموع التى تعد للقتال واحدها جند، مأخوذ من الجند و هو الغلظ.

و قوله: «رَبَّنَا أَفْرِغْ» فالافراغ: صب السبال على جهة اخلاء المكان منه «١» و أصله الخلو. و إنما قيل «أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا» تشبيهاً بتفريغ الإناء من جهة أنه نهاية ما توجه الحكمة، كما أنه نهاية ما فى الواحد من الآنية . و تقول فرغ يفرغ فراغاً، و أفرغ إفراغاً، و فرغ تفريغاً و تفرغ تفرغاً، و استفرغ استفرغاً، و افتراغاً : إذا صببت عليك الماء . و قوله: «سَنَفَرُّ لَكُمْ أُيَّهِ الثَّقَلَانِ» «٢» معناه سنعمد، لأنه عمل مجرد من غير شاغل، و منه قوله : «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا» «٣» أى خالياً من الصبر و الفراغ مفرغ الدلو، و هو خرقة الذى يأخذ الماء، لأنه يفرغ منه الماء «وَأَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا» أى صبّ. و درهم مفرغ أى مصبوب فى قالب. و ضربة فريغة: واسعة. و فرغ الإناء، و فرغ الرجل من عمله.

و أصل الباب الفراغ الخلو.

و قوله: «وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا» تثبيت الأقدام يكون بشيئين: أحدهما - بتقوية قلوبهم. و الثانية - بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم حتى يظهر منهم الخور فى قتالهم و قيل باختلاف كلمتهم حتى يقع التخاذل منهم، و كذلك الصبر، لأنه من فعل العبد كما أن الثبوت فى الحرب من فعله، لأنه يجازى عليه ، فأما النصر، ففعل الله تعالى، و الصبر : حبس النفس عما تنازع إليه من الفعل . و هاهنا

حبسها عما تنازع إليه من الفرار من القتال . و التثبيت تمكين الشيء في مكانه بلزومه إياه . و قد يقال ثبت يشبث ثبوتاً، و أثبتته إثباتاً و تثبت تثبتاً، و استثبت استثباتاً، و ثبتته تثبیتاً. و رجل ثبت المقام : إذا كان شجاعاً لا يبرح موقفه، و طعنه فأثبت فيه الرمح أى نفذ فيه، لأنه يلزم فيه . و أثبت حجته إذا أقامها . و القول الثابت الصحيح يلزم العمل عليه، و منه قوله : «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» أى يؤدبهم به ليلزموا طريق

(١) فى المطبوعة (على جهة الاخلاص منه المكان).

(٢) سورة الرحمن آية: ٣١.

(٣) سورة القصص آية: ١٠.

ص: ٢٩٩

الحق فيه. و فلان ثبت أى ثقة مأمون فيما روى. و أثبت الحسنات فى الدفتر، لأنك ضبطه، و أصل الباب للزوم.

و قوله : «فانصرنا» النصر: هو المعونة على العدو، و يكون ذلك بأشياء منها بزيادة القوة، و منها الرعب من الملاقاة، و منها الاطلاع على العورة، و منها تخيل الكثرة، و منها اختلاف الكلمة التى تقع بلطف فى إعطاء النصر، و الفرق بين النصر، و اللطف : أن كل نصر من الله، فهو لطف، و ليس كل لطف نصراً، لأن اللطف يكون فى إحدى طاعاته بدلا من معصيته، و قد يكون فى فعل طاعة من النوافل فأما العصمة فلا تكون إلا من معصية.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥١]

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

آية.

القراءة:

قرأ نافع، و أبان عن عاصم «دفاع الله» الباقيون «دفع» بلا ألف.

المعنى:

فى الآية حذف و تقديره فاستجاب لهم ربهم، فهزموهم بنصره لهم، لأن ذكر الهزيمة «١» بعد سؤال النصر دليل على أنه كان على معنى الاجابة.

اللغة:

و الهزم: الدفع، تقول: هزم القوم في الحرب يهزمهم هزماً: إذا دفعهم بالقتال هرباً منه، و انهزموا انهزاماً، و تهزم السقاء: إذا يبس، فتصدع لاندفاع بعضه على بعض، و الاهتزام الذبح تقول العرب: اهتزموا شاتكم قبل أن تهزل فتهلك،

(١) في المطبوعة (الهزبة).

ص: ٣٠٠

لدفع صاعها بتذكيته. و الهزيمة: دفعك الشيء بقوة حتى تدخل عن موضعه في الجسد، و زمزم ه زمة، جبرئيل لإسماعيل (ع) و المهزم خشبة يحرك بها الجمر، لأنها يرفع بها بعضه عن بعض، و هزيمة الرعد صوته، و أصابتهم هزيمة من هوازم الدهر أي داهية كاسرة، لأنها كهزيمة الجيش في البلية، و هزمت عليك أي عطفت عليك.

المعنى:

فالأولى أن يكون القوم هزمهم حقيقة لأنهم سنوا الهزيمة بأن فعلوا ما يلجنهم اليها و قال الجبائي : ذلك مجاز، لأنهم لم يفعلوا هزيمتهم، كما يقال: أخرجه من منزله إذا ألجأه الى الخروج، و لم يفعل خروجه، و هذا ليس بصحيح، لأنه ليس معنى هزمه فعل هزيمته، ليكون إذا صرف عن ذلك الى معنى غيره يكون مجازاً في العبارة بل معناه ما قلناه.

و قوله: «يَا ذَنْ اللَّه» يحتمل أمرين: أحدهما - بأمر الله. و الثاني بعلم الله.

و قيل: إن سبب قتل داود جالوت كان أن جالوت طلب البراز، فخرج إليه داود (ع) فرماه بحجر مقلاع فوقع بين عينيه و خرج من قفاه، فأصاب جماعة كثيرة من أهل عسكره فقتلهم، و انهزم القوم عن آخرهم، ذكر ذلك وهب بن منبه و غيره من المفسرين.

و قوله: «و آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ» قيل في معناه قولان: أحدهما - أنه جمع له الملك و النبوة في حالة واحدة. و الآخر - أنه اختصه من علم السمع بحكمة لم يؤتها غيره.

و قوله: «و عَلمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» معناه أنه علمه أمور الدين و ما يشاء من أمور الدنيا، منها صنعة الدرع و عمل السرد، ذكره الزجاج، و الطبري. فان قيل:

ما الفائدة في قوله: «و عَلمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» إذا كنا لا ندري ما الذي شاء من ذلك؟

قيل هو تعالى و إن لم يشرح لنا ما علمه فقد بين لنا أنه خصه من العلم بعد علم الدين بما لم يؤته غيره، لأن غيره من المؤمنين إنما نعلم ما دله الله عليه من أمر دينه

ص: ٣٠١

و دنياء، و كان داود مساوياً لهم في ذلك إن لم يكن أكثرهم علماً فيه، لأنه كان مؤمناً مثلهم، و كان معهم في أمورهم، فلما بي ن لنا أنه «آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» بعد قتل جالوت، علمنا أنه كان خصه بما ذكره من الملك و الحكمة، و خصه منه بما لم يخص به أحداً سواه.

و قوله: «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها -

يدفع الله بالبر عن الفاجر الهلاك، هذا قول علي (ع) و هو المروى عن أبي جعفر محمد بن علي (ع)

، و به قال مجاهد . الثاني - يدفع باللطف للمؤمن و الرعب في قلب الفاجر . أن يعم الأرض الفساد . الثالث - قال الحسن، و البلخي:

يزغ الله بالسلطان فلا يزغ بالقرآن، لأنه يغنيه على دفع الأشرار عن ظلم الناس، لأنه يريد منه المنع من الظلم و الفساد، كان مؤمناً أو فاسقاً.

اللغة:

و أصل الدفع: الصرف عن الشيء، دفع دفعاً، و دافع مدافعةً و دفاعاً، و اندفع اندفاعاً، و تدافع تدافعاً، و تدفع تدفعاً، و دفعه تدفيعاً، و استدفع استدفاعاً.

و الضيف المدفع، لتدافع الحي به لاحتقاره. و الدفاع السيل لتدافع بعضه على بعض.

و الدفعة اندفاع الشيء جملةً. و رجل مدفع أى عن نسبه.

الحجة:

و قال الحسن: لم يكن داود نبياً قبل قتله جالوت، لأنه لا يجوز أن يتراًس من ليس بنبي على نبي لأنه قلب ما يوجب تدبير الحكماء، لأن النبي يوثق بظاهره و باطنه و لا يخبر إلا بالحق و لا يدعو إلا الى حق، و ليس كذلك من ليس بنبي من أهل العقل.

و من قرأ «دفاع» بألف فوجهه: أن الله لما أعان أوليائه على مدافعة أعدائه حتى هزموهم، حسن إضافة الدفاع إليه، لما كان من معاونته، و إرادته له.

و فى الآيۃ دلالة على فساد قول المجبرۃ : إنه ليس لله على الكافر نعمه، لأنه قال : «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» فعم الجميع بالنعمة و لم يخص، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» و يفسد به أيضاً قولهم : فى الإرادة و أن جميع ما أعطى الله الكفار إنما هو ليكفروا لا ليؤمنوا، و ما روى أن طالوت هم بقتل داود لما رأى أن وجوه الناس أقبلت عليه بقتله جالوت رواية شاذة، فان صحت دلت على أن طالوت لم يكن نبياً، و لا إماماً، لأن النبى أو الامام لا بد أن يكون معصوماً.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٢]

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

الآيات المذكورة فى هذه الآيۃ المراد بها ما تقدم ذكره من إمامة ألوف من الناس دفعة واحدة بخلاف ما جرت به ال عادة ثم أحياهم فى مقدار ساعة، و من تمليك طالوت و قد كان من الخاملين الذين لا تنقاد لهم النفوس بما جعله له من الآيۃ علماً على تمليكه، و من نصرۃ أصحاب طالوت مع قلۃ عددهم، و ضعفهم على جالوت و جنوده مع قوتهم و كثرة عددهم و شدة بطشهم حتى قهروهم و استعلوا عليهم، و كل ذلك مما لا يقدر عليه غير الله تعالى فهو دلالة عليه.

و قوله: «وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» دليل على نبوته على وجوه : منها ما فى الأحياء بما تقدم من الدلالة على النبوة . و منها أنه يجب التصديق بتلك الأمور لنبوته (ع). و منها أنه أوحى إليه به، كما أوحى الى المرسلين، لأنه سنة الله عزّ و جل فى مثله . و منها الاستدعاء الى القيام بما أرسل به بعد قيام الحجة عليه . و منها أنه كما نصب تلك الآيات جعلك من المرسلين لما فى ذلك من الحكمة التى تدعو الى صلاح المكلفين . و إنما صارت الأخبار بذلك دلالة على النبوة من جهة أنها أخبار عن عيون لم تشهدوا و لا خالط أهل المعرفة بها، و متى قال قائل : إنه أخذها عن أهل العلم بالأخبار، فان قوله يبطل، لأنه لو كان كذلك لم يتكلم لخروجه عن العادة كخروج أن يصير انسان من أعلم الناس بصناعة لم يشهدها و لا خالط

أهلها، و لأن فى أنبيائه تثبت معجزة من غير تلك الجهة، و هو المنع من الاذاحة مع توفر الأسباب الداعية الى الحديث به، و لا نشر له و هذا مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

اللغة:

و الرسالة تحمل جملة من الكلام لها فائدة الى المقصود بالدلالة . و الحق هو وقوع الشىء موقعه الذى هو له من غير تغيير عنه بما لا يجوز فيه. و التلاوة: ذكر الكلمة بعد الكلمة من غير فاصلة، لأن التالى للشىء يليه من غير فصل بغيره.

و الأصل: التلوّ و هو إيقاع الشىء بعد الشىء الذى يليه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَا هُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَ لَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

آية واحدة بلا خلاف.

إنما ذكر الله تعالى تفضيل بعضهم على بعض، لأمر : منها أن لا يغلط غلط منهم، فيسوّى بينهم في الفضل. كما استووا في الرسالة، و ثانيها أن يبين أن تفضيل محمد (ص) كتفضيل من مضى من الأنبياء بعضهم على بعض . و ثالثها - أن الفضيلة قد تكون بعد أداء الفريضة . و المراد الفضيلة المذكورة هاهنا ما خص كل واحد منهم من المنازل الجليّة التي هي أعلى من منزلة غيره، نحو كلامه لموسى بلا سفير، و إرساله محمداً (ص) الى الكافة من الناس المكلفين و الجن المتعدين، هذا قول مجاهد.

ص: ٣٠٤

و يحتمل فضلناهم بأعمالهم التي استحقوا بها الفضيلة على غيرهم . و الفرق بين الابتداء بالفضيلة و بين المحاباة ان المحاباة اختصاص البعض بالنفع على ما توجه الشهوة دون الحكمة، و ليس كذلك الابتداء بالفضيلة، لأنه قد يكون للمصلحة التي لولاها لفسد التدبير و أدى الى حرمان الثواب للجميع. فمن حسن النظر لهذا الإنسان تفضيل غيره عليه إذا كان في ذلك مصلحة له فهذا وجه تدعو إليه الحكمة و ليس كالوجه الأول الذي انما تدعو إليه الشهوة.

و قوله: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» معناه قويناه. و الروح: جبريل. و القدس الله - على قول الحسن - و قال ابن عباس : روح القدس: الاسم الذي كان يحيى به الموتى. و الضمير في قوله: «مِنْ بَعْدِهِمْ» عائذ على الرسل. و قال قتادة، و الربيع:

على عيسى و موسى (ع). و جاز بلفظ الجميع، لأن ذكرهم قد يغني عن ذكر المتبعين لهم . كما يقال: خرج الأمير فانكوا في العدو نكايّة عظيمة.

و قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا» إخبار عن قدرته على إلجائهم على الامتناع من الاقتتال، أو بأن يمنعهم من ذاك . هذا قول الحسن و غيره. و جملته انه أخبر انه قادر على أن يحول بينهم، و بين الاقتتال بالإلجاء و الاضطرار . و مثله «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا» «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً» فان جميع ذلك دلالة على قدرته عليه م. و لا يدل قوله «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا» على أنه قد شاء اقتتالهم، لأنه إذا احتمل الكلام وجهين: أحدهما - يجوز عليه و الآخر لا يجوز عليه، و جب حملة على ما يجوز عليه، دون ما لا يجوز عليه، فذلك كان تقدير الكلام و لو شاء الله امتناعهم بالإلجاء م اقتتلوا. و نظيره قول القائل و لو شاء السلطان الأعظم، لم يشرب النصارى الخمر في سلطانه و لا نكحت المجوس الأمهات و البنات و ليس في ذلك دليل على أنه قد شاءه و إنما كرر قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا» لاختلاف المعنى. فمعنى الأول لو شاء الله ما اقتتلوا قتالهم، و يجوز أن يكون لتأكيد البينة على هذا المعنى. و قال قوم: الأول معناه لو شاء الله ما اقتتل

ص: ٣٠٥

المحقون، و المبطلون بأن يحول. بينهم، و بينهم. و الثانى لو شاء الله ما اقتتل المحقون فيما بينهم و المبطلون فيما بينهم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

آية واحدة.

القراءة:

قرأ أبو عمرو و ابن كثير «لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» بالنصب فيها أجمع. الباقيون بالضم.

المعنى:

قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» خطاب للمؤمنين يأمرهم بالإففاق مما رزقهم.

و الإففاق المأمور به على وجه الفرض هاهنا الزكاة و غيرها دون الفعل لأن ظاهر الامر الإيجاب فى قول الحسن . قال: لأنه مقرون بالوعيد. و قال ابن جريج: يدخل فى الخطاب الزكاة، و التطوع. و هو أقوى، لأنه أعم. و به قال البلخى. و ليس فى الآية وعيد على ترك النفقة. و انما فيها إخبار عن عظم أهوال يوم القيامة و شدائدتها.

و قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ» يعنى يوم القيامة.

اللغة:

«لَا بَيْعٌ فِيهِ» البيع هو استبدال المتاع بالثمن . تقول: باع يبيع بيعاً، و ابتاع ابتياعاً، و استباع استباعة، و بايعه مبايعه، و تبايعوا تبايعاً، و البيع: نقيض الشراء و البيع أيضاً الشراء لأنه تارة عقد على الاستبدال بالثمن، و تارة على الاستبدال بالمتاع.

و البيعة الصفقة على إيجاب البيع. و البيعة الصفقة على إيجاب الطاعة. و البيعان البائع

ص: ٣٠٦

و المشتري. و البيعة كنيسة النصارى و جمعها بيع.

و قوله: «لَا خَلَّةٌ». فالخلَّة خالص المودة. و الخلل: الافراج بين الشيئين. و خللته بالخلال أخله خلا: إذا صككته به و اختلت حاله اختلالاً، لانحرافه بالفقر. و تخلل الطرق تخللاً إذا قطع فرجةً بعد فرجة. و أدخل به إخلالاً، و خاله يخاله مخالَّة: إذا صافاه المودة.

و الخلّ معروف لتخلله بحدته، و لطفه فيما ينساب فيه. و الخل: الرجل الخفيف الجسم. و الخل: الطريق في الرمل. و الخل: عرق في العنق يتصل بالرأس. و الخليل:

الخالص المودة من الخلَّة، لأنه من تخلل الاسرار بينهما . و قيل لأنه يمتنع من الشوب - في المودة بالنقيصة - و الخليل أيضاً: المحتاج من الخلَّة. و الخلَّة: جفن السيف.

و في فلان خلَّة: أى خصلة. و الخلَّة خلاف الحصن لأنه مرعى بتخلفه الماشية للاعتداء به . و خلل أصابعه تخليلاً. و قوله تعالى: (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) «١» و قوله: «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ» «٢» و الخلال: البلج. و أصل الباب: الخلل:

الانفراج.

المعنى:

و قوله: «وَلَا شَفَاعَةً» و إن كان على لفظ العموم فالمراد به الخصوص بلا خلاف، لأن عندنا قد تكون شفاعَةٌ في إسقاط الضرر. و عند مخالفينا في الوعيد قد يكون في زيادة المنافع فقد أجمعنا على ثبوت شفاعَةٍ و إنما ننفي نحن الشفاعَةَ قطعاً عن الكفار . و مخالفونا عن كل مرتكب كبيرة إذا لم يتب منها.

و قوله: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» إنما ذم الله تعالى الكافر بالظلم و إن كان الكفر أعظم منه لأمرين:

أحدهما - للدلالة على أن الكافر قد ضر نفسه بالخلود في النار، فقد ظلم نفسه.

(١) سورة النور آية: ٤٣، و سورة الروم آية: ٤٨.

(٢) سورة الإسراء آية: ٥.

ص: ٣٠٧

و الآخر - أنه لما نفى البيع في ذلك اليوم و الخلَّة و الشفاعَةُ، قال و ليس ذلك بظلم منا، بل الكافرون هم الظالمون، لأنهم عملوا ما استحقوا به حرمان الثواب.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٥]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

آية واحدة «١».

الاعراب:

«اللَّهُ» رفع بالابتداء «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» خبره. و الكلام مخرجه مخرج النفي أن يصح إله سوى الله . و حقيقة الإثبات الآله واحد هو الله. كأنه قيل الله الآله دون غيره. و ارتفع هو في لا إله إلا هو على أحد وجهين:

أحدهما - بالابتداء كأنه قال ما إله إلا الله.

و الثاني - أن يكون بدلاً كأنه قال ما إله ثابتاً إلا الله. و يجوز في العربية لا إله إلا الله بالنصب على الاستثناء . و فيه دلالة على الامر بإخلاص العبادة لله تعالى.

اللغة، و المعنى:

و الحي هو من كان على صفة لا يستحيل معها كونه عالماً قادراً، و ان شئت قلت:

هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المدركات، إذا وجدت. و القيوم أصله قيوم على وزن فيعول. إلا أن الهاء الساكنة إذا كانت بعدها واو متحركة قلبت ياء و أدغمت فيها قياساً مطرداً. و القيام أصله قيوم على وزن فيعال.

و قيل في معنى القيوم، أربعة أقوال:

(١) و في مجمع البيان و المصحف الهاشمي آيتان، و في أكثر التفاسير آية واحدة.

ص: ٣٠٨

أحدها - قال الحسن إنه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم لا يخفى عليه شيء منه.

الثاني - قال سعيد بن جبیر: إن معناه الدائم الوجود.

الثالث - قال قتادة: معناه: القائم بتدبير خلقه.

الرابع - قال قوم: إن معناه العالم بالأمور من قولهم: فلان قيوم هذا الكتاب أى هو عالم به. و كل هذه الوجوه تحتل. و قال أميئة بن أبى الصلت:

لم تخلق السماء و النجوم و الشمس معها قمر يقوم

قدره المهيمن القيوم و الحشر و الجنة و الجحيم

إلا لأمر شأنه عظيم»¹

و قوله: «لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ» فالسنة النوم بلا خلاف قال عدى ابن الرقاع:

و سنان أقصده النعاس فرقت فى عينه سنة و ليس بنائم»²

فالسنة الثقلة من النعاس، تقول : وسن فلان وسناً إذا أخذته سنة النعاس، و قد علتة و سنة، و رجل و سنان و وسن، و امرأة و سنانة، و وسنى، و أصل الباب:

النعاس. و النوم الاستتقال فى النوم، تقول نام ينام نوماً و أنامه إنامة، و نومه تنويماً و تناوم تناوماً، و استنام إليه : إذا استانس إليه، و اطمأن الى ناحيته، لأن حاله معه كحالة النائم فى المكان أنساً به و أصل الباب النوم خلاف اليقظة.

و قوله: «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معناه أن أحداً ممن له شفاعَةٌ لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله له فى ذلك و يأمره به، فأما أن يبتدئ أحد بالشفاعة من غير إذن، كما يكون فيما بيننا، فليس ذلك لأحد.

(١) ديوانه: ٥٧، و تفسير أبى حيان ٢٥: ٢٧٧ و رواية أبى حيان (قمر يعوم) بدل (قمر يقوم) و فى تفسير الطبرى قد اجتهد محققه فأخطأ، لأنه اثبت (و الجسر) بدل (و الحشر) راجع صفحة ٣٨٨ من المجلد الخامس فى تفسير الطبرى.

(٢) الشعر و الشعراء: ٦٠٢، و اللسان (وسن)، (رنق).

ص: ٣٠٩

و قوله: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» قال: ابن جريج و مجاهد و السدى:

معناه ما مضى من الدنيا و ما خلفهم من الآخرة.

و قوله: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ» معناه من علومه، كقول القائل:

أَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لَنَا عِلْمَكَ فِينَا، فَإِذَا ظَهَرَتْ آيَةٌ يَقُولُونَ قَدَرَهُ اللَّهُ أَيْ مَقْدُورُ اللَّهِ و قوله:

«وَسِعَ كُرْسِيُّهُ» قال ابن عباس

كرسيه: علمه و هو المروى عن أَبِي جَعْفَرٍ، و أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع).

و قال الحسن: الكرسي هو العرش.

و قيل: هو سرير دون العرش و قد روى ذلك عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع).

و قيل: أصل ملكه. و كل ذلك محتمل.

أما العلم، فلأنه يقال للعلماء الكراسي، لأنهم المعتمد كما يقال : هم أوتاد الأرض، و هم الأصل الذى يعتمد عليه . و يقال لكل أصل يعتمد عليه. كرسى قال الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه و عصبه كراسى بالاحداث حين تنوب¹

أى علماء بحوادث الأمور. و قال آخر:

نحن الكراسى ما تعدّ هوازن أفعالنا فى النائبات و لا أسد

و قال آخر:

ما لى بأمرک کرسی کاتمه

و هل بکرسى علم الغيب مخلوق

و کل شیء تراکب فقد تکارس تکارساً، و منه الکراسه لتراکب بعض ورقها على بعض قال العجاج:

یا صاح هل تعرف رسماً مکرساً

قال نعم أعرفه و أبلساً»2

أى تکارس علیه التراب، فغطاه، و الكرّس البعر و البول: إذا تلبد بعضه على بعض، و الأکارس الجموع الکثیره، لا واحد له، لأنه بکثرته بمنزله ما تراکب بعضه على بعض. و رجل کروس شديد الرأس، لأنه تضاعف القوى کتراکب الشىء بعضه على بعض، و الکریاس: کنيف فى أعلى السطح بقناة الى الأرض، لتراکب

(١) أساس البلاغة (کرس).

(٢) ديوانه ١: ٣١، و التکامل ١: ٢٥٢، و اللسان (بلس)، (کرس). يقال:

ابلس الرجل أى سکت عما فى نفسه، و أنکر و تحير، و لم ينطق. و قد مر فى ١: ١٥٣

ص: ٣١٠

بعض أبنيته على بعض، و سمي الكرّسى بذلك، لتکريب بعضه على بعض. و يقال:

کرّسى الملك من مکان کذا الى مکان کذا أى ملکه تشبيهاً بالکرّسى المعروف.

و کرس يکرس کرساً، و أکرس إکراساً، و تکارس تکارساً، و تکرّس تکرساً، و کرّسه تکرّيساً، و أصل الباب الكرّس : تراکب الشىء بعضه على بعض .

و الوجه فى خلق الكرّسى إذا قلنا : أنه جسم هو أن الله تعبد تحمله الملائكة و التعبد عنده كما تعبد البشر بزياده، و لم يخلقه ليجلس عليه، كما تقول المجسمه.

و اختاره الطبرى، لأنه عزّ و جل يتعالى عن ذلك، لأن ذلك من صفات الأجسام و لو احتاج الى الجلوس علىه، لکان جسماً و محدثاً و قد ثبت قدمه.

و قوله: «وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا» أى لا ينقله، و الهاء فى يؤوده راجعة الى الله و قيل إنها عائدة الى الكرسي . و الأود مصدر، آده يؤوده أوداً و أيداً إذا أثقله و جهده، و أودت العود فأنا أوده أوداً، فأنآد و معناه عجته فلنعاج، لأنه اعتمد عليه بالثقل حتى مال، و الأود، و الأوداء على وزن اعوج و عوجاء و المعنى واحد و الجمع الأود بوزن العوج و أصل الباب الثقل.

و قوله: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» فالعلى يعنى بالاقتدار و نفوذ السلطان . و يقال علا بالاقتدار، و لا يقال رفيع، لأن الرفعة من المكان، و العلوّ منقول الى معنى الاقتدار يوضح ذلك قولهم : علا قرنه بمعنى اقتدر و لا يقال ارتفع عليه بمعنى اقتدر و كذلك استعلى عليه بالحجة، و لا يقال ارتفع عليه بالحجة . و تقول: علا يعلو علواً و أعلى إعلاء و علىّ تعليةً و استعلى استعلاء . و تعالى تعلياً. و تعالى تعالياً و اعتلاه اعتلاء، و على معالاة . و العلوّ - بضم العين و كسرهما - نقيض السفل، و العلوّ التجبر، و منه قوله تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» «١» أى تجبر، لأنه طلب الاستعلاء على الناس بالسلطان و القهر . و الله العالى و المتعالى أى القادر القاهر، لأنه عال بالاقتدار، لأنه لا يعجزه شىء و العالية: القنأة المستقيمة، لاستمرارها فى جهة العلوّ. و فلان من عليه الناس أى من أشرفهم، لأنه علا بشرفه. و العلية: الغرفة

(١) سورة القصص آية: ٤.

ص: ٣١١

و أصل الباب العلوّ. و العظيم معناه عظيم الشأن بأنه قادر، و لا يعجزه شىء، و عالم لا يخفى عليه شىء، فلا نهاية لمقدوره و معلومه، و قال قوم: العظيم بمعنى المعظم كما قالوا فى الخمر العتيقة معتقة، و الأول أقوى لأن على هذا كان يجب ألا يوصف بانه عظيم فيما لم يزل و قد علمنا خلافه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٦]

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

آية واحدة.

المعنى:

قيل فى معنى قوله: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» أربعة أقوال: أولها - قال الحسن و قتادة و الضحاك: إنها فى أهل الكتاب خاصة الذين يؤخذ منهم الجزية.

الثانى - قال السدى و ابن زيد: إنها منسوخة بالآيات التى أمر فيها بالحرب نحو قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» «١» و قوله: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ» «٢». الثالث - قال ابن عباس و سعيد بن جبیر: إنها نزلت فى بعض أبناء

الأنصار و كانوا يهوداً فأريد إكراههم على الإسلام . الرابع - قيل «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» أى لا تقولوا لمن دخل فيه بعد حرب إنه دخل مكرها، لأنه إذا رضى بعد الحرب، و صح إسلامه فليس بمكره، فان قيل كيف تقولون «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» و هم يقتلون عليه! قلنا المراد بذلك لا إكراه فيما هو دين فى الحقيقة، لأن ذلك من أفعال القلوب إذا فعل لوجه بوجوبه، فأما ما يكره عليه من إظهار الشهادتين، فليس بدين، كما أن من أكره على كلمة الكفر لم يكن كافراً.

و قوله: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» معناه قد ظهر بكثرة الحجج، و الآيات

(١) سورة النساء آئ: ٨٨.

(٢) سورة محمد آية: ٤.

ص: ٣١٢

الدالة لانضمام ما أتى الرسول فيه الى ما فى الفعل منه و الالف و اللام فى قوله «فِي الدِّينِ» يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون مثل قوله «فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» «١» بمعنى هى مأواه فكذلك «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» أى فى دينه، لأنه قد تقدم ذكر الله كأنه قال:

لا إكراه فى دين الله.

و الثانى - لتعريف دين الإسلام.

اللغة، و المعنى:

و الغى ضد الرشد، تقول غوى يغوى غياً و غواية: إذا سلك خلاف طريق الرشد، و غوى: إذا خاب قال الشاعر:

و من يغو لا يعدم على الغى لائماً»2«

أى من يخب. و غوى الفصيل يغوى غياً: إذا قطع عن اللبن حتى يكاد يهلك و قوله: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» «٣» يحتمل أمرين: أحدهما - خيبتنى. الثانى - بما حكمت بغوايتى، و منه قوله: «أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ» «٤» و الأصل الغى سلوك طريق الهلاك.

و قوله: «فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ» قيل فيه خمسة أقوال: أحدها- ما روى عن عمر، و مجاهد، و قتادة: أنه الشيطان الثانى - قال سعيد بن جبیر: هو الكاهن.

الثالث- قال أبو العالیة: هو الساحر. و الرابع- قال قوم: هم مردة الجن و الانس.

الخامس- قال بعضهم: هى الأصنام. و أصل طاغوت من الطغيان، و وزنه فعلوت نحو جبروت، و تقديره: طيغوت إلا أن لام الفعل قلبت الى موضع العين، كما قيل صاعقة

(١) سورة النازعات آية: ٤١.

(٢) قائله المرقش الأصغر و صدره:

من يلق خيراً يحمد الناس أمره العقد الفريد ٢: ١٧٦، ٣: ٧٧، ٥: ٣٣٩.

(٣) سورة الحجر آية: ٣٩.

(٤) سورة القصص آية: ٣٦.

ص: ٣١٣

و صاعقة، ثم قلبت ألفاً لوقوعها فى موضع حركة، و انفتاح ما قبلها.

و معنى (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) يصدّق بالله.

و قوله (فَقَدَرِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) فالعروة الوثقى الايمان بالله، عن مجاهد، و جرى ذلك مجرى المثل لحسن البيان بإخراج ما لا يقع به الاحساس إلى ما يقع به «١» و العروة: عروة الدلو و نحوه لأنها متعلقة، و عروت الرجل، أعروه عرواً: إذا ألممت به متعلقاً بسبب منه، و اعتراه «٢» يعتريه: إذا تعلق به، و عرته الحمى تعروه: إذا علقت به و عراه يعريه إذا اتخذ له عروة. و أصل الباب التعلق. و قال الازهرى العروة: كل نبات له أصل ثابت، كالشيع و القيصوم، و غيره. شبهت عرى الأشياء فى لزومها.

و قوله: «لَا انفِصَامَ لَهَا» أى لا انقطاع لها- فى قول السدى-. و الانكسار، و الانفصام و الانصداع و الانقطاع نظائر. قال اعشى بنى ثعلبة.

ت غير أكس و لا منفصم «3»

و مبسمها عن شتيت النبا

و انفصم انفصاماً: إذا انصدع، و فصمته تفصمه فصماً: إذا صدعته من غير أن تكسره، و أصل الباب: الفصم، كصدع الزجاج.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٧]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئَا هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

آية.

المعنى، و اللغة:

معنى «وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا» نصيرهم، و معينهم فى كل ما بهم إليه الحاجة «٤»، مما

(١) به ساقطة من المطبوعة.

(٢) فى المطبوعة اعتراءهم.

(٣) ديوانه: ٣٠ رقم القصيدة ٤. الشئيت: المتفرق المفلج من الأسنان الكس:

قصر الأسنان. فى المطبوعة (عرائس) بدل (غير أكس) و روايته: (منقضم).

(٤) هذا ما استنبطناه و فى المطبوعة (كلما تهم اليه الحاجة).

ص: ٣١٤

فيه صلاح لهم فى دينهم و دنياهم و إنما يوصف بالولى من كان أولى بغيره و أحق بتدبيره . و منه الوالى، لأنه يلى القوم بالتدبير و الأمر، و النهى، و منه المولى من فوق، لأنه يلى أمر العبد بسد الخلّة، و ما به إليه الحاجة، و منه المولى من أسفل لأنه يلى أمر المالك بالطاعة، و المولى ابن العم لأنه يلى أمره بالنصرة لتلك القرابة، و ولى اليتيم لأنه يلى أمر ماله بالحفظ له و القيام عليه. و الولى فى الدين و غيره، لأنه يلى أمره بالنصرة و المعونة لما توجبه الحكمة، و المعاقدة لجميع هذه المواضع الأولى و الأحق ملحوظ فيه. و ولى: إذا أدبر عن الشئ لأنه زال عن أن يليه بوجهه و استولى على الشئ: إذا احتوى عليه، لأنه وليه بالقهر.

و الله تعالى يتولى المؤمنين على ثلاثة أوجه: يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة، و يتولاهم بالنصرة لهم فى الحرب حتى يغلبوا، و يتولاهم بالمشورة على الطاعة.

و قوله (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). و معناه: من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، لأن الكفر كالظلمة في المنع من إدراك الحق كما أن الظلمة مانعة من إدراك البصر . و قال قتادة: يخرجهم من ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، و هذا قريب من الأول، و وجه إخراج الله تعالى المؤمنين من ظلمات الكفر و الضلال إلى نور الايمان باهدائهم إليه، و نصب الأدلة لهم، و ترغيبهم فيه ، و فعله بهم من اللطف ما يقوى دواعيهم إلى الايمان، فإذا اختاروا هم الايمان، فكأن الله أخرجهم منها، و لم يجز أن يقال : إنه أخرج الكفار من الظلمات إلى النور من حيث قدرهم على الايمان، و دعاهم إليه و رغّبهم فيه، كما فعل بالمؤمنين، لأنهم لم يختاروا الايمان، فلم يجز أن يقال : إنه أخرجهم منه لأنه توهم أنهم فعلوا الايمان . و قوله: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) إنما أضاف إخراجهم «مِنَ النُّورِ» الذى هو الايمان إلى الكفر إلى الطاغوت، لما كان ذلك لبعوثهم، و دعائهم، و إنما كفروا عند ذلك، فأضاف ذلك إليهم، فهو عكس الأول . فان قيل: كيف «يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ» و ما دخلوا فيه؟

ص: ٣١٥

قلنا عنه جوابان:

أحدهما- إن ذلك يجرى مجرى قولهم: أخرجنى والذى من ميراثه. و لم يدخل فيه، و إنما ذلك لأنه لو لم يفعل ما فعل، لدخل فيه، فهو لذلك بمنزلة الداخل فيه الذى أخرج منه. قال الغنوى:

فان تكن الأيام أحسن مرة إلى فقد عادت لهنّ ذنوب «1»

و لم يكن لها ذنوب قبل ذلك.

و الوجه الثانى - قال مجاهد: إنه فى قوم ارتدّوا عن الإسلام، و الاول ألبق بمذهبننا، لأن عندنا لا يجوز أن يرتد المؤمن على الحقيقة، و إنما قال «يخرجونهم» على لفظ الجمع. و ان كان الطاغوت واحداً لأنه فى معنى جميع كما قال العباس بن مرداس:

فقلنا: أسلموا أنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور «2»

و إنما جاز ذلك فى الخفض، لأن كل واحد يقوم مقام الآخر فصار ذكر واحد ينوب عن جميعه، فأما ما يميز بالخلقة و صار بمنزلة الأشياء المختلفة فقياسه أن يجمع، كرجل و رجال . و إنما حسن فى الطاغوت، لأن جميعه يجرى مجرى واحد فى الضلال.

و فى الآيۃ دليل على فساد قول المجبرۃ فى المخلوق، و الارادة، لأنه تعالى نسب الإخراج من نور ال هدى إلى ظلمة الكفر و الضلال إلى الطاغوت منكراً لتلك الحال، و لم يكن لينكر شيئاً أرادته و لا يغيب شيئاً عنه فعله (تعالى الله) عن ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آيۃ ٢٥٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

(١) قائله كعب الغنوى من قصيدة يرثى بها أخاه أبا المغوار. المغوار. العقد الفريد ٣: ٢١٧.

و روايته (لقد) بدل (فقد).

(٢) سيرة ابن هشام ٤: ٩٥، و اللسان (أخو) و مجاز القرآن ١: ٩٧ من قصيدة له فى يوم حنين، و فى هزيمة هوزان يذكر قارب بن الأسود و فراره من بنى أبيه. و الإحن جمع احنة: و هى الحقد.

ص: ٣١٦

آيۃ.

القراءة:

قرأ أهل المدينة «أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ» بإثبات الألف إذا كان بعدها همزة مضمومة أو مفتوحة . فان كان بعدها همزة مكسورة حذفوها إجماعاً.

المعنى:

قال مجاهد، و قتادة و الربيع: إن المحاج لإبراهيم كان نمروذ بن كنعان «١» و هو أول من تجبر فى الأرض بادعاء الربوبية . و قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى) دخلت إلى الكلام للتعجب من حال الكافر المحاج بالباطل، كما يقولون: أما ترى إلى فلان كيف يصنع، و فيه معنى هل رأيت كفلان فى صنيعه كذا، و إنما دخلت (إلى) لهذا المعنى من بين حروف الجر، لأن إلى لما كانت نهاية صارت بمنزلة هل انتهت رؤيتك إلى من هذه صفته لتدل على بعد وقوع مثله على التعجب منه، لأن التعجب إنما يكون مما استبهم شبيه بما لم يجز عادة به، و قد صارت إلى هاهنا بمنزلة كاف التشبيه من حروف الاضافة، لما بينا من العلة إذ كان ما ندر مثله كالذى يبعد وقوعه.

و قوله: (أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) معناه أعطاه و الهاء فى «آتاه» قال الحسن و أبو على: إنها كناية عن المحاج لإبراهيم . و قال أبو حذيفة و البلخى إنها عائدة إلى إبراهيم.

فان قيل: كيف يجوز أن تأتي الله الكافر الملك؟ قيل: الملك على وجهين:

أحدهما - يكون بكثره المال و اتساع الحال، فهذا يجوز أن ينعم الله (عزّ و جلّ) به على أحد من مؤمن و كافر، كما قال في قصة بنى إسرائيل:

(١) ابن كوش بن منام بن نوح. و قيل: انه نمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح

ص: ٣١٧

(وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) «١».

و الثانى - ملك بتمليك الأمر و النهى و التدبير لأمر الناس، فهذا لا يجوز أن يجعله الله لأهل الضلال لما فيه من الاستفساد بنصب من هذا سبيله للناس، لأنه لا يصح مع علمه بفساده إرادة الاستصلاح به كما يصح منا فيمن لا يعلم باطن حاله ممن يؤمن علينا. و من قال الهاء كناية عن إبراهيم (ع) لم يتوجه عليه السؤال، لأنه تعالى لم يؤت الكافر الملك، و إنما آتى نبياً مرسلاً.

و قوله «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ» معناه يحيى الميت و يميت الحى، فقال الكافر عند ذلك : أنا أحيى و أميت، يعنى أحييه بالتخليئة من الحبس ممن وجب عليه القتل و أميت بالقتل من شئت ممن هو حى، و هذا جهل منه، لأنه اعتمد فى المعارضة على العبارة فقط دون المعنى، عادلاً عن وجه الحجة بفعل الحياة للميت أو الموت للحى على سبيل الاختراع كما يفعله الله (تعالى) من إحياء من قتل أو مات و دفن و ذلك معجز لا يقدر عليه سواه، فقال إبراهيم (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) و لم يكن ذلك انتقالاً من إبراهيم من دليل إلى دليل آخر من وجهين:

أحدهما - أن ذلك يجوز من كل حكيم بعد تمام ما ابتدأ به من الحجاج، و علامة تمامه ظهوره من غير اعتراض عليه بشبهة لها تأثير عند التأمل، و التدبر لموقعها من الحجة المعتمد عليها.

الثانى - أن إبراهيم إنما قال ذلك ليتبين أن من شأن من يقدر على إحياء الأموات و إماتة الأحياء، أن يقدر على الإتيان بالشمس من المشرق، فان كنت قادراً على ذلك فأت بها من المغرب «فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ» و إنما فعل ذلك، لأنه لو تشاغل معه بأنى أردت اختراع الحياة و الموت من غير سبب و لا علاج لاشتبه على كثير ممن حضر، فعدل إلى ما هو أوضح و أكشف، لأن الأنبياء (ع) إنما بعثوا للبيان و الإيضاح، و ليس أمورهم مبنية على بناء الخصمين إذا تحاجا، و طلب

(١) سورة المائدة آية: ٢٢.

ص: ٣١٨

كل واحد غلبه خصمه، فلذلك فعل إبراهيم (ع) ما فعل

و قد روى عن أبي عبد الله (ع) أن إبراهيم قال له: احبى من قتلته إن كنت صادقا، ثم استظهر عليه بما قال.

اللغة:

و الشمس معروفة و جمعها شمس، و قد شمس يومنا يشمس شمساً، فهو شامس : إذا اشتدت شمس، و كذلك أشمس . و شمس الفرس شماساً، فهو شمس، إذا اشتد نفوره، لأنه كاشتداد الشمس في اليوم ما يكون من زيادة حرّها، و توقدها . و شمس فلان إذا اشتدت عداوته. قال الشاعر:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
و أعظم الناس أحلاماً إذا قدروا¹»

و الشمس في القلادة و غيرها: دائرة مشرقة كالشمس. و شمس الشيء تشميساً إذا ألقاه في الشمس، و تشمس تشمساً: إذا قعد في الشمس.

المعنى:

و قوله: (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) معناه تحير عند الانقطاع بما بان من ظهور الحجة . فان قيل هلا قال لإبراهيم . فليأت ربك بها من المغرب؟ قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما- أنه لما علم بما رأى من الآيات منه أنه لو اقترح ذلك لفعل الله ذلك فتزداد نصيحته، عدل عن ذلك، و لو قال ذلك و اقترح لأتى الله بالشمس من المغرب تصديقاً لإبراهيم (ع).

و الجواب الثانى- أنه (تعالى) خذله عن التلبس و الشبهة.

اللغة:

و فى بهت ثلاث لغات: بُهِت على لفظ القرآن، و بُهِت و بهت على وزن ظرف و حذر، و حكى بهت على وزن ذهب و البهت : الحيرة عند استيلاء الحجة، لأنها كالحيرة للمواجهة بالكذب، لأن تحير المكذب فى مذهبه كتحير المكذوب عليه،

(١) قائله الأخطل. اللسان (شمس).

ص: ٣١٩

و منه قوله: (أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) «١» كأنه قال أ تأخذونه ادعاء للكذب فيه . و فى إبراهيم خمس لغات إبراهيم، و ابراهام، و ابراهم، و ابراهم، و ابراهم بإسقاط الياء و تعاقب الحركات الثلاث عليه.

المعنى:

و قوله (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) لا يعارض قوله: (وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) «٢» لأن الهدى يتصرف على وجوه و أصله واحد و هو الدلالة على الطريق المؤدى إلى البغية و الله (تعالى) قد هدى جميع المكلفين بأن دلهم على طريق الحق و خص المؤمنين فى هدايته لهم بالمعونة على سلوك طريق الحق، لأنه بمنزلة الدلالة على طريق الحق و الله (تعالى) لا يهدى للمعونة على بلوغ البغية فى فساد القوم الظالمين. و فى الآية دلالة على فساد «٣» قول من يقول:

المعارف ضرورة، لأنها لو كانت ضرورة لما حاج إبراهيم الكافر، و لا ذكر له الدلالة على إثبات الصانع، و فيها دلالة على فساد التقليد و حسن المحاجة و الجدل، لأنه لو كان ذلك غير جائز لما فعل إبراهيم (ع) ذلك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

آية واحدة.

(١) النساء آية: ١٩.

(٢) حم السجدة آية: ١٧.

(٣) «على فساد» ساقطة من المطبوعة.

ص: ٣٢٠

القراءة:

قرأ حمزة، و الكسائي، و خلف، و يعقوب. و الكسائي عن أبي بكر (يتسنن) بحذف الهاء و فى الوقف بإثباتها بلا خلاف. قرأ ابن عامر و أهل الكوفة (ننشرها) بالزاي الباقون بالراء. و قرأ حمزة و الكسائي (قال اعلم) بهمزة موصولة الباقون بقطعها.

الاعراب:

هذه الآية معطوفة على الآية الأولى و تقديره أ رأيت ك «الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ» و ك «كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ» و موضع الكاف نصب ب (تر) و معناه التعجب منه لأن كلما خرج في بابه يعظمه عن حد نظائره مما يتعجب منه نحو (ما أجهله) أى قد خرج بعظم جهله عن حد نظائره، و كذلك لو قلت : هل رأيت كزيد الجاهل، لدلت على مثل الأول فى التعجب، لما بينا إلا أن (ما أفعله) صيغة موضوعة للتعجب، و ليس كذلك هل رأيت لأنها فى الأصل للاستفهام، و نحو قولك : هل رأيت فى الدنانير مثل هذا الدينار فهذا استفهام محض لا تعجب فيه، لأن أمثاله كثير، فلم يخرج بعظم حاله عن حد نظائره، كما خرج الأول بعظم جهله. و قيل: الكاف زائدة للتوكيد، كما زيدت فى ليس كمثله شيء و الأول الوجه، لأنه لا يحكم بالزيادة إلا للضرورة.

المعنى:

و قال قتادة و الربيع:

الذى مر على قرية هو عزيز، و روى ذلك عن أبى عبد الله (ع).

و قال وهب بن منبه:

هو أرميا، و هو المروى عن أبى جعفر (ع).

و قال ابن إسحاق: هو الخضر، و القرية التى مرَّ عليها . قال وهب بن منبه، و قتادة، و الربيع هى بيت المقدس لما خر به بخت نصر، و قال ابن زيد: هى القرية التى خرج منها الألوف «حَذَرَ الْمَوْتِ». و قوله: «وَهِيَ خَاوِيَةٌ» معناه خاليه. و قال ابن عباس، و الربيع، و الضحاك خراب. قال قوم: معناه و هى قائمة على أساسها و قد وقع

ص: ٣٢١

و قد وقع سقفها. و أصل الخواء «١» الخلاء قال الراجز:

يبدو خواء الأرض من خويله «2»

و الخواء: الفرجة بين الشيئين يخلو ما بينهما. و خوت الدار فهى خاوية.

تخوى خواء. إذا باد أهلها بخلوها منهم و الخوى : الجوع، خوى يخوى خوى : يخلو البطن من الغذاء . و التخوية التفريج بين العضدين و الجهتين يخلو ما بينهما بتباعدهما.

والتخوية تمكين البعير لنفسه في بروكه، لأنه تفحصه الأرض بخلوها مما يمنع من تمكنه . و اخواء النجم: سقوطه من غير مطر بخلوه من المطر. خوى النجم و اخوى. و خوى المنزل إذا تهدم، لأنه بتهدمه يخلو من أهله و أصل الباب الخلو.

و قوله: «**عَلَى عُرُوشِهَا**» يعنى على أبينتها و منه «وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ» «**٣**» أى يبنون. و منه عريش مكة: أبينتها و خيامها، و كل بناء: عرش، عرش يعرش و يعرُش عرشاً: إذا بنى. و العرش البيت، و جمعه عروش لارتفاع أبينته.

و العرش: السرير، لارتفاعه على غيره. و عرش الرجل: قوام أمره و عرش البيت:

سقفه، لارتفاعه. و التعريش جعل الخشب تحت الكرم ليمتد عليه. تقول:

عرشته تعريشاً. و عرشته أعرشه عرشاً. و ذلك، لارتفاعه فى امتداده على الخشب الذى تعمده . و التعريش رفع الحمار رأسه شاحياً فاه على عانته، عرش بعانته تعريشاً . و العريش ظلّة من شجر أو نحوه، لارتفاعه على ما يستره . و عرش البئر طيّها بالخشب بعد طيها بالحجارة . و العرشان من الفرس: آخر شعر العرف لارتفاع العرف على العنق . و ثل عرشه: إذا قتله. و أصل الباب: الارتفاع.

و القرية أصلها من قرئت الماء: إذا جمعته، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها للاقامة بها.

المعنى:

و قوله «**أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**» معناه كيف، و ذلك يدل على أن

(١) فى المطبوعة (الخو)

(٢) فى المطبوعة (خو)

(٣) سورة الاعراف آية: ٣٦.

ص: ٣٢٢

«انى». فى قوله «فَاتُوا حَرِّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» «**١**» معناه كيف شئتم دون ما قاله بعضهم من أن معناه حيث شئتم، لان معناه هاهنا لا يكون إلا على كيف.

و لقائل أن يقول: إن اللفظ مشترك. و إنما يستفاد بحسب مواضعه. و قال الزجاج:

معناه من أين فى الموضعين.

و قوله «فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ» قال أبو على لا يجوز أن يكون الذى أماته ثم أحياه نبيا لأن الله تعالى عجب منه و لو لا ذلك، لجاز أن يكون نبيا على أنه شك فى ذلك قبل البلوغ لحال التكليف، ثم نبى فى ما بعده، و على هذا لا يمتنع أن يكون نبياً فى ما تقدم. و الأول أقوى، و أقرب . و يجوز هذه الآية أن تكون فى غير زمان نبى . و قال الجبائى : لا يجوز ذلك لأن المعجزات لا تجوز إلا للأنبياء لأنها دالة عليهم . فلو وقعت المعجزة فى غير زمن نبى لم يكن وقوعها دليلاً على النبوة، و هذا ليس بصحيح - عندنا - لأن المعجزات تدل على صدق من ظهرت على يده، و ربما كان نبياً و ربما كان إماماً أو ولياً لله، و ما روى أن الحياة جعلت فى عينيه أولاً، ليرى كيف يحيى الله الموتى لا يجوز، لأن الرأى هو الإنسان بكماله غير أنه يجوز أن يكون أول ما نفخ فيه الروح عيناه، و تكون الحياة قد وجدت فى ج مبع الروح، و لم يحصل فى البدن من الروح إلا ما فى العينين دون ما فى البدن.

اللغة، و المعنى:

و قوله: (مِائَةَ عَامٍ) معناه مائة سنة، و العام جمعه أعوام، و هو حول يأتى بعد شتوة و صيفه، لأن فيه سبحة طويلاً بما يمكن من التصرف فيه. و العوم:

السباحة. عام فى الماء يُعوم عوماً: إذا سبَح. و السَّفِينَةُ تعوم فى جريها.

و الإبل تعوم فى سيرها، لأنها تسبح فى السير بجريها . و الاعتيام: اصطفاء خيار مال الرجل ليجرى «٢» فى أحده له شيئاً بعد شىء كالسباح فى الماء الجارى

(١) سورة البقرة آية: ٢٠٥

(٢) فى المطبوعة (لا يجرى)

ص: ٣٢٣

و اعتام الموت النفوس أولاً أولاً، لأنه يجرى فى أحدها حالاً بعد حال كجرى السابح فى الماء، و أصل الباب السبح.

و قوله: «ثُمَّ بَعَثَهُ» يعنى أحياه. و قوله: «كَمْ لَبِثْتُ» موضع نصب بلبثت، كأنه قيل: أ مائة سنة لبثت أو أقل أو أكثر؟ فقال «لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» لأن الله تعالى أماته فى أول النهار و أحياه بعد مائة سنة فى آخر النهار، فقال:

«يوماً» ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». و اللبث المكث، لبث لبثاً فهو لابت و تلبث تلبثاً إذا تمكث و لبثه تلبيثاً، و أصل الباب المكث.

و قوله: «فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ» معناه لم تغيّره السنون.

وقيل: كان زاده عصيراً و تيناً و عنباً، فوجد العصير حلواً، و التين، و العنب كما جناه لم يتغير، أو هو مأخوذ من السنة، و الأصل فيه على قولهم: سانيته مساناة إذا عاملته سنة سنة أن يكون في الوصل لم يتسن، نحو لم يتعد، و الأصل الواو، بدليل قولهم سنوات فإذا وقف جاء بهاء السكت، و يجوز أن يكون على قولهم: سانهة و سنهات، و اكرتيت مسانهة. و الهاء على هذا أصلية مجزومة بلم، و لا يجوز أن يكون من الأسن، لأنه لو كان منه لقليل لم يتأسن. قال الزجاج لا يجوز أن يكون من قوله: «مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ» «١» لأن معنى مسنون منصوب على سنة الطريق قال الشاعر:

ليست بسنهاء و لا رُجْبِيَّة
و لكن عرايا في السنين الجوائح «2»

فجعل الهاء أصلية. و السنهاء: النخلة القديمة، لأنه قد مرت عليها سنون

(١) سورة الحجر آية: ٢٦، ٢٨، ٣٣

(٢) قائله سويد بن الصامت الانصارى و قيل أحيحة بن الجلاح. اللسان (عرا)، (خور)، (رحب)، (قرح)، (سنه) و أمالي القالى ١: ٢١. الرجبية - بضم الراء و تشديد الجيم المفتوحة أو فتحها بغير تشديد - : نسبة شاذة الى رجبية - ضم فسكون - : البناء تحت النخلة الكريمة لدعما إذا خيف عليها لكثرة حملها . و العرايا جمع عريه و هى التى يوهب ثمرها فى عامها . الجوائح: السنين المجذبة.

ص: ٣٢٤

كثيرة. و إنما علم بأنه مات مائة سنة بشيئين:

أحدهما - باخبار من أراه المعجزة فى نفسه و حماره و طعامه، و شرابه من تقطع أوصاله، ثم اتصال بعضها الى بعض حتى رجع الى حاله التى كان عليها فى أول أمره.

و الآخر - بالآيات الدالة على ذلك لما رجع الى وطنه فرأى ولد ولده شيوخاً و قد كان خلف أباه م شبابا الى غير ذلك من الأمور التى تغيرت، و الأحوال التى تقلبت مع تظاهر الأخبار عما يسأل عنه أنه كان فى مائة سنة.

و قوله: «وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ» قيل بعث و أولاده أولاده شيوخ.

و روى عن على (ع) أن عزيزاً خرج من أهله و امرأته حامل و له خمسون سنة.

فلمات الله مائة سنة، ثم بعثه فرجع إلى أهله ابن خمسين سنة و له ابن له مائة سنة، فكان ابنه أكبر منه، و ذلك من آيات الله.

وقيل: لتعظ أنت و يتعظ الناس بك، فيكون الاعتبار عاماً . و دخلت الواو فى الكلام لاتصال اللام بفعل محذوف كأنه قال : و لنجعله آية للناس. فعلنا ذاك، لأن الواو لو سقطت اتصلت اللام بالفعل المتقدم.

وقوله: «وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ» فالحمار يقال للوحشى و الأهلى لأن الحمرة أغلب على الوحشى ثم صار لكل حمار تشبيهاً بالوحشى، و الحمرة لون أحمر تقول : احمر احمراراً و احمار احميراراً و المحمر : فرس هجين، لأنه كالحمار فى التقصير، و حمارة القيظ: شدة حره، و حمار السرج الذى يركبه السرج و حمر فو الفرس يحمر حمرا إذا أتنن . و الحمارة حجارة عريضة توضع على اللحد لركوب التراب عليها كالحمار و جمعها حمائر . و ما يخفى على الأسود و الأحمر أى العرب و العجم، لأن السواد أغلب على لون العرب كما الحمرة أغلب على العجم. و موت أحمر:

شديد مشبه بحمرة النار فى شدة الإيقاد . و عبث حمر شديد، و أصل الباب الحمرة . و منه الحمرة طائر كالصفور، لأنه تغلب عليه الحمرة.

وقوله: «وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنَشِّرُهَا» فمن قرأ بالراء غير المعجمة

ص: ٣٢٥

ذهب إلى التشور، و هو الحياة بعد الموت. نشر الميت: إذا عاش و نشره الله و أنشره:

إذا أحياء. و منه قوله «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» «١» و قوله: «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ» «٢» و النشر خلاف الطى. يقال: نشرت الثوب و غيره أنشره نشرأ و انتشر انتشارأ. و النشر إذاعة الحديث و النشر: الرائحة الطيبة، و ربما قيل فى الخبيثة . و النشر نحت «٣» العود بالمنشار. و النشر نبات الربيع . و النشر: اكتساء البازى ريشاً واسعاً طويلاً . و النشرة عن الم ريش الرقية حتى يفىق و التناشر: عرض كتابة الغلمان على المعلم ينشرونه عليه أى يرونه إياه، و ذلك لبسط الكتاب بين يديه . و أصل الباب الانبساط. و من قرأ بالزاء فمعناه يرفع بعضها إلى بعض و أصل النشوز: الارتفاع فمنه النشز المرتفع من الأرض . و منه نشوز المرأة رفعها عن طاعة زوجها.

وقوله: «ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا» معناه نغطيها باللحم كما نغطى باللباس. و إنما قيل ذلك لأجل التفصيل الذى كان عليه، فوصله الله عز و جل حتى صار كجزء.

منه قال الجعدى «٤»:

حتى اكتسيت من الإسلام سربالا «5»

فالحمد لله إذ لم يأتنى أجلى

فجعل الإسلام غطاءً للكفر كما يجعل غطاءً للمعصية قوله «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ» أى ظهر. «قَالَ أَعْلَمُ» فمن قطع الهمزة جعل ذلك أخباراً عن نفسه و من وصلها احتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون ذلك أمراً من الله له. و الثانى- أن يكون تذكيراً للنفس بالواجب و أخرجه مخرج الأمر لها كأنه قال: يا أيها الإنسان. و فى الآية دليل على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية، لأنه لما شك أراه الله الآيات التى

(١) سورة المؤمنون آية: ١٤.

(٢) سورة عبس آية: ٢٢.

(٣) فى المطبوعة (حث).

(٤) هو التابعة الجعدى. و قيل: انه للبيد بن ربيعة العامرى. و قيل: لقردة بن نفثة السلولى.

(٥) ديوان النابغة: ٨٦.

ص: ٣٢٦

استبصر بها و لو كان مضطراً إلى المعرفة بالله و ما يجوز عليه و ما لا يجوز لم يحتج إلى دليل يعلم به ما هو مضطر إليه و كان يقال: ان عند الموت لم تحصل له المعارف الضرورية كما يحصل لمن لا يريد الله إعادته إلى التكليف فتكون الاماتة كالنوم.

و المعلوم خلافه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٠]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة وحده «فصرهن» بكسر الصاد. الباقيون بضمها.

الاعراب:

العامل فى قوله: «وإذ» يحتمل أن يكون أحد شيئين: أحدهما- ما قال الزجاج: واذكر إذ قال. و الثانى- أ لم تر إذ قال عطفًا على «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ».

المعنى:

و قيل فى سبب سؤال إبراهيم أن يريه كيف يحيى الموتى ثلاثة أقوال:

أحدها- قال الحسن، و قتادة، و الضحاک،

و أبو عبد الله الصادق (ع): أنه رأى جيفة قد مزَّقها السباع تَأْكُل منها سباع البرّ و سباع الهواء و دواب البحر فسأل الله (تعالى) أن يريه كيف يحييها

و قال ابن إسحاق كان سبب ذلك منا زعة نمرود له فى الأحياء، و تَوَعَّده إياه بالقتل إن لم يحيى الله الميت بحيث يشاهده، و لذلك قال

ص: ٣٢٧

ليطمئن قلبى إلى أنه لا يقتلنى الجبار، و قال قوم إنما سأل ذلك لقومه، كما سأل موسى الرؤية، لقومه . و قال قوم: إنما سأل، لأنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً به من جهة الاستدلال . و هو أقوى الوجوه . و قال قوم: إنما سأل ذلك، لأنه كان شاكاً فيه. و روى فيه رواية، فهذا باطل، لأن الشك فى أن الله قادر على احياء الموتى كفر لا يجوز على الأنبياء، لأنه تعالى لا يجوز أن يبعث إلى خلقه من هو جاهل بما يجوز عليه و ما لا يجوز. و الذى يبين ذلك أن الله تعالى لما قال له «أَوَلَمْ تُؤْمِنْ» فقرر أنه قال إبراهيم «بلى وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي» فبين أنه عارف بذلك مصدق به، و إنما سأل تخفيف المحنة بمقاساة الشبهات، و دفعها عن النفس.

و الالف فى قوله «أَوَلَمْ تُؤْمِنْ» ألف إيجاب قال الشاعر:

و أندى العالمين بطون راح¹

أ لستم خير من ركب المطايا

أى قد آمنت لا محالة، فلم تسأل ذا، فقال: «لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي» و قوله (لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي) معناه ليزداد يقيناً إلى يقينه، و هو قول الحسن، و قتادة، و سعيد بن جبیر، و الربيع، و مجاهد، و لا يجوز «لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي» بالعلم بعد الشك الذى قد اضطرب به لما بيناه، و لكن يجوز أن يطلب علم البيان بعد علم الاستدلال. و قيل معناه «لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي» بأن لا يقتلنى الجبار.

اللغة و المعنى:

و يقال: اطمأن يطمئن اطمئناناً: إذا تواطئوا المطمئن من الأرض ما انخفض و تظامن، و اطمأن إليه إذا وثق به، لسكون نفسه إليه، و لتوطى حاله بالأمانة عنده، و أصل الباب التوطئة.

و قوله: (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) قيل أنها الديك، و الطاووس، و الغراب، و الحمام . أمر أن يقطعها و يخلط ريشها بدمها، و يجعل على كل جبل منهن جزءاً،

(١) مر تخرجه ١: ١٣٢ - ٤٠٠.

ص: ٣٢٨

هذا قول مجاهد، و ابن جريج، و ابن زيد، و ابن إسحاق، و الطير معروف يقال:

طار يطير طيراناً و أطاره اطاره و طيره تطييراً، و تطاير تطايراً و طايه مطايره، و استطار استطاره، فأما تطير تطيراً فمن الطيرة لأنه زجر الطير بما يكره، و تطاير الشيء إذا تفرق في الهواء، و طائر الإنسان: عمله الذي قلده من خير أو شر، لأنه كطائر الزجر في البركة أو الشؤم قال الله (تعالى) (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) (١) و المطير ضرب من الوشى لأن عليه تماثيل الطيور. و فجر مستطير أى منتشر في الأفق كانتشار الطيران . و غبار مستطار، كذا كلام العرب للفرق و فرس مطار و هو الحديد الفؤاد لأنه طيار في جريه و أصل الباب الطيران.

و قوله (فصرهن) فمن قرأ بضم الصاد احتمل معنيين:

أحدهما - يقطعهن على قول ابن عباس، و سعيد بن جبير، و الحسن، و مجاهد.

و قال توبة بن الحمير:

فأدنت لى الأسباب حتى بلغتها بنهضى و قد كان ارتقائى يصورها «2»

أى يقطعها.

و الثانى - أن معناه اضممهن إليك على قول عطا و ابن زيد من صاره يصوره صوراً: إذا أماله. قال المعلى «3» العبدى:

و جاءت خلعة دهن صفايا يصور عنوقها أحوى زنيماً «4»

معناه أن هذه الغنم يعطف عنوقها هذا التيس الأحوى، و من قال بالكسر احتمال ذلك أيضاً الوجهين اللذين ذكرناهما في الضم و قال بعض بنى سليم:

(١) سورة الأسرى آية: ١٣.

(٢) بنهضى أى بنهوضى.

(٣) هو المعلى بن جمال العبدى. فى المطبوعة (المعلم) بدل (المعلى).

(٤) اللسان: (ظأب) (ظأب) (صور) (دهس) (خلع) (صوع) (عشق) (زنم) و فى بعض الروايات (يصوع) بدل (يصور). الخلعة - بكسر الخاء و ضمها - : خيار المال . و الدهس جمع دهساء و هى من المعزى السوداء المشربة حمرة لا تغلو . الأحوى من المعزى:

التيس الذى تضرب حمرة الى السواد. و الزنيم الذى له زنمتان فى حلقه.

ص: ٣٢٩

و فرع يصير الجيد و حف كانه
على الليت قنوان الكروم الدوالح «1»

معناه يميل الجيد. و إذا كان بمعنى قطعهن فإليك من صلة خذ «٢». و إذا كان بمعنى أملهن يجوز أن يكون إلى متعلقاً به «٣». و يجوز أن يكون متعلقاً بصرهن، و هو الأقوى على قول سيبويه لأنه أقوى كذا قال أبو على الفارسى و إذا كان بمعنى أملهن إليك و قطعهن «ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا». و الصور العطف يقال صاره يصوره صوراً إذا عطفه. قال الشاعر:

و ما يقبل الأحياء من حب خندف
و لكن أطراف الرياح يصورها

و الصور التقطيع . صاره يصوره. و الصور: ميل لأنه انقطاع إلى الشئ بالميل إليه و منه الصورة لتقطيعها بالتأليف على بعض الأمثلة صور يصور تصويراً و تصوّر تصوراً و الصوار: التقطيع من بقر الوحش، لانتقاعه بالانفراد عن غيره.

و الصّور: النخل الصغار، و الصور: قرن ينفخ فيه لاجتماع الصورة به. و يجوز للانقطاع إليه بالدعاء إليه و الصور: جمع صورة. و الصور: النفحة من المسك و أصل الباب القطع. و قال الفراء: صاره يصيره بمعنى قطعه من المقلوب من صراه يصريه و أنشد:

يقولون ان الشام يقتل أهله
فمن لى إذا لم آت به بخلود

تعرب آبائي فهلا صراهم
من الموت أن لم يذهبوا و جدودي «4»

قال المبرد لا يجوز ذلك، لأن سيوييه قال : إن كل واحد من اللفظين إذا تصرف فى بابه لم يكن أحدهما أصلاً للآخر : نحو جذب يجذب جذباً، فهو جاذب،

(١) اللسان: (صير) و معانى القرآن للفراء ١: ١٧٤. الفرع: الشعر التام. الوحف:

الأسود الحسن الكثير. الليت: العنق. قنوان جمع قنو- بكسر و سكون- عذق النخل بما فيه من الرطب و استعاره هنا لعناقيد العنب. و الدوالح جمع دالح و هو المنقل بالحمل - هنا- و أصله فى ما يمشى. يقال بعير دالح.

(٢) فى المطبوعة (خذ) غير منقطعة.

(٣) فى المطبوعة (عليه) بدل (به).

(٤) فى المطبوعة (فمن ان انه بخلود) و (يعرب) بدل (تعرب) اللسان: (شأم)- ذكر البيت الأول فقط-. و معانى القرآن للفراء ٤: ١٧٤ تعرب القوم: سكنوا البادية.

ص: ٣٣٠

و جذب يجذب جذبا فهو جاذب فلذلك لما تصرف صاره يصيره صيراً كما ينصرف صراه يصريه صرياً، لم يكن أحدهما أصلاً للآخر، و لكن المقلوب نحو قسى لأن بابه على تأخير السين نحو قوس، و اقواس و قويس.

المعنى:

وقوله «ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا» قال ابن عباس، والحسن و قتادة : إنها كانت أربعة. و قال ابن جريج، و السدى : كانت سبعة. و قال مجاهد، و الضحاك كل جبل على العموم بحسب الإمكان، كأنه قيل كل فرقة على جبل يمكنك التفرقة عليه.

و روى عن أبي جعفر، و أبي عبد الله (عليهما السلام) «١» أنها كانت عشرة.

و فى رواية أخرى أنها كانت سبعة،

و الفرق بين الجزء و السهم أن السهم من الجملة ما انقسمت عليه، و ليس كذلك الجزء نحو الاثنين و هو سهم من العشرة لأنها تنقسم عليه، و ليس كذلك الثلاثة و هو جزء منها لأنه بعض لها فان قيل:

كيف أجيب ابراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى فى قوله «رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ». «٢» قيل عنه جوابان:

أحدهما- أنه سأل أية لا يصح معها بقاء التكليف من وقوع الضرورة التى لا يعترضها الشكوك بوجه من الوجوه، و ابراهيم إنما سأل فى شيء خاص يصح معه التكليف.

و القول الآخر- أن الأحوال قد تختلف فيكون الأصلح الأصوب فى بعض الأوقات الاجابة، و فى وقت آخر المنع فيما لم يتقدم فيه إذن. فان قيل: كيف قال:

«ثم ادعهم» و دعاء الجماد قبيح؟ قلنا إنما أراد بذلك الإشارة إليها و الإيماء لتقبل عليه إذا أحيها الله . فأما من قال أنه جعل على كل جبل طيراً ثم دعاها فبعيد، لأن ذلك لا يفيد ما طلب، لأنه إنما طلب ما يعلم به كونه قادراً على إحياء الموتى، و ليس فى مجيء طير حى بالإيماء إليه ما يدل عليه. و فى الكلام حذف، فكأنه قال: فقطعهم

(١) فى المطبوعة زيادة عنها فى هذا الموضع.

(٢) سورة الاعراف آية: ١٤٢.

ص: ٣٣١

و اجعل على كل جبل منهن جزءاً فان الله يحييها، فإذا أحيهاهن فادعهن يأتينك سعيًا، فيكون الإيماء إليها بعد أن صارت أحياء، لأن الإيماء إلى الجماد لا يحسن، فان قيل: إذا أحيها الله كفى ذلك فى باب الدلالة، فلا معنى لدعائها، لأن دعاء البهائم قبيح؟ قلنا: وجه الحسن فى ذلك أنه يشير إليها، فسمى ذلك دعاء لتأتى إليه فيتحقق كونها أحياء و يكون ذلك أبهر فى باب الاعجاز. و قال الطبرى معنى الدعاء هاهنا الاخبار عن تكوينها أحياء كما قال «كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ» «١» و قوله:

«أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ».

اللغة:

و الجبل وتد من أوتاد الأرض معروف. و جبل فلان على كذا أى طبع عليه و أجبل القوم أجبالاً: إذا صاروا فى الجبال و تجبلوا إذا دخلوها، و رجل ذو جبله إذا كان غليظ الجسم، لأنه كالجبل فى الغلظ . و الجبله الأمة من الناس و أجبل الحافر: إذا أفضى إلى صلابه لا يمكنه الحفر فيه، و منه أجبل الشاعر إذا صعب عليه القول، و الجزء : بعض. الجزأ جزأته تجزئته إذا بعضته، و الجزء الاجتزاء بالرطب عن الماء جزأت الوحشية جزوا لاكتفائها بالجزء الذى فى الرطب منه و الجزء نصاب السكين و أصل الباب الجزء البعض.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٤١]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤١)

آية واحدة بلا خلاف.

هذه الآية متصلة بقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» و ما بينهما الاعتراض بالاستدعاء إلى الحق مما أمر الله بالحجج و العبر التى ذكرها من احياء

(١) سورة البقرة آية: ٤٥.

ص: ٣٣٢

الموتى لإبراهيم و من حجاجه للذى ادعى أنه رب العباد إلى غير ذلك مما تقدم ذكره مع البيان عنه و قال الربيع و السدى الآية تدل على أن النفقة فى سبيل الله بسبعمائه ضعف لقوله «سَبْعَ سَنَابِلَ» فأما غيرها فبالحسنه عشرة. و قد بينا فى ما تقدم

أبواب البر كلها من سبيل الله فيمكن أن يقال ذلك عام فى جميع ذلك. و الذى ذكرناه مروي عن أبى عبد الله (ع)

و اختاره الجبائي: فان قيل هل رئى فى سنبلة مائة حبة حتى يضرب المثل بها؟ قيل عنه ثلاثة أجوبة: أولها- أن ذلك متصور فشبّه لذاك و إن لم ير كما قال امرؤ القيس:

و مسنونة زرق كأنياب أغوال

و قال تعالى «طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ» «١» الثانى - أنه قد رُئى ذلك فى سنبِل الدخن . الثالث - أن السنبلة ثبتت مائة حبة فقليل فيها على ذلك المعنى - كما يقال - فى هذه الحبة حب كثير و الاول هو الوجه . و الوعد بالمضاعفة لمن أنفق فى سبيل الله - فى قول ابن عباس - و قال الضحاك و لغيرهم من المطيعين . و قوله: «أنبتت» فالنبت الحشيش و كلما ينبت من الأرض يقال فيه نبت نباتاً . و نباتاً . و أنبته الله إنباتاً: و نبته تنبيتاً قال (تعالى): «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً» «٢» على تقدير فنبتم نباتاً و انه لحسن النبت. و المنبت الأصل. فلان فى منبت صدق أى فى أصل كريم، لأنه يخرج منه كما يخرج النبات . و النبت: شجر الخشخاش. و أنبت الغلام: إذا راهق و استبان شعر عاتته.

و السنبلة على وزن فعلة لقولهم أسبل الزرع بمعنى سنبِل إذا صار فيه السنبِل.

و الأصل فيه الاسبال، و هو إرسال الستر و نحوه . فمته أسبل الزرع، لأنه استرسل بالسنبِل كما يسترسل الستر فى الاسبال فيطول، لأنه صار فيه حب مستور كما يستر بالاسبال. فأما السبيل الطريق، فلأنه يرسل فيه المار به.

و المائة: عدد معروف يجمع على مئات و مئين «٣». و يقال أمأت الغنم إذا بلغت مائة . و أمأيتها أنا أى وفيها مائة . و المأى «٤» النيمة بين القوم

(١) سورة الصافات آية: ٦٥.

(٢) سورة نوح آية: ١٧.

(٣) فى المطبوعة (مبين و ميون).

(٤) فى المطبوعة (و الثانى).

ص: ٣٣٣

مأيت بينهم أمأى إذا دببت بينهم بالشر.

و قوله (واسعٌ عَلِيمٌ) معناه واسع المقدره لا يضيق عنه ما شاء من الزيادة «عليم» بمن يستحق الزيادة - على قول ابن زيد - و يحتمل أن يكون المراد «واسع» الرحمة لا يضيق عن مضاعفة «عليم» بما كان من النفقة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٢]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مَا آنَفَقُوا مَتًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

«الذين» رفع بالابتداء. و «يتفقون» خبره و «أموالهم» نصب لأنه مفعول به.

اللغة و المعنى:

و الإنفاق إخراج الشيء عن الملك. و قوله «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قال ابن زيد:

هو الجهاد. و قال الجبائي:

أبواب البر كلها، و هو الصحيح عندنا. و المروى عن أبي عبد الله (ع).

و قوله: «ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا» فالمن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول القائل: أحسنت إلى فلان و نعشته و أغنيته و ما أشبه ذلك مما ينغص النعمة و أصل المن: القطع و منه قولهم: حبل منين أى ضعيف، لأنه مقطع و منيته أى قطعتة و منه قوله: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» «١» أى غير مقطوع و سمي ما يكدر النعمة و المعروف بانه منة لأنه قطع الحق الذى يجب به. و المننة: النعمة العظيمة سميت بذلك لأنها تجل عن قطع الحق بها لعظمها. و منه قوله:

(١) سورة التين آية: ٦.

ص: ٣٣٤

«يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» «١» أنعم عليكم. و المننة: القوة فى القلب و المن: الذى يقع من السماء، و المن الذى يوزن به، لأنه يقطع على مقدار مخصوص.

و قوله: «وَلَا أَدَى» فهو نحو قولهم أنت أبدأ فقير، و من أبلانى بك و أراحنى الله منك، و ما أشبه ذلك مما يؤذى قلب المعطى و قوله «لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و الأجر هو النفع المستحق بالعمل «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فالخوف يوقع الضرر الذى لا يؤمن وقوعه.

«وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» فالحزن الغم الذى يغلظ على النفس. و منه الحزن:

الأرض الغليظة. و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- لا خوف عليهم لفوت الأجر . و الثانى - لا خوف عليهم لاهوال الآخرة . و قيل أنه دليل على أن الوعد بشرط لأنه مغموم الكلام . لأن تقديره فى المعنى ان لم يتبعوا ما أ نفقوا منا و لا أذى، فلهم من الأجر كذا، و ليس فى الآية ما يدل على صحة القول بالإيجاب أصلاً، لأن الوعد متى كان مشروطاً بأن لا يتبع باليمن و الأذى فمتى اتبع بهما لم يحصل الشرط الذى يوجب استحقاق الثواب فلم يحصل شىء أصلاً ثم انحبط، و إنما كان فيه لبس لو ثبت استحقاقهم بنفس الإنفاق فإذا اتبع باليمن انحبط ذلك. و هذا ليس فى الآية.

و روى عن النبى (ص) أنه قال: المنان: بما يعطى لا يكلمه الله و لا ينظر إليه و لا يزيكه و له عذاب أليم.

و قال الضحاك لأن يمسك ماله خير له من أن ينفقه ثم يتبعه مناً و أذى.

قوله تعالى: [سورة القوة (٢): آية ٢٦٣]

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

آية بلا خلاف.

(١) سورة الحجرات آية: ١٧.

ص: ٣٣٥

القول المعروف معناه ما كان حسناً جميلاً لا وجه فيه من وجوه القبح، و هو أن تقول للسائل قولاً معروفاً عليه حسناً من غير صدقة تعطيها إياه. و قال الحسن:

و هو قول حسن لاعتراف العقل به، و تقبله إياه دون إنكاره له. و المغفرة هاهنا قيل فى معناها ثلاثة أقوال.

أولها- ستر الحلة على السائل . الثانى - قال الحسن: المغفرة له بالعفو عن ظلمه . الثالث - قال الجبائى: معناه أى سلامته فى المعصية لأن حالها كحال المغفرة فى الامان من العقوبة.

اللغة:

و قوله. «وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ» فالغنى هو الحى الذى ليس بمحتاج، و معناه هاهنا غنى عن كل شىء من صدقة و غيرها . و إنما دعاكم إليها لينفعكم بها . و قال الرمانى: الغنى الواسع الملك فالله غنى لأنه مالك لجميع الأشياء لأنه قادر عليها لا يتعذر عليه شىء منها. و الغنى ضد الحاجة . تقول: غنى يغنى غنى و أغناه اغتناء و استغنى استغناء و غنى غناء و تغنى تغنياً . و الغناء ممدود: الصوت الحسن.

و يقال فيه أغنيء و أغانى و الغنى : الكفاية للغنى به عن غيره. و المغنى المنزل غنى بالدار: إذا أقام بها و منه قوله «كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأُمْسِ» «١» و الغانية: الشابة المتزوجة لغناها بزوجه عن غيره. و هى أيضاً العفيفة لغناها بعفتها. و الغنية الاستغناء: و الحليم: الامهال بتأخير العقوبة للانابة، و لو وقع موقع حليم حميد أو عليم، لما حسن لأنه تعالى لما نهاهم أن يتبعوا الصدقة باليمن، بين أنهم إن خالفوا ذلك فهو غنى عن طاعتهم حليم. فى أن لا يعاجلهم بالعقوبة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

(١) سورة يونس آية: ٢٤.

ص: ٣٣٦

آية بلا خلاف.

المعنى:

ضرب الله (تعالى) هذه الآية مثلاً لعمل المنافق و المنان جميعاً، فإنهما إذا فعلا فعلاً لغير وجه الله أو قرنا الإنفاق باليمن و الأذى، فإنهما لا يستحقان عليه ثواباً. و شبه ذلك بالصفة الذى أزال المطر ما عليه من التراب، فانه لا يقدر أحد على رد ذلك التراب عليه فكذلك إذا رفع المنان صدقته و قرن بها اليمن فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استدراكه، و تلا فيه لوقوعه على الوجه الذى لا يستحق عليه الثواب فان وجوه الافعال تابعة للحدوث، فإذا فاتت فلا طريق إلى تلافيها و ليس فيها ما يدل على أن الثواب الثابت المستقر يزول باليمن فيما بعد و لا بالرياء الذى يحصل فيما يتجدد فليس فى الآية ما يدل على ما قالوه.

و قوله: «رِثَاءَ النَّاسِ» إنها جمع بين همزتين و لم يجمع فى ذوائب جمع ذؤابة، لوقوع الألف فى الجمع بين الهمزتين، فلم يجز ذؤائب «١»، فأما الواحد فاجتمع لخفته و هما أيضاً مفتوحان فهو أخف لها.

و قوله: «كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ» يدخل فيه المؤمن و الكافر إذا أخرجا الإنفاق للرياء. و قوله: «وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» صفة للكافر خاصة «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ» يعنى الحجارة الصلبة «عَلَيْهِ تُرَابٌ».

اللغة:

فالتراب و التراب واحد يقال ترب الرجل إذا افتقر، لأنه لصق بالتراب للفقير و منه قوله : «مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ» «٢» لأنه قعد على التراب للفقير و أترب الرجل إذا استغنى لأنه كثر ماله حتى صار كالتراب. و التراب الذى ينشأ معك. و قيل فيه

(١) فى المطبوعة (فلم يجز ذوائب) و الصحيح ما ذكرنا.

(٢) سورة البلد آية: ١٦.

ص: ٣٣٧

أقوال: منها للعبهم بالتراب إذ هم صبيان أقران . و منها - لأنهم خرجوا إلى عفر التراب فى وقت من الزمان . و منها - لأنهم على الاشتباه كالتراب. و قوله:

«عُرْبًا أَتْرَابًا» «١» أى أشباه أمثال. و الترائب «٢» عظام الصدر واحدها تريبة.

قيل لأنها متشابهة كالأترباب أو كتشابه التراب. و منه قوله: «مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّارِبِ» «٣».

و قوله: «فَأَصَابَهُ وَاِبِلٌ» فالوابل: المطر الشديد الوقع، يقال وبلت السماء تبل وبلا: إذا اشتد وقع المطر.

و قوله: «فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا» «٤» أى شديداً. و الوبيل: المرعى الوخيم. و الوبال: سوء العاقبة. و الموبل: المغلظ القلب. و الوبييلة: الحزمة من الحطب لأنها مشدودة . و الوبيل: العصا الغليظة. و الوايلة: طرد العضد فى الكتف . و أصل الباب الشدة . و الصفوان واحده صفوانة مثل مرجان و مرجانة و سعدان و سعدا نة و قال الكسائى : جمع صفوان صُفَى . و أنكر ذلك المبرد و قال: إنما هو صفاء و صفى مثل عصا و عَصَى وقفاً و قفى و كذلك ذكران و صفران - بكسر الصاد- و إنما هو جمع صفا نحو خرب و خربان، و ورل* و ورلان. و قال معنى صفا و صفوان واحد.

و قوله: «فَتَرَكَّهُ صَلْدًا» فالصلد: الحجر الأملس الصلب قال الشاعر:

و لست بجلب جلب ريح و قرّة
و لا بصفا صلد عن الخير معزل «5»

و قال رؤبة.

(١) سورة الواقعة آية: ٣٧.

(٢) فى المطبوعة (التربية)* ورل: دابة على خلقة الضب الا أنه أعظم منه. و الجمع أورال و ورلان و أرؤل.

(٣) سورة الطارق آية: ٧.

(٤) سورة المزمل آية: ١٦.

(٥) البيت لتأبط شراً. اللسان (جلب) و روايته (جلب ليل) بدل (جلب ريح) و فى اللسان (عزل) كما هنا. الجلب:- بكسر الجيم أو ضمها مع سكون اللام:- السحاب المعترض تراه كأنه جبل. و يقال هو السحاب الرقيق. و القرء- بكسر القاف - و القر- بضم القاف - البرد الشديد.

ص: ٣٣٨

براق أصلاد الجبين الأجله»1»

لما رأتى خلق المموه

و الصلد الذى لا ينبت شيئاً من الأرض لأنه كالحجر الصلد، و الصلد: البخيل و صلد الزند صلوداً إذا لم يور ناراً و فرس صلود: إذا أبطأ عرقه. و قدر صلود إذا أبطأ عليها. و أصل الباب ملاسء فى صلابء و يقال صلد يصلد صلداً فهو صلد.

و قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» معناه أنه لا يهديهم إلى طريق الجنة على وجه الانابة لهم و يحتمل لا يهديهم بمعنى لا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال المهتدى من المؤمنين، لأن أعمالهم لا يقع على وجه بها المدح.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٥]

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْهُ أَكْطُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْنِهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

آية.

القراءة:

قرأ عاصم و ابن عامر بربوء- بفتح الراء- الباقون بضمها. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و نافع (أكطها) بإسكان الكاف الباقون بالتثنية.

المعنى:

و هذا مثل ضربته اللع لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله أى طلباً لرضاه. و قوله:

«وَتَنبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ» بقوة اليقين و البصيرة في الدين في قول ابن زيد، و السدى، و أبى صالح و الشعبي . الثانى - قال الحسن و مجاهد: معناه أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم . الثالث - قال أبو على: معناه توطيئاً لنفوسهم على الثبوت على طاعة الله و اعترض على قول مجاهد بأنه لم يقل تنبيئاً . و هذا ليس بشىء لأنه لا يجوز أن يقول القائل يشبثوا أنفسهم تنبيئاً إذا كانوا كذلك فهم لا يتثبتون أين يضعون

(١) ديوانه: ١٦٥ من قصيدة مر الاستشهاد ببعض أبياتها فى ١: ٢٨ - ٣٠٤.

ص: ٣٣٩

الصدقات. و قوله: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» إنما خصت بالربوة لأنها إذا كانت بربرة فتثبتها أحسن و ربيعها أكثر كما قال الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل¹

فخص بها الحزن لما بيناه.

اللغة:

و الربو: الزيادة يقال ربا الشىء يربو إذا زاد. و أصابه ربو: إذا أصابه نفس فى جوفه، لزيادة النفس على عادته . و الربوة: العلو من الأرض لزيادته على غيره بارتفاعه. و الربا فى المال: المعاملة على أن يأخذ أكثر مما يعطى للزيادة على ما يفرض يقال ربا المال يربو رباً و أربى صاحبه فهو مرب . و أصل الباب الزيادة. و فى الربوة ثلاث لغات - فتح الراء و ضمها و كسرهما - . و فيها أربع لغات آخر رباوة و رباوة و رباوة و ربا. فتلك سبع لغات.

المعنى و اللغة:

و قال ابن عباس، و الضحاك، و الحسن، و مجاهد، و السدى، و الربيع:

الربوة و الرايبة المرتفع من الأرض «فَاتَتْ أَكْلَهَا» فالفرق بين الاكل و الاكل ان الاكل بالفتح المصدر و الاكل بالضم الطعام الذى يؤكل «ضِعْفَيْنِ» يعنى مثلين فى قول الزجاج لأن ضعف الشىء مثله زائداً عليه و ضعفه مثله زائدين عليه.

و قال قوم: ضعف الشىء مثله. و قوله «فطل» قال الحسن و الضحاك و الربيع و قتادة هو اللين من المطر . و إنما ذكر الطل هاهنا لتشبيهه أضعاف النفقة به كثرت أو قلت : إذ كان خيرها لا يختلف على حال فى قول الحسن و قتادة . و إنما قيل لما مضى

«فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» لأن فيه إضمار (كان) كأنه قيل: فان يكن لم يصبها وابل، فطل. و مثله قد أعتقت عبيد بن رافع لم أعتق اثنين فواحداً بقيمتيهما.

(١) ديوانه ٥٧ رقم القصيدة ٦. الرياض جمع روضة و هي البستان. و الحزن ضد المنخفض من الأرض. و رياض الحزن أطيب من رياض المنخفضات لأن الريح تهب عليها فتهيج رائحتها.

مسبل أى منزل للماء.

ص: ٣٤٠

و المعنى ان أكن لم أعتق قال الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لثيمة
و لم تجدى من أن تقرى بها بدا¹»

كأنه قال: أكن لم تلدنى لثيمة. و الطل المطر الصغار القطر يقال: أطلت السماء فهي مطلة. و روضة طلة ندية. و الطل: إبطال الدم بأن لا يثار بصاحبه. طل دمه فهو مطلول لأنه بمنزلة ما جاء عليه الطل، و أذهبه كأنه قيل غسله. و الطل و الطلل ما شخص من الدار، لأنه كموضع الندى بالطل لغماره الناس له خلاف المستوى، و القفر، لأن الخصب حيث تكون الأبنية. و صار الطلل اسماً لكل شخص. و الاطلاع: الاشراف على الشئ و الطل: الشحم، ما بالناقة طل أى ما بها طرق. و طلة الرجل امرأته. و أصل الباب الطل: المطر.

و قوله: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» معناه عالم بأفعالكم، فيجازيكم بحسنها و فى ذلك ترغيب و ترهيب.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٦]

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى قوله: «أَيُودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ» التقدير (على) مثل ضربه الله في الحسرة بسلب النعمة فقليل هو مثل للمرائي في النفقة، لأنه ينتفع بها عاجلاً و تنقطع عنه آجلاً في أحوج ما يكون إليه . هذا قول السدي و قال مجاهد : هو مثل للمفرط في طاعة الله بملأ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى. و قال ابن عباس: هو مثل للذي يختم عمله بفساد.

(١) قائله زائدة بن صعصة الفقعسي و قد مر في ١: ٢٨٩-٣٥٢.

ص: ٣٤١

اللغة:

و قوله: «أَيُودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ» فأتى بمستقبل ثم عطف عليه بماض في قوله «وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ» قال الفراء يجوز ذلك في يود لأنها تلتقي مرة ب (أن) و مرة ب (لو) فجاز أن يقدر أحدهما مكان الاخرى، لاتفاق المعنى، فكأنه قال أ يود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل و أعناب و أصابه الكبر. قال الرماني: و عندي أنه قد دل بأن على الاستقبال، و بتضمين الكلام معنى لو على التمني، كأنه قيل أ يحب ذلك متمنياً له. و التمني يقع على الماضي و المستقبل أ لا ترى أنه يصح أن يتمنى أن كان له ولد. و يصح أن يتمنى أن يكون له ولد. و المحبة لا تقع إلا على المستقبل، لأنه لا يجوز أن يقال أحب أن كان لى ولد و يجوز أحب أن يكون لى ولد. و الفرق بين المودة و المحبة أن المودة قد تكون بمعنى التمني نحو قولك : أود لو قدم زيد بمعنى أتمنى لو قدم، و لا يجوز أحب لو قدم. و قوله أن تكون له جنة، فالجنة: البستان الكثيرة الشجر لأن الشجر يجنه بكثرتة فيه.

و النخل معروف. و قيل: إنه مأخوذ من نخل المنخل، لاستخلاصه كلستخلاص اللباب بالنخل. و النخل و النخيل جمع نخلة. و هى شجرة التمر. و قوله: (كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) (١) و قوله «كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» (٢) فذكر على اللفظ و أنت على المعنى. و النخل نخل الدقيق نخلته نخلا. و منه المنخل، لأنه آلة النخل و النخالة معروفة و النخل نخل السماء بالثلج أو ما صغر من القطر و الانتخال الاختيار و التنخل (٣): التخير و أصل الباب النخل: الدقيق. و العنب: ثمر الكرم معروف و رجل عنب و عنب. و العناب معروف. و العناب ما تقطعه الخائنه مشبه بالعنب فى التعلق. و رجل عنب: عظيم الانف مشبه بعنقود العنب فى التعلق و العظم. و أصل الباب العنب. و قوله: «مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» و تحت تقيض فوق و فى الحديث

(١) سورة الحاقة آية: ٧.

(٢) سورة القمر آية: ٢٠.

(٣) فى المطبوعة: (التنخر).

ص: ٣٤٢

«لا يقوم الساعة حتى يظهر التحوت» أى الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يشعر بهم ذلاً.

و الأنهار جمع نهر و هو المجرى الواسع من مجارى الماء قال الشاعر:

ملكت بها كفى فأنهت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها¹»

معناه وسّعت فتقها كالنهر.

و قوله: «فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» فالثمرة: طعام الناس من الشجر. و قوله:

«وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ» فالأصابة الوقوع على المقصود . و المراد هاهنا : لحقه الكبر، و الكبر حال زائدة على مقدار آخر . و المراد هاهنا: الشيخوخة. و الفرق بين الكبير و الكثير أن الكثير مضمن بعد د و ليس كذلك الكبير نحو دار واحدة كبيرة . و لا يجوز كثيرة. و الذرية: الولد من الناس. و الضعفاء: جمع ضعيف، و الضعف نقصان القوة . و قوله: «فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» فالعصر عصر الثوب و نحوه من كل شىء رطب عصرته أعصره عصراً فهو معصور، و عصير . و اعتصرته اعتصاراً، و تعصر تعصراً، و عصره تعصيراً. و انعصر انعصاراً. و العصر الدهر.

و فى التنزيل «وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» ^٢ و العصر العشى. و منه صلاة العصر لأنها تعصر أى تؤخر كما يؤخر الشىء بالتعصر فيه. و العصر النجاة من الحذب و منه قوله تعالى: «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ» ^٣ لأنه كعصر الثوب فى الخروج من حال إلى حال. و العصر: العطية. و الاعتصار: الالتجاء. و المعتصر:

الملجأ. و الاعصار: غبار يلتف بين السماء و الأرض كالتفاف الثوب فى العصور.

و المعصر فوق الكاعب. و المعصرات السحاب. و منه قوله «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَبَّاجاً» ^٤ و العصرة: الدينة يقال هو لأموالنا عصرة: أى دينه. و أصل الباب: عصر الثوب. و الإحراق إحراق النار أحرقت بالنار فاحترق احتراقاً و حرّقه تحريقاً و تحرق تحرقاً و الحرق حكّ البعير أحد ناييه بالآخر يكون وعيداً و تهديداً

(١) انظر ١: ٢٦، ٢: ٥٧.

(٢) سورة العصر آية: ١ - ٢.

(٣) سورة يوسف آية: ٤٩.

(٤) سورة النبأ آية: ١٤.

ص: ٣٤٣

من فحول الإبل، لالتهابه غضبا كالتهاب الإحراق . و الحرق: حك الحديدة بالمبرد حرقت الحديدة أحرقتها حرقاً : إذا بردتها للتفريق بالإحراق. و الحرق: قطع عصبه في الورك لا تلتئم كما لا يرجع ما أحرق، يقال حرق الورك فهو محروق و الحرق:

الثوب يقع فيه الحرق من دق القصار لأنه كالأحراق بالنار في أنه لا يرجع إلى الحال . و منه ريش حرق لأنه كالمنقطع بالإحراق. و الحراق: ما اقتبست به النار للإحراق. و الحرقة ما يجده من حدة لأنه كالأحراق بالنار. و الحراقات: سفن يتخذ منها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر و أصل الباب الإحراق. و الفكر:

جولان القلب بالخواطر يقال: أفكر إفكاراً و فكر تفكيراً و تفكر تفكيراً و رجل فكير كثير الفكر. و قوله: «فاحترقت» فلاحترق: افتراق الاجزاء بالنار و البيان: هو الدلالة على ما بيناه - في ما مضى - و قال الرماني: البيان اظهار المعنى بما يتميز به من غيره على جهة الصواب. و لا يقال للحن من الكلام بيان و إن فهم به المراد، لأن البيان على الإطلاق ممدوح. و للحن عيب لكن يقال قد أبان عن مراده مجازاً.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

آية.

المعنى:

هذا خطاب للمؤمنين دون سائر الناس و قال الحسن، و علقمة: كل شيء في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فإنما أنزل بالمدينة و كلما فيه «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» أنزل بمكة و قوله: «أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ» يدخل فيه الزكاة المفروضة و غيرها من أنواع النفقة. و قال عبيدة السلماني، و الحسن: هي مختصة بالزكاة.

و قال الجبائي: هي في المتطوع، لأن الفرض من الصدقة له مقدار من القيمة إن

ص: ٣٤٤

قصر كان ديناً عليه إلى أن يؤديه على التمام . فأما إذا كان مال المزكى كله ردياً فجاز له أن يعطى منه و لا يدخل في ما نهى عنه، لأن تقدير ما جعله الله للفقير في مال الغنى تقدير حصة الشريك، فليس لأحد الشريكين أن يأخذ الجيد و يعطى صاحبه

الردى لما فيه من الوكس فلذا استوى فى الرداوة جاز له إعطاء الردى، لأنه حينئذ لم يبخسه حقاً هو له كما يبخسه فى الأول و قوله: «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ»

روى عن على (ع)، و البراء بن عازب، و الحسن، و قتادة : أنها نزلت لأن بعضهم كان يأتى بالحشف فيدخله فى تمر الصدق ة فنزلت فيه الآية.

قال ابن زيد: الخبيث الحرام. و الأول أقوى، لأنه قال: «انْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» ثم قال: «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ» يعنى من الذى كسبتم إذ أخرجه الله من الأرض. و الحرام و إن كان خبيثاً فليس من ذلك غير أنه يمكن أن يراد به ذلك لأنه لا ينافى السبب.

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنها نزلت فى أقوام لهم أموال من ربا الجاهلية كانوا يتصدقون منها، فنهى الله عن ذلك و أمر بالصدقة من الحلال.

و يقوى الوجه الاول قوله: «وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» و الإغماض لا يكون فى شىء ردى متسامح فى أخذه دون ما هو حرام. و فى الفقهاء من استدل بهذه الآية على أن الرقبة الكافرة لا تجزى فى الكفارة و ضعفه قوم و قالوا : العتق ليس بإنفاق. و الاولى أن يكون ذلك صحيحاً لأن الإنفاق يقع على كل ما يخرج لوجه الله عتقاً كان أو غيره . اللغة و التيمم: التعمد تيممت الشىء تيمماً.

و منه قوله: «فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً» «١» أى تعمدوا، و قال خفاف:

فعمداً على عين تيممت مالكا«2»

و قال آخر:

هذى المروءة لا لعب الزحاليق«3»

ييمته الرمح شزراً ثم قلت له

(١) سورة النساء آية: ٤٢، و سورة المائدة آية: ٧.

(٢) اللسان (عمد) و صدره:

ان تك خيلي قد أصيب صميمها

(٣) قائله: عامر بن مالك. و الزحاليف لغة في الزحاليق واحدها زحلوقة و هي أثر تزلج الصبيان من فوق طين أو رمل.

ص: ٣٤٥

و اليم: لجة البحر، لأنه يعتمد به البعيد من الأرض، و يم الرجل : إذا غرق في البحر، و يم الساحل إذا طما عليه يم البحر فغلب عليه. و اليمامة، و اليمام : الحمام الطورانية تعتمد إلى أوكارها بحسن هدايتها . و قال الخليل : أممته قصدت أمامه و يممته : تعتمد من أى جهة كان. و قال غيره: هما سواء. و الخبيث: الردىء من كل شىء، خبث خبثاً و تخبث تخبثاً و تخابث تخابثاً و خبثه تخبثاً. و الخبئة: الريبة، و خبث الفضه ما نقاه الكير لأنه ينفى الردىء و أصله الرداءء.

الاعراب و اللغة:

و قوله: «وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» إنما فتحت (أن) فى قول الفراء من أجل (إلا) إذ وقعت عليها. و هى فى موضع خفض فى الأصل عنده (إن) لأن الكلام فى معنى الجزاء و هو إن أغمضتم بعض الإغماض أخذتموه، و مثله «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» (١) و أنكر ذلك أبو العباس و قال : (أن) هذه التى بمعنى المصدر مفتوحة على كل حال و ذلك نحو أن تأتيني خير لك . و إنما المعنى و لستم بآخذيهِ إلا لاغماضكم فيه . و الإغماض فى البيع الحط من الثمن لعب فيه، أغمض إغماضاً و ذلك لاخفاض بعض الثمن بالحط له. و الغموض: الخفاء.

غمض يغمض غموضاً فهو غامض. و التغميض إطباق الجفن و غمض العين . و الغمض المطمئن من الأرض حتى يغيب من فيه و أصل الباب: الخفاء.

المعنى:

و قيل فى معنى «إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» قولان قال البراء بن عازب إلا أن تتساهلوا فيه . و قال ابن عباس، و الحسن و قتادة إلا أن تحطوا من الثمن فيه.

و قال الزجاج: و لستم بآخذيهِ إلا بوكس فكيف تعطونه فى الصدقة قال الطرماح ابن حكيم:

لم يفتنا بالوتر قوم و للضميم

رجال يرضون بالإغماض¹»

أى بالوكس قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» هاهنا معناه أنه غنى عن صدقاتكم و إنما دعاكم إليها لنفعكم، فأما «حميد» ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه مستحق للحمد على نعمه. الثانى - موجب للحمد على طاعته.

و الثالث - قال الحسن: معناه مستحماً إلى خلقه بما يعطون من النعم لعباده أى مبتدع لهم إلى ما يوجب لهم الحمد. و حميد فى هذا الموضع أليق من حليم كما أن حليماً أليق بالآية المتقدمة من حميد، لما بيناه و إنما قلنا ذلك لأنه لما أمرهم بالإنفاق من طيب ما كسبوه بين أنه غنى عن ذلك و أنه يحمدهم على ما يفعلونه إذا فعلوه على ما أمرهم به و معناه أنه يجازيهم عليه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٨]

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى الآية الوعد من الشيطان أنكم متى أخرجتم من أموالكم الصدقة و أدبتم الزكاة الواجبة عليكم فى أموالكم افتقرتم . و يأمركم أيضاً بالفحشاء من المعاصى و ترك طاعته . و الله (تعالى) يعد بالمغفرة منه و الستر عليكم، و الصفح عن العقوبة «و فضلاً» يعنى و يعدكم أن يخلف عليكم خيراً من صدقتكم و يتفضل عليكم و يسبغ عليكم فى أرزاقكم قال ابن عباس: اثنان من الله، و اثنان من الشيطان.

فاللذان من الشيطان الوعد بالفقر و الامر بالفحشاء. و اللذان من الله المغفرة على المعاصى و الفضل فى الرزق.

(١) ديوانه: ٨٦ من قصيدة مجد بها قومه، و قبله:

اننا معشر شمائلنا الصبر إذا الخسوف مال بالاخفاض نصر للذليل فى ندوة الحى مرثيب للتأى المنهاض.

من يرم جمعهم يجدهم مراجيح حماة للعزل الاحراض

ص: ٣٤٧

اللغة و المعنى:

و الفقر: الحاجة و هو ضد الغنى يقال: أفقره الله إفقاراً و افتقر افتقاراً و تفاقر تفاقراً، لأن الفقر بمنزلة كسر الفقار في تعذر المراد .
و الفقار: عظام منتظمة في النخاع تسمى خرز الظهر واحدها فقرة . و الإفقار: إعاقة الدابة لتركب ثم ترد . و الإفقار: دنو الصيد . و
الفاقرة الداهية، لأنها تكسر الفقار . و منه قوله:

«تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَّةٌ» (١) و أصل الباب الفقار: خرز الظهر . و تقول وعدته الخير، و وعدته بالخير و الأصل فيه تعديته بغير حرف الاضافة إلا أنه كثر استعماله في التعدى بحرف الاضافة حتى صار أصلاً فيه لكثرتة . و أمرته بالخير أكثر في الكلام و إنما يجوز أمرته الخير في الشعر و قوله: (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) حكى البلخي أنه بغير واو في مصاحف أهل الشام و لم يقرأ به أحد فان صح فهو دلالة على نقصان الحروف من كثير من القرآن على ما اختلفوا فيه . و الفرق بين الوعد و الوعيد أن الوعيد في الشر خاصة، و الوعد بالتقييد للخير و الشر معاً غير أنه إذا أطلق لم يكن إلا في الخير، و كذلك إذا أبهم التقييد كقولك وعدته بأشياء لأنه بمنزلة المطلق . و حدّ الوعد: هو الخبر بفعل الخير في المطلق . و الوعيد: هو الخبر بفعل الشر . و الأمر هو قول القائل لمن هو دونه: افعل، مع إرادة المأمور به، فان انضم إليه الزجر عن الإخلال به كان مقتضى ياً للإيجاب . و قال ابن مسعود للشيطان لمة و للملك لمة.

و مثله

روى عن أبي عبد الله (ع) فلمة الشيطان وعده بالفقر و أمره بالفاحشة و لمة الملك أمره بالإففاق و نهيه عن المعاصي.

و قال أبو مسلم و الازهرى الفحشاء البخل و الفاحش البخل قال طرفة:

عقيلة مال الفاحش المتشدد»2

(١) سورة القيامة آية: ٢٥.

(٢) هو طرفة بن العبد البكري. معلقته، و اللسان: (فحش) و صدره:

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفى

ص: ٣٤٨

و قال الحسين بن على المغربى و الذى يقوى قوله ما أنشده أبو حيرة الراحل من طى:

قد أخذ المجد كما أرادا ليس بفحاش يظن الزادا

و قال الرماني: و الله ما قالاه بعيد . و الفحشاء المعاصى فى أغلب الاستعمال و معنى البيت الذى أنشده أن الفاحش هو سىء الرد بسؤاله و ضيفانه و ذلك من البخل لا محالة قال كعب:

أخى ما أخى لا فاحش عند بيته و لا برم عند اللقاء هبوب «1»

فتلخيص معنى الآية أن الشيطان يحملكم على أن تؤدوا فى الصدقة ردىء المال يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد- و الفقر و الفقر لغتان- و يعدكم الفقر: معناه بالفقر فحذف الباء و عدى الفعل فنصب قال:

أمرتک الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتک ذا مال و ذا نشب

و قوله: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» معناه واسع يعطى من سعة مقدوراته «عليم» حيث يضع ذلك و يعلم الغيب و الشهادة.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٦٩]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

آية.

القراءة و المعنى:

قرأ يعقوب (و من يؤت) - بكسر التاء - الباقيون بالفتح قيل فى معنى الحكمة فى الآية وجوه قال ابن عباس و ابن مسعود : هو علم القرآن ناسخه و منسوخه و محكمه و متشابهه و مقدمه و مؤخره و حلاله و حرامه و أمثاله. و قال ابن

(١) هكذا فى المطبوعة. و فى أمالى القالى ٢: ١٤٦: و لا و روع عند اللقاء هبوب و فى مجمع البيان: عند اللقاب هبوب.

ص: ٣٤٩

زيد: هو علم الدين. و قال السدى: هو النبوة. و قال مجاهد الاصابة. و قال ابراهيم النخعي: الفهم. و قال الربيع: الخشية. و قال قوم: هو العلم الذى تعظم منفعته و تحل فائدته و هو جميع ما قالوه. و قال قتادة: و الضحاك، و فى رواية عن مجاهد:

هو القرآن، و الفقه. و هو المروى عن أبى عبد الله (ع)

و إنما قيل للعلم: حكمة لأنه يمتنع به من القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن، و الزجر عن القبيح . و قال الجبائي: هو ما آتاه الله أنبياءه و أممهم من كتبه و آياته و دلالاته التى يدلهم بها على معرفتهم به و بدينه و ذلك تفضل منه يؤتیه من يشاء. و قوله: «وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» و كل مكلف ذو لب لأنه إنما يطلق عليهم هذه الصفة لما فيها من المدحة فلذلك عقد التذكر بهم و هم الذين يستعملون ما توجبه عقولهم من طاعة الله فى كل ما أمر به و دعا إليه و «يؤت» جزم ب (من) و الجواب «فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» و من قرأ يؤت بكسر التاء على ما روى عن يعقوب ذهب إلى أن معناه و من يؤته الحكمة، و إنما حذف الهاء فى الصلة و يكون (من) على هذا المعنى «الذى» لا معنى الجزاء.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٠]

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

آية بلا خلاف.

(ما) فى قوله و ما أنفقتكم بمعنى الذى و ما بعده صلتها و العائد إليها الهاء فى قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ» لأنها لا يجوز أن تعود على النفقة، لأنها مؤنثة، و لا على النفقة و النذر، لأن ذلك يوجب التشبيه . و المراد بالإنفاق هاهنا ما يخرج فى طاعة الله : واجباتها و مندوباتها.

و قوله: «أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ» فالنذر هو عقد الشئ على النفس فعل شئ من البر بشرط، و لا يتعقد ذلك إلا بقوله لله على كذا، و لا يثبت بغير هذا اللفظ. و أصل النذر الخوف لأنه يعقد ذلك على نفسه خوف التقصير فى الأمر و منه

نذر الدم: العقد على سفكه للخوف من مضرة صاحبه قال الشاعر:

هم يندرون دمي و أنذر إن لقيت بأن أشدا

و منه الانذار: الاعلام بموقع العدو، للخوف منه ليتقى يقال: نذرت النذر أنذره نذراً و جمعه نذور و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ» معناه يجازى عليه لأنه عالم به، فدل بذكر العلم على تحقيق الجزاء إيجازاً للكلام و قوله «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» وعيد للظالمين و هم الفاعلون لضرر يستحق عليه الذم . و المراد بالظالمين هاهنا الذين كانوا إنفاقهم على غير الوجه المأذون لهم فيه من رباً أو ضرار أو شقاق أو من مال مغصوب أو مأخوذ من غير وجهه . و سمي ذلك ظلماً، لأنه وضع فيه فى غير موضعه، و الأنصار جمع نصير مثل شريف و أشرف، و باب فاعيل يجمع على فعلاء مثل عليهم و علماء و كريم و كرماء، و قد ورد فيه فعال مثل نصير و نصار.

و النصير: هو المعين على العدو، فعلى هذا لا تدل الآية على أنه لا شفاعه لمرتكبي الكبائر لأن أحداً لا يقول أن لهم معيناً على عدوهم بل إنما تقول لهم من يسأل فى بانهم على وجه التضرع و لا يسمى ذلك نصر على حال.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧١]

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي و خلف فنعما - بفتح النون و كسر العين - و قرأ ابن كثير، و ورش، و يعقوب، و حفص، و الأعشى و البرجمي - بكسر النون و العين - و قرأ أهل المدينة - إلا ورشاً - و أبو عمر، و أبو بكر - إلا الأعشى - و البرجمي - بكسر النون و سكون العين - و كذلك فى النساء فى قوله: «نِعِمَّا يَعِظُكُمُ

به» و قرأ ابن عامر و حفص «و يكفر» بالياء و الرفع. و قرأ أهل المدينة، و حمزة و الكسائي و خلف عن أبى بكر بالنون و الجزم. الباقيون بالنون و الرفع.

المعنى الاعراب:

قال أبو على الفارسي: المعنى فى قوله «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ» إن فى نعم ضمير الفاعل و «ما» فى موضع نصب و هى تفسير الفاعل المضمرة قبل الذكر و التقدير نعم شيئاً أبدءوها . فالإبداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف و أقيم المضاف إليه الذى هو ضمير الصدقات مقامه، فالمخصوص بالمدح هو الإبداء بالصدقات لأن الصدقات تدل على ذلك قوله : «وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» أى الإخفاء خير لكم. فكما أن هو ضمير الإخفاء و ليس بالصدقات كذلك ينبغي أن يكون ضمير الإبداء مراداً و إنما كان الإخفاء - و الله أعلم - خيراً لأنه أبعد من أن يشوب الصدقة مراءء للناس و تصنع لهم فيخلص لله (تعالى) و لم يكن المسلمون إذ ذاك ممن يسبق إليهم ظنه فى منع واجب . و الفرق بين الصدقة و الزكاة أن الزكاة لا تكون إلا فرضاً و الصدقات قد تكون فرضاً، و قد تكون ن فلا. و اختلفوا فى الصدقة التى إخفاؤها أفضل . فقال ابن عباس، و سفيان، و اختاره الجبائي : انها صدقة التطوع، لأنها أبعد من الرياء فأما الصدقة الواجبة فإظهارها عندهم أفضل لأنه أبعد من التهمة. و قال يزيد بن أبى حبيب: الصدقات على أهل الكتاب إظهارها أولى، و هى على المسلمين إخفاؤها أفضل.

و قال الحسن، و قتادة: الإخفاء فى كل صدقة من زكاة و غيرها أفضل، و هو الأقوى لأنه عموم الآية و عليه تدل أخبارنا

و قد روى عن أبى عبد الله (ع) أن الإخفاء فى النوافل أفضل.

و قال أبو القاسم الإبداء خير. و المفسرون على خلافه.

ص: ٣٥٢

اللغة:

و الإخفاء: هو الستر تقول أخفيت الشىء أخفيه إخفاء: إذا سترته: و الخفى الاظهار خفيته أخفيه خفياً إذا أظهرته لأنه إظهار يخفى قال الشاعر:

فان تدفنوا الداء لا تخفه و أن تبعثوا الحرب لا تقعد¹

و الخفاء: الغطاء و الخوافى من ريش الطائر ما دون القوادم لأنها يخفى بها و الخفية عريش الأسد لأنه يختفى فيها تقول: اختفى اختفاء و خفى تخفية و تخفى تخفياً و استخفى استخفاء و أصل الباب الستر . و الإبداء و الاظهار و الإعلان نظائر و الإخفاء و الاسرار و الإغماض نظائر. تقول بدا الشىء يبدو: إذا ظهر، و أبديته:

إذا أظهرته.

الاعراب و القراءة:

و ضعف النحويون بأجمعهم قراءة أبي عمرو، وقالوا لا يجوز إسكان العين مع الإدغام و إنما هو إخفاء يظن السامع أنه إسكان . و إنما لم يجرز الإسكان مع الإدغام لأنه جمع بين ساكنين في غير حروف المد و اللين في نحو دابة و غير ذلك . و قد أنشد سيبويه في الجمع بين ساكنين مثل اجتماعهما في نعمًا قول الشاعر:

كأنها بعد كلال الزاجر و مسحه مر عقاب كاسر «2»

و أنكره أصحابه . و من رفع يكفر عطفه على موضع (ما) بعد الفاء و من جزم فعلى موضع الفاء . و مثل الاول قوله: (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ) و نظير الثاني «فَأَصْدَقَ وَ أَكُنْ» فمن اختار الجزم فلانه أبين في الاتصال بالجزاء و من رفع فلانه أشكل بما دخلت له الفاء إذ كانت إنما دخلت لاستقبال الكلام بعدها و إن كان في معنى الجواب . و من قرأ بالياء فمعناه «و يكفر الله» و قوله:

(١) قاله امرؤ القيس بن عابس الكندي. ديوان امر القيس: ٣٤٣، و اللسان (خفا) و روايته (فان تكتنموا السر لا نخفه).

(٢) اللسان (كسر) في المطبوعة (كأنه) بدل (كأنها) و (مر) ساقطة. و أنشده سيبويه: و مسح مر عقاب كاسر.

ص: ٣٥٣

«مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ» دخلت من للتبويض لأنه إنما يكفر بالطاعة - غير التوبة - الصغائر. هذا على مذهب من يقول بالصغائر و الإحباط. فأما على مذهبنا فإنما كان كذلك لأن إسقاط العقاب كله تفضل، فله أن يتفضل بإسقاط بعضه دون بعض فلو لم يدخل من لافادته يسقط جميع العقاب. و قال قوم من زائدة و الذي ذكرناه أولى لأنه لا حاجة بنا إلى الحكم بزيادتها مع إمكان حملها على فائدة «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» معناه أنه تعالى بما تعملونه في صدقاتكم من إخفائها و إعلانها عالم خبير به لا يخفى عليه شيء من ذلك فيجازى على جميعه بحسبه.

و روى عن النبي (ص) أنه قال لابن العاص «نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح»

فاختار أبو عبيد لأجل هذه الرواية قراءة أبي عمرو و قال الزجاج هذه رواية غير مضبوطة و لا يجوز عند البصريين ذلك لأن فيه جمعا بين ساكنين من غير حرف مد و لين و في نعم ثلاث لغات نعم و نعم و نعمًا.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٢]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُتَفَقُّوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفُسِكُمْ وَمَا تُتَفَقُّوْنَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُتَفَقُّوْا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ (٢٧٢)

آية واحدة.

المعنى:

قيل في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان : أحدهما - ما قاله ابن عباس و سعيد بن جبیر و قتادة ليس عليك هداهم بمنع المشركين الأقرباء من الصدقة ليدخلوا في الإسلام فعلى هذا معناه الابلحة . الثاني - قال الحسن، و أبو على الجبائي، و الزجاج : «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» بالحمل على النفقة في وجوه البرّ فعلى هذا معناه التسليّة و التقدير ليس عليك أن تهدى الناس إلى نيل الثواب، و الجنة و إنما عليك أن تهديهم إلى الايمان بأن تدلهم عليه لأنه (عليه السلام) كان يغتم إذا لم يؤمنوا

ص: ٣٥٤

و لم يقبلوا منه لعلمه بما يصيرون إليه من العقاب فسلاّه الله بهذا القول. و إنه لا ينبغي ترك مواساة ذوى القربى من أهل الشرك ليدخلوا في الإسلام فيكون ذلك مبيحاً للصدقة المندوبة عليهم. و قال ابن عباس، و ابن الحنفية، و سعيد بن جبیر :

نزلت هذه الآية لأنهم كانوا يتقون الصدقة على المشركين حتى نزلت «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» و قوله. «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» إنما علق الهداية بالمشيئة لمن كان في المعلوم أنه يصلح باللفظ و ليس كل أحد يصلح به فلذلك جاء الاختصاص بالمشيئة. و قال أبو على الجبائي : الهداية في الآية هو إلى طريق الجنة و ذلك يختص بالمؤمنين المستحقين للثواب و الأول اختيار البلخي و ابن الأخشاد و الزجاج و أكثر أهل العلم.

و قوله: (وَمَا تُتَفَقُّوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفُسِكُمْ وَمَا تُتَفَقُّوْنَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) معناه فلهذا يجب ألا تمنوا بالصدقة و الإنفاق : إذ كان لأنفسكم من حيث هو ذخر لكم و لا ابتغاء وجه الله الذي هو يؤقر به الجزاء لكم فهو من كل وجه عائد عليكم و ليس كتمليك الله لعباده إذ نفعه راجع عليهم كيف تصرف الحال بهم، فلذلك افترق ذكر العطية منه (تعالى)، و العطية من غيره. و معنى قوله «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» إلا ابتغاء رضوان الله. و استدل بذلك على حسن باطن المعنيين بالآية.

و انهم كانوا ينفقونه لوجه الله خالصاً. و قيل معناه و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فكيف يضيع سعيكم و إنفاقكم . و قيل في ذكر الوجه قولان:

أحدهما - لتحقيق الاضافة إليه، لأن ذكره يزيل الإبهام انه له أو لغيره، لأنك إذا اختصت ذكر الوجه و معناه التبيين، دل على أنك أردت الاختصاص و إزالة الإبهام، و رفع الاشتراك و حققت الاضافة.

و الثاني - لأشرف الذكرين في الصفة لأنه إذا قلت : فعلته لوجه زيد فهو أشرف في الذكر من فعلته [لزيد]. لأن وجه الشيء في الأصل أشرف ما فيه ثم كثر حتى صار يدل على شرف الذكر في الصفة فقط من غير تحقيق وجه ألا ترى أنك تقول:

وجه هذا الأمر كذا و هذا أوجه الرأى و هذا أوجه الدليل فلا تريد تحقيق الوجه

ص: ٣٥٥

و إنما يريد أشرف ما فيه من أجل شدة ظهوره و شدة بيانه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٣]

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَا ۖ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

آية واحدة.

قرأ حمزة و عاصم و ابن عامر «يحسبهم» - بفتح السين - الباقون بكسرها.

قال مجاهد، و السدى: الفقراء المذكورون فى الآية هم فقراء المهاجرين.

و قال أبو جعفر (ع) نزلت فى أصحاب الصَّفَّةِ.

و العامل فى الفقراء محذوف و تقديره النفقة للفقراء و قد تقدم ما يدل عليه. و قال بعضهم هو مردود على اللام الاولى فى قوله:

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ) قال الرماني هذا لا يجوز لأن بدل الشىء من غيره لا يكون إلا و الم عنى يشتمل عليه. و ليس كذلك ذكر النفس هاهنا، لأن الإنفاق لها من حيث هو عائد عليها، و للفقراء من حيث هو. و اصل إليهم و ليس من باب «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» لأن الأمر لازم للمستطيع خاصة و لا يجوز أن يكون العامل فيه «تنفقوا» لأنه لا يفصل بين العامل و المعمول فيه بما ليس منه كما لا يجوز كانت الحمى تأخذ.

اللغة:

و قوله: «الَّذِينَ أُحْصِرُوا» فالاحصار منع النفس عن التصرف لمرض أو حاجة أو مخافة و الحصر هو منع الغير و ليس كالأول، لأنه منع النفس. و قال قتادة و ابن زى: منعوا أنفسهم من التصرف فى التجارة للمعاش خوف العدو من الكفار.

و قال السدى: منعهم الكفار و الخوف منهم، و لو كان الأمر على ما ذكر لكان

ص: ٣٥٦

حصروا لأن الذى يمنعه العدو محصور و الذى يمنع نفسه محصر، و يحسبهم - بفتح السين و كسرهما - لغتان و معناه يظنهم و لا يعرف حالهم «أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» و قوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ» ليس معناه أنهم لا يقدرُونَ و إنما معناه أنهم ألزموا أنفسهم أمر الجهاد فمنعهم ذلك من التصرف كقولك : أمرنى الوالى أن أقيم، فما أقدر أن أبرح معناه ألزمت نفسى طاعته لا أنى لا أقدر عليه.

و تقول ضربت فى الأرض ضرباً و مضرباً إذا سرت فيها و ضرب الجرح إذا ألم ضرباناً و ضرباً، و ضرب الفحل الناقة : إذا طرقتها ضرباً و الضريب. الجليد تقول:

ضربت الأرض و جلدت. رواه الكسائى. و قوله: «تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ» فالسيما العلامة.

المعنى:

و قال مجاهد: معناه هاهنا التخشع. و قال السدى، و الربيع: علامة الفقر و أصل سيما الارتفاع لأنها علامة رفعت للظهور. و منه السؤم فى البيع: و هو الزيادة فى مقدار الثمن، للارتفاع فيه عن الحد. و منه سؤم الخسف للتوقع فيه بتحميل ما يشق. و منه سؤم الماشية إرسالها فى المرعى. و قوله: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً» لا يدل على أنهم كانوا يسألون غير إلحاف - فى قول الفراء، و الزجاج، و البلخى، و الجبائى - و إنما هو كقولك ما رأيت مثله. و أنت لم ترد أن له مثلاً ما رأيته و إنما تريد أنه ليس له مثل فىرى. و قال الزجاج معناه لم يكن سؤال، فيكون إلحاح كما قال امرؤ القيس:

على لا حب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطى جرجرا¹

و المعنى لا منار به فيهتدى بها، و إنما وجهوه على ذلك، لأن فى الكلام

(١) ديوانه: ٨٩. الاحب: الطريق الواضح. و المنار: العلامة توضع لإرشاد المسافرين. سافه: شمه. العود: الجمل المسن الضخم. جرجر: رغا و ضج. و قد مر صدره فى ١: ١٨٩ - ٢٨٩ - ٤٤٤. فى المطبوعة و آمالى المرتضى ١: ٢٢٨ الدبافى بدل (النباطى)

ص: ٣٥٧

دليلاً عليه، لأنه (تعالى) وصفهم بالتعفف و المعرفة بسيماهم دون الإفصاح بسؤالهم لأنهم لو أفصحوا به لم يحسبهم الجاهل أغنياء، لأنه إنما يجهل ما ينال بالاستدلال و إنما جاز هذا الاختصاص بالذكر لأن المعنى نفى صفة الذم عنهم. و قوله: «إلحافاً» قال الزجاج هو مأخوذ من إلحاف لاشتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتمال إلحاف فى التغطية و قال غيره : لأنه يلزم لزوم إلحاف فى غير وقته. و فى الآية دلالة على فساد قول المجبرة فى الاستطاعة، لأنه تعالى إذا عذر من لا يستطيع للمخافة

كان من لا يستطيع لعدم القدرة أعذر . و قوله «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» معناه يجازيكم عليه كما قال «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ».

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٤]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) آية.

ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب (ع) كانت معه أربعة دراهم فأنفقها على هذه الصفة بالليل والنهار . و في السر والعلانية . و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع)

و روى عن أبي ذر (ره) و الأوزاعي إنها نزلت في النفقة على الخيل في سبيل الله . و قيل هي في كل من أنفق ماله في طاعة الله على هذه الصفة و إذا قلنا أنها نزلت في علي (ع) فحكمها سار في كل من فعل مثل فعله.

و له فضل الاختصاص بالسبق إلى ذلك . و نزول الآية من جهته . و قيل في قسمة الأموال في الإنفاق على الليل والنهار و الاسرار و الإعلان أفضل من الإنفاق على غير ذلك الوجه قولان : قال ابن عباس: إن هذا كان يعمل به حتى نزل فرض الزكاة في براءة . و الثاني - ان الأفضل موافقة هذه الصفة التي وصفها الله . و هو الأقوى لأنه الظاهر ، و قال الرماني، و من تابعه من المعتزلة لا يجب هذا الوعد

ص: ٣٥٨

إذا ارتكب صاحبها الكبيرة من الجرم كما لا يجب إن ارتد عن الإيمان إلى الكفر و إنما يجب لمن أخلصها مما يفسق بها و هذا عندنا ليس بصحيح، لأن القول بالإحباط باطل و مفارقة الكبيرة بعد فعل الطاعة لا تحبط ثواب الطاعة بحال . و إنما يستحق بمعصيته العقاب و لله فيه المشيئة، فأما الارتداد فعندنا أن المؤمن على الحقيقة لا يجوز أن يقع منه كفر، و متى وقع ممن كان على ظاهر الإيمان ارتداد علمنا أن ما كان يظهره لم يكن إيماناً على الحقيقة، و إنما قلنا ذلك لأنه لو كان إيماناً لكان مستحقاً به الثواب الدائم فإذا ارتد فيما بعد استحق بارتداده عقاباً دائماً فيجتمع له استحقاق الثواب الدائم و العقاب الدائم و ذلك خلاف الإجماع و قوله: «الذين» رفع بالابتداء و ما بعده صلة له و خبره «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و إنما دخل الفاء في خبر الذين لأن فيها معنى الجزاء، لأنه يدل على أن الأجر من أجل الإنفاق في طاعة الله . و لا يجوز أن يقال زيد فله درهم لأنه ليس فيه معنى الجزاء و إنما رفع «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» و نصب «لَا رَبَّ فِيهِ» لأجل تكرير (لا) في جواب إذا قال الشاعر:

و ما صرمتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا و لا جمل

فأما «لا ريبَ فيه»، فجواب (هل) من ريب فيه، فقليل لا ريب فيه على عموم النفي كما أن السؤال على استغراق الجنس بمن فالاعتماد في أحدهما على عموم النفي و في الآخر على اشتغال النفي على شيئين قد توهم إثبات أحدهما . و الإنفاق إخراج ما كان من المال عن الملك و لهذا لا يصح في صفة الله (تعالى) الإنفاق:

و هو موصوف بالإعطاء لعباده ما شاء من نعمه لأن الإعطاء إيصال الشيء إلى الآخذ له و السر : إخفاء الشيء في النفس فأما إخفاؤه في خباء، فليس بسر في الحقيقة، و منه السرار و المسارة لأن كل واحد منهما يخفي الشيء عن غيره إلا عن صاحبه، و العلانية، نقيض السر و هو إظهار الشيء و إبرازه من النفس.

ص: ٣٥٩

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٥]

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)

آية.

المعنى:

أصل الربا: الزيادة من قولهم ربا الشيء يربو ربوا إذا زاد . و الربا: هو الزيادة على رأس المال . في نسيئة أو مماثلة و ذلك كالزيادة على مقدار الدين للزيادة في الأجل أو كاعطاء درهم بدرهمين أو دينار بدينارين،

و المنصوص عن النبي (ص) تحريم التفاضل في ستة أشياء الذهب، و الفضة، و الحنطة، و الشعير، و التمر، و الملح . و قيل: الزبيب: فقال النبي (ص) فيها مثلاً بمثل يداً بيد من زاد أو استزاد، فقد أربى.

هذه الستة أشياء لا خلاف في حصول الربا فيها، و باقى الأشياء عند الفقهاء مقيس عليها . و فيها خلاف بينهم، و عندنا أن الربا في كل ما يكال أو يوزن إذا كان الجنس واحداً، منصوص عليه . و الربا محرم متوعد عليه كبيرة بلا خلاف، بهذه الآية، و بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» «١» و قوله: «لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» قال ابن عباس، و سعيد بن جبير، و الحسن، و مجاهد، و قتادة: إن قيامهم على هذه الصفة يكون

يوم القيامة: إذا قاموا من قبورهم، و يكون ذلك إماراً لأهل الموقف على أنهم أكله الربا . و قوله: «يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ» مثل عند أبى على الجبائى لا حقيقة على وجه التشبيه بحال من تغلب عليه المرة السوداء، فتضعف نفسه و يلج الشيطان بإغوائه عليه فيقع عند تلك الحال و يحصل به الصرع من فعل الله . و نسب إلى الشيطان مجازاً لما كان عند وسوسته . و كان أبو الهذيل و ابن الأخشاد يجيزان أن يكون الصرع من فعل الشيطان فى بعض الناس دون بعض قالوا . لأن الظاهر من القرآن يشهد به، و ليس فى العقل ما يمنع منه و قال الجبائى : لا يجوز ذلك، لأن الشيطان خلق ضعيف لم يقدره الله على كيد البشر بالقتل و التخبيط و لو قوى على ذلك لقتل المؤمنين الصالحين و الداعين إلى الخير، لأنهم أعداؤه، و من أشد الأشياء عليه . و فى ذلك نظر و أصل الخطب: الضرب على غير استواء، خبطته أخبطه خبطاً . و الخطب ضرب البعير الأرض بيديه و التخطب المس بالجنون أو التخيل، لأنه كالضرب على غير استواء فى الادهاش . و الخطبة البقية من طعام أو ماء أو غيره لأنه كالصبه من الدلو و هى الخطبة به، و الخطب: ورق تغلفه الإبل.

و الخباط: داء كالجنون، لأنه اضطراب فى العقل كالاضطراب فى الضرب.

و الخطبة كالزكمة، لأنها تضرب بالانحدار على اضطراب. و الخباط سمة فى الفخذ لأنها تضرب فيه على اضطراب و معنى قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» إن المشركين قالوا: الزيادة على رأس المال بعد مصيره على جهة الدين كالزيادة عليه فى ابتداء البيع و ذلك خطأ، لأن أحدهما محرم و الآخر مباح، و هو أيضاً منفصل منه فى العقد، لأن الزيادة فى أحدهما لتأخير الدين و فى الآخر لأجل البيع. و الفرق بين البيع و الربا: أن البيع يبدل لأن الثمن فيه بدل المثلثين . و الربا ليس كذلك و إنما هو زيادة من غير بدل للتأخير فى الأجل أو زيادة فى الجنس «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا» و قوله: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ» قال أبو جعفر من أدرك الإسلام و تاب مما كان عمله فى الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. و قال السدى: له ما أكل، و ليس عليه رد ما سلف، فأما ما لم

يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه. و له رأس المال. و قال الطبرى: الموعظة التذكير و التخويف الذى ذكره الله و خوفهم به من آى القرآن و أوعدهم عليه إذا أكلوا الربا من أنواع العقاب . و قوله: «وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» معناه بعد مجىء الموعظة و التحريم، و بعد انتهاء أكله إلى الله (تعالى) عصمته، و توفيقه إن شاء عصمه عن أكله و ثبته فى انتهائه عنه، و إن شاء خذله . و يحتمل أن يكون أراد، فله ما سلف يعنى من الربا المأخوذ دون العقاب الذى استحقه.

اللغة:

و قوله: «وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» معناه فى جواز العفو عنه إن لم يتب و كل شىء قدمته امامك فهو سلف . و السلوف التقدم يقال : سلف يسلف سلوفاً و منه الأمم السالفة أى الماضية . و السالفة أعلى العنق . و الاسلاف الإعطاء قبل الاستحقاق تقول أسلفت المال إسلافاً، و سلافة الخمر: صفوها لأنه أول ما يخرج من عصيرها و السلفة: جلد رقيق يجعل بطانة للخفاف . و سلف الرجل:

المتزوج باخت امرأته و السلفه ما تدخره المرأة لتتحف به زائراً، و أصل الباب التقدم . و قوله: «وَمَنْ عَادَ» فالعود هو الرجوع تقول عاد يعود عوداً إذا رجع . و عيادة المريض: المصير إليه لتعرف خبره. و العود: من عيدان الشجر، لأنه يعود إذا قطع و منه العود الذى يتبخر به.

و العود: المسن من الإبل. و المعاد كل شىء إليه المصير. فالآخرة معاد الناس أى مرجع. و قوله: «لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ» (١) يعنى مكة بأن يفتحها عليه.

و الاعادة: فعل الشىء ثانية و هو المبدئ المعيد . و العادة تكرر الشىء مرة بعد مرة. و تعود الخير عادة. و العيد كل يوم مجمع عظيم، لأنه يعود فى السنة أو فى الأسبوع. و العائدة الصلة لأنها تعود بنفع على صاحبها و أصل الباب الرجوع.

(١) سورة القصص آية: ٨٥.

ص: ٣٦٢

تقول: عاد عوداً و اعتاد اعتياداً و استعاد استعادة و عود تعويداً، و تعود تعوداً، و عاود معاودة.

المعنى:

و معنى الآية و من عاد لأكل الربا بعد التحريم . و قال ما كان يقوله قبل مجىء الموعظة من أن البيع مثل الربا «فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» لأن ذلك لا يصدر إلا من كافر، لأن مستحل الربا كافر بالإجماع فلذلك توعد به عذاب الأبد. و الخلود و الوعيد فى الآية يتوجه إلى من أربى، و إن لم يأكله و إنما ذكر الله الذين يأكلون الربا لأنها نزلت فى قوم كانوا يأكلونه، فوصفهم بصفتهم و حكمها سائر فى جميع من أربى . و الآية الأخرى التى ذكرناها و تبين معناها فيما بعد تبين ما قلناه و عليه أيضاً الإجماع و قيل فى علة تحريم الربا أن فيه تعطيل المعاش و الاجلاب و المتاجر إذا وجد الربى من يعطيه دراهم و فضلا بدراهم.

و قال أبو عبد الله (ع) إنما شدد فى تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف فرضاً أو رفاً

و أما ذكر الموعظة هاهنا و أنها فى قوله: «قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» لامرين:

أحدهما- أن كل تأنيب ليس بحقيقى جاز فيه التذكير و التأنيث فجاء القرآن بالوجهين معاً . و الثانى- أنه ذكر هاهنا لوقوع الفصل بين الفعل و الفاعل بالضمير و أنت فى الموضع الذى لم يفصل . و الربا محرم فى النقد و النسيئة بلا خلاف و كان بعض من تقدم يقول لا ربا إلا فى النسيئة و الذى كان يريه أهل الجاهلية أن يؤخروا الدين عن محله إلى محل آخر بزيادة فيه و هذا حرام بلا خلاف. و مسائل البيع الصحيح منها و الفاسد و فروعها بينها فى النهاية و المبسوط و كذلك مسائل الصرف فلا نطول بذكرها فى هذا الكتاب.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٦]

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

ص: ٣٦٣

آية واحدة

اللغة:

المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال . محقه الله يمحقه محققاً، فانمحق و امتحق أى هلك و تلف بذهابه حالاً بعد حال . و المحاق آخر الشهر لا محاق الهلال فيه.

و الشيء محيق بمعنى ممحوق و أصل الباب المحق فان قيل بأى شىء «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ؟» قلنا: يمحقه بأن ينقصه حالاً بعد حال. و قال البلخي محقه فى الدنيا بسقوط عدالته و الحكم بفسقه و تسميته بالفسق.

المعنى:

و قوله «وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ» معناه يزيدها بما يثمر المال فى نفسه و بالأجر عليه و ذلك بحسب الانتفاع بها و حسن النية فيها و وجه زيادته على المستحق بالعمل تفصل بالوعد به

و قد روى عن النبى (ص) أن الله يقبل الصدقة، و لا يقبل منها إلا الطيب و يرببها لصاحبها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد،

و ذلك قوله: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ» و قوله: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ» إنما لم يقل كل كافر مع دخول الكفار فى الكافر لأن كل كافر كافر و ليس كل كافر كفار للدلالة على أن مستحل الربا فى قوله «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» مع أنه كافر كفلاً، و يجوز للدلالة على صفات الذم إذ قد يتوهم أن الكفار من استكثر من كفر نعمة إنسان لا يبلغ به استحقاق العقاب و يجوز أن يكون من باب الاختصاص لعظم المنزلة فى الأمر الذى تعلق به الذكر «و الأثيم» هو المتمادى فى الإثم. و الآثم: الفاعل للآثم و إنما قال لا يحبه و لم يقل يبغضه لأنه إذا لم يحب المكلف فهو يبغضه فقولك لا يحبه الله من صفات الذم كما أن قولك لم ينصف فى المعاملة من صفات الذم.

ص: ٣٦٤

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٧]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

آية واحدة.

المعنى:

إن قيل: إذا كان الثواب يستحق بخلوص الايمان فلم يشترط غيره من الخصال؟

قلنا: لم يذكر ذلك ليكون شرطاً في استحقاق الثواب على الايمان وإنما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق به الثواب ونظير ذلك ما ذكره في آية الوعيد في قوله: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَا مَا يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا» «١» فإنما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق بها العقاب لأن من المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر لا يحتاج إلى شرط عمل آخر استحق العقاب وإن كان الوعيد إنما يتوجه عليه بمجموع تلك الخصال لكن فيه تسهيل لكل واحد منها وليس التقييد في آيتي الوعيد يجرى مجرى قوله: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» «٢» من قبل أن هذا معلق بحكم يجب بوجوبه و يرتفع بارتفاعه بإجماع وليس كذلك ذكر هذه الخصال.

و هذه الآية تدل على أن أفعال الجوارح ليست من الايمان و إن الايمان هو التصديق بما وجب لأنها لو كانت من الايمان، لكن قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» قد اشتمل عليها فلا معنى لذكرها بواو العطف إذ لا يعطف الشيء على نفسه . فان قيل ذلك يجرى مجرى قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» «٣» و قوله:

(١) سورة الفرقان آية: ٦٨.

(٢) سورة النور آية: ٤.

(٣) سورة محمد آية: ١، و سورة النحل آية: ٨٨.

ص: ٣٦٥

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) «١» قلنا و الخلاف في هاتين كالخلاف في تلك لأننا لا نقول إن التكذيب بالآيات هو الكفر نفسه و إنما نقول هو دلالة على الكفر و كذلك الصد عن سبيل الله كما نقول : إن قول النبي (ص) فلان كافر يدل على كفره . و إن لم يكن ذلك كفراً و قال قوم : من المرجئة إن الوعد بهذه الخصال يدل على بطلان التحابط، لأنه تعالى ضمن الثواب بنفس فعل هذه الخصال، و لم يشترط ألا يأتي بما يحبطها فان قيل لا بد أن يكون ذلك مشروطاً كما أن الوعيد على الكفر لا بد أن يكون مشروطاً بارتفاع التوبة منه، لأن كل واحد من الأمرين إنما يستحق بخلوه مما ينافيه و إذا اتبع بكبيرة لم يخلص كما لم يخلص ما اتبع بتوبة.

قلنا: إنما شرطنا الوعيد على الكفر بعدم التوبة لمكان الإجماع، لا لأن التوبة تسقط العقاب على الكفر، و إنما وعد الله (تعالى) تفضلاً بإسقاط العقاب على المعاصي بالتوبة منها، وليس مثل ذلك موجوداً في آية الوعد لأنه ليس على شرط انتفاء الكبيرة إجماع، والعمل هو التغيير للشيء بالاحداث له أو فيه فإذا قيل:

عمل فلان الصالحات كان معناه أحدثها و إذا قيل : عمل الموازين و الخوض و السروج و الصفر و غير ذلك، كان المراد أنه أحدث فيها ما تتغير به صورتها.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)

آية واحدة.

النزول:

ذكر السدي و ابن جريج و عكرمة أن هذه الآية نزلت في بقية من الربا كانت للعباس و مسعود و عبد ياليل و حبيب و ربيعة . و بنى عمرو بن عمير و

روى عن أبي جعفر (ع) أن الوليد بن المغيرة كان يربى في الجاهلية و كان بقي له بقايا على

(١) سورة البقرة آية: ٣٩، و سورة المائدة آية: ١١، ٨٩ و سورة الحج آية: ٥٧ و سورة الحديد آية: ١٩، و سورة التغابن آية: ١٠.

ص: ٣٦٦

تقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت هذه الآية في المنع من ذلك.

المعنى:

و معنى «ذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» ظاهره تحريم ما بقي ديناً من الربا و إيجاب أخذ رأس المال دون الزيادة على جهة الربا . و قوله: «إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» قيل فيه قولان: أحدهما - من كان مؤمناً فهذا حكمه. و الثاني - إذ كنتم مؤمنين. و الأول هو الأقوى.

اللغة:

و معنى «ذروا» اتركوا. و لم يستعمل منه وذر، و لا واذر لكرهية الواو مبتدأة لأنها لم تزد أولاً فى كلامهم كزيادة أختيها الياء و الهمزة. قال الخليل:

إذا التقت واوان فى أول الكلمة أشبه بنباح الكلب فرفضوا ذلك إلا فيما هو عارض لا يعتد به فاستعملوا يذر، لأنه لا تظهر فيه الواو، و مثله يدع. فأما وعد فجاء على الأصل. فان قيل: لم جاز وصف المبهمة بالوصول، و لم يحسن بالمضاف فجاز أن يقول: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و لم يحسن (يا أيها غلام زيد) قلنا: لأن المبهمة حقه أن يوصف بالجنس المعرف بالألف و اللام، لأنه إذا عرض فيه تنكير بطلت دلالة على الجنس، فاحتيج إلى وصفه بالجنس لذلك. فان قيل: هلا جاز (يا أيها غلام الرجل) كما جاز (نعم غلام الرجل) إذ المضاف إلى الجنس يقوم مقام الجنس. قيل: لأنه لا يجوز فى الأسماء التامة أن تكون ثلاثة أسماء بمنزلة اسم واحد منها. و قد جعل (يا أيها الرجل) بمنزلة اسمين ضم أحدهما إلى الآخر نحو (حضر موت) ليكون بذلك أشد اتصالاً بالموصوف من سائر الصفات، فلم يجز فى المضاف لما يجب له من شدة الاتصال و جاز فى نعم، لأنه على الانفصال.

ص: ٣٦٧

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٧٩]

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) آية.

القراءة:

قرأ (فأذنوا) من الرباعى ممدودة حمزة و عاصم: من آذنت أى أعلمت.

الباقون (فأذنوا).

المعنى:

و التقدير فى قوله: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» يعنى ترك ما بقى من الربا أو تجنب ما بقى من الربا، لأن ما تقدم دلّ عليه . و قال ابن عباس، و قتادة، و الربيع : من عامل بالربا استتابه الامام فان تاب، و إلا قتله . و قال البلخى : لو اجتمع أهل قرية على اظهار المعاملة بالربا، لكان على الامام محاربتهم، و إن كانوا م حرمين له، و لو فعل الواحد بعد الواحد، و الأكثر منكر لفعله لم يقتل الواحد، لكن يقام عليه من الحكم ما يستحقه . و عندنا أنه يؤدبه الامام ثلاث مرات بما يرتدع معه عن فعل مثله فان عاد رابعاً قتله.

اللغة:

و معنى قوله: «فاذنوا» ممدوداً: علموا غيركم. و من قرأ بالقصر فهو من أذنت به آذن اذنأ إذا علمت به. و قوله: «بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ» فالحرب: القتال.

و الحرب: الشدة. و الحربة: التى يطعن بها من آلة الحرب. و التحريب: التحريش.

لأنه حمل على ما هو كالحرب من الأذى . و المحراب: مقام الامام، لأنه كموضع الحرب فى شدة التحفظ . و الحربا: المسمار الذى يجمع حلقتى الدرع. و الحرباء: دويبة

ص: ٣٦٨

أكبر من العظاءة، لأنه ينتصب على الشجرة كمصلوب أخذ من الحرب لشدة طلبه للشمس تدور معها كيفما دارت . و أصل الباب الشدة. و معنى قوله: (وَإِنْ تُبْتِغُوا) يعنى من الربا لأن الكلام يدل عليه، فلکم رؤس أم والکم لا تظلمون بأخذ الزيادة على رأس المال و لا تظلمون بالنقصان. و روى فى الشواذ «لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» و المعنى واحد و إنما فيه تقديم و تأخير و موضع (لا تظلمون) نصب على الحال. و تقديره فلکم رؤس أموالکم غير ظالمين و لا مظلومين:

و قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٠]

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

معنى قوله: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ أى من غرمائکم إن كان معسراً. و ارتفع ذو عسرة لأحد وجهين:

أحدهما- حذف الخبر، و تقديره و إن كان ذو عسرة غريماً لكم . الثانى - أن تكون كان التامة المكتفية باسمها و تقديره و إن وقع ذو عسرة أو وجد ذو عسرة و كان يجوز و إن كان ذا عسرة على تقدير و إن كان الذى عليه الدين ذا عسرة.

و روى ذلك فى قراءة أبى . و قوله: (فَنَظِرَةٌ) معناه فعليكم نظرة، و هل الانظار واجب فى كل دين أو فى دين الربا فقط . قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها- قال شريح، و إبراهيم فى دين الربا خاصة. و الثانى - قال ابن عباس، و الضحاك، و الحسن:

فى كل دين. و هو قول أبى جعفر، و أبى عبد الله (ع).

الثالث - بالآية يجب فى دين الربا و بالقياس فى كل دين، و استدل على أنه يجب فى كل دين بأنه لا يخلو أن يجب فى ذمته أو فى رقبته أو عين ماله، فلو كان فى رقبته لكان إذا مات بطل وجوبه، و لو كان فى عين ما له كان إذا هلك بطل وجوبه فصح أنه فى ذمته، و لا سبيل له عليه فى غير ذلك من حبس أو نحوه.

و قرأ نافع (ميسرة) - بضم السين - الباقون بفتحها، و هما لغتان:

ص: ٣٦٩

و معناه إلى أن يوسع عليه.

و قال أبو جعفر (ع) إلى أن يبلغ خبره الامام فيقضى عنه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في معروف.

و قوله: (وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) معناه على المعسر بما عليه من الدين خير لكم. و قيل إن معناه و إن تصدقوا بجميع المال على الفقراء. و الاول أليق بما تقدم. و روى عن ابن عباس، و عمر أن آخر ما نزل من القرآن آى الربا . و روى عن مجاهد (ميسره) بالهاء فى الوصل مضافاً إلى الهاء . و لم يجز ذلك البصريون لأنه ليس فى الكلام مفعله . و الإعسار الذى يجب فيه الانظار قال الجبائى: التعذر بالاعدام أو بكساد المتاع و نحوه.

و روى عن أبى عبد الله (ع) هو إذا لم يقدر على ما يفضل عن قوته و قوة عياله على الاقتصاد.

و روى عن عطا (فناظرة) و هو شاذ، و هو مصدر نحو قوله : «لَيْسَ لَوْعَتِهَا كاذِبَةٌ» «١» «و تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» «٢» و كذلك العاقبة و العافية.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨١]

وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)
آية واحدة.

القراءة و النزول:

قرأ أبو عمرو، وحده (ترجعون) بفتح التاء الباقون بضمها. قال ابن عباس و عطية و السدى : هذه الآية آخر ما نزلت من القرآن .
و قال جبريل (ع) وضعها فى رأس الثمانين و المائتين من البقرة.

المعنى:

و قيل فى معنى ترجعون فيه إلى الله قولان:

أحدهما - ترجعون فيه إلى جزاء الله. الثانى - ترجعون فيه إلى ملك الله

(٢) سورة القيامة آية: ٢٥.

ص: ٣٧٠

لنفعكم و ضرکم دون غيره ممن كان ملکه إياه فی دار الدنيا . و قوله (**ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**) قيل فيه وجهان: أحدهما - توفي جزاء ما كسبت من الاعمال.

الثاني - توفي بما كسبت من الثواب أو العقاب، لأن الكسب على وجهين : كسب العبد لفعله و كسبه لما ليس من فعله ككسبه المال و قوله: (**وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ**) معناه لا ينقصون ما يستحقونه من الثواب و لا يزداد عليهم فيما يستحقونه من العقاب و الآية تدل على أن الجزاء لا يكون إلا على الكسب لأنه لو كان خاصاً لجرى مجرى توفي كل نفس ما قالت و ليس مفهومه كذلك لأنه عام فيما يجازى به العبد و موضع « **ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ** » نصب بانه عطف على صفة يوماً إلا أنه حذف منه فيه لدلالة الأول عليه.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تُكْتَبَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

ص: ٣٧١

آية واحدة.

القراءة:

قرأ حمزة وحده (ان تضل إحداهما) بكسر الالف. الباقون بفتحها. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو (فتذكر) بالتخفيف و النصب. و قرأ حمزة بالتشديد، و الرفع. و قرأ (تجارة حاضرة) بالنصب عاصم. الباقون بالرفع.

المعنى:

قوله: « **إِذَا تَدَايَنْتُمْ** » معناه تعاملتم بدين. و إنما قال: «بدين» و إن كان تدايانتهم أفاده لأمرين:

أحدهما - أنه على وجه التأكيد كما تقول ضربته ضرباً . و الثانى - أن تداينتم يكون بمعنى تجازيتم من الدين الذى هو الجزء فإذا قال: بدين اختص بالدين خاصة «إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» معناه معلوم و قوله : «فَاكْتُبُوهُ» ظاهره الأمر بالكتابة. و اختلفوا فى مقتضاه، فقال أبو سعيد الخدرى، و الشعبى، و الحسن:

هو مندوب إليه. و قال الربيع، و كعب: هو على الفرض. و الاول أصح، لإجماع أهل عصرنا على ذلك. و لقوله تعالى «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ» و مفهومه فان أمنه فيما له أن يأمنه . و قال ابن عباس : هذه الآية فى السلم خاصة . و قال غيره: حكمها فى كل دين من سلم أو تأخير ثمن فى بيع . و هو الأقوى لآية العموم . فأما القرض فلا مدخل له فيه لأنه لا يجوز مؤجلاً و قوله: (وَلَا يَأْبَ

ص: ٣٧٢

كاتبٌ) ظاهره النهى عن الامتناع من الكتابة، و النهى يقتضى تحريم الامتناع.

و قال عامر الشعبى هو فرض على الكفاية كالجهاد، و هو اختيار الرماني، و الجبائى و جوز الجبائى أن يأخذ الكاتب و الشاهد الأجرة على ذلك. و عندنا لا يجوز ذلك . و الورق الذى يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين . و يكون الكتاب فى يده لأنه له . و قال السدى واجب على الكاتب فى حال فراغه . و قال مجاهد و عطاء هو واجب إذا أمر . و قال الضحاك نسختها قوله: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ».

و قوله: (أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ) يعنى الكاتب «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» أمر لمن عليه الحق بالاملال و هو و الاملاء بمعنى تقول أمليت عليه و أمملت عليه بمعنى واحد . و قوله: (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) معناه لا يملل إلا الحق الذى عليه و الإملاى المراد به النذب لأنه لو أملاً غيره و أشهد هو كان جائزاً بلا خلاف.

و قوله: (وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا) أى لا ينقص منه شيئاً و البخس النقص ظلماً . و قد بخسه حقه يبخسه بخساً إذا نقصه ظلماً و منه قوله تعالى «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» أى لا تنقصوهم ظالمين لهم و منه قوله (وَشَرُّهُ بَخْسٌ) أى ناقص عن حقه و البخس فقاً العين لأنه إدخال نقص على صاحبها و تبأخس القوم فى البيع إذا تعاتبوا و قوله : (فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا) قال مجاهد السفیه: الجاهل.

و قال السدى الصغير و أصل السفه الخفة و من ذلك قول الشاعر:

أعاليها مرّ الرياح النواسم «1»

مشين كما اهتزت رماح تسفحت

أى استخفتها الرياح و قال الشاعر:

أى تخف أحلامنا فالسفيه الجاهل، لأنه خفيف العقل بنقصه. و قوله:

«أَوْ ضَعِيفاً» قال مجاهد و الشعبي : هو الأحمق. و قال الطبرى : هو العاجز عن الاملاء بالعى أو بالخرس «أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمَلَ» قال ابن عباس: هو العى الأخرس. و قيل: المجنون. و الهاء فى قوله «وليه» عائدة إلى السفیه - فى قول

(١) اللسان (سفه).

ص: ٣٧٣

الضحاك، و ابن زيد- الذى يقوم مقامه. و قال الربيع: ترجع إلى ولى الحق.

و الاول أقوى. و إذا أشهد الولى على نفسه فلا يلزمه المال فى ذمته بل يلزم ذلك فى مال المولى عليه . و قوله: «وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ» يعنى من رجال الأحرار المسلمين دون الكفار و العبيد - فى قول مجاهد - و الحرية ليست عندنا شرطاً فى قبول الشهادة و إنما الإسلام شرط من العدالة . و به قال شريح و البتّى، و أبو ثور، و مثله قوله : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) «١» و قوله: «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ» يحتمل رفعه أربعة أوجه:

أحدها- فليكن رجل و امرأتان. الثانى - فليشهد رجل و امرأتان.

الثالث- فالشاهد رجل و امرأتان. الرابع- فرجل و امرأتان يشهدون و كل ذلك حسن . و كان يجوز أن ينصب رجلا و امرأتين بمعنى و استشهدوا رجلا و امرأتين.

و قوله: «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» يحتمل وجهين:

أحدهما- قال الربيع و السدى و الضحاك و أكثر المفسرين إنه من الذكر الذى هو ضد النسيان . و قال سفيان بن عيينة: هو من الذكر. و معناه أن تجعلها كذكر من الرجال . و معنى أن تضل لأن تضل أو من أجل أن . فان قيل لم قال «أَنْ تَضِلَّ» و إنما الاشهاد، للاذكار لا للضلال قيل عنه جوابان:

أحدهما- قال سيويه أنه لما كان الضلال سبب الاذكار قدّم لذلك و جاز لتعلق كل واحد منهما بالآخر فى حكم واحد فصار بمنزلة ما وقع الاشهاد للمرأتين من أجل الضلال، كما وقع من أجل الاذكار و كثيراً فى السبب و المسبب أن يحمل كل واحد

منهما على الآخر، و مثله أعددت الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه و إنما أعددته فى الحقيقة للدعم و لكن حمل عليه الميل لأنه سببه.

الثانى - قال الفراء إنه بمعنى الجزاء على أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت إلا أنه لما قدمت (أن) اتصلت بما قبلها من العامل فانفتحت. و مثله يعجبني أن سأل السائل فيعطى. و إنما يعجبك الإعطاء دون المسألة. و مثله قوله:

(١) سورة النور آية: ٣٢.

ص: ٣٧٤

«وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا «١» وَمَعْنَاهُ وَلَوْ لَا أَنْ يَقُولُوا أَنْ أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ، وَ إِنَّمَا قَدَّمَ وَ آخِر . قال الرماني قول سيبويه فى هذا أقوى لما فى الثانى من الدعوى لإخراج الجزاء إلى المصدر لغير فائدة.

و أنكر بعضهم قراءة حمزة «إن تضل» - بكسر الهمزة - و قال الرماني:

لا معنى لهذا الإنكار، لأن عليها إجماع الأمة و تسليم القراءة بها و لها وجه صحيح فى العربية . و قال أبو على الفارسي إن حمزة جعل إن للجزاء، و الفاء فى قوله «فتذكر» جواب الجزاء، و يكون موضع جوابه رفعاً بكون ها وصفاً للمنكرين و هما المرأتان فى الآى و قوله: (فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ) خبر ابتداء محذوف، و تقديره فمن يشهد رجل و امرأتان، و انفتحت اللام فى هذه القراءة لالتقاء الساكنين، و موضعهما الجزم و لو كسرت، لكان جائزاً و قال قوم : غلط سفيان بن عيينة فى تأويله، لأن إحداهما إذا نسبت لم تجعلها الأخرى ذكراً و هذا ليس بشىء ، لأن المعنى تذكرها تصير معها بمنزلة الذكر لأن بعدهما من النسيان إذا اجتمعا بمنزلة بعد الذكر، فان قيل: فلم قال «فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» فكرر لفظ إحداهما، و لو قال فتذكرها الأخرى لقام مقامه مع اختصاره. قيل قال الحسين بن على المغربى : إن تضل إحداهما يعنى إحدى الشهادتين أى تضيع بالنسيان فتذكر إحدى المرأتين الأخرى، لثلا يتكرر لفظ إحداهما بلا معنى و يؤيد ذلك أنه يسمى ناسى الشهادة ضالاً. و يجوز أن يقال: ضلت الشهادة إذا ضاعت كما قال تعالى : «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا» «٢» أى ضاعوا منا و يحتمل أن يكون إنما كرر لثلا يفصل بين الفعل و الفاعل بالمفعول فان ذلك مكروه غير جيد، فعلى هذا يكون إحداهما الفاعلة و الاخرى مفعولاً بها . و قوله: (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) قيل فى معنى ما دعوا إليه ثلاثة أقوال:

أحدها - لاثبات الشهادة فى الكتاب و تحملها ذهب إليه ابن عباس، و قتادة،

(١) سورة القصص آية: ٤٧.

(٢) سورة الاعراف آية: ٣٦، و سورة المؤمن آية: ٧٣.

و الربيع. الثاني - قال مجاهد، و عامر، و عطا ذلك إذا دعوا لإقامتها. الثالث - فى

رواية عن ابن عباس، و الحسن، و أبى عبد الله (ع) لإقامتها و إثباتها.

و هو أعم فائدة. و قال الطبرى: لا يجوز إلا إذا دعوا لإقامتها، لأن قبل أن يشهدوا لا يوصفون بأنهم شهداء . و هذا باطل لأنه تعالى قال: «وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ» فسماهما شاهدين قبل إقامة الشهادة.

اللغة:

و قوله: (وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ) فالسأم:

الملل، سئم يسأم سأمًا إذا مل من الشئ و ضجر منه قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة و من يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم¹

و الصغير: خلاف الكبير صغر الشئ يصغر صغراً، و صغره تصغيراً و استصغره استصغاراً و تصاغر تصاغراً. و صغر يصغر صغراً و صغاراً: إذا رضى بالضم، لأنه رضى باستصغاره . و تصاغرت إليه نفسه ذلاً و مهانة . و الاصغار حنين الناقة الحفيضة و الإكبار حنينها الكبير . و الهاء فى قوله: «أجله» يحتمل أن تكون عائدة إلى أجل الدين . و هو الأقوى . و الثانى إلى أجل الشاهد . أى الوقت الذى تجوز فيه الشهادة. و قوله: «ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ» معناه أعدل و القسط: العدل تقول: أقسط إقساطاً، فهو مقسط إذا عدل و منه قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» و القسط: الحصّة تقول أخذ فلان قسطه أى حصته . و قد تقسطوا الشئ بينهم أى اقتسموه على القسط أى على العدل . و كل مقدار قسط لأنه عدل غيره بالمساواة له . و القسوط: الجور لأنه عدول عن الحق قسط يقسط قسطاً، فهو قاسط إذا جاز عن الحق . و قوله تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا»^٢ و الرجل القسطاء: التى فى ساقها اعوجاج لعدوله عن الاستقامة.

(١) من معلقته الشهيرة: ديوانه ٩.

(٢) سورة الجن آية: ١٥.

المعنى:

و قوله: «وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ» معناه أصح لها مأخوذ من الاستقامة. و قوله:

«وَأَذْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا» أى أقرب ألا تشكوا بأن ينكر من عليه الحق. و قيل:

بالا ترتابوا بالشاهد أن يضل، و قوله: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً» فمن رفع احتمال رفعه أمرين:

أحدهما- أن تكون (كان) تامة بمعنى وقع، فيكون اسم كان، و يحتمل أن تكون ناقصة و يكون اسمها و الخبر تديرونها . و من نصب معناه أن تكون التبايع تجارة أو التجارة تجارة. و قوله: «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» قال الضحاك:

الاشهاد: فرض فى التبايع و به قال أصحاب الطاهر و اختاره الطبرى. و قال الحسن، و الشعبى ذو ندب. و هو الصحيح و به قال جميع الفقهاء. و قوله «وَلَا يُضَارُّ» أصله يضار- بكسر الراء- عند الحسن، و قتادة، و عطاء، و ابن زيد، و قيل:

المضارة و هو أن يشهد الشاهد بما لم يستشهد فيه، و يكتب الكاتب بما لم يمل عليه.

ذهب إليه الحسن، و طاوس، و هو الأقوى. بدلالة قوله «وَأِنْ تَفْعَلُوا» يعنى المضارة «فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ» أى معصية فى قول ابن عباس، و مجاهد، و الضحاك. و من دعا الشاهد و هو مشغول، فتأخر لا يكون فاسقاً بلا خلاف . و قال ابن مسعود، و مجاهد- بفتح الراء- و معناه لا يدعى الكاتب، و الشاهد، و هو مشغول على وجه الإضرار به . و معنى قوله: «صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا» معناه هو فى العادة صغير جرت العادة بكتب مثله، و لا يريد بذلك ما قدره حبة أو قيراط، لأن ذلك لم تجر العادة بكتب مثله، و الاشهاد عليه و ليس فى الآية ما يدل على أنه لا يجوز الحكم بالشاه د و اليمين، لأن الحكم بالشاهد و المرأتين أو بالشاهدين لا يمنع من قيام الدلالة على جواب الحكم بالشاهد مع اليمين . و لا يكون ذلك نسخاً لذلك، لأنه ليس بمناف للمذكور فى الآية و الحكم بالشاهد و المرأتين يختص بما يكون مالا أو المقصد به المال فأما الحدود التى هى ح ق الله و حقوق الآدميين و ما يوجب القصاص، فلا يحكم

ص: ٣٧٧

فيها بشهادة رجل و امرأتين، و كذلك عندنا فى الشاهد، و اليمين حكم الشاهد و المرأتين سواء . و قد بسطنا مسائل الشهادات، و فروعها، و ما يقبل منها و ما لا يقبل و أحكام شهادة النساء و العبيد و غير ذلك فى كتابنا التبايع، و المبسوط، فلا معنى للتطويل بذكرها هاهنا. و قوله: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ» معناه اتقوا معاصيه و عقابه.

و قوله: «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» معناه يعلمكم ما فيه صلاح دينكم و دنياكم و ما ينبغى لكم فعله، و ما يحرم عليكم . و الله عليم بذلك و بما سواه من المعلومات فلذلك، قال «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الاعراب:

و قال أبو على الفارسي «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» لا يكون متعلقاً بقوله: «وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ» «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا» ولكن يتعلق بأن يفعل مضمَر دل عليه هذا الكلام، لأن قوله: «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ» يدل على قولك و استشهدوا رجلاً و امرأتين، فتعلق (ان) إنما هو بهذا الفعل المدلول عليه . قال و يجوز أن تتعلق (ان) بأحد ثلاثة أشياء.

أحدها - المضمَر الذى دل عليه قوله : «وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ». الثانى - الفعل الذى هو فليشهد رجل و امرأتان . الثالث - الفعل الذى هو خبر المبتدأ، و تقديره فرجل و امرأتان يشهدون، فيكون يشهدون خبر المبتدأ . قال و قوله: «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ» فيه ذكر يعود إلى الموصوفين الذين هم «فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ»، و لا يجوز أن يكون فيه ذكر لشهيدين المتقدم ذكرهما لاختلاف إعراب الموصوفين ألا ترى أن شهيدتين منصوبان، و رجل و امرأتان اعرابهم الرفع، فإذا كان كذلك علمت أن الوصف الذى هو ظرف إنما هو وصف لقوله : «فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ» دون من تقدم ذكرهما من الشاهدين، و الشرط و جزاؤه وصف للمراتين، لأن الشرط، و الجزاء جملة يوصف بها كما يوصل بها فى قوله: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ...» الآية «١».

(١) سورة الحج آية ٤١.

ص: ٣٧٨

اللغة:

و أما إحدى فهو مؤنث الواحد و الواحد الذى مؤنثه إحدى إنما هو اسم و ليس . بوصف و لذلك جاء احدى على بناء لا يكون للصفات أبداً كما كان الذى هو مذكره كذلك و قال أحمد بن يحيى قالوا: هو إحدى الأحد، و واحد الأثنين و واحد الآحاد و أنشد:

حتى استثاروا بى إحدى الأحد

عدوني الثعلب فيما عدوا

ليثاً هزبراً ذا سلاح معتدى»¹

المعنى:

وقوله: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً» استثناء من جملة ما أمر الله بكتابتها والاشهاد عليه عند التبائع فاستثنى منه يداً بيد فانه لا يحتاج إلى الكتابة ولا الاشهاد عليه، والأول يحتاج إليه على خلاف، في كونه ندباً أو وجوباً كما ذكرناه.

وقيل في البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية أربعة عشر حكماً أولها قوله:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» والثاني - «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» الثالث - «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ» والرابع - «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» وهو أقداره إذا أملاه . الخامس - «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً». أى لا يخون، ولا ينقصه . السادس - «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ» أى لا يحسن «فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ» السابع - «وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ» والثامن - «فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» التاسع - «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» و العاشر - «وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ» أى لا تضجروا . والحادى عشر - «ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى إِلَّا أَنْ تَرَثُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً

(١) هكذا فى المطبوعة. ولم نجدها فى مصادرنا - وهى كما ترى.

ص: ٣٧٩

تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا أَنْ تَكْتُبُوهَا» الثانى عشر - «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» الثالث عشر - «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» الرابع عشر - «وَأِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ» وقال قوم: فيها إحدى وعشرون حكماً: «إِذَا تَدَايَنْتُمْ» حكم «فَاكْتُبُوهُ» حكم «وَلَا يَبْخَسْ» حكم «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً» حكم «أَوْ ضَعِيفاً» حكم «أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ» حكم «فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ» حكم «بالعدل» حكم «وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ» حكم «فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ» حكم «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ» حكم «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ» حكم «وَلَا تَسْمُوا» حكم «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً» حكم «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» حكم «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ» حكم «وَلَا شَهِيدٌ» حكم.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٣]

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

آية بلا خلاف.

القراءة و اللغة:

قرأ أبو عمرو وابن كثير «فرهن» على وزن فعل. الباكون «فرهان» على فعال. الرهن مصدر رھنت الشيء أرهنه رهنأ و أرھنته إرهانأ. و الأول أفصح قال الشاعر فى أرھنت:

فلما خشيت أظافيره
نجوت و أرھنته مالكا«1»

و قال الازھرى:

أرھنت فى الشيء إذا سلفت فيه .

(١) قيل ان البيت لھمام بن مرة، و فى الصحاح لعبد اللہ بن ھمام السلولى . اللسان (رهن) و روايته (اظافيرهم) بدل (أظافيره). فى المطبوعة (نحرت) بدل نجوت.

ص: ٣٨٠

قال الشاعر:

عیدیة أرھنت فیھا الدنانیر«1»

و أرھنته ارتھانأ و تراھنوا تراھنأ. و راھنه مراھنة و استرھنه استرھانأ.

و الإنسان رھین عمله. و كل شيء یحتبس غیره فهو رھینه و مرتهنة. و أصل الباب الرهن:

حبس الشيء بما علیه و واحد الرهن رھان . و هو جمع الجمع نحو ثمار و ثمر فى قول الكسائى، و الفراء . و قال أبو عبيدة : واحد رهن نحو سقف و سُقف . و قيل لا یعرف فى الأسماء فَعَلَ و فُعِلَ غیر ھذین . و زاد بعضهم قَلَبَ النخلة و قُلِبَ . فأما (رھان) فهو جمع رهن، و هو على القیاس نحو حبل و حبال، و فعل و فعال، و كبش و كباش، و إنما اختار أبو عمرو : فرهن لأنه موافق لخط المصحف، و لغلبة الاستعمال فى الرھان فى الخیل، و اختاره الزجاج أيضاً . و من اختار (رھان) فلاطراده فى

باب الجمع. و كل حسن. و ارتفع (فرهن) بأنه خبر ابتداء محذوف تقديره فالوثيقة رهن و يجوز فعلية رهن. و لو قرئ «فرهنًا» بالنصب بمعنى فارتهنوا رهنًا جاز في العربية، و لكن لم يقرأ به أحد. و شاهد الرهن قول قعنب بن أم صاحب:

بانت سعاد و أمسى دونها عدن
و غلقت عندها من قبلك الرهن «2»

المعنى:

و من شرط صحة الرهن أن يكون مقبوضاً لقوله: «فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ» فان لم يقبض لم ينعقد الرهن. و مسائل الرهن ذكرناها في النهاية و المبسوط مستوفاة فلا فائدة للتطويل بذكرها هاهنا. و يجوز أخذ الرهن في الحضر مع وجود الكاتب، لما

روى أن النبي (ص) اشترى طعاماً نساء و رهن فيه درعاً.

و

قوله (ع) لا يغلق الرهن.

معناه أن يقول الراهن إن جئت بك بفكاكه إلى شهر و إلا فهو لك بالدين.

و هذا باطل بلا خلاف.

(١) اللسان (عود) و صدره: ظلت تجوب بها البلدان ناجية.

(٢) اللسان (رهن).

ص: ٣٨١

و قوله: «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ» يعنى بعد تحملها «وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» إنما أضاف إلى القلب مجازاً، لأنه محل الكتمان، و إلا فالآثم هو الحى.

و قوله: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا» معناه ان أتمنه فلم يقبض منه رهنًا «فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ» يعنى الذى عليه الدين «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» أن يظلمه أو يخونه «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» بما تسرونه و تكتموننه.

و دل قوله: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا» على أن الاشهاد و الكتابة في المداينة ليس بواجب، وإنما هو على جهة الاحتياط . و قد روى عن ابن عباس، و مجاهد، و غيرهما «فإن لم تجدوا كتابا» يعنى ما تكتبون فيه من طرس أو غيره . و المشهور هو الاول الذى حكيناه عن قراء أهل الأمصار، و حكى عن بعضهم أنه قرأ «فانه آثم قلبه» بالنصب فان صح فهو من قولهم: سفهت نفسك و آثمت قلبك.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٤]

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ «فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» بالرفع عاصم، و ابن عامر على الاستثنا فى قول المبرد . و يجوز أن يكون محمولا على تأويل «يحاسبكم» لأنه لو دخلته الفاء كان رفعا، فيكون فيه على هذا معنى الجواب. و قرأ الباقر على الجزم: عطفاً على «يحاسبكم» و هو جواب الشرط، و كان يجوز أن يقرأ فيغفر بالنصب على مصدر الفعل الأول و تقديره إن يكن محاسبة، فيغفر لمن يشاء.

و روى ذلك عن ابن عباس.

ص: ٣٨٢

المعنى:

و اللام فى قوله: «لِلَّهِ» لام الملك و معناه ان لله تصريف السماوات و الأرض و تدبيرهما لقدرته على ذلك و ليس لأحد منعه منه و إنما ذكر قوله: «وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ» لأن المعنى فيه كتمان الشهادة . و يحتمل أن يريد جميع الأحكام التى تقدمت فى السورة . خوفهم الله من العمل بخلافها . و قال قوم هذه الآية منسوخة بقوله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» «١» و روى فى ذلك خبراً ضعيفاً، و هذا لا يجوز لأمرين:

أحدهما- أن الاخبار التى لا تتضمن معنى الأمر و النهى و الاباحة لا يجوز نسخها، و هذا خبر محض خال من ذلك.

الثانى - لا يجوز تكليف نفس ما ليس فى وسعها على وجه، فينسخ . و يجوز أن تكون الآية الثانية بينت الاولى و أزالته توهم من صرف ذلك إلى غير وجهه، فلم يضبط الرواية فيه، و ظن أن ما يخطر للنفس أو تحدث نفسه به مما لا يتعلق بتكليفه فان الله يؤاخذ به . و الأمر بخلاف ذلك، و إنما المراد بالآية ما يتناوله الأمر و النهى من الاعتقادات و الإرادات و غير ذلك مما

هو مستور عنا. فأما ما لا يدخل فى التكليف فخارج عنه لدلالة العقل . و لقوله (ع) تجوز لهذه الأمة عن نسيانها و ما حدثت به أنفسها. و قوله: (فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) معناه ممن يستحق العقاب بأنه إن شاء عاقبه، و إن شاء عفا عنه . و ذلك يقوّى جواز العفو عقلاً، و إنما يقطع على عقاب بعض العصاة لدليل، و هم الكفار - عندنا - فأما من عداهم فلا دليل يقطع به على أنهم معاقبون لا محالة. و الآيات التى يستدلون بها نبين الوجه فيها إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٥]

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

(١) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

ص: ٣٨٣

آية.

القراءة:

قرأ حمزة و الكسائى و خلف «و كتابه»: الباقون «و كتبه» على الجمع فمن وَّحَدَّ احتمل وجهين:

أحدهما- أن يكون أراد به القرآن لا غير . و الثانى - أن يكون أراد جنس الكتاب، فيوافق قراءة من قرأ على الجمع فى المعنى . و قرأ يعقوب «لا يفرق» بالياء رداً على الرسول حسب. الباقون بالتون رداً على الرسول و المؤمنين و هذا أليق بسياق الآية.

المعنى و الاعراب:

و قوله: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» معناه يقولون ذلك على الحكاية كما قال «و الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا» «١» أى يقولون اخرجوا. و المعنى إنا لا نؤمن ببعضهم و نكفر ببعض، كما فعل اليهود، و النصارى . و قوله: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» تقديره سمعنا قوله و أطعنا أمره و قبلنا ما سمعنا، لأن من لا يقبل ما يسمع يقال له أصم كما قال تعالى «صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» «٢» و إنما حذف لدلالة الكلام عليه لأنهم مدحوا به، و كان اعترافاً منهم بما يلزمهم مثل ما قبله. و قوله:

«غفرانك» نصب على أنه نزل من الفعل المأخوذ منه كأنه قيل : اللهم اغفر لنا غفرانك فاستغنى بالمصدر عن الفعل فى الدعاء فصار بدلا منه معاقباً له. و قال بعضهم معناه نسألك غفرانك و الاول أقوى، لأنه على الفعل الذى أخذ منه أولى من حيث كان يدل عليه بالتضمين نحو (حمداً و شكراً) أى أحمد حمداً، و أشكر شكراً.

(١) سورة الانعام آية: ٩٣.

(٢) سورة البقرة آية: - ١٧١.

ص: ٣٨٤

و أجاز الزجاج و الفراء غفرانك بالرفع بمعنى غفرانك بغيتنا و أنشد الزجاج:

و من يغترب عن قومه لا يزل يرى
مصارع مظلوم مجراً و مسحبا

و تدفن منه الصالحات و إن يسيء
يكن ما أساء النار في رأس كبكبا¹»

و قوله: «وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» معناه و إلى جزائك المصير فجعل مصيرهم إلى جزائه مصيراً إليه كقول ابراهيم: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ»^٢ و معناه إلى ثواب ربي أو إلى ما أمرني به ربي.

قوله تعالى: [سورة البقرة (٢): آية ٢٨٦]

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

آية.

المعنى:

في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة في تجويزهم تكليف الله العبد ما لا يطيقه لأنه صريح بأنه لا يكلفهم إلا ما يطيقونه لأن الوسع هو ما يتسع به قدرة الإنسان و هو فوق المجهود و استفراغ القدرة. يقول القائل: ليس هذا

(١) البيتين للأعشى ديوانه ١١٣ رقم القصيدة ١٤. و اللسان (كب) و في الديوان هكذا:

متى يغترب عن قومه لا يجد له

على من له رهط حواليه مغضبا

و يحطم بظلم لا يزال يرى له

مصارع مظلوم مجراً و مسحبا

و تدفن منه.....

مجر و مسحب مصدر ميمي من جر و سحب. كيكب: جبل.

(٢) سورة الصافات آية: ٩٩.

ص: ٣٨٥

فى وسعى. أى لا أقدر عليه و إن قدرتى لا تتسع لذلك . و من قال: معناه لا يكلف الله نفساً إلا ما يحل لها من قولهم لا يسعك هذا أى لا يحل لك أن تفعله كان ذلك خطأ، لأن رجلاً لو قال لعبده : أنا لا آمرك إلا بما أطلقت لك أن تفعله كان ذلك خطأ وعبثاً، لأن نفس أمره اطلاق. و كأنه قال: أنا لا أطلق لك إلا ما أطلق.

و لا آمرك إلا بما آمرك. و قوله: «لَهَا مَا كَسَبَتْ» معناه لها ثواب ما كسبت من الطاعات و عليها جزاء ما كسبت من المعاصى و القبائح. و يجوز أيضاً أن يسمى الثواب و العقاب كسباً من حيث حصل بكسبه . و قوله: «لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» إنما جاز الرغبة إليه تعالى فى ذلك و إن علمنا أنه لا يؤاخذ بذلك، و لم يجز أن يقول:

لا تجر علينا لأمرين أحدهما - أن قوله: لا تجر علينا يدل على تسخط الداعى، و ليس كذلك «لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا» لأن الإنسان قد يتعرض للنسيان، فيقع منه الفعل الذى فيه جناية على النفس، و يحسن الاعتذار بالنسيان، فيجرى الدعاء مجرى الاعتذار إذا قال العبد لسيده لا تؤاخذنى بكذا فانى نسيت، فلحسن الاعتذار حسن الدعاء به . و الثانى - «إِنْ نَسِينَا». بمعنى تركنا لشبهة دخلت علينا.

و النسيان بمعنى الترك معروف . نحو قوله: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» «١» أى تركوا عبادته، فترك ثوابهم . و قال الجبائي معناه ما تركناه لخطأ فى التأويل و اعتقدنا صحته لشبهه و هو فاسد . فأما لا تجر علينا، فلا يقال إلا لمن اعتيد منه الجور، و لا يجوز أن يؤاخذ أحد أحداً بما نسيه عند أكثر أهل العدل إلا ما يحكى عن جعفر بن ميسر من أن الله تعالى يؤاخذ الأنبياء بما يفعلونه من الصغائر على وجه السهو و النسيان لعظم أقدارهم . و قال كان يجوز أن يؤاخذ الله العبد بما يفعله ناسياً أو ساهياً، و لكن تفضل بالعمو فى قوله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا» ذكر ذلك البلخى، و هذا غلط، لأنه كما لم يجز تكليف فعله و لا تركه لم

(١) سورة التوبة آية: ٦٨.

ص: ٣٨٦

يجز أن يؤاخذ به، و لا يشبه ذلك المتولد الذى لا يصح تكليفه بعد وجود سببه، لأنه يجوز أن يتعمده بأن يتعمد سببه، و ليس كذلك ما يفعله على جهة السهو و النسيان.

اللغة، و المعنى:

و قوله: «وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً» قيل فى معنى الإصر قولان:

أحدهما - لا تحمل علينا عهداً فنعجز عن القيام به. ذهب إليه ابن عباس، و قتادة، و مجاهد.

الثانى - قال الربيع، و مالك: معناه لا تحمل علينا ثقلاً و الإصر فى اللغة الثقل قال النابغة:

يا مانع الضيم إن يغشى سراتهم
و الحامل الإصر منهم بعد ما غرقوا¹

و كلما عطفك على شىء، فهو إصر من عهد أو رحم، و جمعه إصار. تقول أصره يصره إصرأً. و الاسم الإصر قال الحطيئة:

عطفوا علىّ بغير آ
صرة فقد عظم الأواصر²

و قال النابغة:

يا بن الحواضن و الحاضنات أ ينقض أصرک حالا فحالا «٣» أى عهدک. و الايصر: حبيل قصير يشد به أسفل الخباء إلى وتد لأنه يعطف به. و الاصره: صلة الرحم للعطف بها و الماصر حبل على طريق أو نهر تحبس به السفن أو السابله لتؤخذ منهم العشور و كلاً آصر أى يحبس من ينتهى إليه لكثرتة. و الاصار: كساء يح تش فيه الحشيش. و أصل الباب العطف، فالاصر:

النقل لأنه يعطف حامله بنقله عليه. و قوله: «لَا تُحْمَلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قيل

(١) فى المطبوعة (فيا مانع) بدل (يا مانع) و (و الخامل) بدل (و الحامل).

(٢) اللسان (أصر).

(٣) فى المطبوعة (ا تنقض) بدل (ا ينقض).

ص: ٣٨٧

فيه قولان:

أحدهما- ما يتقل علينا من نحو ما كلف بنى إسرائيل من قتل أنفسهم و بتيه أربعين سنة و غير ذلك كما يقول القائل لا أطبق أنظر إلى فلان و لا أسمع كلامه.

الثانى - ما لا طاقة لنا به من العذاب فى دار الدنيا. و قوله. «أَنْتَ مَوْلَانَا» معناه أنت ولينا أى أولى بالتصرف فينا، و قال الحسن هذا على وجه التعليم للدعاء، و معناه قولوا ربنا لا تؤاخذنا. و الثانى - أنه على وجه الحكاية أى يقولون ربنا.

و الفرق بين أخطأ و خطئ أن أخطأ قد يكون على وجه الإثم، و غير الإثم فأما خطئ فائم لا غي قال الشاعر:

و الناس يلحون الأمير إذا هم خطئوا الصواب و لا يلام المرشد¹

(١) قائله عبيدة بن الأبرص الاسدى. ديوانه: ٥٤، و حماسة البحترى: ٢٣٦، و اللسان (أمر) و رواية الديوان:

و الناس يلحون الأمير إذا غوى خطب الصواب و لا يلام المرشد

ص: ٣٨٨

٣- سورة آل عمران

مأثنا آية في الكوفي روى عن ابن عباس و قتادة و مجاهد و جميع المفسرين أن هذه السورة مدنية و قيل ان من أولها إلى راس نيف و ستين آية نزلت في قصة وفد نجران لما جاءوا يحاجون النبي (ص) في قول ابن اسحق و الربيع.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)

آيتان في الكوفي و آية واحدة في ما عداه.

الفراء و اللغة:

و قرأ أبو جعفر و الأعشى و البرجمي (ألم) بسكون الميم (الله) بقطع الهمزة و قرأ عمر بن الخطاب (الحى القيام) و هى لغة أهل الحجاز. و يقولون فى الصَّوَاغِ صَيَاغ. الباكون (قيوم) و إنما فتحت الميم من (ألم الله) لأحد أمرين:

أحدهما- استثقلاً للكسر بعد الياء الساكنة، فصرف إلى الفتح، لأنه أخف كما فعلوا فى (كيف) (و أين). و قال الزجاج، و الفراء: ألقي عليها حركة الهمزة و هى الفتحة من قولك : الله. و قال المبرد: هذا لا يجوز لأنها ألف وصل تسقط فى الدرج، فلا يجوز ذلك كما لا يجوز فى (إن الكافرون) الفتح على الفاء

ص: ٣٨٩

حركة الهمزة. قال الفراء: و الفرق بين ذلك و بين الهجاء أنه لما كان ينوى به الوقف قوى بما بعده الاستيناف، فكانت الهمزة فى حكم الثبات كما كانت فى انصاف البيوت. نحو قول الشاعر:

و لا يبادر فى الشتاء وليدتى القدر تنزلها بغير جعال¹

و أجاز الأخفش الكسر، و خالفه الزجاج، و قال : لا يجوز لأن قبل الهمزة ياء ساكنة قبلها كسرة، فلم يجز غير الفتح، كما لا يجوز في كيف. و يمكن الفرق بينهما بأن كيف موصولة و هذا مفصول جاز أن ينوى به الوقف . و قد بينا معنى (اللّه) و هو أنه الذي تحقق له العبادة.

اللغة و المعنى:

و قوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) معناه لا تحقق العبادة لسواه، و إنما كان كذلك لأنه الذي يقدر على أصول النعم التي يستحق بها العبادة، و لأن نعمة كل منعم فرع على نعمه، فصار لا تحقق العبادة لسواه. و (الحى): هو الذي لا يستحيل لما هو عليه من الصفة كونه عالمًا قادرًا. قال الرماني: و العالم: مدرك لمعلومه و المدرك:

هو المتبين للشيء على ما هو به من أى وجه صح تبيينه، فالرأى مدرك و كذلك العالم إلا أنه قد كثرت صفة الإدراك على ما طريقه الاحساس من العباد، و هذا القول منه يدل على أنه كان يذهب مذهب البغداديين : فى أن وصف القديم بأنه مدرك يرجع إلى كونه عالمًا من أن يكون له صفة زائدة. و هذا بخلاف مذهب شيخه أبى على، و البصريين. «و القيوم» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- القائم بتدبير عباده فى ما يضرهم و ينفعهم، و هو قول مجاهد، و الربيع، و الزجاج، بدلالة قوله : «قَائِمًا بِالْقِسْطِ» «٢» و «قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» «٣».

(١) اللسان (جعل) فى المطبوعة (وليدنا) بدل (وليدتى) الجعال، و الجعالة- بضم الجيم و كسره- ما تنزل به القدر من خرقه و غيرها، و الجمع جعل مثل كتاب و كتب.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٨.

(٣) سورة الرعد آية: ٣٥.

ص: ٣٩٠

الثانى - حكى عن محمد بن جعفر بن الزبير، و اختاره الجبائى أنه الدائم.

و أصل الوصف بقيوم الاستقامة . فعلى قول مجاهد يكون لاستقامة التدبير، و على القول الآخر لاستقامة الصفة بالوجود من حيث لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه كما يجوز على ما يحول و يتبدل . و تقول هذا معنى قائم فى النفس أى موجود على الاستقامة دون الاضطراب . و أصل «قيوم» قيوم على وزن فيعمل فقلبت الواو الأولى ياءً، لأن ما قبلها ياء ساكنة، و أدغمت نحو سيد و ميت.

و لا يجوز أن يكون وزنه فعولاً لأنه لو كان كذلك لكان قووماً، فوصف الله تعالى بالحي القيوم يتضمن أنه يستحق العبادۃ من حيث أن هذه الصفة دلت على أنه القادر على ما يستحق به العبادۃ دون غيره، لأن صفة قيوم صفة مبالغۃ لا تجوز إلا لله على المعنيين معاً من معنى الموجود أو [القائم على] عموم الخلق بالتدبير.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣]

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)

آية.

قيل في معنى قوله: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» وجهان:

أحدهما - بالصدق في أخباره و جميع دلالاته التي تقوم مقام الخبر في تعلقها بمدلولها على ما هو به، ف في جميع ذلك معنى التصديق.

و الثاني - بالحق أى بما توجه الحكمة من الانزال كما أتى بما يوجه الحكم من الإرسال و هو حق من الوجهين . و قوله: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) نصب على الحال و معناه لما قبله من كتاب أو رسول في قول مجاهد و قتادة و الربيع و جميع المفسرين. و إنما قيل لما قبله لما بين يديه، لأنه ظاهر له كظهوره لما بين يديه.

و قيل في معنى «مصدقاً» هاهنا قولان:

أحدهما - «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» و ذلك لموافقته ما تقدم الخبر به و فيه آية تدل على صحة نبوءة النبي (ص) من حيث لا يكون ذلك إلا من عند علام الغيوب.

ص: ٣٩١

الثاني - مصدقاً أنه يخبر بصدق الأنبياء في ما أتوا به خلاف من يؤمن ببعض، و يكفر ببعض . و التوراة مأخوذة من وريت بك زنادى إذا ظهر به الخبر كما يتقدح بالنزاد النار فالأصل الظهور، فهي تورية لظهور الحق. و قيل في وريها أقوال:

أحدها - قال البصريون تورية فوعلة فقلبت (الواو) الأولى (تاءً) لئلا يجتمع واوان في أول الكلمة نحو حوقلة و دوحلة . و الثاني - قال الكوفيون: تفعلة على وزن تنقله و تنقله، و هو قليل جداً لا يكاد يعرف تفعلة في الكلام . الثالث - قال بعضهم هو تفعلة إلا أنه صرف إلى الفتح استتقلاً للكسر في ا لمعتل و هو بناء يكثر نحو توفية و توعية و توصية، و ما أشبه ذلك . قال الزجاج: و هذا ردىء لأنه يجيء منه في توفية توفاء و هذا لا يجوز . و الإنجيل مأخوذ من النجل، و هو الأصل و قال الزجاج وزنه أفعل من النجل بإجماع أهل اللغة فسمى انجيلاً لأنه أصل من أصول العلم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤]

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَآتَزَلَ الْفُرْقَانُ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)

المعنى:

قوله: «من قبل» أى من قبل إنزال الكتاب فلما قطعه عن الاضافة نبأه على الضم. وقوله: «هُدًى لِّلنَّاسِ» أى بياناً و دلالة لهم، وفى ذلك دلالة على أن الله تعالى هدى الكافر إلى الايمان، كما هدى المؤمن بقوله «لِلنَّاسِ»، بخلاف ما تقوله المجبرة: إن الله ما هدى الكافر. و موضع (هدى) نصب على الحال من الكتاب و قوله: (وَآتَزَلَ الْفُرْقَانُ) يعنى به القرآن و إنما كرر ذلك لما اختلفت دلالات صفاته و إن كانت لموصوف واحد لأن لكل صفة منها فائدة غير الأخرى لأن الفرقان هو الذى يفرق به بين الحق و الباطل فيما يحتاج إليه من أمور الدين فى الحجج،

ص: ٣٩٢

و الأحكام، و ذلك كله فى القرآن و قيل أراد بالفرقان النصر و وصفه بالكتاب يفيد ان من شأنه أن يكتب. و قد بينا لذلك نظائر فى الشعر و غيره فى ما تقدم. و قوله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) قرن بالوعيد لما بين الله الحجج الدالة على توحيده، و صفاته : أعقب ذلك بوعيد من يخالف فى ذلك و يجحده ليتكامل به التكليف . و قوله: (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) معناه أنه قادر لا يتمكن أحد من منعه من عذاب من يريد عذابه لأنه «عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ» و إنما كان متيعاً لأنه قادر لنفسه لا يعجزه شىء.

اللغة:

و أصل الاعزاز الامتناع، و منه أرض عزاز ممتنعة السكون لصعوبتها، و منه قولهم من عز، بز : أى من غلب سلب لأن الغالب يمتنع من الضيم، و النعمة، العقوبة : تقم ينقم نقماً و نعمة و يقال نقت، و نقت عليه أى أردت له عقوبة، و انتقم منه انتقاماً أى عاقبه عقاباً و أصل الباب: العقوبة. و منه النعمة خلاف النعمة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)

آية.

المعنى:

لما ذكر الله تعالى الوعيد على الإخلال بمعرفته مع نصب الأدلة على توحيده و صفاته اقتضى أن يذكر أنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض، و لا فى السماء، فيكون فى ذلك تحذير من الاغترار بالاستسرار بمعصيته، لأن المجازى لا تخفى عليه خافية، فجرى ذلك موصولا بذكر التوحيد فى أول السورة، لأنه من الصفات الدالة على

ما لا تحقق إلا له . فان قيل لم قال : (لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) ولم يقل لا يخفى عليه شيء على وجه من الوجوه إذ كان أشد مبالغة؟ قيل : ليعلمنا أن الغرض علم ما يستسر به في الأرض أو في السماء . ولأن الإفصاح بذكر ذلك أعظم في النفس وأهول في الصدر مع الدلالة على أنه عالم بكل شيء إلا أنه على وجه التصرف في العبارة عن وجوه الدلالة . فان قيل: لم قال « لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ » ولم يقل عالم بكل شيء في الأرض و السماء؟ قيل لأن الوصف بأنه « لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ » يدل على أنه يعلمه من كل وجه يصح أن يعلم منه مع ما فيه من التصرف في العبارة، وإنما قلنا: لا يخفى عليه شيء من حيث كان عالماً لنفسه . و العالم للنفس يجب أن يعلم كل ما يصح أن يكون معلوماً . و ما يصح أن يكون معلوماً لا نهاية له، فوجب أن يكون عالماً به و إنما يجوز أن يعلم الشيء من وجه دون وجه، و يخفى عليه شيء من وجه دون وجه من كان عالماً بعلم يستفيده:- العلم حالا بعد حال- . فأما من كان عالماً لنفسه، فلا يجوز أن يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦]

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

آية واحدة.

اللغة:

التصوير: جعل الشيء على صورة لم يكن عليها . و الصورة: هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف . و الفرق بين الصورة و الصيغة أن الصيغة: عبارة عما وضع في اللغة لتدل على أمر من الأمور، و ليس كذلك الصورة، لأن دلالتها على جعل جاعل قياسية . و الأرحام: جمع رحم و أصله : الرحمة، و ذلك لأنها مما يتراحم به و يتعاطف يقولون : وصلتكم رحم . و أصل الصورة: الميل يقولون صار يصوره: إذا أماله، فهي صورة لأنها مائلة إلى بنية بالشبه لها.

المعنى:

و قوله: (كيف يشاء) معناه كيف يريد و المشيئة هي الارادة و معنى «يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» من ذكر أو أنثى أو أبيض أو أسود أو تام أو ناقص إلى غير ذلك ما تختلف به الصور، و فيه حجة على النصارى في ادعائهم إلهية المسيح و ذلك أن الله تعالى صورهم في الرحم كما شاء، فهو لذلك عبد مربوط و قوله : (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) معناه أنه تعالى لما ذكر ما يدل عليه من قوله: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) ذكر الدليل و المدلول عليه و إنما ذكر «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» تحذيراً بعد ذكر الدليل ليعلم أنه عزيز لا يتهى لأحد منعه من عقوبة من يريد عقابه حكيم في فعل العقاب و في جميع أفعاله .

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٧)

المعنى:

قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) يعنى القرآن (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) فالمحكم هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولا دلالة تدل على المراد به لوضوحه، نحو قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

ص: ٣٩٥

النَّاسَ شَيْئاً» (١) وقوله: «لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» (٢) لأنه لا يحتاج في معرفة المراد به إلى دليل. والمتشابه: ما لا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه. نحو قوله: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ» (٣) فانه يفارق قوله: «وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (٤) لأن إضلال السامري قبيح وإضلال الله بمعنى حكمه بأن العبد ضال ليس قبيح بل هو حسن. واختلف أهل التأويل في المحكم، والمتشابه على خمسة أقوال:

فقال ابن عباس: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.

الثانى - قال مجاهد: المحكم ما لا يشتبه معناه، والمتشابه ما اشتبهت معانيه.

نحو قوله: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (٥) ونحو قوله: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى» (٦).

الثالث - قال محمد بن جعفر بن الزبير، والجبائى : إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجهين فصاعداً.

الرابع - قال ابن زيد: إن المحكم: هو الذى لم تتكرر ألفاظه. والمتشابه هو المتكرر الألفاظ.

الخامس - ما روى عن جابر أن المحكم: ما يعلم تعيين تأويله، والمتشابه ما لا يعلم تعيين تأويله. نحو قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّلَاحِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا» (٧).

وقوله: (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) معناه أصل الكتاب الذى يستدل به على المتشابه، وغيره من أمور الدين. وقيل فى توحيد أم الكتاب قولان: أحدهما - أنه قدر تقدير الجواب على وجه الحكاية كأنه قيل : ما أم الكتاب؟ فقيل هن أم الكتاب كما يقال : من نظير زيد؟ فيقال: نحن نظيره. الثانى - أن يكون ذلك

(٢) سورة النساء آية: ٣٩.

(٣) سورة الجاثية آية: ٢٢.

(٤) سورة طه آية: ٨٥.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٦.

(٦) سورة محمد آية: ١٧.

(٧) سورة الاعراف آية: ١٨٦، و سورة النازعات آية: ٤٢.

ص: ٣٩٦

مثل قوله: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «١» بمعنى الجميع آية و لو أريد أن كل واحد منهما آية على التفصيل، لقيل آيتين . فان قيل: لم أنزل في القرآن المتشابه؟ و هلا أنزله كله محكما: قيل للحث على النظر الذى يوجب العلم دون الاتكال على الخبر من غير نظر، و ذلك أنه لو لم يعلم بالنظر أن جميع ما يأتى به الرسول حق يجوز أن يكون الخبر كذباً، و بطلت دلالة السمع، و فائدته، فلحاجة العباد إلى ذلك من الوجه الذى بيناه، أنزل الله متشابهاً، و لو لا ذلك لما بان منزلة العلماء، و فضلهم على غيرهم، لأنه لو كان كله محكما لكان من يتكلم باللغة العربية عالماً به، و لا كان يشتبه على أحد المراد به فيتساوى الناس فى علم ذلك، على أن المصلحة معتبرة فى انزال القرآن، فما أنزله متشابهاً لأن المصلحة اقتضت ذلك، و ما أنزله محكما فلمثل ذلك. و المتشابه فى القرآن يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين : من ذلك قوله تعالى «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» «٢» فاحتمل فى اللغة أن يكون كاستواء الجالس على السرير و احتمال أن يكون بمعنى الاستيلاء نحو قول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مہراق «3»

و أحد الوجهين لا يجوز عليه تعالى لقوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» «٤» و قوله «لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

و الآخر يجوز عليه، فهذا من المحكم الذى يرد إليه المتشابه. و من ذلك قوله:

«رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» «٥» فاحتمل ظاهره تكليف المشاق، و احتمال تكليف ما لا يطاق و أحدهما لا يجوز عليه تعالى «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» «٦»

(١) سورة المؤمنون آية: ٥١.

(٢) سورة الاعراف آية: ٥٣، و سورة يونس آية: ٣، و سورة الفرقان آية ٥٩، و سورة ألم السجدة آية: ٤، و سورة الحديد آية: ٤.

(٣) مر تخريجه في ١: ١٢٥.

(٤) سورة الشورى آية: ١١.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٨٦، و سورة الطلاق آية: ٧.

ص: ٣٩٧

فرددنا إليه المتشابه و من ذلك قوله : «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» «١» فرددناه إلى المحكم الذى هو قوله : «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» «٢» و من ذلك قوله: «وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» «٣» متشابه، و بين المراد بالمحكم الذى هو قوله: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» «٤» و من ذلك اعتراض الملحدين فى باب النبوة بما يوهم المناقضة كقوله : «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثَمَانِيَةٌ أَوْ كَرَهَا قَالَتْ أَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» «٥» فقال اليومان و الاربعة و اليومان ثمانية ثم قال «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» فأوهموا أن ذلك مناقضة و ليس الأمر على ما ظنوه لأن ذلك يجرى مجرى قول القائل: سرنا من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام و سرنا إلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً فالعشرة داخله فى الخمسة عشر و لا يضاف فيقال : عشرة، و خمسة عشر خمسة و عشرون يوماً كان فيها السير، فكذلك خلق الله الأرض فى يومين و قضاهن سبع سماوات فى يومين و تتم خلقهن فى ستة أيام . و تقديره خلق الأرض فى يومين من غير تنميم و جعل فيها رواسى و ما تم به خلقها فى أربعة أيام فيها اليومان الأولان كما يقال : جعل الدور فى شهرين و فرغ منهن فى أربعة أشهر . فيكون المحكم قد أبان عن معناه أنه على جهة خلق الأرض فى يومين من غير تنميم، و ليس على وجه التضاد على ما ظنوه.

فان قيل : كيف يكون المحكم حجة مع جواز تقييده بما فى العقل؟ و فى ذلك إمكان كل مبطل أن يدعيه فتذهب فائدة الاحتجاج بالمحكم؟ قلنا: لا يجب ذلك من قبل أن التقييد بما فى العقل إنما يجوز فيما كان رداً إلى تعارف من جهة

(١) سورة النساء آية: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران آية: ٧٨.

(٣) سورة التكويد آية: ٢٩، و سورة الدهر آية: ٣٠.

(٤) سورة آل عمران آية: ١٠٨.

(٥) سورة حم السجدة آية: ٩ - ١٢.

ص: ٣٩٨

العقول دون ما لا يتعارف فى العقول بل يحتاج إلى مقدمات لا يتعارفها العقلاء من أهل اللغة، و المراعى فى ذلك أن يكون هناك تعارف من جهة العقل تقتضيه الحكمة دون عادة أو تعارف شىء لأن الحجة فى الأول دون الثانى، و من جهة التباس ذلك دخل الغلط على كثير من الناس.

فان قيل: كيف عددت من جملة المحكم قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» مع الاشتباه فيه بدخول الكاف؟ قلنا إنما قلنا انه محكم لأن مفهومه ليس مثله شىء على وجه من الوجوه دون أن يكون عند أحد من أهل التأويل ليس مثل مثله شىء فدخل الكاف و إن اشتبه على بعض الناس لم دخلت فلم يشتبه عليه المعنى الأول الذى من أجله كان محكماً . و قد حكينا فيما مضى عن المرتضى (ره) على بن الحسين الموسوى أنه قال: الكاف ليست زائدة و إنما نفى أن يكون لمثله مثل فإذا ثبت ذلك علم أنه لا مثل له، لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال، فكان يكون لمثله مثل، فإذا لم يكن له مثل مثل دل على أنه لا مثل له غير أن هذا تدقيق فى المعنى، فتصير الآية على هذا متشابهة، لأن ذلك معلوم بالادلة . و قد يكون الشىء محكماً من وجه و متشابهاً من وجه كما يكون معلوماً من وجه، و مجهولاً من وجه، فتصح الحجة به من وجه المعلوم دون المجهول.

الاعراب:

و (آخر) لا ينصرف لأنه معدول عن الالف و اللام و هو صفة. و قال الكسائى:

لأنه صفة. قال المبرد: هذا غلط، و قال (لُبد) صفة و كذلك (حُطم) و هما منصرفان قال الله تعالى «أَهْلَكْتُ مَالًا لُبْدًا» «١» و حكى عن أبى عبيدة أنه قال:

لم يصرفوا (آخر) لأن واحده لا ينصرف فى معرفة و لا نكرة . قال المبرد: و هذا غلط، لأنه يلزم أن لا يصرف غضاباً و عطاشاً، لأن واحده غضبان و عطشان و هو لا ينصرف.

(١) سورة البلد آية: ٦.

ص: ٣٩٩

اللغة و المعنى:

و قوله: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) يعنى ميل يقال: أزاغه الله إزاغة أى أماله إماله قال تعالى «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»
«١» و منه قوله: «لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» «٢» و التزايغ التمايل فى الأسنان. و المعنى إن الذين فى قلوبهم ميل عن الحق اما بشك أو
جهل فان كليهما زيغ «فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ» و معناه يحتجون به فى باطلهم «ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» و معناه طلباً للفتنة «وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ» و التأويل:

التفسير و أصله المرجع، و المصير من قولهم: آل أمره إلى كذا يؤول أولاً: إذا صار إليه. و أولته تأويلاً إذا صيرته إليه. و قوله:
«وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» «٣» قيل معناه أحسن جزاء، لأن أمر العباد يؤول إلى الجزاء. و أصل الباب: المصير «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»
يعنى تفسيره «إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» يعنى الثابتون فيه تقول: رسخ الشئ رسوخاً إذا ثبت فى موضعه. و أرسخته
إرساخاً، كما أن الخبر يرسخ فى الصحيفة، و رسخ الغدير إذا ذهب ماؤه، فنضب، لأنه ثبت وحده من غير ماء، و أصل الباب
الثبوت.

النزول:

و قال الربيع: نزلت هذه الآية فى وفد نجران، لما حاجوا النبى (ص) فى المسيح، فقالوا: أليس هو كلمة الله و روح منه؟ فقال
بلى، فقالوا: حسبنا، فأنزل الله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) ثم أنزل (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) «٤»

و قال قتادة: بل كل من احتج بالمتشابه لباطله، داخل فيه، فمنهم الحرورية و السبائية، و غيرهم.

(١) سورة الصف آئ: ٥.

(٢) سورة آل عمران آية: ٨.

(٣) سورة النساء آية: ٥٨، و سورة الإسراء آية: ٣٥.

(٤) سورة آل عمران آية: ٥٩.

ص: ٤٠٠

المعنى و الاعراب اللغة:

و قوله: «ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» قال السدى: الفتنة هاهنا الشرك. و قال مجاهد:

اللبس. و قيل الضلال عن الحق، و هو أعم فائدة. و أصل الفتنة: التخليص من قولهم فتنن الذهب بالنار : إذا أخلصته، فالذى يبتغى الفتنة، يبتغى التخليص إلى الضلال بما يورده من الأشياء . و قوله: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) قيل فى معناه قولان : أحدهما- ما يعلم تأويل جميع المتشابه «إلا الله»، لأن فيه ما يعلم الناس، و فيه ما لا يعلمه الناس من نحو تعيين الصغيرة عند من قال بها، و وقت الساعة، و ما بيننا و بينها من المدة . هذا قول عائشة، و الحسن، و مالك، و اختاره الجبائى، و أكثر المتأولين. و عندهم أن الوقف على قوله «إلا الله» و يكون قوله:

«وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» مستأنفاً و التأويل على قولهم: معناه المتأول، كما قال تعالى «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ» يعنى الموعود به. و الوجه الثانى - ما قاله ابن عباس، و مجاهد، و الربيع «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» يعلمونه قائلين آمنا كما قال الشاعر:

و الريح تبكى شجوة
و البرق يلعب فى الغمامة

يعنى و البرق أيضاً يبكيه لامعاً فى غمامة . و قوله: «كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا» حذف المضاف من «كل» عند البصريين، لأنه اسم دال على المضاف كثير فى الكلام فلا يجيزون «إِنَّا كُلُّ فِيهَا» على الصفة و يجيزه الكوفيون، لأنه إنما حذف عندهم لدلالته على المضاف فقط اسماً كان أو صفة . و إنما بنى قبل على الغاية، و لم يبين كل، و إن حذف من كل واحد م نهما المضاف، لأن قبل ظرف يعرف، و ينكر، ففرق بين ذلك بالبناء الذى يدل على تعريفه بالمضاف، و الاعراب الذى يدل على تنكيه بالانفصال، و ليس كذلك كل لأنه معرفة فى الافراد دون نكرة فأما (ليس غير) فمشبه بحسب لما فيه من معنى الأمر.

ص: ٤٠١

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨]

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

آية.

المعنى:

هذه حكاية عن الراسخين فى العلم الذين ذكرهم فى الآية الاولى، القائلين «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» القائلين «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» و قيل فى معنى لا تزغ قلوبنا قولان:

أحدهما- «لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» عن الحق بمنع اللطف الذى يستحق معه أن تنسب قلوبنا إلى الزيف . و الثانى - قال أبو على معناه لا تزغ قلوبنا عن الثواب بعد أن دعوتنا إليه و دللتنا عليه ، و لا يجوز أن يكون المراد لا تزغ قلوبنا عن الايمان، لأنه تعالى كما لا

يأمر بالكفر كذلك لا يزيغ عن الايمان. فان قيل: هلا جاز على هذا أن يقولوا: ربنا لا تظلمنا، و لا تجر علينا؟ قلنا لأن في تجر علينا تسخط السائل لاستعماله ممن جرت عادته بالجور، وليس كذلك «لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» على معنى سؤال اللطف، وان كان لا يجوز في حكمته تعالى منع اللطف. كما لا يجوز فعل الجور و ذلك بمنزلة سؤال الملائكة في قولهم «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ» «١» و الله لا يجوز عليه خلف الوعد، كما لا يجوز عليه فعل الجور يبين ذلك قوله: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» «٢» و معناه فلما مالوا عن الحق نسب الله قلوبهم إلى الزيغ، لما كانت عليه. و إنما أضاف الزيغ إلى القلب، و إن كان المراد به الجملة لأن القلب أشرف الأعضاء، و هو محل السرور، و الغم فلذلك خص بالذكر.

(١) سورة مؤمن آية: ٧- ٨.

(٢) سورة الصف آية: ٥.

ص: ٤٠٢

اللغة:

و قوله: «وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» فالهبة مصدر وهبه يهبه هبةً، فهو واهب . و الشيء موهوب و تواهب الناس بينهم تواهباً و استوهبه استيهاباً. و أصل الباب الهبة، و هى تمليك الشيء من غير مثامنة. و الهبة و النحلة و الصلة نظائر.

و معنى من لذنك من عندك و فى لدن خمس لغات : لدن، و لدن - بضم اللام و الدال - و لدن - بفتح اللام و تسكين الدال، و كسر النون - ولد - بحذف النون -.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩]

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

آية بلا خلاف.

معنى الآية «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ» للجزاء «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» فى وعد و لا وعيد «فَاغْفِرْ لَنَا» فان قيل هل فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» متصل بالدعاء على جهة الحكاية أو استئناف. قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه متصل بالدعاء، لأن حمل الكلام على الاتصال إذا صح المعنى أولى من حمله على الانفصال، لأن الاتصال أقرب إلى التشاكل، و أبعد من التنافر.

الثاني - أنه على الاستئناف لأنه لو كان على الاتصال لقال انك لا تخلف الميعاد، فاختار أبو على الجبائي هذا الوجه، و أجاز الزجاج الأمرين. و قد يجوز حمل الكلام تارة على المخاطبة و تارة على الغيبة تصرفاً في الكلام، كما قال : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» (١) و الآية دالة على أنه لا يخلف وعده، و لا وعيده، و لا ينافي ذلك ما يجوز من العفو عن فساق أهل الملّة، لأن ما يجوز العفو عنه إذا عفا كشف ذلك عندنا أنه ما عناه بالخطاب، و إنما الممنوع منه أن يعينه بالخطاب و بأنه لا يعفو عنه ثم يعفو، فيكون ذلك خلفاً في الوعيد و ذلك لا يجوز عليه تعالى.

(١) سورة يونس آية: ٢٣.

ص: ٤٠٣

و الميعاد، و الوعد إذا أطلقا تناولا للخير، و الشر. يبين ذلك قوله: «و نادى أصحابُ الْجَنَّةِ أصحابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» (١) و لا يجوز أن يقال وعد بالخير فأما وعد بالشر، فيجوز. و اللام في قوله: «لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ» معناه في يوم و إنما جاز ذلك لما دخل الكلام من معنى اللام و تقديره جامع الناس للجزاء في يوم لا ريب فيه، فلما حذف لفظ الجزاء دخلت على ما يليه فأغنيت عن في لأن حر و ف الاضافة متأخية، لما يجمعها من معنى الاضافة. و قد كان يجوز فتح أن في قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ» على تقدير «جامعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ» ل «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» و لم يقرأ به.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

إن قيل كيف تتصل هذه الآية بما قبلها؟ قلنا : اتصال الوعيد بالدعاء، للإخلاص منه خوفاً من استحقاق المتوعد به، و الفرق بين «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ» و بين لن تغنيهم عن الله شيئاً. أن لن تغنيهم عن الله لا يدل على الوعيد كما يدل «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ» لأن تقديره من عذاب الله. و معنى من هاهنا يحتمل أمرين : قال أبو عبيدة معناها: عند. و قال المبرد: من هاهنا على أصلها، لا ابتداء الغاية. و تقديره «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ» غناء ابتداء الشيء الذي خلقه، و لا يكون الغناء إلا منه، فمن هذه تقع على ما هو أول الغناء و آخره و الوقود : الحطب، و الوقود اللهب. و هو إيقاد النار. و الغنى ضد الحاجة. و بمعنى «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ» أنه إن يكون شيء تبقى الحاجة إلى الله تعالى بل الحاجة باقية على كل حال.

(١) سورة الاعراف آية: ٤٣.

ص: ٤٠٤

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

آية بلا خلاف.

اللغة:

الدأب: العادة، يقال دأب يدأب دأباً و دئاباً إذا اعتاد الشيء و تمرن عليه.

قال امرؤ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها و جارتها أم الرباب بمأسل¹

أى كعادتك من أم الحويرث.

المعنى:

و معنى قوله: «كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ» كعادتهم فى التكذيب بالحق و قيل فى الكفر و قيل فى قبح الفعل و قيل فى تكذيب الرسل و كل ذلك متقارب فى المعنى . و قال قوم: معناه كدأب آل فرعون فى عقاب الله إياهم على ما سلف من ذنوبهم، و معاصيهم، و الكاف فى قوله: «كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ» متصله بمحذوف.

و تقدىه عادتهم كدأب آل فرعون . و موضع الكاف رفع لأنها فى موضع خبر الابتداء، و لا يجوز أن يعمل فيها كفروا، لأن صلة الذى قد انقطعت بالخبر، و هو «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ» و لا أولادهم و لكن يجوز نصبه ب «وَقُودُ النَّارِ»، لأن فيه معنى الفعل على تقدير تنقد النار بأجسادهم كما تنقد بأجسام آل فرعون

(١) ديوانه: ١٢٥. معلقته المشهورة و قبله:

مر في ٢: ١٤٨ برواية: (كديتك) بدل (كدابك) و قد استشهد به الشيخ (قده) على ان الدين هو العادة.

ص: ٤٠٥

فهذا تقديره في المعنى. و قوله: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» بمعنى عاقبهم الله بذنوبهم و سمي المعاقبة مؤاخذه لأنها أخذ بالذنب و الأخذ بالذنب عقوبة و الذنب و الجرم واحد تقول أذنب يذنب اذنباً فهو مذنب و الذنب التلو للشى ء ذنبه يذنبه ذنباً إذا تلا و الذنوب التلو لأنها تالية للحبل في الجذب و الذنوب النصيب لأنه كالدلو في الانعام قال الشاعر:

لنا ذنوب و لكم ذنوب فان أبيتم فلنا قليب «1»

و الذنوب: الفرس الوافر شعر الذنب . و أصل الباب : التلو، فالذنب الجرم لما يتلوه من استحقاق الذم كما قيل العقاب، لأنه يستحق عقيب الذنب.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

آية.

القراءة، و الحجة:

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً سيغلبون، و يحشرون بالياء، فيهما: الباقيون بالتاء. من اختار التاء، فلقوله: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتَيْنِ) فأجرى جميعه على الخطاب . و من اختار الياء، فالتصرف في الكلام و الانتقال من خطاب المواجه إلى الخبر بلفظ الغائب . و قيل: إن الخطاب لليهود، و الاخبار عن عبدة الأوثان لأن اليهود أظهروا الشماتة بما كان من المشركين يوم أحد، فقيل لهم سيغلبون يعنى المشركين. و على هذا لا يجوز إلا بالياء. و قيل التاء في عموم الفريقين.

و مثله قال زيد المال ماله. و قال المال مالى. و قل له سنخرج و سيخرج. و كل ذلك جائز حسن.

(١) اللسان: (ذنب). و روايته: (لها ذنوب) بدل (لنا ذنوب) و (القليب) بدل (قليب).

ص: ٤٠٦

النزول:

و قال ابن عباس، و قتادة و ابن إسحاق : إن هذه الآية نزلت لما هلكت قريش يوم بدر، فجمع النبي (ص) اليهود بسوق قينقاع فدعاهم إلى الإسلام و حذرهم مثل ما نزل بقريش من الانتقام، فقالوا: لسنا كقريش الاغمار الذين لا يعرفون القتال، لئن حاربنا لتعرفن البأس. فلنزل الله «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ» الآية.

المعنى:

و معنى «وَبِئْسَ الْمِهَادُ» قال مجاهد: بئس ما مهدوا، لأنفسهم. و قال الحسن:

معناه بئس القرار، و قيل بئس الفراش الممهد لهم، و قال البلخي : لا يجوز الوعد، و الوعيد بغير شرط، لأن فيه بأساً من الايمان أو الكفر و ذلك بمنزلة الصد عنه.

و تأول الآية على حذف الشرط، فكأنه قال: و بئس المهاد لمن مات على كفره غير تائب منه. و قال الرمانى: و هذا لا يصح من قبل أن السورة قد دلت على معنى الوعد من غير شرط يوجب الشك، فلو كان فى قطع الوعيد بأس ب منزلة الصد عن الايمان لكان فى قطع الوعد بأمان ما يوجب الاتكال عليه دون ما يلزم من الاجتهاد . و الذى يخرج من ذلك أن العقاب من أجل الكفر كما أن الثواب من أجل الايمان. و هذا ليس بشيء، لأن للبلخي أن يشترط الوعد بالثواب بانتفاء ما يبطله من الكبائر، كما أنه شرط الوعيد بالعقاب بانتفاء ما يزيله من التوبة، فقد سوى بين الأمرين . و قال البلخي و الجبائى : قوله: «وَبِئْسَ الْمِهَادُ» مجاز كما قيل للمرض: شر، و إن كان خيراً من جهة أنه حكمة، و صواب، فليلجهم «بِئْسَ الْمِهَادُ» لعظيم الآلام، لأن أصل نعم و بئس: الحمد، و الذم إلا أنه كثر استعماله فى المنافع، و المضار حتى سقط عن اسم مجاز. و إن كان مغيراً عن أصله.

و فى الآية دلالة على صحة نبوءة النبي (ص) لأنها تضمنت الخبر عما يكون من

ص: ٤٠٧

غلبة المؤمنين للمشركين . و كان الأمر على ما قال، و لا يكون ذلك على الاتفاق، و كما أنه بين أخباراً كثيرة من الاستقبال، فكان كما قال، فكما أن كل واحد منهما كان معجزاً، لأنه من علام الغيوب اختص به الرسول ليبينه من سائر الناس كذلك هذه الآية.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣]

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فِتْنَةُ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

آية واحدة.

القراءة، و الحجة:

قرأ أهل المدينة، و أبان عن عاصم، و ابن شاهی عن حفص «ترونها» بالتاء الباقون بالياء. من قرأ بالياء، فلأن الخطاب لليهود و
الخبر عن غيرهم ممن حضر بدرًا. و من قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى الجميع.

اللغة، و المعنى، و الاعراب:

الآية: العلامة، و الدلالة على صدق النبي (ص). و الفتنه الفرقة من فأوت رأسه بالسيف إذا فلقتة . و قال ابن عباس : هاهنا هم
المؤمنون من أهل بدر و مشركوا قريش، و به قال الحسن، و مجاهد . و قوله: (فتنة) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: الرفع على
الاستثناف بتقدير منهم فتنة كذا، و أخرى كذا. و يجوز الجر على البدل. و يجوز النصب على الحال كقول كثير:

و كنت كذى رجلين رجل صحيحة و رجل رمى فيها الزمان فشلت¹»

أنشد بالرفع و الجر و قال ابن مفرغ:

(١) ديوانه ١: ٤٦، و معانى القرآن للفراء ١: ١٩٢ و هو من قصيدته التائية المشهورة فى المطبوعة (هى) بدل (رمى).

ص: ٤٠٨

و كنت كذى رجلين رجل صحيحة و رجل رماها صائب الحدثنان

فأما التى صحت فأزد شنوءة و أما التى شلت فأزد عمان¹»

و قال آخر:

إذا مت كان الناس نصفين شامت

و آخر متن بالذى كنت أصنع

و لا يجوز أن تقول مررت بثلاثة صريع و جريح بالجر، لأنه لم يستوف العدد و لكن يجوز بالرفع على تقدير منهم صريع و منهم جريح. فان قلت: مررت بثلاثة صريع، و جريح، و سليم، جاز فيه الرفع و الجر، فان زدت فيه اقتتلوا جاز فيه الأوجه الثلاثة . و لم يقرأ إلا بالرفع.

المعنى:

و قال ابن مسعود، و الحسن : الفئة: المسلمة هي التي كانت ترى الكافراً مثليهم . و قال السدى: رأى المشركون المسلمين مثل عددهم، لأنهم كانوا ثلاثمائة و بضعة عشر فأروهم أضعاف ذلك . و هذا يحتمل على قراءة من قرأ بالياء، فأما من قرأ بالتاء، فلا يحتمل ذلك إلا أن يكون الخطاب لليهود الذين ما حضروا و هم المعنيون بقوله : «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا» و هم يهود بنى قنيقاع فكأنه قيل لهم ترون المشركين مثلى المسلمين مع أن الله ظفرهم بهم، فلا تغتروا بكثرتكم . و اختار البلخي هذا الوجه و اختلفوا فى عدة المشركين يوم بدر،

فروى عن على (ع) و ابن مسعود أنهم كانوا ألفاً.

و قال عروة بن الزبير، و قتادة، و الربيع

كانوا بين تسعمائة إلى الالف و أما عدة المسلمين، فثلاثمائة و بضعة عشر فى قول قتادة، و الربيع، و أكثر المفسرين . و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و معنى «يَرَوْنَهُمْ»

(١) الوحشيات لأبى تمام: ١٨٣، و خزائن الأدب ٢: ٣٧٨. و أزد شنوءة: قبيلة كانت مع أهل الشام فى حرب صفين، و أزد عمان: قبيلة كانت مع أهل العراق و روايته الشعر

فكنتم كذى رجلين: رجل صحيحة

و رجل بها ريب من الحدثان

ص: ٤٠٩

مِثْلِهِمْ» يحتمل وجوهاً أحدها - ما روى عن ابن مسعود، و غيره من أهل العلم أن الله قلل المشركين يوم بدر في أعين المسلمين لتقوى قلوبهم فأوهم مثلى عدتهم.

و قال الفراء يحتمل ثلاثة أمثالهم كما يقول القائل إلى الف و احتاج إلى مثليه أى مضافاً إليه لا بمعنى بدلا منه، فكذلك ترونهم مثليهم مضافاً إليهم فذلك ثلاثة أمثالهم، و أنكر هذا الوجه الزجاج، لمخالفته لظاهر الكلام . و ما جاء في الآية الأخرى في الانفال من تقليل الاعداد. فان قيل كيف يصح تقليل الاعداد مع حصول الرؤية و ارتفاع الموانع و هل هذا إلا ما تقوله المجبره من أنه يجوز أن يكون بحضرتنا أشياء تدرك بعضها دون بعض بحسب ما يفعل فينا من الإدراك و هذا عندنا سفسطة تقليل في المشاهدات؟ قلنا: يحتمل أن يكون التقليل في أعين المؤمنين بأن يظنونهم قليلى العدد، لأنهم أدركوا بعضهم دون بعض، لأن العلم بما يدركه الإنسان جملة غير العلم بما يدركه مفصلاً، و لهذا: إذا رأينا جيشاً كبيراً أو جمعاً عظيماً ندرك جميعهم، و نبين أطرافهم و مع هذا نشك في أعدادهم حتى يقع الخلف بين الناس في حزر عددهم، فعلى هذا يكون تأويل الآية . و قد ذكر الفراء عن ابن عباس أنه قال : رأى المسلمون المشركين مثليهم في الحزر بستمائة و كان المشركون سبعمائة و خمسين . فأما قوله في الأنفال: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ » «١» فلا ينافى هذا لأن هذه آية للمسلمين أخبرهم بها و تلك آية لأهل الكفر حجة عليهم.

على أنك تقول في الكلام إننى لأرى كثيركم قليلاً أى تهونون على لائى أرى الثلاثة اثنين ذكره الفراء، و هو جيد . و قيل: الوجه في تقليل الكفار في أعين المؤمنين أن يكون أقوى لقلوب المؤمنين، فلا يفرغوا، و لا يفسلوا، و يتجرءوا على قتالهم . و الوجه في تقليل المؤمنين في أعين الكفار إذا رأوهم قليلى استهانوا بهم و استحقروهم فلم يأخذوا أهبتهم و لم يستعدوا كل الاستعداد فيظفر بهم المؤمنون، و هو جيد أيضاً . و قال البلخى إنما قال مثليهم و هم كانوا ثلاثة أمثالهم لأنه أقام الحجة عليهم بأنهم و إن كانوا ثلاثة أمثالهم فلم يخرجوا من أن يكونوا

(١) سورة الانفال آية: ٤٥.

ص: ٤١٠

مثليهم. و المعتمد ما قلناه أولاً.

اللغة و المعنى:

و قوله: «وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ» فالأيد القوة و منه قوله: «دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ» «١» و تقول: ادته أئيده أيداً، كقولك بعته أبيعه يبعاً بمعنى قويته.

وأيديته أويده تأييداً. و النصر: المعونة على الاعداء، و هو على وجهين: نصر بالغلبة، و نصر بالحجة، و لو هزم قوم من المؤمنين، لجاز أن يقال: هم المنصورون بالحجة و محمودو العاقبة، و ان سر عدوهم بظفر العاجل.

و الآية التي ذكرها الله تعالى كانت في الفتنين من وجهين:

أحدهما - غلبة القليل العدد في نفسه للكثير في ذلك بخلاف ما تجرى به العادة بما أمدهم الله به من الملائكة و قوى به نفوسهم من تقليل العدد. و الثاني - بالوعد المتقدم بالغلبة لإحدى الطائفتين لا محالة. و قوله: **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ»** معناه لأولى العقول، كما يقال له بصر بالأمور، و ليس المراد بالأبصار الحواس التي يشترك فيها سائر الحيوان . و العبرة الآية تقول: اعتبرت بالشيء عبرة و اعتباراً و العبور: النفوذ عبرت النهر أعبره عبوراً: إذا قطعته.

و المعبرة: السفينة التي يعبر فيها . و العبارة الكلام، يعبر بالمعنى إلى المخاطب، فالعبارة تفسير الرؤيا . و التعبير وزن الدنانير، و غيرها. و العبرة: الدمعة من العين. و أصل الباب العبور النفوذ.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٤]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

(١) سورة ص آية: ١٧.

ص: ٤١١

آية واحدة بلا خلاف.

المعنى، و اللغة:

قيل في المزين لحب الشهوات ثلاثة أقوال : قال الحسن: زينه الشيطان، لأنه لا أحد أشد ذمًا لها من خالقها . الثاني - ما قاله الزجاج: انه زينه الله بما جعل في الطباع من المنازعة، كما قال تعالى **«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا»** «١» الثالث - ما قاله أبو على أنه زين الله عز و جل ما يحسن منه، و زين الشيطان ما يقبح منه.

و الشهوات: جمع شهوة و هي توقان النفس إلى الشيء يقال: انتهى يشتهي شهوة، و اشتهاه و شهاه تشهية، و تشهى تشهياً . و الشهوة من فعل الله تعالى لا يقدر عليها أحد من البشر، و هي ضرورية فينا، لأنه لا يمكننا دفعها عن أنفسنا.

و القناطير: جمع قنطار. و اختلفوا فى مقدار القنطار، فقال معاذ بن جبل، و ابن عمر، و أبى بن كعب، و أبو هريرة : هو ألف و مأتا أوقية. و قال ابن عباس، و الحسن، و الضحاک : هو ألف و مأتا مثقال. و روى عن الحسن أيضاً أنه ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم. و قال قتادة: ثمانون ألفاً من الدراهم أو مائة رطل.

و قال مجاهد، و عطاء: سبعون ألف دينار. و قال أبو نضر

هو ملء مسك ثور ذهباً. و به قال الفراء: و هو المروى عن أبى جعفر.

و قال الربيع و ابن أنس : هو المال الكثير. و معنى المقنطرة: المضاعفة- على قول قتادة- و قال قتادة- و قال الفراء: هى تسعة قناطير، و قيل هى كقولك دراهم مدرهمه أى مجعولة كذلك . و قال السدى مضروبة دراهم أو دنانير . و القنطرة: البناء المعقود للعبور و القنطر الداهية. و أصل الباب القنطرة المعروفة. و القنطار لأنه مال عظيم كالقنطرة. و الذهب، و الفضة معروفان.

(١) سورة الكهف آية: ٧.

ص: ٤١٢

و تقول فضضته تفضيضاً. و فض الجمع يفضه فضاء إذا فرقه . و منه قوله: «لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ» «١» و فضضت الخاتم كسرتة و لا يفضض الله فاك أى لا يكسره.

و افتضضت الماء: إذا شربته. و أصل الباب التفرق.

و الخيل: الافراس سميت خيلا، لاختيالها فى مشيها . و الاختيال: من التخيل، لأنه يتخيل به صاحبه فى صورة من هو أعظم منه كبراً. و الخيال كالظل، لأنه يتخيل به صورة الشىء تقول: خلت زيدا أخال خيلاً إذا خشيته لأنه يتخيل إلى النفس أنه هو . و الأخیل: الشقراق و هو طائر الغالب عليه الخضرة مشرب حمرة، لأنه يتخيل مرة أخضر و مرة أحمر . و أصل الباب التخيل : التشبه بالشىء، و منه أخال عليه الأم يخیل إذا اشتبه عليه، فهو مخيل .

و قوله: «المسومة» قيل فى معناه أربعة أقوال قال سعيد بن جبیر و ابن عباس و الحسن و الربيع هى الراعية و قال مجاهد و عكرمة و السدى : هى الحسنة، و قال ابن عباس فى رواية، و قتادة : المعلمة. و قال ابن زيد: هى المعدة للجهاد فمن قال : هى الراعية، فمن قولهم: اسمت الماشية و سومتها إذا رعبتها . و سأمت، فهى سائمة إذا كانت راعية، و منه تسيمون : أى ترعون. و من قال: الحسنة فمن السیما مقصور. و يقال فيه سیماء أيضاً و هو الحسن. قال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سیماء لا يشق على البصر

و من قال المعلمة، فمن السيماء التي هي العلامة كقوله تعالى : «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ» و من قال المعدة للجهاد، فهو راجع إلى العلامة لأنها معدة بالعلامة و أصل الباب العلامة. و قوله: «و الانعام» فهي الإبل، و البقر، و الغنم من الضان و المعز و لا يقال لجنس منها على الانفراد نعم إلا الإبل خاصة لأنه غلب عليها في التفصيل و الجملة . و الحرث: الزرع. و قوله: «ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فالمتاع: ما يستنفع به مدة ثم يفنى. و قوله: «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» فالآب:

(١١) سورة آل عمران آية: ١٦٠.

ص: ٤١٣

المرجع من آب يؤوب أباً و إياباً و أوبه، و مآباً إذا رجع و تأوب تأوباً: إذا ترجع و أوبه تأويباً: إذا رجعه. و أصل الباب الأوب الرجوع.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٥]

قُلْ أَ أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة و المعنى:

قرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر و رضوان - بضم الراء - الباقون بكسرها فالضم لغة قيس، و تميم. و الكسر لغة أهل الحجاز. قيل في آخر الاستفهام بقوله أُنَبِّئُكُمْ قولان:

أحدهما - ان اخره عند قوله بخير من ذلكم، ثم استأنف للذين اتقوا.

الثاني - عند قوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ثم استأنف جنات على تقدير الجواب، كأنه قيل:

ما هو ذلك الخير، فقيل هو جنات . و مثله: «قُلْ أَ فَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ» «١» أى هي النار، و يجوز في إعراب جنات في العربية الرفع، و الجر، فالجر على أن يكون في آخر الكلام عند ربهم . و لا يجوز الجر على الوجه الآخر للفصل باللام، كما لا يجوز أمرت لك بالفين و لأخيك مأتين حتى تقول بمأنتين و لو قدمت فقلت و مأتين لأخيك جاز، و لا يجوز النصب في جنات على موضع الباء فيما لم يكن الباء فيه زائدة كما لا يحسن مررت برجل زيداً و يحسن خشنت ب صدره و صدر زيد، لأن الباء زائدة، و لا يجوز أن تكون زائدة في بخير لأن نبات لا يجوز الاقتصار فيه على المفعول الثاني دون الثالث، لأنه بمعنى أعلمت، و لا يجوز أعلمت زيداً

أخاك حتى تقول خيراً من عمرو، أو نحوه. وقد تقدم تفسير الجنات و الأنهار.

وقوله: «خالدين» نصب على الحال و معنى تأويل قوله: «وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ» فلا معنى لإعادته. و الرضا و المرضاء: معنى واحد. و معنى قوله: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» يعنى ما حرم عليهم - فى قول الحسن - . فان قيل ما تقولون أنتم لأنكم تقولون إن من لا يتقى جميع ما حرم عليه إذا كان عارفاً باللَّهِ و مصدقاً لجميع ما وجب عليه موعود له بالجنة؟ قلن ا: تقول إن هذه الآية تدل على أن من اتقى جميع ما حرم عليه، فله الجنة، و ما وعد بها من غير أن يقترب بها شىء من استحقاق العقاب قطعاً . و من ليس معه إلا التصديق بجميع ما وجب عليه و قد أخل بكثير من الواجبات و ارتكب كثيراً من المحظورات فانا نقطع على استحقاقه الثواب مع استحقاقه للعقاب و يجوز فعل العقاب به و يجوز العفو عنه مع القطع على وجوب الثواب له، ففارق المتقى على ما تراه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٦]

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب الجر . و الرفع، و النصب، فالجر للاتباع، للذين اتقوا و الرفع على تقديرهم الذين يقولون. و النصب على المدح و تقديره أعنى.

اللغة:

وقوله: «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» فالمغفرة هى الستر للذنوب برفع التبعة، و الذنب، و الجرم بمعنى واحد و إنما الفرق بينهما من جهة الأصل، لأن أصل الذنب الاتباع،

ص: ٤١٥

فالذنوب ما يتبع عليه العبد من قبيح عمله كالتبعة و الجرم أصله القطع، فالجرم القبيح الذى ينقطع به عن الواجب، و الفرق بين القول، و الكلام أن القول فيه معنى الحكاية و ليس كذلك الكلام.

المعنى:

و قوله: «وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قيل فى معنى هذه المسألة قولان:

أحدهما- مسألة الله ما هو من حكمه نحو قوله : «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا» و الفائدة فى هذا الدعاء التعبد بما فيه مصلحة للعباد .
الثانى - مسألة الله عز و جل ما لا يجوز أن يعطيه العبد إلا بعد المسألة لأنه لا يكون لطفاً إلا بعد المسألة و على مذهبنا وجه حسن السؤال إن العفو تفضل من الله لا يجب عند التوبة، و يجوز أيضاً العفو مع عدم التوبة، فيكون وجه السؤال «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» ان منا مصرين و لم نتب.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٧]

الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْمُتَّقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَرِ (١٧)

الاعراب، و اللغة، و المعنى:

الصابرين نصب على المدح و كذلك باقى الصفات، و يجوز أن تكون جراً صفات «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» و معنى الصابرين: الحاسبين نفوسهم بمنعها عما حرم الله (تعالى) عليها، فالصابر الممدوح: هو الحابس نفسه عن جميع معاصى الله، و المقيم على ما أوجب عليه من العبادات، و الصادقين هم المخبرون بالشئ على ما هو به و هى أيضاً صفة مدح «و القانتين» قال قتادة: هم المطيعون. و قال الزجاج: هم الدائمون على العبادات، لأن أصل القنوت الدوام . «و المنفقين»: الذين يخرجون ما أوجب الله عليهم من الزكوات، و غيرها من الحقوق. و يدخل فى ذلك المتطوعون

ص: ٤١٦

بالإنفاق فيما رغب الله فى الإنفاق فيه. «و الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَرِ» قال قتادة: هم المصلون بالسحر. و قال أنس بن مالك: هم الذين يسألون المغفرة، و هو الأظهر.

و الأول جائز أيضاً، لأنه قد تطلب المغفرة بالصلاة، كما تطلب بالدعاء.

اللغة:

و الاسحار: جمع سحر، و هو الوقت الذى قبل طلوع الفجر. و أصله:

الخفاء، و سمي السحر، لخفاء الشخص فيه . و منه السحر، لخفاء سببه . و منه السحر الرئة لخفاء موضعها . و المسحر الذى يأكل الطعام لخفاء مسالكه.

و روى عن أبى عبد الله أن من استغفر اللع سبعين مرة فى وقت السحر، فهو من أهل هذه الآية .

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٨]

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

المعنى:

حقيقة الشهادة الاخبار بالشىء عن مشاهدة أو ما يقوم مقام الشهادة من الدلالات الواضحة، و الحجج اللاتحة على وحدانيته من عجب خلقه، و لطيف حكمته فى ما خلق . و قال أبو عبيدة: معنى «شَهِدَ اللَّهُ» قضى الله «أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ» شهود «وَأُولُوا الْعِلْمِ» و حكى عمرو بن عبيد عن الحسن، و روى ذلك فى تفسيرنا أن فى الآية تقديمًا، و تأخيرًا . و تقديرها «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» أى بالعدل، و شهد الملائكة أنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط، و شهد أولوا العلم أنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط. و أولوا العلم: هم المؤمنون.

ص: ٤١٧

القراءة، و الحجة، و الاعراب:

و قرأ أبو المهلب عمر بن محارب بن دثار «شُهِدَ لِلَّهِ» على وزن فعلاء جمع شهيد، نصب على الحال برده على ما قبله من الكلام كأنه قال: الذين يقولون ربنا إنا آمنة شهداء لله أنه لا إله إلا هو، و هى جائزة غير أنها شهادة لم يوافق عليها أحد من قراء الأمصار، ذكر ذلك البلخى. و (إن) الأولى، و الثانية نحتل أربعة أوجه من العربية، فتحهما جميعاً و كسرهما جميعاً، و فتح الأولى و كسر الثانية، و كسر الأولى و فتح الثانية . فمن فتحهما أوقع الشهادة على أن الثانية و حذف حرف الاضافة من الأولى، و تقديره «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» «١» و قال أبو على الفارسى: يجوز أن يكون نصبها على البدل من شيئين.

أحدهما - من قوله «أَنَّهُ لَا إِلَهَ» و تقديره شهد الله «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» و يجوز بدل الشىء من الشىء و هو هو.

و الثانى - أن يكون بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد و العدل و غير ذلك . و من كسرهما اعترض بالأولى للتعظيم لله عز و جل به كما قيل لبيك إن الحمد . و كسر الثانية على الحكاية، لأن فى معنى شهد معنى قال . و قال المؤرخ: شهد بمعنى قال بلغة قيس عيلان.

الثالث - من فتح الأولى و كسر الثانية - و هو أجودها، و عليه أكثر القراء - أوقع الشهادة على الأولى و استأنف الثانية و هو أحسن الوجوه و أظهرها.

الرابع - من كسر الأولى، فعلى الاعتراض، ثم فتح الثانية بإيقاع الشهادة عليها . و هو المروى عن ابن عباس، و قيل فى نصب قائماً قولان:

أحدهما - أنه حال من اسم الله على تقدير شهد الله قائماً بالقسط.

الثانى - على الحال من هو و تقديره لا إله إلا هو قائماً بالقسط. و قال مجاهد:

(١) سورة آل عمران آية: ١٩.

ص: ٤١٨

معنى قائماً بالقسط أى قائماً بالعدل كما تقول : قائماً بالتدبير أى يجريه على الاستقامة فكذلك يجرى التدبير على الاستقامة و العدل فى جميع الأمور.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٩]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)

آية.

القراءة، و اللغة، و المعنى:

قرأ «أن الدين» بفتح الهمزة الكسائي و حكى ذلك عن ابن مسعود . الباقر بكسرهما و قد بينا الوجه فيه . معنى الدين هاهنا الطاعة فمعناه ان الطاعة لله عز و جل هى الإسلام. قال الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا الد
بين دراكا بغزوة و صيال«1»

و معناه ذلّهم للطاعة إذ كرهوا الطاعة، و الدين الجزاء . من قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى . و منه قوله: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» أى يوم الجزاء، و سميت الطاعة ديناً، لأنها للجزاء، و منه الدين، لأنه كالجزاء فى وجوب القضاء.

و الإسلام أصله السلم، فأسلم معناه دخل فى السلم كقولهم أقحط بمعنى دخل القحط و أربع دخل فى الربيع، و أصل السلم السلامة، لأنه انقياد على السلامة، و يصلح أن يكون أصله التسليم، لأنه تسليم، لأمر الله، و التسليم من السلامة، لأنه تأدية الشيء على السلامة من الفساد و النقصان، فالإسلام: هو تأدية الطاعات على السلامة من الإدغال، و الإسلام، و الايمان عندنا و عند المعتزلة بمعنى واحد غير أن عندهم أن فعل الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان «و عندنا أن أفعال

الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان «١» و عندنا أن أفعال الواجبات من أفعال القلوب - التي هي التصديق - من الايمان، فأما أفعال الجوارح، فليست من الايمان، و إن كانت واجبة. و قد بينا ذلك في ما مضى و سنبينه إن شاء الله.

و الإسلام: يفيد الانقياد لكل ما جاء به النبي (ص) من العبادات الشرعية و ترك النكير عليه، و الاستسلام له، فإذا قلنا : دين المؤمن هو الايمان، و هو الإسلام، فالإسلام هو الايمان . و نظير ذلك قولنا: الإنسان، و الإنسان حيوان على الصورة الانسانية، فالحيوان على الصورة الانسانية بشر.

و قوله: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ» قال الربيع: المراد بالكتاب:

التوراة. و قال محمد بن جعفر بن الزبير : هو الإنجيل. و قال الجبائي : خرج مخرج الجنس، و معناه كتب الله المتقدمة التي بين فيها الحلال و الحرام.

و الاختلاف ذهاب أحد النفيسين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر فهذا الاختلاف في الأديان . فأما الاختلاف في الأجناس، فهو امتناع أحد الشئيين أن يسد مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته . و البغى : طلب الاستعلاء بالظلم و أصله من بغيت الحاجة إذا طلبتها، و ليس في الآية ما يدل على أن الذين اختلفوا بغياً كانوا معاندين، لأن البغى قد يحمل على العدول عن طريق العلم، كما يحمل على عناد أهل العلم . و لأنه قد يقع الخلاف بينهم و إن كانوا بأجمعهم مبطلين، كاختلاف اليهود و النصارى في المسيح، فنسبه النصارى إلى الإلهية، و اليهود إلى الفرية.

الاعراب، و المعنى:

و العامل في «بَغِيًّا بَيْنَهُمْ» يحتمل أمرين: أحدهما - (اختلف) هذا المذكور، و تقديره: و ما اختلف فيه بغياً بينهم إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم، هذا قول الأخفش و قال الزجاج : نصبه محذوف دل عليه اختلف المذكور، و تقديره اختلفوا بغياً بينهم . و قوله: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ» معناه: من يجحد آيات الله

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٠]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

المعنى بقوله: «فَإِنْ حَاجُّوكَ» نصارى نجران - على قول جميع المفسرين - فان قيل: لم قال: «وَمَنِ اتَّبَعَنِ» و لم يؤكد الضمير، فلم يقل: أسلمت أنا و لا يجوز أن يقول القائل قمت و زيد إلا بعد أن يقول قمت أنا و زيد؟ قيل : إنما جاز هاهنا لطول الكلام، فصار طوله عوضاً من تأكيد الضمير المتصل، و لو قال أسلمت و زيد لم يجز حتى يقول : أسلمت أنا و زيد، فإذا قال : أسلمت اليوم بانسراح صدرى و من جاء معى حسن. فان قيل ما الحجة فى قوله: «فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ»؟ قلنا فيه وجهان:

أحدهما - أنه أراد إلزامهم على - ما أقرؤا به من أن الله خالقهم - اتباع أمره فى «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» «١» فلذلك قال: «أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» أى انقدت لأمره فى اخلاص التوحيد له.

الثانى - أنه ذكر الأصل الذى يلزم جميع المكلفين الإقرار به لأنه لا ينتقض فى ما يحتاج إلى العمل ع ليه فى الدين الذى هو طريق النجاة من العذاب إلى النعيم، و معنى قوله : «وجهى» يريد نفسى و إنما أضاف الإسلام إلى الوجه، لأنه لما كان وجه الشئ أشرف ما فيه ذكر بدلا منه ليدل على شرف الذكر . و مثله «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» «٢» أى إلا هو. و قوله: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

(١) سورة الإسراء آية: ٢٣.

(٢) سورة القصص آية: ٨٨.

ص: ٤٢١

يعنى اليهود و النصارى، «و الأميين» الذين لا كتاب لهم على قول ابن عباس و غيره . من أهل التأويل، و هم مشركوا العرب، كما قال: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ» «١» و قال: «النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ» «٢» أى الذى لا يكتب.

و إنما قيل لمن لا يكتب أمى، لأنه نسب إلى ما عليه الأمة فى الخلقة لأنهم خلقوا لا يكتبون شيئاً. و إنما يستفيدون الكتابة.

و قوله: (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) من حذف الياء اجتزاء بالكسرة و إنما حذفها حمزة، و الكسائي و عاصم، و حذف الياء فى أواخر الآى أحسن لأنها تشبه القوافى. و يجوز فى وسط الآى أيضاً و أحسنها ما كان قبلها نون مثل قوله: «وَمَنِ اتَّبَعَنِ»، فان لم يكن نون،

فانه يجوز أيضاً نحو قولك هذا غلام، و ما أشبه ذلك . و الأجود أن تقول هذا غلامى و إن شئت أسكنت الياء . و إن شئت فتحتها.

و قوله: (ء أسلمتم) أمر فى صورة الاستفهام، و إنما كان كذلك، لأنه بمنزلة طلب الفعل، و الاستدعاء إليه فذكر ذلك للدلالة على أمرين من غير تصريح به ليقر المأمور به بها يلزمه فيه، كما تقول لمن توصيه بما هو أعود عليه: أقبلت هذا.

و معناه اقبل، و مثله قوله تعالى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» ﴿٣﴾ معناه انتهوا، و أقرأوا به . و تقول لغيرك: هل أنت كاف عنا . و معناه اكف. و يقول القائل لغيره:

أين أنت، و معناه اثبت مكانك لا تبرح.

و قوله: «فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا» معناه اهتدوا إلى طريق الحق «وَإِنْ تَوَلَّوْا» معناه كفروا، و لم يقبلوا و اعرضوا عنه «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» و معناه عليك البلاغ، فقط دون ألا يتولوا، لأنه ليس عليك ألا يتولوا. و قوله:

«وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» معناه هاهنا لا يفوته شىء من أعمالهم التى يجازيهم بها، لأنه بصير بهم أى عالم بهم و بسرائرهم و ظواهر أعمالهم، لا يخفى عليه خافية. و قيل معناه يعلم ما يكون منك فى التبليغ، و منهم فى الايمان، و الكفر.

(١) سورة الجمعة آية: ٢.

(٢) سورة الاعراف آية: ١٥٦، ١٥٧.

(٣) سورة المائدة آية: ٩٤.

ص: ٤٢٢

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)

آية واحدة.

القراءة:

قرأ حمزة و نصير «و يقاتلون الذين يأمرُونَ» بالف لأن فى مصحف عبد الله «و قاتلوا» و الأجود ما عليه الجماعة.

المعنى:

و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ» معناه يجحدون «بِآيَاتِ اللَّهِ» يعنى حججه و بيناته «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ»

روى أبو عبيدة بن الجراح قال: قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال: رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف و نهى عن منكر، ثم قرأ رسول الله «وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ثم قال يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة رجل و اثنا عشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار فى ذلك اليوم، و هم الذين ذكرهم الله.

و استدل الرماني بذلك على جواز انكار المنكر مع خوف القتل، و بالخبر الذى

رواه الحسن عن النبي (ص) أنه قال: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر يقتل عليها.

و قال عمرو بن عبيد: لا نعلم عملاً من أعمال البشر أفضل من القيام بالقسط يقتل عليه. و هذا الذى ذكره غير صحيح، لأن من شرط إنكار المنكر ألا يكون فيه مفسدة، و ألا يؤدى إلى قتل المنكر، و متى أدى ذلك إلى قتله، فقد انتفى عنه الشرطان معاً فيجب أن يكون قبيحاً، و الاخبار

ص: ٢٢٣

التي رووها أخبار آحاد لا يعارض بها على أدلة العقول على أنه لا يمتنع أن يكون الوجه فيها و فى قوله: «وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ» هو من غلب على ظنه أن إنكاره لا يؤدى إلى مفسدة فحسن منه ذلك بل وجب و إن تعقب - فى ما بعد - القتل، لأنه ليس من شرطه أن يعلم ذلك بل يكفى فيه غلبة الظن.

و قوله: «يَغْيِرُ حَقٌّ» لا يدل على أن قتل النبيين يكون بحق بل المراد بذلك أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق، كما قال: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» «١». و المعنى ان ذلك لا يكون عليه برهان كما قال امرؤ القيس:

على لا حب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود الديا فى جرجرا²

و تقول: لا خير عنده يرجى . و أنت تريد لا خير عنده أصلاً . و كذلك أراد امرؤ القيس أنه لا منار هناك، فيهدى به قال أبو ذؤيب:

متفلق انشاؤها عن قانى كالقرط صاو غيره لا يرضع

أى ليس له بقية لبن فيرضع، و معنى صاو فى البيت صوت يابس النخلة.

و قوله: «وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ» معناه الذين يأمرُونَ بالمعروف و ينهاون عن المنكر . و قوله: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» إنما خاطبهم بذلك و إن كان الخبر عن أسلافهم من حيث رضوا هم بأفعالهم، فأجملوا معهم على تقدير فيشر أخلافهم بأن العقاب لهم، و كأسلافهم . فان قيل لم جاز أن تقول إن الذى يقوم، فيكرمك، و لم يجز ليت الذى يقوم فيكرمك؟ قلنا: لأن دخول الفاء لشبه الجزاء، لأن الذى يحتاج إلى صلة فصلتها قامت مقام الشرط، فلذلك دخل الفاء فى الجواب كما دخل فى جواب الشرط، و ليت تبطل معنى الجزاء و ليس كذلك أن لأنها بمنزلة الابتداء.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٢]

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

(١) سورة المؤمنون آية: ١١٨.

(٢) مر تخريجه فى ٢: ٣٥٦.

ص: ٤٢٤

آية بلا خلاف.

المعنى:

حبوط العمل - عندنا - هو إيقاعه على خلاف الوجه المأمور به، فإذا أوقعه كذلك لم يستحق عليه الثواب، فجاز لذلك أن يقال: أحبط عمله، و متى أوقعه على الوجه المنهى عنه، استحق مع ذلك العقاب، و لى س المراد بذلك بطلان ما يستحق عليه من الحمد و الثناء . و لا بطلان الثواب بما يستحق من العقاب، لأن الثواب إذا ثبت فلا يزول على وجه بما يستحق صاحبه من العقاب، لأنه لا تنافى بين المستحقين، و لا تضاد. و أما حبوطها فى الدنيا، فلأنهم لم ينالوا بها مدحاً و لا ثناء.

و أصل الحبوط مأخوذ من قولهم : حبطت بطون الماشية: إذا فسدت من مآكل الربيع . فعلى ما حررناه إنما تبطل الطاعة حتى تصوير بمنزلة ما لم تفعل إذا وقعت على خلاف الوجه المأمور به و عند المعتزلة، و من خالفنا فى ذلك أن أحدهما يبطل صاحبه إذا كان ما يستحق عليه من الثواب أو العقاب أكثر مما يستحق على الآخر فانه يبطل الأقل على خلاف بينهم فى أنه يتحبط على طريق الموازنة أو غير الموازنة، قال الرماني: و الفرق بين حبوط الفريضة و حبوط النافلة أن النافلة من الفاسق لا بد عليها من منفعة عاجلة، لأن الله رغب فيها إن أقام على فسقه أو لم يقم.

و الترغيب من الحكيم لا يكون إلا لمنفعة، فأما الفريضة من الفاسق، فلانتقاض المضرة التي كان يستحقها على ترك المضرة، و هذا- على مذهبنا- لا يصح على ما فصلناه، و لا على مذهب شيوخته، لأن المستحق على النوافل لا يكون إلا ثواباً و الثواب لا يصح فعله في دار التكليف، فكيف يصح ما قاله . و قوله: «وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» يدل على أنه تعالى لا ينصر كافراً لأنه لو نصره، لكان أعظم ناصر و الله تعالى نفى على وجه العموم أن يكون لهم ناصر، و لأن مفهوم الكلام أنه لا ينفعهم نصر لكفرهم.

ص: ٢٢٥

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٣]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) آية بلا خلاف.

المعنى:

معنى «أَلَمْ تَرَ» أ لم تعلم «إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا» معناه الذين أعطوا «نَصِيحاً» أى حظاً و إنما قيل «أُوتُوا نَصِيحاً» منه، لأنهم يعلمون بعض ما فيه «مِنَ الْكِتَابِ» قال ابن عباس، و الزجاج، و الجبائي : إنه التوراة دعى إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجة عليهم بما فيه من الدلالة على نبوة نبينا (ص) و تصديقه. و الثاني - قال الحسن، و قتادة : دعو إلى القرآن، لأن ما فيه موافق ما فى التوراة فى أصول الديانة و أركان الشريعة. و فى الصفة التى تقدمت البشارة بها.

و الحكم الذى دعو فيه إلى الكتاب يحتمل ثلاثة أشياء : أحدها- أن يكون نبوة النبى (ص). و الثانى - أن يكون أمر إبراهيم فان دينه الإسلام. و الثالث - أن يكون حداً من الحدود، لأنهم نازعوا فى ذلك، و ليس فى القرآن دليل على تعيين ذلك و إنما هو محتمل لكل واحد منها.

و الفرق بين الدعاء إلى الشىء و الأمر به أن الأمر له صيغة مخصوصة و فيه زجر عن المخالف ة عند من قال : إنه يقتضى الإيجاب. و الدعاء قد يكون بالخبر و غيره من الدلالات على معنى الخبر و إنما دعو إلى المحاكمة لتظهر الحجة فأبوا إلا المخالفة.

و الحكم هو الخبر الذى يفصل الحق من الباطل بامتناعه من الإلباس و هو مأخوذ من الحكمة . و هو الخبر الذى توجب صحف الحكمة. و إنما يقال حكم بالباطل لأنه جعل موضع الحق باطلا بدلا منه. و قولهم ليس هذا حكم كذا معناه ليس هذا حقه فإنما دعو إلى كتاب الله ليفصل الحق من الباطل فيما اختلفوا فيه. و معنى

ص: ٢٢٦

قوله: «يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ» فالتولى عن الشيء هو الاعراض عنه، فليس على وجه التكرار لأن معناه يتولى عن الداعى، و هو معرض عما دعا إليه، لأنه قد كان يمكنه أن يتولى عنه و هو متأمل لما دعا إليه، فلما لم يفعل كان العيب له ألزم و الذم على ما فعل أعظم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٤]

ذَلِكَ بَلَّيْنَهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

آية بلا خلاف.

المعنى:

الأيام المعدودات قيل فيها قولان:

أحدهما- هي الأيام التي عبدوا فيها العجل و هي أربعون يوماً . ذكره قتادة، و الربيع، و الحسن إلا أن الحسن قال : سبعة أيام. و الثانى - قال الجبائى: أرادوا أياماً منقطعة لانقضاء العذاب فيها و انقطاعه.

اللغة:

و قوله: «وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ» فالغرور الاطماع فى ما لا يصح. غره يغره غروراً، فهو مغرور و اعتره اغتراراً. و الغرور: الشيطان، لأنه يغر الناس. و الغار:

الغافل، لأنه كالمغتتر. و الغرارة: الدنيا، لأنها تغر أهلها. و الغر: الغمر الذى لم يجرب الأمور، و مصدره الغرارة، لأن من شأنه أن يقبل الغرور. و الغرر: الخطر الذى يقدم فيه على ما لا ينبغى، لأنه كحال الغرور فى الطمع المذموم. و الغرارة:

الوعاء، لأنها تغر بعظمها و خفاء ما فيها . و الغر: آثار طى الثوب . أطوه على غره أى على آثار طيه . و الغرغرة: التغرغر فى الحلق. و الغرغرة: حكاية صوت الراعى.

و الغر: زق الطائر فرخه. غره يغره غراً: إذا زقه و ذلك، لأنه كالغرغرة فى الحلق.

ص: ٤٢٧

و الغرة: الجبهة. و أصل الباب الغرور الطماع فى غير مطمع.

و قوله: «ما كَانُوا يَفْتَرُونَ» فالافتراء: الكذب، و فرى فلان كذباً يفریه فريئة، و الفرى : الشق، فريت الأديم فرياً، و فريئة . مفريئة: مشقوقة. و قد تفرو بجورها أى تشق. و الفرى: الإصر العظيم، لأنه يشق على النفس. و أصل الباب:

الفرى: الشق. و منه الافتراء، لأنه يشق على النفس.

المعنى:

و الافتراء الذى غرهم قيل فيه قولان : أحدهما - قوله: «نَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ» فى قول قتادة، و قال مجاهد غرهم قوله: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ» و ليس فى الآية ما يدل على خلاف ما نذهب إليه من جواز العفو و إخراج المعاقبين من أهل الملة من النار من حيث أن الله ذم هؤلاء بانه لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات . و ذلك انا لا نقول أن الأيام التى يعاقب فيها الفاسق بعدد أيام عصيانه بل إنما نقول : إن عقاب من ثبت دوام ثوابه لا يكون إلا منقطعاً و إن لم يحط العلم مقداره . و الله تعالى عاب أهل الكتاب بذلك من حيث قطعوا على ما قالوه و حكموا به و ذلك بخلاف ما قلناه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٥]

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

آية بلا خلاف.

«كيف» موضوعة للسؤال عن الحال . و معناها هاهنا التنبيه بصيغة السؤال عن حال من يساق إلى النار . و فيه بلاغة، و اختصار شديد، لأن تقديره أى حال يكون حال من اغتر بالدعاوى الباطلة حتى أداه ذلك إلى الخلود فى العقوبة؟ و نظيره قول القائل : أنا أكرمك و إن لم تجتنى فكيف إذا جئتني؟ معناه فكيف إكرامى لك إذا جئتني . و التقدير: كيف حالها إذا جمعناهم؟ لأنه خبر ابتداء محذوف.

ص: ٤٢٨

و قوله: «لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ» معناه لجزاء يوم. و اللام يدل على هذا التقدير. و لو قال: جمعناهم فى يوم لما دل على ذلك. و مثله جئته ليوم الخميس أى لما يكون فى يوم الخميس. و قال الفراء. معناه فى يوم.

و قوله: «وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - «وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» من ثواب أو عقاب . الثانى - ما كسبت من ثواب أو عقاب بمعنى اجتلبت بعملها من الثواب أو العقاب، كما تقول كسب فلان المال بالتجارة و الزراعة . فان قيل: كيف قال: «وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» و ما كسبت، لا نهاية له، لأنه دائم و ما لا نهاية له لا يصح فعله؟ قلنا : معناه أنه توفى كل نفس ما كسبت حالا بعد حال، فأما أن يفعل جميع المستحق فمحال لكن لا ينتهى إلى حد ينقطع و لا يفعل فيما بعده . «وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» معناه لا يبخسون، فلا يبخس المحسن جزاء إحسانه، و لا يعاقب مسىء فوق جزائه.

و قوله تعالى. [سورة آل عمران (٣): آية ٢٦]

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)

آية واحدة.

اللغة:

قيل في زيادة الميم في اللهم قولان : أحدهما - قال الخليل: إنها عوض من ياء التي هي أداة للتداء بدلالة أنه لا يجوز أن تقول غفر اللهم لي، و لا يجوز أيضاً مع (يا) في الكلام. و الثاني - ما قاله الفراء: إنها الميم في قولك يا الله أمانة بخير فألقيت الهمزة و طرحت حركتها على ما قبلها. و مثله هلم و إنما هي هل أم، قال : و ما قاله الخليل لا يجوز لأن الميم إنما تزداد مخففة في مثل فم و ابنم، و لأنها قد اجتمعت مع (يا) في قول الشاعر:

ص: ٢٢٩

سبحت أو صليت يا اللهم

و ما عليك أن تقولي كلما

أردد علينا شيخنا مسلماً»¹

قال الرماني: لا يفسد قول الخليل بما قاله، لأنها عوض من حرفين فشددت كما قيل قمتن و ضربتن لما كانت النون عوضاً من حرفين في قمتن، و ذهبتم، فأما قمن و ذهبن فعوض من حرف واحد، و أما البيت فإنما جاز فيه لضرورة الشعر، و أما هل، فلا تدخل على (أم) بوجه من الوجوه. و الأصل في (ها) أنها للتنبيه دخلت على (لم) في قول الخليل.

الاعراب:

و قوله: «مَالِكِ الْمُلْكِ» أكثر النحويين على أنه منصوب بأنه منادى مضاف و تقديره يا مالك الملك . و قال الزجاج: يحتمل هذا و يحتمل أيضاً أن يكون صفة من اللهم، لأن اللهم منادى، و الميم في آخره عوض من ياء في أوله ثم وصفه بعد ذلك كما تقول يا زيد ذا الحجة.

المعنى:

و معنى الآية قيل فيه أربع أقوال :

أحدها - أن الملك هاهنا النبوة ذكره مجاهد. و [الثاني] قال الزجاج:

مالك العباد، و ما ملكوا. و [الثالث] قال قوم: مالك أمر الدنيا و الآخرة.

و الرابع: أنه أفاد صفة لا تجوز الاله من أنه مالك كل ملك.

و قوله: «تَوَتَّى الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ» تقديره من تشاء أن توتيه و تنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه، كما تقول: خذ ما شئت و اترك ما شئت. و معناه ما شئت أن تتركه.

(١) اللسان (أله)، و معانى القرآن للفراء ١: ٢٠٣ و غيرهما من كتب اللغة و النحو و الأدب، و رأيها مختلفة.

ص: ٤٣٠

اللغة:

و النزع: قلع الشيء عن الشيء، نزع ينزع نزعاً. و منه قوله: «و النَّازِعَاتِ غَرْقاً» قال أبو عبيدة هي النجوم تنزع أى تطلع و النزع الشبه للقوم نزع إلى أخواله أى نزع إليهم بالشبه، فصار واحداً منهم بشبهه لهم . و النزاع: الحنين إلى الشيء و المنازعة: الخصومة. و النزوع عن الشيء الترك له. و النزع: ذهاب الشعر عن مقدم الرأس. و المنزعة: آلة النزع. و أصل الباب النزع: القلع.

المعنى:

و قال البلخي و الجبائي لا يجوز أن يعطى الله الملك للفاسق لأنه تمليك الأمر العظيم من السياسة و التدبير مع المال الكثير، لقوله: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» «١» و الملك من أعظم العهود، و لا ينافى ذلك قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» «٢» لأمرين: أحدهما - قال مجاهد الهاء كناية عن إبراهيم و الملك المراد به النبوة و التقدير أن أتى الله إبراهيم النبوة. و الثانى - أن يكون المراد بالملك المال دون السياسة، و التدبير فان قيل: ما الفرق بين تمليك الكافر العبيد و الإمام و بين تمليكه السياسة و التدبير : قيل: لأن لا يجعل للجاهل أن يسوس العالم، و هذا الذى ذكره البلخي بعينه يُستدل به على الامام يجب أن يكون معصوماً، و لا يكون فى باطنه كافراً، و لا فاسقاً.

فان قيل: إن ذلك عادة و جاز أن يكلفنا الله اختياره على ظاهر العدالة فإذ أبان فسقه انخلعت إمامته و إنما لا يجوز أن يختار الله (تعالى) من فى باطنه فاسق، لأنه يعلم البواطن لما جاز من أن نختاره؟ قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما - أن الامام - عندنا - الله (تعالى) يختاره، فوجب أن يكون

(١) سورة البقرة آية: ١٢٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٨.

ص: ٤٣١

مأمون الباطن على ما قلموه . و ما الفرق بين أن يختار من فى باطنه فاسق و بين أن يكلفنا ذلك مع علمه بأنا لا نختار إلا الفاسق.

و الجواب الثانى - أنه إذا كانت علة الحاجة إلى الامام ارتفاع العصمة فلو كان الامام غير معصوم لاحتاج إلى امام آخر و أدى ذلك إلى التسلسل و ذلك باطل.

و قوله: «يَبْدِكَ الْخَيْرُ» معناه إنك قادر على الخير و إن ما خص الخير بالذكر و إن كان بيده كل شىء من خير أو شر، لأن الغرض ترغيب العبد، و إنما يرغب فى الخير دون الشر، و قال الحسن، و قتادة: هذه الآية نزلت جواباً لما سأل الله النبى (ص) أن يجعل لأمته ملك فارس و الروم فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٧]

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

آية بلا خلاف.

القراءة و اللغة:

قرأ بتشديد الياء «من الميت» نافع و حمزة و الكسائى و حفص الباقر بالتخفيف.

الإيلاج: الإدخال يقال: أولجه ايلاجاً، و ولج ولوجاً. و منه قوله: «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» «١» و الوليجة بطانة الرجل لأنه يطلعه على داخل أمره . و منه قوله: «وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً» «٢» و التولج كناس الطبقى لأنه يدخله ليأوى إليه و الولجة شىء يكون بين يدى فناء القوم لأنه مدخل إلى أفنائهم و أصل الباب الدخول.

(١) سورة الاعراف آية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة آية: ١٧.

المعنى:

قيل فى معنى الآية قولان : أحدهما - ما روى عن ابن مسعود، و ابن عباس، و مجاهد، و الحسن، و قتادة، و السدى، و الضحاك، و ابن زيد : انه يجعل ما نقص من أحدهما زياده فى الآخر . و قال الجبائى : معناه يدخل أحدهما فى الآخر بإتيانه بدلا منه فى مكانه.

و قوله: «و تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - يخرج الحى من النطفة، و هى ميتة، و النطفة من الحى و كذلك الدجاجة من البيضة و البيضة من الدجاجة، هذا قول عبد الله بن مسعود، و مجاهد، و الضحاك، و السدى، و قتادة، و ابن زيد.

الثانى - ما قاله الحسن

و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) أنه إخراج المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن.

و الفرق بين تخفيف اليباء و تشديدها أن الميت بالتخفيف الذى قد مات و بالتثقيل الذى لم يميت قال المبرد : و لا خلاف بين علماء البصريين أنهما سواء و أنشد لابن الرعاء الغسانى:

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الأحياء

انما الميت من يعيش كثيراً كاسفاً باله قليل الرخاء»1

فجمع بين اللغتين و إنما كرر فى عدة مواضع فى القرآن لما فيه من عظم المنفعة و جزيل الفائدة.

و قوله: «بَغْيَرِ حِسَابٍ» قيل فيه ثلاثة أقوال: أولها - قال الحسن و الربيع:

بغير نقصان، لأنه لا نهاية لما فى مقدوره فما يوجد منه لا ينقصه، و لا هو على حساب جزء من كذا و كذا جزءاً منه، فهو بغير حساب التجزئة. الثانى - بغير حساب التقدير كما يقال فلان ينفق بغير حساب، لأن من عادة المقتر ألا ينفق إلا

(١) اللسان (موت) و روايته (شقياً) بدل (كثيباً).

ص: ٤٣٣

بحساب ذكره الزجاج. الثالث - ما قاله الجبائي: ان معناه بغير حساب الاستحقاق، لأنه تفضل و ذلك، لأن النعيم منه بحساب و منه بغير حساب فأما العقاب فجميعه بحساب.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٨]

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءَ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)

آية واحدة.

القراءة، و الحجة:

قال الفراء، و الحسن، و مجاهد: «تقية» و به قرأ يعقوب. الباقر «تقاء» و أمال «تقاء» الكسائي. و قرأ حمزة، و نافع بين بين. الباقر بالتفخيم، و هو الأجود، لأن فيه حرفاً مستعالياً، و هو القاف. و من أمال، ليؤذن أن الالف منقلبة من الياء. معنى قوله: «يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ» نهى للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يعني أنصاراً، و كسر الذال لالتقاء الساكنين، و لو رفع، لكان جائزاً بمعنى لا ينبغي لهم أن يتخذوا.

المعنى:

و قوله: «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» من لا ابتداء الغاية. و تقدير الآية لا تجعلوا ابتداء الولاية مكاناً دون المؤمنين لأن مكان المؤمن الأعلى و مكان الكافر الأدنى، كما تقول زيد دونك و لست تريد أنه في موضع مسفل، و أنك في موضع مرتفع لكن جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع و الخيانة كالاستفال. و في الآية دلالة على أنه لا يجوز ملاطفة الكفار. قال ابن عباس: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ

ص: ٤٣٤

خَبَالًا» ١» و قال: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ٢» و قال: «فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ٣» و قال «وَاعْرِضْ عَنِ الْبَاجِلِينَ» ٤» و قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» ٥» و قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ

مِنْهُمْ) «٦» وكل ذلك يدل على أنه ينبغي أن يعاملوا بالغلظة و الجفوة دون الملاطفة، و الملاينة إلا ما وقع من النادر لعارض من الأمر.

النظم:

و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه (تعالى) لما بين عظيم آياته بما فى مقدوراته مما لا يقدر عليه سواه، دل على أنه ينبغي أن تكون الرغبة فى ما عنده و عند أوليائه من المؤمنين دون أعدائه الكافرين، فنهى عن اتخاذهم أولياء دون أهل التقوى الذين سلكوا طريق الهدى. و الولى هو الأولى، و هو أيضاً الذى يلى أمر من ارتضى فعله بالمعونة و النصرة. و تجرى على وجهين:

أحدهما - المعين بالنصرة. و الآخر - المعان فمن ذلك قوله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا» أى معينهم بنصرته، و المؤمن ولى الله أى معان بنصرة الله. و قوله:

«وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ» يعنى من اتخذ الكافرين أولياء «فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ» أى ليس هو من أولياء الله الصالحين و الله برىء منهم «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» فالتقية الاظهار باللسان خلاف ما ينطوى عليه القلب للخوف على النفس إذا كان ما يبطنه هو الحق فان كان ما يبطنه باطلا كان ذلك نفاقاً.

اللغة:

و قوله: (تقاة) أصله وقاة فأبدلت الواو المضمومة تاء استتقالا لها، لأنهم

(١) سورة آل عمران آية: ١١٨.

(٢) سورة المجادلة آية: ٢٢.

(٣) سورة الانعام آية: ٦٨.

(٤) سورة الاعراف آية: ١٩٨.

(٥) سورة التوبة آية: ٧٤.

(٦) سورة المائدة آية: ٥٤.

ص: ٤٣٥

يفرون منها إلى الهمزة تارةً و إلى التاء أخرى فأما التاء فلقرئها من الواو مع أنها من حروف الزيادة . و أما الهمزة فلأنها نظيرتها في الطرف الآخر من مخارج الحروف مع حسن زيادتها أولاً، و وزن تقاء فعله مثل تؤدة، و تخمة و تكأة، و هى مصدر اتقى تقاءً، و تقيّةً، و تقوى، و اتقاءً.

حكم التقيّة:

و التقيّة - عندنا - واجبة عند الخوف على النفس و قد روى رخصة فى جواز الإفصاح بالحق عندها . روى الحسن أن مسيلم الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله (ص) فقال لأحدهما أ تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال:

أ فتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال أ تشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم، فقال له أ فتشهد أنى رسول الله؟ قال إنى أصم - قالها ثلاثاً كل ذلك تقيّة - فتقول ذلك ف ضرب عنقه فبلغ ذلك «١» فقال أما هذا المقتول فمضى على صدقه و تقيته و أخذ بفضلته فهنيئاً له . و أما الآخر فقبل رخصة الله، فلا تبعه عليه فعلى هذا التقيّة رخصة و الإفصاح بالحق فضيلة. و ظاهر أخبارنا يدل على أنها واجبة، و خلافها خطأ.

و قوله: «و يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» يعنى إله فوضع نفسه مكان إياه، و نفسه يعنى عذابه، و أضافه إلى نفسه على وجه الاختصاص، و التحقيق كما لو حققه بصفة بأن يقول يحذركم الله المجازى لكم . و قوله: (وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ) معناه إلى جزاء الله المصير أى المرجع.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٢٩]

قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) آية واحدة.

(١) يعنى رسول الله (ص).

ص: ٤٣٦

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها . أنه لما تقدم النهى عن اتخاذ الكفار أولياء خوفوا من الإعلان بخلاف الاظهار فى ما نهوا عنه بأن الله (تعالى) يعلم الأسرار كما يعلم الإعلان.

اللغة:

و الصدر معروف . و الصدر: أعلى مقدم كل شىء . و الصدر: الانصراف عن الماء بعد الرى . تقول: صدرت الإبل عن الماء فهي صادرة. و المصدر: الحوض الذى تصدر عنه الإبل. و التصدير: حزام الرجل لميله إلى الصدور. و الصادر:

شبيه بالفقيرة تلبسها المرأة لأنه قصير يغطى الصدر و ما حاذاه و كذلك الصدر.

و أصل الباب الصدر المعروف.

و قوله: «يَعْلَمُهُ اللَّهُ» جزم، لأنه جواب الشرط، و ان كان الله يعلمه كان أو لم يكن، و معناه يعلمه كائناً . و لا يصح وصفه بذلك قبل أن يكون. و المعنى:

و ما تفعلوا من خير يجاز الله عليه، لأنه يعلمه، فلا يذهب عليه شىء منه و إنما قال : «وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» لذكر بمعلومات الله على التفصيل بعلم الضمير و إنما رفعه على الاستئناف . و قوله: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» معناه التحذير من عقاب من لا يعجزه شىء أصلاً من حيث أنه قادر على كل شىء يصح أن يكون مقدوراً له.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٠]

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

آية بلا خلاف.

ص: ٤٣٧

الاعراب:

قليل فى انتصاب يوم ثلاثة أوجه: أحدها- أنه منصوب ب (يحذركم) الله أى يحذركم نفسه يوم تجد. الثانى- بالمصير و تقديره و إلى الله المصير يوم تجد . الثالث- اذكر يوم تجد. و قوله: «ما عملت» معنى (ما) هاهنا الذى لأنه عمل فيها (تجد) و تكون فى موضع نصب. و يحتمل أيضاً أن تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر، و تقديره: يوم تجد كل نفس عملها، بمعنى جزاء عملها. و قوله: «و ما عملت» يجوز أن تكون (ما) بمعنى الذى، و يقوى ذلك قوله : «تود» بالرفع و يجوز أن يكون بمعنى الجزاء، و تود على هذا يحتمل أن يكون مفتوحاً أو مكسوراً. و الرفع جائز على ضعف.

المعنى:

و معنى تجد النفس عملها يحتمل أمرين : أحدهما- جزاء عملها من الثواب أو العقاب . الثانى- تجد بيان عملها بما ترى من صفات الحسنات، و السيئات.

و حكم الآية جار على فريقين ولى الله و عدوه، فأحدها يرى حسناته، و الآخر يرى سيئاته . و يحتمل أيضاً أن يكون متناولاً لمن جمع بين الطاعة و المعصية، فان من جمع بينها فانه يرى استحقاقه للعقاب على معاصيه حاصلًا، فانه يود أيضاً أنه لم يكن فعلها. و الأمد الغاية التى ينتهى إليها قال الطرماح:

كل حى مستكمل عدة العمر و مردّ إذا انقضى أمده

أى غاية أجله. فان قيل كيف يتصل التحذير بالرأفة؟ قيل: قال الحسن:

إن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه، و قد بينا أن معنى قوله «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» عذابه. و فسرنا معنى رؤوف فى ما مضى . و إن معناه رحيم بعباده.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣١]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)

ص: ٤٣٨

آية.

النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل الكتاب، قالوا : نحن الذين نحب ربنا فجعل الله تصديق ذلك اتباع رسله . هذا قول الحسن و ابن جريج. و قال محمد بن جعفر بن الزبير: إنها نزلت فى وفد نجران من النصارى.

اللغة:

و المحبة: هى الارادة إلا أنها تضاف إلى المراد تارة، و إلى متعلق المراد أخرى نحو أن تقول : أحب زيداً و أحب إكرام زيد، و لا تقول فى الارادة ذلك لأنك تقول : أريد إكرام زيد، و لا تقول أريد ز يداً. و إنما كان كذلك لقوة تصرف المحبة فى موضع مثل الطباع الذى يجرى مجرى الشهوة، فعوملت تلك المعاملة فى الاضافة و محبة الله للعبد هى ارادته لثوابه و محبة العبد لله هى ارادته لطاعاته.

القراءة، و الحجة، و الاعراب:

و قوله: (فاتبعوني) أثبتت الياء فيه بلا خلاف، لأنها في وسط آية و حذفت من قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» لأنها رأس آية نوى بها الوقف لتشاكل رءوس الآي، لأن سبيل الفواصل سبيل القوافي . و قيل أحببت فلاناً، فهو محبوب، فجاء مفعول للاستغناء به عن حبيب حتى صار ذلك مهماً، و قد جاء على الأصل قول عنيتة:

و لقد نزلت فلا تظني غيره
منى بمنزلة المحب المكرم «1»

و قد حكى الزجاج عن الكسائي (حبيب) من الثلاثي، و أجاز القراءة بفتح

(١) معلقته الشهيرة و غيرها.

ص: ٤٣٩

التاء غير أنه قال هذه لغة قد ماتت. و قول: (وَيَغْفِرُ لَكُمْ) لا يجوز في القياس إدغام الراء في اللام كما جاز إدغام اللام في الراء في هل رأيت، لأن الراء مكررة، و لا يدغم الزائد في الناقص للإخلال به، و قياسها في ذلك قياس الضاد، لأنه يجوز هل ضربت بالإدغام و لا يجوز انقض له إلا بالإظهار لما في الضاد من الاستطالة، و قال الزجاج: روى عن أبي عمرو إدغام الراء في اللام، و غلظ عليه لأنه خطأ فاحش بإجماع علماء النحويين: الموثوق بهم، و أجاز الفراء إدغامها في اللام كما يجوز إدغام الياء في الميم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٢]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

آية بلا خلاف.

قال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت هذه الآية في وفد نجران، و فيها دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لأنه قال لا يحب الكافرين و معنى لا يحبهم لا يريد ثوابهم من أجل كفرهم، فاذن لا يريد كفرهم، لأنه لو أراد لم يكن نفى محبته لكفرهم، و الطاعة إتباع الداعي فيما دعا إليه بأمره أو إرادته، و لذلك قد يكون الإنسان مطيعاً للشيطان فيما يدعوه إليه، و إن لم يقصد أن يطيعه، لأنه إذا مال مع ما يجده في نفسه من الدعاء إلى المعصية، فقد أطاع الداعي إليها. فان قيل ما الفرق بين الطاعة و موافقة الارادة؟ قيل: موافقة الارادة قد تكون طاعة، و قد تكون غير طاعة إذا لم تقع موقع الداعي إلى الفعل نحو ارادتي، لأن يتصدق زيد بدرهم من غير أن يشعر بذلك، فلا يكون بفعله مطيعاً لى و لو فعله من أجل إرادتي لكان مطيعاً و كذلك لو أحسن بدعائي إلى ذلك فمال معه . و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» معناه أنه يبغضهم و لا يريد ثوابهم، فدل بالنفي على الإثبات و كان

ذلك أبلغ، لأنه لو قال إنه يبغضهم لجاز أن يتوهم أنه يبغضهم من وجه و يحبهم من وجه كما يعلم الشيء من وجه، و يجهل من وجه، فإذا قيل لا يعلمه

ص: ٤٤٠

لم يحتمل الوجوه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٣]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)
آية واحدة.

معنى اصطفي: اختار و اجتنبى و أصله من الصفوة، و هذا من حسن البيان الذى يمثل فيه المعلوم بالمرئى و ذلك أن الصافى هو النقى من شائب الكدر فيما يشاهد فمثل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم الله ذلك من حالهم لأنهم كخلوص الصافى من شائب الأدناس. فان قيل: بما ذا اختارهم أ باختيار دينهم أو بغيره؟

قيل فيه ثلاث أقوال:

أحدها - بمعنى أنه اختار دينهم و اصطفاه، كما قال: «وَسُئِلَ الرَّسُولُ» (١) و هذا قول الفراء:

و [الثانى] قال الزجاج و اختاره الجبائى: انه اختارهم للنبوة على عالمى زمانهم.

الثالث - قال البلخى: بالترفضيل على غيرهم بما رتبهم على من الأمور الجليلة، لم فى ذلك من المصلحة.

و الاصطفاء هو الاختصاص بحال خالصة من الأدناس . و يقال ذلك على وجهين . يقال: اصطفاه لنفسه أى جعله خالصاً له يختص به . و الثانى - اصطفاه على غيره أى اختصه بالترفضيل على غيره و هو معنى الآية فان قيل : كيف يجوز اختصاصهم بالترفضيل قبل العمل؟ قيل : إذا كان فى المعلوم أن صلاح الخلق لا يتم إلا بتقديم الاعلام لذلك بما قدم من البشارة بهم، و الاخبار بما يكون من حسن أفعالهم و التشويق إليهم بما يكون من جلالتهم إلى غيره من الآيات التى تشهد لهم، و القوى فى العقول و الافهام التى كانت لهم، و جب فى الحكمة تقديم ذلك لما فيه

(١) سورة يوسف آية: ٨٢.

ص: ٤٤١

من حسن التدبير.

فان قيل: من آل ابراهيم؟ قيل: قال ابن عباس، و الحسن: هم المؤمنون الذين على دينه، فيكون بمعنى اختصهم بميزة كانت منهم على عالمي زمانهم. و قيل:

آل عمران هم آل ابراهيم كما قال: «ذُرِّيَّةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» فهم موسى و هرون ابنا عمران . و قال الحسن: آل عمران المسيح، لأن أمه مريم بنت عمران. و فى قراءة أهل البيت «و آل محمد على العالمين». و قال أيضاً: إن آل إبراهيم: هم آل محمد الذين هم أهلهم. و قد بينا فيما مضى أن الآل بمعنى الأهل. و الآية تدل على أن الذين اصطفاهم معصومون منزهون، لأنه لا يختار و لا يصطفى إلا من كان كذلك، و يكون ظاهره و باطنه واحداً، فإذا يجب أن يختص الاصطفاء بآل إبراهيم و آل عمران من كان مرضياً معصوماً سواء كان نبياً أو إماماً.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٤]

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

اللغة، و الاعراب:

وزن ذرية فعلية، مثل قمرية. و يحتمل أن يكون على وزن فعلولة. و أصله ذرورة إلا أنه كره التضعيف، فقلبت الراء الأخيرة ياء، فصار ذروية و قلبت الواو للياء التى بعدها ياء و أدغمت إحداهما فى الاخرى، فصار ذرية . قال الزجاج: و الاول أجود و أقيس. و يحتمل نصبها وجهين:

أحدهما- أن يكون حالا و العامل فيها اصطفى. و الثانى- أن يكون على البدل من مفعول اصطفى.

المعنى:

و معنى قوله: «بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» أى فى الاجتماع على الصواب. قال الحسن:

ص: ٤٤٢

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» «١» فى الاجتماع على الهدى. و به قال قتادة. الثانى - قال الجبائى و غيره:

إنه فى التناسل إذ جميعهم ذرية آدم، ثم ذرية نوح، ثم ذرية إبراهيم، و هو المروى عن أبى عبد الله (ع)

، لأنه قال الذين اصطفاهم الله بعضهم من نسل بعض. و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» قيل فيه قولان:

أحدهما - أنه سميع لما تقوله الذرية عليهم بما تضرره، فلذلك فضلها على غيرها لما في معلومه من استقامتها في قولها، و فعلها .
و الثاني - سميع لما تقوله امرأة عمران من قوله : «إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا» عليهم بما تضرره ليدل على أنه لا يضيع
لها شيء من جزاء عملها و نبه بذلك على استحسان ذلك منها، لأن قول القائل قد علمت ما فعلت يجرى في الوعد و الوعيد
معاً على حد واحد.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٥]

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

آية واحدة بلا خلاف.

الاعراب، و المعنى:

امرأة عمران المذكورة في الآية هي أم مريم بنت عمران أم المسيح، و قيل أن اسمها كانت حنة . و (إذ) تدل على ما مضى . و
قيل فيما يتعلق به (إذ) أربعة أقوال:

أحدها - قال الأخفش و المبرد: أنه اذكر إذ قالت.

الثاني - قال الزجاج: انه متعلق باصطفى آل عمران إذا قالت.

الثالث - يتعلق بسميع عليهم إذ قالت، فيعمل فيه معنى الصفتين على تقدير مدرك لنيتها و قولها إذ قالت ذكره الرماني .

الرابع - قال أبو عبيدة: ان (إذ) زائدة، فلا موضع لها من الاعراب

(١) سورة التوبة آية: ٧٢.

ص: ٤٤٣

و هذا خطأ عند البصريين. و قوله: «نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا» فالنذر قد بيناه فيما مضى، و هو قول القائل: لله على كذا و
كذا. و قيل في معنى «محراً» ثلاثة أقوال: أحدها - قال الشعبي: معناه مخلصاً للعبادة. و قال مجاهد: خادماً للبيعة. و قال محمد
بن جعفر بن الزبير: عتيقاً من الدنيا لطاعة الله.

اللغة:

و معنى (محراً) في اللغة يحتمل أمرين: أحدهما - معتق من الحرية.

تقول: حررته تحريراً: إذا اعتقته أى جعلته حراً . الثانى - من تحرير الكتاب و هو إخلاصه من الضرر و الفساد . و أصل الباب الحرارة، لأن الحر يحمى فى مواضع الانفث . فالمحرر يخلص من الاضطراب كما يخلص حرارة النار الذهب و نحوه من شائبة الفساد، و هو نصب على الحال من (ما) و تقديره نذرت لك الذى فى بطنى محرراً و العامل فيه نذرت.

و قوله: «فَتَقَبَّلَ مِنِّي» فأصل التقبل المقابلة، و ذلك للاعتداد بالشىء فيما يقابل بالجزاء عليه . و تقبل الصنيع مشبه بتقبل الهدية من جهة أخذه دون رده.

و قوله «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» معناه السميع لما أقول العليم بما أنوى، فلهذا صحت الثقة لى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٦]

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)

آية بلا خلاف.

القراءة، و المعنى:

قرأ (و الله أعلم بما وضعت) ابن عامر، و أبو عمرو عن عاصم، و يعقوب

ص: ٢٢٢

بمعنى قولى (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ) قيل: فيه قولان:

أحدهما - الاعتذار من العدول عن النذر، لأنها أنثى . الثانى - تقديم الذكر فى السؤال لها بأنها أنثى و ذلك ان عيب الأنثى أفضح، و هو إليها أسرع، و سعيها أضعف، و عقلها أنقص فقدمت ذكر الأنثى ليصح القصد لها فى السؤال على هذا الوجه.

و قوله: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ» اعتذار بأن الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر، و إنما كان يجوز لهم التحرير فى الذكور دون الإناث، لأنها لا تصلح لما يصلح له الذكر من التحرير لخدمة المسجد المقدس، لما يلحقها من الحيض و النفاس، و الصيانة عن التبرج للناس. و قال قتادة: لم يكن التحرير إلا للغلمان فيما جرت به العادة. و الهاء فى قوله: «وضعتها» يحتمل أن يكون كناية عن (ما) فى قوله «نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي» و جاز ذلك لوقوع (ما) على مؤنث. و يحتمل أن يكون كناية عن معلوم قد دل عليه الكلام.

اللغة:

و أصل الوضع : الحط . وضعه يضعه وضعاً . و وضعت بمعنى ولدت أى وضعت الولد . و منه الموضع : مكان الوضع . و التواضع : خلاف التكبر لأنه وضع العبد من نفسه . و الضعة : الخساسة لأنها تضع من قدر صاحبها . و الوضيعة : ذهاب شيء من رأس المال . و المواضعة : المواهبة في التباع لوضع ما ينفق عليه في ذلك .

و الإيضاع في السير : الرفق فيه لأنه حط عن شدة الاسراع . و منه قوله تعالى :

«وَلَا وَضِعُوا خِلَالَكُمْ» (١) و أصل الباب : الحط .

المعنى :

فان قيل هل يجوز أن تقول : و الله أعلم بأن الجسم محدث من زيد العالم به ، كما قالت : «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ» ؟ قيل : لا يجوز لأن علم كل واحد منهما يجوز أن ينقلب عنه إلى خلافه ، و ليس كذلك بأنه يعلم الله ، و أفعل من كذا إنما يقال للمبالغة في الصفة . و من ضم التاء جعل ذلك من كلام أم مريم على وجه

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .

ص : ٢٤٥

التسبيح و الانقطاع إليه تعالى كما يقول القائل : قد كان كذا و كذا ، و أنت تعلم لا على وجه الاعلام بل على ما قلناه . و اسكان التاء أجود لامرين : أحدهما - أن قولها «إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْتَى» قد أغنى عن ذلك . و الثانى - أنه كان يجب أن تقول و أنت أعلم ، لأنها تخاطب الله تعالى .

و قوله : «وَأِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» قيل في معناه قولان : أحدهما

الاستعاذة من طعن الشيطان للطفل الذى له يستهل صارخاً ، فوقها الله عز و جل و ولدها عيسى منه بحجاب على ما رواه أبو هريرة عن النبي (ص)

الثانى - قال الحسن انها استعاذت من إغواء الشيطان .

اللغة :

و الرجيم بمعنى الموجود بالشبهة و أصل الرجم : الرمي بالحجارة رجم يرمي رجماً و الرجم القذف بالغيب لأنه رمى العبد به . و منه (لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا) (١) و الرجم الاخبار عن الظن لأنه رمى بالخبر لا عن يقين . و منه «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» (٢) و الرجوم النجوم ، لأن من شأنها أن يرمى بها الشياطين و منه قوله : «وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ» (٣) . و الرجام القبور التى

عليها الحجارة. و المراجعة المبارءة فى الكلام، و العمل له من كل واحد من النفيسين لرمى صاحبه بما يكيده و أصل الباب الرمى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٧]

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

(١) سورة مريم آية: ٤٦.

(٢) سورة الكهف آية: ٢٣.

(٣) سورة الملك آية: ٥.

ص: ٤٤٦

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة، و المعنى، و اللغة:

قرأ أهل الكوفة «كفلها» بالتشديد. الباقون بالتخفيف. و التخفيف أليق بقوله «أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» «١» و قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر (زكريا) مقصوراً.

الباقون بالمد. و نصب (زكرياء) مع المد أبو بكر. الباقون بالرفع.

قوله: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ» معناه رضيها فى النذر الذى نذرتة بالإخلاص للعبادة فى بيت المقدس، و لم يقبل قبلها أنثى فى ذلك المعنى. و إنما جاء مصدر تقبلها على القبول دون التقبل، لأن فيه معنى قبلها. و قال أبو عمرو:

لا نظير للقبول فى المصادر، ففتح فاء الفعل و الباب كله مضموم الفاء كالدخول، و الخروج، و قال سيبويه: جاءت خمسة مصادر على فعول: قبول، و وضوح، و ظهور، و ولوغ، و وقود إلا أن الأكثر فى وقود الضم إذا أريد المصدر.

و أجاز الزجاج فى القبول الضم.

و قوله: «وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا» معناه أنشأها إنشاءً حسناً فى عذابها و حسن تربيتها . و الكفل تضمن مؤنة الإنسان كفلته أكفله كفلاً فأنا كافل:

إذا تكلفت مؤنته. و منه «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» و من قرأ بالتثقيل فمعناه كفّلها الله زكريا و الكفيل: الضامن. و الكفل: مؤخر العجز. و الكفل من الرجال الذى يكون فى مؤخر الحرب همته الفرار. و الكفل النصيب.

و منه قوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» «٢» و قوله: «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» «٣» و أصل الباب التأخر فمنه الكفالة الضمان. و فى زكريا ثلاث لغات: المد، و القصر. و قد قرئ بهما و زكريّ بالياء المشددة و أحكامها مختلفة

(١) سورة آل عمران آية: ٤٤.

(٢) سورة الحديد آية: ٢٨.

(٣) سورة النساء آية: ٨٤.

ص: ٤٤٧

فى الجمع. و التثنية، فمن مد قال فى التثنية: زكرياوان. و فى الجمع زكرياوون.

و من قصر قال فى التثنية زكريان. و فى الجمع زكريون. و الذى بالياء زكريان فى التثنية، و زكريون فى الجمع، و زكرياء بالمد لا يجوز صرفه لأن فيه ألفى التانيث.

و من قال: لأنه أعجمى معرفة يلزمه إذا نكر أن يصرفه، و هذا لا يجوز. و أما زكري، فانه ينصرف لأنه نأ النسب خرج إلى شبه العربى كما خرج مدائنى إلى شبه الواحد على قول المبرد. و المحراب: مقام الامام من المسجد و أصله أكرم موضع فى المجلس و أشرفه قال عدى بن زيد العبادى:

كدمى العجاج فى المحاريب أو كالبيض فى الروض زهره مستنير¹»

و قيل هو المكان العالى ذكره الزجاج قال الشاعر:

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقى سلما²»

و قوله: «وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا»، فالرزق هو ما للإنسان، الانتفاع به على وجه ليس لأحد منعه.

المعنى:

وقيل إنه كان فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف في قول ابن عباس، و مجاهد، و قتادة، و السدي، و ابن اسحق. و قال: تكلمت في المهد، و لم تلقم ثدياً قط، و إنما كان يأتيها رزقها من الجنة، و هذه تكرمة من الله تعالى لها. و عندنا يجوز فعل ذلك بالأولياء و الصالحين، و إن لم يكونوا أنبياء . و من منع منه قالوا فيه قولين : أحدهما - أن ذلك كان آية لدعوة زكريا لها بالرزق في الجملة.

و الثاني - قال قوم: هو تأسيس لنبوة المسيح، و الأول قول الجبائي . و اختار وجهاً آخر أن يكون الله (تعالى) سخر لها بعض عباده أن يأتيها به بلطفه على مجرى

(١) ديوانه في شعراء الجاهلية: ٤٥٥. يصف نساء يقول: هن كتماثيل العاج في محارب المعابد . و البيض: يعنى بيض النعام. و الروض جمع روضة و هى البستان.

(٢) قائله وضاح اليمنى اللسان (حرب). و قد استشهد به على أن المحراب صدر البيت، و أكرم موضع فيه، و الجمع المحارب.

ص: ٤٤٨

العادة، و لا يكون معجزاً، و هذا خلاف جميع أقوال المفسرين، لأنهم كلهم قالوا لما رأى زكريا ذلك قال : الذى يقدر على أن يأتي مريم بالرزق يقدر أن يخلق الولد من امرأة عاقر، فهناك سأله أن يرزقه ولداً . و يحتمل إيصال قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» بما تقدم من وجهين: أحدهما - أن يكون حكاية لقول مريم. و الثانى - أن يكون استئنافاً من الله الاخبار به. و الأولى أن يكون على الاستئناف، لأنه ليس من معنى الجواب عما سئلت عنه فى شيء. و قال الحسن:

هو على الحكاية. و قوله: «بغير حساب» معناه بغير حساب الاستحقاق على العمل، لأنه تفضل يتدنى الله به من يشاء من خلقه. و يحتمل أن يكون المراد بغير تقتير كما يحسب الذى يخاف الاملاق. و قد بينا فيما مضى معنى (أنى) و أن معناه من أين لك. و قال قوم معناه كيف لك. و الأول أظهر.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٨]

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

آية واحدة.

اللغة و المعنى:

معنى هنالك: عند ذلك. و الأصل فيه الطرف من المكان نحو رأيته هنا و هناك، و هنالك، و الفصل بينهما، القرب و البعد، فهنا للقریب و هنالك للبعید، و هناك لما بينهما. و قال الزجاج: و يستعمل فى الحال كقوله من هاهنا قلت: كذا أى من هذا الوجه. و فيه معنى الإشارة كقولك : ذا، و ذاك . و زيدت اللام لتأكيد التعريف، لأن الأصل فى زيادتها الت عريف إلا أنها كسرت لالتقاء الساكنين كما كسرت فى ذلك. و لا يجوز إعرابها، لأن فيها معنى الحرف.

و معنى الآية عند ذلك الذى رأى من فاكهة الصيف فى الشتاء، و فاكهة الشتاء فى الصيف على خلاف ما جرت به العادة، طمع فى رزق الولد من العاقر

ص: ٢٢٩

على خلاف مجرى العادة، فسأل ذلك. و زكريا (ع) و إن كان عالماً بأنه تعالى يقدر على خلق الولد من العاقر، و إن لم تجر به العادة، فانه كان يجوز ألا يفعل ذلك لبعض التدبير، فلما رأى خرق العادة بخلق الفاكهة فى غير وقتها قوى ظنه أنه يفعل ذلك:

إذا اقتضت المصلحة، و قوى فى نفسه ما كان علمه، كما أن ابراهيم و إن كان عالماً بأنه (تعالى) يقدر على إحياء الميت سأل ذلك مشاهدة لتأكد معرفته و تزول عنه خواطره. و قال الجبائى: إن الله تعالى كان أذن له فى المسألة و جعل وقته الذى أذن له فيه الوقت الذى رأى فيه المعجزة الظاهرة فلذلك دعا.

و قوله: «قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» فالهبة تمليك الشئ من غير ثمن تقول : وهب يهب، فهو واهب و الشئ ء موهوب، و تواهبوا الأمر بينهما تواهباً، و استوهبه استيهاباً . و قوله من لدنك معناه من عندك و إنما بنى و لم يبين عند، لأنه استبهم استبهم الحروف، لأنه لا يقع فى جواب أين كما يقع عند نحو قوله أين زيد فتقول عندك، و لا تقول لدنك . «ذرية» تقع على الجمع، و الواحد. و قيل أن المراد هاهنا واحد لقوله «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» «١» و أما بمعنى الجمع، فمثل قوله: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» «٢» و قوله: «طيبة» قال السدى معناه مباركة . و إنما أنت طيبة، و هو سأل ولداً ذكراً على تأنيث الذرية كما قال الشاعر:

و أنت خليفة ذاك بالكمال «3»

أبوك خليفة ولدته أخرى

و قال آخر:

سكات إذا ما عاض ليس بأدردا «4»

فما ندرى من حية جبلية

فجمع التأنيث، و التذكير فى بيت واحد مرة على اللفظ، و مرة على المعنى.

(١) سورة مريم آية: ٤.

(٢) سورة الاسراء آية: ٣.

(٣) اللسان: (خلف)، و معانى القرآن للفراء ١: ٢٠٨.

(٤) اللسان: (سكت)، و معانى القرآن للفراء ١: ٢٠٨. الحية الجبليّة لسعها أشد.

و حية سكوت و سكات - بضم السين -: إذا لم يشعر الملسوع بها حتى تلسعه . و الأردد: الذى سقطت أسنانه، فلم يبق فى فمه سن. يصف رجلا داهيةً شبهه بالحية الجبليّة السكوت.

ص: ٤٥٠

و إنما يجوز هذا فى أسماء الأجناس دون الاعلام نحو طلحة، و حمزة، و عنترة، لا يجوز أن تقول جاءت طلحة من قبل أن التذكير الحقيقى يغلب على تأنيث اللفظ فأما قوله:

و عنترة الفيحاء جاءت ملاماً كأنك فند من عماية أسود

فإنما أراد شفه عنترة، فحذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه. و قوله:

«إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» معناه سامع الدعاء بمعنى قابل الدعاء . و منه قول القائل : سمع الله لمن حمده أى قبل الله دعاه و أصل السمع ادراك المسموع و إنما قيل للقابل سامع لأن من كان أهلاً أن يسمع منه فهو أهل أن يقبل منه خلاف من لا يعتد بكلامه فكلامه بمنزلة ما لم يسمع.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٣٩]

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى
مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ (٣٩)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمزة و الكسائي و خلف «فناداه الملائكة» على التذكير، و الامالة. الباكون على التأنيث، فالأول على المعنى، و الثاني على اللفظ. وقرأ حمزة و ابن عامر «إن الله» بكسر الهمزة على الحكاية. الباكون بفتحها على اعمال المناداة، و تقديره نادته بأن الله. وقرأ حمزة و الكسائي «يبشرك» بفتح الياء و تخفيف الشين و ضمها. الباكون بضم الياء و تشديد الشين.

المعنى و اللغة:

و قال السدى الذى نادى زكريا جبريل وحده، فعلى هذا يكون ذهب مذهب

ص: ٤٥١

الجمع كما يقولون: ذهب فى السفن و إنما خرج فى سفينة و خرج على البغال و إنما ركب بغلا واحداً. و قال غيره: ناداه جماعة من الملائكة كأنه قيل: النداء جاء من قبل الملائكة و إنما جاز ذلك لعادة جارية نحو قولهم: ناداه أهل العسكر، و ناداه أهل البلد. و قوله: «وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي» جملة فى موضع الحال. و قوله: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ» فى بشره من البشرى ثلاث لغات: بشره يبشره و بشره يبشره بشراً، و أبشره بشاراً عن أبى العباس. وقرأ حميد «يبشرك» من أبشر، و كل ذلك لظهور السرور فى بشره الوجه. و قيل إن المتقل من البشارة، و المخفف من السرور، و المعنيان متقاربان. و أنشد الأخفش:

و إذا لقيت الباهشين إلى الردى غبراً أكفهم بقاع محل

فأعنتهم و ابشر بما بشروا به و إذا هم نزلوا بضنك فانزل¹

قال الزجاج هذا على بشر يبشر إذا فرح. و أصل هذا كله أن بشره الإنسان تنبسط عند السرور. و قوله: (يبحيى) قال قتادة سمي يبحيى، لأن الله تعالى أحياه بالايامن سماه الله بهذا الاسم قبل مولده.

و قوله: (مصدقاً) نصب على الحال من يحيى «بكلمة» يعنى المسيح (ع) فى قول ابن عباس، و مجاهد، و قتادة، و الربيع، و الضحاك، و السدى و جميع أهل التأويل إلا ما حكى عن أبى عبيدة أنه قال «بكلمة» أى بكتاب الله كما يقولون أنشدنى فلان كلمة فلان أى قصيدته و إن طالت، و إنما سمي المسيح كلمة الله لامرئ:

أحدهما- أنه كان بكلمة الله من غير أب من ولد آدم.

و الثانى - لأن الناس يهتدون به فى الدين كما يهتدون بكلام الله.

و قوله: «و سيداً» يعنى مالكا لمن يجب عليه طاعته، و من ذلك سيد الغلام

(١) قائله عبد قيس بن خفاف البرجمى . اللسان: (كرب)، (بشر)، (يسر)، معانى القرآن للفراء ١: ٢١٢ و البيتان من قصيدة ينصح بها ولده جبيل. و رواية المصادر مختلفة. البهش: الفرح. بهش الى الشىء: فرح به و أسرع اليه. الندى: الكرم. المحل:

المجذب. الضنك: الضيق.

ص: ٤٥٢

يعنى مالكة، و لا يقال سيد الثوب بمعنى مالك الثوب، لأنه لا يتصور هناك وجوب طاعته . و أصل السواد الشخص، فقييل سيد القوم بمعنى مالك السواد الأعظم، و هو الشخص الذى تجب طاعته لمالكة، و هذا إذا قيل مضافاً أو مقيداً فأما إذا اطلق فلا يخفى إلا لله تعالى، لأنه المالك لجميع الخلق. و قيل: معناه هاهنا و سيداً فى العلم و العبادة فى قول قتادة. و قال الجبائى: معناه و سيداً للمؤمنين بالرئاسة لهم . و قال الضحاک: سيداً فى الحلم و التقى . و قيل سواد الإنسان لشخصه، لأنه يستتر به لستر سواد الظلمة بتكلفه، و تسوله . «و حصورا» معناه الممتنع من الجماع.

و منه قيل للذى يمتنع أن يخرج مع ندمائه شيئاً للنفقة حصور قال الأخطل:

و شارب مريح بالكأس نادمنى لا بالحصور و لا فيها بسوار¹»

يعنى معربد و يقال للذى يكتنم سره حصور و يقال : حصر فى قراءته إذا امتنع بالانقطاع فيها. و منه حصر العدو منعه الناس من التصرف. و قال عبد الله:

الحصور العينين. و قال سعيد بن المسيب إنما كان معه مثل هذب الثوب. و قال الحسن، و قتادة

هو الذى لا يأتى النساء، و هو المروى عن أبى عبد الله (ع)

، و قال بعضهم هو الذى لا يبالى ألا يأتى ا نساء. و قوله: «و نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (من) هاهنا لتبيين الصفة ليس المراد به التبويض، لأن النبى لا يكون إلا صالحاً.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٠]

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

(١) ديوانه: ١١٦، و اللسان: (حصر)، (سأر)، (سور)، و طبقات فحول الشعراء : ٤٣٢، و مجاز القرآن ١: ٩٢. المريح: المعطى
الريح للتاجر.

يريد أنه يغالى بثمرن الخمر و لا يبالي بما يبذل فيها. و السوار: الذى تسور الخمر فى دماغه فيعربد على رفاقه.

ص: ٤٥٣

المعنى:

إن قيل لم راجع هذه المراجعة مع ما بشره الله تعالى بأنه يهب له ذرية طيبة، و بعد أن سأل ذلك؟ قيل : إنما راجع ليعرف على أى حال يكون ذلك أ يرده إلى حال الشباب و امرأته، أم مع الكبر، فقال الله (تعالى) «كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» أى على هذه الحال، و تقديره كذلك الأمر الذى أنت عليه «يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» هذا قاله الحسن . و قيل فى وجه آخر، و هو أنه قال على وجه الاستعظام لمقدور الله و التعجب الذى يحدث للإنسان عند ظهور آية عظيمة من آيات الله، كما يقول القائل : كيف سمحت نفسك بإخراج الملك النفيس من يدك تعجباً من جوده، و اعترافاً بعظمه . و قال بعضهم : إن ذلك إنما كان للوسوسة التى خالطت قلبه من قبل الشيطان حتى خيلت إليه أن النداء كان من غير الملائكة . و هذا لا يجوز، لأن النداء كان على وجه الاعجاز على عادة الملك فيما يأتى به من الوحي عن الله، و الأنبياء (ع) لا يجوز عليهم تلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الافهام، فلا يعرفوا نداء ملك من نداء شيطان أو انسان.

اللغة:

و الغلام: هو الشباب من الناس. يقال: غلام بين الغلومية و الغلومة و الغلمة.

و الاغتلام: شدة طلب النكاح . و الغيلم «١» منع الماء من الآبار، لأنه طلب الظهور . و غلم الأديم جعله فى غلمة ليتفسخ عنه صوفه، لأنه طلب لتقطعه.

و قوله: «وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ» و المراد بلغت الكبر، لأن الكبر بمنزلة الطالب له، فهو يأتى به حدوثه فيه . و الإنسان أيضاً يأتى به مرور السنين عليه، كما يقول القائل:

يقطعنى الثوب . و إنما هو يقطع الثوب . و لا يجوز أن يقول بلغنى البلد بمعنى بلغت البلد، لأن البلد لا يأتىه أصلاً . و قوله: «وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ» فالعافر من النساء التى لا تلد. يقال: امرأة عاقر، و رجل عاقر. و قال عامر بن الطفيل:

(١) الضفدع. ذكر السلحفاة: الشاب الكثير الشعر.

ص: ٤٥٤

لبئس الفتى ان كنت أعور عاقرا جباناً فما عذرى لدى كل محضر»¹

و ذلك لأنه كالذى حدث به عقر يقعده عما يحاول من الامر . و عقر كل شىء أصله. و عقر العاقر المصدر. و العقر: دية فرج المرأة؛ إذا غصبت نفسها و بيضة العقر آخر بيضة. و العقر: الجرح. و العقر: محلة القوم. و العاقر معروف.

و العقار الخمر. و المعاقره إدمان شربها مع أهلها. و أصل الباب: العقر الذى هو أصل كل شىء، فعقر العاقر لانقطاع أصل النسل.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤١]

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

الآية: العلامة و إنما سأل العلامة، و الآية لوقت الحمل الذى سأل ربه ليتعجل السرور به فى قول الحسن، فجعل الله تعالى آيته فى إمساك لسانه، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا إيماء من غير آفة حدثت فى لسانه، كما يقال فى مريم «ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا» هذا قول الحسن، و قتادة، و الربيع، و أكثر المفسرين.

اللغة:

و فى وزن «آية» ثلاثة أقوال:

أحدها- فعلة إلا أنه شذ من جهة إعلال العين مع كون اللام حرف علة.

و إنما القياس فى مثله أعلال اللام نحو حياة و نواء. و نظيرها راية و طاية، و شذ ذلك، للاشعار بقوة اعلال العين.

الثانى - فعلة آية إلا أنها قلبت كراهية التضعيف نحو طأى فى طيى.

(١) ديوانه: ١١٩ و مجاز القرآن ١: ٩٢ فى المطبوعة (اغدر) بدل (اعور).

و عامر بن الطفيل أحد العوران. ذهبت عينه يوم فيف الريح و أما عقمه، فقد قال : ما لى ولد و انى لعاهر الذكر، و انى لأعور البصر.

ص: ٤٥٥

الثالث - فاعلة منقوصة و هذا ضعيف، لأنهم صغروها أيبئة و لو كانت فاعلة لقالوا أويئة إلا أنه يجوز على ترخيم التصغير نحو فطيمة. «و الرمز» الإيماء بالشفيتين. و قد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين، و العينين و اليدين. و الاول أغلب.

قال جؤيئة بن عائد:

و كان تكلم الابطال رمزا
و غمغمة لهم مثل الهرير«1»

يقال منه: رمز يرمز رمزا. و يقال: ارتمز: إذا تحرك. و أصله الحركة.

المعنى، و اللغة:

و قال مجاهد: الرمز تحريك الشفتين. و قال قتادة الرمز الاشارة. و قوله:

«وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا» معناه أنه لما منع من كلام الناس عرف أنه لا يمنع من الذكر لله و التسبيح له، و ذلك أعظم الآيئة و أبين المعجزة. و قوله: «سبح» معناه هاهنا صل يقال فرغت من سبحتى أى من صلاتى . و أصل التسبيح التعظيم لله و تنزيهه عما لا يليق به. و العشى من حين زوال الشمس إلى غروب الشمس فى قول مجاهد. قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحى يستطيعه
و لا الغى من برد العشى تذوق

و العشاء من لدن غروب الشمس إلى أن يولى صدر الليل. و العشاء طعام العشى.

و العشا ضعف العين و التعاشى: التعامى، لابهام أنه بمنزلة من هو فى ظلمة لا يبصر و أصل الباب الظلمة . و الأبكاء من حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى. و أصله التعجيل بالشىء يقال: أبكر ابكاراً و بكر يبكر بكوراً. و قال عمر بن أبى ربيعة:

أمن آل نعم أنت عاد فمبكر«2»

و قال جرير:

ألا بكرت سلمى فجذ بكورها
و شق العصا بعد اجتماع أميرها «3»

(١) لم نجد هذا البيت. في المطبوعة (كأن) بدل (و كان) و الصحيح ما ذكرنا.

(٢) ديوانه مطلع قصيدته الرائية المشهورة و تنمه البيت: غداء غد أم رائح فمهجر.

(٣) ديوانه: ١٣٦. يجيب حكيم بن معية الربيعي، و كان هجا جريراً. شق العصا: التفرق.

ص: ٤٥٦

و يقال في كل شيء تقدم: بكر و منه الباكورة أول ما يجيء من الفاكهة.

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٢]

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)

آية واحدة.

العامل في (إذ) يحتمل أن يكون أحد شيئين:

أحدهما - سميع عليم إذ قالت امرأة عمران. و إذ قالت الملائكة يكون عطفاً على (إذ) الاولى.

الثاني - اذكر إذ قالت، لأن المخاطب في حال تذكير و تعريف. و قوله:

«اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» يحتمل وجهين: قال الحسن و ابن جريج

على عالمي زمانها. و هو قول أبي جعفر (ع)

، لأن فاطمة سيده نساء العالمين.

و روى عن النبي (ص) أنه قال: فضلت خديجةً على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين . و قال أيضاً (ع) حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد (ص).

الثاني - ما قاله الزجاج، و اختاره الجبائي: إن معناه اختارك على نساء العالمين بحال جليئة من ولادة المسيح عيسى (ع).

و قوله: (و طهرک) فى معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن، و مجاهد: طهرک من الکفر.

و الثانى - ذكره الزجاج أن معناه طهرک من سائر الأدناس : الحيض، و النفاس، و غيرهما . و إنما كرر لفظ اصطفاك، لأن معنى الأول اصطفاك بالتفريغ لعبادته بما لطف لك حتى انقطعت إلى طاعته و صرت متوفرة على اتباع مرضاته و معنى الثانى اصطفاك بالاختيار لولادة نبيه عيسى (ع) على قول الجبائي.

و قال أبو جعفر (ع) اصطفأها أولاً من ذرية الأنبياء و طهرها من السفاح.

و الثانى -

ص: ٤٥٧

اصطفأها لولادة عيسى (ع) من غير فعل. و فى ظهور الملائكة لمريم قالوا قولين:

أحدهما - أن ذلك معجزة لذكريا (ع)، لأن مريم لم تكن نبيئة، لقول الله تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» «١». و الثانى - أن يكون ذلك برهاناً لنبوة عيسى (ع) كما كان ظهور الشهب و الغمامة و غير ذلك معجزة للنبي (ص) قبل بعثته، فالأول قول الجبائي، و الثانى قول ابن الأخشاد.

و يجوز عندنا أن يكون ذلك معجزة لها و كرامة، و إن لم تكن نبيئة لأن اظهار المعجزات - عندنا - تجوز على يد الأولياء، و الصالحين، لأنها إنما تدل على صدق من ظهرت على يده سواء كان نبياً أو إماماً أو صالحاً، على أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قال ذلك لمريم على لسان ذكريا (ع). و قد يقال: قال الله لها، و إن كان بواسطة كما تقول: قال الله للخلق كذا و كذا و إن كان على لسان النبي (ص)، و لا يحتاج مع ذلك إلى ما قالوه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٣]

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

آية واحدة بلا خلاف.

قيل فى معنى قوله: «اقتنى» ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سعيد بن جبیر أن معناه اخلصى لربك العبادة . الثانى - قال قتادة معناه اديمى الطاعة . الثالث - قال مجاهد اطلبى القيام فى الصلاة . و أصل القنوت الدوام على الشئ ء و قوله : «و اسجدى» و أصل السجود الانخفاض الشديد للخضوع قال الشاعر:

فكلتاها خرت و اسجد رأسها
كما سجدت نصرانة لم تحنف «2»

و كذلك القول فى الركوع إلا أن السجود أشد انخفاضاً. و قد بينا فيما

(١) سورة يوسف آية: ١٠٩ و سورة النحل آية: ٤٣ و سورة الأنبياء آية: ٧.

(٢) مر تخريجه فى ١: ٢٨١.

ص: ٤٥٨

مضى حقيقته . و إنما قدم ذكر السجود فى الآية على الركوع، لأن النية به التأخير و التقدير اركعى و اسجدى، لأن الواو لا توجب الترتيب، لأنها نظيرة التثنية إذا اتفقت الأسماء و الصفات . تقول جاءنى زيد و عمرو، و لو جمعت بينهما فى الخبر لقلت جاءنى الزيدان . و قوله: (مع الراكعين) فيه قولان: أحدهما - أن معناه افعلى مثل فعلهم . الثانى - قال الجبائى: أى فى صلاة الجماعة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٤]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْجَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)
آية.

المعنى، و اللغة:

ذلك إشارة إلى الاخبار عما تقدم من القصص . و فيه احتجاج على المشركين، من حيث أنه جاء بما لا يعلم إلا من أربعة أوجه: إما مشاهدة الحال، أو قراءة الكتب، أو تعليم بعض العباد، أو بوحي من الله. و قد بطلت الأوجه الثلاثة للعلم بأنها لم تكن حاصلة للنبي (ص)، فصح أنه على الوجه الرابع: بوحي من الله (تعالى). و الإيحاء: هو إلقاء المعنى إلى صاحبه فقوله: «نُوحِيهِ

إِلَيْكَ» أى تلقى معناه اليك. و الإيحاء: الإرسال إلى الأنبياء تقول: أوحى الله إليه أى أرسل إليه ملكا. و الإيحاء الإلهام و منه قوله تعالى «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» «١» أى ألهمها و قوله: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» «٢» معناه ألقى إليها معنى ما أراد فيها. قال العجاج:

(١) سورة النحل آية: ٦٨.

(٢) سورة الزلزال آية: ٥.

ص: ٤٥٩

أوحى لها القرار فاستقرت «1»

و الإيحاء الإيحاء قال الشاعر:

فأوحت إلينا و الأنامل رسالها

و منه قوله: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» «٢» أى أشار إليهم، و الوحي : الكتاب. يقال: وحي يحي وحيأ أى كتب، لأن به يلقى المعنى إلى صاحبه قال رؤبة:

لقدر كان وحاه الواحي

و قال:

فى سور من ربنا موحية

وقال آخر:

من رسم آثار كوحى الواحى

و أصل الباب إلقاء المعنى إلى صاحبه. و قوله: «أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ» «٣» أى ألقى إليهم و ألهمهم إلهاماً. و منه قوله: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ» «٤» أى يلقون إليهم و قوله: «وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ» «٥» أى ألقى إلى. و الغيب: خفاء الشيء عن الإدراك. تقول غاب عني كذا يغيب غيباً و غياباً. و الغائب: نقيض الحاضر.

و قوله: «وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» قيل فيه قولان:

أحدهما- التعجب من حرصهم على كفالتها، لفضلها. ذكره قتادة، لأنه

(١) ديوانه: ٥ و اللسان (وحى) من رجز يذكر فيه ربه و يثنى عليه بآلائه، أوله:

الحمد لله الذى استقلت

بأذنه السماء و اطمأنت

بأذنه الأرض و ما تعنت

أوحى لها القرار فاستقرت

و شدها بالراسيات التبت

رب البلاد و العباد القنت

و فى أحد روايتى اللسان (وحى لها) بدل (أوحى لها).

(٢) سورة مريم آية: ١١.

(٣) سورة المائدة آية: ١١٤.

(٤) سورة الانعام آية: ١٢١.

(٥) سورة الانعام آية: ١٩.

ص: ٤٦٠

قال: فشاح القوم عليها، فقال زكريا: أنا أولى، لأن خالتها عندي. و قال القوم:

نحن أولى لأنها بنت إمامنا، لأن عمران كان إمام الجماعة.

الثاني - التعجب من تدافعهم لكفالتها، لشدة الأزمه التي لحقتهم حتى وفق لها خير الكفلاء بها زكريا (ع). وفي الآية حذف و تقديرها (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ) لينظروا «أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» أى أيهم أحق بكفالتها. و الأقلام معناها هاهنا القداح و ذلك أنهم ألقوها تلقاء الجريه، فاستقبلت عصا زكريا جريه الماء مصعده.

و انحدرت أقلام الباقين، فقرعهم زكريا فى قول الربيع، و كان ذلك معجزه له (ع).

و القلم: الذى يكتب به. و القلم: الذى يجال بين القوم، كل إنسان و قلمه، و هو القدح . و القلم: قص الظفر قلمته تقليماً. و مقالـم الرمح كعوبه. و القلامه هى المقلومه عن طرف الظفر و أصل الباب قطع طرف الشىء.

و قوله: (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) فيه دلالة على أنهم قد بلغوا فى التشاح عليها إلى حد الخصومه، و فى وقت التشاح قولان:

أحدهما - حين ولادتها و حمل أمها إياها إلى الكنيسه تشاحوا فى الذى يخصها و يحضنها و يكفل بتربيتها، و هو الأكثر . و قال بعضهم إنه كان ذلك بعد كبرها و عجز زكريا عن تربيتها.

و (إذ) الأولى متعلقه بقوله: «وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ» و الثانيه بقوله: «يَخْتَصِمُونَ» على قول الزجاج.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٥]

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

آية عند الجميع.

العامل في (إذ) يحتمل أمرين أحدهما - و ما كنت لديهم إذ قالت الملائكة.

الثاني - يختصمون «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ»: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ» فالتبشير إخبار المرء بما يسر

ص: ٤٦١

من الأمر سمي بذلك لظهور السرور في بشرة وجهه عند إخباره بما يسره، لأن أصله البشرة و هي ظاهر الجلد . و قوله: «بِكَلِمَةٍ مِنْهُ» هو المسيح سماه الله كلمة على قول ابن عباس و قتادة و ذلك يحتمل ثلاثة أوجه : سمي بذلك، لأنه كان بكلمة الله من غير والد و هو قوله: «كُنْ فَيَكُونُ» (١). الثاني - لأن الله تعالى بشره في الكتب السالفة، كما تقول: الذي يخبرنا بأمر يكون [إذا خرج موافقاً لأمره] (٢) قد جاء في قول لى و كلامى . فمن البشارة به في التوراة آتانا الله من سبينا، فأشرق من ساعير و استعلن من جبال فاران. و ساعير هو الموضع الذي بعث منه المسيح (ع). الثالث - لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته . و القول الثاني مما قيل في الكلمة: أنها بمعنى البشارة كأنه قيل ببشارة منه: ولد اسمه المسيح و التأويل الأول أقوى، لقوله: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (٣)، و لأنه معلوم من دين المسلمين أن كلمة الله المسيح (ع)، و إنما ذكر الضمير في اسمه و هو عائد إلى الكلمة، لأنه واقع على مذكر، فإذا ذكر ذهب إلى المعنى، و إذا أنث ذهب إلى اللفظ. و قيل في تسمية المسيح مسيحاً: قولان:

أحدهما - قال الحسن، و سعيد : لأنه مُسَح بالبركة . و قال آخرون : لأنه مُسَح بالتطهر من الذنوب . و قال الجبائي سمي بذلك، لأنه مُسَح بدهن زيت بورك فيه . و كانت الأنبياء تتمسح به . فان قيل: يجب على ذلك أن يكون الأنبياء كلهم يسمون مسيحاً؟ قلنا: لا يمتنع أن يختص بذلك بعضهم، و إن كان المعنى في الجميع حاصلاً، كما قالوا في إبراهيم خليل الله . و أصله ممسوح عدل عن مفعول إلى فاعيل. و قوله: (وجيهاً) نصب على الحال. و معنى الوجيه الكريم على من يسأله

(١) سورة البقرة آية: ١١٨ و سورة آل عمران آية: ٤٧ و سورة الانعام آية: ٧٣ و سورة النحل: ٤٠ و سورة مريم آية: ٣٥ و سورة يس آية: ٨٢ و سورة المؤمن آية: ٦٨.

(٢) ما بين القوسين من مجمع البيان و كان في المطبوعة نقص في هذا الموضع كما أن الجملة التي بعدها لا تقرأ.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٧٠.

ص: ٤٦٢

لأنه لا يرده لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، يقال منه وجه الرجل يوجه وجاهة، و له جاه عند الناس وجاهة أى منزلة رفيعة. قوله:

«وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» معناه إلى ثواب الله وكرامته، وكذلك التقرب إلى الله إنما هو التقرب إلى ثوابه وكرامته . و في الآية دلالة على تكذيب اليهود في الفرية على أم المسيح و تكذيب النصارى في ادعاء إلهيته على ما ذكره محمد بن جعفر بن الزبير و غيره.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٦]

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

آية.

الاعراب:

موضع «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ» نصب على الحال عطفاً على (وجيهاً) و مكلماً و كذلك عطف عليه (و كهلاً) بالنصب. و يجوز عطف الفاعل على الفعل لتقارب معنيهما قال الشاعر:

بات يغشاها بعضب باتر يقصد في أسوقها و جائر «1»

أى و يجوز و قال آخر:

يا ليتنى علقت غير خارج قبل الصباح ذات خلق بارج

أم صبي قد حبا أم دارج «2»

أى أو درج و يجوز في قوله: «و كهلاً» أن يكون معطوفاً على الظرف من قوله: «في المهدي».

اللغة:

و المهدي مضجع الصبي في رضاعه في قول ابن عباس، مأخوذ من التمهيد.

(١) معانى القرآن للفراء ٢١٣: ١ و أمالى ابن الشجرى ١٦٧: ٢ و خزائن الأدب ٣٤٥: ٢ و اللسان (كهل) و رواية البيت مختلفة. فبعضها (بت أعشيها).

(٢) هكذا فى المطبوعة و رواية اللسان (درج):

يا ليتنى قد زرت غير خارج أم صبي قد حبا و دارج

ص: ٤٦٣

و الكهل: من كان فوق حال الغلومة، و دون الشيخوخة . و منه اكتهل النبت : إذا طال، و قوى . و منه الكاهل فوق الظهر إلى ما يلي العنق و المرأة كهلة. قال الراجز:

و لا أعود بعدها كريا أمارس الكهلة و الصبيان «1»

و قيل الكهولة بلوغ أربع و ثلاثين سنة. و قال مجاهد: الكهل: الحليم و أصل الباب العلو، فالكهل لعلو سنه، أو لعلو منزلته.

المعنى:

و وجه كلامه فى المهد تبرئة لأمه مما قذفت به، و جلالة له بالمعجزة التى ظهرت فيه . فان قيل: فما معنى «و كهلا» و ليس بمنكر الكلام من الكهل؟ قيل فيه ثلاثة أوجه:

أحدها- يكلمهم كهلا بالوحى الذى يأتبه من قبل الله . الثانى- انه يبلغ حال الكهل فى السن، و فى ذلك أيضاً إعجاز لكون المخبر على ما أخبر به. الثالث- أن المراد به الرد على النصارى بما كان منه من التقلب فى الأحوال، لأنه مناف لصفة الآله . فان قيل كيف جحدت النصارى كلام المسيح فى المهد و هو معجزة عظيمة؟

قلنا: لأن في ذلك إبطال مذهبهم، لأنه قال : «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» «٢» فاستمروا على تكذيب من أخبر أنه شاهده كذلك . و في ظهور المعجزة في تلك الحال قيل فيه قولان:

أحدهما - إنها كانت مقرونة بنبوة المسيح، لأنه كمل عقله في تلك الحال حتى عرف الله بالاستدلال، ثم أوحى إليه بما تكلم به، هذا قول أبي على الجبائي.

و قال ابن الاخشاذ : إن كل ذلك كان على جهة التأسيس لنبوته، و التمكين لها بما يكون دالا عليها، و بشاره متقدمة لها . و يجوز - عندنا - الوجهان. و يجوز

(١) قائله عذافر الفقيمي أمالى القالى ٢: ٢١٥ و شرح أدب الكاتب لابن السيد : ٢١٧، ٣٨٩، و اللسان (كهل)، (كرا)، (شعفر)، (أمم) و غيرها كثير. كريا: مكارى و كان عذافر يكرى ابله الى مكة فأكر معه - رجل من أهل البصرة - بغيراً يركبه هو و زوجته و فى الطريق قال بهما رجز طويل.

(٢) سورة مريم آية: ٣٠.

ص: ٤٦٤

أيضاً أن يكون ذلك معجزة لمريم تدل على براءة ساحتها مما قذفت على ما بينا جوازه فيما مضى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٧]

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) آية واحدة.

المعنى:

إن قيل كيف سألت مريم عن خلق الولد من غير مسيس مع أنها لا تنكر ذلك في مقدور الله تعالى؟ قلنا: فيه وجهان: أحدهما - أنها استفهمت أ يكون ذلك، و هى على حالتها من غير بشر أم على مجرى العادة من بشر، كما يقول القائل:

كيف تبعث بفلان فى هذا السفر، و ليس معه ما يركبه معناه، لأنه قوى أم هناك مركوب؟ الثانى - ان فى البشارة: التعجب مما خرج عن المعتاد فتعجبت من عظم قدرة الله كما يقول القائل عند الآية يراها: ما أعظم الله، و كما يقول القائل لغيره كيف تهب ضيعتك، و هى أجل شىء لك. و ليس يشك فى هبته و إنما يتعجب من جوده . و قوله: «قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ» حكاية ما قال لها الملك. و قوله: «كُنْ فَيَكُونُ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - أنه على جهة المثل لأن منزلة جميع ما يريد احداثه من جسم أو عرض كثر ذلك أو قل، فإنما هو بمنزلة قول القائل : كن، في أنه يكون بغير علاج، و لا معاناة، و لا تكلف سبب، و لا أداة، و لا شغل ببعض عن بعض، و لا انتهاء فيه إلى حد لا يمكن ضعفه، و لا زيادة عليه.

الثاني - ان معناه أن الله تعالى جعل «كن» علامة للملائكة فيما يريد إحداثه

ص: ٤٦٥

لما فيها من اللطف، و الاعتبار. و يمكن الدلالة على الأمور المقدورة لله تعالى.

و قول من قال ان قوله: «كن» سبب للحوادث التي يفعلها الله تعالى فاسد من وجوه:

أحدها - ان القادر بقدره يقدر على أن يفعل من غير سبب، فالقادر للنفس بذلك أولى . و منها أن «كن» محدثة فلو احتاجت إلى «كن» أخرى لتسلسل، و ذلك فاسد. و لو استند ذلك إلى كن قديمة، لوجب قدم المكون، لأنه كان يجب أن يكون عقيبه، لأن الفاء توجب التعقيب و ذلك يؤدي إلى قدم المكونات.

و منها أنه لو ولدت لولدت من فعلنا كالا اعتماد . و إنما استعمل القديم لفظة الأمر فيما ليس بأمر هاهنا ليدل بذلك على أن فعله بمنزلة فعل المأمور في أنه لا كلفة على الأمر، فكذلك هذا لا كلفة على الفاعل، و ذلك على عادة العرب في جعلهم وقوع الشيء عقيب الارادة بمنزلة الجواب عن السؤال قال الشاعر:

و قالت لنا العيان سمعاً و طاعة
و حدرتا كالدّر لما يثقب¹»

فجعل انحدار الدمع قولاً على الوجه الذي بيناه . و قوله: «كُنْ فَيَكُونُ» هاهنا لا يجوز فيه إلا الرفع، لأنه لا يصلح أن يكون جواباً للام في كن لأن الجواب يجب بوجود الاول نحو آتني فأكرمك و قم فأقوم معك . و لا يجوز قم فيقوم، لأنه بتقدير قم فإنك إن تقم يقيم. و هذا لا معنى له، و لكن يجوز الرفع على الاختيار انه سيقوم و يجوز في قوله : «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^٢ النصب، لأنه معطوف على «أَنْ نَقُولَ» كأنه قيل أن نقول فيكون.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٨]

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٤٨)

(٢) سورة النحل آية: ٤٠.

ص: ٤٦٦

القراءة، و الحجة:

قرأ أهل المدينة، و عاصم، و يعقوب (و يعلمه) بالياء الباقون بالنون. فمن قرأ بالياء حملة على (يخلق ما يشاء) و يعلمه. و من قرأ بالنون حملة على قوله:

(نوحيه إليك). و النون أفخم في الاخبار، لأن الياء حكاية عن الملك.

المعنى، و الاعراب:

و معنى قوله: «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ» قال ابن جريج: الكتابة بيده. و قال أبو علي:

كتاب آخر غير التوراة، و الإنجيل نحو الزبور أو غيره. فان قيل: لم أفرد التوراة و الإنجيل بالذكر مع دخولهما في الحكمة؟ قيل: إنما أفردهما بالذكر تنبيهاً على فضلهما مع جلالة موقعهما كما قال: «وَمَلَايَكْتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ» «١» و موضع يعلمه من الاعراب يحتمل أن يكون نصباً بالعطف على وجهها. و يحتمل أن يكون لا موضع له من الاعراب، لأنه عطف على جملة لا موضع لها، و هى قوله: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ». و قال بعضهم: هو عطف على «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» قال الرماني:

هذا لا يجوز، لأنه يخرج من معنى البشارة به لمريم. و إنما هو محمول على مشاكلته لا على جهة العطف عليه. و عد أهل الكوفة التوراة و الإنجيل، و لم يعدوا رسولا إلى بنى إسرائيل لتنكب الاستئناف بأن المفتوحة. و الاستئناف بذكر المنصوب كثير في الكلام. و أما أهل المدينة فإنما طلبوا تمام صفة المسيح، لأن تقديره و معلماً كذا و رسولا إلى كذا.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٤٩]

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَُبرِئُ الْاَكْمَهَ وَ الْاَبْرَصَ وَ اُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

(١) سورة البقرة آية: ٩٨.

ص: ٤٦٧

آية.

القراءة:

قرأ أهل المدينة و يعقوب (طائراً بأذن الله) الباقلون. (طيراً) و هو الأجود، لأنه اسم جنس و طائر صفة . و قرأ نافع وحده (إنى أخلق) بكسر الهمزة. الباقلون بفتحها.

الاعراب، و الحجة:

يحتمل نصب قوله: «و رسولا» وجهين:

أحدهما- بتقدير و يجعله رسولا فحذف لدلالة الإشارة عليه . و الثانى - أن يكون نصباً على الحال عطفاً على وجهها، لا أنه فى ذلك الوقت يكون رسولا بمعنى أنه يرسل رسولا . و قال الزجاج وجهاً ثالثاً بمعنى يكلمهم رسولا فى المهد ب «أَنَّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» و لو قرئت (إنى) بالكسر «قد جئتمكم» كان صواباً.

و المعنى يقول «أَنَّى قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» أى بعلامة تدل على ثبوت رسالتى.

و موضع «إنى أخلق» يحتمل أن يكون خفضاً و رفعاً، فمن قرأ بالخفض فعلى البدل من آية بمعنى جئتمكم بأنى أخلق لكم من الطين. و الرفع أريد به الآية إنى أخلق من الطين . و جائز أن يكون «أَنَّى أَخْلُقُ لَكُمْ» مخبرهم بهذه الآية ما هى أى أقول لكم «أَنَّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ».

المعنى:

و المراد بالخلق التقدير دون الأحداث، يقال فى التفسير أنه صنع من الطين كهية الخفاش، و نفخ فيه فصار طائراً . و جاز أن يقول فيه لفظ الطين. و قال فى

ص: ٤٦٨

موضع آخر. «فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي» «١» للفظ الهيئة.

اللغة:

و الطين معروف. و منه طنت الكتاب طيناً أى جعلت عليه طيناً، لأختمه.

و طينت البيت تطييناً. و الطيانة: حرفة الطيان و الطينة: قطعة من طين يختم بها الصك و نحوه. و الهياة: الحال الظاهرة هاء فلان يهاء هيئة. و من قرأ (هيئت) معناه تهيأت لك فأما «هَيْتَ لَكَ» فهلم لك و الهية: الحسن الهيئة من كل شىء.

و المهايأة: أمر يتهايا عليه القوم فيتراضون به . و قوله: «فَأَنْفُخُ فِيهِ» النفخ معروف تقول نفخ ينفخ نفخاً، و انتفخ انتفاخاً، و نفخه نفخاً. و التفاخه للماء، و النفخة نحو الورم فى البطن. و النفخة: نفخة الصور يوم القيامة. و المنفاخ كير الحداد.

و أصل الباب نفخ الريح التى تخرج من الفم.

المعنى:

و معنى «فَأَنْفُخُ فِيهِ» يعنى أنفخ فيه الروح و هو جسم رقيق كالريح، و هو غير الحياة، لأن الجسم إنما يحيى بما يفعله الله تعالى فيه من الحياة، لأن الأجسام كلها متماثلة يحيى الله منها ما يشاء . و إنما قيد قوله: «فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ» و لم يقيد قوله: «أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» بذكر إذن الله لينبه بذكر الاذن أنه من فعل الله دون عيسى . و أما التصوير و النفخ، ففعله، لأنه مما يدخل تحت مقدور القدر، و ليس كذلك انقلاب الجماد حيواناً فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه تعالى . و قوله: «وَ أَحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» على وجه المجاز إضافة إلى نفسه و حقيقته ادعوا الله باحياء الموتى فيحييهم الله فيحيون بأذنه .

اللغة و المعنى:

و قوله: «وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ» فالبرء و الشفاء و العافية نظائر فى اللغة.

(١) سورة المائدة آية: ١١٣.

ص: ٢٦٩

و الأكمه الذى يولد أعمى فى قول قتادة، و أبى على و قال الحسن، و السدى: هو الأعمى. و الكمه عند العرب العمى كمه يكمه كمهاً قال سويد بن أبى كاهل:

فهو يلحى نفسه لما نزع¹

كمهت عيناه حتى ابيضتا

و الأبرص معروف. و قوله: «وَ أَنْبَتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» أى أخبركم و أعلمكم بالذى تأكلونه، فتكون (ما) بمعنى الذى و يحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر، و يكون تقديره أخبركم بأكلكم.

و الأول أجود لقوله: «وَ مَا تَدْخِرُونَ» و يحتمل أن يكون المراد أيضاً و ادخاركم.

و الاذخار الافتعال من الذخر ذخرت أذخر ذخر أ و أذخرت اذخاراً . و أصل الباب الذخر، و هو خب ء الشىء لتأتيه . وإنما أبدلت الدال من الذال فى «تدخرون» لتعديل الحروف أو أبدلت الدال من الذال بوجهين الجهر و اختلاف المخرج، فبدل ذلك بالذال، لأنها موافقة للتاء بالمخرج و الدال بالجهر، فلذلك كان الاختيار، و كان يجوز تدخرون بالذال على الأصل و نظير ذلك فى التعديل بين الحروف و ازدجر، فمن اضطر، و اصطر، لموافقة الطاء للضاد و الضاد بالاستعلاء و الاطباق، و لم يجز إدغام الزاى فى الدال، لأنها من حروف الصفير . و لكن يجوز مزجر . و لم يدغم الضاد فى الطاء لأن فيها استطالة . و المجهور من الحروف: كل حرف أشبع الاعتماد عليه فى موضعه و منع النفس أن يجرى معه . و المهموس: كل حرف أضعف الاعتماد عليه فى موضعه و جرى معه النفس . و قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ» و إن كانت آية للجميع، لأن معناه «إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ» بالله إذ كان لا يصح العلم بمدلول المعجزة إلا لمن آمن بالله، لأن العلم بالمرسل قبل العلم بالرسول . و إنما يقال هى آية للجميع بأن يقدموا قبل ذلك الاستدلال على التوحيد . و أيضاً بأن من استحق وصفه بأنه مؤمن علم أن ذلك من آيات الله عز و جل.

(١) اللسان (كمه) و روايته (لما) بدل (حتى) و كذلك رواية المفضليات: ٤٠٥.

يلحى نفسه أى يلومها. لما نزع يعنى لما ترك.

ص: ٤٧٠

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٠]

و مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٥٠) آية واحدة.

الاعراب:

و مصدقاً نصب على الحال و تقديره قد جئتمكم مصدقاً، لأن أول الكلام يدل عليه و نظيره جئته بما يجب و معرفاً له، و ليس عطفاً على وجهها و لا رسولا لقوله «لِما بَيْنَ يَدَيْ» و لم يقل لما بين يديه.

المعنى:

و قوله: «و لِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» فإنما أحل لهم لحوم الإبل و الثروب و أشياء من الطير و الحيتان، مما كان محرماً فى شرع موسى (ع) و لم يحل لهم جميع ما كان محرماً عليهم من الظلم، و الغصب، و الكذب، و العبث و غير ذلك، فلذلك قال «بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» و يمثل هذا قال قتادة و الربيع، و ابن جريج و وهب ابن منية، و أكثر المفسرين . و قال أبو عبيدة أراد كل الذى حرم عليكم و استشهد على ذلك بقول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها

أو يعتلق بعض النفوس حمامها»1

قال معناه أو يعتلق نفسى حمامها. و أنكر الزجاج تأويله. و قال: هو خطأ من وجهين:

أحدهما- أن البعض لا يكون بمعنى الكل. و الآخر- أنه لا يجوز تحليل

(١) اللسان (بعض) ذكر العجز فقط.

ص: ٤٧١

المحرمات أجمع، لأنه يدخل فى ذلك الكذب، و الظلم، و الكفر قال : و معنى البيت أو يعتلق نفسى حمامها، كما يقول القائل : بعضنا يعرفك يريد أنا أعرفك، و هذا أيضاً إنما هو تبعض صحيح . و وجه الآية ما ذكره أبو على، و جماعة من المفسرين أن قوماً من اليهود حرموا على نفوسهم أشياء ما حرمها الله عليهم، فجاء بتحليل ذلك . قال الرماني: تأويل الآية على ما قالوه، لكنه لا يمتنع أن يوضع البعض فى موضع الكل إذا كانت هناك قرينة تدل عليه، كما يجوز وضع الكل فى موضع البعض بقرينة.

قوله: «وَلِأَحِلٍّ لَّكُمْ» معطوف على معنى الكلام الأول، لأن معناه جئكم لأصدق ما بين يدي من التوراة، و لأحل لكم، كما يقول القائل: جئته معذراً و لأجتلب عطفه . و الإحلال هو الإطلاق فى الفعل بتحسينه، و التحريم هو حظر الفعل بتقبيحه . و الفرق بين التصديق، و التقليد أن التصديق لا يكون إلا فيما يرى هن عند صاحبه. و التقليد يكون فيما لم يتبرهن، و لهذا لم نكن مقلدين للنبي (ص) و إن كنا مصدقين له.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥١]

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

آية.

قوله: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» استئناف كلام، لأنه رأس آية، و عليه جميع العلماء . و كان يجوز أن تفتح الهمزة على قوله : «و جئكم» ب «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ». و الفرق بين قوله «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» و قوله «ربنا» أن الأول أكد فى إقراره بالربوبية، لأنه ذكر على التفصيل، فهو أبعد من الغلط فى التأويل، لأن لقائل أن يقول الذكر قد يجوز فى الجملة على التغليب كما يغلب التذكير على التانيث فى الجملة دون التفصيل.

و الربوبية هى تنشئة الشيء حالا بعد حال حتى يبلغ حد الكمال فى التربية،

فلما كان الله تعالى مالكاً لانشاء العالم كان رباً، و لا تطلق هذه الصفة إلا عليه تعالى، لأن إطلاقها يقتضى الملك بجميع الخلق، فأما إجراؤها على غيره، فعلى وجه التقييد، كقولك رب الدار، و رب الضيعة . و قالوا فى وصف قوم من العلماء : هم أرباب البيان يراد به شدة اقتدارهم عليه . و قوله: «هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» فالاستقامة استمرار الشئ فى جهة واحدة، و نظيرها الاستواء : خلاف الاعوجاج، فلذلك قيل للطريق المؤدى إلى المراد الموصل إلى الحق : طريق الاستقامة، لأنه يفضى بصاحبه إلى غرضه، و قد استوفينا معناه فى سورة الحمد. و قد يوصف الدليل بأنه طريق مستقيم، لأنه يؤدى إلى الحق اليقين . و فى الآية حجة على النصارى بما قاله المسيح مما يقرون به أنه فى الإنجيل من نحو هذا الكلام، لأن فيه أذهب إلى إلهى، و إلهكم، كقوله هاهنا : «إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ».

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٢]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) آية.

اللغة:

الاحساس هو الوجود بالحاسة، أحس يحس إحساساً . و الحس القتل، لأنه يحس بألمه، و منه قوله : «إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ» «١» و الحس: العطف، لاحساس الرقة على صاحبه . و الأصل فيه إدراك الشئ من جهة الملاسة . و معنى الآية : فلما علم عيسى منهم الكفر، قال : «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ». و الأنصار جمع نصير مثل شريف و أشراف، و شهيد و أشهاد . و إنما لم يحمل على ناصر لأنه يجب أن يحمل على نظيره من فاعل و أفعال.

(١) سورة آل عمران آية: ١٥٢.

المعنى:

و قوله: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها- من أعوانى على هؤلاء الكفار إلى معونة الله أى مع معونة الله فى قول السدى، و ابن جريج . و إنما جاز أن تكون (إلى) بمعنى (مع) لما دخل الكلام من معنى الاضافة و معنى المصاحبة، و نظيره «الذود إلى الذود إبل» أى مع الذود. و مثله «وَ

لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ» ^(١) أى مع أموالكم، و قولك: قدم زيد و معه مال، فلا يجوز فيه إلى و كذلك قدم إلى أهله، لا يجوز فيه مع، لاختلاف المعنى.

الثانى - قال الحسن من أنصارى فى السبيل إلى الله، لأنه دعاهم إلى سبيل الله.

الثالث - قال الجبائى: من أنصارى لله، كما قال: «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ» ^(٢) و وجه ذلك أن العرض يصلح فيه اللام على طريق العلة و إلى طريق النهاية . فان قيل عيسى إنما بعث بالوعظ دون الحرب لم استنصر عليهم؟ قلنا: للحماية من الكافرين الذين أرادوا قتله عند اظهار الدعوة - فى قول الحسن و مجاهد - و قال آخرون: يجوز أن يكون طلب النصر للتمكين من إقامة الحجّة و إنما قاله لبتيميز الموافق من المخالف . و قوله: «قَالَ الْحَوَارِيُّونَ» اختلفوا فى تسميتهم حواريين على ثلاثة أقوال قال سعيد بن جبیر : سموا بذلك لبقاء ثيابهم . الثانى - قال ابن جريج عن أبى أرطاء أنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب . الثالث - قال قتادة، و الضحاک : لأنهم خاصة الأنبياء يذهب إلى نقاء قلوبهم كنقاء الأبيض بالتحوير.

و قد روى عن النبى (ص) أنه قال: الزبير ابن عمتى و حوارى من أمتى.

(١) سورة النساء آية: ٢.

(٢) سورة يونس آية: ٣٥.

ص: ٤٧٤

اللغة:

و أصل الحوارى الحور، و هو شدة البياض . و منه الحوارى من الطعام لشدة بياضه . و منه الأحور، و الحوراء لبقاء بياض العين، و منه الحواريات نساء الأنصار لبياضهن. قال أبو جلدة الشكرى ^(١):

فقل للحواريات يبيكين غيرنا
و لا تبكنا إلا الكلاب النوايح ⁽²⁾

و قال بعض بنى كلاب:

و لكنه ألقى زمام قلوّصه
ليحيا كريماً أو يموت حواريا

أى ناصراً لرفاقه غير خاذل لهم . و المحور: الحديدۃ التى تدور عليها البكرة، لأنها تنصقل حتى تبيض و حار يحور : إذا رجع، لانقلابه فى الطريق الذى جاء فيه كانقلاب المحور بالتحوير.

المعنى:

و فى الآية حجة على من زعم أن المسيح و الذين آمنوا به، كانوا نصارى فبين الله تعالى أنهم كانوا مسلمين كما بين ذلك فى قصة ابراهيم (ع) حيث قال «ما كان إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا».

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٣]

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)

آية واحدة بلا خلاف.

(١) هو أبو جلدۃ بن عبید بن منفذ الیشکری من شعراء الدولة الاموية، و كان من أخص الناس بالحج اج ثم فارقه و خرج مع ابن الأشعث، و صار من أشد الناس تحريضاً على الحجاج.

(٢) اللسان (حور)، و الاغانى ١١: ٣١١ و حماسۃ بن الشجرى: ٦٥ و هو من أبيات قالها فى التحريض على قتال أهل الشام.

ص: ٤٧٥

هذا حكاية لقول الحواريين حيث قالوا «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ». قالوا «ربنا» و معناه يا ربنا و نصبه، لأنه نداء مضاف . «آمنا» أى صدقنا. و إنما لم يقل رب العباد آمنا للاختصاص بما أنعم به عليهم من الايمان الذى أجابوا إليه دون غيرهم ممن عدل عنه. و إنما قال «رَبَّنَا آمَنَّا» على لفظ الخطاب و لم يعدل إلى لفظ الغائب، فكان أبلغ فى التعظيم، كما تقول السمع و الطاعة للملك، فيكون أفخم من أن يقال: لك أيها الملك، لأن المشاهدة أغنت عن التصريح بالخطاب و صار كالاستدلال له مع الغنى عنه و ليس كذلك استعماله مع الحاجة إليه، لأنه لا يدل على ابتداء له . فان قيل لم حذف (يا) من يا ربنا آمنا، و لم يحذف من «يا عبادى لا خوف عليكم» ؟ قلنا حذف للاستغناء عن تنبيه المدعو، و ليس كذلك الثانى لأنه بشارة للعباد ينبغى أن يمد بها لأن سماعها مما يسر . و قوله: (وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ) فالاتباع سلوك طريقۃ الداعى على الاجابة إلى ما دعا إليه، و ليس كل إجابة اتباعاً، لأن اجابة الدعاء يجوز على الله تعالى و لا يجوز عليه الاتباع. و قوله:

«فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» قيل معناه قولان:

أحدهما - اثبت أسماءنا مع اسمائهم لنفوز بمثل ما فازوا، و ننال من الكرامة مث ل ما نالوا، و نستمتع بالدخول في جملتهم و الانضمام إليهم. الثاني - يصل ما بيننا و بينهم بالخلة على التقوى، و المودة على سلوك طريق الهدى، و تجنب طريق الردى، و على هذا يكونون فيه بمنزلة من كتب عليهم . و حقيقة الشاهد المخبر بالشئ ع عن مشاهدة، و قد يتصرف فيه، فيق ال : البرهان شاهد بحق أى هو بمنزلة المخبر به عن مشاهدة . و يقال هذا شاهد أى معد للشهادة و المراد فى الآية الشاهدين بالحق المنكرين للباطل.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٤]

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

آية.

(١) سورة الزخرف آية ٤٨.

ص: ٤٧٤

المعنى:

قيل فى معنى الآية قولان:

أحدهما - قال السدى مكروا بالمسيح بالحيلة عليه، لقتله و مكر الله بردهم بالخبيثة، للاقائه شبه المسيح على غيره . الثاني - «مَكْرُوا» بإضمار الكفر «وَمَكَرَ اللَّهُ» بمجازاتهم عليه بالعقوبة. و المكر، و إن كان قبيحاً فإنما أضافه تعالى إلى نفسه لمزاوجة الكلام، كما قال: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» «١» و ليس باعتداء و إنما هو جزاء، و هذا أحد وجوه البلاغة، لأنه على أربعة أقسام:

أحدها - المزاجعة نحو «وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ». و الثاني - المجانسة نحو قوله:

«يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ» «٢». الثالث - المطابقة نحو قوله:

«مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا» «٣» بالنصب على مطابقة الجواب للسؤال.

و الرابع - المقابلة نحو قوله : «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ وَ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ تَضُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» «٤» قال الشاعر:

و اعلم و أيقن ان ملكك زائل

و اعلم بأن كما تدين تدان«5»

أى كما تجزى تجزى . و الأول ليس بجزء و أصل المكر الالتفاف، فمنه المكر ضروب من الشجر مثل الدعل و نحوه، لالتفافه .
و الممكورة من النساء الملتفة و المكر طين أحمر شبيه بالمغرة. و ثوب ممكور إذا صبغ بذلك الطين. و المكر الاحتيال

(١) سورة البقرة آية ١٩٤.

(٢) سورة النور آية: ٣٧.

(٣) سورة النحل آية: ٣٠.

(٤) سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٥.

(٥) اللسان (زنا)، (دان) و جمهرة الأمثال للعسكري: ١٦٩ و غيرها و قد نسبته فى اللسان الى خويلد بن نوفل الكلابى . و قيل:
هو لبعض الكلابيين. و قيل: ليزيد بن الصعق الكلابى. و قد مر البيت فى ١: ٣٦ و روايته هناك (بأنك ما تدين تدان).
و روايته اللسان:

يا حار أيقن أن ملكك زائل

و اعلم بأن كما تدين تدان

و حار: ترخيم حارث. و المخاطب هنا الحارث بن أبى شمر الغسانى و كان قد اغتصب ابنه الشاعر فخاطبه فى قصيدة منها هذا البيت.

ص: ٤٧٧

على العبد، لالتفاف المكروه عليه . و حد المكر: خبء يختدع به العبد لإيقاعه فى الضر . و الفرق بين المكر و الحيلة أن الحيلة
قد تكون، لإظهار ما تعسر من الفعل من غير قصد إلى الإضرار بالعبد. و المكر حيلة على العبد توقعه فى مثل الرهق.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٥]

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كُنْتَ عَلَيْهِمْ رَسُولًا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (٥٥)

آية.

الاعراب:

العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين.

أحدهما - قوله: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» «إذ قال». و الآخر ذاك «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى» و عيسى في موضع الضم، لأنه مناداً مفرد، و لكن لا يبين فيه لأنه منقوص، و عيسى لا ينصرف لاجتماع العجمة و التعريف على قول الزجاج، لأنه حمل الألف على حكم الملحق بمخرج و لم يحملها على التأنيث، فأما الألف في زكريا، فلا يكون إلا للتأنيث، لأنه لا مثال له في الأصول . و إذا عرب جرى على قياس كلامهم في أن الالف الزائدة لا تخلو أن تكون للتأنيث أو للإلحاق، فإذا بطل أحدهما صح أنها للآخر . و إنما وجب ذلك، لأنه يجري مجرى الاعراب بالعوامل، فأما الاشتقاق، فلا يجب، لأنه تصريف من أصل المشتق، و ليس العربى بأصل للعجمي، و ذلك نحو العيس و هو بياض الإبل و العوس و هو السياسة لو كان عربياً، لصلح أخذه من أحد الأصلين. و إذا أخذ من أحدهما

ص: ٤٧٨

امتنع من الآخر، فلذلك إذا أخذ من العجمي امتنع من العربى.

و قوله: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ» قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قابضك برفعك من الأرض إلى السماء من غير وفاة موت في قول الحسن و ابن جريج و ابن زيد . الثاني - متوفيك وفاة نوم في قول ابن عباس و وهب ابن منية . و الثالث - ان فيه تقديماً و تأخيراً، و معناه إني رافعك، و متوفيك فيما بعد ذكره الفراء. و قوله: «و رافعك» قيل في معناه قولان:

أحدهما - رافعك في السماء فجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم و اجراءه على طريق التعظيم . و الآخر - مصيرك إلى كرامتى كما يقال رفع إلى السلطان، و رفع الكتاب إلى الديوان . و قال ابراهيم «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي». و إنما ذهب من العراق إلى الشام . و إنما أراد إلى حيث أمرني ربي بالمضى إلح. و قوله: (و مطهرك) قيل فيه قولان:

أحدهما - مطهرك بإخراجك من بين الارجاس، لأن كونه في جملتهم بمنزلة التنجيس له بهم، و إن كان عليه السلام طاهراً في كل حال، و إنما ذلك على إزالته عن مجاورة الانجاس . و الثاني - قال أبو علي: تطهيره: منعه من كفر يفعلونه بالقتل الذى كانوا

هموا به لأن ذلك نجس طهره الله منه. و قوله: **وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** يحتتمل أن يكون جعلهم فوقهم بالحجة و البرهان، و يحتتمل أن يكون ذلك بالعز و الغلبة، و قال الحسن، و قتادة، و الربيع : المعنى بهذه الآية أهل الايمان. و ما جاء به دون الذين كذبوه أو كذبوا عليه. و قال ابن زيد: المعنى به النصارى، و هم فرق اليهود من حيث كانوا اليهود أذل منهم إلى يوم القيامة، و لهذا زال الملك عنهم و إن كان ثابتاً فى النصارى فى بلاد الروم و غيرها، فهم أعز منهم و فوقهم . و قال الجبائى فيه دلالة على أنه لا يكون لليهود مملكة إلى يوم القيامة كما للروم . و الوجه الأول أقوى، لأنه أظهر إذا كان على جهة

ص: ٤٧٩

الترغيب فى الحق، و قوله: **«ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»** وجه اتصاله بالكلام كأنه قال أما الدنيا فأنتم فيها على هذه الحال، و أما الآخرة.

فيقع فيها التوفية للحقوق على التمام و الكمال . و إنما عدل عن الغيبة إلى الخطاب فى قوله : **«ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ»** لتغلب الحاضر على الغائب لما دخل معه فى المعنى كما يقول بعض الملوك: قد بلغنى عن أهل بلد كذا جميل، فأحسن إليكم معشر الرعية.

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٦]

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَا عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)

آية واحدة بلا خلاف.

معنى قوله «فأما» تفصيل المجمال على قولك فيجازى العباد أما المؤمن فبالثواب و أما الكافر فبالعقاب . و قوله: «فأعذبهم» فالعذاب: استمرار الآلام لأن أصله استمرار الشيء، فمنه العذوبة لاستمرار العذب فى الحلق، و مع العذبة لاستمرارها بالحركة . و قوله «شديداً» فالشدة صعوبة بالانتقام . و القوة: عظم القدرة، فالشدة نقيض الرخاوة . و القوة نقيض الضعف، فشدة العذاب قد تكون بالتضعيف، و قد تكون بالتحبيس . و قوله: **«فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ»** فعذابهم فى الدنيا إذلالهم بالقتل، و الأسر، و السبى، و الخسف، و الجزية، و كلما فعل على وجه الذلة و الالهانة . و فى الآخرة عذاب الأبد . و الفرق بين الآخرة و الانتهاء أن الآخرة قد تكون بعد العمل، فأما الانتهاء فجزة منه لا يكون بعد كماله هذا إذا اطلق فان أضيف فقليل آخر العمل فمعناه انتهاء العمل . و قوله: **«وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»** فالنصرة هى المعونة على العدو خاصة . و المعونة هى زيادة فى القوة و قد تكون على العدو، و غير العدو.

ص: ٤٨٠

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٧]

وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)

آية واحدة بلا خلاف.

قرأ (فيوفيهم) بالياء حفص و رويس. الباقر بن النون.

فان قيل: لم كرر الوعد هاهنا و قد ذكر في غير هذا الموضع من القرآن؟

قلنا: ليس ذلك بتكرير في المعنى، لأن معنى ذلك آمنوا بك يا عيسى و عملوا الصالحات فيما دعوتهم إليه من الهدى، لأنه تفصيل ما أجمل في قوله: «ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» و قوله: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ليس بتقييد للوعد بكل واحدة من الخصلتين على اختلاف فائدة الصفتين، و في الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في أن الله تعالى يريد الظلم، لأنه قال:

«لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» و إذا لم يحب الظالم لم يحب فعل الظلم، لأنه إنما لم يجز محبة الظالم لظلمه.

و المحبة هي الارادة، و في الآية دلالة على أنه لا يجازى المحسن بما يستحقه المسيء و لا المسيء بما يستحقه المحسن، لأن ذلك ظلم. و معنى التوفية في الآية مساواة مقدار الاستحقاق لأن المقدار لا يخلو أن يكون مساوياً أو زائداً أو ناقصاً، و الزيادة على مقدار الاستحقاق لا يجوز أن يعطى ثواب العمل من ليس بعامل لكن تجوز الزيادة على وجه التفضل، فأما التوفية، فواجبة في الحكمة و النقصان لا يجوز، لأنه ظلم . و في الآية دلالة على بطلان القول بالتحابط، لأنه تعالى وعد بتوفية الأجور و لم يشترط الإحباط، فوجب حمل الكلام على ظاهره.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٨]

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

آية واحدة.

ص: ٤٨١

المعنى:

«ذلك» اشارة إلى الاخبار عن عيسى، و زكريا، و يحيى، عن الحواريين، و اليهود من بنى إسرائيل، و هو في موضع نصب بما تقدم. و «نَتْلُوهُ عَلَيْكَ» لما فيه من الآية لمن تذكر في ذلك و اعتبر به . و الذكر و إن كان حكمة فإنما وصفه بأنه حكيم من حيث لما كان ما فيه من الدلالة بمنزلة الناطق بالحكمة حسن وصفه بأنه حكيم من هذه الجهة، كما وصفت الدلالة بأنها دليل لما فيها من البيان، و ذلك لأنه الناطق بالبيان.

الاعراب:

و موضع «تتلوه» من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون رفعاً بأنه خبر ذلك، و الثانى - ألا يكون له موضع، لأنه صلة ذلك و تقديره: الذى تتلوه عليك من الآيات، و يكون موضع «من الآيات» رفعاً بأنه خبر ذلك. ذكره الزجاج و أنشدوا فى مثله:

عدس ما للعباد عليك إمارة
أمنت و هذا تحمليين طليق «1»

بمعنى و الذى تحمليين طليق.

المعنى:

و قيل فى معنى قوله: «تَتْلُوهُ عَلَيْكَ» قولان:

أحدهما- نكلمك به، و يكون وضع «تتلوه» موضع نكلم كما يقول القائل:

انشأ زيد الكتاب و تلاوة عمرو، فالتلاوة تكون اظهار الكلام على جهة الحكاية الثانى - «تَتْلُوهُ عَلَيْكَ» بأمرنا جبريل أن يتلوه عليك على قول الجبائى، و الذكر حصول ما به يظهر المعنى للنفس و يكون كلاماً و غير كلام من بيان أو خاطر على

(١) البيت مشهور فى كتب النحو.

ص: ٤٨٢

البال، و ليس إذا ظهر الشئ للنفس دل على صحته، لأن الضدين قد يظهران و لا يجوز صحتهما معاً.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٥٩]

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)

آية.

قال ابن عباس، و الحسن و قتادة: هذه الآية نزلت فى وفد نجران: السيد و العاقب، قالا للنبي (ص) هل رأيت ولداً من غير ذكر، فأَنزَلَ اللَّهُ تعالى الآية.

و المثل ذكر سائر يدل على أن سبيل الثانى سبيل الأول، فذكر الله آدم بأن انشاء من غير والد يدل على أن سبيل الثانى سبيل الأول فى باب الإمكان، و القدرة. و فى ذلك دلالة على [بطلان قول] من حرم النظر، لأن الله تعالى احتج به على المشركين و لا يجوز أن يدلهم إلا بما فيه دليل فقياس خلق عيسى من غير ذكر كقياس خلق آدم بل هو فيه أوجب، لأنه فى آدم من غير أنثى، و لا ذكر. و معنى «خلقه» أنشاء، و لا موضع له من الاعراب، لأنه لا يصلح أن يكون صفة لآدم من حيث هو نكرة، و لا يكون حالاً له، لأنه ماض فهو متصل فى المعنى غير متصل فى اللفظ من علامات الاتصال من اعراب أو مرتبة كالصلة . و قوله: **«كُنْ فَيَكُونُ»** قد بينا معناه فيما مضى و أنه اخبار عن سرعة الفعل و تيسره من غير مشقة و لا إبطاء.

و قيل إنه يفعله عند قوله : «كن» و يكون ذلك علامة للملائكة على ما يريد الله إنشاءه . و قوله: «فيكون» رفع لا يجوز فيه النصب على جواب الأمر فى كن، لأن جواب الشرط غيره فى نفسه أو معناه نحو آتني فأكرمك و آتني فتحسن إلي، فهذا يجوز، لأن تقديره فإنك إن تأتني تحسن إلي، و لا يجوز تقدير (أن)، فيكون بالنصب، لأن تقديره كن فإنك أن تكن . فهذا لا يصح، لأن الجواب هو الشرط على معناه، و لكن يجوز الرفع على فهو يكون.

ص: ٤٨٣

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٠]

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

آية.

الاعراب:

الحق رفع بأنه خبر ابتداء محذوف و تقديره ذلك الاخبار فى أمر عيسى الحق من ربك، فحذف، لتقدم ذكره و أغنى بشاهد الحال عن الإشارة إليه كما تقول الهلال أى هذا الهلال.

المعنى و اللغة:

و قوله: **«فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»** يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون خطاباً للنبي (ص) و المراد به غيره، كما قال . **«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ»** «١»- و الآخر - **«فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»** أيها السامع للبرهان من المكلفين كائناً من كان.

و الامتراء الشك، و مثله المرية و أصله الاستخراج مرى الضرع يمر به مرياً:

إذا استخرج اللبن منه يمسحه ليدر، و كذلك الريح تمرى السحاب مرياً . فالامتراء شك كحال المستخرج لما لا يعرف . وإنما قال: **«الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ»** و لم يقتصر على قوله : **«ذلك الحق»** **«فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»** لأن فى هذه الآية دلالة على أنه الحق،

لأنه من ربك، و لو قال ذلك الحق «فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» لأن في هذه الآية دلالة على أنه الحق، لأنه من ربك . و لو قال: ذلك الحق فلا تكن «٢» لم يفد هذه الفائدة. و الفرق بين قوله: «فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» و بين قوله: فلا تكن ممترياً أن ذلك أبلغ في النهي، لأنه اشارة إلى قوم قد عرفت حالهم فى النقص و العيب.

(١) سورة الطلاق آية: ١.

(٢) هكذا فى المطبوعة و فيه تكرار كما ترى.

ص: ٤٨٤

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦١]

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

آية بلا خلاف.

المعنى:

الهاء فى قوله: «فيه» يحتمل أن تكون عائدة إلى أحد أمرين:

أحدهما- إلى عيسى فى قوله: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ» فى قول قتادة.

الثانى- أن تكون عائدة على الحق فى قوله «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ». و الذين دعاهم النبى (ص) فى المباهلة نصارى نجران، و لما نزلت الآية أخذ النبى (ص) بيد على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام، ثم دعا النصارى إلى المباهلة، فاحجموا عنها، و أقرروا بالذلة و الجزية. و يقال: إن بعضهم قال لبعض إن باهلتموه اضطرم الوادى ناراً عليكم و لم يبق نصرانى و لا نصرانية إلى يوم القيامة.

و روى أن النبى (ص) قال لأصحابه: مثل ذلك. و لا خلاف بين أهل العلم أنهم لم يجيبوا إلى المباهلة.

اللغة، و المعنى:

«و تعالوا» أصله من العلو، يقال منه تعاليت أتعالي تعالياً: إذا جئت و أصله المجيء إلى الارتفاع إلا أنه كثر فى الاستعمال حتى صار لكل مجيء و صار تعالى بمنزلة هلم. و قيل فى معنى الابتهاال قولان:

أحدهما - الالتعان بهله الله أى لعنه و عليه بهله الله. الثانى «نبتهل» ندعوا بهلاك الكاذب. و قال لييد:

ص: ٤٨٥

نظر الدهر إليهم فابتهل¹»

أى دعا عليهم بالهلاك كاللعن، و هو المباعدة من رحمة الله عقاباً على معصيته فلذلك لا يجوز أن يلعن من ليس بعاص من طفل أو بهيمة أو نحو ذلك، و قال أبو بكر الرازى: الآية تدل على أن الحسن و الحسين ابناه، و أن ولد البنت ابن على الحقيقة. و قال ابن أبى علان: فيها دلالة على أن الحسن و الحسين كانا مكلفين فى تلك الحال، لأن المباهلة لا تجوز إلا مع البالغين.

و استدل أصحابنا بهذه الآية على أن أمير المؤمنين (ع) كان أفضل الصحابة من وجهين:

أحدهما - أن موضوع المباهلة لتمييز المحق من المبطل و ذلك لا يصح أن يفعل إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعاً على صحة عقيدته أفضل الناس عند الله.

و الثانى - أنه (ص) جعله مثل نفسه بقوله: «وَأَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ» لأنه أراد بقوله «أبناءنا» الحسن و الحسين (ع) بلا خلاف. و بقوله: «وَنِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ» فاطمة (ع) و بقوله: «وَأَنْفُسَنَا» أراد به نفسه، و نفس على (ع) لأنه لم يحضر غيرهما بلا خلاف، و إذا جعله مثل نفسه، وجب ألا يدانيه أحد فى الفضل، و لا يقاربه. و متى قيل لهم أنه أدخل فى المباهلة الحسن و الحسين (ع) مع كونهما غير بالغين و غير مستحقين للثواب، و إن كانا مستحقين للثواب لم يكونا أفضل الصحابة. قال لهم أصحابنا: إن الحسن و الحسين (ع). كانا بالغين مكلفين، لأن البلوغ و كمال العقل لا يفتقر إلى شرط مخصوص، و لذلك تكلم عيسى فى المهد بما دل على كونه مكلفاً عاقلاً، و قد حكيت ذلك عن امام من أئمة المعتزلة مثل ذلك و قالوا أيضاً أعنى أصحابنا: إنهما كانا أفضل الصحابة بعد أبيهما وجدهما، لأن كثرة الثواب ليس بموقوف على كثرة الأفعال، فصغر سنهما لا يمنع من أن يكون

(١) ديوانه قصيدة ٣٩ البيت ٨١، و أمالى الشريف المرتضى ١: ٢٥ و أساس البلاغة (بهل) و صدره:

فى قروم سادة من قومه

ص: ٤٨٦

معرفتهما و طاعتهما لله، و إقرارهما بالنبى (ص) وقع على وجه يستحق به من الثواب ما يزيد على ثواب كل من عاصرهما سوى جدهما و أبيهما. و قد فرغنا الكلام فى ذلك و استقصيناه فى كتاب الامامة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٢]

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)
آية.

المعنى، و اللغة:

إن قولي: لم قال: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ» مع قيام الحجة، و شهادة المعجزة له؟ قلنا : معناه البيان عن أن مخالفتهم له بعد وضوح أمره يجرى مجرى العناد فيه، و كذلك قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ». و القصص: الخبر الذى تتابع فيه المعانى و أصله اتباع الأثر، و فلان يقص أثر فلان أى يتبعه . و قوله: (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ) دخول (من) فيه تدل على عموم النفي لكل إله غير الله . و لو قال:

ما إله إلا الله لم يفد ذلك و إنما أفادت (من) هذا المعنى، لأن أصلها لا ابتداء الغاية فدلّت على استغراق النفي من ابتداء الغاية إلى انتهائها. و لا يجوز جر اسم الله على البديل من إله، لأن ذلك لا يحسن فى الكلام، لأن (من) لا تدخل فى الإيجاب و ما بعد (إلا) هنا إيجاب، و لا تدخل أيضاً على المعرفة للعموم، و لا يحسن إلا رفعه على الموضع، كأنه قيل ما لكم إله إلا الله . و ما لكم مستحق للعبادة إلا الله قال الشاعر:

الأيد ليست لها عضد

ابنى لبني لستم بيد

أنشدوه بالجر، فعلى هذا يجوز ما جاءنى من رجل إلا زيد، و ليس هو وجه الكلام، و لكنه يتبعه و إن لم يصلح إعادة العامل فيه، كما يقال: اختصم زيد و عمرو، و لا يجوز و اختصم عمرو، و قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معناه

ص: ٤٨٧

لا أحد يستحق إطلاق هذه الصفة إلا هو، فوصل ذلك بذكر التوحيد فى الإلهية لأنه حجة على صحته من حيث لو كان إله آخر، لبطل إطلاق هذه الصفة.

الاعراب:

و موضع هو من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون فصلاً، وهو الذى تسمية الكوفيين عماداً، فلا يكون له موضع من الاعراب، لأنه فى حكم الحرف و يكون القصص خبر إن. و الآخر- أن يكون اسماً موضعه رفع بالابتداء و القصص خبر إن و الجملة خبر إن.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٣]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

اللغة و المعنى:

التولى عن الحق هو اعتقاد خلافه بعد ظهوره، لأنه كالادبار عنه بعد الإقبال . و تولى عنه خلاف تولى إليه . و الأصل واحد كما أن رغب عنه خلاف رغب فيه . و هو الزوال بالوجه عن جهته إلى غيره، فأصل التولى كون الشئ ى يلى غيره من غير فصل بينه و بينه، فقيل تولى عنه أى زال عن جهته . و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ» إنما خص المفسدين بأنه عليهم بهم على جهة التهديد لهم، و الوعد بما يعلمه مما وقع من إفسادهم كما يقول القائل أنا أعلم بسر فلان، و ما يجرى إليه من الفساد . و الإفساد إيقاع الشئ على خلاف ما توجبه الحكمة، و هو ضد الإصلاح، لأنه إيقاع الشئ على مقدار ما توجبه الحكمة . و الفرق بين الفساد، و القبيح: أن الفساد تغيير عن المقدار الذى تدعو إليه الحكمة بدلالة أن نقيضه الصلاح، فإذا قصر عن المقدار أو أفرط لم يصلح، فإذا كان على المقدار صلح، و ليس كذلك القبيح، لأنه ليس فيه معنى المقدار . و إنما القبيح ما تزجر عنه الحكمة كما أن الحسن ما تدعو إليه الحكمة.

ص: ٤٨٨

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٤]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

آية واحدة.

النزول:

قيل فى من نزلت هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها- ذكره الحسن، و السدى، و ابن زيد، و محمد بن جعفر بن الزبير:

أنهم نصارى نجران. و الثانى- قال قتادة، و الربيع، و ابن جريج: أنهم يهود المدينة، و قد روى ذلك أصحابنا . و وجه هذا القول أنهم أطاعوا الأحرار طاعة الأرباب، فسلكوا بهم طريق الضلال. و يدل على ذلك قوله: (عز و جل) «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (١)»

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنه قال ما عبدوهم من دون الله و إنما حرموا لهم حلالاً و أحلوا لهم حراماً، فكان ذلك اتخاذ الأرباب من دون الله.

الثالث - ذكره أبو على الجلبلى أنها فى الفريقين من أهل الكتاب على ظاهر الكلام.

المعنى، و الاعراب، و اللغة:

و قوله: «إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ» فسواء اسم و ليس بصفة و إنما جر سواء بتقدير ذات سواء فى قول الزجاج . و كان يجوز نصبه على المصدر، و موضع «أن لا» خفض على البدل من (كلمة). و قال الرماني: إنما أجراه على الاول، و هو الثانى و لا يجوز فى مثل قولك مررت برجل سواء عليه الخير و الشر غير الرفع لأمرين:

أحدهما - أن رفع الثانى بتقدير محذوف، كأنه قال هى «ألا تعبد إلا

(١) سورة التوبة آية: ٣٢.

ص: ٤٨٩

الله»، فيكون سواء من صفة الكلمة فى اللفظ، و المعنى . و يجوز أن يكون موضعه خفضاً على البدل من الكلمة، و تقديره تعالى إلى ألا نعبد إلا الله، و كذلك جاء ما لا يصلح للأول على الاستئناف، نحو «الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» (١) و كذلك «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُ م وَ مَمَاتُهُمْ» (٢). الثانى - أن يقع بمعنى المصدر فى موضع الصفة الجارية بتقدير (كلمة) مستوية «بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ» فيها الامتناع من عبادة غير الله . و إنما جاز، لأن لا نعت بغير معنى الكلمة، فصار بمنزلة إضمار الكلمة . و الفرق بين كلمة عدل و كلمة سواء [أن «كَلِمَةٍ سَوَاءٍ»] بمعنى مستوية و أن عدل بمعنى عادلة فيما يكون منها، كما تقول رجل عدل أى عادل، فاما كلمة مستوية فمستقيمة، كما يقال: الرجل مستو - فى نفسه - غير مائل عن جهته، فلذلك فسر سواء على الوجهين، فكان يجوز فى العربية الجزم فى «أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» على طريق النهى، كقولك آتنى وقت يأتى الناس لا تجىء فى غير ذلك من الأوقات، و يجوز فيه الرفع أيضاً بمعنى الحكاية على أن نقول «أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» و أجاز الفراء الجزم عطفاً على موضع (أن) لأنها فى موضع جواب الامر على تقدير «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» كما تقول: تعالوا لا نقل إلا خيراً، و هذا لا يجوز عند البصريين، لأن (أن) لا توافق معنى الجواب كالفاء فى قوله: «فَأَصْدَقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٣) كما توافقه «إذا» فى قوله: «وَ إِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» (٤) و اللام فى قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» إنما اتصل بما قبله على تقدير: قابلوا إعراضهم عن الحق بخلافه للإنكار عليهم و تجديداً للإقرار به عند صدهم أى أقيموا على إسلامكم، و قولوا لهم: «اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» مقيمون على الإسلام.

(١) سورة الحج آية: ٢٥.

(٢) سورة الجاثية آية: ٢٠.

(٣) سورة المنافقين آية: ١٠.

(٤) سورة الروم آية: ٣٦.

ص: ٤٩٠

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٥]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)
آية واحدة.

النزول:

روى عن ابن عباس، والحسن، و قتادة و السدى أن أحبار اليهود و نصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله (ص) فتنازعوا في ابراهيم، فقالت اليهود:

ما كان إلا يهودياً. وقالت النصارى ما كان إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

اللغة:

وقوله: **لِمَ تُحَاجُّونَ**، فالحجاج، و المحاجة واحد، و هو الجدل أما بحجة أو شبهة، و قد يسمى الجدل بإيهام الحجة حجاجاً، و على ذلك كان أهل الكتاب فى ادعائهم لإبراهيم، لأنهم أوهمو صحة الدعوى م ن غير سلوك لطريق الهدى و لا تعلق بما يظن به صحة المعنى. و أما الحجة فهو البيان الذى يشهد لصحة المقالة، و هى و الدلالة بمعنى واحد . و الفرق بين الحجاج و الجدل أن الحجاج يتضمن اما بحجة أو شبهة أو إيهام فى الحقيقة، لأن أصله من الجدل، و هو شدة الفتل.

المعنى:

و قوله: **«أَفَلَا تَعْقِلُونَ»** معناه أ فلا تعقلون فساد هذه الدعوى إذ العقل يمنع من الاقامة على دعوى بغير حجة، فكيف بما قد علم، و ظهر فسادَه بالمناقضة.

و فى ذلك دلالة على ان العاقل لا يعذر فى الاقامة على الدعوى من غير حجة، لما فيه من البيان عن الفساد و الانتقاض. و لأن العقل طريق العلم، فكيف يضل عن المرشد من قد جعل الله إليه السبيل!

ص: ٤٩١

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٦]

هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

آية واحدة.

القراءة:

قرأ أهل المدينة و أبو عمرو (ها أنتم) بتخفيف الهمزة حيث وقع الباكون بتخفيفها «١» و كلهم أثبت الالف قبل الهمزة إلا ابن عامر عن قتيل فانه حذفها.

المعنى و اللغة:

(ها) للتنبيه و إنما نبههم على أنفسهم و ان كان الإنسان لا ينبه على نفسه و إنما ينبه على ما أغفله من حاله، لأن المراد بذلك تنبيههم بذكر ما يعلمون على ما لا يعلمون، فلذلك خرج التنبيه على النفس، و المراد على حال النفس . و لو جاء على الأصل، لكان لا بد من ذكر النفس للبيان، ففيه مع ذلك إيجاز . و قد كثر التثنية فى هذا و لم يكثر فى ها أنت، لأن ذا مبهمة من حيث يصلح لكل حاضر و المعنى فيه على واحد بعينه مما يصلح له فقوى بالتنبيه، لتحريك النفس على طلبه بعينه، و ليس كذلك أنت، لأنه لا يصلح لكل حاضر فى الجملة، و إنما هو للمخاطب. إن قيل أين خبر أنتم فى «ها أنتم»؟ قيل: يحتمل أمرين:

أحدهما - حاجتكم على أن يكون «هؤلاء» تابعا عطفاً ببيان.

و الثانى - أن يكون الخبر «هؤلاء» على معنى هؤلاء بمعنى الذين و ما بعده صلة له . فان قيل: ما الذى حاجوا فيه مما لهم به علم؟ قلنا: أما الذى لهم به علم فما وجدوه فى كتبهم، لأنهم يعلمون أنهم وجدوه فيها و أما الذى ليس لهم به علم

(١) هكذا وجدناه فى الأصل و هو كما ترى . و فى مجمع البيان . قرأ أهل الكوفة (ها أنتم) بالمد و الهمزة و قرأ أهل المدينة و أبو عمرو بغير مد و لا همزة الا بقدر خروج الالف الساكنة.

و قرأ ابن عامر بالمد دون الهمزة.

ص: ٤٩٢

فشأن إبراهيم على قول السدى و أبى على . و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» يعنى شأن ابراهيم و كلما ليس عليه دليل، لأنه علام الغيوب العالم بغير تعليم «وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» ذلك، فينبغى أن تلتمسوا حقه من باطله من جهة عالم به . قال أبو على الفارسي : وجه قراءة ابن كثير أنه أبدل من الهمزة هاء و التقدير أ أنتم، فأبدل من همزة الاستفهام هاء، و ذلك جائز . قال: و لا يجوز على هذا أن تكون (ها) للتنبيه. و حذف الألف منها فى مثل هلم، لأن الحذف إنما يجوز إذا كان فيها تضعيف

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٧]

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)

آية.

المعنى:

ذكر الحسن، و قتادة، و عامر، و هو

المروى عن أبي جعفر (ع): أن اليهود قالت: كان ابراهيم يهودياً، و قالت النصارى كان نصرانياً، فأكذبهم الله فى ذلك بانزال هذه الآية.

فان قيل: هل كان الله تعبد باليهودية و النصرانية ثم نسخها أم لا؟ قلنا : كان الذى بعثه الله به شرع موسى ثم شرع عيسى ثم نسخهما فأما اليهودية و النصرانية فصفتا ذم قد دل القرآن و الإجماع على ذلك، لأن موسى لم يكن يهودياً، و عيسى لم يكن نصرانياً، لقوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» و اليهودية مله محرفة عن شرع موسى و كذلك النصرانية محرفة عن شرع عيسى. و قيل فى أصل الصفة بيهود قولان:

أحدهما- أنهم ولد يهود. و الآخر- أنه مأخوذ من هاد يهود إذا رجع.

و فى النصارى قولان:

أحدهما- أنه مأخوذ من ناصرة قرية بالشام . و الآخر- أنه من نصر المسيح . و كيف تصرف الحال فقد صارتا صفتى ذم تجريان على فرقتين ضاليتين.

ص: ٤٩٣

فان قيل: إن كان ابراهيم لم يكن يهودياً و لا نصرانياً، لأن التوراء و الإنجيل أنزلا بعده، فيجب أن لا يكون مسلماً، لأن القرآن أيضاً أنزل بعده؟

قلنا: لا يجب ذلك، لأن التوراة و الإنجيل أنزلا من بعده من غير أن يكون فيها ذكر له بأنه كان يهودياً أو نصرانياً. و القرآن أنزل من بعده و فيه الذكر له بأنه كان حنيفاً مسلماً. و قيل فى معنى الحنيف قولان:

أحدهما- المستقيم الدين، لأن الحنف هو الاستقامة فى اللغة . و إنما سمي من كان معوج الرجل أحنف على طريق التفاؤل كما قيل للضرير إنه بصير. و الثانى- إن الحنيف هو المائل إلى الحق فى الدين فيكون مأخوذاً من الحنف فى القدم، و هو الميل. فان قيل: هل كان إبراهيم على جميع ما نحن عليه الآن من شرع الإسلام؟ قلنا : هو (ع) كان مسلماً، و إن كان على بعض شريعتنا، لأن فى شرعنا تلاوة الكتاب فى صلاتنا و ما أنزل القرآن إلا على نبينا، و إنما قلنا : إنه مسلم باقامة بعض الشريعة، لأن أصحاب النبى (ص) كانوا مسلمين فى الابتداء قبل استكمال الشرع. و قد سماه الله تعالى مسلماً، فلا مريّة تبقى بعد ذلك.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٨]

إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

آية واحدة.

المعنى:

معنى قوله: «إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ» أى أحقهم بنصرته بالمعونة أو الحجة، لأن الذين اتبعوه فى زمانه تولوه بالنصرة على عدوه حتى ظهر أمره، و علت كلمته . و سائر المؤمنين يتولونه بالحجة بما كان عليه من الحق و تبرئته من كل عيب، فالله تعالى ولى المؤمنين، لأنه يوليهم النصر، و المؤمن ولى الله لهذا المعنى بعينه . و قيل، لأنه يولى صفاته التعظيم. و يجوز،

ص: ٤٩٤

لأنهم يتولون نصره ما أمر به من الدين. و قيل و اللّ ولى المؤمنين، لأنه يتولى نصرهم . و المؤمنون أولياء الله، لأنهم يتولون نصر دينه الذى أمرهم به.

اللغة:

«و أولى» الذى هو بمعنى أفعّل من غيره لا يجمع و لا يثنى، لأنه يتضمن معنى الفعل و المصدر على تقدير يزيد فضله على فضله فى أفضل منه. و معنى قولنا:

هذا الفعل أولى من غيره أى بأن يفعل . و قولنا زيد أولى من غيره معناه : أنه على حال هو بها أحق من غيره . و قوله: «لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» فالاتباع جريان الثانى على طريقة الاول من حيث هو عليه كالمدلول الذى يتبع الدليل فى سلوك الطريق أو فى التصحيح، لأنه إن صح الدليل صح المدلول عليه لصحته، و كذلك المأموم الذى يتبع الامام.

فان قيل: لم فصل ذكر النبي (ص) من ذكر المؤمنين؟ قلنا: يحتمل أمرين:

أحدهما - أنه بمعنى و الذين آمنوا به، فتقدم ذكره ليدخل في الولاية و يعود إليه الكتابة . و الثاني - أن اختصاصه بالذكر بالحال العليا في الفضل.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٦٩]

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

اللغة:

معنى ودت: تمنى و إذا كانت بمعنى التمنى، فهي تصلح للماضى و الحاضر و المستقبل فلذلك جاز ب (لو) و ليس كذلك المحبة و الارادة، لأنهما لا يتعلقان إلا بالمستقبل فلا يجوز أن يكون بمعنى أرادت «لَوْ يُضِلُّوكُمْ» كما يجوز ودت «لَوْ يُضِلُّوكُمْ»، لأن الارادة تجرى مجرى الاستدعاء إلى الفعل أو مجرى العلة

ص: ٤٩٥

في ترتيب الفعل، فأما التمنى، فهو تقدير شيء في النفس يستمتع بتقريره . و الفرق بين ودّ لو يضلّه، و بين ود أن يضلّه: أن (أن) للاستقبال و ليس كذلك (لو) و قوله: (لو يضلونكم) فالاضلال: الإهلاك بالدخول في الضلال . و أصل الضلال الهلاك من قوله: «أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» ﴿١﴾ أى هلكنا.

المعنى:

و قوله: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ» قيل فيه قولان:

أحدهما - أن المؤمنين لا يقبلون ما يدعونهم إليه من ترك الإسلام إلى غيره من الأديان فيحصل عليهم حينئذ الإثم و الوبال، و الاستدعاء إلى الضلال.

و الثاني - «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ» بفعل الضلال كما يقال ما أهلك إلا نفسه أى لا يعتد بهلاك غيره في عظم هلاكه .

اللغة:

و الفرق بين أضله عن الطريق و بين أخرجه عن الطريق: أن أضله عنه يكون بالاستدعاء إلى غيره دون فعل الضلال . و أخرجه عنه قد يكون بفعل الخروج منه.

و الفرق بين الإضلال و الاستدعاء إلى الضلال أن الإضلال لا يكون إلا إذا قبل المدعو، فأما الاستدعاء إلى الضلال، فيكون، قبل المدعو أم لم يقبل. و حقيقة الإضلال: الدعاء إلى الضلال الذى يقبله المدعو. و قال بعضهم: إنه لا يصح إضلال أحد بغيره. و إنما يقال ذلك على وجه المجاز ذهب إلى أنه يفعل فعل الضلال فى غيره، لأنه لا يوصف بأنه مضل لغيره إلا إذا أضل المدعو باغوائه. قال الرماني:

و هذا غير صحيح، لأنه يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذى يقبله المدعو أكثر مما يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذى لا يقبله المدعو، فلذلك فرق بين الاستدعاءين فوصف أحدهما بالإضلال و لم يوصف الآخر.

(١) سورة الم السجدة آية: ١٠.

ص: ٤٩٦

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٠]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)

آية واحدة بلا خلاف.

اللغة:

قوله: «يا أهل» نصب، لأنه منادى مضاف. و قوله: «لم» أصله لما، لأنها (ما) التى للاستفهام دخلت عليها اللام و إنما حذفت لاتصالها بحرف الاضافة مع وقوعها ظرفا تدل عليها الفتحة. و كذلك قياسها مع سائر حروف الاضافة مثل «فيم تبشرون» «١» «عم يتساءلون» «٢» و إنما حذفت الالف من (ما) فى الاستفهام، و لم تحذف م ن (ما) فى الصلات لأن الظرف أقوى على التغيير من وسط الاسم كما يقوى على التغيير بالاعراب، و التنوين. و الالف فى الصلة بمنزلة حرف فى وسط الاسم، لأنه لا يتم إلا بصلته، و ليس كذلك الاستفهام، لأن الالف فيه منتهى الاسم، و (لم) أصلها (لما) و هى مخالفة عند البصريين ل (كم) على ما قاله الكسائي أن أصلها كما، لأن (كم) مخالفة (لما) فى اللفظ، و المعنى: أما فى اللفظ، فلأنه كان يجب أن تبقى الفتحة لتدل على الالف، كما بقيت فى (لم) و نحوه، و الامر بخلافه. و أما فى المعنى، فلأن (كم) سؤال عن العدد، و (ما) سؤال عن الجنس، فليست مرها فى شىء، و لا لكاف التشبيه فى (كم) معنى، و يلزمه فى متى أن تكون أصلها (ما) إلا أنهم زادوا التاء، لأنه تغيير من غير دليل، فإذا لم يمنع فى أحدهما لم يمنع فى الآخر.

و إنما بنى على نظيره فى حذف الالف، فلذلك يلزمه أن يبنى على نظيره فى زيادة التاء قبل الالف، نحو (رهوتى خير من رحمونى) قال الزجاج: قول الكسائي فى هذا لا يعرج عليه.

(١) سورة الحجر آية: ٥٤.

(٢) سورة النبأ آية: ١.

ص: ٤٩٧

المعنى:

و قوله: «لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» معناه لم تجحدون آيات الله. «وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - وأنتم تشهدون بما يدل على صحتها من كتابكم الذى فيه البشارة بها فى قول قتادة و الربيع و السدى.

و الثانى - وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى تقرون بها . و الشهادة الخبر بالشئ عن مشاهدة: إما للخبر به، و إما لما يظهر به ظهوره بالمشاهدة. فإذا شهد بالإقرار، فهو مشاهدة المخبر به، و إذا شهد بالملك، فهو يظهر به ظهوره بالمشاهدة . و إنما قيل: شهد بالباطل، لأنه يخبر عن مشاهدة فى دعواه. و قوله:

«وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» فيه حذف، و تقديره «وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» ما عليكم فيه الحجة فحذف للإيجاز مع الاستغناء عنه بالتوبيخ الذى تضمنه الكلام. و الحجة فى ذلك من وجهين:

أحدهما - الإقرار بما فيه من البشارة من الكتاب. و الثانى - الإقرار بمثله من الآيات.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧١]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل فى معنى قوله: «لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» ثلاثة أقوال:

أحدها - بتحريف التوراة و الإنجيل فى قول الحسن و ابن زيد.

الثانى - قال ابن عباس، و قتادة: بإظهار الإسلام، و إبطان النفاق، و فى قلوبهم من اليهودية و النصرانية مأمناً، لأنهم يداعوا إلى اظهار الإسلام فى صدر

ص: ٤٩٨

النهار و الرجوع عنه فى آخره لتشكيك الناس فيه.

الثالث - بالايمان بموسى، و عيسى، و الكفر بمحمد (ص).

و الحق الذى كتموه - فى قول الحسن، و غيره من المفسرين - : هو ما وجدوه من صفه النبى (ص) و البشارة به فى كتبهم على وجه العناد من علمائهم.

و قوله: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» فيه حذف و تقديره و أنتم تعلمون الحق، لأن التقرير قد دل على أنهم كتموا الحق و هم يعلمون أنه حق. و لو كتموه و هم لا يعلمون أنه حق لم يلائم معنى التقرير الذى دل على أنهم كتموا الحق و هم يعلمون أنه حق و لم يلائم معنى التقرير الذى دل عليه الكلام . و قيل أيضاً: و أنتم تعلمون الأمور التى يصح بها التكليف . و الأول أصح، لما بيناه من الذم على الكتمان.

فان قيل: إذا كانوا يعلمون الحق فى الدين، فقد صح كونهم معاندين فلم ينكر مذهب أصحاب المعارف الذين يقولون أن كل كافر معاند؟ قلنا: هذا فى قوم مخصوصين يجوز على مثلهم الكتمان، فأما الخلق الكثير، فلا يصح ذلك منهم، كما يجوز الكتمان على القليل، و لا يجوز على الكثير فيما طريقه الاخبار.

على أن فى الآية ما يدل على فساد قول أصحاب المعارف. و هو الاخبار بأنهم كتموا الحق الذى علموا، فلو اشترك الناس فيه، لما صح الكتمان كما لا يصح فى ما يعلمونه من المشاهدات و الضروريات، لاشتراكهم فى العلم به . و قوله: (وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ) رفع، لأنه معطوف على قوله: «تلبسون» و كان يجوز النصب، فتقول:

و تكتُموا الحق على الصرف، كما لو قلت لم تقوم و تقعد كان جائزاً أى لم تجمع الفعلين و أنت مستغن بأحدهما عن الآخر.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٢]

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

آية

ص: ٤٩٩

اللغة:

الطائفة الجماعة. و قيل فى أصلها قولان:

أحدهما - أنه كالرفقة التي من شأنها أن تطوف البلاد في السفر الذي يقع عليه الاجتماع. و الآخر - أنها جماعة يستوى بها حلقة يطاف حولها. و إنما دخلت هاء التأنيث فيها لمعنى المضاعفة اللازمة كما دخلت في الجماعة، لأن في أصل التأنيث معنى التضعيف من أجل أنه مركب على التذكير.

المعنى:

و في قوله: «آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ» ثلاثة أقوال.

أولها - أظهروا الايمان لهم في أول النهار و ارجعوا عنه في آخره، فانه أخرى أن ينقلبوا عن دينهم.

الثاني - آمنوا بصلاتهم إلى بيت المقدس في أول النهار، و اكفروا بصلاتهم إلى الكعبة في آخره ليرجعوا بذلك عن دينهم.

الثالث - أظهروا الايمان في صدر النهار لما سلف لكم من الإقرار بصفة محمد (ص)، ثم ارجعوا في آخره لتوهموهم أنه كان وقع عليكم غلط في صفته.

و الوجه الأول قول أكثر أهل العلم . و وجه النهار هو أوله عند جميع المفسرين، كقتادة، و الربيع، و مجاهد . و انما سمي أول النهار بأنه وجهه لأحد أمرين:

أحدهما - لأنه أول ما يواجه منه كما يقال، لأول الثوب وجه الثوب. الثاني - لأنه كالوجه في أنه أعلاه و أشرف ما فيه قال ربيع ابن زياد:

فليأت نسوتنا بوجه نهار¹»

من كان مسروراً بمقتل مالك

(١) اللسان (وجه) و الاغانى ١٦: ٢٧، و مجاز القرآن ١: ٩٧، و حماسة أبي تمام ٣: ٢٦ و خزائن الأدب ٣: ٥٣٨ من أبيات قالها لما قتل حميمه مالك بن زهير، و قد استعد لطلب ثاره و بعده:

ص: ٥٠٠

و قيل في معنى البيت : انه كان من عادتهم أن لا تنوح نساؤهم على قتلاهم إلا بعد أن يؤخذ بثاره، فأراد الشاعر أن يبين أنهم أخذوا بثار مالك بأن النساء ينحن عليه. و لذلك قال في البيت الذى بعده:

يجد النساء حواسراً يندبنه

و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فيه حذف و تقديره: لعلهم يرجعون عن دينهم فى قول ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و مجاهد.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٣]

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)

آية.

المعنى، و الاعراب:

قال الحسن: القائلين «لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» هم يهود خيبر ليهود المدينة. و قال قتادة، و الربيع، و السدى، و ابن زيد: هم بعض اليهود لبعض.

و قيل فى معنى الآية ستة أقوال:

أحدها - قال الحسن، و مجاهد: أعرض بقوله: «قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ» و تقديره: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» و لا تؤمنوا «أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ» و لا تؤمنوا «أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» لأنه لا حجة لهم. و قال أبو على الفارسى. و تقديره و لا تصدقوا ب «أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ» «إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ».

يبيكين قبل تبليج الاسحار

يجد النساء حوسراً يندبهن

فاليوم حين برزن للنظار

قد كن يخبان الوجوه تستراً

سهل الخليفة طيب الاخبار

يخمشن حرات الوجوه على امرئ

ص: ٥٠١

الثانى - قال السدى، و ابن جريج : هو على الاتصال بالهدى دون الاعتراض، و المعنى «قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ» لا «يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ» أيها المسلمون، كقوله «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا» (١) و أن لا «يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» لأنه لا حجة لهم.

الثالث - قال الكسائى، و الفراء : «أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» بمعنى حتى «يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» على التبعيد كما يقال لا تلتقى معه أو تقوم الساعة.

الرابع - قال أبو على: «قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ» فلا تجحدوا «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ».

الخامس - قال الزجاج: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» لئلا تكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه.

السادس - «أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» ان اعترفت به، فيلزمكم العمل به منهم، لافراقكم بصحته.

و فى دخول اللام فى قوله: «إلا لمن» قيل فيه قولان:

أحدهما - أن تكون زائدة كاللام فى قوله : «رَدِفَ لَكُمْ» (٢) أى ردفكم بمعنى لا تصدقوا إلا من تبع دينكم . قال المبرد: إنما يسوغ ذلك على تقدير المصدر بعد تمام الكلام، فأما قام لزيد بمعنى قا م زيد، فلا يجوز، لأنه لا يحمل على التأويل إلا بعد التمام.

و القول الآخر - لا تعترفوا بالحق «إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» فتدخل للنعيه، و قال أبو على الفارسى لا يجوز أن يتعلق اللام فى قوله: (لمن تبع دينكم) بقوله: «و لا تؤمنوا»، لأنه قد تعلق به حرف الجر فى قوله: (بأن يؤتى) كما لا يتعلق مفعولان بفعل واحد. فان قيل: لم جاز حذف (لا) من قوله تعالى «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ» على قول من قال ذلك؟ قلنا: الدلالة عليها كالدلالة فى

(١) سورة النساء آية: ١٧٥.

(٢) سورة النمل آية: ٧٢.

ص: ٥٠٢

جواب القسم، نحو و الله أقوم أى لا أقوم قال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

و لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى»¹

أى لا أبرح. و الدليل عليه فى الآية اتصاله بالعرض فى اختصاص أهل الايمان، فلا يتبعه فى المعنى إلا على «أن لا» «يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم» و كذلك «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا»^٢ لأن البيان لا يكون طريقاً إلى الضلال.

و قال المبرد تقديره كراهة «أن تضلوا»، و كراهة «أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم» فحملة على الأكثر، لأن حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه أكثر من حذف (لا). و قوله: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» معناه واسع الرحمة عليم بالمصلحة، فمن صلح له ذلك من غيركم فهو يؤتیه تفضلاً عليه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٤]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

آية.

اللغة:

الاختصاص: انفراد بعض الأشياء بمعنى دون غيره، كالانفراد بالملك أو الفعل أو العلم أو السبب أو الطلب أو غير ذلك. و يصح الانفراد بالنفس و غير النفس، و ليس كذلك الاختصاص، لأنه نقيض الاشتراك. و الانفراد نقيض الازدواج.

و الفرق بين الاختصاص، و الخاصة: أن الخاصة تحتل الاضافة و غير الاضافة، لأنها نقيض العامة، فأما الاختصاص، فلا يكون إلا على الاضافة، لأنه اختصاص بكذا دون كذا.

المعنى:

و قيل فى معنى الرحمة هاهنا قولان:

(١) مر البيت فى ٢: ٢٢٧.

(٢) سورة النساء آية: ١٧٥.

ص: ٥٠٣

أحدهما- قال الحسن، و مجاهد، و الربيع، و الجبائي: إنها السورة و قال ابن جريج: هي القرآن، و الإسلام. و وجه هذا القول أنه يختصهم بالإسلام بما لهم من اللطف فيه. و في الآية دلالة على أن النبوة ليست مستحقة بالافعال، لأنها لو كانت جزاء، لما جاز أن يقول يختص بها من يشاء، كما لا يجوز أن يختص بعقابه من يشاء من عباده. فان قيل اللطف مستحق، و ه و يختص به من يشاء من عباده؟

قلنا: لأنه قد يكون لطفاً على وجه الاختصاص دون الاشتراك و ليس كذلك الثواب.

اللغة:

و قوله: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»، فالفضل الزيادة عن الإحسان و أصله على الطلاق الزيادة يقال في بدنه فضل أى زيادة. و الفاضل: الزائد على غيره فى خصال الخير، فأما التفضل، فزيادة النفع على مقدار الاستحقاق ثم كثر استعماله حتى صار لكل نفع قصد به فاعله أن ينفع صاحبه.

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٥]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

آية بلا خلاف.

القراءة، و الحجة:

قرأ أبو عمرو (يؤده إليك) بإسكان الهاء. الباقون باشباعها.

قال الزجاج: هذا غلط من الراوى كما غلط فى (بارئكم) «١» بإسكان

(١) سورة البقرة آية: ٥٤.

ص: ٥٠٤

الهمزة، و إنما كان أبو عمرو يختلس الحركة فيما رواه الضباط عنه كسيبويه و غيره.

و إنما لم يجر حذف الحركة، كما لم يجر فى هذا غلام فاعلم، لأنه لما حذفت الياء تركت الكسرة لتدل عليها.

المعنى، و اللغة:

و القنطار: قد ذكرنا الخلاف فى مقداره، فانه على قول الحسن ألف و مأتا مثقال . و فى قول أبى نضرة ملاء مسك ثور ذهباً . و قيل سبعون ألفاً عن مجاهد.

و عن أبى صالح أنه مائة رطل . و الفرق بين «تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ» و تأمنه على قنطار أن معنى الباء الصاق الأمانة، و معنى على استعلاء الأمانة، و هما يتعاقبان فى هذا الموضع، لتقارب المعنى، كما يقال : مررت به و مررت عليه، و قوله : (إلا ما دمت عليه قائماً) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- «إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِماً» بالتقاضى و المطالبة فى قول قتادة، و مجاهد و [الثانى] قال السدى إلا ما دمت عليه قائماً بالاجتماع معه، و الملازمة. و معناه إلا ما دمت عليه قائماً على رأسه.

و دِمْتُ و دُمْتُ لغتان مثل مت و مت لكن من كسر ال دال و الميم قال فى المستقبل : تدام و تمت، و هى لغة أزد السراة، و من جاورهم.

و قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال قتادة و السدى: قالت اليهود ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل، لأنهم مشركون. و [الثانى] قال الحسن و ابن جريج: لأنهم تحولوا عن دينهم الذى عاملناهم عليه و ادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم . و قوله: (و هم يعلمون) معناه يعلمون هذا الكذب على الله تعالى، فيقدمون عليه، و الحجة قائمة عليهم فيه. و قال قوم: قوله: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُودِّهِ»

ص: ٥٠٥

إِلَيْكَ» يعنى النصارى، لأنهم لا يستحلون أموال من خالفهم، و عنى بقوله:

«وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ» اليهود لأنهم يستحلون مال كل من خالفهم فى حل السبت.

و على هذا يسقط سؤال من يقول أى فائدة فى ذكر ذلك، لأن من المعلوم فى كل حال من كل أمة أن فيها من يؤدى الامانة و فيها من لا يؤديها، فلا فائدة فى ذلك؟

فان هذا ميز بين الفريقين. و من قال بالأول يمكنه أن يقول فائدة الآية القطع على أن فيهم هؤلاء، و هؤلاء و سائر الناس يجوز أن لا يكون فيهم إلا أحد الفريقين، فلذلك فائدة بينة . و يمكن أيضاً أن تكون الفائدة أن هؤلاء لا يؤدون الأمانة لاستحلالهم ذلك بقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ» و سائر الفرق و إن كان منهم من لا يؤدى الامانة، لا نعلم أنه يستحلها و ذلك فائدة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٦]

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

آية.

الهاء فى قوله: «بعده» يحتمل أن تكون عائدة على اسم الله فى قوله:

«وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» و يحتمل أن تكون عائدة على (من) فى قوله:

«بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ» لأن العهد يضاف إلى الفاعل، و المفعول . تقول هذا عهد فلان الذى عهد إليه به، و هذا عهد فلان الذى عهده إلى غيره. و وفى و أوفى لغتان، فأهل الحجاز يقولون أوفيت و أهل نجد يقولون وفيت. و قوله: (بلى) يحتمل معنيين:

أحدهما- الاضراب عن الأول على وجه الإنكار للأول و على هذا الوجه «مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ» تكون مكتفية، نحو قولك: ما قدم فلان، فتقول بلى أى بلى قد قدم. و قال الزجاج: بلى هاهنا وقف تام لأنهم لما قالوا «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» قيل «بلى» أى بلى عليهم سبيل.

و الثانى - الاضراب عن الأول و الاعتماد على البيان الثانى و على هذا الوجه

ص: ٥٠٦

لا تكون مكتفية، نحو ان تقول قد قدم زيد، حدساً لغواً من القول، بلى لو كان متيقناً لعمل على قوله . فكذلك الآية تدل على ما تقدم على ادعائهم خلاف الصواب فى التقوى فقول: «بلى» للاضراب عن الأول، و الاعتماد على البيان الثانى.

و الفرق بين بلى و نعم أن بلى جواب النفى، نحو قوله. «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» «١» فأما أزيد فى الدار فجوابه، نعم، أو، لا. و إنما جاز إمالة بلى لمشايتها الاسم من وجهين.

أحدهما- أنه يوقف عليها فى الجواب، كما يوقف على الاسم نحو من رأيت من النساء، فيقول الحبلى، و كذلك إذا قال أ ليس زيد فى الدار قلت بلى. و لأنها على ثلاثة أحرف و هى أصل العدة التى يكون عليها الاسم و لذلك خالفت (لا) فى الامالة.

و إنما قال «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» و لم يقل فان الله يحبه فيرد العامل إلى اللفظ، لإبانة الصفة التى تجب بها محبة الله و إن كان فيه معنى فان الله يحبهم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٧]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

آية واحدة.

النزول:

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد، و عامر الشعبي : إنها نزلت في رجل حلف يميناً فاجرة في تنفيق سلعته . و قال ابن جريج: إنها نزلت في الأشعث بن قيس و خصم له في أرض قام ليحلف عند رسول الله، فنزلت الآية فنكل الأشعث، و اعترف بالحق، و رد الأرض. و قال عكرمة نزلت في جماعة من

(١) سورة الاعراف آية: ١٧١.

ص: ٥٠٧

اليهود: حى بن أخطب، و كعب بن الأشرف، و أبى رافع، و كنانة بن أبى الحقيق . و قال الحسن كتبوا كتاباً بأيديهم ثم حلفوا أنه من عند الله فيما ادعوا من أنه ليس علينا في الأميين سبيل.

المعنى:

و عهد الله هو ما يلزم الوفاء به . و يستحق بنقضه الوعيد . و هو ما أخذه على العبد و أوجبه عليه بما جعل في عقله من قبح تركه، و ذلك في كل واجب عليه، فانه يلزم بنقضه الوعيد إلا أن يتوب أو يجتنب الكبيرة . و العهد: هو العقد الذى تقدم به إلى العبد بما يجده في عقله من الزجر عن خلاف الحق، و الدعاء إلى التمسك به، و العمل عليه، و إنما وصف ما اشتروه من عرض الدنيا بأنه ثمن قليل مع ما قرن به الوعيد لأمرين:

أحدهما - لأنه قليل في جنب ما يؤدي إليه من العقاب و التكيل . و الثانى - هو أنه مع كونه قليلا، الاقدام فيه على اليمين مع نقض العهد عظيم: و قوله:

«أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ» معناه لا نصيب وافر لهم. و قيل في أصل الخلاف قولان:

أحدهما - الخلق: التقدير، فيوافق معناه، لأن النصيب: الوافر من الخير بالتقدير لصاحبه يكون نصيباً له. و الآخر - من الخلق، لأنه نصيب مما يوجبه الخلق الكريم. و قوله: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» قيل في معناه قولان:

أحدهما - «لا يكلمهم» بما يسرهم بل بما يسوءهم وقت الحساب لهم، لأن الغرض إنما هو الوعيد، فلذلك تبعه معنى لا يكلمهم بما يسر مع أن ظاهر قوله:

«ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ» «١» أنه يكلمهم بما يسوءهم في محاسبته لهم، هذا قول أبى على . الثانى - لا يكلمهم أصلاً، و تثبت المحاسبة بكلام الملائكة لهم (ع) بأمر الله إياهم، فيكون على العادة في احتقار إنسان على أن يكلمه الملك لنقصان المنزلة . و قوله:

(١) سورة الغاشية آية: ٢٦.

ص: ٥٠٨

«وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» أى لا يرحمهم، كما يقول القائل لغيره : انظر إلى يريد ارحمنى و فى ذلك دلالة على أن النظر مع تعديته بحرف (إلى) لا يفيد الرؤية، لأنه لا يجوز حملها فى الآية على أنه لا يراهم بلا خلاف . و قوله: «وَلَا يُزَكِّيهِمْ» معناه لا يحكم بركاتهم دون أن يكون معناه لا يفعل الايمان الذى هو الزكاء لهم، لأنهم فى ذلك، و المؤمنين سواء، فلو أوجب ما زعمت المجبرة، لكان لا يزكيهم، و لا يزكى المؤمنين أيضاً فى الآخرة و ذلك باطل.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٨]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ السَّيِّئِينَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

آية.

اللغة، والمعنى، و الاعراب:

«وَإِنَّ مِنْهُمْ» الكناية بالهاء و الميم راجعة على أهل الكتاب فى قوله : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ» فى قول جميع المفسرين: الحسن و غيره.

و قوله: «يَلُونُ السَّيِّئِينَ» قال مجاهد، و قتادة، و ابن جريج، و الربيع : معناه يحرفونه بالتغيير و التبديل . و أصل اللى: القتل من قولك لويت يده إذا قتلها قال الشاعر:

لوى يده الله الذى هو غالبه»1«

و منه لويت العمود إذا ثبته و قال الآخر:

(١) قاتله فرعان بن الأعرف السعدى التميمي، فى ولده منازل يدعو عليه . لان منازل ضرب والده ع ند ما تزوج على امه . و صدره:

نحون مالى ظالماً و لوى يدى!

و هو من أبيات يقولها فى ابنه منازل لان منازل عقى أباه و هو فرعان و ضربه لأنه تزوج على أمه امرأة شابة، فغضب لأمه ثم استاق مال أبيه و اعتزل مع أمه فقال فيه الأبيات.

ص: ٥٠٩

فلو كان فى ليلى سدى من خصومة للويت أعناق الخصوم الملاويا»1

و منه لويت الغريم لياً و لياناً إذا مطلته حقه قال الشاعر:

تطيلين ليانى و أنت مليئة و احسن يا ذات الوشاح التقاضيا

فقليل لتحريف الكلام بقلبه عن وجهه: لى اللسان به، لأنه قتله عن جهته. و قوله: «لفريقاً» نصب بأنه اسم (ان) و اللام لأم التأكيد و يجوز دخولها على اسم (ان) إذا كان مؤخراً، فان قدم لم يجوز دخولها عليه، لا تقول:

ان لزيداً فى الدار. و إنما امتنع ذلك لثلا يجتمع حرفا التأكيد، لأن (ان) للتأكيد و اللام للتأكيد أيضاً فلم يجوز الجمع بينهما لثلا يتوهم اختلاف المعنى، كما لم يجوز دخول التعريف على التعريف، و التأنيث على التأنيث، فأما قولهم : جاءنى القوم كلهم أجمعون، فكل تأكيد للقوم و أجمعون تأكيد لكل . و قوله: «لِنَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ» معناه لتظنوه. و الفرق بين حسبت و زعمت : أن زعمت يحتمل أن يكون يقيناً أو ظناً، و حسبت لا يحتمل اليقين أصلاً. و قوله: «ألستهم» جمع لسان على التذكير كحمار و أحمره. و يقال ألسن على التأنيث كعناق و أعنق.

المعنى:

وقوله: «وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله بخلاف ما تقوله المجبرة . ولا من فعله، لأنها لو كانت من فعله، لكانت من عنده، وليس لهم أن يقولوا إنها من عنده خلقاً وفعلاً، وليست من عنده إنزالاً ولا أمراً، وذلك أنها لو كانت من عنده فعلاً أو خلقاً، لكانت من عنده على أكد الوجوه فلم يجز إطلاق النفي بأنها ليست من عند الله. وكما لا يجوز أن تكون من عند الله من وجه من الوجوه، لإطلاق النفي بأنه ليس من عند الله، فوجب العموم فيها بإطلاق النفي.

(١) قائله مجنون بنى عامر، و لم نجده فى ديوانه، و هو فى اللسان (شدا)، (شذا)، (لوى) و الاغانى ٢: ٣٣. و غيرها.

ص: ٥١٠

فان قيل: أ ليس الايمان عندكم من عنده، و مع ذلك ليس من عنده من كل الوجوه، فهلا جاز مثل ذلك فى تأويل الآية؟ قيل : لا يجوز ذلك، لأن إطلاق النفي يوجب العموم، و ليس كذلك إطلاق الإثبات ألا ترى أنك تقول: ما عندى طعام، فإنما تنفى القليل، و الكثير، و ليس كذلك إذا قلت عندى طعام، لأنه لا يجب أن يكون عندك جميع الطعام فبان الفرق بين النفي و الإثبات.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٧٩]

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التَّبْوَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)

آية واحدة.

القراءة و النزول:

قرأ ابن كثير، و نافع، و أبو عمرو (تعلمون) مخففاً الباقون بالتشديد.

روى عن ابن عباس أنه قال: سبب نزول هذه الآية أن قوماً من اليهود قالوا للنبي (ص) أ تدعونا إلى عبادتك كما دعا المسيح النصارى فنزلت الآية.

اللغة، و المعنى:

وقوله: (لبشر) فانه يقع على القليل و الكثير و هو بمنزلة المصدر مثل الخلق و غيره ، تقول: هذا بشر و هؤلاء بشر كما تقول : هذا خلق و هؤلاء خلق . وإنما وقع المصدر على القليل، و الكثير، لأنه جنس الفعل كما وجب فى اسماء الأجناس كالماء و

التراب و نحوه و قوله : «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ» معناه أعطاه «الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ»، أن «يَقُولَ لِلنَّاسِ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ» يقول لهم:

ص: ٥١١

«كُونُوا رَبَّانِيِّينَ». و حذف يقول لدلالة الكلام عليه. و معناه فى قول الحسن:

علماء فقهاء. و قال سعيد بن جبیر : حكماء أتقياء. و قال ابن أبى رزین : حكماء علماء. و قال الزجاج: معناه معلمى الناس. و قال غيره: مدبرى أمر الناس فى الولاية بالإصلاح.

اللغة:

و فى أصل ربانى قولان:

أحدهما- الربان و هو الذى يربّ أمر الناس بتدبيره له و إصلاحه إياه، يقال رب أمره يربه ربابةً، و هو ربان : إذا دبره، و أصلحه، و نظيره نعس ينعس، فهو نعسلان. و أكثر ما يجىء فعلان من فعل يفعل، نحو عطش يعطش، فهو عطشان، فيكون العالم ربانياً، لأنه بالعلم يدبر الأمر و يصلحه الثانى - إنه مضاف إلى علم الرب تعالى، و هو على الدين الذى أمر به إلا أنه غير فى الاضافة، ليدل على هذا المعنى، كما قيل: بحرانى، و كما قيل للعظيم الرقبة: رقبانى، و للعظيم اللحية: لحيانى.

و كما قيل لصاحب القصب: قصبانى، فكذلك صاحب علم الدين الذى أمر به الرب ربانى.

الحجة، و المعنى:

و من قرأ بالتخفيف أراد بما كنتم تعلمونه أنتم . و من قرأ بالتشديد أراد تعلمونه، لسواكم . و قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» يقوى قراءة من قرأ بالتخفيف.

و التشديد أكثر فائدة، لأنه يفيد أنهم علماء، و أنهم يعلمون غيرهم. و التخفيف لا يفيد أكثر من كونهم عالمين. و إنما دخلت الباء فى قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ» لأحد ثلاثة أشياء:

أحدها- كونوا معلمى الناس بعلمكم، كما تقول: انفعوهم بمالكم.

الثانى - كونوا ممن يستحق أن يطلق عليه صفة عالم بعلمه على جهة المدح له

ص: ٥١٢

باخلاصه مما يحبطه.

الثالث - كونوا ربانيين في علمكم و دراستكم و وقعت الباء في موضع في.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٠]

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۖ يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)
آية.

القراءة، و الحجة:

قرأ عاصم و حمزة و ابن عامر (و لا يأمركم) بنصب الراء. الباقيون برفعها فمن نصب عطف على ما عملت فيه (أن) على تقدير (ما كان لبشر أن يؤتيه الله) كذا (و لا يأمركم) بكذا و من رفع استأنف الكلام، لأنه بعد انقضاء الآية، و تمامها.

المعنى:

و في الآية دلالة على أن الأنبياء لا يجوز أن يقع منهم ما ذكره دون أن يكون ذلك اخباراً عن أنه لا يقع منهم، لأنها خرجت مخرج التنزيه للنبي عن ذلك كما قال : «ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ» «١» و معناه لا يجوز ذلك عليه، و كذلك قوله : «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ» «٢» يدل على أن ذلك غير جائز عليه، و لو جاز أن يحمل على نفى الوقوع دون الامتناع، لجاز أن يحمل على التحريم دون الانتفاء، لأن اللفظ يصلح له، لو لا ما قارنه من ظاهر التعظيم للأنبياء، و التنزيه لهم عن الدعاء إلى الفساد أو اعتقاد الضلال، و يجب حمل الكلام على ظاهر الحال إلا أن يكون هناك ما يقتضى صرفه عن ظاهره، على أنه لو حمل على النفي لما كان فيه تكذيب للمخالف. و الآية خرجت مخرج التكذيب لهم في

(١) سورة مريم آية: ٣٥.

(٢) سورة المؤمنون آية: ٩٢.

ص: ٥١٣

دعواهم أن المسيح أمرهم بعبادته.

و الالف في قوله : «أ يأمركم» ألف انكار و أصلها الاستفهام . و إنما استعملت في الإنكار، لأنه مما لو أقر به المخاطب به، لظهرت صحته و بان سقوطه، فلذلك جاء الكلام على السؤال، و إن لم يكن الغرض تعرف الجواب.

و إنما لم تجز العبادة إلا لله تعالى، لأنها تستحق بأصول النعم من خلق القدرة، و الحياة، و العقل، و الشهوة، و غير ذلك مما لا يقدر عليه سواه. و ليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح كفرًا، لأن قوله : «أ يأمركم بالكفر» معناه الامر باعتقاد أن

الملائكة و النبيين أرباب، و ذلك كفر لا محالة . و لم يجر في الآية، لتوجيه العبادة إليهم ذكر، فأما من عند غير الله فانا نقطع على أن فيه كفراً هو الجحد بقلب، لأن نفس هذا الفعل كفر، فسقطت شبهة المخالف .

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨١]

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)

القراءة، و المعنى:

قرأ نافع «لما آتيناكم» على الجمع. الباقيون على التوحيد بالتاء. و قرأ حمزة «لما» بكسر اللام. الباقيون بفتحها. التقدير اذكروا «إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» لأن (إِذْ) لما مضى و معنى أخذ الميثاق من النبيين بنصرة من لم يلقوه و لم يدركوا زمانه هو أنهم ينصرونه بتصديقه عند قومهم، و يأمرونهم بالإقرار به، كما قيل:

إنما أخذ الله ميثاق النبيين الماضين بتصديق محمد (ص)، هذا قول على (ع)

ص: ٥١٤

و عبد الله بن عباس (ره)، و قتادة و السدي، و قال طاوس: أخذ الميثاق الأول من الأنبياء لتؤمنن بالآخر.

و روى عن أبي عبد الله (ع) أنه قال تقديره: و إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين بتصديق كل أمة نبيها، و العمل بما جاءهم به، و إنهم خالفوه فيما بعد، و ما وفوا به و تركوا كثيراً من شريعته، و حرفوا كثيراً منه.

الاعراب، و الحجة، و المعنى:

و قوله: «لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ» قيل في معنى (ما) في لما وجهان:

أحدهما - أنها بمعنى الذى و تقديره الذى آتيتكموه من كتاب، لتفعلن لأجله كذا. الثانى - أنها بمعنى الجزاء، و تقديره، لان آتيتكم شيئاً «مِنْ كِتَابٍ، وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ»، «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ»، لأجله. و تقديره أى شىء آتيتكم. و مهما آتيتكم. و يكفى جواب القسم من جواب الجزاء، كقوله: «لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» «١» و فى معنى (من) قولان:

أحدهما - أنها للتبيين ل (ما) كقولك ما عندك من ورق و عين.

الثانى - أن تكون زائدة، و تقديره الذى آتيتكم : كتاب و حكمة، فيكون فى موضع خبر (ما)، و أنكر هذا القول أكثر النحويين، لأن (من) لا تزداد إلا فى غير الواجب من نحو النفى و الاستفهام، و الجزاء . و الأول أصح، لأنه لا يجوز أن يحكم بزيادة حرف أو لفظ مع إمكان حمله على فائدة. و اللام فى قوله:

«لما» لام الابتداء. و اللام فى قوله: «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» لام القسم، كما تقول لعبد الله: و الله لتأتينه. و قال قوم: اللام الأول خلف من القسم يجب بجاوبه، نحو لمن قدم ما أحسن، و لمن أتاك لأتيته، و أنكر هذا القائل أن تكون الثانية تأكيداً للأولى، لوقوع (ما) و (لا) فى جوابها، كما تقع فى جواب القسم.

و القول الأول أصح، لأن فيه افصاحاً بالقسم، نحو لزيد و الله ما ضربته و القول

(١) سورة الزمر آية: ٦٥.

ص: ٥١٥

الثانى - صواب على تقدير آخر، و ان يكون اللام خلفاً من القسم، كافياً منه، فلا يحتاج إلى ذكره معه و من ذكره معه لم يجعله خلفاً منه، لأنه أضعف منه، و الخلف أقوى من الدال الذى ليس بخلف، لأنه بمنزلة الأصل الموضوع للمعنى يفهم به من غير واسطة. و من كسر اللام فى قوله: «لما» يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون على التقديم و التأخير. و الثانى - بمعنى أخذ الله ميثاقهم لذلك. و قال بعضهم القراءة بالكسر لا تجوز، لأنه ليس كل شىء أوتى الكتاب و هذا غلط من وجهين:

أحدهما - أنه أوتى الكتاب لعلمه به مهتدياً بما فيه، و ان لم ينزل عليه.

و الآخر - أنه يجوز ذلك على التغليب بالذكر فى الجملة، لأنه بمنزلة من أوتى الكتاب بما أوتى من الحكم و النبوة. فان قيل لم لا يجوز أن يكون (لما) آتينكم من كتاب و حكمة، بمعنى لتبلغن ما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم يحذف؟ قيل لأنه لا يجوز الحذف فى الكلام من غير دليل ينبئ عن المراد. و من زعم أن الدليل على حذف الفعل لام القسم، فقد غلط، لأنها لام الابتداء التى تدخل على الأسماء، نحو «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» «١».

المعنى و اللغة:

و قيل فى معنى قوله: «وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ بِإِصْرِي» قولان:

أحدهما - و قبلتم على ذلك عهدى. و الثانى - «وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ بِإِصْرِي» من المتبعين لكم كما يقال: أخذت بيعتى أى قبلتها، و أخذتها على غيرك بمعنى عقدتها على غيرك. و الإصر العقد، و جمعه أصار و أصله العقد و منه المأصر، لأنه عقد يحبس به عن النفوذ إلا بإذن. و منه الأصر الثقل، لأنه عقد يتقل القيام به. و منه قولهم مالك أصره تأصرنى عليك أى عاطفة تعطفنى عليك من عقد جوار

ص: ٥١٦

أو نحوه. و قوله: «فاشهدوا» معناه فاشهدوا على أممكم بذلك «وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» عليكم، و عليهم روى ذلك عن على بن أبى طالب عليه السلام.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٢]

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

آية.

المعنى:

التولى عن الايمان بالنبي (ص) كفر - بلا خلاف - و إنما قال «فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» و لم يقل الكافرون، لأن تقدير الكلام فأولئك هم الفاسقون فى كفرهم أى المتمردون فيه بخروجهم إلى الأفحش منه، و ذلك أن أصل الفسق الخروج عن أمر الله إلى حال توبقه، فلذلك قيل للخارج عن أمر الله إلى أفحش منازل الكفر، فاسق.

الاعراب:

و موضع (هم) من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون رفعاً بأنه مبتدأ ثان و الفاسقون خبره . و الجملة خبر أولئك . و الآخر - أنه لا موضع له، لأنه فصل جاء ليؤذن أن الخبر معرفة أو ما قارب المعرفة و يسمى الكوفيون ذلك عماداً . و قوله: «فَمَنْ تَوَلَّى» و إن كان شرطاً و جزاء فى المستقبل فان الماضى يدخل فيه من وجهين:

أحدهما - أن يكون تقديره فمن يصح أنه تولى، كما قال : «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ» «١» أى إن يصح أن «قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ» و الآخر مساواة الماضى للمستقبل، فيدخل فى دلالة . و إنما جاز جواب الجزاء بالفاء و لم يجز ب (ثم)، لأن الثانى يجب بوجوب الأول بلا فصل، فلذلك جاء

ص: ٥١٧

بالفاء دون (ثم)، لأنها للتراخي بين الشيئين، وذلك نحو قولك إن تأتني، فلك درهم، فوجوب الدرهم بالإتيان عقيبه بلا فصل . وإنما جاز وقوع الماضي موقع المستقبل في الجزاء و لم يجز في قام زيد غداً، لأن حرف الجزاء، لما كان يعمل في الفعل قوى على نقله من الماضي إلى الاستقبال، و ليس كذلك (غد) و ما أشبهه مما يدل على الاستقبال، لأنه نظير الفعل في الدلالة من غير عمل يوجب القوة، فلذلك جرى على المناقضة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٣]

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)
. آية.

القراءة، و الحجة، و الاعراب:

قرأ أهل البصرة، و حفص ييغون بالياء . الباقون بالتاء. و قرأ يعقوب و حفص و إليه يرجعون بالياء . و كسر يعقوب الجيم، و فتح الياء. فمن قرأ بالياء أراد الاخبار عن اليهود و غيرهم من المشركين و التاء لجميع المكلفين . و من قرأ بالتاء فيهما، فعلى الخطاب، فيهما. قوله: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ» عطف جملة على جملة مثلها لو قيل أو غير دين الله ييغون إلا أن الفاء رتبت. كأنه قيل أبعد تلك الآيات غير دين الله تبغون أى تطلبون.

المعنى:

و قوله: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» قيل في معناه ستة أقوال:

أولها - قال ابن عباس: أسلم من في السماوات و الأرض بالحالة الناطقة عنه الدالة عليه عند أخذ الميثاق عليهم.

ص: ٥١٨

الثاني - قول أبي العالبي، و مجاهد: ان معناه «أسلم» أى بالإقرار بالعبودية و إن كان فيهم من أشرك في العبادة، كقوله : «وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» «١» و قوله: «وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» «٢» و معناه ما ركب الله في عقول الخلائق من الدعاء إلى الإقرار بالربوبية ليتنبهوا على ما فيه من الدلالة.

الثالث - قال الحسن: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» قال: أكره أقوام على الإسلام و جاء أقوام طائعين.

الرابع - قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً، و الكافر كرهاً عند موته، كما قال:

«فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» «٣» و اختاره البلخي. و معناه التخويف لهم من التأخر عما هذه سبيله.

الخامس - قال عامر، و الشعبي و الزجاج، و الجبائي أن معنان: استسلم بالانقياد و الذلة، كما قال تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» ﴿٤﴾ أى استسلمنا، و معناه الاحتجاج به.

و سادسها - قال الفراء و الأزهري إنما قال «طَوْعاً وَ كَرْهاً» لأن فيهم من أسلم ابتداء رغبة في الإسلام، و فيهم من أسلم بعد أن قوتل و حورب، فسمى ذلك كرهاً مجازاً و إن كان الإسلام وقع عنده طوعاً.

و قوله: «طَوْعاً وَ كَرْهاً» نصب على أنه مصدر، وقع موقع الحال، و تقديره طائعاً أو كارهأ، كما تقول أتانى ركضاً أى راكضاً. و لا يجوز أن تقول أتانى كلاماً أى متكلماً، لأن الكلام ليس بضرب من الإتيان و الركض ضرب منه.

قوله: «إليه ترجعون» معنا تردون إليه للجزاء فيأياكم و مخالفة الإسلام فيجازيكم بالعقاب . قال الله تعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» ﴿٥﴾.

(١) سورة الزخرف آية: ٨٧.

(٢) سورة لقمان آية: ٢٥.

(٣) سورة المؤمن آية: ٨٥.

(٤) سورة الحجرات آية: ١٤.

(٥) سورة آل عمران آية: ٨٥.

ص: ٥١٩

النزول:

و روى عن أبى عبد الله (ع) أنها نزلت في الحارث بن سويد بن الصامت.

و كان ارتد بعد قتله المحذر بن ديار البلوى غدرأ في الإسلام، و هرب و حديثه مشروح ثم ندم، فكاتب قومه سلوا رسول الله (ص) هل لى توبة، فنزلت الآيات إلى قوله: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا»، فرجع فأسلم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٤]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

آية.

المعنى:

قيل في تأويل هذه الآية قولان:

أحدهما - أن معناها الإنكار على الكفار ما ذهبوا إليه من الايمان ببعض النبيين دون بعض، فأمر الله تعالى النبي (ص)، و المؤمنين أن يقولوا: إنا نؤمن بجميع النبيين، و لا نفرق بين أحد منهم. الثانى - أن معناها موافقة ما تقدم الوعد به من إيمان النبى الامى بجميع من تقدم من النبيين على التفصيل . و قال له فى أول الآية (قل) خطاباً للنبي (ص) فجرى الكلام على التوحيد، و ما بعده على الجمع.

و قيل فى ذلك قولان:

أحدهما أن المتكلم قد يخبر عن ن فسه بلفظ الجمع للتفخيم كما قال تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» (١). و الثانى - أنه أراد دخول الأمة فى الخطاب الأول، و الأمر بالإقرار. و يجوز أن يقال: فى الواحد

(١) سورة الاعراف آية: ١٠.

ص: ٥٢٠

المتكلم، فعلنا و لا يجوز للواحد المخاطب فعلتم. و الفرق بينهما: أن الكلام بالجملة الواحد يصح بجماعة مخاطبين، و لا يصح الكلام بالجملة الواحد بجماعة متكلمين.

فلذلك جاز فى فعلنا فى الواحد للتفخيم، لأنه لا يصح أن يكون خطاباً للجماعة فلم يصرف عنهم . بغير قرينة لما يدخله من الإلباس فى مفهوم العبارة. و قوله:

«وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» فى الاخبار عن المسلمين إنما جاز ذلك، و إن كان قد أنزل على النبى (ص)، لأن التقدير أنزل علينا على لسان نبينا كما تقول: أمرنا به و نهينا عنه - على لسان ربنا -، و مثل ذلك ما قاله فى سورة البقرة من قوله : «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» (١) و قال بعضهم: لا يجوز أن يكون ذلك إلا إخباراً عن النبى (ص) الذى أنزل عليه، و هذا غلط، لأن الآية الأخرى تشهد بخلافه. فان قيل: ما معنى قوله: «وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ» بعد الإقرار بالايمان على التفصيل؟

قيل: معناه و نحن له مستسلمون بالطاعة فى جميع ما أمر به، و دعا إليه . و لأن أهل الملل المخالفة، تعترف بصفة مؤمن، و ينتفى من صفة مسلم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٥]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

آية واحدة.

اللغة، و النزول، و المعنى:

الابتغاء: الطلب تقول: بغى فلان كذا أى طلبه، و منه بغى فلان على فلان : إذا طلب الاستعلاء عليه ظلماً و منه البغى : الفاجرة، لطلبها الزنى. و منه ينبغى كذا، لأنه حقيق بالطلب. و الإسلام: هو الاستسلام لأمر الله بطاعته فيما دعا إليه، فكل ذلك اسلام، و ان اختلفت فيه الشرائع، و تفرقت المذاهب، لأن مبتغيه ديناً ناج، و مبتغى غيره ديناً هالك. و الايمان، و الإسلام واحد،

(١) سورة البقرة آية: ١٣٦.

ص: ٥٢١

لأن (مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا) فهو مبطل، كما أن من يبتغى غير الايمان ديناً، فهو مبطل، و ذلك كمن يبتغى غير عبادة الآله ديناً، فهو كافر، و من يبتغى غير عبادة الخالق ديناً، فهو كافر. و الآله هو الخالق.

و قال عكرمة: إن قوماً من اليهود قالوا: نحن المسلمون، فأنزل الله تعالى «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» «١» فأمرهم بالخروج إلى الحج الذى هو من فرض الإسلام، ففعدوا عنه و بان انسلامهم من الإسلام، لمخالفتهم له فأنزل الله تعالى «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» فالخسران ذهاب رأس المال. و يقال: خسر نفسه أى أهلك نفسه. و قيل خسر عمله أى أبطل عمله بأن أوقعه على وجه يقبح لا يستحق عليه الثواب. و كل واحد منهما خسر لذهاب رأس المال.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٦]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)

آية.

النزول:

قال الحسن: نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالنبي (ص) قبل مبعثه بما يجدونه فى كتبهم من صفاته و دلائله، فلما بعثه الله جحدوا ذلك، و أنكروه .. و قال مجاهد، و السدى:

نزلت فى رجل من الأنصار يقال له الحارث بن سويد ارتد عن الإسلام، ثم تاب، و حسن إسلامه فقبل الله إسلامه بقوله : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فيما بعد تمام الآية. و كذلك رويناه عن أبى عبد الله (ع)

و قيل نزلت فى قوم أرادوا من النبى (ص) أن يحكم لهم بالإسلام،

(١١) سورة آل عمران آية: ٩٧.

ص: ٥٢٢

و فى قلوبهم الكفر، فاطلعه الله على أسرارهم و ما فى ضمائرهم:

اللغة، والمعنى:

و قوله «كيف» أصلها للاستفهام، و المراد بها هاهنا إنكار أن تقع هذه الهداية من الله تعالى. و إنما دخل (كيف) معنى الإنكار مع أن أصلها الاستفهام، لأن المسئول يسأل عن أغراض مختلفة، فقد يسأل للتعجيز عن إقامة البرهان، و قد يسأل لـ لتوبيخ مما يظهر من معنى الجواب فى السؤال، و قد يسأل لما يظهر فيه من الإنكار، فالأصل فيه الاستفهام، لكن من شأن العالم إذا أورد مثل هذا أن يصرف إلى غير الاستعلام إلا أنه يراد من المسئول طلب الجواب، فان قيل كيف خص هؤلاء المذكورون بمجىء البينات مع أنها قد جاءت كل مكلف للإيمان قيل عنه جوابان:

أحدهما- لأن البينات التى جاءتهم هى ما فى كتبهم من البشارة بالنبى (ص).

الثانى - للتباعد من حال الهداية و التفحيش لتجويزها فى هذه الفرقة. و قوله:

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فالهداية هاهنا تحتل ثلاثة أشياء.

أولها سلوك طريق أهل الحق المهتدين بهم فى المدح لهم و الثناء عليهم.

الثانى - فى اللفظ الذى يصلح به من حسنت نيته. و كان الحق معتمده، و هو أن يحكم لهم بالهداية.

الثالث - فى إيجاب الجواب الذى يستحقه من خلصت طاعته، و لم يحبطهما بسوء عمله. فان قيل كيف أطلق قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» مع قوله «وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدِينَاهُمْ» قلنا: لأنه لا يستحق إطلاق الصفة بالهداية إلا على جهة المدح كقوله أولئك الذين هدى الله. فأما بالتقييد، فيجوز لكل مدلول إلى طريق الحق اليقين.

و ليس فى الآية ما يدل على صحة الإحباط، للإيمان و لا إحباط المستحق عليه من الثواب، لأنه لم يجر لذلك ذكر. و قوله: «كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» يعنى بعد

ص: ٥٢٣

إظهارهم الايمان و شهادتهم أن الرسول حق، و إن كانوا فى باطنهم منافقين . و ليس فيها أنهم كانوا فى باطنهم مؤمنين مستحقين للثواب، فزال ذلك بالكفر فلا متعلق بذلك فى صحة الإحباط.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٧]

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)

آية.

إن قيل: إذا كان لعن الملائكة و الناس أجمعين تابعا لعن الله، فهلا اقتصر عليه فى الذكر؟ قيل الوجه فى ذلك أن لا يوهم أن لعنهم لا يجوز إلا لله عز و جل كما لا يجوز أن يعاقبهم إلا الله أو من يأمرهم بذلك . و ليس فى قوله: «وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» دلالة على أنه يجوز للكافر أن يلعن نفسه، لأن لعنه لنفسه دعاء عليها بالابعاد من رحمة الله . و ذلك يوجب رغبته فيما دعا به، و لا يجوز لأحد أن يرغب فى أن يعاقبه الله، لأن ذلك ينافى الزجر به و التحذير منه . و أما رغبة المؤمن فى أن يعاقب الله الكافر فجائز حسن، لأنه لا ينافى زجره بل هو أبلغ فى زجره، فان قيل: لم قال: «وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» و من وافق الكافر فى مذهبه لا يرى لعنه؟

قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها- إن له أن يلعنه، و إنما لا يفعله لجهله بأنه يستحق اللعن . و يصح منه معرفة الله، و معرفة استحقاق اللعن لكل كافر، فحينئذ يعلم أن له أن يلعنه و إنما لا يصح أن يلعن الكافر مع اعتقاده أنه لا يستحق اللعن، لأنه لو صح ذلك لأدى إلى أن يصح أن يلعن نفسه لمشاركته له فيما استحق به اللعن. و قد بينا فساد.

و الثانى- أن ذلك فى الآخرة، لأن بعضهم يلعن بعضاً. و قد استقرت عليهم لعنة الجميع، و إن كانت على التفويق.

و الثالث- أن يحمل لفظ الناس على الخصوص، فيحمل على ثلاثة فصاعداً،

ص: ٥٢٤

فلذلك قال: «أجمعين» و كان يجوز أن يرفع «وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» لأن الأول تقديره عليهم أن يلعنهم الله، فيحمل الثانى على معنى الأول، كما قال الشاعر:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق¹

و الاتباع أجود ليكون الكلام على نسق واحد، و إنما ذكر وعيد الكفار هاهنا مع كونه مذكوراً في مواضع كثيرة في القرآن، للتأكيد و تغليظاً في الزجر لأنه لما جرى ذكر الكافر عقب ذلك بلعنه، و وعيده، كما إذا جرى ذكر المؤمن عقب ذلك بالرحمة ليكون أرغب له في فعل الطاعة و التمسك بالایمان.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٨]

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)

آية.

اللغة:

الخلود في اللغة هو طول المكث، و لذلك يقال خلد في السجن و خلد الكتاب في الديوان. و قيل للأثافي: خوالد ما دامت في موضعها، فإذا زالت لا تسمى خوالد. و الفرق بين الخلود و الدوام: أن الخلود يقتضي (في) كقولك خلد في الحبس و لا يقتضي ذلك الدوام، و لذلك جاز وصفه تعالى بالدوام دون الخلود.

إلا أن خلود الكفار المراد به التأييد بلا خلاف بين الأمة.

المعنى:

و قوله: «فيها» الهاء راجعة إلى اللعنة. و معنى خلودهم فيها استحقاقهم لها دائماً مع ما توجه من أليم العقاب، فأما من ليس بكافر من فساق أهل الصلاة

(١) مر تخريجه في ١: ٢٠٧.

ص: ٥٢٥

فلا يتوجه إليه الوعيد بالخلود، لأنه لا يستحق إلا عقاباً منقطعاً به مع ثبوت استحقاقه للثواب الدائم، لأنه لو كان كذلك لأدى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم، و العقاب الدائم لشخص واحد. و الإجماع بخلافه. و الإحباط - عندنا - باطل، فلا يمكن أن يقال يحبط أحدهما الآخر، و إنما حسن العقاب الدائم على المعاصي المنقطعة، كما حسن الثواب الدائم على الطاعة المنقطعة، فلا يجوز أن يستحق الدوام على الأصغر، و لا يستحق على الأكثر، فلما كانت نعم الله تعالى أعظم النعم كانت معاصيه أعظم المعاصي، و كانت طاعته أصغر منها. و أيضاً، فانه يحسن الذم للدائم على المعاصي المنقطعة فالعقاب يجري مجراه.

اللغة:

و قوله: «لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ» فالتخفيف هو تغيير الشيء عن حال الصعوبة إلى السهولة، وهو تسهيل لما فيه كلفة ومشقة وأصله من خفة الجسم ضد ثقله . ومنه تخفيف المحنة معناه تسهيلها . وقوله: «وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» معناه لا يمهلون وإنما نفى إنظارهم للأنابة لما علم من حالهم أنهم لا ينبئون كما قال: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» (١) على أن التبقيئة ليست واجبة . وإن علم أنه لو بقاء لتاب وأناب عند أكثر المتكلمين . ومن قال يجب تبقيئته متى علم أنه لو بقاء لآمن، فجوابه هو الأول . وقيل في الفرق بين الانظار والامهال أن الانظار تأخير العبد لينظر في أمره . والامهال تأخيره لتسهيل ما يتكلفه من عمله .

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٨٩]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

آية.

(١) سورة الانعام آية: ٢٨.

ص: ٥٢٦

المعنى:

إن قيل إذا كانت التوبة من الذنب لا تصلح إلا بعد فعله، فلم قال : «مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ»؟ قيل فائدته أنه يفيد معنى تابوا منه، لأن توبتهم من غيره لا تنفع في التخلص منه، كما لا تنفع التوبة من الكبير في التخلص من الصغير، فأما من قال:

إن التوبة من معصية لا تصح مع الإقامة على معصية أخرى، فانه يقول ذلك على وجه التأكيد، فان قيل : إذا كانت التوبة وحدها تسقط العقاب وتحصل الثواب فلم شرط معها الإصلاح؟ قيل الوجه في ذلك إزالة الإيهاام لثلا يعتقد، أنه إذا حصل الايمان، و التوبة من الكفر لا يضر معه شيء من أفعال القبائح، كقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (١) فذكر مع الايمان عمل الصالحات، لازالة الإيهاام بأن من كان مؤمناً في الحكم، لم يضره مع ذلك ما عمله من المعاصي . وقبول التوبة واجب، لأنها طاعة واستحقاق الثواب بها ثابت عقلاً، فأما سقوط العقاب عندها، فإنما هو تفضل من الله، ولو لا أن السمع ورد بذلك، وإلا، فلا دلالة في العقل على ذلك . وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» دخلت الفاء لشبهه بالجزاء، إذا كان الكلام قد تضمن معنى إن تابوا «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى يغفر لهم و ليست في موضع خبر الذين، لأن الذين في موضع نصب بالاستثناء من الجملة الأولى التي هي قوله: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَغْنَةُ اللَّهِ» الآية، وذكر المغفرة في الآية دليل على أن إسقاط العقاب بالتوبة تفضل، لأنه لو كان واجباً لما استحق بذلك الإثم بأنه غفور، لأنه لا يقال هو غفور إلا فيما له المؤاخذه، فأما ما لا يجوز المؤاخذه به فلا يجوز تعليقه بالمغفرة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

(١١) سورة حم السجدة آئ: ٨.

ص: ٥٢٧

آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل فى المعنى بهذه الآية أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس هى فرقة ارتدت ثم عزمت على إظهار التوبة على جهة التورية، فاطلع الله نبيه على ذلك بانزال هذه الآية. وقال أبو العالية لم تقبل توبتهم من ذنوب أصابوها مع الإقامة على كفرهم. وقال قتادة: هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعبسى «ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا» بمحمد (ص) «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» عند حضور موتهم. وقال الحسن: هم اليهود والنصارى كفروا بالنبي (ص) «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» التى كانت فى حال إيمانهم، فان قيل: لم لم تقبل التوبة من هذه الفرقة؟ قيل: لأنها كفرت بعد إيمانها ثم ازدادت كفراً إلى انقضاء أجلها، فحصلت على ضالتها، فلم تقبل منها التوبة الاولى فى حال كفرها بعد إيمانها، ولا التوبة الثانية فى حال إيجابها. وقيل: إنما لم تقبل توبتهم، لأنهم لم يكونوا فيها مخلصى ن بدلالة قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ». وقال الطبرى: إنه لا يجوز تأويل من قال لن تقبل توبتهم عند حضور موتهم. قال: لأنه لا خلاف بين الأمة أن الكافر إذا أسلم قبل موته بطرفة عين فى أن حكمه حكم المسلمين فى وجوب الصلاة عليه و مواريثه ودفنه فى مقام الم سلمين و اجراء جميع أحكام الإسلام عليه، و لو كان إسلامه غير صحيح، لما جاز ذلك. و هذا الذى قاله ليس بصحيح، لأنه لا يمتنع أن نتعبد بإجراء احكام الإسلام عليه و ان كان إسلامه على وجه من الإلجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب عليه، كما أنا تعبدنا بإجراء أحكام الإسلام على المنافقين و إن كانوا كفاراً. و إنما لم يجز قبول التوبة فى حال الإلجاء إليه، لأن فعل الملجأ كفعل المكره فى سقوط الحمد و الذم. و قد قال الله تعالى: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ» (١). وقال:

(١) سورة النساء آية: ١٧.

ص: ٥٢٨

«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» (١) فأما إذا عاد فى الذنب، فلا يعود إليه العقاب الذى سقط بالتوبة، لأنه إذا تاب منه صار بمنزلة ما لم يعمل، فلا يجوز عقابه عليه كما لا يجوز

عقابه على ما لم يعمله سواء قلنا أن سقوط العقاب عند التوبة كان تفضلاً أو واجباً . و قد دل السمع على وجوب قبول التوبة و عليه إجماع الأمة. و قال تعالى «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» ﴿٢﴾ و قال:

«غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» ﴿٣﴾ و غير ذلك من الآى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

آية.

اللغة:

الملء أصله الملاء، و هو تظفيح الأثناء . و منه الملاء الاشراف، لأنهم يملئون العين هيبه و جلاله . و منه رجل ملئء بالأمر، و هو أملاء به من غيره. و الملاء اسم للمقدار الذى يملأ. و الملاء بفتح العين مصدر ملأت الأثناء ملأ. و مثله الرعى بكسر الراء: النبات، و بفتح الراء مصدر رعيته. قال الزجاج: و من قال: هما سواء فقد غلط.

الاعراب:

و قوله: «ذهباً» نصب على التمييز. و التمييز على ضربين تمييز المقادير و تمييز الاعداد و كله مستحق النصب لاشتغال العامل بالاضافة أو ما عاقبها من النون

(١) سورة المؤمن آية: ٨٤ - ٨٥.

(٢) سورة الشورى آية: ٢٥.

(٣) سورة المؤمن آية: ٣.

ص: ٥٢٩

الزائدة، فجرى ذلك مجرى الحال فى اشتغال العامل بصاحبها، و مجرى المفعول فى اشتغال العامل عنه بالفاعل . و مثل ذلك، عندى ملء زق عسلا و قدر نحى سمناً.

المعنى:

و قوله: «وَلَوْ افْتَدَى بِهِ» فالفدية البدل من الشيء في إزالة الأذية . و منه قوله: «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» ﴿١﴾ لأنه بدل منه في إزالة الذبح عنه، و منه فداء الأسير بغيره، لأنه بدل منه في إزالة القتل و الأسر عنه. و قيل في معنى الافتداء هاهنا قولان:

أحدهما- البيان عن أن ما كلفه في الدنيا يسير في جنب ما يبذله في الآخرة من الفداء الكثير لو وجد إليه السبيل، قال قتادة يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أ رأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، لكنت تفتدى به، فيقول: نعم، فيقال لقد سئلت أيسر من ذلك، فلم تفعل.

و الثاني- ما حكاه الزجاج أنه لو افتدى به في دار الدنيا مع الإقامة على الكفر لم يقبل منه . و قيل في دخول الواو في قوله «وَلَوْ افْتَدَى بِهِ» قولان قال:

قوم: هي زائدة أجاز ذلك الفراء . و المعنى لو افتدى به . قال الزجاج: و هذا غلط، لأن الكلام يجب حمله على فائدة إذا أمكن، و لا يحمل على الزيادة . و الثاني- أنها دخلت لتفصيل نفى القبول بعد الإجمال، و ذلك أن قول ه «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» قد عم وجوه القبول بالنفي ثم أتى بالتفصيل، لئلا يتطرق عليه سوء التأويل، و لو قيل : بغير واو لم يكن قد عم النفي وجوه القبول، فقد دخلت الواو لهذه الفائدة من نفى التفصيل بعد الجملة، فأما الواو في قوله «وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فإنها عاطفة على محذوف في التقدير، و المعنى «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ليعتبر «وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» ﴿٢﴾.

(١) سورة الصافات آية: ٧.

(٢) سورة الانعام آية: ٧٥.

ص: ٥٣٠

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٢]

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

آية واحدة.

المعنى:

قيل في معنى البر قولان:

أحدهما- البر من الله بالثواب في الجنة. الثاني- البر بفعل الخير الذي يستحقون به الأجر. و قال السدي و عمرو بن ميمون: البر الجنة.

فان قيل: كيف قال «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» و الفقير لا يجب عليه الصدقة و ينال الجنة، و ان لم ينفق؟ قلنا : الكلام خرج مخرج الحث على الصدقة إلا أنه على ما يصح و يجوز من إمكان النفقة، فهو مقيد بذلك فى الجملة إلا أنه اطلق الكلام للمبالغة فى الترغيب فيه . و يجوز «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» فى سبيل الخير من الصدقة من وجوه الطاعة . و قال الحسن: هو الزكاة الواجبة و ما فرض تعالى فى الأموال خاصة . و الأولى أن تحمل الآية على الخصوص بأن يقول : هى متوجهة إلى من يجب عليه إخراج شىء أوجبه الله عليه دون من لم يجب عليه، و يكون ذلك أيضاً مشروطاً بأن لا يعفو الله عنه - على مذهبنا فى جواز العفو - أو يقول «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ» الكامل الواقع على أشرف الوجوه «حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» إنما جاء على جهة جواب الشرط و إن كان الله يعلمه على كل حال، لامرين:

ص: ٥٣١

أحدهما - لأن فيه معنى الجزاء، فتقديره «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ» يجازيكم به قل أو كثر، لأنه عليم به لا يخفى عليه شىء منه.

الثانى - فانه يعلمه الله موجوداً على الحد الذى تفعلونه من حسن النية أو قبحها.

اللغة:

و الفرق بين البر، و الخير: أن البر هو النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك، و الخير يكون خيراً، و ان وقع عن سهو . و ضد البر العقوق . و ضد الخير الشر، فبذلك بين الفرق بينهما.

النظم:

و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما ذكر فى الآية الاولى «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدَى بِهِ» وصل ذلك بقوله «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» لثلا يؤدى امتناع غناء الفدية إلى الفتور فى الصدقة، و ما جرى مجراها من وجوه الطاعة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٣]

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالَّتَوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)

آية واحدة.

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما تقدم أنه تعالى، لما ذكر الإنفاق مما يحب، و من جملة ما يحب الطعام، فذكر حكمه، و أنه كان مباحاً
حلالاً «لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ».

ص: ٥٣٢

النزول، و القصة، و المعنى:

و كان سبب نزول هذه الآية أن اليهود أنكروا تحليل النبي (ص) لحوم الإبل، فبين الله تعالى أنها كانت محللة، لإبراهيم، و ولده
إلى أن حرمها إسرائيل على نفسه، و حاجهم بالتوراة، فلم يجسروا على إحضار التوراة لعلمهم بصدق النبي (ص) فيما أخبر أنه
فيها.

و كان إسرائيل و هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نذر إن برأ من النساء أن يحرم أحب الطعام و الشراب إليه و هو لحوم الإبل
و ألبانها، فلما برأ و فى لله بنذره. و قال ابن عباس و الحسن: إن إسرائيل أخذه وجع العرق الذى يقال له النساء، فنذر إن شفاه
الله أن يحرم العروق و لحم الإبل [على نفسه]، و هو أحب الطعام إليه.

فان قيل: كيف يجوز للإنسان أن يحرم على نفسه شيئاً، و هو لا يعلم ما له فيه من المصلحة مما له فيه المفسدة؟ قلنا : يجوز
ذلك إذا أذن الله له فى ذلك و أعلمه، و كان الله أذن لإسرائيل فى هذا النذر، فلذلك نذر . و فى الناس من استدل بهذه الآية
على أنه يجوز للنبي (ص) أن يجتهد فى الأحكام، لأنه إذا كان أعلم و رأيه أفضل كان اجتهاده أحق و هذا الذى ذكره إن
جعل دليلاً على أنه كان يجوز أن يتعبد النبي بالاجتهاد، كان صحيحاً، و إن جعل دليلاً على أنه كان متعبداً به، فليس فيه دليل
عليه، لأننا قد بينا أن إسرائيل ما حرم ذلك إلا بإذن الله، فمن أين إن ذلك كان محرماً له من طريق الاجتهاد، فأما من امتنع من
جواز تعبد النبي (ص) بالاجتهاد، بأن ذلك يؤدى إلى جواز مخالفة أئمة له إذا أدهم الاجتهاد إلى خلاف اجتهاده فقد أبعد، لأنه
لا يمتنع أن يجتهد النبي (ص) الاجتهاد إلى خلاف ما أدى اجتهاد الأمة إليه، فوجب اتباعه و لا يلتفت إلى اجتهاد من يخالفه،
كما أن الأمة يجوز أن تجمع على حد عن اجتهاد، و إن لم يجز مخالفتها فبطل قول الفريقين.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٤]

فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)

ص: ٥٣٣

اللغة:

الافتراء: اقتراف الكذب و أصله قطع ما يقدر من الأدم، يقال فرى الأديم يفريه فرياً : إذا قطعه، فقيل للكذب الفرية، لأنه يقطع به
على التقدير من غير تحقيق.

المعنى:

فان قيل: كيف قال: «افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» و على للاستعلاء، فما معناها ها هنا؟ قلنا: معناها إضافته الكذب إليه من جهة أنه أمر بما لم يأمر به الله فأوجب ما لم يوجبه، و كذب عليه بخلاف كذب له، لأن كذب عليه يفيد أنه كذب فيما يكرهه، و كذب له قد يجوز فيما يريده. فان قيل كيف قيد وعيد المفتري على الله الكذب ب «من بعد ذلك» و هو يستحق الوعيد بالكذب عليه على كل حال؟ قلنا: المراد به البيان أنه يلزم من بعد إقامة الحجة على العبد فيه، لأنه لو كذب على الله (عز و جل) فيما ليس بمحجوج فيه لجرى مجرى كذب الصبى الذى لا يستحق الوعيد به . و إنما وصف المفتري على الله كذباً بأنه ظالم، من حيث كان ظالماً لنفسه، و لمن استدعى إلى مذهبه فيما يكذب به، لأن ذلك الكذب يستحق به العقاب.

و الظلم و الجور واحد و إن كان أصلهما مختلفاً، لأن أصل الظلم النقصان للحق.

و الجور العدول عن الحق، و لذلك قيل فى ضد الظلم الانصاف. و فى ضد الجور العدل. و الانصاف هو إعطاء الحق على التمام.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٥]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

ص: ٥٣٤

آية.

المعنى:

معنى قوله: «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ» البيان عن أن الخبر بأن «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ» صدق، لأن الله تعالى أخبر به.

و قوله: (فاتبعوا) فالاتباع إلحاق الثانى بالأول لما له به من التعلق بالقوة للأول، و الثانى يستمد منه، فهم يلحقون بإبراهيم (ع) لتمسكهم بملته و التابع ثان متدبر بتدبير الأول متصرف بتصريفه فى نفسه، و الصحيح أن شريعة نبينا ناسخة لشريعة كل من تقدم من الأنبياء، و أن نبينا لم يكن متعبداً بشريعة من تقدم.

و إنما وافقت شريعته شريعة إبراهيم، فلذلك قال الله تعالى «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» و إلا فالله هو الذى أوحى بها إليه و أوجبها عليه، و كانت شريعة له. فان قيل إذا كانت الشرائع بحسب المصالح، فكيف رغب فى شريعة الإسلام بأنها ملة إبراهيم؟

قلنا: لأن المصالح إذا وافقت ما تميل إليه النفس و يتقبله العقل بغير كلمة كانت أحق بالرغبة، كما أنها إذا وافقت الغنى بدلا من الفقر، كانت أعظم فى النعمة، و كان المشركون يميلون إلى اتباع ملة إبراهيم، فلذلك خاطبوا بذلك. و الحنيف: المستقيم:

الدين الذى على شريعة إبراهيم فى حجه و نسكه و طيب مأكله، و تلك الشريعة هى الحنيفية . و أصل الحنف الاستقامة و إنما وصف المائل القدم بالأحنف تفاؤلاً بها .

و قيل أصله الميل و إنما قيل الحنيف بمعنى المائل إلى الحق فيما كان عليه إبراهيم من الشرع.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٦]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)

آئى بلا خلاف .

ص: ٥٣٥

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

أول الشيء ابتداءه، و يجوز أن يكون المبتدأ له آخر، و يجوز أن لا يكون له آخر، لأن الواحد أول العدد . و لا نهاية، لآخره، و نعيم أهل الجنة له أول، و لا آخر له، فعلى هذا إنما كان أول بيت، لأنه لم يكن قبله بيت يحج إليه.

و روى عن على (ع) أنه قال: أول بيت وضع للعبادة البيت الحرام.

و قد كانت قبله بيوت كثيرة . و قيل أول بيت رغب فيه، و طلب به البركة مكة . و قال مجاهد: لم يوضع قبله بيت . و إنما دحيت الأرض من تحتها . و به قال قتادة.

و روى أصحابنا: أن أول شيء خلق الله من الأرض موضع الكعبة، ثم دحيت الأرض من تحتها . و بكه قيل معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن شهاب و ضمرة بن ربيعة:

بكه هو المسجد، و مكة الحرم كله تدخل فيه البيوت، و هو قول أبى جعفر (ع)

و قال أبو عبيدة، بكه هى بطن مكة، و قال مجاهد: هى مكة.

و أصل بكه من البك، و هو الزحم تقول بكه ييكه بكاً إذا زحمه و تباك الناس بالموضع إذا ازدحموا، فبكه مزدحم الناس للطواف . و هو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام، و منه البك: دق العنق، لأنه فكه بشدة زحمة، فقيل:

سميت بكه، لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم لم يمهلوا . و أما مكة، فقال الزجاج يجوز أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكه . و أبدلت الميم من الباء، كقولهم : ضربة لازب و لازم، و يجوز أن يكون من قولهم : امتك الفصيل ما فى ضرع

الناقضة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى منه شيئاً، فسميت مكة بذلك لازدحام الناس فيه . قال و الأول أحسن، و يقال مك المشاش مكاً إذا تمشش بفيه.

و نصب قوله: «مباركا» يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون حالا من الضمير الذى فيه . الثانى- على الظرف من بكة على معنى الذى استقر بركة مباركا . و على هذا القول لا يكون قد وضع قبله بيت

ص: ٥٣٦

كما يجوز فى التقدير الأول . و قوله: «وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ» معناه أنه دلالة لهم على الله من حيث هو المدبر لهم بما لا يقدرون عليه من أمن الوحش فيه حتى يجتمع الكلب و الطيبى، فلا يعدو عليه و حتى يأنس الطير فلا يمتنع منه كما يمتنع من غيره إلى غير ذلك من الآثار و البينة فيه مع البركة التى يجدها من حج إليه مع ما له من الثواب الجزيل عليه . و أصل البركة الثبوت من قولك برک بركا و بروكا إذا ثبت على حاله، فالبركة ثبوت الخير بنموه و تزايد و منه البركاء : الثبوت فى الحرب. و منه البركة شبه حوض يمسك الماء، لثبوته فيه . و منه قول الناس: تبارك الله، لثبوته لم يزل، و لا يزال وحده، و منه البرك الصدر، لثبوت الحفظ فيه.

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٧]

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

آية.

القراءة:

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر (حج البيت) بكسر الحاء. الباقون بفتحها فمن فتح أراد المصدر الجارى على فعله، و من كسر أراد الاسم.

المعنى:

الآيات التى بمكة أشياء، منها ما قال مجاهد فى مقام إبراهيم ، و هو أثر قدميه داخله فى حجر صلد بقدرة الله تعالى، ليكون ذلك علامة يهتدى بها، و دلالة يرجع إليها مع غير ذلك من الآيات التى فيه من أمن الخائف، و إِمحاق الجمار على كثرة الرامى. و امتناع الطير من العلو عليه. و استشفاء المريض من ماء به. و من تعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة على عادة كانت جارية. و من إهلاك أصحاب الفيل

ص: ٥٣٧

لما قصدوا، لتخريبه. و روى عن ابن عباس أنه قرأ «آية بينة مقام إبراهيم» فجعل مقام إبراهيم هو الآية. و الأول عليه القراء، و المفسرون. و قوله: «مقام إبراهيم» رفع بأنه خبر ابتداء محذوف. و تقديره هي مقام إبراهيم و غير مقام إبراهيم، و قيل التقدير منها مقام إبراهيم. و قوله: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» قيل فيه قولان:

أحدهما - الدلالة على ما عطف عليه قلوب العرب في الجاهلية، من أمر من جنى جناية، ثم لاذ بالحرم، و من تبعه تلحقه أو مكروه ينزل به. فأما في الإسلام فمن جنى فيه جناية أقيم عليه الحد إلا القاتل، فانه يخرج منه، فيقتل في قول الحسن، و قتادة. و عندنا أنه إذا قتل في الحرم قتل فيه.

الثاني -

أنه خبر، و المراد به الأمر، و معناه أن من وجب عليه حد، فلاذ بالحرم و التجأ إليه، فلا يبايع و لا يشارى و لا يعامل حتى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحد - في قول ابن عباس و ابن عمر - و هو المروى عن أبي عبد الله و أبي جعفر (ع)

و أجمعت الصحابة على أن من كانت له جناية في غيره ثم عاذ به أنه لا يؤخذ بتلك الجناية فيه. و أجمعوا أيضاً أن من أصاب الحد فيه أنه يقام عليه الحد فيه. و إنما اختلفوا فيما به يخرج ليقام عليه الحد.

و روى عن أبي جعفر (ع) أنه قال: من دخله عارفاً بجميع ما أوجب الله عليه، كان آمناً في الآخرة من أليم العقاب الدائم.

و السبيل الذي يلزم بها الحج، قال ابن عباس، و ابن عمر: هي الزاد، و الراحلة.

و قال ابن الزبير، و الحسن: ما يبلغه كائناً ما كان. و فيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. و عندنا هو وجود الزاد و الراحلة و نفقة من تلزمه نفقته و الرجوع إلى كفاية عند العود إما من مال أو ضياع أو عقار أو صناعة أو حرفة مع الصحة و السلامة و زوال الموانع و إمكان المسير.

و قوله: «و من كفر» معناه من جحد فرض الحج فلم يره واجباً في قول

ص: ٥٣٨

ابن عباس، و الحسن، و الضحاك. فأما من تركه و هو يعتقد فرضه، فانه لا يكون كافراً و إن كان عاصياً. و في الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة إن الاستطاعة مع الفعل، لأن الله تعالى أوجب ال حج على المستطيع. و من لا يستطيع، فلا يجب عليه و ذلك لا يكون إلا قبل فعل الحج. و قال قوم: معنى «و من كفر» يعني ترك الحج و السبب في ذلك أنه لما نزل قوله: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا» (١) قالت اليهود نحن المسلمون فأنزل الله هذه الآية فأمرهم بالحج إن كانوا صادقين فامتنعوا، فقال الله تعالى و من ترك من هؤلاء فهو كافر، و الله غنى عن العالمين.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٨]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)

آية.

المعنى:

قوله: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» خطاب لليهود والنصارى. وإنما أجرى عليهم أهل الكتاب مع أنهم لا يعملون به، و لم يجز ذلك في أهل القرآن حتى يقال، فيمن لا يعمل بالقرآن أنه من أهل القرآن لأمرين:

أحدهما- أن القرآن اسم خاص لكتاب الله، فأما الكتاب فيجوز أن ي راد به يا أهل الكتاب المحرف عن جهته، و الآخر- الاحتجاج عليهم بالكتاب، لإقرارهم به، كأنه قيل يا من يقر بأنه من أهل كتاب الله «لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» و آيات الله المراد بها هاهنا معجزات نبينا محمد (ص) التي كانت له، و العلامات التي وافقت في صفته، مما تقدمت به البشارة، و خاطبهم الله في هذه بأن قال له «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» على وجه التلطف في استدعائهم إلى الحق، و توجيه الخطاب إليهم. و قال في موضع آخر «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ» ﴿٢﴾ على وجه الالهانة

(١) سورة آل عمران آية: ٨٥.

(٢) سورة آل عمران آية: ٧٠.

ص: ٥٣٩

لهم لصدهم عن الحق بتوجيه الخطاب إلى غيرهم و إنما جاء لفظ التوبيخ في الآية على لفظ الاستفهام، لأنه كسؤال التعجيز عن إقامة البرهان، فكذلك سؤال التوبيخ سؤال تعجيز عن إقامة العذر كأنه قيل: هات العذر في ذلك إن أمكنك، كما قيل له هات البرهان إن كنت محققاً في قولك و مذهبك.

اللغة:

و أصل لم لما و حذفت الالف في الاستفهام منها، و لم تحذف في الخبر لأنها في الاستفهام ظرف يقوى فيه التغيير قياساً على حروف الاعراب و نحوها، و أما الخبو فإنها تقع وسطاً إذا كانت موصولة، لأن تمامها آخر صلتها و الجزاء يجرى مجرى الصلة، لأن (ما) فيه عاملة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ٩٩]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قوله: «لم تصدون» معناه لم تمنعون، لأن الصد المنع. وقيل فى كيفية صدهم عن سبيل الله قولان:

أحدهما- أنهم كانوا يغزون بين الأوس، والخزرج، بتذكيرهم الحروب التى كانت بينهم حتى تدخلهم العصبية وحمية الجاهلية فينسلخون عن الدين- هذا قول زيد بن اسلم- وقال الآية فى اليهود خاصة. وقال الحسن الآية فى اليهود والنصارى معاً و معناها لم تصدون بالتكذيب بالنبي (ص) وإن صفته ليست فى كتبهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقوله: «من آمن» موضعه النصب بأنه

ص: ٥٤٠

مفعول تصدون. وقوله: «تَبْغُونَهَا عِوَجًا» الكناية راجعة إلى السبيل، ومعناه تطلبون لها عوجا يعنى عدو لا عن طريق الحق، و هو الضلال كأنه قال تبغونها ضلالا.

اللغة:

و العوج- بفتح العين، هو ميل كل شىء منتصب، نحو القنأه والحائط، و بكسر العين - إنما هو الميل عن الاستواء فى طريق الدين، و فى القول، و فى الأرض. و منه قوله: «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا» «١» و قال عبد بنى الحساس:

كأنك قد واعدته أمس موعدا «2»

بغاك و ما تبغيه حتى وجدته

أى طلبك و ما تطلبه هذا فى بغيت الحاجة فأما بغى عليه، فمعناه تطاول بظلمه له. و تقول: ابغنى كذا بكسر الهمزة أى أطلبه لى. و إذا قلت: أبغنى بفتح الهمزة، فمعناه أعنى على طلبه. و مثله احملى و أحملى و المسنى و ألمسنى. و احلب لى و احلبنى أى أعنى على الحلب. و أصل ذلك ابغ لى غير أنه حذفت اللام لكثرة الاستعمال.

المعنى:

و قوله: «وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ» قيل فيه قولان:

أحدهما - «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ» على بطلان صدكم عن دين الله، و تكون الآية مختصة بقوم معاندين، لأنهم جحدوا ما علموه و يجوز أن تكون في الجميع، لإقرارهم بأنه لا يجوز الصد عن دين الله، فلذلك صح ما أُلزموا.

الثانى - «وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ» أى عقلاء كما قال الله تعالى «أَوَلَمْ يَلْقَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» «٣» أى و هو عاقل، و ذلك أنه يشهد الدليل الذى يميز به الحق من الباطل

(١) سورة طه آية: ١٠٧.

(٢) ديوانه: ٤١ و روايته (الا) بدل (حتى) و قد ذكره ابن هشام فى المغنى ١:

١١١، و قال: الا بمعنى حتى.

(٣) سورة ق آية: ٣٧.

ص: ٥٤١

فيما يتعلق بالدين و يؤديه إليه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

آية.

النزول:

قال زيد بن أسلم و السدى أن هذه الآية نزلت فى الأوس و الخزرج لما أغزى قوم من اليهود بينهم ليفتنوهم عن دينهم.

اللغة، و الاعراب، و المعنى:

و قوله: «إِن تَطِيعُوا» فالطاعة موافقة الارادة الجاذبة للفعل بالترغيب فيه، و الاجابة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل و لذلك يجوز أن يكون الله تعالى مجيباً للعبد إذا فعل ما دعا العبد به، و لم يجز أن يكون مطيعاً له . و (يا) حرف النداء و أى هو المنادى. و (ها) للتنبيه و هو اسم مبهم يحتاج أن يوصف بالواحد و الجميع لشدة إبهامه من حيث، لا يوقف عليه دون ما يوضحه. و لم يجز مثل ذلك فى هذا، و إن كان اسماً مبهماً، لأنه يدخله التثنية، و الجمع، نحو هؤلاء و هذان و ليس كذلك أى.

فان قيل لم جاز صفة المبهم بالموصول و لم يجز بالمعطوف؟ قيل : لأن الموصول بمنزلة اسم واحد لنقصانه عن التمام إلا بصلته، فعومل لذلك معاملة المفرد، و ليس كذلك المعطوف، لأنه اسم تام، فلذلك لم يجز يا أيها الطويل و القصير على الصفة، و جاز يا أيها الذى أكرم زيدا على الصفة، و يجوز يا أيها الطويل و القصير على أن يكون القصير منادا أيضاً و يجوز أن تقول يا هذا و تقف عليه. و لا يجوز أن تقول يا أيها و تقف، و إن كانا مبهمين لا يحتاجان إلى صلة، لأن أى و صلة إلى نداء

ص: ٥٤٢

ما فيه الألف و اللام، كما أن الذى و صلة إلى صفة المعرفة بالجملة، و لذلك جاز النصب فى يا هذا الكريم، و لم يجز فى يا أيها الكريم. و معنى الآية النهى عن طاعة الكفار و بيان أن من أطاعهم يدعوه ذلك إلى الارتداد عن دينه بعد أن كان مؤمناً و رجوعه كافراً.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠١]

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

آية.

النزول:

روى عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية أنه كانت بين الأوس، و الخزرج حرب فى الجاهلية كل شهر، فبينما هم جلوس إذ ذكروا ما كان بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت هذه الآية و ما بعدها. و قال الحسن نزلت فى مشركى العرب.

المعنى و اللغة:

«و كيف» موضوعة للاستفهام، و معناها هاهنا التعجب و إنما استعملت فى ذلك، لأنها طلب للجواب عما حمل على الفساد فيما لا يصح فيه الاعتذار. و التعجب هو حدوث إدراك ما لم يكن يقدر لخفاء سببه، و خروجه عن العادة فى مثله، و لذلك لم يجز فى صفة القديم، و لكن يجوز فى وصفه تعجب العباد من بعض الأمور . و صيغة التعجب فى اللغة ما أفعله، و أفعل به إلا أنه قد يجىء كلام متضمن بمعنى التعجب، و إن لم يكن فى الأصل مما وضع له . و قوله: «وَفِيكُمْ رَسُولُهُ» خطاب للذين عاصروه، فأما اليوم، فقد قال الزجاج : يجوز أن يقال: فىنا رسول الله، و يراد به أن أثاره قائمة فىنا، و أعلامه ظاهرة، و ذلك بمنزلة لو كان

ص: ٥٤٣

موجوداً فينا. و قوله: «وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ» معناه يمتنع و العصم: المنع. تقول عصمه يعصمه عصماً، و منه قوله: «لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» «١» أى لا مانع.

و العصم: الأوعال لامتناعها بالجبال. و المعصم لأنه يمتنع و العصام: الحبل، و السبب، لأنه يعتصم به.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

آية بلا خلاف.

المعنى:

ذكر ابن عباس و طاوس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة. و قال قتادة، و الربيع، و السدى، و ابن زيد:

هي منسوخة بقوله. «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» «٢» و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع)

لأنهم ذهبوا إلى أنه يدخل فيه القيام بالقسط في حال الخوف، و الامن، و أنكر أبو على الجبائي نسخ الآية و ذلك، لأن من اتقى جميع معاصيه، فقد اتقى الله حق تقاته . و مثل هذا لا يجوز أن ينسخ، لأنه إباحة لبعض المعاصي . قال الرماني: و الذى عندي أنه إذا وجه على «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» بأن تقوموا له بالحق فى الخوف و الامن لم يدخل عليه ما ذكره أبو على . و هذا صحيح، لأنه لا يمتنع أن يكون أوجب عليهم أن يتقوا الله على كل حال ثم أباح ترك الواجب عند الخوف على النفس، كما قال «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» «٣» و أنكر البلخي أيضاً نسخ الآية و قال : لأن فى ذلك إيجاب الأمر بما لا يستطاع . قال الرماني: و هذا أيضاً لا يلزم، لأن «ما استطعتم» إنما هو من غير تحمل مشقة بتحريم التقيّة.

(١) سورة هود آية: ٤٣.

(٢) سورة التغابن آية: ١٦.

(٣) سورة النحل آية: ١٠٦.

ص: ٥٤٤

و قيل فى معنى قوله: «حق تقاته» قولان:

أحدهما- قال ابن مسعود، و الحسن، و قتادة:

إن يطاع فلا يعصى و يشكر فلا يكفر و يذكر فلا ينسى، و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و قال الجبائى:

هو أن يتقى جميع معاصيه . و ظاهر الآية يقتضى أنه خطاب للمؤمنين خاصة، و يجوز أن يحمل من جهة المعنى على جميع المكلفين على التغليب، لأنه معلوم أنه يجب عليهم من ذلك مثل ما يجب على المؤمنين من اتقاء جميع معاصى الله.

اللغة:

و قوله: «تقاته» هو من وقيت. قال الزجاج: يجوز فيه ثلاثة أوجه تقاء و وقاء و اقاء و حمله على قياس وجوه و أجوه و إن كان هذا المثال لم يجيء منه شيء على الأصل نحو تخمة و تكأة و نقاء غير أنه حمله على الأكثر من نظائره و جعل اختصاص هذا البناء فى الاستعمال، لا يمنع من حمله على نظيره فى القياس، لأن بإزاء قوة الاستعمال قوة النظم فى الباب.

المعنى، و اللغة:

و قوله: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ» معناه لا تتركوا الإسلام و إنما قال: «فلا تموتن» بلفظ النهى عن الموت من حيث أن الموت لا بد منه، فكأنه قال كونوا على الإسلام، فإذا ورد ع ليكم الموت صادفكم على الإسلام، فالنهي فى الحقيقة عن ترك الإسلام، لئلا يهلكوا بالاقتطاع عن التمكين منه بالموت إلا أنه وضع كلام موضع كلام على جهة تصرف الابدال، لحسن الاستعارة، و زوال اللبس، لأنه لما كان يمكنهم أن يفارقوه بالإسلام فترك الإسلام صار بمنزلة ما قد دخل فى إمكانهم . و مثله قولهم لا أراك هاهنا أى لا تكون هاهنا، فان كان هاهنا رأيته إلا أن هذا خرج مخرج النهى لغير المنهى عنه فتباعد عن الأصل، فالأول أحسن لأنه أعدل.

و روى عن أبى عبد الله (ع) «و أنتم مسلمون»

ص: ٥٤٥

بالتشديد، و معناه إلا و أنتم مستسلمون لما أتى به النبى (ص) و منقادون له.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٣]

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

آية.

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

و معنى قوله: «و اعتصموا» امتنعوا بحبل الله و استمسكوا به أى بعدد الله، لأنه سبب النجاء كالحبل الذى يتمسك به للنجاء من بئر أو نحوها. و منه الحبل الأمان، لأنه سبب النجاء. و منه قوله: «إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلِ مِنَ النَّاسِ» «١» و معناه بأمان، قال الأعشى:

و إذا تجوزها حبال قبيلة
أخذت من الأخرى إليك حبالها «2»

و منه الحبل الحمل فى البطن و أصله الحبل المفتول قال ذو الرمة:

هل حبل خرقاء بعد اليوم مرموم
أم هل لها آخر الأيام تكليم

و فى معنى قوله: «بحبل الله» قولان

قال أبو سعيد الخدرى عن النبى (ص) أنه كتاب الله.

و به قال ابن مسعود، و قتادة و السدى. و قال ابن زيد «حبل الله» دين الله أى دين الإسلام. و قوله: «جميعاً» منصوب على الحال. و المعنى اعتصموا بحبل الله مجتمعين على الاعتصام به. و قوله: «و لا تَفَرَّقُوا» أصله و لا تتفرقوا،

(١) سورة آل عمران آية: ١١٢.

(٢) ديوانه: ٢٤ رقم القصيدة ٣ فى المطبوعة (أجوزها) بدل (تجوزها) و هو أيضاً فى اللسان (حبل) و مشكل القرآن: ٣٥٨ و غيرها كما أثبتناه. و البيت من قصيدته فى قيس ابن معديكرب . يصف ناقه يقول: لا تحتاج الى حث بل هى سريعة الجرى عارفة طرق الق بائل.

ص: ٥٤٦

فحذفت احدى التائين، لاجتماع المثلين. و المحذوفة الثانية، لأن الأولى علامة الاستقبال، و هو مجزوم بالنهاى و علامة الجزم سقوط النون. و قال ابن مسعود و قتادة: معناه و لا تفرقوا عن دين الله الذى أمر فيه بلزوم الجماعة و الائتلاف على الطاعة. و قال الحسن: معناه و لا تفرقوا عن رسول الله (ص). و قوله: «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً» معناه ما كان بين

الأوس و الخزرج من الحروب التى تطاولت مائة و عشرين سنة إلى أن ألف بين قلوبهم بالإسلام، و زالت تلك الأحقاد، هذا قول ابن إسحاق. و قال الحسن: هو ما كان من مشركى العرب من الطوائل.

و قوله: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» معنى الشفا الحرف، لأن شفا الشىء حرفه، و يثنى شفوان، لأنه من الواو، و جمعه إشفاء. و لا يجوز فيه الامالة . و إنما قال: «فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا» و إن لم يكونوا فيها، لأنهم كانوا بمنزلة من هو فيها من حيث كانوا مستحقين لدخولها. و إنما أنقذهم النبى (ص) بدعائهم إلى الإسلام، و دخولهم فيه، فصاروا بمنزلة الخارج منها.

و أصل الأخ أن الأخ مقصده مقصد أخيه، و كذلك فى الصداقة أن تكون إرادة كل واحد منهما موافقة للآخر يقولون: يتوخى فلان شأن فلان أى يقصده فى سيره، و يقولون: خذ على هذا الوخى أى على هذا القصد. و قوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ» الكاف فى موضع نصب، و المعنى مثل البيان الذى تلى عليكم «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ» معناه لتهتدوا و تكونوا على رجاء هداية.

و الهاء فى قوله فأنقذكم منها كناية عن الحفرة فترك شفا، وردت الكناية على الحفرة. و مثل ذلك قول العجاج.

طوين طولى و طوين عرضى

طول الليالى أسرع فى تقضى

فترك الطول و أخبر عن الليالى . فان قالوا إذا كان الله هو الذى ألف بين قلوبهم و أنقذهم من النار، فقد صح أن أفعال الخلق فعل له و خلق من خلقه؟

قيل: لا يجب ذلك، لأننا نقول أن النبى (ص) ألف بين قلوب العرب و أنقذهم من

ص: ٥٤٧

النار، و لا يجب من ذلك أن تكون أفعالهم أفعالا للنبى (ص)، و لا مشاركا لهم.

و معنى ألف بين قلوبهم و أنقذهم من النار أنه دعاهم إلى الايمان و بين لهم و هداهم، و رغبهم و حذرهم، فلما كان إسلامهم و نجاتهم بمعونته و دعائه، كان هو المؤلف لقلوبهم، و المنقذ لهم من النار على هذا المعنى، لا أنه صنع أفعالهم، و أحدثها.

فان قيل: فقد فعل الله مثل ذلك بالكافرين هلا قلتهم أنه ألف بينهم؟ قلنا: لا نقول ذلك و إن كان فعل بهم فى الابتداء مثل الذى فعل بالمؤمن، لأنه لم يوجد منهم إيمان، فلا يجوز إطلاق ذلك عليهم، و لما وجد من المؤمن ذلك جاز إضافة ذلك إلى الله تعالى و جرى ذلك مجرى قوله «هدى للمتقين» أنه أضيف إلى المتقين من حيث اهتدوا به. و ان كان هداية للكافرين أيضاً. و يجوز أن يقال: ألف الله بين الكفار، فلم يأتلفوا و انقذهم، فلم يستنقذوا، فيقيد ذلك، كما قال: «وَأَمَّا ثَمُودُ، فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى» (١) و لا يجوز أن يقال: هدى اللع ثمود و يسكت. و مثل ذلك لو أن إنساناً أعطى ولدين له مالا و أمرهما

بالتجارة و بين لهما وجوه المكاسب فكسب أحدهما مالا و استغنى، وضيع الآخر، فافتقر جاز أن يقال أن فلاناً أغنى ولده الغنى، و لا يجوز أن يقال اغنى ولده الفقير على أنا لا نقول ان الله تعالى فعل بالكافر جميع ما فعل بالمؤمن، لأن الذى سوى بينهما ما يتعلق بازاحة العلة فى التكليف من الاقدار و الاعلام و الدلالة، و ما به يتمكن من فعل الايمان، فأما اللطاف التى يفعلها الله بالمؤمن بعد إيمانه التى علمها له بعد الايمان و لم يعلمها للكافر، فلا نقول أنه فعل بالكافر مثلها، و لا يمتنع أن تكون هذه الزيادة من اللطاف مشروطة بحال الايمان، فالإطلاق لا يصح على كل حال.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٤]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

(١) سورة حم السجدة آية: ١٧.

ص: ٥٤٨

آية.

الاعراب، و المعنى:

قوله: «و لتكن» أمر و اللام لام الأمر و إنما سكنت مع الواو و لم يكن لام الاضافة لأن تسكين لام الامر يؤذن بعملها أنه الجزم، و ليس كذلك لام الاضافة.

و لم يسكن مع ثم، لأن ثم بمنزلة كلمة منفصلة . و قوله: «منكم أمة» «من» هاهنا للتبويض على قول أكثر المفسرين، لأن الأمر بإنكار المنكر، و الامر بالمعروف متوجه إلى فرقة منهم غير معينة، لأنه فرض على الكفاية فأى فرقة قامت به سقط عن الباقيين. و قال الزجاج التقدير «و ليكن» جميعكم و (من) دخلت لتخص المخاطبين من بين سائر الأجناس، كما قال: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» «١» و قال الشاعر:

يأبى الظلامة منه النوفل الزفر»2«

أخو رغائب يعطيها و يسلبها

لأنه وصفه بإعطاء الرغائب، و النوفل الكثير الإعطاء للنوافل . و الزفر: الذى يحمل الأثقال، فعلى هذا الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر من فرض الأعيان لا يسقط بقيام البعض عن الباقيين. و هو الذى اختاره الزجاج، و به قال الجبائى، و اختاره.

اللغة:

و الأمة فى اللغة تقسم خمسة أقسام:

أحدها- الجماعة. و الثانى- القامة. و الثالث- الاستقامة. و الرابع- النعمة و الخامس القدوة. و الأصل فى ذلك كله القصد من قولهم: أمه يؤمه. أمّا إذا

(١) سورة الحج آية: ٣٠.

(٢) قائله أعشى باهلة اللسان (زفر) و أمالى الشريف المرتضى ٢: ٢١ و هو من قصيدة من المراثى المفضلة المشهورة بالبلاغة و البراعة و روايته (يسألها) بدل (يسلبها).

ص: ٥٤٩

قصده، فالجماعة سميت أمة لاجتماعها على مقصد واحد . و الأمة: القدوة، لأنه تأتم به الجماعة . و الأمة النعمة، لأنها المقصد الذى هو البغية. و الامة القامة، لاستمرارها فى العلو على مقصد واحد . و المعروف هو الفعل الحسن الذى له صفة زائدة على حسنه. و ربما كان واجباً أو ندباً، فان كان واجباً فالأمر به واجب.

و ان كان ندباً فالأمر به ندب. و المنكر هو القبيح فالنهي عنه كله واجب.

و الإنكار هو إظهار كراهة الشئ لما فيه من وجه القبح، و تقيضه الإقرار و هو إظهار تقبل الشئ من حيث هو صواب حسن.

المعنى:

و الامر بالمعروف و النهى عن المنكر واجبان بلا خلاف و أكثر المتكلمين يذهبون إلى أنه من فروض الكفايات . و منهم من قال من فروض الأعيان، و هو الصحيح على ما بيناه . و اختلفوا، فقال جماعة ان طريق وجوب انكار المنكر العقل، لأنه كما تجب كراهته وجب المنع منه إذا لم يمكن قيام الدلالة على الكراهة.

و إلا كان تاركه بمنزلة الراضى به . و قال آخرون و هو الصحيح عندنا : إن طريق، وجوبه السمع و أجمعت الأمة على ذلك، و يكفى المكلف الدلالة على كراهته من جهة الخير و ما جرى مجراه و قد استوفينا ما يتعلق بذلك فى شرح جمل العلم.

فان قيل هل يجب فى إنكار المنكر حمل السلاح؟ قلنا : نعم إذا احتيج إليه بحسب الإمكان، لأن الله تعالى قد أمر به، فإذا لم ينجح فيه الوعظ و التخويف، و لا التناول باليد وجب حمل السلاح، لأن الفريضة لا تسقط مع الإمكان إلا بزوال المنكر الذى لزم به الجهاد إلا أنه لا يجوز أن يقصد القتال إلا و غرضه إنكار المنكر.

و أكثر أصحابنا على أن هذا النوع من إنكار المنكر لا يجوز الاقدام عليه إلا بإذن سلطان الوقت . و من خالفنا جوز ذلك من غير الاذن مثل الدفاع عن النفس سواء . و قلل البلخي : إنما يجوز لسائر الناس ذلك إذا لم يكن إمام، و لا من نصبه، فأما مع وجوده، فلا ينبغي، لأحد أن يفعل ذلك إلا عند الضرورة. و قوله:

ص: ٥٥٠

«وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» معناه هم الفائزون بثواب الله، و الخلاص من عقابه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٥]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)
آية.

المعنى:

قال الحسن، و الربيع : المعنى بهذا التفرق فى الآيه اليهود و النصارى، فكأنه قال يا أيها المؤمنون «لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا»
يعنى اليهود و النصارى. و قوله:

«مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» معناه من بعد ما نصبت لهم الادلة و لا يدل ذلك على عناد الجميع، لأن قيام البينات إنما يعلم بها الحق إذا نظر فيها و استدل بها على الحق، فان قيل إذا كان التفرق فى الدين هو الاختلاف فيه، فلم ذكر الوصفان؟ قلنا : لأن معنى «تفرقوا» يعنى بالعداوة و اختلفوا فى الديانة، فمعنى الصفة الأولى مخالف لمعنى الصفة الثانية، و فيمن نفى القياس، و الاجتهاد من استدل بهذه الآيه على المنع من الاختلاف جملة فى الأصول و الفروع، و اعترض من خالف فى ذلك بأن قال لا يدل ذلك على فساد الاختلاف فى مسائل الاجتهاد، كما لا يدل على فساد الاختلاف فى المسائل المنصوص عليها، كاختلاف حكم المسافر و المقيم فى الصلاة و الصيام، و غير ذلك من الأحكام، لأن جميعه مدلول على صحته إما بالنص عليه و إما بالرضى به، و هذا ليس بشىء، لأن لمن خالف فى ذلك أن يقول : الظاهر يمنع من الاختلاف على كل حال إلا ما أخرجه الدليل، و ما ذكره أخرجه بالإجماع فالاجود فى الطعن أن يقال : و قد دل الدليل على وجوب التعبد بالقياس و الاجتهاد ! قلنا: إن يخص ذلك أيضاً و يصير الكلام فى صحة ذلك أو فساد، فالاستدلال بالآيه إذاً صحيح على نفى الاجتهاد . و قوله: «جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» إنما حذفت منه علامة التأنيث إذا تقدم، فكذلك لا يلحقه علامة التأنيث لشبهها علامة التثنية و الجمع .

ص: ٥٥١

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٦]

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

العامل في قوله: «يوم» قوله «عظيم» و تقديره عذابهم يوم تبيض وجوه . و لا يجوز أن يكون العامل فيه عذاب موصول، قد فصلت صفته بينه، و بين معموله، لكن يجوز أن تعمل فيه الجملة، لأنها في معنى يعذبون يوم تبيض وجوه، كما تقول المال لزيد الجمعة فالعامل الفعل و الجملة خلف منه.

المعنى:

و المعنى بهذه الآية الذين كفروا بعد إيمانهم. و قيل فيهم أربعة أقوال:

أحدها - قال الحسن: الذين كفروا بعد اظهار الايمان بالنفاق.

الثاني - قال قتادة الذين كفروا بالارتداد.

الثالث - قال أبي بن كعب : إنهم جميع الكفار، لاعراضهم عما يوجب الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم الله على أنفسهم أ لست بربكم قالوا بلى شهدنا.

الرابع - ذكره الزجاج و أبو على الجبائي. الذين كفروا من أهل الكتاب بالنبي (ص) بعد إيمانهم به أى بنعته و صفته قبل مبعثه، و هذا الوجه، و الوجه الأول يليق بمذهبنا فى الموافة، فأما الارتداد عن الايمان الحقيقى، فلا يجوز عندنا على ما مضى فى غير موضع.

فان قيل إذا كان «الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ» كفاراً «وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ» مؤمنين هلاً دل ذلك على أنه لا واسطة بين الكفر، و الايمان من

ص: ٥٥٢

الفسق؟ قلنا: لا يجب ذلك، لأن ذكر اسوداد الوجوه و ابيضاضها لا يمنع أن يكون هناك وجوه آخر مغبرة أو نحوها من الألوان أو يكون أدخلوا فى جملة الكفار الذين اسودت وجوههم على التغليب لأعظم الصفتين كما يغلب المذكر على المؤنث، و ليس ذكر اليوم بأنه تسود فيه وجوه و تبيض وجوه بمانع من أن يكون فيه وجوه عليها الغبرة، كما أن القائل إذا قال هذا يوم يعفو فيه السلطان عن قوم و يعاقب فيه قوماً لا يدل على أنه ليس هناك من لا يستحق واحداً من الأمرين على أن الآية تدل على أن «الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ» هم المرتدون، لأنه قال «أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» و ليس كل الكفار هذه صورتهم، جاز لنا إثبات فاسقين مثل ذلك، و ليس قوله: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ» يجرى مجرى قوله:

«وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا» ﴿١﴾ لأن ذاك إنما ذكر على وجه المثل، كأنه قال حال الذى يبشر بالأنثى بمنزلة حالة من اسود وجهه، لما حدث فيه من التغير: وإن لم يسود فى الحقيقة. و عرفنا عن ذلك دليل، و ليس فى هذه الآية ما يدلنا على العدول عن ظاهرها.

و جواب أما فى قوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ» محذوف و تقديره «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ» فيقال لهم «أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» فحذف لدلالة اسوداد الوجوه على حال التوبيخ حتى كأنه ناطق به، و قد يحذف القول فى مواضع كثيرة استغناء بما قبله من البيان، كقوله: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا» ﴿٢﴾ أى يقولون ربنا لدلالة تنكيس الرأس من المجرم على سؤال الاقالة. و قيل فى قوله تعالى «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا» ﴿٣﴾ معناه يقول «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا» و مثله «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ﴿٤﴾ أى يقولون «سلام عليكم» و نظائر ذلك كثيرة جداً.

(١) سورة النحل آية: ٦٨.

(٢) سورة الم السجدة آية: ١٢.

(٣) سورة البقرة آية: ١٢٧.

(٤) سورة الرعد آية: ٢٥.

ص: ٥٥٣

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٧]

وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

إن قيل: لم ذكر تعالى حال الكافرين و حال المؤمنين و لم يذكر حال الفاسقين؟

قلنا: ليقابل اسوداد الوجوه لايبضاض الوجوه بالعلامتين، و حال الفاسقين موقوفة على دلالة أخرى و آية أخرى . و قوله: «فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - أنهم فى ثواب الله و ان الرحمة هى الثواب.

و الثانى - أنهم فى ثواب رحمة الله، فحذف، كما قال: (وَسُئِلَ الْقُرَيْشُ) ﴿١﴾ ذكره الزجاج. و الاول أجود، لأن الرحمة هاهنا هى الثواب و إذا صح حمل الكلام على ظاهره من غير حذف كان أولى من تقدير محذوف منه من غير ضرورة . و الآية تدل على

أن ثواب الله تفضل، لأن رحمة الله إنما هي نعمته، وكل نعمة فانه يستحق بها الشكر، وكل نعمة تفضل، ولو لم تكن تفضلا لم تكن نعمة. وقيل في وجه كونه تفضلا قولان:

أحدهما - إنما كان تفضلا، لأن السبب الذي هو التكليف تفضل.

و الثاني - إنه تفضل لأنه بمنزلة إيجاز الوعد في أنه تفضل مستحق، لأن المبتدئ به قد كان له أن لا يفعله، فلما فعله وجب عليه الوفاء به، لأنه لا يجوز الخلف، وهو مع ذلك تفضلا، لأنه جر إليه تفضل، واختار الرمانى هذا الوجه.

و إنما كرر الظرف في قوله: «فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» لأمرين:

أحدهما - للتأكيد، و الثاني - للبيان عن صحة الصفتين أنهم في رحمة الله، و انهم فيها خالدون، و كل واحدة قاصية بنفسها.

(١) سورة الصافات آية: ٧.

ص: ٥٥٤

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٨]

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قال الفراء معنى «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ» أى مواظمه و حجبته و معنى «تتلوها» أى نقرأها عليك. و الفرق بين تلك، و هذه أن تلك إشارة إلى ما هو بعيد فجازت الإشارة بها إليه لانقضاء الآية و صلح هذه لقربها فى التلاوة، و لو كانت بعيدة لم يصلح أحدهما مكان الآخر . و انما قال «آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» فقيده (بالحق)، لأنه لما حقق الوعيد بأنه واقع لا محالة نفى عنه حال الظلم كعادة أهل الخير، ليكون الإنسان على بصيرة فى سلوك الضلالة مع الهلاك أو الهدى مع النجاة، و معنى «تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» أى معاملتى حق، و يحتمل أن يكون المراد «تتلوها» المعنى الحق، لأن معنى التلاوة حق من حيث يتعلق معتقدها بالشىء على ما هو به.

اللغة، و المعنى:

و الفرق بين تلوت عليه، و تلوت لديه أن عليه يدل على إقرار التلاوة، لأن معنى عليه استعلاء الشىء ، فهى تنبئ عن استعلائه بالظهور للنفس، كما يظهر لها بعلو الصوت و ليس كذلك لديه، لأن معناه عنده . و فى الآية دلالة على فساد قول المجبره : أن

اللَّهُ تعالى يريد الظلم، لأنه لو أراد ظلم بعضهم لبعض، لكان قد أراد ظلمهم و كذلك لو أراد ظلم الإنسان لغيره، لجاز أن يريد أن يظلمه هو، لأنه لا فرق بينهما في القبح، و يدل أيضاً على أنه لا يفعل ظلمهم، لأنه لا يفعل ما لا يريده.

ص: ٥٥٥

و قوله: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» فيه نفى لإرادة ظلمهم على كل حال بخلاف ما يقولونه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٠٩]

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)
آية.

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، وجه اتصال الدليل بالمدلول عليه، لأنه لما قال : «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» وصله بذكر غناه عن الظلم إذ الغنى عنه العالم بقبحه، و معناه لا يجوز وقوعه منه.

المعنى:

و قوله: «وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» لا يدل على أن الأمور كانت ذاهبة عنه، لأمرين:

أحدهما - لأنها بمنزلة الذاهبة بهلاكها و فنائها ثم إعادتها، لأنه تعالى يعيدها للجزاء على الاعمال و العوض على الآلام.

و الثانى - لأنه قد ملك العباد كثيراً من التدبير فى الدنيا فيزول جميع ذلك فى الآخرة و يرجع إليه كله . و قوله: «وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» معنى و لله ملك ما فى السماوات . و الملك: هو ما له أن يتصرف فيه . و لا يجوز أن يقول مكان ذلك و لله خلق ما فى السماوات، لأن ذلك يدخل فيه معاصى العباد، و الله تعالى منزه عنها و الآية خرجت مخرج التعظيم لله تعالى، و ذكر عظيم المدح.

و فى وقوع المظهر بموقع المضمرة فى قوله: (وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) فيه قولان:

ص: ٥٥٦

أحدهما - ليكون كل واحد من الكلامين مكتفياً بنفسه.

و الثانى - لأن المظهر فى اسم الله تعالى أفخم فى الذكر من المضمرة و صفة ملكه موضع تفخيم، و ليس كقول الشاعر «١»

لا أرى الموت يسبق الموت شيء

لغص الموت ذا الغنى و الفقير²»

لأن البيت مفتقر إلى الضمير و الآية مستغنية عنه و إنما احتاج البيت إليه، لأن الخبر الذى هو جملة لا يتصل بالمخبر عنه إلا بضمير يعود إليه. (و ما) تقع على ما يعقل و ما لا يعقل إذا ذهب به مذهب الجنس، فما يعقل داخل فيه حقيقة و لو قال بدلا منه و لله من فى السماوات بلفظة (من) لما دخل فيه إلا العقلاء أو الكل على جهة التغليب دون الحقيقة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٠]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

آية واحدة.

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال المدح على الفعل الذى تقدم به الأمر، لأنه قد تقدم إيجاب الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر ثم مدح على قبوله و التمسك به، و يجوز أى ضاً أن يكون اتصال التعظيم لله تعالى بمدح المطيعين له فى الأشياء التى بينت، لأنهم بلطف الله تعالى أطاعوا.

(١) هو عدى بن زيد. و قيل انه ينسب الى ولده سواده بن عدى. و نسبه بعضهم لاميه بن أبى الصلت.

(٢) حماسه البحرى: ٩٨ و شعراء الجاهلية: ٤٦٨، و سيبويه ١: ٣٠ و خزائن الأدب ١: ١٨٣، ٣: ٥٣٤، ٤: ٥٥٢ و أمالى بن الشجرى ١: ٢٤٣، ٢٨٨ و شرح شواهد المغنى: ٢٩ و هو من أبيات متفرقة فى هذه الكتب و غيرها من الحكم فى التأمل فى الحياة و الموت.

ص: ٥٥٧

المعنى:

و قوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» إنما لم يقل أنتم لأحد أمور:

أحدها - قال الحسن أن ذلك لما قد كان في الكتب المتقدمة ما يسمع من الخير في هذه الأمة من جهة البشارة . و قال نحن آخرها و أكرمها على الله. و كذلك

روى عن النبي (ص) أنه قال «أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها و أكرمها على الله» فهو موافق لمعنى أنتم خير أمة

إلا أنه ذكر «كنتم» لتقدم البشارة به، و يكون التقدير «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» في الكتب الماضية فحققوا ذلك بالأفعال الجميلة.

الثاني - أن كان زائدة و دخولها و خروجها بمعنى، إلا أن فيها تأكيد وقوع الأمر لا محالة، لأنه بمنزلة ما قد كان في الحقيقة، كما قال «وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ» «١» و في موضع آخر «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ» «٢» و نظيره قوله: «وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» لأن مغفرته المستأنفة كالماضية في تحقيق الوقوع لا محالة.

الثالث - أن (كان) تامة هاهنا و معناه حدثتم خير أمة و يكون خير أمة نصباً على الحال.

و الرابع - «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» في اللوح المحفوظ.

و الخامس - كنتم مذ أنتم ليدل على أنهم كذلك مذ أول أمرهم . و اختلف المفسرون في المعنى بقوله : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» فقال قوم: هم الذين هاجروا مع النبي (ص) ذكره ابن عباس، و عمر بن الخطاب، و السدي . و قال عكرمة: نزلت في ابن مسعود، و سالم مولى أبي حذيفة و أبي بن كعب، و معاذ بن جبل . و قال الضحاك: هم أصحاب رسول الله (ص) خاصة. و قال مجاهد معناه «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» إذا فعلتم، ما تضمنته الآية من الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر.

و الايمان بالله و العمل بما أوجبه. و قال الربيع: معناه «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ»، لأنه لم

(١) سورة الانفال آية: ٢٦.

(٢) سورة الاعراف آية: ٨٥.

ص: ٥٥٨

يكن أمة أكثر استجابة في الإسلام، من هذه الأمة . فان قيل: لم قيل للحسن معروف مع أن القبيح أيضاً يعرف أنه قبيح، و لا يجوز أن يطلق عليه اسم معروف؟ قلنا : لأن القبيح بمنزلة ما لا يعرف لخموله و سقوطه . و الحسن بمنزلة النبي الذي يعرف بجلالته و علو قدره. و يعرف أيضاً بالملابسة الظاهرة و المشاهدة فأما القبيح، فلا يستحق هذه المنزلة . و قوله: (وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) معناه لو صدقوا بالنبي (ص) و قوله: «منهم المؤمنون» يعنى معترفون بما دلت عليه كتبهم في صفة نبينا (ص)، و البشارة به. و قيل: إنها تناولت من آمن منهم كعبد الله بن سلام، و أخيه، و غيرهما. و قوله: «وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» يعنى من لم يؤمن منهم، و إنما وصفهم بالفسق دون الكفر الذي هو أعظم، لأن الغرض الاشعار بأنهم خرجوا بالفسق عما يوجبه

كتابهم من الإقرار بالحق في نبوة النبي (ص). وأصل الفسق الخروج . ووجه آخر وهو أنهم في الكفار بمنزلة الفساق في العصاة بخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي أشنع وأفظع من حال من لم يقدم إليه ذكر فيه، وليس في الآية ما يدل على أن الإجماع حجة على ما بيناه في أصول الفقه . و تلخيص الشافى، و جملته أن هذا الخطاب لا يجوز أن يكون المراد به جميع الأمة، لأن أكثرها بخلاف هذه الصفة بل فيها من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف . و متى كان المراد بها بعض الأمة، فنحن نقول ان في الامة من هذه صفته، و هو من دل الدليل على عصمته، فمن أين لو أنا، فرضنا فقدهم، لكان إجماعهم حجة و استوفينا هناك ما تقتضيه الأسئلة و الجوابات، فلا نطول بذكره هاهنا.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١١]

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)
آية.

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال البشارة بالغلبة بما تقدم من الامر

ص: ٥٥٩

بالمحاربة، لأنه قد تقدم الأمر بإنكار المنكر، فالفريضة اللازمة إذ لم تترك إلا بالمحاربة.

المعنى، و الاعراب:

و الأذى المذكور في الآية هو أن يسمعوهم كذباً على الله يدعونهم به إلى الضلالة في قول الحسن، و قتادة يقول أهل الحجاز آذيتني إذا أسمعته كلاماً يثقل عليه . و قال البلخي، و الطبرى الاستثناء منقطع هاهنا، لأن الأذى ليس من الضرر في شىء، و هذا ليس بصحيح، لأنه إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقي لم يجز حمله على المنقطع . و المعنى في الآية لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً، فالأذى وقع موقع المصدر الأول. و إذا كان الأذى ضرراً فالاستثناء متصل . و المنقطع لا يكون فيه الثانى مخصصاً للأول، كقولك ما فى الدار أحد إلا حماراً، و كقولك ما زاد إلا ما نقص و ما نفع إلا ما ضر . و قوله: «وإن يُقَاتِلُوكُمْ» جزم، لأنه شرط «و يولوكم» جزم لأنه جزء . و قوله: «ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ» رفع على الاستئناف، و لم يعطف ليجرى الثانى على مثال الأول، لأن سبب التولية القتال . و ليس كذلك منع النصر، لأن سببه الكفر . و الرفع أشكل بـ «وس الآى المتقدمة، و هو مع ذلك عطف جملة على جملة و فى الآية دلالة على النبوة، لوقوع مخرها على ما تضمنته قبل وقوع مخرها، لأن يهود المدينة من بنى قريظة و بنى النضير، و بنى قينقاع و يهود خيبر الذين حاربوه (ص) و المسلمين ما قاتلوهم قط إلا ولوا الأدبار منهزمين.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٢]

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقُوا إِلَّا يَحِطُّ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَ بَأُؤْ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

ص: ٥٦٠

آية بلا خلاف.

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

قال الحسن: المعنى بقوله: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ» اليهود أذلهم الله عز و جل، فلا عز لهم و لا منعة، و أدركتهم هذه الأمة . و إن
المجوس لتجبيهم الجزية «و ضربت» مأخوذ من الضرب، و إنما قيل ضربت، لأنها ثبتت عليهم كما ثبتت بالضرب كما أخذت
منه الضريبة، لأنها ثبتت على صاحبها كما تثبت الضرب. و قوله: «أَيْنَمَا تُثْقُوا» أى أينما وجدوا، يقال: ثقفته أى وجدته، و لقيته.
فان قيل: كيف جاز عقابهم على ما لم يفعلوه من قتل الأنبياء. و إنما فعله أسلافهم دونهم. قلنا:

عنه جوابان:

أحدهما - أنهم عوقبوا على رضاهم بذلك . و أجرى عليهم صفة القتل لعظم الجرم فى رضاهم به، فكأنهم، فعلوه على نحو
«يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ» و إنما أمر به.

و الثانى - أن تكون الصفة تعم الجميع، فيدخلوا فى الجملة و يجرى عليهم الوصف على التغليب كما يغلب المذكر على المؤنث
إذا اجتماعا، فكذاك غلب القاتل على الراضى. و قوله: «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» فالحبل هو العهد من الله، و عهد من من الناس على
وجه الذمة، و غيرها من وجوه الأمان فى قول ابن عباس، و الحسن و مجاهد، و قتادة، و السدى، و الربيع . وسمى العهد حبالا،
لأنه يعقد به الأمان كما يعقد بالحبل من حيث يلزم به الشيء كما يلزم بالحبل. و قال الأعشى:

أخذت من الأخرى اليك حبالها»1«

فإذا تجوزها حبال قبيلة

و العامل فى الباء من قوله «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» يحتمل أن يكون العامل محذوفا و المعنى إلا أن تعتصموا بحبل من الله على قول
الفراء و أنشد:

(١) ديوانه: ٢٤ رقم القصيدة ٣ انظر ٢: ٥٤٥ من هذا الكتاب فثم تخريج البيت.

ص: ٥٦١

رَأَتْنِي بِحَبْلِيهَا فَصَدَّتْ مَخَافَةً

و فِي الْحَبْلِ رَوْعَاءُ الْفُؤَادِ فِرْقُوقٌ¹»

أَرَادَ رَأَتْنِي أَقْبَلْتُ بِحَبْلِيهَا فَحَذَفَ الْعَامِلُ فِي الْبَاءِ وَقَالَ آخَرُ: «٢»

قَرِيبَ الْخَطِّو يَحْسَبُ مِنْ رَأْنِي

و لَسْتُ مَقِيداً أَنِّي بِقَيْدٍ³»

قال الرماني، على بن عيسى ما ذكره الفراء ضعيف من وجهين:

أحدهما- حذف الموصول و ذلك لا يجوز عند البصريين في شىء من الكلام لأنه إذا احتاج إلى صلة تبين عنه فالحاجة إلى البيان عنه بذكره أشد . و إنما يجوز حذف الشىء للاستغناء بدلالة غيره عليه، فلو دل دليل عليه لحذف مع صلته، لأنه معها بمنزلة شىء واحد. و الوجه الآخر أن الكلام إذا صح معناه من غير حذف لم يجز تأويله على الحذف . و قوله «إلا بحبل» قيل في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما- أنه منقطع، لأن الدلالة لازمة لهم على كل حال، فيجوز مجرى قوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً»^٤ فعامل الاعراب موجود و المعنى على الانقطاع. و مثله «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا»^٥

(١) قائله حميد بن ثور الهاللي ديوانه: ٣٥، و معانى القرآن للفراء ١: ٢٣٠، و اللسان (تسع)، (فرق)، (حبل) و رواية الديوان:

فَجَثَّتْ بِحَبْلِيهَا فَرَدَّتْ مَخَافَةً

إِلَى النَّفْسِ رَوْعَاءُ الْجَنَانِ فِرْقُوقٌ

و رواية اللسان مختلفة ففي مادة (حبل) مثل التبيان و فى مادة (فرق):

رأتنى مجليها فصدت مخافة

و فى الخيل روعاء الفؤاد فروق

و فى مادة (نسع):

رأتنى بنسعيها فردت مخافتى

الى الصدر روعاء الفؤاد فروق

(٢) هو أبو الطمحان القينى، حنظلة بن الشرقى من بنى كنانة بن القين و هو أحد المعمرين . و قيل انه لعدى بن زيد . و قيل للمسحاج بن سباع الضبى.

(٣) كتاب المعمرين: ٥٧ و معانى القرآن للفراء ١: ٢٣٠، و الاغانى طبعة دار الثقافة - بيروت - ٢: ٣١٣، ٣١، و طبعة ليدن ١٢: ٣٤٧ و حماسة البحرى: ٢٠٢ و امالى القالى ١: ١١٠ و أمالى الشريف المرتضى ١: ٤٦، ٢٥٧ و اللسان (ختل) و غيرها كثير.

(٤) سورة النساء آية: ٩١.

(٥) سورة الواقعة آية: ٢٥. و كان فى المطبوعة (لا يسمعون فيها لغواً الا قليلاً سلاً ماً) و الآيات التى يحتل أن يستشهد بها الشيخ اثنتان الاولى هى التى أثبتناها، و الثانية فى سورة مريم آية: ٦٢ و هى (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا إِلَّا سَلَامًا). و لا يوجد فى القرآن آية مطابقة لما فى المطبوعة الا بزيادة أو نقص.

ص: ٥٦٢

و كل انقطاع فيه فإنما هو لازالة الإيهام الذى فيه يلحق الكلام فقوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا» قد يتوهم أنه من حيث لا يسمعون فيها كلاماً، فقليل لذلك (إلا قليلاً سلاماً) و كذلك «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا» قد يتوهم أنه لا يقتل مؤمناً على وجهه، فقليل لذلك (إلا خطأ). و كذلك «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ» قد يتوهم أنه من غير جواز موادة، فقليل إلا بجبل من الله.

الثانى - أن الاستثناء متصل، لأن عز المسلمين عز لهم بالذمة، و هذا لا يخرجهم من الذلة فى أنفسهم . و قوله: «وَبَاؤُ بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ» أى رجعوا بغضب الله الذى هو عقابه و لعنه. و قوله: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» قيل أريد بالمسكنة الذلة لأن المسكين لا يكون إلا ذليلاً فسمى الذليل مسكيناً . و قيل، لأن اليهود أبداً يتفاخرون و ان كانوا أغنياء لما رماهم الله به من الذلة . و قد بينا فيما تقدم أن قوله:

«وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» (١) لا يدل على أن قتلهم يكون بحق وإنما المراد أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق، كما قال «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» والمراد أن ذلك لا يكون إلا بغير برهان وكقول امرئ القيس:

على لا حب لا يهتدى بمناره «2»

و معناه لا منار هناك فيهتدى به وقوله : «يعتدون» قد بينا فيما تقدم معنى الاعتداء وهو أن معناه تجاوز الحد مأخوذ من العدوان.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٣]

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)
آية.

(١) سورة آل عمران آية: ٢١ و سورة البقرة آية: ٦١ و لكن هناك فى الآيتين (النبیین) و فى هذه الآية (الأنبياء).

(٢) انظر ٢: ٣٥٦.

ص: ٥٦٣

النزول:

قال ابن عباس، و قتادة، و ابن جريج سبب نزول هذه الآية أنه لما أسلم عبد الله بن سلام و جماعة معه قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد إلا أشرارنا، فأنزل الله تعالى «لَيْسُوا سَوَاءً» إلى قوله: «وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

اللغة، و الاعراب، و المعنى:

فان قيل لم ذكر مع سواء أحد الفريقين دون الآخر، و لا يجوز مثله أن يقول سواء على قيامك حتى يقول أم قعودك قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه محذوف لدلالة ما تقدم من الكلام عليه، كما قال أبو ذؤيب:

عصانى إليها القلب إنى لأمرها

مطيع فما أدرى أرشد طلابها؟

و لم يقل أم غى، لأن الكلام يدل عليه، لأنه كان يهواها فما يبالى أرشد أم غى طلابها. و قال آخر:

أراك فلا أدرى أهم هممته

و ذو الهم قدماً خاشع متضائل

و لم يقل أم غيره، لأن حاله فى التغير ينبئ أن الهم غيره مما يجرى مجراه، و هذا قول الفراء، و ضعفه الزجاج، و قال، ليس بنا حاجة إلى تقدير محذوف، لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى فى قوله : «يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ» فتبين أن فيهم غير المؤمنين، فلا يحتاج أن يقدر و أمة غير قائمة.

الثانى - أن يكون ليسوا سواء منهم الجواد، و الشجاع، فعلى القول الأول يكون رفع أمة على معنى الفعل، و تقديره لا يستوى أمة هادية و أمة ضالة. و على القول الثانى يكون رفعها بالابتداء. و قال الطبرى لا يجوز الاقتصار فى سواء على أحد الذكرين دون الآخر. و إنما يجوز فى ما أدرى و ما أبالى. قال الرماني: و هذا غلط، لأنه ذهب عليه الفرق بين الاقتصار و الحذف لأن الحذف لا بد فيه من خلف يقوم مقامه. و الاقتصار ليس كذلك، لأنه كالاقتصار على أحد المفعولين

ص: ٥٦٤

فى أعطيت، و حذفه فى حسبت مرتجلاً أى لنا . و الخلف فيه دلالة الحال، فأما أعطيت زيداً، فلا محذوف فيه، لأنه ليس معه خلف يقوم مقامه.

و قوله: «قائمة» فيه أربعة أقوال: قال الحسن و ابن جريج معناه عادلة.

و قال ابن عباس، و قتادة، و الربيع : معناه ثابتة على أمر الله . و قال السدى معناه قائمة بطاعة الله و قال الأخفش، و الزجاج : معناه ذو أمة مستقيمة، و هذا ضعيف لأنه عدول عن الظاهر فى أمة و الحذف لا دلالة عليه . و قوله: «أناء الليل» قيل فى واحده قولان:

أحدهما - أنى مثل نجى.

و الثانى - انى مثل معى. و حكى الأخفش أنو، و الجمع أناء. قال الشاعر:

حلو و مر كعطف القدح مرته

بكل انى حداه الليل يَنْتعل «1»

و روى ينتشر. و قال الحسن، و الربيع، و عبد الله بن كثير معناه ساعات الليل . و قال ابن مسعود يريد صلاة العتمة، لأن أهل الكتاب لا يعلمونها، و قال الثورى عن منصور هو الصلاة بين المغرب و العشاء . و قال السدى يعنى جوف الليل . و قوله: «وَهُمْ يَسْجُدُونَ» فيه قولان:

أحدهما- السجود المعروف فى الصلاة.

الثانى - قال الفراء، و الزجاج معناه يصلون . و به قال البلخى، و غيره، لأن القراءة لا تكون فى السجود، و لا فى الركوع، و هذا ترك للظاهر، و عدول عنه.

و معنى الآية يتلون آيات الله أناء الليل و هم مع ذلك يسجدون، فليست الواو حالا و إنما هى عطف جملة على جملة، و الضمير فى قوله (ليسوا) عائد على أهل الكتاب، لتقدم ذكرهم، و قال أبو عبيدة هو على لغة أكلونى البراغيث، و مثله قوله:

(١) قائله المنخل الهذلى و قد نسبه بعضهم الى المنخل السعدى.

ديوان الهذليين ٣٥:٢ و مجاز القرآن ١:١٠٢ و سيرة بن هشام ٢:٢٠٦ و رواية اللسان (انى) و الازهرى عن ابن الانبارى:

السالک النغر مخشياً موارده

بكل انى قضاء الليل ينتعل

و فى الديوان (حداه) بدل (حداه) فقط.

ص: ٥٦٥

«عَمُوا وَ صَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ» «١» و قال الشاعر:

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى

فاعرضن عنى بالخدود النواضر «2»

قال الرماني، و هذا غلط، لأن هذه اللغة رديئة في القياس و الاستعمال أما القياس، فلان الجمع عارض، و العارض لا يؤكد علامته، لأنه بمنزلة ما لا يعتد به، في سائر أبواب العربية و ليس كالثابت للزومه فتقدم له العلامة لتؤذن به قبل ذكره و مع ذلك فجائز تركها فيه، فكيف بالعارض، و لزوم الفعل للفاعل يغني عن التثنية و الجمع فيه، فلا يدخل جمع على جمع كما لا يدخل تعريف على تعريف. و أما الاستعمال، فلان أكثر العرب على خلافه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٤]

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)

آية واحدة.

المعنى:

هذه الآية فيها صفة الذين ذكرهم في الآية التي قبلها في قوله : «أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» فأضاف إلى ذلك أنهم مع ذلك يصدقون بالله و اليوم الآخر و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، و قد بينا أن الامر بالمعروف و النهي عن المنكر واجب، و أنه ليس طريق وجوبهما العقل، و إنما طريق وجوبهما السمع، و عليه إجماع الأمة . و إنما الواجب بالعقل كراهة المنكر، فقط غير أنه إذا ثبت بالسمع وجوبه، فعلياً إزالة المنكر بما يقدر عليه من الأمور الحسنة دون القبيحة، لأنه لا يجوز إزالة قبيح بقبيح آخر، و ليس لنا أن نترك أحداً

(١) سورة المائدة آية: ٧٤.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك ١: ٣٩٩ و غيرها من كتب النحو كثير.

ص: ٥٦٦

يعمل بالمعاصي إذا أمكننا منعه منها سواء كانت المعصية من أفعال القلوب مثل اظهار المذاهب الفاسدة أو من أفعال الجوارح، ثم ننظر، فان أمكننا إزالته بالقول، فلا نزيد عليه، و ان لم يمكن إلا بالمنع من غير إضرار لم نزد عليه، فان لم يتم إلا بالدفع بالحرب، فعلناه على ما بيناه فيما تقدم، و ان كان عند أكثر أصحابنا هذا الجنس موقوف على السلطان أو اذنه في ذلك . و انكار المذاهب الفاسدة، لا يكون إلا باقامة الحجج و البراهين و الدعاء إلى الحق، و كذلك إنكار أهل الذمة فأما الإنكار باليد، فمقصود على من يفعل شيئاً من معاصي الجوارح، أو يكون باغياً على إمام الحق، فانه يجب علينا قتاله و دفعه حتى يفيء إلى الحق، و سبيلهم سبيل أهل الحرب، فان الإنكار عليهم باليد و القتال حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يدخلوا في الذمة . و قوله: «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» يحتمل أمرين:

أحدهما - أنهم يبادرون إليها خوف الفوات بالموت.

و الثاني - يعملونها غير متناقلين فيها لعلمهم بجلالة موقعها، و حسن عاقبتها.

اللغة:

و الفرق بين السرعة و العجلة ان السرعة هي التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه و هي محمودة و ضدها الإبطاء و هو مذموم . و العجلة هي التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه و هي مذمومة و ضدها الاناة و هي محمودة .

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٥]

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

آية بلا خلاف.

القراءة و الحجة و الاعراب:

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بالياء فيهما. الباقون بالتاء إلا أبا عمرو، فانه

ص: ٥٦٧

كان يخير، و وجه القراءة بالياء أن يكون كناية عن تقدم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة، و وجه التاء أن يخلطهم بغيرهم من المكلفين، و يكون خطاباً للجميع في أن حكمهم واحد.

و إنما جوزى ب (ما) و لم يجاز ب (كيف) لأن (ما) أمكن من (كيف) لأنها تكون معرفة و نكرة، لأنها للجنس و (كيف) لا تكون إلا نكرة، لأنها للحال، و الحال لا تكون إلا نكرة، لأنها للفائدة.

اللغة و المعنى:

و قوله: «فَلَنْ يُكْفَرُوهُ» مجاز كما أن الصفة لله بأنه شاكراً مجاز . و حقيقته أنه يشيب على الطاعة ثواب الشاكر على النعمة، فلما استعير للثواب الشكر و استعير لتقيضه من منع الثواب الكفر، لأن الشكر في الأصل هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، و الكفر ستر النعمة من المنعم عليه بتضييع حقها . و معنى الآية فلن يمتنعوا ثوابه، و سمى منع الجزاء كفراً، لأنه بمنزلة الجحد له بستره، لأن أصل الكفر الستر، و لذلك قيل لجاحد نعم الله و من جرى مجراه في الامتناع من القيام بحقها: كافر، فالكافر هو المضيع لحق نعمة الله بما يجرى مجرى الجحود.

و قوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» إنما خص المتقين بالذكر، لأن الكلام اقتضى ذكر جزاء المتقين، فدل على أنه لا يضيع شيء من عملهم، لأن المجازى به عليهم، و أنهم أمرهم أمر الفجار تعويلاً على ما ذكره في غيرها من أي الوعيد.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)
آية.

المعنى:

لما ذكر تعالى أن عمل المتقين لن يضيع، و أنهم يجازون به، استأنف حكم

ص: ٥٦٨

الكافرين، و بين انه «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» شيئاً من الله و إنما خص الأموال، و الأولاد بالذكر في أنهم لا يغنون عن الكافر شيئاً و إن كان لا يغني عنهم غير هؤلاء أيضاً شيئاً، لأنهما معتمد ما يقع به الاعتداد، و مما يعول عليه الإنسان و يرجوه للشدائد و يفيد النفي العام، لأنه إذا لم يغن عنه من هو حقيق بالغناء لمنع من لا يعجزه شيء فغناء من دونه أبعد.

اللغة:

و قوله: «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» إنما سموا أصحاب النار، للزومهم فيها كما يقال هؤلاء أصحاب الصحراء إذا كانوا ملازمين لها، و قد يقال أصحاب العقار بمعنى ملاكه و أصحاب الرجل أتباعه و أعوانه و أصحاب العالم من يعني به الآخذون عنه، و المتعلمون عنه، فالإضافة مختلفة. و معنى «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ» أي لن تدفع عنهم ضرر الولاء النازل بهم و لو قيل أغناه كذا عن كذا أفاد أن أحد الشيتين صار بدلاً من الآخر في نفي الحاجة، و الغنى الاختصاص بما ينفي الحاجة، فان اخص بمال ينفي الحاجة، فذلك غنى. و كذلك الغنى بالجاه و الاصحاب و غير ذلك، فأما الغنى في صفت الله فاخصاصه بكونه قادراً على وجه لا يعجزه شيء، و قولنا فيه: أنه غنى معناه أنه لا يجوز عليه الحاجة.

و أصل النار النور، و هو مصدر. و النار جنس تجرى مجرى الوصف في تضمنه معنى الأصل و زيادة عليه، لأنها جسم لطيف فيه حرارة و نور. و منه امرأة نوار أي نافرة عن الشر عفيفة، لأنها كالنار في الامتناع. و منه المنار الاعلام، لأنها كالنور في البيان. و منه المنارة التي يسرج عليها.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٧]

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ هُوَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

ص: ٥٦٩

آية.

النزول:

قيل ان هذه الآية نزلت في أبي سفيان، و أصحابه يوم بدر، لما تظاهروا على النبي (ص) في الإنفاق. و قيل بل نزلت في نفقة المنافقين مع المؤمنين في حروب المشركين على وجه النفاق للمؤمنين.

المعنى:

و المثل الشبه الذى يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما مشبه به، فلما كان إنفاق المنافق و الكافر ضائعاً، و يستحق عليه العقاب و الدم أشبه الحرث المهلك، فلذلك ضرب به المثل. و فى الآية حذف، و تقديرها مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك «رياح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم» فحذف الإهلاك لدلالة آخر الكلام عليه و فيه تقدير آخر : مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح، فيكون تشبيه ذلك الإنفاق بالمهلك من الحرث بالرياح.

اللغة:

و الرياح جمعه رياح و منه الروح، لدخول الرياح الطيبة على النفس، و كذلك الارتياح . و التروح الراحة من التعب، لأنه بمنزلة الروح الذى يدخل على النفس بزوال التعب . و منه الاستراحة، و المراحة، لأنها تج لب الرياح . و منه الروح، لأنها كالرياح فى اللطافة و منه الرائحة، لأن الرياح تحملها إلى الحس، و منه الرواح، لأنه رجوع كالرياح، للاستراحة.

و قوله: «فيها صر» قال ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و الربيع، و السدى، و ابن زيد، و الضحاك : هو البرد و أصله الصوت من الصرير. قال الزجاج: الصر صوت لهب النار التى كانت فى تلك الرياح و يجوز أن يكون الصر صوت الرياح الباردة

ص: ٥٧٠

الشديدة، و ذلك من صفات الشمال، فإنها توصف بان لها قعقة.

المعنى:

و قوله: «و ما ظلمهم الله» نفى للظلم عن الله تعالى يعنى فى نفى استحقاقهم للتواب، و استحقاقهم للعقاب، و إن ذلك ليس بظلم منه تعالى «و لكن أنفسهم يظلمون» بذلك. و إنما وصفهم بأنهم ظلموا أنفسهم، لأمرين:

أحدهما - أن ظلمهم اقتضى هلاك حرثهم عقوبة لهم، لأنه لو هلك على جهة الابتلاء و المحنة لم يعتد بعاجل المضرة، للعوض الموفى عليه فى العاقبة.

الثانى - أن يكونوا ظلموا أنفسهم بأن زرعوا فى غير موضع الزرع أو فى غير وقت الزراعة، فجاءت الريح فأهلكته تأديباً من الله لهم فى وضع الشيء غير موضعه الذى هو حقه.

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

آية بلا خلاف.

المعنى:

ذكر ابن عباس، و الحسن: أن قوماً من المؤمنين خافوا بعض المشركين من اليهود، و المنافقين المودة لما كان بينهم فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك بهذه الآية . و البطانة معناها هاهنا خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره و يسمون دخلاء أى لا تجعلوا من هذه صفته من غير المؤمنين.

ص: ٥٧١

اللغة، و الاعراب:

و البطن خلاف الظهر، فمنه بطانة الثوب خلاف ظهارته، لأنها تلى بطنه.

و بطانة الرجل خاصته، لأنها بمنزلة ما يلى بطنه من ثيابه فى القرب منه، و منه البطننة و هو امتلاء البطن بالطعام . و البطن حزام البعير، لأنه يلى بطنه.

و قوله «من دونكم» (من) تحتل وجهين:

أحدهما - أن تكون دخلت للتبعيض، و التقدير لا تتخذوا بعض المخالفين فى الدين بطانة.

و الثانى - أن يكون دخولها لتبيين الصفة كأنه قيل : لا تتخذوا بطانة من المشركين . و هو أعم و أولى، لأنه لا يجوز أن يتخذ مؤمن كافراً بطانة على حال و قال بعضهم إن (من) زائدة، و هذا ليس بجيد، لأنه لا يجوز أن يحكم بالزيادة مع صحة حملها على الفائدة.

و قوله: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» معناه لا يقصرون فى أمركم خبالاً من قولهم ما ألوت فى الحاجة جهداً، و لا أألو الامر ألوا أى لا أقصر جهداً. و قال الشاعر:

جَهْرَاءَ لَا تَأْلُو إِذَا هِيَ أَظْهَرَتْ

بَصْرًا وَلَا مِنْ عَيْلَةٍ تَغْنِينِي «1»

أى لا تقتصر بصراً ولا تبصر، لأنها جهراء تطلب ذلك، فلا تجده.

و منه الالية اليمين. و منه قوله: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ» «٢» معناه لا يقصر، وقيل لا يحلف. و الأصل التقصير و الخبال معناه النكال. و أصله الفساد يقال فى قوائمه خبل، و خبال أى فساد من جهة الاضطراب. و منه الخبل الجنون، لأنه فساد العقل، و رجل مخبل الرأى أى فاسد الرأى. و منه الاستخبال طلب إعادة المال لفساد الزمان.

(١) قائله أبو العيال الهذلى . ديوان الهذليين ٢: ٢٦٣، و اللسان (أ لا) و (جهر) و هو من شعر فى مقرضات بينه و بين بدر بن عامر الهذلى الجهراء: هى التى لا تبصر فى الشمس.

(٢) سورة النور آية: ٢٢.

ص: ٥٧٢

المعنى:

و قوله: «ودوا» معناه أحبوا «ما عنتم» معناه إدخال المشقة عليكم.

و قال السدى: معناه «ودوا» ضلالكم عن دينكم، لأن الحمل بالضلال مشقة.

و قيل معناه «ودوا» أن يفتنوكم فى دينكم أى يحملونكم على المشقة ذكره ابن جريج.

اللغة:

و أصل العنت المشقة: عنت الرجل عنتاً إذا دخلت عليه المشقة. و منه أكمة عنوت أى صعبة المسلك لمشقة السلوك فيها. و فلان يعنت فلاناً أى يحمله على المشقة الشديدة فى ما يطالبه به. و منه قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُكُمْ» «١».

الاعراب، و المعنى:

و موضع ودوا يحتمل أن يكون نصباً لأنه صفة لبطانة و يجوز أن يكون له موضع من الاعراب، لأنه استئناف جملة. و قوله: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» أى ظهر منها ما يدل على البغض «وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ» يعنى العلامات

«إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» يعنى موضع نفعه لكم و مبلغ عائدته ع ليكم . و قيل: معناه «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» الفصل بين ما يستحقه الولي و العدو.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١١٩]

هَآ أَنتُمْ أَولَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

آية بلا خلاف.

(١) سورة البقرة آية: ٢٢٠.

ص: ٥٧٣

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

هذا خطاب للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أن منافقى أهل الكتاب لا يحبونهم و أنهم هم يصحبون هؤلاء المنافقين بالبر و النصيحة، كما يفعله المحب، و إن المنافقين على ضد ذلك، فأعلمهم الله ما يسره المنافقون فى باطنهم، و ذلك من آيات النبى (ص) قال الفراء: العرب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا، و هذان، و هؤلاء، فرقوا بين (ها) و بين (ذا) فجعلوا المكنى منهما فى جهة التقريب، لا غير يقولون:

أين أنت، فيقول القائل: هأنذا، و لا يكادون يقولون ها أنا . و مثله فى التثنية و الجمع . و مثله قوله: «هَآ أَنتُمْ أَولَاءُ تُحِبُّونَهُمْ» و ربما أعادوها فوصلوها بذا، و هذان و هؤلاء، فيقولون ها أنت هذا قائما، و ها أنتم هؤلاء . قال الله تعالى: «هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءُ جَادَلْتُمْ» «١» فان كان الكلام على غير تقريب أو كان على خير يكتفى كل واحد منهما بصاحبه بلا فعل، و التقريب لا بد فيه من فعل لتقصانه و أحبوا أن يفرقوا بين معنى التقريب، و بين معنى الاسم الصحيح، قال الازهرى: يحتتم أولا أن يكون منادى كأنه قال يا أولاء. و قال نحاة البصريين (ها) للتنبيه. و أنتم مبتدأ و أولاء خبره و يحبونهم حال. و قال الفراء: يحبونهم خبر.

و قال الزجاج: يجوز أن يكون أولاء بمعنى الذين و يحبونهم صلة و يكون التقدير الذين يحبونهم. و يجوز أن يكون حالا بمعنى «هَآ أَنتُمْ أَولَاءُ» محبين لهم. و يكون «أنتم» مبتدأ و أولاء خبره. و يحبونهم حالا و المعنى انظروا إلى أنفسكم محبين لهم و لا يجوز أن تقول: ها قومك أولاء، كما جاز «هَآ أَنتُمْ أَولَاءُ»، لأن المضمرة أحق ب (ها) التى للتنبيه، لأنه كالمبهم فى عموم ما يصلح له. و ليس كذلك الظاهر.

و قال الفراء: إنما ذاك على جهة التقريب فى المضمرة، و الاعتماد على غيره فى الخبر . قال الحسن بن على المغربى أولاء يعنى به المنافقين، كما تقول ما أنت زيدا يحبه، و لا يحبك. و هذا ملحق غي أنه يحتاج أن يقدر عامل فى أولاء ينصبه، يفسره قوله:

«يحبونهم» لأنه مشغول لا يعمل فيما قبله كقوله: «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ» «١» في من نصبه و أولاء للرجال، و للنساء أولات . و هو مبنى على الكسر. و كان الأصل السكون و الألف قبلها ساكنة فحرك لالتقاء الساكنين على أصل الكسرة. و قوله:

«وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ» الكتاب واحد في موضع الجمع، لأنه أريد به الجنس، كما يقال كثر الدرهم في أيدي الناس و يحتمل أن يكون مصدراً من قولك كتبت كتاباً. و المراد بالكتاب هاهنا كتب الله التي أنزلها على أنبيائه و في إفراده ضرب من الإيجاز، و اشعار بالتفصيل في الاعتقاد، لأنهم يؤمنون بها في الجملة. و التفصيل من حيث يؤمنون بما أنزل على إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمد (ص) و سائر الأنبياء. و قوله: «وَإِذَا لَقُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا» معناه إذا رأيكم قالوا صدقنا «وإذا خلوا» مع أنفسهم «عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ» فالعض بالأسنان. و منه العض علف الأمصار، لأن له مضغاً في العض يسمن عليها المال . و منه رجل عض: لزاز الخصم، لأنه يعض بالخصومة. و كذلك رجل عض فحاش، لأنه يعض بالفحش و الأنامل أطراف الأصابع في قول قتادة، و الربيع، و أصلها النمل المعروف، فهو مشبه به في الرقة، و التصرف بالحركة. و منه رجل نمل أى نمام، لأنه ينقل الأحاديث الكرهة كقل النملة في الخفاء و الكثرة . و واحد الأنامل أنملة. قال الزجاج و لم يأت على هذا المثال ما يعنى به الواحد إلا شذ، فأما الجمع، فكثير نحو أفلس و أكعب و قوله: «قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ» معناه الامر بالدعاء عليهم. و إن كان لفظه لفظ الأمر، كأنه قال قل: أماتكم الله بغيطكم و فيه معنى الذم لهم، لأنه لا يجوز أن يدعا عليهم هذا الدعاء إلا و قد استحقوه بقيب ما أتوه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٠]

إِنْ تَسْأَلْهُمْ حَسَنَةً تَسْأَلْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

آية بلا خلاف.

قرأ عمرو، و نافع، و ابن كثير «لا يضركم» خفيفة. الباقون مشددة الراء. و هما لغتان ضاره يضيره، و ضره يضره ضراً بمعنى واحد. قوله: «إِنْ تَسْأَلْهُمْ حَسَنَةً تَسْأَلْهُمْ» حسنة فالمراد بالحسنة هاهنا ما أنعم الله عليهم به من الألفاء و الغلبة باجتماع الكلمة، و المراد بالسئنة المحنة باصابة العدو منهم لاختلاف الكلمة، و ما يؤدى إليه من الفرقة هذا قول الحسن، و قتادة و الربيع و ابن جريج.

وقوله: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا» يعنى تتقوا الله بامتناع معاصيه، و فعل طاعاته «لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ» فالكيد المكر الذى يغتال به صاحبه من جهة حيلة عليه ليقع فى مكروه به، و أصله المشقة تقول: رأيت فلاناً يكيد بنفسه أى يقاسى المشقة فى سياق المنية، و منه المكايذة لا يراد ما فيه المشقة. و المكيدة الحيلة لا يقاع ما فيه المشقة. و قوله: «لَا يَضُرُّكُمْ» مبنى على الضم نحو مذ و لو فتح أو كسر لكان جائزاً فى العربية و زعم بعضهم أنه رفع على حذف الفاء بتقدير، فلا يضركم و أنشد:

فان كان لا يرضيك حتى تردنى
الى قطرى لا أخالك راضياً¹

و هذا ضعيف، لأن الحذف إنما يجوز، لضرورة الشعر و القرآن لا يحمل على ضرورة الشعر . و قوله: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» معناه عالم به من جميع جهاته مقتدر عليه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢١]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)
آية.

(١) قائله سوار بن المضرب السعدى التميمى . نوادر أبى زيد: ٥٤، و معانى القرآن للفراء ١: ٢٣٢، و حماسه ابن الشجرى: ٥٤، ٥٥.

ص: ٥٧٦

المعنى، و اللغة، و الاعراب:

قال ابن عباس، و قتادة و الربيع، و السدى، و ابن اسحق، و هو

قول أبى جعفر (ع): كان غدو النبى (ص) ميوئاً للمؤمنين يوم أحد

، و قال الحسن و مجاهد: كان يوم الأحزاب.

النبوءة اتخاذ المواضع لصاحبه و أصلها اتخاذ منزل تسكنه، تقول بوائته منزله أبوائته تبوءة، و منه المباءات المراح، لأنه رجوع إلى المستقر المتخذ و أبأت الإبل أبيئها اباءة إذا رددتها إلى المباءة. و منه بوائت بالذنب أى رجعت به محتملاً له.

و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها أنه تهديد و المراد «سميع» لما يقول المنافقون «عليم» بما يضمرون.

الثاني - «سميع» لما يقوله النبي (ص) للمؤمنين «عليم» بما يضمره تركية له (ص).

الثالث - «سميع» ما يقوله المشيرون عليك «عليم» بما يضمرونه، لأنهم اختلفوا، فمنهم من أشار بالخروج، و منهم من أشار بالمقام. و فيه تركية للزأكي و تهديد للغاوى . و معنى «تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ» مثل تبوئ للمؤمنين حذف اللام، كما قال «ردف لكم» (١) و يجوز ردفكم، فإذا عداه، فمعناه رتب المؤمنين على مواضعهم قدمة . و إذا لم يتعد فمعناه تتخذ لهم مواضع . و مثله قول الشاعر:

استغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه و العمل «2»

و معناه من ذنب، و العامل فى (إذ) محذوف، و تقديره و اذكر إذ غدوت من أهلك فحذف لدلالة الكلام عليه و لا يجوز أن يكون العامل غدوت، لأنه مضاف إليه بمنزلة الصلة له.

(١) سورة النمل آية: ٧٢.

(٢) معانى القرآن للفراء ١: ٢٣٣ و سيبويه ١: ١٧ و الخزانة ١: ٤٨٦ و هو من أبيات سيبويه الخمسين التى لا يعرف قائلها.

ص: ٥٧٧

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٢]

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

آية.

التقدير و اذكر «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» و قال الزجاج العامل فى (إذ) «هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» و المعنى كانت التبوئة فى ذلك الوقت.

و الطائفتان:

هما بنو سلمة و بنو حارثة حيان من الأنصار في قول ابن عباس، و جابر بن عبد الله، و الحسن و قتادة، و مجاهد، و الربيع، و السدي، و ابن إسحاق، و ابن زيد، و أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و قال الجبائي: هما قوم من المهاجرين، و الأنصار.

و الفشل الجبن في قول ابن عباس تقول فشل يفشل فشلا. و الجبن ليس من فعل الإنسان و تحقيقه على هذا همت بحال الفشل إلا أنه وضع كلام موضع كلام. و ليس في الآية أن همهما بالفشل كان معصية، لأنه قد يكون من غير عزم على حال الفشل بل بحديث النفس به، و من قال كان معصية قال هي صغيرة، لقوله (وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا) و روى عن جابر بن عبد الله أنه قال فينا نزلت و ما أحب أنها لم تكن، لقوله:

«وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» و كان سبب همهم بالفشل في قول السدي، و ابن جريج أن عبد الله ابن أبي بن سلول دعاهما إلى الرجوع إلى المدينة عن لقاء المشركين يوم أحد فهما به و لم يفعلاه. و قال أبو علي: بل كان ذلك باختلافهم في الخروج إلى العدو أو المقام حتى هموا بالفشل. و التاء مدغمة في الطاء في قوله: (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ) لأنها من مخرجها فصارت بمنزلتها مع مثلها نحو همت تفعل و مثله «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ» (١) و يجوز أيضاً إدغام الطاء في التاء إلا أنك تبقى الاطباق نحو «أَحْطَتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ» (٢) و الأول أحسن.

(١) سورة الأحزاب آية: ١٣.

(٢) سورة النمل آية: ٢٢.

ص: ٥٧٨

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٣]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

آية.

النزول و اللغة:

هذه الآية نزلت في وصف ما من الله تعالى على المؤمنين من النصر و الامداد بالملائكة و ظفر المؤمنين بالمشركين مع قلة المؤمنين و قوة المشركين. فانه روى عن ابن عباس (ره) أنه قال كان المهاجرون يوم بدر سبعة و سبعين رجلا و الأنصار مائتين و ستة و ثلاثين رجلا الجميع ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا. و كان المشركون نحواً من ألف رجل.

و بدر ما بين مكة و المدينة و قال الشعبي سمي بدرًا لأن هناك ماء لرجل يسمى بدرًا، فسمى الموضع باسم صاحبه . و قال الواقدي عن شيوخه إنما هو اسم للموضع كما يسمى كل بلد باسم يخصه من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه.

و قوله: «وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» جملة في موضع الحال . و الذلة الضعف عن المقاومة، و ضدها العزة، و هي القوة على الغلبة، و يقال للجمل المتقاد من غير صعوبة: ذلول لانقياده انقياد الضعيف، فأما الذليل فإنما ينقاد على مشقة . و منه تذليل الطريق، و نحوه، و هو توطئة الأصل. و فيه الضعف عن المقاومة. و قوله: «أذلة» جمع ذليل و فعيل قياسه أن يجمع على فعلاء إذا كان صفة، مثل ظريف و ظرفاء، و كريم و كرماء، و عليم و علماء، و شريك و شركاء، فجمع على أفعلة كراهية التضعيف، فعدل إلى جمع الأسماء نحو قفيز و أفزة، فليل و أذلة و عزيز و أعزة.

المعنى:

و وصفهم الله بأنهم أذلة لأنهم كانوا ضعفاء قليلي العدد قليلي العدة . و روى عن بعض السلف الصالح أنه قرأ «وَأَنْتُمْ ضَعْفَاءُ» قال و لا يجوز وصفهم بأنهم أذلة،

ص: ٥٧٩

و فيهم رسول الله (ص).

و كان صاحب راية رسول الله (ص) يوم بدر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). و صاحب راية الأنصار سعد بن عباد. و قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ» معناه اتقوا معاصيه و اعملوا بطاعته . و يجوز أن يكون المراد اتقوا عقاب الله بترك المعاصي، و العمل بطاعته، لأن أصل الانقواء هو الحجز بين الشيئين بما يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر كما تقول اتقاه بالترس أو غيره، و وجه إدخال هذه الآية و هي متعلقة بقصة بدر بين قصة أحد أن الله تعالى وعد المؤمنين النصر يوم أحد إن صبروا و ثبتوا أن يمدهم بالملائكة كما نصرهم يوم بدر، و أمدهم بالملائكة فلما لم يصبروا و تركوا مراكزهم أصاب العدو منهم ما هو معروف.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٤]

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤)

آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وحده منزلين بتشديد الزاي الباقون بالتخفيف . التقدير اذكروا «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ» و فيه إخبار

أن النبي (ص) قال لقومه: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ يوم بدر بأن أمدكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ثم قال «بَلَى إِنْ تَصَبَرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتِيَكُمُ مِنَ فُرُجِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» يعنى يوم أحد.

و قال ابن عباس، و الحسن و قتادة، و مالك بن ربيعة و غيرهم : ان الامداد بالملائكة كان يوم بدر . و قال ابن عباس لم يقاتل الملائكة (ع) إلا يوم بدر، و كانوا فى غيره من الأيام عدة و مدداً.

و قال الحسن: كان جميعهم خمسة آلاف. و قال غيره: كانوا ثمانية آلاف.

اللغة:

و قوله: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ» فالكفاية مقدار يسد به الخلّة تقول: كفاه يكفيه كفاية، فهو كاف: إذا قام بالأمر، و استكفيته أمراً فكفاني، و اكتفى به اكتفاء.

ص: ٥٨٠

و كفاك هذا الأمر أى حسبك . و الفرق بين الاكتفاء و الاستغناء، أن الاكتفاء هو الاقتصار على ما ينفى الحاجة و الاستغناء الاتساع فيما ينفى الحاجة، فلذلك يوصف تعالى بأنه غنى بنفسه لاتساع مقدوره من حيث كان قادراً لنفسه لا يعجزه شيء.

و قوله: «أن يمدكم» فالامداد هو إعطاء الشيء حالاً بعد حال. و المعنى فى الآية ان الله أعطاهم القوة فى أنفسهم ثم زادهم قوة بالملائكة و المد فى السير هو الاستمرار عليه . و امتد بهم السير: إذا طال، و استمر، و مددت الشيء إذا جذبته . و المد زيادة الماء تقول: مد الماء و أمد الجرح و أمدت العسكر . و المادة زيادة مستمرة، و المدة أوقات مستمرة إلى غاية . و المداد ما يكتب به. و المد مكيال مقداره ربع الصاع.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٥]

بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

آية.

القراءة و المعنى:

قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و عاصم «مسومين» بكسر الواو. الباقيون بفتحها. و القراءة بالكسر أقوى، لأن الأخبار وردت بأنهم سوموا خيلهم بعلامة جعلوها عليها . و قال ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و مجاهد، و الضحاك : كانوا علموا بالصوف فى نواصى الخيل و أذناها. و روى هشام عن عروة قال: نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بلق و عليهم عمائم صفر. قال السدى، و غيره من أهل التأويل: معنى «مسومين» معلمين.

اللغة، و المعنى:

و من قرأ بالفتح أراد معنى مرسلين من الإبل السائمة يعنى المرسله فى المرعى

و السیما العلامة قال الله تعالى «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» «١» فالتسويم العلامة قال الشاعر:

مسومين بسيما النار أنفسهم
لا مهتدين ولا بالحق راضينا

و أصل الباب السوم في المرعى، و هو الاستمرار فيه فمنه السيماء، لأنهم كانوا يعلمونها: إذا أرسلت في المرعى لثلا تختلط، و منه السوم في البيع، و منه سوم الريح استمرارها في هبوبها. و منه سوم الخسف، لأنه استمرار في إلزام الشر.

و قوله: «من فورهم» قال ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و الربيع، و السدي و ابن زيد : معناه من وجههم. و قال مجاهد و الضحاك و أبو صالح من غضبهم، فعلى القول الأول إنما هو فور الانتداب لهم، و هو ابتداؤه، و على القول الثاني فور الغضب، و هو غليانه.

و أصل الفور فور القدر، و هو غليانها عند شدة الحمى، فمنه فورة الغضب، لأنه كفور القدر بالحمى، و منه جاء فلان على الفور أى على أشد الحمى، لفعله قبل أن تبرد نفسه . و منه فارت العين بالماء أى جاشت به و منه الفوارة، لأنها تفور بالماء كما تفور القدر بما فيها. فان قيل: كيف قال في الآية الأولى ان الامداد بثلاثة آلاف، و في هذه بخمسة آلاف . و هذا ظاهر التناقض؟! قلنا: لا تناقض في ذلك لأن في الآية الأولى وعد الله المؤمنين على لسان نبيه بأن يمدهم بثلاثة آلاف منزلين ثم قال «بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا» يعنى تصبروا على الجهاد، و القتال، و تتقوا معاصى الله «وَيَأْتِيَكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ» و هذا يعنى ان رجعوا إليكم، لأن الكفار في غزاه أحد بعد انصرفهم ندموا لم لم يعبروا على المدينة و هموا بالرجوع، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يأمر أصحابه بالتهيو للرجوع إليهم . و قال لهم «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ» «٢» ثم قال إن صبرتم على الجهاد و راجعتم الكفار، أمدكم الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، فأخذوا في

(١) سورة الفتح آية: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٤٠.

الجهاز فبلغ ذلك قريشاً فخافوهم أن يكون قد التأم إليهم من كان تأخر عنهم و انضم إليهم غيرهم، فسدوا نعيم بن مسعود الاشجعي حتى قصدهم بتعظيم أمر قريش و اسرعوا. و القصة معروفة و لذلك قال قوم من المفسرين: ان جميعهم ثمانية آلاف و قال الحسن جميعهم خمسة آلاف منهم الثلاثة آلاف المنزلين على أن الظاهر يقتضى أن الامداد بثلاثة آلاف كان يوم بدر، لأن

قوله: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ» «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ» ثم استأنف حكم يوم أحد، فقال:

«بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ» يعنى رجعوا عليكم بعد انصرافهم أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . و القصة فى ذلك معروفة على ما بيناه، و على هذا لا تنافى بينهما، و هذا قول البلخى رواه عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال : لم يمدوا يوم أحد و لا بملك واحد. فان قيل لم لم يمدوا بالملائكة فى سائر الحروب؟ قلنا : ذلك تابع للمصلحة فإذا علم الله المصلحة فى إمدادهم أمدهم.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٦]

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) آية.

الهاء فى قوله: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ» عائده على ذكر الأمداد و الوعد فيعود على معلوم بالدلالة عليه غير مذكور باسمه لأن يمدد يدل على الذكر للامداد و مثله «إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» «١» أى الشمس. و قال لبيد:

حتى إذا ألفت يداً فى كافر
و أجن عورات النغور ظلامها «2»

أى ألفت الشمس فرد الضمير إلى معلوم ليس بمذكور. و قال قوم: ان الضمير

(١) سورة ص آية: ٣٢.

(٢) دائرة المعارف لوجدى. و غيرها. الكافر: الليل و الاجنات: الستر و النغور:

موضع المخافة.

ص: ٥٨٣

راجع إلى الامداد نفسه. و الاول أقوى لأن البشرى فى صفات الانزال و ذلك يليق بذكر الامداد. و الفرق بين قوله: «وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ» و قوله و اطمئنانا لقلوبكم، أن الوعد فى أحدهما اطمئنان، و فى الآخر سببه الاطمئنان، فهو أشد فى تحقيق الكلام

من أجل دخول اللام . و قوله: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» معناه أن الحاجة لازمة في المعونة و إن أمدهم بالملائكة فإنهم لا يستغنون عن معونته طرفه عين في تقوية قلوبهم و خذلان عدوهم بضعف قلوبهم إلى غير ذلك من الأمور التي لا قوام لهم إلا بها و لا متكل لهم إلا عليها . فان قيل: كيف قال «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» و قد ينصر المؤمنون بعضهم بعضاً و بعض المشركين بعضاً؟ قلنا: لأن نصر بعض المؤمنين بعضاً من عند الله لأنه بمعونته و حسن توفيقه، و أما نصر المشركين بعضهم لبعض، فلا يعتد به، لأنه بخذلان الله من حيث أن عاقبته إلى شر مآل من العقاب الدائم . و قوله: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معناه هاهنا العزيز في انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين، الحكيم في تدبيره للعالمين ليعلمهم بأن حربهم للمشركين يجرى على إعزاز الدين، و الحكمة في تدبير المكلفين و معنى العزيز المنيع باقتداره.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آئ ١٢٧]

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)
آية.

المعنى:

قوله: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يحتمل أن يتصل بثلاثة أشياء:

أحدها - «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ».

الثاني - بقوله و لقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفاً.

الثالث - ذلك التدبير ليقطع طرفاً.

ص: ٥٨٤

و اليوم الذى قطع فيه الطرف من الذين كفروا : هو يوم بدر بقتل صناديدهم و رؤسائهم و قادتهم إلى الكفر فى قول الحسن، و الربيع، و قتادة. و قال السدى:

هو يوم أحد قتل منهم ثمانية عشر رجلاً. و إنما قال: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا» منهم و لم يقل ليقطع وسطاً منهم، لأنه لا يوصل إلى الوسط منهم إلا بعد قطع الطرف و مثله «قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ» «١» و المراد بالآية ليقطع قطعة منهم.

اللغة:

و قوله: «أو يكبتهم» فالكبت الخزى. و معناه أو يخزيهم فى قول الربيع، و قتادة. و قال الخليل: الكبت صرع الشىء على وجهه كبتهم الله فانكبتوا.

و حقيقة الكبت شدة وهن يقع فى القلب فربما صرع الإنسان لوجهه للخور الذى يدخله . و قوله : «فينقلبوا» أى فيرجعوا «خائبيين» الخائب المنقطع عما أمل، و لا تكون الخيبة إلا بعد الأمل، لأنها امتناع نيل ما أمل . و اليأس قد يكون قبل الأمل و يكون بعده. و اليأس و الرجاء تقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة و الظفر، يقال : خاب يخيب خيبة و خيبة الله تخيباً . و الخيبة حرمان المراد.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٨]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

آية بلا خلاف.

القصة، و المعنى:

روى عن أنس بن مالك و ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و ال ربيع: انه لما كان من المشركين يوم أحد من كسر رباعية النبی (ص) و شجه حتى جرت الدماء على وجهه، قال كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيهم، و هو مع ذلك حريص على

(١) سورة التوبة آية: ١٢٤.

ص: ٥٨٥

دعائهم إلى ربهم، فنزلت هذه الآية، فأعلمه الله أنه ليس إليه فلاحهم و أنه ليس إليه إلا أن يبلغ الرسالة و يجاهد حتى يظهر الدين. و كان الذى كسر رباعيته و شجه فى وجهه عتبة بن أبى وقاص، فدعا (ع) عليه الا يحول عليه الحول حتى يموت كافراً، فمات كافراً قبل حول الحول. و قيل: انه هم بالدعاء عليهم، فنزلت الآية تسكيناً له، فكف عن ذلك. و قال أبو على الجبائى: انه استأذن ربه يوم أحد فى الدعاء عليهم، فنزلت الآية، فلم يدع عليهم بعذاب الاستئصال و إنما لم يؤذن فيه لما كان فى المعلوم من توبة بعضهم، و إنابته، فلم يجز أن يقتطعوا عن التوبة بعذاب الاستئصال. فان قيل كيف قال «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» مع أن له أن يدعوهم إلى الله و يؤدي إليهم ما أمره بتبليغه؟ قيل : لأن معناه ليس لك من الأمر شيء فى عقابهم أو استصلاحهم حتى تقع إنابتهم، فجاء الكلام على الإيجاز، لأن المعنى مفهوم لدلالة الحال عليه و أيضاً فانه لا يع تد بما له فى تدبيرهم مع تدبير الله لهم، فكأنه قال ليس لك من الأمر شيء على وجه من الوجوه.

و قوله: «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - أو يلطف لهم بما يقع معه توبتهم، فيتوب عليهم بلطفه لهم.

و الآخر - أو يقبل توبتهم إذا تابوا، كما قال تعالى «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» «١» ولا تصح هذه الصفة إلا لله عز وجل، لأنه يملك الجزاء بالثواب، والعقاب . فان قيل: كيف قال «أو يعذبهم» مع ما في المعلوم من أن بعضهم يؤمن؟ قيل : لأنهم يستحقون ذلك باجرامهم بمعنى أنه لو فعل بهم لم يكن ظلماً، وان كان لا يجوز أن يقع لوجه آخر يجرى مجرى توبيخهم لاستصلاح غيرهم. وقيل في نصب «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» وجهان:

أحدهما - أنه بالعطف على «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ» «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ» ويكون «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه كما تقول: ضربت زيداً فافهم ذاك وعمراً.

(١) سورة المؤمن آية: ٣.

ص: ٥٨٦

الثاني - أن تكون أو بمعنى إلا أن، كأنه قال : (ليس لك من الأمر شيء) إلا أن يتوب الله عليهم أو يعذبهم فيكون أمرك تابعاً لأمر الله برضاك بتدبيره فيه قال امرؤ القيس :

فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا¹

أراد إلا أن نموت أو حتى نموت.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٢٩]

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

آية بلا خلاف.

عموم قوله: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يقتضي أن له تعالى ملك ما في السماوات، وما في الأرض، وأن له التصرف فيهما كيف شاء بلا دافع، ولا مانع، غير أنه لا بد من تخصيص هذا العموم من حيث أنه ينزه عن الصاحبة والولد على كل وجه. وأوجه ما قلناه. وانما ذكر لفظ (ما) لأنها أعم من (من) لأنها تتناول ما يعقل، وما لا يعقل، لأنها تفيد الجنس ولو قال من في السماوات ومن في الأرض لم يدخل فيه إلا العقلاء إلا أن يحمل على التغليب وذلك ليس بحقيقة . وقوله: «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ» دليل على أن حسن العفو عن مستحق العذاب، وان لم يتب لأنه لم يشترط فيه التوبة . وقوله: «وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» يعني ممن يستحق العذاب، لأن من لا يستحق العذاب لا يشأ عذابه، لأنه ظلم يتعالى الله عن ذلك وفي ذلك دلالة على جواز

العفو بلا توبة، لأنه علق عذابه بمشيئته، فدل على أنه لو لم يشأ، لكان له ذلك، و لا يلزم على ما قلناه الشك في جواز غفران عقاب الكفار، لأن ذلك أخرجناه من العموم بدلالة إجماع الأمة على أنه لا يغفر

(١) ديوانه: ٨٩ يقول: انا نطلب الملك فان وصلنا اليه و الا نبقي في طلبه حتى نموت دونه و هذا عذرنا.

ص: ٥٨٧

الشرك. و بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» «١» و لو لا ذلك لكننا نجوز العفو عنهم أيضاً و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما قال ليس لك من الأمر شيء عقب ذلك بأن الأمر كله لله في السماوات و الأرضين.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)

آية.

النظم، المعنى:

لما ذكر الله تعالى أن له عذاب من يشاء، و العفو عمن يشاء، وصل ذلك بالنهاي عما لو فعلوه لاستحقوا عليه العقاب، و عذبوا عليه، و هو الربا، و الربا المنهى عنه قال عطا، و مجاهد : هو ربا الجاهلية، و هو الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال. و يدخل فيه كل زيادة محرمة في المعاملة من جهة المضاعفة، و وجه تحريم الربا هو المصلحة التي علمها الله تعالى . و قيل فيه وجوه على وجه التقريب: منها للفصل بينه و بين البيع. و منها- أنه مثال العدل يدعو إليه و يحض عليه. و منها-

أنه يدعو إلى مكارم الأخلاق بالاقراض و إنظار المعسر من غير زيادة.

و هذا الوجه روى عن أبي عبد الله (ع).

و قوله: «أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً» قيل في معناه هاهنا قولان:

أحدهما- للمضاعفة بالتأخير أجلا بعد أجل كلما أخر عن أجل إلى غيره زيد عليه زيادة على المال.

الثاني - «أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً» أى يضاعفون في أموالكم . و قيل في تكرير تحريم الربا هاهنا مع ما تقدم في قوله : «وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا» «٢» و غير ذلك قولان:

(١) سورة النساء آية: ٤٧، ١١٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٧٥.

ص: ٥٨٨

أحدهما - للتصريح بالنهاى عنه بعد الاخبار بتحريمه لما فى ذلك من تصريف الخطر له و شدة التحرز منه.

الثانى - لتأكيد النهى عن هذا الضرب منه الذى يجرى على الاضعاف المضاعفة.

و قوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» معناه اتقوا معاصيه. و قيل: اتقوا عذابه بترك معاصيه «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، لكى تنجحوا بإدراك ما تأملونه، و تفوزوا بثواب الجنة، لأن (العل) و ان كان للشك، فان ذلك لا يجوز على الله تعالى. و قد بينا لذلك نظائر فيما مضى.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣١ الى ١٣٢]

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

آيتان بلا خلاف.

المعنى:

فان قيل: كيف قال «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» و عندكم يجوز أن يدخلها الفساق أيضاً . و عند المعتزلة كلهم يدخلها الفساق قطعاً . و هلا قال: أعدت للجميع؟ قلنا أما على ما نذهب إليه، ففائدة ذلك اعلامنا أنها أعدت للكافرين قطعاً . و ذلك غير حاصل فى الفساق، لأننا نجوز العفو عنهم . و من قال أعدت للفساق قال أضيفت إلى الكافرين، لأنهم أحق بها . و إن كان الجميع يستحقونها، لأن الكفر أعظم المعاصى فأعدت النار للكافرين . و يكون غيرهم من الفساق تبعاً لهم فى دخولها . فان قيل: فعلى هذا هل يجوز أن يقال: ان النار أعدت لغير الكافرين من الفاسقين؟ قلنا عن ذلك أجوبة:

أحدها - قال الحسن يجوز ذلك، لأنه من الخاص الذى معه دلالة على العام، كما قال : «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ

ص: ٥٨٩

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» ١» و ليس كل من دخل النار كفر بعد إيمانه. و مثله قوله: «كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ» ٢» و ليس كل الكفار يقول ذلك. و منه قوله: «فَكُبِّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ٣» و ليس كل الكفار سوا الشياطين رب العالمين.

و الثاني - أنه لا يقال أعدت لغيرهم من الفاسقين، لأن أعدادها للكافرين من حيث كان عقابهم هو المعتمد و عقاب الآخرين له تبع، كما قال: «وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» «٤» و لا خلاف أنه يدخلها الأطفال و المجانين إلا أنهم تبع للمتقين، لأنه لولاهم لم يدخلوها. و لا يقال: إن الجنة أعدت لغير المتقين.

الثالث - أن تكون هذه النار ناراً مخصوصة فيها الكفار خاصة دون الفساق و ان كان هناك نار أخرى يدخلها الفساق، كما قال: «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» «٥» و كما قال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» «٦» و هذا قول أبي على. و استدلل البلخي بهذه الآية على أن الربا كبيرة، لأن تقديره «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» « أن يأكلوا الربا، فيستحقونها. و الإجماع حاصل على أن الربا كبيرة، فلا يحتاج إلى هذا التأويل، لأن الآية يمكن أن يقول قائل : إنما بمعنى الزجر و التحذير عن الكفر، فقط و قوله: «أعدت» فالاعداد هو تقديم عمل الشيء لغيره مما هو متأخر عنه و قد قدم فعل النار ليصلاها الكفار. و الاعداد و الإيجاد و التهيئة و التقديم متقاربة المعنى و قوله : «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ»: أمر بالطاعة لله و رسوله. و الوجه في الأمر بالطاعة لله و رسوله مع أن العقل دال عليه يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون ذلك تأكيداً لما في العقل، كما وردت نظائره، كقوله:

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٦.

(٢) سورة الملك آية: ٨.

(٣) سورة الشعراء آية: ٩٤ - ٩٨

(٤) سورة آل عمران آية: ١٣٣.

(٥) سورة الليل آية: ١٥ - ١٦.

(٦) سورة النساء آية: ١٤٤.

ص: ٥٩٠

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» «١» «وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» «٢» و غير ذلك.

و الثاني - لاتصاله بأمر الربا الذي لا تجب الطاعة فيه إلا بالسمع، لأنه ليس مما يجب تحريمه عقلاً كما يجب تحريم الظلم بالعقل، فان قيل: إذا كانت طاعة الرسول طاعة الله فما وجه التكرار؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - المقصود بها طاعة الرسول فيما دعا إليه مع القصد لطاعة الله تعالى.

الثانى - ليعلم أن من أطاعه فيما دعا إليه كمن أطاع الله، فيسارع إلى ذلك بأمر الله. و الطاعة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل بطريق الرغبة، و الرهبة . و لذلك صح أن يجيب الله تعالى عبده، و ان لم يصح منه أن يطيعه، لأن الاجابة إنما هى موافقة الارادة مع القصد إلى موافقتها على حد ما وقعت من المريد. و قوله:

«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» يحتتمل أمرين:

أحدهما - لترحموا. و قد بينا لذلك نظائر.

و الثانى - ان معناه ينبغي للعباد أن يعملوا بطاعة الله على الرجاء للرحمة بدخول الجنة، لئلا يزلوا فيستحقوا الإحباط و العقوبة أو يوقعوها على وجه لا يستحق به الثواب، بل يستحق به العقاب. و فيها معنى الشك، لكنه للعباد دون الله تعالى.

النظم:

و قيل فى وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان:

أحدهما - لاتصال الأمر بالطاعة بالنهى عن أكل «الرَّبَّوَا أضعافاً مضاعفةً» كأنه قال و أطيعوا الله فيما نهاكم عنه من أكل الربا، و غيره لتكونوا على سبيل الهدى.

الثانى - قال ابن إسحاق: انه معاتبه للذين عصوا رسول الله (ص)، بما أمرهم به يوم أحد: من لزوم مراكزهم، فخالفوا و اشتغلوا بالغنيمة إلا

(١) سورة الشورى آية: ١١.

(٢) سورة الانعام آية: ١٠٣.

ص: ٥٩١

طائفة منهم قتلوا. و كان ذلك سبب هزيمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٣]

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

آية.

قرأ نافع و ابن عامر «سارعوا» بلا واو، و الباقر بالواو، و كذلك هي في مصاحف أهل الشام بلا واو . و في مصاحف أهل العراق بالواو، و المعنى واحد، و إنما الفرق بينهما استئناف الكلام إذا كان بلا واو، و وصلها بما تقدم إذا قرئ بواو، لأنه يكون عطفاً على ما تقدم . و في هذه الآية الأمر بالمبادرة إلى مغفرة الله باجتناّب معصيته و إلى الجنة التي عرضها السماوات و الأرض بفعل طاعته.

و اختلفوا في قوله «عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» فقال ابن عباس، و الحسن:

معناه عرضها كعرض السماوات السبع، و الأرضين السبع إذا ضم بعض ذلك إلى بعض، و اختاره الجبائي، و البلخي . و إنما ذكر العرض بالعظم دون الطول، لأنه يدل على أن الطول أعظم، و ليس كذلك لو ذكر الطول بدلا من العرض . و مثل الآية قوله: «ما خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً»^١ و معناه إلا كبعث نفس واحدة. و قال الشاعر:

كأن عذيرهم بجنوب سيلي نعام فاق في بلد قفار²

أى عذير نعام و قال آخر:

(١) سورة لقمان آية: ٢٨.

(٢) قائله شفيق بن جزء بن رياح الباهلي و قد نسبه بعضهم لاعشى باهلة . و نسب أيضاً للنابعة خطأ. اللسان (فوق) (سل)، و معجم البلدان (سلي)، و الكامل للمبرد ٣: ١٩٦.

و كان شفيق قد أغار على بنى ضبة بروضة سلي، و روضة ساجر فهزم أهلها. و هما روضتان لعكل.

و ضبة و عدى و تيم و عكل حلفاء متجاورون فلما هزموا قال بهم شفيق أبيات منها هذا البيت.

و العذير: الحال المقاقات: صوت الطائر إذ كان مذعوراً و القفار : المكان الذى ليس به انس و كأنه بقول هزمناهم شر هزيمة و كانت حالهم مثل حال الطائر الذى فى أرض قفرة إذا أتاه الصيد

ص: ٥٩٢

و ما هي ويب غيرك بالعناق¹

حسبت بغام راحلنى عناقا

أى صوت عناق. و قال أبو مسلم: معناه ثمنها لو بيعت كثرن السماوات و الأرض لو بيعا . كما يقال عرضت هذا المتاع للبيع. و المراد بذلك عظم مقدارها، و جلالة قدرها، و انه لا يوازيها شىء و إن عظم، و هذا مליح غير أن فيه تعسفاً شديداً . فان قيل إذا كانت الجنة عرضها السماوات و الأرض فأين تكون النار؟! الجواب

أنه روى عن النبي (ص) أنه لما سئل عن ذلك، فقال : «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل » و هذه معارضة فيها إسقاط المسألة، لأن القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادر على أن يذهب بالنهار حيث شاء.

و روى أنه سئل عن ذلك ابن عباس، و غيره من الصحابة، فان قيل فان الجنة فى السماء، كيف يكون لها هذا العرض؟ قيل له يزداد فيها يوم القيامة.

ذكره أبو بكر أحمد بن على على تسليم انها فى السماء و يجوز أن تكون الجنة مخلوقة فى غير السماوات و الأرض . و فى الناس من قال: ان الجنة و النار ما خلقنا بعد و إنما يخلقهما الله على ما وصفه . و قال البلخي المراد بذلك وصفها بالسعة و العظم، كما يقول القائل فى دار واسعة هذه دنيا و غرضه بذلك وصفه لها بالكبر و قوله: «أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» معنى المتقين المطيعين لله و رسوله لاجتنابهم الم عاصى و فعلهم الطاعات.

و يجوز لاحتجازهم بالطاعة من العقوبة . و إنما أضيفت إلى المتقين، لأنهم المقصودون بها، و ان دخلها الأطفال، و المجانين، فعلى وجه التبع، و كذلك حكم الفساق لو عفى عنهم.

و فيمن تكلم فى أصول الفقه من استدل بقوله : «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ» على أن الأمر يقتضى الفور دون التراخى، لأنه تعالى أمر بالمسارعة و المبادرة إلى مغفرة و ذلك يقتضى التعجيل. و من خالف فى تلك، قال: المسارعة إلى ما يقتضى

(١) قائله ذو الخرق الطهورى أو الطهورى انظر الاختلاف فى اسمه فى المؤلف و المختلف ١١٩، و خزائن الأدب ١: ٢٠، ٢١ و نوادر أبى زيد: ١١٦، و معانى القرآن للفراء ١:

٦١-٦٢، و اللسان (ويب)، (عنق)، (عقا)، (بغم) و غيرها و هو من أبيات يقولها لذئب قد تبعه فى طريقه و العناق هى أنثى المعز. و البغام صوت الظبية أو الناقة و استعاره هنا للمعز

ص: ٥٩٣

الغفران واجبة و هى التوبة، و وجوبها على الفور. فمن أين أن جميع المأمورات كذلك.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٤]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

آية.

المعنى:

«الذين» في موضع الجر، لأنه صفة المتقين، فذكر الله صفاتهم التي تعلق بها درجاتهم منها: أنهم يتقون عذاب الله بفعل طاعته، و الانتهاء عن معصيته.

و انهم ينفقون في السراء، و الضراء و قد بينا فيما تقدم معنى الإنفاق. و قيل في معنى السراء و الضراء. قولان:

أحدهما- قال ابن عباس في اليسر، و العسر، فكأنه قال في السراء بكثرة المال، و الضراء بقلته.

الثاني- في حال السرور، و حال الاغتمام. أى لا يقطعهم شيء من ذلك عن إنفاقه في وجوه البر، فيدخل فيه اليسر و العسر . و إنما خصا بالذكر في التأويل الأول، لأن السرور بالمال يدعو إلى الظن به . كما يدعو ضيقه إلى التمسك به خوف الفقر، لانفاقه . و قوله تعالى : «وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » أى المتجرعين له، فلا ينتقمون ممن يدخل عليهم الضرر بل يصبرون على ذلك، و يتجرعونه.

اللغة:

و أصل الكظم شد رأس القربة عن ملئه ا . تقول: كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسها . و فلان كظيم و مكظوم إذا كان ممتلئاً حزناً. و منه قوله:

«وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» «١» أى ممتلئ حزناً. و كذلك إذا

(١) سورة يوسف آية: ٧٤.

ص: ٥٩٤

امتلاءً غضباً لم ينتقم، و كظم البعير، و الناقة إذا لم تجر . و الكظامة القنأة التي تجرى تحت الأرض، سميت بذلك، لامتلائها بالماء كامتلاء القربة المكظومة. و يقال:

أخذ بكظمه أى بمجرى نفسه، لأنه موضع الامتلاء بالنفس . و كظامة الميزان المسمار الذى يدور فيه اللسان، لأنه يشده و يعتمد عليه. و الفرق بين الغيظ، و الغضب أن الغضب ضد الرضا، و هو ارادة العقاب المستحق بالمعاصي، و لعنه . و ليس كذلك الغيظ، لأنه هيجان الطبع بكره ما يكون من المعاصي، و لذلك يقال غضب الله على الكفار، و لا يقال اغتاظ منهم.

المعنى:

و روى عن النبي (ص) أنه قال: (ما من جرعة يتجرعها الرجل أو الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله)

و في الآية دلالة على جواز العفو عن المعاصي و إن لم يتب، لأنها دلت على الترغيب في العفو من غير إيجاب له بإجماع المسلمين.

و قوله «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» معناه يريد اثابتهم و تعيمهم. و المحسن يحتمل أمرين:

أحدهما - من هو منع على غيره على وجه عار من وجوه القبيح . و يحتمل أن يكون مشتقاً من الافعال الحسنة التي منها الإحسان إلى الغير، و غير ذلك من وجوه الطاعات و القربات.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٥]

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

قوله: «وَالَّذِينَ» يحتمل أن يكون موضعه جراً بالعطف على المتقين،

ص: ٥٩٥

فيكون من صفتهم ما تضمنه على قول الحسن، و يحتمل أن يكون رفعاً على الاستئناف، و يكون عطف جملة على جملة، فيكون من صفة فرقة غير الأولى، و يجوز أن يرجع إلى الأولى في الموضع على المدح.

المعنى:

و قوله: «إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» يحتمل أن يكون أراد غير الظلم، و لذلك عطف عليه بقوله : «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» حتى لا يكون تكراراً. و قال الرماني : أراد بالفاحشة الكبيرة، و ب «ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» الصغيرة. و قال مجاهد : هما ذنبان و أصل الفاحشة الفحش، و هو الخروج إلى عظم القبح في العقل أو رأى العين فيه.

و كذلك قيل للطويل المفرط أنه الفاحش الطول، و أفحش فلان في كلامه إذا أفصح بذكر الفحش . و قال جابر و السدي : الفاحشة هاهنا: الزنا أو ما جرى مجراه من الكبير. و قوله: «ذَكَرُوا اللَّهَ» في معناه قولان:

أحدهما- ذكروا وعيد الله، فيكون من الذكر بعد النسيان . و المدح على أنهم تعرضوا للذكر.

و الآخر- انهم ذكروا الله بأن قالوا: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، فانا تبنا، نادمين عليها مقلعين عنها و قال ابن مسعود، و عطا ابن أبي رباح: كانت بنو إسرائيل إذا أذنب الواحد منهم ذنباً أصبح مكتوباً على بابه كفارة ذنبك اجدع اذنك اجدع انفك، فسهل الله ذلك على هذه الأمة بأن جعل توبتها الاستغفار بدلا منه منه تعالى . و قوله: «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» الرفع محمول على المعنى. و تقديره: و هل يغفر الذنوب إلا الله أو هل رأى أحد يغفر الذنوب إلا الله .

فان قيل: كيف قال: «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» و قد يغفر بعضنا لبعض إساءته إليه؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما- أنه أراد بذلك غفران الكبائر العظام، لأن الإساءة من بعضنا لبعض صغيرة بالاضافة إلى ما يستحق من جهته.

ص: ٥٩٦

و الثانى- أنه لا يغفر الذنب الذى يستحق عليه العقاب إلا الله تعالى.

و قوله: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا» فالإصرار هو المقام على الذنب من غير إقلاع منه بالتوبة فى قول قتادة و قال الحسن : هو فعل الذنب من غير توبة و الأول أقوى، لأنه تقيض التوبة . و أصله الشد من الصرة و الصر شدة البرد، و الإصرار إنما هو ارتباط الذنب بالاقامة عليه. و ما قاله الحسن هو فى حكم الإصرار.

و قوله: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» هاهنا يحتمل أمرين:

أحدهما- و هم يعلمون الخطيئة ذاكرين لها غير ساهين، و لا ناسين. قال الجبائى، و الله عز و جل يغفر للعبث ما نسيه من ذنوبه، و ان لم يتب منه بعينه، كما يغفر له ما تاب منه، لأنه قد فعل فى حال النسيان جميع ما عليه.

و الثانى- و هم يعلمون الحجة فى أنها خطيئة . و أما من اجتهد فى الأحكام فأخطأ على مذهب من يقول بالاجتهاد، فلا اثم عليه، و كذلك من تزوج بذات محرم من الرضاع أو النسب و هو لا يعلم، أو غير ذلك، فلا اثم عليه بلا خلاف لأنه لم يعلم ذلك، فاقدّم عليه، و لا يلزم على ذلك أن يكون الكافر معذوراً بكفره إذا لم يعلمه قبيحاً، لأن الكافر له طريق إلى العلم به، و كذلك نقول: إن من أسلم فى دار الحرب، و خرج فاستحل فى طريقه الخمر ر أو لحم الخنزير قبل أن يعلم تحريمها من الشرع، فلا اثم عليه، لأنه فى تلك الحال لا طريق له إلى العلم بقبحه.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٦]

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)

آية واحدة.

قوله: «أولئك» اشارة إلى من تقدم وصفهم من المتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء، و يكظمون الغيظ، و يعفون عن الناس، «و إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»، فقال هؤلاء: «لَهُمْ جَنَّاتُ

ص: ٥٩٧

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» و قد مضى تفسير ذلك أجمع فيما مضى ثم قال «و نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» يعنى ما وصفه من الجنات و أنواع الثواب، و المغفرة بستر الذنب حتى تصير كأنها لم تعمل فى زوال العار بها و العقوبة بها، و الله تعالى متفضل بذلك لأننا بينا أن إسقاط العذاب «١» عند التوبة تفضل منه تعالى، فأما استحقاق الثواب بالتوبة فواجب عقلا لا محالة، لأن نه لو لم يكن مستحقاً لذلك لقبح تكليفه التوبة لما فيها من المشقة و الكلفة.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٧]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)
آية.

المعنى:

معنى قوله: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» أى سنن من الله تعالى فى الأمم السالفة إذ «٢» كذبوا رسله و جحدوا نبوتهم بالاستئصال، و الاجتياح، كعاد، و ثمود، و قوم صالح، و قوم لوط الذين أهلكهم الله بأنواع العذاب من الاستئصال «٣» فبقيت لهم آثار فى الديار فيها أعظم الاعتبار و الاعتاض - على قول الحسن، و ابن إسحاق - فأمر الله أن يسيروا فى الأرض، و يتعرفوا أخبارهم، و ما نزل بهم ليتعظوا بذلك، و ينتهوا عن مثل ما فعلوه. و قال الزجاج:

معناه «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ» أهل «سنن» فى الشر.

اللغة و المعنى:

و السنة: الطريقة المفعولة ليقندى بها، فمن ذلك سنة رسول الله (ص).

(١) فى المخطوطة (أ): العقاب.

(٢) فى المطبوعة و مخطوطة (أ): (إذا).

(٣) فى المخطوطة (أ) ساقط سطر من هذا الموضع

(٤) فى المطبوعة (و بقيت).

ص: ٥٩٨

و قال لبيد:

من معشر سنت لهم آباؤهم
و لكل قوم سنة و إمامها¹»

و قال سليمان بن قتة: «٢»

و إن الألى بالطف من آل هاشم
تأسوا فسنوا للكرام التأسيا³»

سنة الله عز و جل الإهلاك للأمم الضالة بهذه المنزلة. و أصل السنة الاستمرار فى جهة. سن الماء سناً: إذا صبه حتى يفيض من الإناء. و سنه بالمسن إذا أمره عليه لتحديده . و فلان مسنون الوجه أى مستطيله . و قوله: «مِنْ حَمًا مَسْنُونٍ» قيل معناه متغير، لاستمرار الزمان به حتى تغير . و منه السن واحد الأسنان، لاستمرارها على منهاج . و السنان، لاستمرار الطعن به . و السنن استمرار الطريق.

و الخلو: الانفراد، فمنه الخلاء، لانفراد المكان . و منه التخليئة لانفراد الشئ بها عن صاحبه . و منه الخليئة من النوق التى خلا ولدها بذبح أو موت، لانفرادها عنه.

و الخليئة من السفن التى تخلى تسير فى نفسها . و منه الخلا مقصور: الحشيش اختليته إذا قطعتة، لانفراده بالقطع. و منه المخلاة. و من ذلك المخالاة المخادعة، لانفراد صاحبها بمن يخاليه يوهمه التخصص به، فمعنى «خلت» انفردت بالهلاك دون من بقى . و قوله: «فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ» فالعاقبة هو ما يؤدى إليها السبب المتقدم، و ليس كذلك الآخرة، لأنه قد كان يمكن أن تجعل هى الأولى فى العدة للمكذبين يريد به الجاحدين البعث، و النشور، و الثواب، و العقاب الدافعين لمن يخبر بذلك بالرد بالتكذيب، فجازاهم الله تعالى فى الدنيا بعذاب الاستئصال، و لهم فى الآخرة عظيم النكال.

(١) البيت من معلقته الشهيرة الهارعة يذكر بها قومه و فضلهم . يقول: هذه الصفات الحميدة- التى تقدم وصفها- هى سنة آباؤهم

...

(٢) (قته) أمه و هو مولى لتيم قريش، و هو من التابعين. و زعم بعضهم أنه (سليمان ابن ضبيب المحارمي) و هو خطأ.

(٣) تاريخ الطبرى ٧: ١٨٤، و انساب الاشراف ٥: ٣٣٩ و أملى الشجرى ١: ١٣١، و اللسان (أسى) و غيرها. و هذا البيت أنشده مصعب بن الزبير قبل مقتله.

ص: ٥٩٩

و قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): آية ١٣٨]

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

آية اجماعاً.

قال الحسن و قتادة: قوله: «هذا» إشارة إلى القرآن، و وصفه بأنه بيان، لأنه دلالة للناس، و حجة لهم، و البيان هو الدلالة. و قال ابن إسحاق هو إشارة إلى ما تقدم ذكره فى قوله: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...» الآية أى هذا الذى عرفتمكم بيان للناس، و هو اختيار البلخى، و الطبرى. و الفرق بين البيان، و الهدى - على ما قاله الرماني - أن البيان إظهار المعنى للنفس كائنا ما كان. و الهدى: بيان لطريق الرشد، ليسلك دون طريق الغى. و الموعظة ما يلين القلب و يدعو إلى التمسك، بما فيه من الزجر عن القبيح، و الدعاء إلى الجميل. و قيل الموعظة: هو ما يدعو «١» بالرغبة، و الرهبة إلى الحسنة بدلا من السيئة. و الهدى المذكور فى الآية يحتمل معنيين:

أحدهما - أن يكون عبارة عن اللطف الذى يدعو إلى فعل الطاعة بدلا من المعصية، لأنه بمنزلة الإرشاد.

و الآخر - الدلالة على طريق الرشد. و إنما أضيف إلى المتقين، و ان كان هدى لجميع المكلفين، لأنهم المنتفعون به دون غيرهم. و لا يجوز ان يقال: القرآن هدى و موعظة للفاجرين إلا بتفسير و بيان، لأن فى «٢» ذلك إيهاماً، لاتنفعهم به فان قيد بأنه دلالة لهم وداع لهم إلى فعل الطاعة، و ذكر ما يزيل الإيهام كان جائزاً. و ينبغى أن يتبع فى ذلك ما ورد به القرآن.

قوله تعالى: [سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)

(١) فى المخطوطة أ (بالموعظة ما يدعو) بإسقاط هو

(٢) فى المخطوطة (أ) لأن ذلك بإسقاط فى.

ص: ٦٠٠

آيتان.

القراءة، و اللغة:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً (قرح) بضم القاف. الباكون بفتحها. و الفرق بينهما أن القرح - بفتح القاف - الجراح، و القرح - بالضم - ألم الجراح على قول أكثر المفسرين. و قيل هما لغتان.

المعنى، و النزول:

و قال ابن عباس، و الحسن، و الربيع : القرح ما أصاب المسلمين يوم أحد و أصاب المشركين يوم بدر . و قال الزهري، و قتادة، و ابن أبي نجيح: هذه الآية نزلت تسلياً للمسلمين لما نالهم يوم أحد من القتل، و الجراح، و كان سبب نزول الآية ما قدمنا ذكره من أن الله تعالى أراد أن يرعب الكفار، فأمر المسلمين أن يتبعوا المشركين على ما بهم من الجراح، و الألم و حثهم على ذلك و نهاهم عن الوهن و الحزن، و وعدهم بأنهم الأعلون إن تمسكوا بالايمان، لأن المشركين كانوا بالعود إلى المدينة، و الغارة فيها، فلما بلغهم عزيمة المسلمين على تتبعهم خافوهم .

و قال بعضهم لبعض يوشك أن يكون انضم إليهم من كان قعد عنهم، و أعانهم أحلافهم من بنى قريظة، و النضير ففسدوا نعيم بن مسعود الأشجعي و بذلوا له عشر قلائص على أن يثبط المسلمين عن تتبعهم، و يقول: إنهم تجمعوا و انضم إليهم حلفاؤهم، و هم يريدونكم و لا طاقة لكم بهم، و أسرعوا المسير إلى مكة فأوحى الله بذلك إلى النبي (ص) و أعلمه ما قالوا لنعيم، فلما قال لهم ما قال، قال المسلمون:

«حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ» و فيهم نزلت الآية «١»

(١) في المخطوطة (أ) بزيادة: و هي قوله تعالى.

ص: ٦٠١

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) إلى قوله: «وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» «١» و ما بعده . و إنما قال : «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» مع أنهم كانوا مؤمنين للبيان عن ان الايمان يوجب تلك الحال، و تقديره إن من كان مؤمناً يجب عليه ألا يهن و لا يحزن، لتقته بالله.

و يحتمل أيضاً أن يكون معناه إن كنتم مصدقين بوعدى لكم بنصرتى إياكم حتى تستعلوا على عدوكم، و تظفروا بهم.

اللغة، و الاعراب، و المعرى:

و الوهن الضعف، وهن يهن وهنا، فهو واهن : إذا ضعف. و أوهنه يوهنه ايهاناً. و توهن توهناً، و وهنه توهيناً . و الوهن: ساعة تمضى من الليل. و الواهن عرق مستبطن حبل العاتق إلى الكتف.

و قوله: «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» جملة في موضع الحال، كأنه قال لا تحزنوا عالين أى منصورين على عدوكم، و يحتمل أن لا يكون لها موضع من الاعراب، لأنها اعتراض بوعده مؤكداً، و تقديره «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا» «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «وَأَنْتُمْ» مع ذلك «الأعلون».

و أصل الأعلون الأعلون، فحذفت احدى الواوين استقلالا، و هى الاصلية و بقى واو الجمع، لأنها لمعنى . فأما فى التنبيه فتقول: أتتما الاعليان، فتقلب الواو ياء، و لا تحذفها، لأنه ليس هناك ضرورة.

و قوله: «ان يمسسكم» فالمس هو اللمس بعينه، و قيل الفرق بينهما أن اللمس لصوق باحساس و المس لصوق فقط «٢» و قال ابن عباس: معناه إن يصبكم «٣».

و قوله: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» قال الحسن، و قتادة، و الربيع، و السدى، و ابن إسحاق : يصرفها مرة لفرقة، و مرة عليها، و الدولة: الكرة

(١) سورة آل عمران آية: ١٧٣.

(٢) فى المطبوعة الواو ساقطة.

(٣) فى المخطوطة أن التهكم.

ص: ٦٠٢

لفرقة بنيل المحبة. و أدال الله فلاناً من فلان: إذا جعل الكرة له «١» عليه. و قال الحجاج: إن الأرض ستدال منا كما ادلنا منها، «و نداولها» إنما هو بتخفيف المحنة تارة و تشديدها أخرى بدليل «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» و لو كانت المداولة بالنصر لا محالة، للمؤمنين تارة و للكافرين تارة، لكان محبهم من حيث هو ناصر لهم، و العامل فى قوله، و ليعلم الله يحتمل أمرين:

أحدهما- ان يكون محذوفاً يدل عليه أول الكلام، و تقديره و ليعلم الله الذين آمنوا نداولها.

الثانى - أن يعمل فيه «نداولها» الذى فى اللفظ، و تقديره نداولها بين الناس لضروب من التدبير «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» و خبر ليعلم يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون محذوفاً و تقديره «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» متميزين بالايمن من غيرهم، و لا يكون على هذا يعلم بمعنى يعرف، لأنه ليس المعنى على تعرف الذوات بل المعنى على أن يعلم تميزها بالايمن.

و الثاني - «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أى يعاملهم معاملة من يريد أن يعرفهم الله بهذه الحال. و قال أبو على: معناه و ليصبروا فعبر عن الصبر بالعلم. و قال البلخي «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ» ايمانكم موجوداً أى تفعلونها، فيعلمه الله كذلك. و معنى قوله: «وَلْيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» فيه قولان:

أحدهما - قال الحسن، و قتادة، و ابن إسحاق، ليكرم بالشهادة من قتل يوم أحد.

الثاني - و يتخذ منكم شهداء على الناس بما يكون منهم من العصيان، لما لكم فيه من التعظيم، و التبجيل - هذا قول البلخي و الجبائي - و الأول أقوى لأنه فى ذكر القتل، فان قيل لم جعل الله مداولة الأيام بين الناس، و هلا كانت ابدأ لأولياء الله دون أعدائه؟ قلنا ذلك تابع للمصلحة، و ما تقتضيه الحكمة أن يكونوا تارة فى

(١) فى المخطوطة (الحكم له).

ص: ٦٠٣

شدة و تارة فى رخاء فيكون ذلك داعياً لهم إلى فعل الطاعة، و احتقار الدنيا الفانية المنتقلة من قوم إلى قوم حتى يصير الغنى فقيراً، و الفقير غنياً، و النبيه خاملاً، و الخامل نبياً، فتقل حينئذ الرغبة فيها و الحرص على جمعها، و يقوى الحرص على غيرها مما نعيمه دائم، و سروره غير منقطع . و قوله: «وَلِلَّهِ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» «١» معناه لا يريد منافعهم، و على مذهبنا ينبغى أن يكون ذلك مخصوصاً بالكفار، لأنهم إذا كانوا مؤمنين، فلهم ثواب . و الله تعالى لا بد أن يريد فعل ذلك بهم و يحتمل أن يكون المراد بذلك «لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» إذا كانوا مؤمنين محبة خالصة لا يشوبها إرادة عقابهم، لأن ذلك يختص من لا عقاب عليه.

انتهى المجلد الثانى و يليه المجلد الثالث و أوله:

(وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...) (١٤١)

(١) و قوله ساقطة من المطبوعة.